تاريخ حلب الطبيعي

في القرن الثامن عشر



الأخوين
ألكسندر وباتريك راسل

ترجمة
خالد الجبيلي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





تاريخ حلب الطبيعي

في القرن الثامن عشر

الأعمال الفنية والإشراف

عمر عادل قطاع

خطوط

عبد الله حسن

تاريخ حلب الطبيعي

للأخوين
الكسندر وباتريك راسل

ترجمة
خالد الجبيلي

* تاريخ حلب الطبيعي
* الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧
* جميع الحقوق محفوظة للمترجم
* العنوان الأصلي للكتاب باللغة الإنكليزية

The Natural History of Aleppo
containing
A Description of the City, and the Principal Natural Productions in its Neighbourhood
Together with
An Account of the climate, Inhabitants and Diseases, Particularly of the Plague
By Alex Russel M.D.

The Second Edition
Revised, Enlarged and Illustrated with Notes
By Pat. Russel, M.D. & F.R.S.

Printed in London in 1794

الإهداء

إلى روح والدتي رئيفة التي ربّتني وأحسنت تربيتي .

إلى روح والدي الأستاذ الجليل أحمد الجبيلي الذي أدبني وأحسن تأديبي وتعليمي وشجعني على أن أكون "أنا".

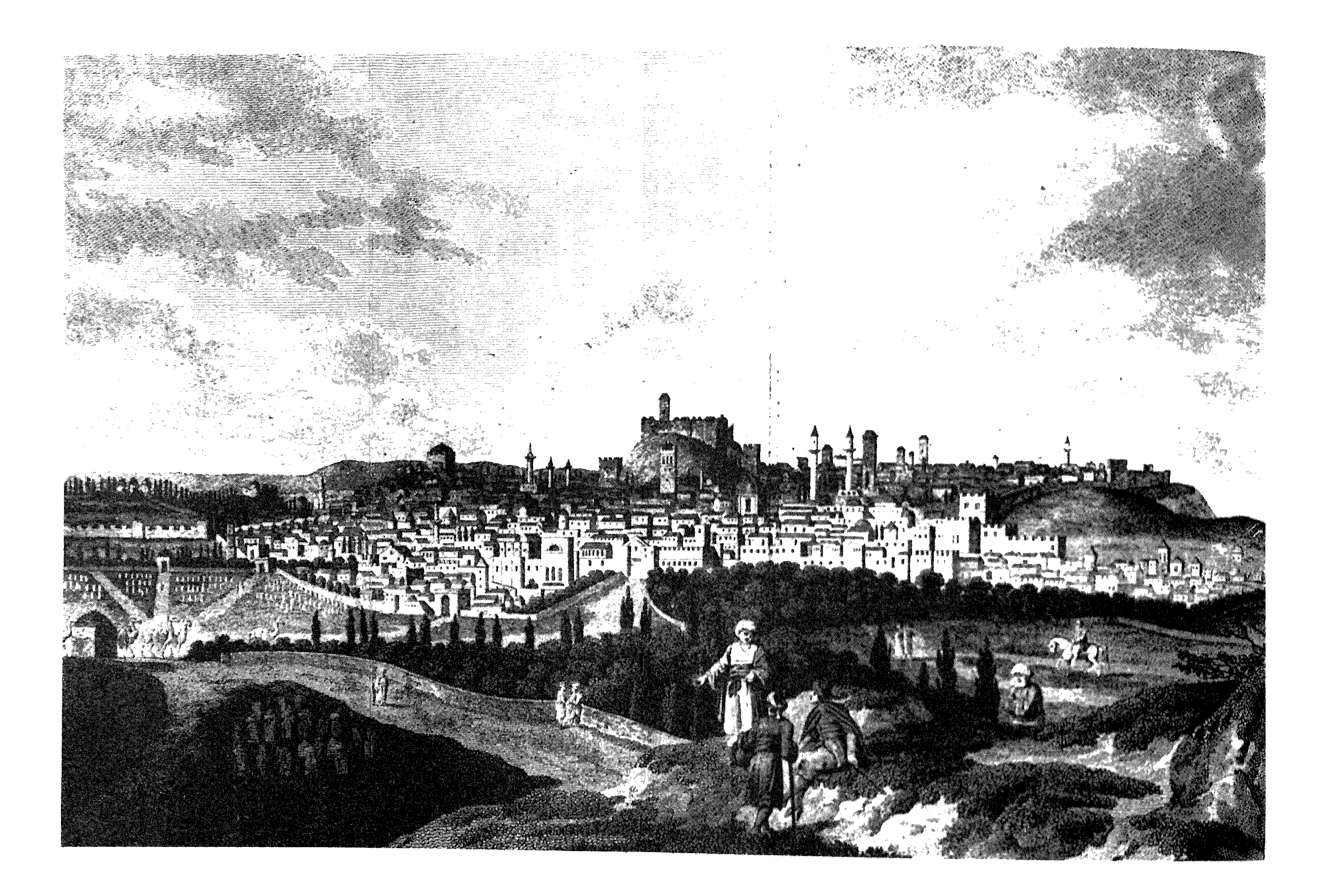
إلى زوجتي عبير التي بصبرها وتحملها جعلت هذا العمل وأعمالاً أخرى ممكناً .

إلى ولديّ شريف ورامي اللذين أتمنى لهما مستقبلاً مشرقاً .

خالد

صورة الغلاف: لوحة بالرسم المائي للفنان الفرنسي فرانسوا روسيه (Francois Rosset) (١٧٥٢-١٨٢٤)

منظر عام لمدينة حلب في منتصف القرن الثامن عشر ←







حول هذا الكتاب

الدكتور عبد الرحمن دركزللي

مدرّس في كلية الآداب، جامعة حلب

يُعرِض كثير من الناس عن قراءة أعمال الأجانب، سواء أكانوا مستشرقين أم رحّالة أم دارسين، لأسباب عدّة، منها أن كتاباتهم تنطوي على حقد دفين تجاه العروبة والإسلام فهي امتداد لنزعة الكراهية التي كانت سائدة زمن الحروب الصليبيّة، ومنها أن هذه الكتابات طافحة بمشاعر الغرور والاستعلاء، فالأجانب كانوا – ومازالوا – ينظرون إلى الشرق على أنه متخلّف متأخّر ناسين – أو متناسين – فضله على حضارتهم. ومنها أيضاً أن كتاباتهم جاءت أصلاً لأغراض استعمارية محضة، وما هي عند الفحص والتمحيص–إلا تقارير سياسية كُلّف أشخاص معيّنون بكتابتها لكي تقدّم إلى دوائر المخابرات بغية الاستفادة منها عند شنّ الحملات وتسيير الجيوش واغتصاب خيرات الشرق. ومنها أيضاً أن هذه الكتابات، وإن اتخذت سمة الأمانة والموضوعية، تنطوي على معلومات كاذبة وآراء خبيثة غايتها تضليل الرأي العامّ وإعطاؤه انطباعاً مشوّهاً عن واقع أهل المشرق، وبذلك يكون الغرب قد ادّعى لنفسه الرقيّ والتحضّر، خلافاً لما عليه أهل الشرق من جهل عميق وبُعد عن أسباب الحضارة.

على أن مثل هذه الأسباب التي أوردناها لاينبغي – في رأينا – أن تحول دون إطلاعنا على هذه الكتابات، لأن إهمالنا لها وانصرافنا عنها خسران مبين وغفلة لا تُغتفر. ولست أبالغ إذا قلت إن اطلاعنا عليها واجب وطني وقومي، فنحن بالاطلاع عليها نتعرّف إلى حقيقتنا كما تلوح في عيون الغربيين، بل نرى وجوهنا كما تنعكس على مراياهم، وفي ذلك فائدة كبيرة لنا ذلك أنّ الإنسان – حين يطّلع على صورته في عيون الآخرين – يقف على عيوبه ومساوئه فيتجاوزها، ويقف على حسناته وفضائله فيعتزّ بها. ثم إن دراسة هذه الكتابات تمكننا من معرفة الأساليب التي يستخدمونها في الهجوم علينا. فهم يرموننا بالجهالة والتخلف، وينعتوننا بالجفاء والانفعالية، ويتهموننا بالتهتك والخلاعة والبهيمّة ولايكتفون بهذا كله بل يعمدون إلى تراثنا وتاريخنا فيستخرجون منهما حججاً وأدلة واهية ليؤكدّوا مايدّعون ويبرهنوا على مايقولون. ولعلّ تصدّينا لهم ووقوفنا على افترائهم وتخرّصهم يحفزنا إلى الدفاع عن أنفسنا وإلى محو الصورة المشوّهة التي قدموها لشعوب العالم عنا. وإذاً فالاطلاع على هذه الكتب واجب مقدّس، وليس من باب الترف والفضول كما يرى بعض الناس.

إنه من المؤسف حقاً أن يصدر كتاب قيّم ككتاب *تاريخ حلب الطبيعي* وتسمع به

الدنيا قبل مئتي سنة، يتحدث عنا، ونحن – في الوقت نفسه – لانعلم بوجوده ولانعرف عنه شيئاً علماً بأنه من أهم المؤلفات التي كتبت عن مدينة حلب ولابدّ لنا – ها هنا – من الإشارة إلى أن إعراضنا عن هذا النوع من الكتب ليس ناجماً عن الأسباب التي أوردناها آنفاً فحسب بل لسبب آخر، ولعله أهم من تلك الأسباب، ألا وهو أن معظم المثقفين في بلادنا لايقرؤون كما أن أكثرهم أميّون لا معرفة لهم ولو بلغة أجنبية واحدة. إن الاعتراف بالحقيقة مؤلم جداً، ولكنه – في الوقت نفسه – فضيلة أيضاً.

وترجع أهمية كتاب *تاريخ حلب الطبيعي* للأخوين رسل – في رأينا – إلى جملة من الأسباب. منها أن الكتاب ليس تاريخاً جامداً أو ساكناً للمدينة (يسجل أحداثها السياسية ويترجم لأعلامها) وإنما هو وصف حيّ ورصد دقيق لجوانبها المختلفة في عقدين من الزمان. ولكن هذا الوصف نابض بالحياة زاخر بالحركة مليء بالأحداث وقارئ الكتاب يشعر على الفور بهذا الأمر، فهو يأخذ بيده ويمضي به إلى شوارع حلب وأزقتها وحاراتها وخاناتها وبساتينها ومساجدها ثم يقتحم به بيوتها ويسمعه أصوات رجالها وزغاريد نسائها ولايكتفي بذلك حتى يجعله يرى أثاث بيوتها وأزياء أهلها ومظاهر جمالها، أو يشم روائح العطور والتوابل والمآكل ثم يعود به إلى الشوارع ليسمع أصوات البائعين والأطفال. وإذاً فالقارىء يعيش ويحيا ويحس قبل أن يغذي عقله بالمعلومات والحقائق.

ومنها أن الكتاب يسدّ فجوة واسعة من فجوات التاريخ الطويل لهذه المدينة العريقة يقدم لنا حلب في القرن الثامن عشر (يوم كانت مدينة بارزة في الشرق تأتي بعد الآستانة والقاهرة في الأهمية والمنزلة ويوم كان تعداد سكانها يبلغ ثلاثمئة ألف نسمة). وهذه الفترة يكتنفها الغموض ويسودها الإظلام، ولئن كانت موسوعة حلب للعلامة خير الدين الأسدي قد أنقذت تراث حلب عند أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن فإن *تاريخ حلب الطبيعي* هو الكتاب الذي بعث حلب القرن الثامن عشر من ربقة العدم، وحفظها لنا من الضياع، وقدّمها لنا موّارة بالحركة نابضة بالحياة.

ومنها أيضاً أن الكتاب مكتوب بأسلوب علمي رصين يعبّر عن عقلية علمية مدرّبة فهو غنيّ بالإحصاءات والبيانات والأرقام وهذا مانراه اليوم في أحدث الكتب وأكثرها توخّياً للدقة والموضوعية (راجع على سبيل المثال الفصل الثاني من الكتاب الخامس وهو الفصل المتعلق بالطقس). إن هذا التنظيم البديع والترتيب المنقطع النظير ليدل على أن صاحبه رجل أكاديمي من الطراز الأول. فهو يقدّم للقارئ جداول عن أحوال الجو والمُناخ في حلب تسجل تقلبات الجو بالسنوات والشهور والساعات مع ذكر درجات الحرارة، وكل ذلك يجري على نحو يبعث على الدهش ويحمل على الإعجاب بتلك الجهود الجبارة المضنية (وراجع أيضاً الجداول الإحصائية للوفيات الناجمة عن الإصابة بالطاعون في الفصل الثاني من الكتاب السادس) ففيه ما يستوجب الثناء ويستحق التقدير، ومما لاريب فيه أن هذه المعلومات التي اشتمل عليها الكتاب ستكون مصدراً هاماً من مصادر المعرفة للباحثين والدارسين ولسوف يفيدون منها كثيراً وينتفعون بها

إذ إنهم لن يجدوا مثلها أبداً كنزاً محفوظاً بمثل هذه الأمانة وهذه الدقة.

ومنها أيضاً تلك اللوحات (الرسوم) التي ازدان بها الكتاب وهي تصور أهالي حلب ومجالسهم وبيوتهم وملابسهم وفرشهم وأدوات طربهم وأزياء نسائهم وطرز عمائمهم وقسمات وجوههم فضلاً عن تصويرها لرجال الدولة وأصحاب الشأن ... الخ إنها صور نفيسة نادرة لانجد لها مثيلاً أو نظيراً في كتب أخرى.

ولابد أيضاً من الإشارة إلى المعلومات الطبية الهامة التي اشتمل عليها كتاب الأخوين رسل. فهي على قدر عظيم من الخطورة (راجع الفصل الأول من الكتاب السادس وهو الفصل المتعلق بالطاعون في حلب) فهناك دراسة مفصّلة مستفيضة لأهم الأوبئة والأمراض التي انتشرت في حلب كالطاعون وحبّة حلب وسواهما وهو لايكتفي بالحديث عن الأعراض والأسباب وطرق الوقاية وأسباب الشفاء وأساليب المعالجة، بل يرجع إلى المصادر التاريخية، ويقدم للقارئ معلومات إحصائية، وفي كثير من الأحيان يقوم المؤلف بانتقاد الأساليب الخاطئة في المعالجة ويروي جانباً من حماقات الأطباء وطرفاً من الخرافات التي ينادي بها المشعوذون .. إنه بذلك يُسدي إلى المهتمين بتاريخ الطب جميلاً يجلّ عن الوصف وخدمةً ستُذكر دائماً بالشكر والعرفان.

ولكتاب الأخوين رسل مزايا رائعة قلما عثرنا عليها في كتاب سطّرته يد أجنبية وهي ثلاث مزايا تستأهل التقدير وتستحق الثناء. أولاها الشمولية مع التدقيق، فالكتاب بأقسامه الستة يغطي كل نواحي الحياة وجوانبها ابتداء بالبيئة ومروراً بالسكان والعادات والتقاليد والديانات والأجناس والحيوانات والنباتات وانتهاء بالأمور الطبية. على أنه لايُغفل مطلقاً الخوض في الجزئيات والإشارة إلى الفروق القائمة بين الطبقات والطوائف. ومن الأمثلة على ذلك ملاحظته للفرق بين مطاعم المسيحيين والمسلمين:

'وبشكل عام يتناول المسيحيون طعامهم كما يفعل المسلمون إلا أنهم لايتناولون كثيراً الحساء والأرز المطبوخ، بل يتناولون البرغل أكثر من الأرز، ويستخدمون غالباً في طهيهم الزيت على حين يستخدم المسلمون السمن'

وأما عن الفروق في الملابس فيقول :

'تختلف العمامة التي يرتديها المسيحيون قليلاً عن تلك التي يرتديها المسلمون، والشاش فيها أزرق مخطط بالأبيض، والخفّ الذي يرتدونه أحمر اللون، وعندما يخرجون تكون ثيابهم أكثر بساطة'.

وهو يسجل أدق التفصيلات وأبسط التحولات لدى مختلف الفئات من سكان حلب:

'لاتجلس النساء المسيحيات على المائدة مع أزواجهن بل يقمن على خدمتهم بنفس الطريقة المذكورة في فصل الحرملك. وقد أخذ مؤخراً بعضهم، ولاسيما الموارنة يُقلع عن هذه العادة. أخذوا يستخدمون الموائد والكراسي والخدمة على الطريقة الأوروبية، ولم يكتفوا بجعل النساء تجلس معهم على المائدة فحسب، بل راحوا يسمحون لهن في بعض الأحيان بالظهور أمام الأوروبيين ممن يستضيفونهم في منازلهم'.

وعند تناوله لليهود في حلب يعقد مقارنة بينهم وبين أصحاب الديانات الأخرى، بل بين طبقات المجتمع اليهودي نفسه :

'يمكن تمييز اليهود بسهولة من حذائهم البنفسجي اللون ومن عمائمهم بالإضافة إلى ملامحهم الخاصة بهم كشعب، كما أن عمائمهم أوطأ قليلاً من عمائم المسلمين، أما الشاش المخطط فهو نفسه تقريباً، وقد يضعون شاشاً من ألوان أخرى. وقبل عام ١٦٠٠ كان اليهود يرتدون قبعات حمراً لا حافات لها بيد أنّ الصدر الأعظم لم يعجبه أن يرتدوا اللون الأحمر في ذلك الوقت فأكرههم على وضع قبعات زرق. والمقصود بالقبعات هنا العمائم'.

وكما أسلفنا فهو يميّز ويفرّق بين الطبقات التي يشتمل عليها الدين الواحد:

'يُعد أفراد الطبقة الدنيا من اليهود أكثر الناس قذارةً وأسوأهم هنداماً، لذلك فلا شيء أفضل من أن يفرض عليهم تنظيف بيوتهم وغسل أجسادهم مرةً في الأسبوع على الأقل ويمكن عدّ بعض نسائهم في غاية الجمال بيد أن نسبتهن أقل من بقية الديانات، ويختلف غطاء الرأس عندهن عنه لدى السيدات المسلمات والمسيحيات، ففي معظم الأحيان يكون مرصّعاً باللآلئ ... ولايوجد شيء خاص يميزهن سوى أن حذاءهن أو خُفّهن بنفسجي اللون، ولون حجابهنّ أبيض'.

أما المزّية الثانية فهي سداد المنهج، فالمؤلف يبدأ كتابه بتقديم البنية التحتية للمجتمع (البيئة، الزراعة، الصناعة..) ثم يتحدث عن السكان من الناحية الاجتماعية والدينية وبعد ذلك يتكلم على السكان الطارئين على حلب من بدو وأكراد وتركمان ورشوان وجنكنا وأوربيين، ثم ينقلب بعد ذلك إلى دراسة جوانب أخرى كالحيوانات والنباتات والمُناخ والأمراض ومما يُحمد له (ولأخيه خاصّة) أنه اعتمد في تأليف كتابه وتكوين مادته على عدة أمور منها التجربة الشخصية، ولعل من أطرف ما جاء في الكتاب حديثه عن الطبيب إذا دخل إلى الحرملك :

'عندما يدخل الطبيب الحجرة تكون المريضة مغطاة بحجاب غير محكم الربط، ولما كان جس النبض من الأمور الشعبية الشائعة فإن الطبيب لايكاد يجلس حتى تمدّ له المريضة رسغها العاري كي يفحصه، ثم إنها تشرح له ما ينتابها وإذا لزم الأمر قام بفحص لسانها لذلك ترفع الحجاب وتحرص المساعدات على إبقاء باقي الوجه مغطىً بعناية ولاسيما قمة الرأس، ولاتتردد النسوة في الكشف عن رقابهن أو صدورهن أو بطونهن.... وحسب تقديري للأمور ونتيجة لزياراتي الطبية يبدو لي أن تغطية الرأس تعدّ أكثر أهمية من تغطية الوجه'.

وقد عقد المؤلف صداقات حميمة مع علية القوم، لذلك استطاع أن ينفذ إلى أعماق المجتمع الحلبيّ ويطّلع على أخفى أسراره :

'ولاتُعد القراءة من هوايات المرأة على أنني وجدت بعض الاستثناءات لهذه القاعدة، فقد أحرزت ابنة الوزير الراحل رجب باشا (كما أكد هو لي) تقدماً في الأدب العربي وأراني مخطوطة مكتوبة بيدها في غاية الجمال'.

وقد ساعده هذا القرب من أهالي حلب على الحصول على معلومات في منتهى الدقة ولعل وصفه لليلة الزفاف وما يتخللها من أمور خير دليل على ذلك.

'وما إن يصل العريس عند أسفل الدرج حتى تظهر العروس المغطاة بحجاب الشاش تساعدها قريباتها عند أعلى الدرج وهي ترتدي ثوب زفافها، ويكون شعرها مضفوراً بالزهور والشرائط ... وتتظاهر المرافقات بإعاقة تقدم كلّ من الطرفين، إذ تلحّ مرافقات العريس على أنه يتعين على العروس أن تنزل الدرج لتستقبل زوجها، بينما تطالب النسوة الأخريات المرافقات لها بأن يصعد هو إليها، وسرعان ما

يتوصل الطرفان إلى حلّ وسط، فيتقابلان عند منتصف الدرج'.

ولم يقتصر الأخوان رسل في جمع المعلومات على التجربة الشخصية والروايات الشفوية، بل رجعا إلى كثير من مؤلفات الرحالة الأوروبيين فاستخرجا منها معلومات هامة، وقد وردت في الكتاب إشارات إلى أكثر من ثلاثين رحالة ومؤرخاً، لعل أبرزهم : بليني Pliny وغالينوس Galen وراوولف Rauwolff وموريسون Moryson والليدي ماري ورتلي Lady Mary Wortley على أنه اعتمد بغزارة على دارفيو D'Arvieux من خلال مذكراته التي كتبها وسواهم.

ومن الجدير بالذكر أن الأخوين رسل (ولاسيما باتريك) لم يسلّما بكل ما جاء في كتب أولئك الرحّالة بل عمدا إلى نقد الكثير من المعلومات التي أوردوها. وهذا يدل على رغبة في تحري الحق وتوخي الصواب والتزام الأمانة العلمية، كما لابد من التنويه بأن أسلوب الكتاب يمتاز بالرصانة والنزعة الجادة، فليس فيه مبالغات أو تهويمات في الخيال أو تحليقات في رحاب الوهم.

ومما يحمد للمؤلفين أنهما اعتمدا على المصادر الإسلامية كالقرآن الكريم والسنّة النبوية وبعض المؤلفات العربية وهذا دليل آخر على الروح العلمية التي كانا يتحلّيان بها.

أما المزيّة الثالثة للكتاب فهي الإنصاف، ولعمري إن هذه المزية من أبرز الأمور في هذا الكتاب وهي أمر افتقر إليه الكثيرون ممنّ ألفوا عن الشرق. وآية هذا أن مؤلف الكتاب تحلّى بروح التسامح وتجرّد عن الهوى ونفض صدره من الغل والحقد وعمد إلى قول الحق، وإليك بعض العبارات التي تؤكد ما نقوله :

'تعدّ الزكاة أحد أركان العقيدة الإسلامية، ورغم ورودها في القرآن وعدم تنفيذها بحذافيرها فإن المسلمين يعدّون بحق قوماً يحبّون الخير، وتعد الجوامع والعدد الكبير من السُبُل على جانبي الطريق وعند الخانات والجسور أمثلة واضحةً على هذا الروح الخيّر'.

إن هذه العبارات تكذيب لكل من رمى أهل الشرق بالشحّ أو القذارة أو الظلم أو النزعة الجنسية البهيمية. لقد كان مؤلفا الكتاب يدافعان عن الحق ويعترفان بأن ذويهم الغربيين تجاوزوا الحد في إبراز سخطهم على أهل الشرق وحقدهم على الإسلام.

'لقد أساء الكثيرون من الكتّاب الأوروبيين بصورة غريبة تفسير تعدّد الزوجات عند المسلمين'.

وأعجب من هذا أن الأخوين رسل ردّا على كثير من التخرّصات والافتراءات التي ألحقت بالإسلام. فإذا ادّعى بعض الأوروبيين أن المسلمين متواكلون بسبب إيمانهم بالقضاء والقدر أجاباه: 'إن إنكار الإنسان لحرية تصرّفه وعزو تصرفاته إلى إرادة الله من المعتقدات التي لاتتفق وروح الديانة الإسلامية، وإذا ادّعى أحد ذلك معانداً فعقابه القتل'.

وعندما زعم فولني أن محمداً (ص) برغم حبه للنساء لم يكرمهن وأن القرآن لم يعاملهن كبشر وأن المسلمين في خلاف حول المرأة : ألها روح أم لا ؟ راح باتريك يردّ عليه ويكذبه ويورد له الآيات التالية دليلاً على النقيض مما افتراه :

'من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة.']النحل ٩٧

وعندما ادّعى بعض التجار الفرنسيين أن المرأة الحلبيّة ماجنة خليعة تحب الأجانب وتسعى إلى إغوائهم من وراء النوافذ والأبواب أجابهم باتريك بقوله:

'أما بالنسبة إلى قصة التجار الفرنسيين فإني أميل إلى الاعتقاد بأنها من نسج الخيال، لأنها لاتتماشى أبداً مع مفاهيم اللياقة والاحتشام في ذلك البلد.'

وفي الختام لابد من الإشادة بالمجهود الضخم المبارك الذي بذله أخي وصديقي الأستاذ خالد الجبيلي، فهو مجهود يستحق عليه الشكر لأنه أتحفنا بكنز كان مدفوناً وكان علينا أن نستخرجه قبل قرنين. ولايعلم إلا الله ما تجشّمه هذا الرجل من العناء والعذاب والمصاعب وأولاها أن الكتاب مكتوب بلغة إنكليزية سقيمة، فهي لغة أناس عاشوا في القرن الثامن عشر، وهي من جهة أخرى لغة أطباء لا لغة أدباء، ثم إن المؤلف قضى معظم حياته غريباً عن وطنه فالتوى لسانه وتهلهلت عبارته .. لهذه الأسباب كلها جاءت عبارة الكتاب صعبة عزيزة وقد اعترف المؤلف بذلك واعتذر إلى جمهور القراء من الإنكليز عن ركاكة لغته. يُضاف إلى ذلك أن طباعة الكتاب تختلف في كتابة الحرف عن الطريقة المألوفة اليوم (فالحرف S يكتب هكذا : f) والثانية أن المترجم لم يقدم على ترجمة كتاب ينتمي إلى فرع واحد من فروع المعرفة، ذلك أن كتاب الأخوين رسل يعالج عدة علوم (الهندسة، الزراعة، الموسيقا، الاقتصاد، الطب، المجتمع .. الخ) ولذلك واجه مصطلحات كثيرة كان عليه أن يتخطاها.

وعلاوة على كل ماتقدّم فترجمة مثل هذا العمل الضخم تتمّ عادة في الدول الأخرى بدعم مادي وتأييد معنوي من الجهات المهتمة بالتراث على أن شيئاً من هذا لم يحدث، ومع ذلك فقد عمل بدأب وصمت واستعان ببعض الزملاء. والذي نعتقده أن المترجم بذل قصاراه وقدّم عملاً ممتازاً ستذكره له الأجيال وسيُفيد منه الدارسون.

تقديم

الدكتور محمود حريتاني

محاضر في جامعة حلب

تمتعت مدينة حلب بموقع جغرافي متميز في شمالي سورية وبلاد الشام، وما عرف بالشرق الأوسط؛ فهي على مقربة من هضبة الأناضول في آسيا الصغرى ومن نهر الفرات، الطريق الدولية القديمة للتجارة والشعوب والحضارات. وهي على تخوم بادية الشام، طريق قوافل اللؤلؤ والتوابل والحرير من الشرق إلى الغرب عبر البحر الأبيض المتوسط القريب من مدينة حلب أيضاً.

وقد لعبت منذ القديم دوراً هاماً، بدأ في الألف الثالث قبل الميلاد واستمر إلى يومنا هذا، وقد تكون هناك مدن فاقتها شهرة آنذاك من قبيل إبلا وأوغاريت وأفامية، إلا أن هذه المدن، إما متبقية في باطن الأرض أو هي أطلال تزار. بينما استمرت مدينة حلب في ازدهارها إلى اليوم، والحفريات التي جرت في منطقة الأنصاري تثبت أهميتها، فضلاً عن حفريات طارئة تجري هنا وهناك تحت المدينة الحديثة. تاريخ حافل سياسياً وحضارياً، لا يزال هدف علماء الآثار والدارسين منذ سنوات وسيستمر أيضاً.

كتب الكثير عن حلب، وقد أبرز الرحالة العرب والأجانب والدارسون أهميتها التاريخية، عمرانياً، وتخطيطاً واجتماعياً واقتصادياً. وقد استأثرت الناحية الأخيرة بالاهتمام – فاعتبروها المركز الدولي للتجارة العالمية منذ القرن الثاني عشر الميلادي، كما اعتبروها المدينة الثالثة في الإمبراطورية العثمانية، أكبر إمبراطورية في القرن السادس عشر.

وقد سكنتها الجاليات الأجنبية المتعددة عدة قرون بقصد تسهيل التجارة الدولية بين الشرق والغرب، وقد حفلت سجلاتها المحفوظة، بازدهار هذه المدينة. وكان لأكثر الدول الأوروبية قنصليات فيها، افتتحتها فيها أولاً كالقنصلية الإنكليزية. ورغم أن ما نشر عن هذه الجاليات قليل، لكنه هام جداً.

إن كتاب *تاريخ حلب الطبيعي* بجزأيه، سفر هام، ووثيقة موثقة للتعريف بمدينة حلب، ليس فقط في القرن الثامن عشر، بل خلال القرون التي سبقته. فقد استطاع المؤلف، وأخوه من بعده، أن يفصّلا لنا الحياة في هذه المدينة العتيدة، فكتبا في كل مجال من مجالات الحياة فيها، ودخلا البيوت من أبوابها، وتحدثا عن الحياة الخاصة فيها بأسلوب مشوق يشد القارئ، وقد أتيا بمعلومات هامة عن حلب، لم يأت عليها مؤلف آخر. وإن ماعرضاه عن الجالية الإنكليزية، حيث توليا الشؤون الصحية فيها، ينطبق على جميع الجاليات الأخرى.

إن القليل من سكان حلب اليوم، قد اطلع على الكتاب باللغة الإنكليزية، وخاصة اللغة التي كتبت فيه – لغة القرن الثامن عشر–. واليوم، وقد بدأ الاهتمام يتزايد

بدراسة تاريخ المدينة وعمرانها، باعتبارها المدينة الأكثر أهمية في بلاد الشام – لاتزال تمسك بخيوط تاريخها أكثر من أي مدينة أخرى، أصبح من الضروري إتاحة الفرصة لقراء العربية المهتمين والمتخصصين بدراسة تاريخ المدن العربية وتطورها، للإطلاع على هذا الكتاب. ولا نغالي إذا قلنا إن كل ما نشر عن حلب يتناول الدراسات المعمارية، وقليلاً من التاريخ، بينما تبقى الدراسات الاجتماعية والديموغرافية قليلة جداً ونادرة. وكتابنا اليوم يسد هذا النقص بشكل واضح.

لم تكن الترجمة بالأمر السهل، ولا يستطيع أي باحث الإحاطة بالموضوع، إلا مترجم بارع ملك ناصية اللغة، ثم حلبي عاش حياة هذه المدينة القديمة، ودرس تقاليدها وعاداتها، وعرف مصطلحاتها وبعضها مستمر حتى اليوم.

إن هذا الكتاب يسد ثغرة كبيرة في دراسات طبية وعلمية قديمة عن حلب، لم يتطرق إليها أحد، ولهذا يأتي فعلاً بمثابة وثيقة هامة، والجهد فيه واضح، وهو عمل كبير.

مقدمة المترجم

عندما اطلعت لأول مرة على نسخة من كتاب *تاريخ حلب الطبيعي* للأخوين راسل، لم أتردد في ترجمة هذه الوثيقة الهامة، التي كتبها طبيبان إنكليزيان أقاما فترة غير قصيرة في ربوع هذه المدينة، وسجلا عن أهلها وطبيعتها ما لم يسجله أحد قبلهما وربما بعدهما بهذه الدقة والموضوعية. فكل ما كتب عن حلب تناول بصورة رئيسية أوابدها ومبانيها وتاريخها القديم، إلا أنه قلما تناول أحد حياة سكانها بعاداتهم، وأسلوب حياتهم، وأصناف طعامهم، وملابسهم، ولهوهم، وطربهم، وأفراحهم، وأتراحهم، ودياناتهم، ومختلف طوائفهم وعادات كل طائفة منهم، فضلاً عن الحياة الطبيعية فيها وفي المناطق المجاورة لها من بساتين ومزروعات ونباتات، وحيوانات معروفة فيها من دواب ومواش، وطيور وأسماك فضلاً عن رصد دقيق لأحوالها المناخية على مدى سنوات عشر، وحصر عن الأمراض المنتشرة بها وأساليب علاجها ولاسيما وباء الطاعون الذي كان يعصف بسكان هذه المدينة ويخلف وراءه الموت والألم والعذاب، كل ذلك بأسلوب جميل علمي دقيق.

إن هذا الكتاب وثيقة تتناول هذه الجوانب الهامة عن المجتمع الحلبي. فهو ليس تاريخاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ لا يقدم سرداً لأحداث تاريخية جرت في فترة زمنية محددة، كما قد يفهم من عنوانه، بل دراسة أنثربولوجية اجتماعية عن المجتمع في حلب كما كان في القرن الثامن عشر، بل بوسعنا القول إن الوضع الذي كان سائداً في ذلك الحين، يمكن أن ينسحب على فترات زمنية طويلة قبل هذه الفترة وبعدها، لأنه في رأينا لم تطرأ تغيرات كبيرة على المجتمع آنذاك تجعله يختلف كثيراً خلال تلك الفترات، بل قد يلاحظ القارئ المتمعن بعض الجوانب الاجتماعية التي مازالت آثار منها باقية حتى يومنا هذا.

كما أن الجوانب التي صورها الكاتبان عن حلب في ذلك العهد، تنطبق في كثير من الأمور، وبفروقات بسيطة، على الكثير من المدن السورية، بل والعربية الأخرى. فنحن لا نقرأ هنا عن المجتمع الحلبي فقط، بل بوساطته يمكننا دراسة المجتمع الذي كان سائداً آنذاك في جميع مدن المنطقة تقريباً، لأن السمات العامة كانت متشابهة ومشتركة في كثير من الجوانب، مع وجود اختلافات وفروقات محلية لابد منها. لذلك توفر لنا دراسة المجتمع في حلب في القرن الثامن عشر نموذجاً يكاد يكون عاماً يمثل بنية وتكوين وأسلوب الحياة في مجتمعات المدن العربية الأخرى في تلك الفترة التي تعد حداً فاصلاً بين فترة ما قبل الحداثة والحداثة. فكما تعلمنا كتب التاريخ، بدأ عصر الحداثة والإصلاحات في بداية القرن التاسع عشر مع تولي السلطان سليم الثالث الحكم (١٧٨٩-١٨٠٧) إذ أدخل تغييرات هامة على السلطنة العثمانية تناولت نظام الحكم والمؤسسات الاجتماعية الأخرى. لذا يمكننا اعتبار القرن الثامن عشر الذي هو موضوع كتابنا، عصر ماقبل الحداثة أو العصر التقليدي إذا جاز لنا التعبير لتمييزه عن القرن الذي يعقبه، إذ

بدأت حركة الإصلاح تدخل مناحي كثيرة من حياة هذه الشعوب، فضلاً عن بدء ظهور القوى الأوروبية على الساحة في المنطقة وتدخلها في شؤونها بشكل سافر، مما حدا بالدولة العثمانية إلى إدخال إصلاحات هامة على الدولة في محاولة منها لمواكبة التقدم العسكري خاصة عند القوى الأوروبية، رغم أن تلك الإصلاحات لم تسفر كثيراً عن تغير البنية الاجتماعية لسكان المنطقة. ولهذا السبب فإن هذا الكتاب، الذي يعد مرجعاً أساسياً للباحثين والدارسين عن هذه المنطقة ينطوي على أهمية خاصة لدراسة التاريخ الاجتماعي لمدن الشرق الأوسط جميعها كما أسلفنا.

وبعد أن نطلع على القدر الكبير من الكتب والدراسات التي صدرت عن حلب منذ قرون سابقة، كما قد يلاحظ القارئ من كتب الرحالة الذين زاروا المدينة وكتبوا عنها (سواء بشكل مشوه أو موضوعي) في الفقرات (الملاحظات) التي أوردها المؤلف ليوضح بعض الأمور التي أتى على ذكرها ، فيؤيد بعضها ويدحض بعضها الآخر، والكتب والدراسات التي لا تزال تصدر حتى يومنا هذا عن مدينة حلب العريقة، لابد أن نجزم بأن حلب احتلت مكانة مرموقة وهامة في الكتابات التاريخية أكثر من أي مدينة أخرى في العالم. إن كل ذلك يجعل من حقنا أن نتساءل ما هو السبب الذي يجعل كل هؤلاء يهتمون بهذه المدينة بالذات؟ وبادئ ذي بدء، بوسعنا القول إن حلب كانت تحتل المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بعد الآستانة والقاهرة في الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، وكان يقطنها أكثر من ٣٠٠،٠٠٠ نسمة، فضلاً عن كونها العاصمة الإدارية لأحد الأقاليم الهامة والواسعة في الإمبراطورية العثمانية، ومركزاً هاماً في صناعة النسيج، وكونها تقع على مفترق الطرق التجارية بين الشرق والغرب مما جعل الأوروبيين يتسابقون للإقامة فيها وإقامة قنصليات لهم لأهميتها التجارية.

إن العمل الذي سجله لنا بهذه الدقة والموضوعية الأخوان ألكسندر وباتريك راسل، الطبيبان الإنكليزيان اللذان عاشا فترة تقارب العشرين عاماً في هذه المدينة العريقة بصفتهما طبيبين للجالية التجارية الإنكليزية التي كانت تقيم في حلب، كان عملاً مميزاً بحق عن مدينة عريقة تعد أقدم مدينة في العالم مازالت مأهولة بالسكان حتى يومنا هذا. فالكتاب ينبض بالحياة والحيوية، فها نحن أولاء نرى الحلبيين بمختلف فئاتهم ومشاربهم ودياناتهم وطوائفهم ينبضون بالحركة أمامنا وهم يتناولون طعامهم ويحتسون قهوتهم، ونقرأ وصفاً دقيقاً وشاملاً عن حماماتهم التي كانت ترتادها النساء بألعابهن وثيابهن، وعن بيوتهم وأسواقهم وخاناتهم وأعراسهم وجنائزهم وما إلى هنالك من أمور حياتية يدفعنا الفضول المعرفي لأن نطلع عليها.

أرجو أن أكون قد ساهمت في تقديم مادة ثقافية هامة عن مدينة حلب، كانت في حقيقة الأمر المرجع الرئيسي لكل ما كتب عن حلب، يمكن أن تشكل مادة خصبة لإجراء دراسات عديدة ومتشعبة عن الحياة الاجتماعية والثقافية فيها، فضلاً عن الجوانب العلمية النباتية والمناخية والطبية والمواضيع العلمية الأخرى التي يزخر بها الكتاب، كما أرجو أن أكون قد وفقت في نقل المعنى الذي كان يقصده المؤلف بلغة مفهومة وسلسة، وهذا عزائي إن أفلحت في ذلك، رغم كل الصعوبات التي تعرضت لها في أثناء ترجمة هذا السفر ذي الموضوعات المتنوعة والشديدة التباين، إذ كان المؤلف يتنقل

من موضوع إلى آخر، وكنت أشعر في أثناء ذلك أنه يتعين علي كمترجم أن أتمثل روح المؤلف، لكي أقدم بلغتنا العربية ما كان يرغب في التعبير عنه بلغته الأصلية، بل لكي أنقل وبلغة العصر ملاحظات وانطباعات سجلت عن حلب والمنطقة بلغة غير عربية منذ مايزيد على مئتي عام. ولا يسعني في النهاية إلا القول إن هذا العمل لم يكن من السهل ترجمته لشدة تنوع موضوعاته كما أسلفنا، ولصعوبة أسلوبه وخاصة أنه كتب منذ أكثر من مئتي سنة على يد طبيب سجل فيه موضوعات بعيدة عن ثقافته الإنكليزية فجاءت تعابيره في بعض الأحيان غير واضحة واحتاجت جهداً غير قليل لفك مااستعصى على الفهم ، ولا يعرف صعوبة الترجمة ومشاقها إلا من كابدها وتصدى لها.

وفي هذه المناسبة أوّد أن أتوجه بالشكر إلى كل من ساهم في إخراج هذا العمل الهام، وأخص بالشكر الدكتور محمود حريتاني، المحاضر في جامعة حلب في مادة التاريخ، والباحث في تاريخ مدينة حلب، وهو الذي أطلعني على هذا الكتاب الهام، وقام بمراجعة المخطوطة، وساهم في تقديم العديد من الشروح والملاحظات، كما أتقدم بالشكر للدكتور إحسان شيط، أحد عشاق مدينة حلب وتاريخها، وهو الذي قام بمراجعة الجزء المتعلق بالأمراض والأوبئة. ويسرني أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأخ والصديق الدكتور عبد الرحمن دركزللي، الأستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة حلب، لأنه بذل جهداً ملحوظاً في قراءة المخطوطة وتنقيحها وتخليصها من الشوائب اللغوية، والأستاذ المهندس خلدون فنصة، المهتم بمدينة حلب القديمة، الذي قرأ المخطوطة وأسهم في تقديم بعض الملاحظات الهامة.

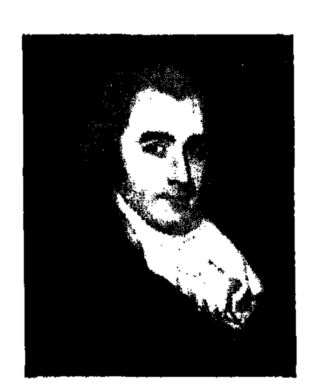
وفي النهاية ينبغي لي ألا أنسى شكر زوجتي التي لولا صبرها ومساعدتها وتشجيعها لي لما تمكنت من إنجاز هذا العمل.

المترجم
خالد الجبيلي

نبذة عن حياة المؤلفين

ألكسندر راسل (١٧١٥؟ – ١٧٦٨)

ولد ألكسندر راسل، وهو ابن محام معروف، في إدنبرة. وبعد أن أتم دراسته الطبية هناك، مكث في لندن فترة وجيزة ثم أبحر إلى السلطنة العثمانية واستقر في حلب، وفيها عمل طبيباً للجالية التجارية البريطانية. وبعد أن حذق اللغة العربية راح يمارس عمله كطبيب بكفاءة عالية لم يسبق لها مثيل. وقد عالج طبياً مختلف الأجناس والفئات التي كانت تقيم في حلب من إفرنج ومسلمين ومسيحين وأرمن ويهود على مختلف طبقاتهم ومهنهم. وقد نال ثقة السكان المحليين حتى إنهم نسوا أنه لم يكن على دينهم، وعاملوه بمودة خالية من مشاعر الكراهية التي كانوا يضمرونها للأجانب، حتى إنهم خصوه بصداقتهم ووضعوا ثقتهم المطلقة فيه. ولدى عودته إلى إنكلترا، بتشجيع من صديقه جون فوثرجيل، عمد إلى نشر كتابه *تاريخ حلب الطبيعي* في سنة ١٧٥٦. وكان مثالاً يحتذى به في الجد والرحمة والعطف على المرضى، وكان يتمتع بقدرات طبية فائقة وفضلاً عن ذلك، كان رجلاً نبيلاً فاضلاً منقطع النظير.

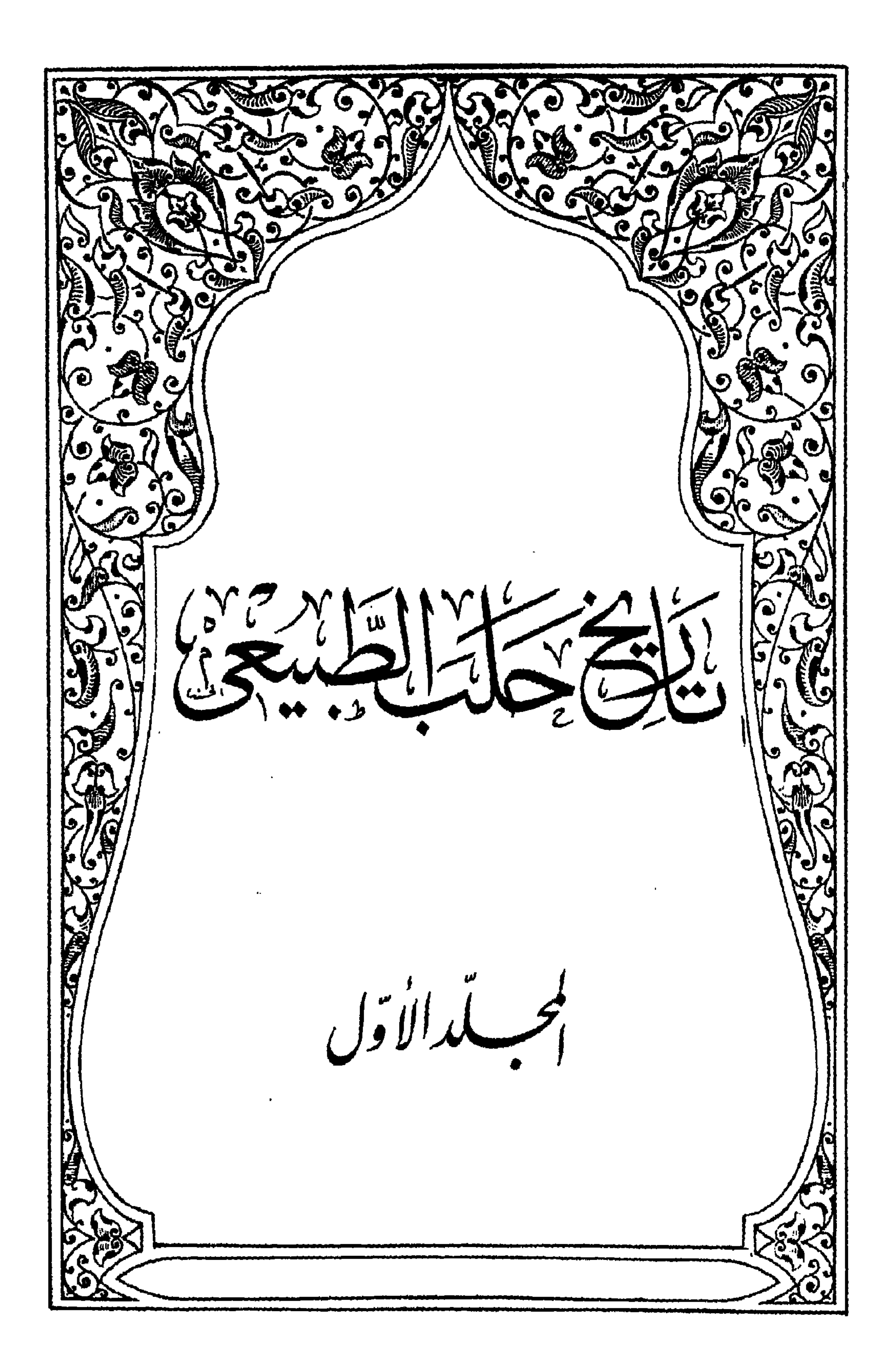


باتريك راسل (١٧٢٧ – ١٨٠٥)

ولد الطبيب والعالم الطبيعي باتريك راسل، في إدنبرة. وقد درس الطب في جامعتها على الأرجح، وفي عام ١٧٥٠ انضم إلى أخيه من أبيه ألكسندر راسل في مدينة حلب، ثم خلفه في منصبه كطبيب للجالية التجارية البريطانية في حلب سنة ١٧٥٣. وتابع دراسات أخيه عن الطاعون فيها (وكان قد تفشى في الأعوام ١٧٦٠، ١٧٦١ و ١٧٦٢) وقد بعث بتعديلات لكتاب أخيه ألكسندر المعروف باسم *تاريخ حلب الطبيعي* في عام ١٧٥٦ وبتقارير عن أساليب التلقيح المتبعة في بلاد العرب.



ظل باتريك عزباً طوال حياته إلا أنه خلف كثيراً من المجموعات الطبيعية النادرة لشركة الهند الشرقية، أهديت فيما بعد إلى جامعة إدنبرة.



تاريخ حلب الطبيعي

المجلّد الأوّل



مقدمة المحرر للطبعة الثانية

لم يجد مؤلف كتاب *تاريخ حلب الطبيعي*، وهو في غمرة متاعب المهنة التي كان يزاولها منذ فترة طويلة، في بلد كان يتعين عليه تخصيص جلّ وقته للعناية الطبية بأشخاص من ذوي الشأن، الوقت الكافي لتدوين مقدمة كتابه هذا إلا بشق النفس. وكان يرى أنه ينبغي له أن يدّون ملاحظاته في الوقت الذي كانت الانطباعات ماتزال حية في مخيلته. على أنه أتيحت له فرصة تصويب الأخطاء وهو في موقع عمله، كما تمكن من إجراء مزيد من البحث فيما يتعلق بالأمور المستجدة.

ولهذا السبب، اختلطت مواد الكتاب، ولم يبذل (المؤلف) جهداً كبيراً في ترتيبها، وأرجأ ذلك إلى ساعات الفراغ التي قد تتاح له في المستقبل والتي كان يأمل أن يحظى بها في وقت أو آخر. إلا أن هذا مع الأسف لم يتحقق، لأنه بعد وصوله إلى إنكلترا بفترة وجيزة في عام ١٧٥٤، وجد نفسه منشغلاً أكثر من أي وقت مضى. وبعد مراجعة بسيطة لأوراقه، اقتنع فوراً بضرورة الإسراع في نشرها.

ورغم الإقبال المتحفظ على عمله هذا، أدرك المؤلف المزايا الكثيرة التي كان بإمكانه الحصول عليها فيما لو بذل جهداً أكبر عند إعداده للطبعة (الأولى). ومنذ ذلك الوقت، أخذ يفكر بإصدار طبعة ثانية، يدخل فيها تعديلات وتحسينات هامة، من حيث ترتيب المواد وإضافة مزيد من المعلومات إلى الأقسام التي لاح له أنها بحاجة إلى مزيد من التدقيق والشرح.

وفي واقع الأمر، أدخل المؤلف تعديلات طفيفة، بيد أنه أدرك بأنه —في سعيه لأن يكون موجزاً— سيسبب بعض الغموض. ولما كان على ثقة بأن القارئ على اطلاع على أشياء لا حاجة لتفسيرها فقد حذف بعضها علماً بأن الوضوح كان يقتضي أن تذكر أو تورد في الكتاب.

كما شعر بالأسف على إلزامه نفسه بالحديث عن العادات الشرقية باعتبارها موضوعاً ثانوياً بالنسبة للجزء الطبيعي من عمله. إذ كان يعرف أن عدداً من المؤلفين كانوا قد تطرقوا إلى سياسة الأتراك* وعاداتهم بإسهاب، غير أنه لاحظ في أماكن عدة من حديثه، أنه لم يتسن للرحالة معرفة الكثير من التفاصيل المحلية أو المنزلية الدقيقة، إما لأنهم لم يلحظوها، أو لأنهم عرضوها بصورة خاطئة: نتيجة لاعتمادهم على المعلومات التاريخية الواردة في الكتاب المقدس، وبغية جعلها مثيرة لمحبي الاطلاع.

وبغية تنفيذ خطته تلك، رأى (المؤلف) أنه من الضروري الاستمرار في تبادل الرسائل للحصول على مزيد من المعلومات المتعلقة بسورية. وقد عبّر عن رغبته تلك إلى

* يخلط المؤلف بين كلمة الأتراك والمسلمين، فقد كان الأوربيون يطلقون على جميع المسلمين في تلك العصور (وحتى عهد قريب) لقب 'تركي أو ترك' لأن كلمة عرب وعربي لم تكن مستعملة بمعناها الحالي، تماماً كما كان العرب يطلقون على عامة الأوروبيين اسم 'الفرنج أو الإفرنج'. لذا نجد في الكتاب أن المؤلف يقسم السكان إلى الأتراك (ويقصد المسلمين) والمسيحيين واليهود، رغم أنه كان يستخدم تعبير 'المحمديين' في بعض الأحيان. ولهذا السبب وضعنا كلمة مسلم مكان كلمة تركي كلما وردت في هذا السياق (المترجم).

المراجع الحالي، الذي كان قد عاش معه سنوات عدة في حلب، والذي خلفه في سنة ١٧٥٣ بصفته طبيباً للجالية التجارية البريطانية.

وما إن صدر كتابه هذا، حتى أرسل بنسخة منه إلى حلب، وطلب مني قراءته بعين ناقدة والتحقق من كل خطأ مهما كان، وتقصي جميع الأمور التي يكتنفها الشك والغموض، وإدخال مزيد من الإضافات، أو إجراء تصويبات بحرية تامة. أما بالنسبة للجزء الخاص بالتاريخ الطبيعي، فطلب منحه كل مساعدة ممكنة للتقليل من الأخطاء الواردة فيه ما أمكن. وقد قوبل هذا الطلب المقدم من أخ أكن له كل تقدير واحترام، فضلاً عن صلة الدم التي تربطني به بالامتثال التام. ولو كانت الإمكانيات موازية للمطامح، لكانت الرسائل التي زودته بها من سورية، والتي استمرت سحابة أربعة عشر عاماً، على قدر أكبر من الغنى والأهمية.

إن وفاة المؤلف في سنة ١٧٦٨، أحدثت توقفاً مؤقتاً في الدراسات. فقد وجدت نفسي غير قادر على استئنافها بسبب المعاناة، وتوارد الأفكار، واسترجاع ذكريات مؤلمة عديدة أثرت في تفكيري طوال تلك الفترة.

وفي سنة ١٧٧١، وبعد أن مددت (المراجع) فترة إقامتي في أوروبا إثر عودتي من حلب، وبسبب تعرضي لعوائق كثيرة في بريطانيا حالت دون دراسة الأوراق التي كنت قد ورثتها عن أخي بإمعان إلا بعد سنوات عديدة. وقد عثرت بين هذه الأوراق على المخطوطات التالية: التاريخ الطبيعي مع عدد قليل من التعديلات الهامشية، مذكرة عن تفشي الطاعون في الأعوام ١٧٤٢، ١٧٤٣ و ١٧٤٤؛ السجلات اليومية للحالات الوبائية، وسجل الأحوال الجوية على مدى عشر سنوات. كما عثرت كذلك على العديد من رسائله الخاصة التي كانت قد وردت من سورية رداً على الأسئلة التي كان قد طرحها والتي كانت قد أرسلت إليّ في أوقات مختلفة من إنكلترا.

غير أن متعة اكتشاف هذه المواد سرعان ما عكر صفوها التذكر بأن أفضل شخص يمكنه أن يضعها في سياقها الصحيح يرقد حالياً في القبر. وطرأت عليّ فكرة تنفيذ خطة أخي بشدة، من باب سداد الدين، ومن باب الصداقة التي تربطني به. إلا أن تنفيذ هذه الخطة طال كثيراً، ولكني ترددت في عزمي على تنفيذها. ولو كنت قد واصلت عملي كمساعد له لكانت سعادتي أعظم، إلا أن مشاعر الاكتئاب نتيجة الأفكار التي هيمنت علي سيطرت على نفسي: وجعلت مقدرتي مبددة، ولم يكن من السهل دائماً أن أضع حداً لمخاوفي بأنه إذا لم أوفق في تنفيذ هذا العمل فقد يؤدي ذلك إلى جرح ذكرى صديق عزيز بودي أن أكرّم ذكراه.

لقد قدمت هذا التوضيح (بصفتي مراجعاً للكتاب) عن علاقتي بالمؤلف، لكي أقدم اعتذاري (إذا كان علي أن أفعل ذلك) للحرية المطلقة التي سلكتها في وضع نموذج جديد لعمل المؤلف – ويتبقى عليّ أن أوضح التغييرات والإضافات التي أوردتها في هذه الطبعة.

لقد تم جمع وترتيب المواضيع المتباينة التي تناثرت في الكتاب الأول من الطبعة الأولى في فصول مختلفة: وقد ابتعدت في ذلك عن أسلوب المتنوعات الذي اعتمد في الطبعة السابقة، مما استدعى إدخال إضافات كثيرة إلى النص. إلا أنني حرصت أثناء

إضافة هذه الموضوعات على أن تكون مطابقة لأفكار المؤلف قدر الإمكان، واضعاً نصب عيني رغبته الرئيسة في جعل المقدمة ثانوية بالنسبة للجزء الطبي من عمله. وفي الأمور التي كنت أشعر فيها أن المؤلف كان قد ضلل بالمعلومات، وهي قليلة على كل حال، والتي صححتها فقد أوردت ملاحظات توضيحية لها سواء في أسفل الصفحة أو في الملاحظات في نهاية المجلد*

يقسم العمل الحالي إلى ستة كتب:

يصف الكتاب الأول المدينة، والمناطق المجاورة لها، والمواسم والزراعة والبساتين فيها. ويقدم الكتاب الثاني عرضاً عاماً عن أحوال السكان، ووصفاً مفصلاً عن عادات وتقاليد السكان المسلمين، وعن أحوال النساء فضلاً عن وصف عام للحكومة في المدينة.

في حين يعرض الكتاب الثالث وصفاً للسكان الأوروبيين، والسكان المحليين من المسيحيين واليهود، والوضع الحالي للأدب العربي في سورية وحالة الطب.

أما الكتاب الرابع فيتناول الفروع المتبقية من التاريخ الطبيعي، ويبحث في الحيوانات ذوات الأربع قوائم، والطيور، والأسماك، والحشرات والنباتات.

ويقدم الكتاب الخامس رصداً للأحوال الجوية، مع عرض للأمراض الوبائية التي كانت متفشية في حلب خلال فترة إقامة المؤلف.

أما الكتاب السادس والأخير فيبحث في تفشي الطاعون، والأساليب التي اتبعها الأوروبيون لتفادي الإصابة به. وقد أضيفت إلى كل مجلد ملاحظات ورسوم توضيحية مع ملاحق.

قد يبدو للبعض أنه تم تقديم وصف مسهب للمدينة بشكل غير ضروري. إلا انه من أجل فهم تفشي الطاعون ومساره لابد من التعرف سلفاً على جميع الأحياء أو المواقع المحلية: وقد حدا ذلك بي إلى إضافة مخطط عن المدينة، حصلت عليه من الصديق الموقر السيد م. نيبور (M. Niebhur) الذي تفضل وأرسل إلي مخططاً كان قد رسمه هو لضرورة عمله الشخصي،علماً أنه لم يكتب له النشر أبداً: ومن واجبي أن أعبّر له عن جزيل شكري.

واقتصرت الإضافات التي أدخلتها إلى هذا المخطط على أسماء التلال، وبعض الشوارع والنواحي في المدينة وضواحيها، استرجعتها من الذاكرة، ومن الملاحظات التي كنت قد دونتها. أما الرسم التوضيحي للمدينة الملحق بهذا الكتاب فهو مأخوذ عن رسم أصلي يوجد في حوزتي الآن.

وأجري تعديل على قائمة النباتات المزروعة في المناطق المجاورة لحلب، بهدف تحسينها وتحديثها. إلا أنه عليّ أن أقّر بأن ذلك يعزى إلى المادة التي قدمها لي الصديق السير جوزيف بانكس والمرحوم الدكتور سولاندر , اللذان بذلا ما بوسعهما من أجل تقدم التاريخ الطبيعي، فأمضيا ساعات طويلة وهما يدرسان مجموعة كبيرة من النماذج والعينات المأخوذة من سورية، وبعد إجراء تصويبات لاتحصى للأخطاء التي وردت في الكتاب السابق فقد قاما بكتابة القائمة التي حلت محل القائمة القديمة.

* من أجل سهولة الرجوع إلى الملاحظات التي أوردها المراجع في نهاية كل مجلد، رأينا أن نجمل ملاحظات كل فصل على حدة في نهايته، وذلك لسهولة الرجوع إليها (المترجم).

أما بعض الأمور الأخرى من التاريخ الطبيعي، ولاسيما المتعلقة بالزواحف والحشرات فقد بقيت على حالها تقريباً كما كانت في الطبعة السابقة. ويعود سبب ذلك جزئياً إلى صعوبة هذا الأمر بسبب انقضاء سنوات كثيرة، أصبح يتعذر معها الحصول على نماذج عنها من سورية: وهو أمر يدعو للأسف، لأن الجالية التجارية البريطانية في حلب رحلت مؤخراً، ولا يوجد أي أمل في الحصول على معلومات عنها في المستقبل إلا من رحالة عابرين.

منذ بداية القرن السابع عشر، يدين التواقون إلى المعرفة في أوروبا بمعظم ماتعلموه عن سورية الحديثة إلى الملاحظات العابرة التي كان قد سجلها التجار الذين يقيمون في خارج البلاد، أو إلى بحوث كان قد أجراها عدد من الرحالة المتعطشين للمعرفة. وفي الغالب، كانت الفئة الأولى تتمتع بمزايا التحدث بالعربية، إلا أنها كانت أقل إطلاعاً في أمور التاريخ الطبيعي والتاريخ القديم. ورغم أن الفئة الأخرى كانت مؤهلة بشكل أفضل في البحث والتقصي لقيامها بإعداد دراسات تحضيرية، إلا أن جهلها باللغة العربية جعلها تحصل على معلومات مضللة وخاطئة في بعض الأحيان من الخدم الصغار الذين كانوا يعتمدون عليهم كتراجمة. ومن أسلوب سفرهم وإقامتهم القصيرة في الأماكن التي كانوا يزورونها، لذا بقيت هذه الأمور بدون بحث وتقص، وذلك لأن البحث فيها كان يحتاج إلى البقاء لفترات أطول بكثير، وقد أصبح ذلك ملائماً أكثر بالنسبة للأشخاص الذين أقاموا في البلاد.

لقد أسهبت في الحديث عن العادات المحلية لسكان حلب لأسباب ذكرناها آنفاً. إلا أني لاأريد أن يفهم أن الإضافات التي أدخلتها جديدة تماماً. وإني أعرف جيداً أن الرحالة السابقين لم يذكروها فحسب، بل وصفوها باستفاضة كذلك. كما لم يخف علي بأن قراءتي لم تكن واسعة بشكل كافٍ تسوّغ لي أن أقول بأن الوقائع هذه لم أصادفها في الكتب، ولم تنشر سابقاً. فقد كانت الأمور التي أضفتها إما من تجربتي الشخصية، أو من المعلومات الشفهية التي جمعتها في نفس المكان. لذا يمكن اعتبار ملاحظاتي في بعض الأحيان تأكيداً على روايات الرحالة التي قد تتطابق معها هذه الملاحظات. وفي الوقت نفسه، تم تفادي خطأ الخلط بين طبقات المجتمع المختلفة عند وصف العادات الشرقية، والذي يعزى في الغالب إلى الرحالة.

أما فيما يتعلق بالإضافات المتعلقة بالدين الإسلامي، فقد كانت النية تتجه نحو تقديم عرض موجز عن ممارساتهم الدينية، دون الخوض في التفاصيل المتعلقة بشعائرهم وعباداتهم. ومهما قيل عن شكل الحكم عند الأتراك، فينبغي اعتباره مقتصراً على المدن الإقليمية، علماً أن القضاة كانوا يبعثون إلى أماكن بعيدة عن سيطرة الباب العالي المباشرة: وقد تلاحظ طبيعة الخصوصيات عندما تكون محلية.

إذا تبين أن الصورة المرسومة للمسلمين والسكان الآخرين في حلب مختلفة نوعاً ما عن تلك التي تم وصفهم بها، فينبغي التذكر بأنه قد يطرأ تغير على العادات المحلية في الشرق على مر السنين، كما أن الأشياء نفسها قد تعطي انطباعاً مختلفاً جداً عند النظر إليها بصورة عابرة، أو في أوقات الفراغ. ورغم أني أدعي بصدق أني لم أقصد الإساءة في التصوير، فإني أؤكد عدم تحيزي وتحاملي: ومع أنني أدرك الصعوبة البالغة

في التجرد من الشعور بالتحامل الذي يمكن أن يكون قد تولد لدي عند إقامة علاقات مماثلة مع السكان المحليين على مدى سنوات طويلة فإني مقتنع بأن الآراء التي كونتها عن الناس وعاداتهم هي من التجربة الشخصية، ومع ذلك فلابد أن أتأثر بصفتي مراقباً ذا مزاج خاص عند تصوير الآخرين.

وتمشياً مع خطته العامة، اقتضب المؤلف كثيراً عند حديثه عن النساء والحرملك. لذلك أخذت على عاتقي أن أتطرق بإسهاب إلى موضوع ذي اهتمام عام غير معروف جيداً في بريطانيا.

وقبل أن أكب على هذا العمل ولسنوات عدة، لم يتح لي وقت الفراغ الكافي لكي أطلع على ماكتبه الرحالة الشرقيون. إلا أنني بعد عودتي إلى بريطانيا، عقدت العزم على ألا أطلع على كتب الرحلات، وذلك لكي لا أخلط الأمور التي أتذكرها من القراءة بتجربتي الشخصية التي عشتها في تركيا حتى الانتهاء من تدوين كل ماكنت أنوي تدوينه إلى أن أنتهي من كتاب أخي. وكانت النية تتجه بعد ذلك إلى القراءة بقدر ما يسمح لي به الوقت، وأن أقارن ما قرأت بمخطوطتي لكي أسجل الأمور التي قد تبدو جديدة لي، أو التي كان يكتنفها الشك، أو التي كانت خاطئة.

وفي أثناء القراءة، قمت بدراسة بعض كتب الرحلات المبكرة بمتعة كبيرة. ورغم أن المؤلفين كانوا سريعي التصديق في بعض الأمور، فقد كانوا مصيبين بشكل عام في الأمور التي كانت قد وقعت تحت ملاحظتهم: ومهما كانوا مخطئين، فقد ضللتهم الحماسة في بعض الأحيان في إساءة تصوير الدين الإسلامي وممارسات وأخلاقيات المسلمين. إذ إن تحاملهم ربما لم يؤثر على وصفهم لعادات الناس بقدر ما أثرت النظريات الخبيثة عن المجتمع المدني في ملاحظات بعض الرحالة المعروف عنهم أنهم يتمتعون برؤية وعقلانية أكبر.

وعندما كنت أجد نفسي في بعض الأحيان مختلفاً مع مؤلفين كنت أحترم نزاهتهم كانت السعادة تنتابني وخصوصاً عندما أجدهم يتفقون مع المؤلف ومعي في معظم الأمور المادية، بل كانت في بعض الأحيان أكثر صحة من معلوماتنا. وفي الحالة الأولى كانت ملاحظة تكفي لشرح الخلاف أو تسويته، وفي الحالة الثانية، كنت أشعر بأنه لابد من ذكر مراجع المؤلفين الذين كانت رواياتهم تبدو أكثر دقة.

أما في الحالات التي لم يكن يعرف أنها وردت في بعض الكتب، فلم أجعل ذلك سبباً لتشويه المخطوطة: لتبقى الفقرة المشابهة في مكانها كما وردت، وفي بعض الأحيان، كنت أؤكد ذلك بذكر الاستشهاد المطابق في الملاحظات.

كان من الممكن أن يكون الفصل المتعلق بالآداب أكثر أهمية لو كان الشخص الذي كتبه ضليعاً أكثر بالآداب الشرقية. وكل ما يمكن أن أدعيه في محاولتي هذه هو أني لم أتمكن من إعطاء صورة كاملة عنه، بسبب معرفتي المتواضعة باللغة العربية مما جعلني استمدها من أحاديثي مع العلماء. ولم يعرض الأدب العربي كما هو محفوظ في الكتب التراثية المهملة التي كتبها المؤلفون القدامى، بل كما هو موجود حالياً في حلب. وقد أضيف إلى هذا العرض ملاحظات وافرة تم جمعها من العديد من الكتب، وفي ملحق المجلد الثاني أوردنا قائمة بأسماء الأشخاص المهمين الذين ألفوا في الطب، بالإضافة

إلى بعض الملاحظات التاريخية: فضلاً عن عرض موجز كمدخل إلى الطب الإغريقي عند العرب في الأندلس.

أما الكتاب الخامس الذي يبتدىء بالحديث عن الطقس فقد تبين لي عند القيام بتنقيحه أنه لا يحتاج إلى إدخال تعقيبات، أو أنه كان يتطلب قدراً قليلاً من ذلك، كما أنه أضيفت بعض الملاحظات على شكل تعقيبات.

إن التأثير الذي يمكن أن يعزى إلى الطقس، سواء في إحداث الأمراض الوبائية، أو في انتشار أمراض معدية، لايمكن تأكيده إلا بعد سلسلة طويلة من الملاحظة. لذلك ومن أجل ملء الفجوة في الطبعة السابقة، نتيجة إسقاط ثلاث سنوات، فقد تم وضع بيان عن الطقس عن تلك الفترة، مستمد من سجل الأرصاد الجوية الأصلي، في مكانه الملائم.

وبما أن المؤلف بذل جهداً في حديثه عن الناحية الطبية أكثر من الأجزاء الأخرى في كتابه، فلم يترك لي سوى الشيء القليل، بالإضافة إلى نقل مواضع الفقرات الذي كان ضرورياً نتيجة التغييرالذي طرأ على ترتيب الفصول. وقد بذلت عناية كبيرة في الحفاظ على روح ومعنى المؤلف، ولم يدخل تغيير في عباراته إلا في حالات قليلة. وقد أدخلت إضافات قليلة إلى النص فيما عدا الجزء الذي يتحدث عن الأمراض السنوية، حيث استدعت الضرورة ذلك.

أما الكتاب السادس والأخير، فيتناول الطاعون، وأسلوب الاعتكاف للحيلولة دون انتشار العدوى. وقد قسم هذا الكتاب إلى فصول عدة، وتم جمع الوقائع التي كانت مبعثرة ومشتتة جداً في السابق، ووضعت تحت عناوينها الصحيحة. كما أدرجت عدة ملاحظات توضيحية.

أعلم تماماً أن ملاحظاتي المسهبة، واختياري للمراجع، فضلاً عن الهدف من الإضافات التي أدخلت إلى النص قد لا تصادف استحساناً متماثلاً من الجميع. ففي عمل معقد من هذا النوع، لاتقل توقعات القراء تبايناً عن اختلاف أمزجتهم واهتماماتهم: فالأمور التي تبدو ممتعة أو جديدة عند شخص ما قد تبدو لشخص آخر سطحية أو سخيفة أو تافهة. لقد كانت رغبتي الأساسية، والتي بذلت من أجلها قصارى مابوسعي، تهدف إلى إرضاء أذواق أصحاب الأمزجة المعتدلة ممن سيقرؤون هذه الصفحات: إلا أن ثقتي بنفسي لاتحول دون اعترافي بأني كنت أحتاج إلى قوى أكبر بكثير مما كنت أمتلكها تمكنني من تحقيق نجاح كامل في مثل هذه المحاولة الشاقة والمضنية.

لندن، في ١٨ حزيران ١٧٩٤

مقدمة الطبعة الأولى

عندما بدأ المؤلف جمع مواده، كانت نيته تنحصر في تقديم وصف مفصل عن الأمراض الوبائية في حلب، ولاسيما الطاعون، الذي تفشى لمدة ثلاث سنوات في تلك المدينة خلال فترة إقامته فيها. وقد مكنته الخبرة والتواصل الطويل والواسع بين جميع مشارب وطبقات الناس، من الاطلاع الجيد على عادات وتقاليد السكان. ووجد أنه لم يصف المناطق المجاورة لهذا المكان وموقعه ومنتجاته الطبيعية بشكل تام، لذلك يوجد مجال لإدخال تحسينات عليها. وبدلاً من أن يقتصر في الحديث عن التاريخ العام لهذه البقعة، بشكل مناسب لاختصاصه فقد تطرق إلى الموضوع بشكل موسع، وبذل جهده ليقدم للقارئ عرضاً موجزاً، ولكن في الوقت نفسه دقيقاً عن أشياء بدت أنها تستحق الاهتمام. وينبغي التذكر أن ملاحظاته تقتصر على مدينة واحدة والمناطق المجاورة لها فقط. إذ قد يكون لأماكن أخرى والأماكن القريبة منها عادات أخرى، ولهذا السبب فإن رجالاً ألفوا عن تقاليد الشعوب الشرقية قدموا لنا روايات مختلفة تماماً.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن المؤلف قد أقام سنوات عدة خارج البلاد، وأنه كان يتحدث يومياً بلغات مختلفة جداً عن لغته الأم، عرفنا أنه لم يقم بتحسين لغته وتطويرها لذلك يأمل أن تغتفر له العيوب الواردة في الأسلوب. أما بالنسبة إلى الرسوم التوضيحية، فاهدف منها إعطاء فكرة عن أنواع الألبسة التي يرتديها السكان، فضلاً عن إعطاء فكرة عن الأثاث وأسلوب الحياة ووسائل الترفيه والتسلية.

ولم تكن الطيور والأسماك التي تم رسمها حسب أفضل المعلومات التي أتيحت للمؤلف معروفة سابقا، وكذلك الأمر بالنسبة للنباتات.

يهدف المؤلف من عرضه للأسلوب الذي اتبعه الأوروبيون للوقاية من الإصابة بالطاعون بصورة رئيسية أن يطلع عليه أصدقاءه الموجودين في حلب، وهم الذين أهدي إليهم عند مغادرته للبلاد. أما بالنسبة لأولئك الموجودين في أوروبا فإنه يتمنى حقاً أن تقتصر فائدته على إشباع فضولهم إلى المعرفة.

أما إلى أي مدى كانت قدرات المؤلف توازي المهمة الصعبة التي تصدى لها؟ فهذا ما سيحكم عليه جمهور القراء، وهو يناشدهم أن يعبروا عن رأيهم بصراحة. ولابد للمؤلف من الاعتراف بأن الفرص التي أتيحت له في الملاحظة كانت جيدة وبأنه قدم وصفاً صادقاً للوقائع، وبأنه لم يستخدم مبالغات كاذبة في وصفه، لذلك فهو على ثقة بأن معاصريه ومعارفه، ممن سيقومون بزيارة لهذه الأماكن التي وصفها، قد يسترجعون بمتعة فائقة تلك الذكريات التي قرؤوها في موطنهم الأصلي *.

* تم إهداء الطبعة الأولى من هذا الكتاب إلى القنصل الأسكواير ألكسندر دراموند، وإلى السادة أعضاء البعثة التجارية البريطانية في حلب، وإلى أولئك الموجودين الآن في إنكلترا ممن كانوا قد أقاموا فيها سابقاً.

محتويات المجلد الأول

الكتاب الأول
وصف للمدينة والمناطق المجاورة لها

الكتاب الثاني
عن سكان المدينة

الفصل الأول

وصف المدينة

الموقع ، نهر قويق ، أسوار المدينة ، الأبواب ، الحارات والأزقة ، الجوامع ، الخانات ، الأسواق ، المقاهي ، السرايات أو القصور ، مباني الحكومة ، الديوان ، الأكشاك (المشربيات) ، الحرملك ، بيوت السكن ، عن الآغاوات ، عن التجار ، عن المسيحيين واليهود ، القيصريات ، قلعة حلب ، وما إلى هنالك.

تحتل حلب*، حاضرة سورية حالياً، المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بين مدن السلطنة العثمانية. أما من حيث موقعها وحجمها وسكانها وثرواتها، فهي أدنى بكثير إذا ما قورنت بالأستانة والقاهرة. ولايمكن أن تضاهي جمال وروعة هاتين المدينتين. أما من حيث نقاء هوائها، ومتانة مبانيها الخاصة وجمالها، بالإضافة إلى جمال شوارعها ونظافتها، فبالوسع القول إن حلب تتفوق على كلتا المدينتين المذكورتين. ورغم أنها لم تعد تتمتع بنفس المزايا التجارية التي كانت تتمتع بها في الأزمنة السابقة(٣)، فإنها مازالت تحتفظ بنصيب وافر من التجارة.

تقع حلب على خط عرض ٣٦ درجة و ١١ دقيقة و ٢٥ ثانية شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ٣٧ درجة و ٩ دقائق شرق غر ينتش. وهي ترتفع كثيراً عن سطح البحر، رغم عدم التمكن من تحديد ذلك بعد**. وتتراوح المسافة من الإسكندرونة (أقرب ميناء بحري لها) بين ستين وسبعين ميلاً على خط مستقيم. وتتراوح مسافة الطريق الذي ترتاده القوافل عبر إنطاكية بين تسعين و مئة ميل.

عندما يكون الجو صافياً، يمكن رؤية قمة جبل الأقرع من الغرب إلى الجنوب، وجزء من جبال الأمانوس إلى الشمال، وذلك من مناطق مختلفة من المدينة. وعلى مسافة ثلاثين ميلاً من الغرب إلى الشمال، تظهر تلة رائعة مخروطية الشكل تدعى 'الشيخ بركات'، وعلى بعد عشرة أميال إلى الجنوب والجنوب الشرقي، يظهر جزء من سلسلة ضيقة من التلال الصخرية يطلق عليها الأوروبيون اسم *الجبال السوداء*، التي تمتد باتجاه الصحراء قرب وادي الملح*** إلا أنه لايوجد لأي من هذه الجبال تأثير كبير على هواء المدينة، باستثناء جبل الأقرع الذي تتوج قمته الثلوج في الشتاء، ويقع أقرب جزء من هذا الجبل على مسافة تتراوح بين ثلاثين و أربعين ميلاً.

تحيط بحلب دائرة من التلال على امتداد بضعة أميال. ورغم عدم ارتفاع هذه التلال، فهي في معظم المناطق أعلى من الأراضي المرتفعة الواقعة قرب المدينة. وهي

* باللغة العربية حلب وتضاف إليها دوماً صفة 'الشهباء' (أنظر الملاحظة (١). وقد ظن البعض أنها زوبة المذكورة في إصحاح صاميول الثاني. إلا أن الزعم بأنها بيروة عند الإغريق فيمكن اعتماده أكثر (الملاحظة ٢).

** تقع حلب على ارتفاع ٣٩٠م عن سطح البحر (المترجم)

*** يقصد المؤلف منطقة الجبول حيث المملحة المعروفة (المترجم).

بصورة عامة صخرية، تتناثر في أرجائها ينابيع قليلة، وهي عارية تماماً من الأشجار، إلا أنها توفر مراعي جيدة للأغنام والماعز، وفيها عدة مواقع مزروعة. وتضم المنطقة التي تقع داخل هذه الدائرة بضعة تلال منحدرة، وعدداً كبيراً من الروابي الصغيرة، وتتخللها سهول وأودية صغيرة. والتربة في بعض السهول حمراء أو سوداء اللون وهي غنية وخصبة، إلا أنها تميل بشكل عام إلى اللون الفاتح. وهي سطحية وتكسوها أحجار صغيرة. وفي معظم الأماكن، تغطي الأراضي المرتفعة طبقة رقيقة من عفن مائل إلى اللون الأبيض. وكلما اتجهنا نحو القمة، أخذت الصخور الحوارية العارية بالظهور في الكثير من المناطق.

ينساب نهر قويق في تيار متدفق هادئ باتجاه غربي المدينة. ويدخل هذا النهر، الذي يقال إنه ينبع من منطقة قريبة من عنتاب، حدود حلب قرب وادٍ ضيق بالقرب من قرية حيلان. وبعد التفافه حول العديد من الالتواءات عبر البساتين، يصل إلى الميدان الأخضر، الذي يبعد عن المدينة ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي. ومن هناك يجري باتجاه الجنوب الشرقي، ويقترب شيئاً فشيئاً من المدينة. وعلى بعد ربع ميل من إحدى البوابات الغربية*، ينحني النهر فجأة باتجاه الشرق، ويمر بالقرب من باب تحت جسر** يؤدي إلى حي المشارقة***. وبعد مسيرة حوالي ثلث ميل إلى الجنوب الغربي، يبدأ بالابتعاد عن المدينة باتجاه التلال، ويترك *جبل نحاس* (زيلت) على اليمين، ويتابع مسيره جنوباً لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال، عبر واد مزروع قبل أن يصل إلى الريف، حيث تنتهي بساتين حلب. ونظراً لأن ضفاف النهر تحوي بساتين دائمة الخضرة، فإن الإفرنج أو الأوروبيين غالباً مايختارون هذا المكان لنصب خيامهم خلال نزهاتهم.

ما إن يصل نهر قويق إلى حلب حتى يصبح مجرى صغيراً، بعد أن تنساب كمية من مياهه إلى الحقول المجاورة وهو في طريقه من عنتاب. كما تستخدم كميات كبيرة من مياهه في سقاية بساتين حلب التي تبدأ عند حيلان. ويشتد تيار النهر في الشتاء. وقد رأيته في بعض فصول الشتاء ينقلب إلى نهر مخيف، إذ كان يغمر البساتين الواطئة بالمياه، ويفيض فوق الجسور. وفي هذه الفصول كانت تغزو البساتين أسراب ضخمة من اللقلق، وهو طائر قلما يشاهد في السنوات الأخرى، باستثناء أعداد قليلة ومتفرقة منه.

لاتحدث الفيضانات الكبيرة في النهر إلا في المواسم الغزيرة الأمطار، أو عندما تهطل كميات كبيرة من الثلوج في الشمال. وفي معظم فصول الصيف، تكاد تجف قناة قويق في أسفل البساتين، وتبقى كذلك حتى مسافة أميال عديدة، حتى تصب فيه مياه بعض الينابيع بالإضافة إلى نبع رجب باشا، الذي يبعد ٦ أو ٧ أميال عن المدينة. وعند رؤية قويق في الصيف لايمكن أن يتصور المرء كيف يمكن لنهر غير ذي شأن كهذا أن يهلك جيش الإفرنج، الذي كان معسكراً على ضفافه، عندما كان يحاصر المدينة في أثناء الحروب المقدسة(٤).

ترتفع الأرض عند ضفتي النهر باتجاه المدينة قليلاً، وتتخللها بضع روابٍ. أما الطرف الآخر من المدينة، الذي يشكل الريف معظم أجزائه، فهو عبارة عن ارض تتصل

---

* لابد أن المؤلف يقصد باب أنطاكية القائم حالياً (المترجم).

** لعله جسر الدباغة الذي يصل بين باب انطاكية والمشارقة (المترجم).

*** أزيل الحي مؤخراً ولم يبق منه سوى جزء صغير قرب مشروع مبنى القصر البلدي (المترجم).

بسفوح التلال المحيطة. وتتسم الأرض الواقعة على الطرف الجنوبي بأنها صخرية وغير مستوية، وفي بعض الأماكن تقترب الروابي من الخندق كثيراً وتطل على الأسوار. وعلى الطرف الشمالي تبدأ التلة بالارتفاع تدريجياً عند أطراف الضاحية. أما التلال فترتفع بحدة أكثر، وقد بنيت الضواحي فوق المنحدر*.

تقوم حلب وضواحيها الواسعة على ثماني تلال صغيرة ذات ارتفاعات متباينة، وبالإضافة إلى الأودية التي تتخللها، فهي تشغل مساحة واسعة من الأرض المنبسطة وتشكل كلها دورة تقارب مسافتها سبعة أميال **.

لايزيد محيط المدينة نفسها على ٥ر٣ أميال، وهي محاطة بسور قديم. وعلى غرار أسوار المدن المحصنة الأخرى في ذلك البلد، فقد أخذت تتهدم بسرعة بسبب الإهمال. ويذكر م. دارفيو(٥) بأنه كان متهدماً في زمانه. ويعتقد أن أمراء المماليك هم الذين بنوا الأسوار***، التي تم ترميمها في معظم الأماكن. وهذا أمر محتمل، وخاصة عندما نعرف مدى المعاناة التي تعرضت لها المدينة نتيجة الغزوات التي شنها عليها التتار في سنة ١٢٦٠ م بقيادة هولاكو، ومن ثم بقيادة تيمورلنك في سنة ١٤٠٠م. ومن المؤكد فإنه لاتوجد دلائل تثبت أنها قديمة جداً، رغم انه يمكن الاستدلال من الفتحات الضيقة الموجودة في الأبراج، ومن حجم الأقواس، وحجم الحجارة المستخدمة في الكثير منها، بأنها كانت قد بنيت قبل فترة استخدام المدفع، وبأنها ترجع إلى فترة كانت تسود فيها روح الجهاد، ولم تكن البلاد في حالة استقرار، لذلك حافظت على هذا النموذج الضخم من الهندسة المعمارية الذي أصبح قديماً في سورية.

بالإضافة إلى السور، كانت المدينة في الماضي محصنة بخندق واسع وعميق، تتكدس في معظم الأماكن فيه الأوساخ حالياً، كما تم تحويل جزء منه إلى بساتين. وفي أماكن أخرى، وخاصة في الطرف الشمالي من المدينة، أقيمت بساتين**** واسعة توفر مشهداً جميلاً من البيوت التي ارتفعت على أطلال الأسوار القديمة بعد أن زحفت عليها شيئاً فشيئاً. إلا أن انتشار الروائح الكريهة من المياه الراكدة في بعض المواسم يجعل الأمر مزعجاً جداً بالنسبة للذين يقيمون هناك.

يوجد حالياً في المدينة تسعة أبواب، يقع اثنان منها في جنوب المدينة، واثنان في شرقها، واثنان في شمالها وثلاثة في غربها. ويعتبر باب قنسرين***** أكثر هذه الأبواب جمالاً، وأكثرها تهدماً. وقد سمي باسم منطقة كانت تعدّ مدينة رئيسية في

---

* محلة التلل المعروفة (المترجم).

** أجريت الدورة على ظهر حصان في ساعتين وأربع دقائق، وأنحو للظن أنه عند السير على ظهر الحصان دون أمتعة، فإن المسيرة المعتادة تقارب أربعة أميال بالساعة بدلاً من ثلاثة أميال ونصف الميل.

* **خطأ واضح، ولعل المؤلف يقصد ترميم الأسوار (المترجم)

** ** يقصد المؤلف شارع الخندق حالياً (المترجم).

***** يعتقد أن سيف الدولة الحمداني هو الذي بنى باب قنسرين في حوالي نهاية القرن العاشر، وأعاد بناءه الملك الناصر حفيد صلاح الدين، في حوال سنة ١٢٤٤.

سورية(٦) فيما مضى، ويطلق عليه الأوروبيون باب السجن. أما الباب الجنوبي الثاني فهو باب المقام* أو باب دمشق. ويمر السور بين هذين البابين لمسافة محددة على طول حافة صخرية عالية وعرة. وتحيط بجانبين من جوانب إحدى التلال الرئيسية في المدينة قلعة تدعى قلعة الشريف**. ومن الجهة الشرقية، يطلق على أول باب 'باب النيرب***' وثمة باب آخر يسمى الباب الأحمر****. أما على الطرف الشمالي فيوجد باب الحديد (الذي كان يدعى سابقاً باب بنقوسا) المؤدي إلى ضاحية بنقوسا. وعلى الجانب نفسه، وباتجاه الغرب، يوجد باب النصر الذي يسميه الأوروبيون باب القديس جورج، وكان يطلق عليه في الماضي اسم باب اليهود إلا أن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، الذي أعاد بناءه، وجعله أضخم وأجمل مما كان عليه، غيّر اسمه وأطلق عليه اسم باب النصر. وعند أسفل الباب بالقرب من البوابة الحديدية يوجد مصباح دائم الاشتعال. ويمكن مشاهدة المسلمين في بعض الأحيان يتوقفون في هذا المكان بضع دقائق، وهم يدمدمون بأدعية خاصة*****. واستناداً إلى ما نقلته البعثات التبشيرية، يقال إنه كان فيه مقام النبي إليشاع، وتبقى المصابيح مضاءة فيه إحياء لذكرى ذلك القديس. ويمتد السور من باب دمشق (باب المقام) إلى باب الحديد على أرض منبسطة غير مرتفعة كثيراً، ويكون منخفضاً ومتهدماً في أماكن كثيرة: وقلما يشاهد الخندق. ومن باب الحديد إلى باب النصر، يرتفع السور عالياً، ويتسع الخندق، ويحيط بحارة مرتفعة أخرى تدعى الجبيلة. ومن باب النصر وحتى أول الأبواب الغربية، يرتفع السور ارتفاعاً كبيراً، بيد أنه تحول الآن إلى أكوام عالية من البيوت الخاصة التي يقطنها اليهود.******

يرتفع السور على الجانب الغربي من المدينة عالياً، وهو مبني بشكل متين، إلا أن يد الخراب بدأت تطاله في كثير من الجهات نتيجة زحف الأبنية الخاصة إلى داخله. ومعظم الخندق ممتلئ، رغم أنه ليس مزروعاً كما هي الحال في أماكن أخرى. ويمر الطريق الرئيسي تحت السور، ويأتي أول باب في ذلك الجانب باب الفرج ******* الذي يعرفه الأوروبيون بباب الجنان، وهو أقل جمالا من بقية الأبواب باستثناء باب الأحمر. أما الباب الثاني الذي يقع على بعد مئتي خطوة إلى الجنوب تقريباً فيطلق عليه الإفرنج

* سمي باب المقام لأنه يؤدي إلى مقام إبراهيم. وكان قد شرع في بنائه الملك الظاهر وانتهى في زمن ابنه الملك العزيز.

** الحي الحالي لايزال يحتفظ بالتسمية نفسها حتى اليوم (المترجم)

*** أزيل منذ فترة وجيزة (المترجم)

**** هدمه إبراهيم باشا في عام ١٣٠٣ هـ وبنى بحجارته الرباط العسكري (القشلة) (المترجم).

***** يوجد مقام الخضر كما توجد مقامات أخرى مماثلة في باب قنسرين وفي القلعة، وهو مقدس عند النصارى أيضاً ويسمى ضريح مار جرجس (المترجم).

******حي القلة والبندرة الذي أزيل في عام ١٩٨٠ ضمن خطة تنفيذ مشروع باب الفرج (المترجم).

******* باب الفرج: حسب ماذكر ابن شداد، أطلق على هذا الباب في البداية اسم باب الفراديس كما أطلق عليه كذلك اسم باب العبارة . وكان قد بناه أصلاً الملك الظاهر، إلا أنه أغلق فيما بعد، ولم يفتح إلا في عهد الملك الناصر.

باب العتمة* في حين يطلق عليه السكان المحليون باب الجنين** الذي يؤدي إلى الجسر الذي يعبر نهر قويق في هذا المكان وهو متجه إلى المشارقة. أما البوابة التاسعة والأخيرة فهي تطل على الطريق الغربي الكبير ويسمى باب أنطاكية ***

تقع بحسيتا بين باب النصر وباب الجنان، وهي أكثر المناطق ارتفاعا وتوجد بين باب العتمة وباب إنطاكية تلتان أو منطقتان مرتفعتان، يطلق على المنطقة الأكثر ارتفاعاً العقبة. كما توجد منطقة مرتفعة خامسة تدعى الجلوم باتجاه باب السجن.

أما التلة التي بنيت فوقها القلعة فهي أكثر التلال ارتفاعاً. وتبدو القلعة للوهلة الأولى وكأنها في وسط المدينة، إلا أنها لاتبعد كثيراً عن الزاوية الشمالية الشرقية، عند عدم اعتبار الضواحي. ويحيط بالقلعة خندق عميق وعريض يبلغ نصف قطره حوالي نصف ميل، وهو يشبه خندق المدينة باستثناء أماكن قليلة، وتغمره المياه باستمرار، وهو مزروع بالأشجار والقصب أو الخضار. وقد يكون التراب الذي نجم عن حفر هذا الخندق قد استعمل في تسوية أطراف التلة، التي مما لاشك فيه تعتبر عملاً فنياً رائعاً. وفي بعض المناطق، تكسو المنحدر أحجار منحوتة من الأعلى إلى الأسفل: أما بالنسبة لارتفاعها، فيبدو أنه من عمل الطبيعة وحدها، ويمكن رؤية الصخر الحي عند القمة، على عمق بضع أقدام تحت السطح. وعندما حفرت أساسات البيوت المشيدة داخل القلعة، اكتشف وجود ذات الطبقة الموجودة في أماكن مرتفعة أخرى في المناطق المجاورة.

يقول عدد من الرحالة بأن التلة التي بنيت عليها القلعة هي تلة اصطناعية، ولذلك فهي حقاً عمل رائع. ويميل العلامة غوليوس (Golius) الذي كان قد شاهدها إلى هذا الرأي، ويقول استناداً إلى أحد المؤلفين العرب إن عدد العواميد التي تستند عليها التلة يبلغ ثمانية آلاف عمود. ويبدو من المستغرب السبب الذي يدعو إلى تشكيل هضبة اصطناعية تكلف تكاليف باهظة من أجل بناء القلعة عليها، في حين توجد تلال طبيعية كثيرة ملائمة لهذا الغرض. فضلاً عن ذلك، فإن القصة التقليدية التي يتناقلها الناس عن مكان إقامة النبي إبراهيم هناك، تستبعد فكرة أن تكون التلة اصطناعية. ويؤكد ذلك الفحص المرئي للطبقة الموجودة في القمة. ومن الناحية الأخرى، فقد استخدم كثير من الفن في تسوية التلة، وبما أن الانحدار يكون شديداً في مواضع كثيرة منها، فقد تعين دعم التربة، ولولا ذلك لانجرفت التربة بفعل الأمطار الغزيرة. ويمكن رؤية أساسات البناء القائمة لذلك الغرض في بعض أماكن الانحدار، التي أدى انجراف التربة فيها إلى تعريتها، والتي تتكون من حجر الحوّار. وفي الفترة التي قام خلالها غوليوس بزيارة

---

* من هنا جاء اسم سوق العتمة الحالي بين منطقة باب جنين وبنك سورية ولبنان سابقاً (المترجم)

**باب الجنين: يلفظ باب الجنين ويكتب بهذا الشكل في حلب، إلا أن ابن الشحنة كان يكتب اسمه دائماً باب جنان ويقول إنه سميّ كذلك لأنه يؤدي إلى الجنائن، علماً أن الجنان، شأنها شأن الفراديس، تعني الحدائق.

*** باب انطاكية: في سنة ٩٦٢، دمّر الامبراطور Nicephorus هذا الباب، إلا أن سيف الدولة الحمداني سرعان ماأعاد بناءه. وفي عهد الناصر أعيد تدميره، وأعاد بناءه ذلك الأمير في حوالي سنة ١٢٤٤.

حلب، لم يكن الأوروبيون يتمتعون بنفس المزايا التي يتمتعون بها الآن في تركيا، إذ كانت سبل الحصول على المعلومات أكثر صعوبة، ولذلك فقد تم تضليله في بعض المعلومات المتعلقة بحلب، في حين كانت روايته عن أمور أخرى كما رآها، في غاية الدقة.

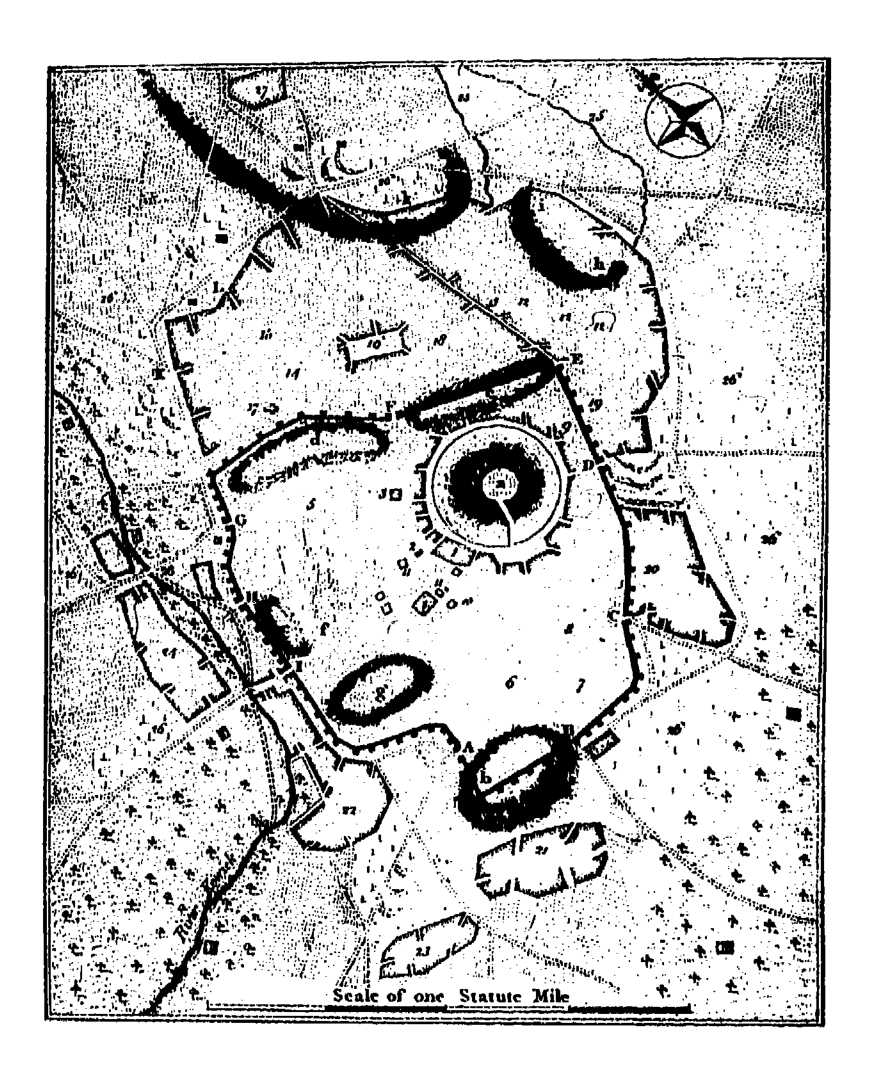
تمتد الضواحي خارج باب دمشق (باب المقام) بشكل غير منتظم إلى الطرف الجنوبي الشرقي، إلا أنه لم يلحظ ذلك الجزء إلا في حدود دائرة المدينة الواقعة بالقرب من الأسوار تقريباً. وبالإضافة إلى الضواحي الأخرى التي تمتد من باب النيرب إلى بنقوسا، فيقطن تلك الضاحية عرب وأكراد وتركمان وآخرون يعملون في الزراعة. وخارج باب الحديد مباشرة، تبدأ ضاحية بنقوسا التي تمتد إلى مسافة لابأس بها بين الشمال والشرق، ويقع قسم منها في السهل، إلا أن معظمها يقع على الانحدار الشديد للعديد من التلال التي يطلق عليها أسماء مختلفة من قبيل: شيخ يبرق وشيخ العرب وما إلى ذلك. وتضم هذه الضاحية بيوتاً جميلة عديدة، والعديد من الجوامع والكنائس الصغيرة، والأسواق والخانات والمقاهي. ومن بين الأسواق الموجودة في هذه المنطقة، السوق المخصصة لبيع الحبوب، وميدان يجتمع فيه الناس باستمرار فضلاً عن القوافل. وهو لايقل أهمية عن معظم البازارات (الأسواق) الأكثر ازدحاماً الواقعة داخل الأسوار. ويقيم الكثير من الأشراف الأغنياء أو ذوي العمائم الخضر في بنقوسا بالإضافة إلى الدليباشي* وعدد من العساكر الآخرين. ولايتعامل الناس كثيراً بالتجارة مع الغرباء، وهم أقل تمدناً من أولئك الذين يقطنون الأجزاء الداخلية من المدينة. وهم يقودون جميع الاضطرابات الشعبية، ويشكلون مجموعة يعتد بها.

وتمتد من بنقوسا عدة ضواح واسعة أخرى إلى الشمال الغربي. فتقع إلى الغرب الهزّازة والجديدة، يقطن فيها نسبة كبيرة من السكان المسيحيين، ولاسيما الضاحيتان الأخيرتان. وعلى الطرف الغربي من المدينة، تقع ضاحية المشارقة والوراقة، بحيث تقع الأولى على الطرف المقابل لنهر قويق، ويقطن في كلا الضاحيتين المسلمون والطبقة الدنيا من الناس.

---

*الدليباشي : قائد الدالاتية وهم الجنود الفرسان الكروات والألبان، ومن أسماء الأسر التركية المعروفة (دالي باشي) حرفت فيما بعد إلى اسم دلال باشي ولازالت الأسرة موجودة.(المترجم)

يقدم الرسم الملحق عن المدينة فكرة عن الموقع النسبي لهذه الضواحي(المحلة) بشكل أفضل من الوصف الشفهي. وعند تتبع مسار أو تقدم الطاعون في حلب، سيكون من المفيد الحصول سلفاً على فكرة عن موقع تلك الضواحي التي لابد أن ترد في النص. ومن أجل التوضيح نورد بعض الملاحظات*.



* في هذا المخطط، الذي حصلت عليه من صديقي العزيز السير نيبور (Niebuhr) الذي سمح لي أن استخدمه بالطريقة التي أرتئيها، وضعت علامات على الضواحي المرتفعة الواقعة داخل المدينة بدلاً من الأزقة، وأضفت عدة أبنية رئيسية. كما غامرت وأضفت عليه من ذاكرتي تعديلاً بسيطاً على مسار النهر عند جسر الكتّاب وفي موقع ضاحية المشارقة، كما وضعت إشارة على الجسر المؤدي إلى تلك الضاحية. وكيلا أشوه مخطط السيد نيبور القيّم، وضعت خطوطاً منقطة لكي أميز هذه التغييرات.

مرجع لمخطط المدينة

A باب قنسرين
B باب المقام
C باب النيرب
D باب الأحمر
E باب الحديد
F باب النصر
G باب الفرج
H باب الجنين
I باب إنطاكية
K باب الجديدة
L باب العريان
M باب الكراد

a القلعة
b قلعة الشريف
c الجبيلة
d بحسيتا
e تلة الياسمين
f العقبة
g الجلوم
h شيخ يبرق
I شيخ عربي
k شيخ عنتر

---

١ السراي
٢ الجامع الكبير
٣ المحكمة
٤ الخان الكبير
٥ حارة اليهود
٦ ساحة بزة
٧ القصيلة
٨ حارة باب النيرب
٩ البياضة والفرافرة
١٠ خان العبسي
١١ خانات
١٢ بنقوسا
١٣ العريان
١٤ الجديدة
١٥ زقاق العريان
١٦ ساحة السوق
١٧ الصليبة، كنائس النصارى
١٨ قسطل حرامي
١٩ حارة الكراد
٢٠ المقامات
٢١ الفردوس
٢٢ الكلاسة
٢٣ قرية الحبل
٢٤ المشارقة
٢٥ قناة جر المياه
٢٦ المقابر
٢٧ شيخ أبو بكر
٢٨ جسر الكتّاب

وإذا قسمت المدينة بخط يمتد من باب النصر وحتى مسافة خمسين خطوة تقريباً نحو غربي باب السجن، ستظهر أربع ضواح مرتفعة في الجزء الغربي السفلي وهي: بحسيتا وتلة الياسمين والعقبة والجلوم. ورغم أن الأرض، الواقعة في الوسط، ليست منبسطة تماماً، فيمكن اعتبارها سهلاً ولاسيما بين التلتين الآنفتي الذكر والسراي*. وتقع في تلك المنطقة بعض الجوامع، والبازارات الرئيسية، والجمرك، والخانات التي يقطنها الأوروبيون. وفي القسم الشرقي، نجد قلعة الشريف والجبيلة والقلعة والسراي. وباتجاه باب النيرب، تكاد تكون الأرض مستوية، إلا أن الأرض في معظم الأماكن الأخرى تنحدر

---

*سراي اسماعيل باشا تقع بين السفاحية وساحة بزة (المترجم)

غرباً بشكل غير منتظم. وتقع معظم بيوت الطبقة الراقية وكبار التجار في القسم العلوي. أما الضواحي الشرقية فمعظمها مبني في السهل. ويقع الجزء الأكبر من بنقوسا (كما لاحظنا) على التلال، وتغطي المنطقة التي تشكل امتداداً للتلة التي تنحدر شمالاً أبنية حتى نهاية العريان. والأرض الممتدة من العريان وحتى الجديدة غير مستوية. أما باقي الضواحي فتقع بشكل عام في السهل.

يمكن رؤية قلعة حلب من مسافة بعيدة، ويمكن للمسافر القادم من جهة الغرب أن يرى جزءاً أوسع من المدينة، حتى يقترب من إحدى التلال المجاورة، وتصبح رائعة الشكل على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من الأبواب، ورغم عدم رؤية سوى جزء من تلك البقعة، إلا أنها تبدو واسعة الامتداد. وتوفر الجوامع والمآذن والقباب الكثيرة مشهداً رائعاً، أما أسطح البيوت المستوية المبنية على التلال التي يرتفع الواحد منها عن الآخر، فيمنح مشهداً ذا مصاطب متتالية تتخللها أشجار الحور والسرو. وتتربع القلعة فوق كل ذلك، بشكل يهيمن على الجميع، وهي تدخل شيئاً من الرهبة من ذلك البعد.

إلا أن الانطباع بالروعة الذي يوحي به مشهد المدينة عن بعد يبدأ بالتلاشي مع دخول الأبواب. إذ تبدو الشوارع معتمة كئيبة بسبب ارتفاع جدرانها الحجرية على الجانبين، كما تبدو للناظر ضيقة أكثر مما هي في الواقع: بل إن بعض هذه الأزقة التي تضم أفضل البيوت الخاصة تبدو أفضل بقليل من الأزقة الملتوية التي تحيط بها جدران كئيبة كجدران الأديرة، إذ لايمكن للمرء أن يرى سوى بضع نوافذ عالية مكسوة بالشبك، كما أن الصمت والعزلة يطبقان على كل شيء. وتسهم الدكاكين البسيطة جداً، والحمامات ذات الواجهات غير المزخرفة، والجوامع بل وحتى القصور التي تلفت الانتباه بشكل عابر من خلال البوابات المؤدية إلى الأفنية، قد تسهم قليلاً في إعطائها رونقاً خاصاً عند إلقاء نظرة عابرة.

إن هذه الأمور غير الجميلة سمة مشتركة بين كل المدن التركية، إلا أنها بصورة عامة، حسنة البناء، وبيوتها كبيرة ونظيفة، وأزقتها أنيقة، وبعضها عريض أكثر من الأزقة الموجودة في الشرق. وهي مرصوفة جيداً، وفي غاية النظافة، ويوجد على جانبيها أرصفة واسعة للمشاة ترتفع نصف قدم عن أرض الزقاق. ويُخصص القسم الأوسط للأشخاص الذين يمتطون الحيوانات بالإضافة إلى الجمال وحيوانات الحمل الأخرى: وتستعمل في بعض الأحيان كمجرى مائي لجريان مياه الأمطار. وقد لاحظ بيري (Perry) أن بعض الأزقة عريضة ونظيفة ومرصوفة جيداً بالحجر اللوحي. وتلوح أمامك فجأة في بعض الأزقة أقواس عديدة متعاقبة فتمنحك مشهداً جميلاً.

توجد جوامع كثيرة في حلب، يعتبر سبعة أو ثمانية منها جوامع هامة، رغم أنه لايعلوها أكثر من مئذنة واحدة. والجوامع كلها مبينة بنفس الطراز تقريباً*: ففي جميعها

* إن الجوامع في الأستانة أكثر بهاء وروعة. وقد قدم Grelot وصفاً عن جامع أيا صوفيا وعدد آخر من الجوامع الأخرى، مع رسوم ومخططات – إذ يحوي بعضها على أربع أو خمس مآذن. كما أن الجوامع في أدرينابول رائعة جداً بسبب أعمدتها المرمرية الجميلة. غير أن الصور والرسومات التي قدمها مؤخراً M. D'Ohson تفوق كل ماظهر من قبل.

باحة مستطيلة الشكل تغطيها في الوسط قبة كبيرة، يعلق في أعلاها هلال مذهب.
ويوجد في المقدمة رواق جميل ذو أعمدة تغطيه قباب عديدة صغيرة، ويرتفع درجة واحدة عن الباحة، حيث يصلي المسلمون في بعض الأحيان، وخاصة في الفصول الحارة، وتعلق عدة مصابيح بين الأعمدة على قضبان حديدية متعامدة تضاء في ليالي الخميس وجميع أيام الأعياد. والدخول إلى الجامع يكون عبر باب كبير. وكل ذلك مبني بشكل متين من الحجر السّلس (الحجر الكلسي). وتُكسى قباب بعض الجوامع بالرصاص، وتنتصب المآذن على الطرف الملاصق للجزء الرئيسي من الجامع. وفي بعض الأحيان، تكون المآذن مربعة الشكل، إلا أن معظمها مستديرة ورفيعة. أما الشرفة التي يقف فيها المؤذن، فتكون ناتئة قليلاً عن العمود الموجود بالقرب من القمة، وتشبه تاجاً غير متقن، وبدءاً منها تصبح القمة مستدقة الطرف، وسرعان ما تنتهي بنقطة متوجة بهلال.

تبدو مئذنة جامع إسماعيل باشا جميلة الشكل، وقد بنيت جزئياً وفق مخطط وضعه أحد الأوروبيين، وكانت قد صممت أصلاً لتكون عموداً ذا تاج نظامي: إلا أن الباشا وبعد تفكير عميق لم يشأ أن يغامر بالخروج عن العادة المألوفة.

ويقال إن الوليد الذي تسلّم الخلافة في سنة ٨٦ هجرية، كان أول من أضاف المآذن إلى الجوامع.

توجد أمام الجامع باحة مرصوفة واسعة ومستديرة، وفي بعض الأحيان تبنى بيوت تحت رواق منخفض ذي أعمدة لجمع الصدقات، وتوجد في الوسط بركة مغطاة، وعلى جوانبها صنابير مياه للوضوء. وخلف الجامع، وعلى جوانبه، توجد بقعة صغيرة مزروعة بأشجار الغار والحور وأشجار دائمة الخضرة. ويدفن فيها في بعض الأحيان الأشخاص الذين أقاموا في الجامع، إلا أن المسلمين لا يدفنون أبداً في صحن الجامع.

لايسمح بدخول الجوامع إلا للمسلمين، وفي حلب لا يسمح للنصارى واليهود بعبور باحة الجامع، رغم أنه ينبغي تركها كممر عام، إلا في أوقات الصلاة. إلا أن هذا الأمر أخف حدة في الأستانة وفي أماكن قريبة من العاصمة. يقول موتراي (Motray) : دخلت الكثير من المساجد (في الأستانة) خلال أوقات الصلاة، ولم ألحظ أن أحداً قد ألقى بنظرة نحوي. وكان القس السيد شيشول (Chishull) قد قام بزيارة جميع الجوامع خلال رحلته إلى آسيا الوسطى. وعندما كان في أدرنة، لم يقم بزيارتها فحسب، بل سمح له بالصعود إلى شرفات المآذن.

تأتي الخانات في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بالنسبة للأبنية العامة. ويمكن اعتبار أن ما يقرب من عشرين خاناً من خاناتها تعد على درجة من الأهمية. وتنتشر في المدينة خانات أقل أهمية من تلك الخانات الهامة. والخانات عبارة عن أبنية فسيحة مشيدة من الحجر الصلب، وتكون عادة مربعة الشكل وتتألف من طابق واحد فوق الأرضي. ويُقسم الطابق الأرضي من كلا الجانبين إلى حجرات مقوسة من الأعلى (أقبية)، ولا تضيئها سوى نافذة من الأمام عند الباب. وتوجد في الطابق العلوي شرفة داخلية مفتوحة أو رواق مسقوف بدلاً من النوافذ، حيث توجد سلسلة من الغرف الخلفية في الداخل. ويوجد درج يؤدي إلى الطابق الأول على جانبي البوابة. أما السطح، فشأنه شأن معظم المباني الأخرى، مستوٍ وذو مصاطب. ويُستعمل الطابق الأرضي كمستودع وغرف

للحسابات وغرف للإقامة، وفي بعض الأحيان يستخدم كزرائب. أما الطابق الأول، فهو مخصص بصورة رئيسية لاستقبال المسافرين، حيث يجدون مكاناً للإقامة بأسعار معتدلة جداً. والإضاءة في هذه الحجرات أسوأ مما هي عليه في الغرف الموجودة في الطابق الأرضي، حيث يندر وجود نوافذ من الجهة الخلفية. ولا يوفر الخان سوى الحصر*، أما باقي الأثاث فيوفرها المسافر نفسه.

وكشأن الخانات الموجودة على الطرق، فإن الخانات في المدينة ليست مخصصة لإقامة الغرباء فقط، بل يقوم التجار في حلب باستئجار العديد منها لعرض بضائعهم فيها وعقد الصفقات التجارية. وتوجد لديهم غرفة صغيرة بسيطة الأثاث ملاصقة للمستودع، يمكثون فيها من الصباح وحتى صلاة العصر، ثم يعودون إلى بيوتهم التي قد تبعد كثيراً عن المدينة.

يوجد لكل خان باب واحد فقط يغلق عند المغيب. كما يوجد باب صغير** يمكن للأشخاص الولوج منه في الليل. كما توجد حجرة للآغا أو المشرف الذي يقوم بتعيينه صاحب الخان لتحصيل الرسوم على البضائع التي تدخل الخان، وتنظيم الأمور الأخرى التي تتعلق بالخان. ويعمل تحت إمرته أوضة باشي***، أو حمّال يقيم في الخان بشكل دائم، ويكون محل ثقة. وعادة ما يكون الأوضة باشي أرمنياً. وتوجد بركة ماء في وسط الساحة لتوفير المياه، وفي جميع الأحوال توجد محلات للطهي وقهوة بالقرب من الخان لاستقبال التجار.

يقيم بعض الأوروبيين في بعض الخانات الرئيسية حيث تكون البيوت فيها فسيحة ومريحة. ويحتل البيت الواحد نصف المساحة وفي بعض الأحيان كامل مساحة المربع. وفي الرواق يوجد حائط طويل فيه نوافذ كبيرة على الطراز الأوروبي تطل على الساحة، والأرضية مرصوفة بشكل جميل بالأحجار أو المرمر، والحجرات نظيفة وواسعة ومؤثثة بشكل أنيق، كما توجد المستودعات في الطابق الأرضي.

أما البازارات أو الأسواق، فهي عبارة عن أبنية حجرية مرتفعة على شكل رواق طويل، معظمها ضيق جداً، وتكون مقوسة من الأعلى (ذات أقبية) أو مسقوفة بالخشب. وتصطف الحوانيت التي إما أن تكون مبنية داخل الجدار أو تكون ناتئة عنه ومغطاة بمظلة خشبية على الجانبين، فوق مصطبة يبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاث أقدام على طول الرواق؛ وتغلق ليلاً بأبواب قابلة للثني ويتم قفلها. وفي العديد من البازارات القديمة تكون الحوانيت صغيرة جداً بحيث يتعذر على صاحب الحانوت أن يعرض بضاعته، وأن يجلس هو وأحد ضيوفه بشكل مريح في الداخل. ويتعين على الشاري أن يقف خارج الحانوت. وعندما تزدحم المحالّ المتقابلة، يتعذر على المار أن يشق طريقه عبر الزحام. إلا أن بعض الأسواق الحديثة أكثر اتساعاً، والحوانيت فيها أكثر رحابة بكثير، إلا أن جميعها مظلم، ويتم اتقاء الشمس قدر الإمكان للمحافظة على الرطوبة: لذلك تغسل بالماء

* مفردها حصيرة، تصنع من نبات قصب ذات ساق طويلة تكثر على أطراف المستنقعات، تجدل وتشكل مايشبه البساط. وقد اشتهر بهذا العمل أهالي محافظة ادلب، وهي آخذة بالانقراض الآن (المترجم).

** ويطلق عليه باب الخوخة (المترجم)

*** حارس الخان (المترجم).

مرتين أو ثلاث مرات في اليوم الواحد خلال الصيف. وعندما يكون الطقس بارداً، يلتف أصحاب المحلات بالفراء، ويستمدون الدفء من وعاء يشعل فيه الفحم.

تكون الأسواق الرئيسية قريبة من بعضها البعض في ذلك الجزء من المدينة، وتكون ملاصقة للخان الكبير. وتتخصص بعض الأسواق في بيع سلع محددة، مما يجعل الأمر سهلاً بالنسبة للأجانب الذين يرغبون في شراء حاجاتهم. وثمة العديد من الأسواق المنفصلة في أجزاء أخرى من المدينة. وفضلاً عن ذلك، يوجد في بعض الأسواق المطروقة كثيراً، سواء في المدينة أو في الضواحي، مزيج من المحلات تضم بقاليات وحوانيت لبيع الفاكهة والخبز والخضار والسلع الأخرى. ويطلق على هذه الأزقة اسم الأسواق*، وتتم وقايتها من حرارة الشمس بوضع حصر على عوارض خشبية على كلا الجانبين.

تغلق أبواب الأسواق عند الغروب، ويطوف في داخلها طوال الليل حراس يحملون عصياً ومصابيح. وتتمثل مهام هؤلاء الحراس في فتح البوابات للدوريات أو للأشخاص الذين قد يعبرونها. ومما يثير دهشة الأجانب، أن البوابات الحديدية هذه تقفل بأقفال ومفاتيح خشبية. وقد قدم راو ولف (Rau Wolff) وصفاً جيداً لهذه الأقفال فقال: "تقفل أبوابهم وبيوتهم بأقفال خشبية تكون مفرّغة من الداخل، ويفتحونها بمفاتيح خشبية طولها شبر وثخانتها بثخن الإبهام تقريباً. ويوجد في داخل هذا المفتاح ٥ أو ٦ أو ٧ أو ٨ مسامير صغيرة أو أسلاك قوية مرتبة بانتظام على مسافات منتظمة في القفل، ويشدونها إلى الأمام أو يسحبونها إلى الخلف كما يشاؤون. إلا أنه لم تعد تستخدم هذه الأقفال الخشبية على أبواب البيوت الخاصة، التي أصبحت تزود بأقفال أوروبية، بينما لاتزال تستخدم في البازارات والخانات والإسطبلات".

كما أن معظم الأزقة مزودة بأبواب يقوم حراس بحراستها، مما يجعل هرب أي متهم أمراً بالغ الصعوبة عند مطاردته. ولايتم توقيف الأشخاص الذين يشتبه بهم من قبل الدورية فحسب، بل يتعرضون كذلك للاستجواب عند كل نقطة من قبل الحراس. وتسهم الإجراءات الاحتياطية هذه، بالإضافة إلى اعتبار أي شخص يسير في الشارع وهو لايحمل فانوساً، مشتبهاً به للحيلولة دون السطو على المنازل إلى حد كبير، أو منع حدوث جرائم أخرى ترتكب في الليل عادة، والتي نادراً ما تحدث في حلب. وقلما تحدث مشاجرات في الأزقة ليلاً، إذ إن السكان المحليين الذين يعرفون بحفاظهم على النظام، يعودون إلى بيوتهم مبكرين، كما أن الخوف من اقتيادهم إلى السراي من قبل الدورية يكفي لأن يكبح معظم المشاغبين عن العبث واللامبالاة.

ومن الجدير بالملاحظة أن الحمامات لاتسهم كثيراً في تجميل المدينة، وذلك لأن واجهاتها على الشوارع تكون بسيطة جداً، وسنقدم فيما بعد وصفاً خاصاً لها.

من الطبيعي أن تلفت المقاهي اهتمام الغريب عن المدينة، أكثر من أي شيء آخر يصادفه عند تجواله في المدينة. إذ تنتشر المقاهي في جميع أحياء المدينة، وبعضها

* يقصد محاور الأسواق السكنية (أو مايعرف في المدن القديمة بالقصبة) مثل سوق قنسرين وسوق البياضة وسوق باب النصر (المترجم).

واسع ونظيف. وهي مطلية بألوان زاهية، ومزودة بمصاطب مكسوة بالحصر والمقاعد: ويوجد في المقاهي الجيدة بركة في الوسط وشرفة يجلس عليها الموسيقيون. ويستطيع العابرون مشاهدة ما يجري في داخل المقهى من نوافذه الكبيرة .ويقدم لرواد المقهى كراسي صغيرة واطئة مجدولة بالقصب. وفي الصيف، غالبا ما يفضلون الجلوس في الهواء الطلق أمام باب المقهى. ولايرتاد المقاهي عادة أشخاص من الطبقة العليا، ومن حين لآخر يرتادها جميع أفراد الطبقات الأخرى، لذلك يندر أن تكون فارغة، بل تصبح في ساعات معينة شديدة الازدحام. ويوفر هذا الجمع المختلط المتباين من الناس مشهداً ممتعاً بالنسبة للأشخاص الذين لم يعتادوا على رؤية الزي والعادات الشرقية.

يمكن تصنيف بيوت السكن إلى ثلاث فئات، الأولى: السرايات* أو القصور والثانية: بيوت التجار الأغنياء؛ والثالثة: بيوت الطبقة المتوسطة والناس العاديين.

تقع السراي التي يقيم فيها عادة باشا حلب، قرب القلعة على الجانب الغربي، وهي بناء واسع جداً وقديم. ويحيط بها جدار متين، ويكون مرتفعاً في بعض الأماكن بارتفاع أسوار المدينة. ويوجد المدخل الرئيسي للسراي على الجانب الشرقي، عبر بوابتين رائعتين، يفصل بينهما فناء يتصل من كل جانب بباحات أصغر، حيث توجد ثكنات للجند ومكاتب. وتؤدي البوابة الثانية مباشرة إلى الفناء الواسع، وهو غير مرصوف، ويستخدم ساحة للألعاب، ويوجد على جانبيه إسطبلات ومكاتب. ويتألف المبنى الرئيسي، حيث توجد الحجرات التي يقطنها الباشا وحريمه وعائلات ضباطه وخدمه، من ثلاث باحات صغيرة. ويوجد الديوان، حيث يقابل الباشا العامة في الباحة الثانية. وتوجد أمام الديوان بركة أو فسقية كبيرة يسمح للسقائين أو حاملي الماء أخذ الماء منها للعامة. وتوجد داخل أسوار السراي، بالإضافة إلى الحجرات المذكورة آنفاً، ثكنات للحراس من المشاة، ولاثنين أو ثلاثة من قوات الدالي باشي أو الخيالة. ومكاتب عديدة وإسطبل يتسع لـ ٣٠٠ أو ٤٠٠ حصان. ويبقى هذا المبنى الواسع، باستثناء عدد قليل من الحجرات التي يقطنها الباشا نفسه، دون عناية، ولو لم يكن هذا المبنى متيناً جداً لتهدم منذ فترة طويلة.

ثمة خمس أو ست سرايات أخرى حديثة البناء جميلة التشييد. وهي أصغر بكثير من السراي المذكورة أعلاه. بيد أنه يمكن أن يلاحظ المرء للوهلة الأولى أنه لم يتم بذل عناية كافية في بنائها من حيث المتانة والديمومة، كما بذلت للزخارف الزاهية. وقد قام ببناء هذه السرايات باشاوات حلب السابقون على مدى فترات مختلفة، وكانوا من السكان المحليين، أو الذين كانوا يرغبون في إنشاء أسرة فيها. ولاتزال هذه السرايات بحوزة الورثة، إلا أنها تؤجر أحياناً إلى الولاة الذين لايرغبون في الإقامة في السراي القديمة، أو إلى مسؤولين آخرين يبعثهم الباب العالي إلى حلب لتنفيذ مهام معينة. بالإضافة إلى ذلك، يوجد عدد كبير من البيوت القديمة والحديثة، ورغم أنه لايمكن أن نطلق عليها اسم سراي (بالمعنى الدقيق للكلمة) فهي تشبهها ولكن على نطاق أصغر: ويقطنها عدد من

* سراي: هذه الكلمة فارسية إلا أنها شائعة الاستخدام في حلب وفي أصقاع أخرى من تركيا، وتعني القصر أو البيت الواسع الكبير. والكلمة العربية الصحيحة هي 'قصر'، إلا أنها نادراً ماتستعمل في المعنى المستخدم حالياً.

الآغوات والأفندية.

إن السرايات الحديثة في حلب عبارة عن كتل ضخمة من الأبنية غير المتناسقة، رغم أن أجزاء منها، إذا ما أخذت بشكل منفصل، تكون جميلة ومتكيفة مع المناخ. ويتم الدخول إلى هذه السرايات من ساحة واسعة غير مرصوفة، يقوم الخدم بتدريب خيول الباشا فيها، ثم تترك في العراء بعدها طوال النهار. أما في الصيف، فتترك فيها الخيول لساعات قليلة. وعادة ماتكون واجهة المبنى الرئيسي مشوهة نتيجة عدم انتظام النوافذ، ونتوء الأكشاك، وبنائها على ارتفاعات غير متساوية. والبوابة مقوسة الشكل ومزدانة بالمرمر بألوان عديدة. ويجتازها بعض الأشخاص الذين ينتمون إلى طبقة معينة على صهوة الحصان حتى أسفل درج كبير في الباحة الثانية، تؤدي إلى صف ضخم من الأعمدة، منفتح باتجاه الشمال أو الغرب، ويقيه رفراف خشبي بارز في الأعلى من الشمس، مطلي بلون ذهبي، أو بستائر مدلاة بين العواميد: كما توجد فيها برك صغيرة وإيوان لاستقبال الزائرين. أما الحجرات الرسمية فهي مستطيلة الشكل، ذات سقوف عالية مستوية، جيدة الإضاءة بسبب وجود صف من النوافذ الواسعة. وُتزين الجدران والسقوف بالأزهار والفواكه، أو بأية تزيينات جميلة أخرى مطلية بألوان زاهية، يتخللها لون ذهبي ومصقولة جيداً. وفي بعض الحجرات، ترسم فوق الأبواب مناظر عن المدن والحدائق أو البيوت، إلا أنه لا يسمح برسم الأشكال البشرية ولا يبذل اهتمام كبير بقواعد الأبعاد والمنظور، وتكتب على الألواح وفوق النوافذ والخزائن أمثال شعبية وآيات قرآنية وأبيات شعرية، وفي بعض الأحيان، أشعار مديح تشيد بسيد البيت، وهي كلها باللغة العربية ومطلية بأحرف منمقة.

توجد بين الباب والإيوان مساحة بحجم مساحة الحجرة تخصص للخدم، وهي مرصوفة بالموزاييك (المشقفات) أو ببلاطات كبيرة من المرمر ذات ألوان مختلفة وتسمى العتبة. أما ما تبقى من المساحة المخصصة للإيوان، فهي ترتفع قدماً ونصف القدم عن الأرض على شكل مصطبة. ويتشكل الإيوان على الشكل التالي: عبر الطرف العلوي وعلى طول جوانب الغرفة، تقوم مصطبة خشبية عرضها ٤ أقدام وارتفاعها ٦ أقدام، تكسوها فرش قطنية بنفس العرض، وُيمد فوقها غطاء من القماش العريض موشى من أطرافه بنسيج ذهبي مخرم، وأهداب مدلاة حتى الأرض. وُيصف على المصطبة، وبشكل ملاصق للحائط عدد من الوسائد الكبيرة المستطيلة المحشوة بالقطن، ولكي تصبح قاسية يغلفها مخمل مزهر. ويوضع على الزاويتين العلويتين من الديوان وسائد أكثر طراوة أصغر من الوسائد الأخرى، وتلقى على فرش ناعمة رقيقة ومربعة. وُتغلف الوسائد والفرش بقماش مطرز. لذلك تكون الزوايا متميزة، وتعتبر أماكن للتكريم، ولا يدعو شخص رفيع الشأن شخصاً من طبقة دنيا للجلوس فيه. أما الأرض ذات المصطبة في الوسط، التي تمد فوقها حصيرة أولاً، فتكسوها أجود أنواع السجاد الفارسي أو التركي. وُتبذل عناية خاصة في المحافظة على نظافة الإيوان، وُيعد لاستقبال الأشخاص والضيوف، كل حسب طبقته، فيجلسون بعيداً أو قريباً من الزاوية وفقاً لذلك، أما الأشخاص الذين لا يحق لهم المثول في حضرة الكبار، فيبقون في العتبة أو يقفون عند أحد الأطراف على السجادة.

توجد في الجانب العلوي من هذه الغرف في بعض الأحيان أكشاك* خشبية خفيفة بارزة من هيكل المبنى على شكل شرفة. وهي ترتفع قدماً ونصف القدم عن أرض الإيوان، وتشكل استمراراً لها، وهي مزينة بنفس الأسلوب، ويماثل عرضها عرض الغرفة تقريباً، إلا أن السقف أكثر انخفاضاً، ويوجد على جوانبها ثلاث نوافذ تهب منها نسائم أقوى من الهواء.

أما الحجرات الحكومية في الطابق الأرضي، فيندر أن يوجد فيها أكثر من صف واحد من النوافذ على جانب واحد. ويوجد على الطرف المقابل عدد موازٍ من الخزن ذات أبواب مطلية كالسقف. ويوجد في بعض هذه الحجرات بركة في العتبة، كما يوجد فيها عادة حوض كبير أو بركة في الباحة الثانية.

أما الحجرات المخصصة لكبار المسؤولين فهي رحبة وأنيقة، إلا أنها ليست مؤثثة بشكل فخم. ونظراً لأن الحجرات المخصصة لصغار المسؤولين في السراي صغيرة، فهي ممتلئة بالأثاث: وعند وضع فرشة وأغطية إضافية يمكن تحويل الإيوان في الليل إلى سرير مريح. أما بالنسبة للوصفاء والخدم، فإن إقامتهم تكون في معظم الأحيان سيئة. إذ يضطر العديد منهم للنوم في غرفة واحدة، تكون في الوقت نفسه مكتظة بالأمتعة، بحيث يتعذر الحيلولة دون انتشار الأوساخ أو الحفاظ على النظافة المطلوبة في المناخ الحار.

يتألف الحرملك، أو الجزء المخصص للنساء، من باحة واسعة تتصل بباحات أصغر بكثير، حيث يوجد حمام ومطبخ خاص ومغسلة ومكاتب أخرى. ويزرع جزء من الباحة الرئيسية بالأشجار والأزهار، ويرصف الباقي. وفي الطرف الجنوبي، يوجد حوض ماء مربع الشكل ذو نوافير، وقد بني بالقرب منه سرادق صغير على مصطبة** حجرية،وقد تحاط العتبة بسياج يقام عليها في بعض الأحيان إيوان مفتوح. وبما أن الإيوان يرتفع بضع درجات عن الحوض، فتوجد عادة بركة صغيرة في وسط الإيوان. وبما أن الأرضية المحيطة مزخرفة بالموزاييك، فإن الماء يبللها وتعطي مشهداً رائعاً من الألوان، كما أن الماء يصدر خريراً لذيذاً وهو يتدفق إلى الحوض عبر قنوات من المرمر في الأسفل. ونظراً لوجود شجيرات أكبر في الباحة، توضع إيوانات مؤقتة في البستان، أو تعمل عرائش من أقفاص مشبكة خفيفة، تكسوها الكرمة أو الورود أو الياسمين. وعندما تتفتح الورود، يصبح منظرها خلاباً.

وفي مقابل الحوض، وعلى الطرف الجنوبي من الباحة، توجد غرفة عريضة مرتفعة مقوسة السقف وترتفع حوالي ١٨ بوصة عن الأرضية المرصوفة، مطلة على الباحة. وهي مطلية بنفس الطريقة المطلية بها الحجرات، غير أن السقف يكون مطلياً بالجص فقط أو يكون مذهباً، وترصف الأرض المحيطة ببركة ماء صغيرة بمرمر متعدد الألوان، وتوجد نافورة ماء في الوسط، وهنا يوجد إيوان كبير مجهز بنفس الأسلوب

* كيوسك (كشك): كلمة فارسية وتستعمل دائماً بدلاً من الكلمة العربية 'طياراً'. (ويطلق عليها كذلك اسم مشربية، المترجم).

** المصطبة: دكّة أو مسطبة حجرية، ترتفع قدمين أو ثلاث أقدام عن أرض الباحة.

المذكور أعلاه. وبما أنها تعد للصيف، فيستخدم فيها قماش الشيت و'الحصر القاهرية' بدلا من القماش والمخمل والسجاد، ولتمييزها فهي تسمى 'الإيوان'*

ومن الناحية الشمالية، وبسبب وجود رفراف مائل مطلي يكون بارزاً فوق القوس، وبما أنه محمي من الشمس، فهو يوفر مكاناً رائعاً للجلوس خلال الأشهر الحارة. ويدخل صوت خرير المياه ومنظر النوافير المتعة والبهجة، وإذا هبت نسمات الهواء، فتكون مشبعة بعبق الياسمين العربي والتمر حنّة، والنباتات العطرية الأخرى المزروعة في الجنبة، أو تكون مصفوفة في أصص حول الحوض. وتوجد عادة على كل جانب من الغرفة الصيفية، غرفة صغيرة أو مقصورة نظيفة ومرتبة جيداً للاستراحة، وتسمى هذه الغرف القبة، التي ربما اشتق الاسبان منها الكلمة التي ترجمتها شعوب أوروبية أخرى بكلمة Alcove**.

وعلى جانب آخر من الباحة، توجد ردهة تسمى 'القاعة' تكون مناسبة للساعات التي تشتد فيها الحرارة والرطوبة، عندما يكون وهج الشمس المرتد من الجدران الحجرية شديداً في الإيوان. وتستند هذه القاعة الرحيبة المربعة الشكل تقريباً على ثلاث أقواس عريضة، تغطيها قبة في الوسط. والعتبة تحت القبة من المرمر، وتوجد في الوسط بركة مستديرة ذات نوافير. وترتفع باقي الأرضية بنفس ارتفاع الإيوان، وكالعادة يوجد في واجهة حافة الدرجة ومقدمتها مرمر متعدد الألوان، في حين تشكل الزوايا الخلفية للقاعة، التي تفصل بواسطة حواجز خشبية، غرفتين مربعتين صغيرتين، تاركة ثلاثة أمكنة واسعة تحت الأقواس للدواوين، واحدة في مواجهة الباب، وواحدة على كل من الجانبين. والقاعة مؤثثة بأثاث فخم. وتكون في بعض الأحيان باردة بشكل يثير الدهشة. وفي جميع الحجرات، ماعدا الحجرات الحكومية، يوجد رف يحيط بالغرفة*** على ارتفاع ثلاث أقدام من السقف، حيث تصف عليها أواني كبيرة من الخزف الصيني وأوعية من الفضة والكريستال.

يعدّ الإيوان والقاعة من الأشياء الشائعة. وتحتل الحجرات الخاصة بالنساء الأبنية الأخرى التي يحيط بها عادة جزء من الباحة. وتطل جميع الغرف الرئيسية على الباحة، وهي جيدة الإضاءة والتهوية، نظراً لتجدد الهواء بواسطة هوّايات**** في الجدار، كما أنها مزخرفة بشكل كثيف: وإذا لم تكن باحة خلفية مخصصة للحريم، فإن

*الإيوان:تفهم دائماً عندما تستخدم الكلمة وحدها: وعندما يقصد بها إيوان آخر، فتميز بإضافة اسم الغرفة التي تنتمي إليها.

** لايوجد شك بان الـ Alcoba الاسبانية هي نفسها القبة العربية، ولعل كلمة Alcove استخدمت بشكل غير صحيح أعلاه للدلالة على القوس الكبير في الإيوان لايطلق اسم قبة على الغرف الصغيرة المجاورة للإيوان التي تسمى قبة. وتطلق نفس الكلمة كذلك على الغرف الصغيرة الداخلية المجاورة للشقق الأخرى.

* **تدعى هذه الغرف كذلك القبة. وكما يطلق على الغرف الأخرى قبة الإيوان، فتميز هذه باسم قبة القاعة.

**** أو بادنج أو باتنج: ملقف الهواء وسماه العرب راووق النسيم: وهومسرب للهواء يكون فوق السطح، موجه نحو الغرب يحدث جرياناً إلى داخل الغرفة لتلطيف حرارة الصيف (المترجم).

الغرف الخلفية تكون صغيرة ومعتمة. ونادراً ماتكون أطراف الباحة على ارتفاعات متساوية، إلا أنها لاتتجاوز ارتفاع طابق واحد. وتكون غرف النوم عادة في الطابق الأرضي: وتسمى الغرف الموجودة في الطابق العلوي 'المربّع'، إلا أنها مخصصة للاحتفالات في مناسبات معينة، لكونها واسعة ومؤثثة بأناقة. وتؤدي الدرجات الحجرية في الخارج إلى الغرف العلوية، تظللها في بعض الأحيان الكرمة. كما يوجد في مكان النزول مقعد مظلل بالطريقة ذاتها، ويوجد في بعض المربّعات شرفات أنيقة تبرز فوق الشجيرات.

يوجد تحت الإيوان وبعض الحجرات الأخرى أقبية ممتازة، يوجد في أسفلها صهريج ماء كبير سنأتي على ذكره فيما بعد.

كما أسلفنا فإن بيوت كبار الآغوات والأفندية مشيدة بنفس طراز بناء السرايات التي وصفناها للتو، ولكن على نطاق أصغر بكثير، ولاسيما الحجرات الخارجية. أما بالنسبة للحرملك، فإن عدم التناسب فيها فهو أقل، وبعضها في غاية الجمال والروعة، وتشغل مساحة كبيرة من الأرض.

نادراً مايكون في بيوت التجار باحة غير مرصوفة، ويكون المدخل من الزقاق مباشرة بواسطة باب كبير. وتكون الشقق الخارجية صغيرة ومؤثثة ببساطة وأناقة، وتستخدم لاستقبال الزوار الأقارب فقط في الصباح أو عند المساء. وفي مناسبات خاصة جداً، يمكن استخدام الحرملك هنا لذات الغاية، وهي تضاهي غالباً الحرملك الموجودة في السرايات، من حيث أناقتها وبهاؤها. وعادة ماتكون حجرات الحرملك مليئة وخاصة بالخزف الصيني والسجاد، بل تفوقها في بعض الأحيان.

أما بيوت المسلمين المتوسطي الدخل، فنادراً مايكون فيها أكثر من باحة واحدة، إلا أنه يوجد في الكثير منها قاعة، ويوجد في جميعها إيوان وحديقة صغيرة أو بركة أمامها. وفي هذا الصدد، فإن غرف السكن فيها، إذا لم تكن صغيرة على نحو غير معتاد، تكون مقبولة من حيث التهوية والنظافة. ومن هذه البيوت، يمكن أن نتصور التدرج منها بسهولة حتى بيوت الطبقة الأدنى. ويلاحظ أن أدنى هذه البيوت وأكثرها تواضعاً، نادراً ماتكون بدون إيوان، ويوجد فيها على الأقل بضع شجيرات مزروعة في الباحة. وتكون افضل الغرف مطلية بصورة سيئة، ويزين السقف بأدوات نحاسية بدلاً من الخزف الصيني.

تتألف بيوت المسيحيين من الطبقة الراقية من باحة واحدة تشبه الحرملك في بيوت التجار المسلمين. ويوجد في بيوت عدد قليل جداً منهم باحة خارجية أو مكان منفصل للنساء، ماعدا البيوت التي كانت قد بنيت في الأصل لأحد المسلمين. ولايختلف مدخل بيوت المسيحيين الحديثة عن مداخل بيوت المسلمين، إلا أنه للكثير من البيوت القديمة باب منخفض وصغير جداً لايتناسب مع البهاء والعظمة الذي يشاهد غالباً في داخل البيوت، لأن الكثير من تلك البيوت رحبة وفيها حجرات جميلة ومؤثثة بثراء. أما بيوت الطبقة الدنيا من المسيحيين فتشبه بيوت نفس الطبقة من المسلمين، إلا أنها أكثر تميزاً من حيث أناقتها.

يملك اليهود الأوروبيون بيوتاً مشيدة على الطريقة الشرقية وهي نظيفة.

ولايهتم اليهود المحليون بهذه النقطة الأخيرة كثيراً، رغم أن العديد منهم يملك بيوتاً كبيرة وجميلة. أما الطبقة الأدنى منهم، فتعيش حياة بائسة، والكثير من بيوت أصحاب هذه الطبقة في حالة متداعية. ويكون مستوى هذه البيوت منخفضاً عن مستوى الشارع بكثير. وتتعرض بيوت عدد آخر إلى الروائح الكريهة التي تهب من خندق المدينة: وبما أن جميع هذه البيوت مكتظة بالسكان فهم يهملون النظافة إلى درجة تثير الاشمئزاز بحيث تصبح هذه الأماكن مرتعاً كبيراً للأمراض المعدية.

يوجد في جميع البيوت مراحيض خاصة، إلا أنه من الطريقة التي تبنى فيها، تكون عرضة للروائح الكريهة في الصيف في البيوت الصغيرة. وتكون المراحيض في معظم البيوت عند مدخل البيت بشكل مناف للمنطق. وتوجد مرافق عامة مماثلة قرب معظم الجوامع، والقليل منها مغطى، وُتبذل عناية خاصة للمحافظة عليها في وضع جيد.

إن جميع أسطح البيوت (ماعدا المقببة الشكل منها) مستوية، ومطلية بمزيج من الملاط (المونة) والقار والرماد والرمل، الذي يصبح مع مرور الزمن شديد الصلابة: إلا أنه إذا لم تطل في الموسم المناسب، فقد تتشقق في فصل الشتاء. وُتفصل هذه الأسطح بحواجز من الجدران*، وينام عليها معظم السكان في الصيف. أما الإفرنج الذين يقطنون في المناطق المجاورة، فتوجد لديهم أبواب يتصلون من خلالها ببعضهم البعض، وبواسطة أسطحهم وأسطح الأسواق يمكنهم القيام بدورة كبيرة دون الحاجة إلى النزول إلى الشارع، وهو أمر مستحسن في أوقات تفشي الأوبئة. ولايتواصل السكان المحليون عن طريق الأسطح، وإذا كانت مكشوفة على الآخرين، فإنهم يرفعون الجدار بأحجار تتخللها ثقوب صغيرة لكي يتسرب الهواء منها. إن الانتقال من منزل لآخر بتلك السهولة البالغة، يكون حافزاً في بعض البلدان على السطو على المنازل، وفي واقع الأمر فإن أعمال سطو قد تتم في بعض الأحيان بهذه الطريقة، رغم ندرتها. ويعتقد الناس أن القفز من فوق حاجز سطح الجيران لايقل خزياً وعاراً عن السطو على منزله. كما أن إقدام الأشخاص على الإطلال، سواء كانوا على السطح نفسه أو على سطح مجاور، يعدّ أمراً بعيداً عن الشهامة.

قبل أن نختتم حديثنا عن البيوت السكنية، ينبغي الملاحظة بأنه يوجد نوع من الأبنية المخصصة للطبقات الأدنى من الغرباء كالبدو والأكراد أو مسلمين آخرين من أصل أجنبي والمسيحيين الأرمن تدعى القيسارية. وهي أرض واسعة يحيط بها عدد من البيوت الوضيعة المنخفضة، يتألف كل منها من غرفتين أو ثلاث غرف. وتكون الأرض مشتركة بين جميع السكان، ومرصوفة بغير انتظام، ماعدا الأرض الواقعة أمام البيوت التي تغرس فيها بعض الشجيرات. ولاتوجد بركة ماء بل توجد عدة آبار. وتتوزع أعداد كبيرة من هذه القيسريات في المدينة وضواحيها. ويطلق نفس الاسم على المباني الأصغر على شكل ساحة مغلقة أو باحة مخصصة لحرفة النسيج أو أية حرف أخرى. وبعضها في داخل المدينة يستخدم كخانات، إلا أن النوع الأول أكثر شيوعاً.

كنا قد وصفنا موقع القلعة ومشهدها من مسافة بعيدة. إذ يقع مدخل القلعة

* عرفت منذ القديم باسم ستارة وتكون عادة من آجر على شكل أنابيب تسمى الأكواز (مفردها كوز) وهي مصنوعة من الآجر الأحمر ولايزال بعضها قائماً إلى اليوم (المترجم).

على الطرف الجنوبي بواسطة جسر يتم عبوره فوق خندق، يتألف من سبع أقواس رفيعة عالية، تقوم عليها بوابتان محصنتان بأبراج صغيرة: أما الجسر عند البوابة الثانية فهو ممتد. ويجلس آغا القلعة تحت هذه البوابة مع حارسين أو ثلاثة حراس. وهم لايقفون كما يقف بقية الحرس، بل ينشغلون بعمل آخر كالتطريز أو ما شابه ذلك، وتُعلق أسلحتهم وراءهم على الحائط. ومن هذه البوابة الثانية، يكون الصعود إلى القلعة سهلاً ومباشرا حتى نهاية الجسر عند بوابة ثالثة أعلى من البوابتين السابقتين، حيث يوجد فوقها حجرات نظيفة لاحتجاز سجناء من طبقة معينة، وهم الذين تلقي الحكومة القبض عليهم. أما المسافة الباقية فهي ذات ارتفاع حاد نسبياً، وتنحني عبر ممر عريض ومرتفع مسقوف يبدو من الخارج وكأنه حصن صغير قوي، ومن الداخل، يوجد على كل جانب عربات مدفع وعوارض ضخمة. وبما أن النور لايصلها إلا من بعض الفتحات الضيقة في الجدار، فيمكننا تصور الظلام الرهيب الذي يخيم عليها بالنسبة للسجين عند اقتياده إلى زنزانته تحت الأرض. ويوجد خلف هذا الممر بوابة رابعة ولكنها أصغر حجماً، تؤدي إلى طريق ضيق مرصوف بشكل سيء، وهو مرتفع ووعر حتى أعلى التلة. وبعد اجتياز البوابة الرابعة وأثناء الصعود إلى الأعلى، تظهر بعض المحلات على الجهة اليسرى، توجد أمامها حجرات صغيرة ذات قضبان حديدية. وإلى الأعلى، ومن الناحية اليسرى، يوجد عدد قليل من البيوت القديمة الكبيرة، التي تستخدم في بعض الأحيان للأشخاص الذين يتم احتجازهم. ومن الناحية الأخرى، توجد شوارع عديدة قصيرة ومتقاطعة فيها بيوت أنيقة لأفراد الحامية. وعلى قمة التلة يوجد جامع، ويوجد بقربه بئر أو صهريج ماء عميق جداً، يتم سحب المياه منه بواسطة دولاب يديره حصان.

يخضع آغا القلعة بشكل مباشر إلى الباب العالي، وفي حالات خاصة إلى الباشا. وهو يقود حامية كبيرة جداً، ويقطن أفراد الحامية في القلعة مع عائلاتهم. ويتمتعون بحرية فتح حوانيت، أو القيام بأعمال أخرى في المدينة، إلا أنهم مرغمون على العودة قبل ساعات من موعد إغلاق الأبواب.

يستطيع الأجانب الأوروبيون الحصول على إذن بزيارة القلعة بعد تقديم طلب من أجل ذلك إلى السراي. ويمكن للأطباء من جميع الجنسيات، بالإضافة إلى المسيحيين المحليين الذين يكون لديهم عمل، الدخول بسهولة بعد الاستئذان من الآغا عند البوابة. ولايوجد شيء جدير بالمشاهدة يعوض عن عناء الصعود إلى القلعة إلا المناظر التي يمكن رؤيتها من خلال فتحات جدار القلعة.

يعتبر الحلبيون أن قلعة حلب منيعة تماماً، ولايمكن اختراقها إلا بشن هجوم مباغت عليها، أو استسلامها بسبب الخيانة. غير أن جدرانها وأبراجها في حاجة ماسة للترميم، حتى إنها لا يمكنها أن تصمد طويلاً أمام الهزات التي قد تحدثها المدافع القليلة الموجودة للدفاع عنها، والتي لم تبن القلعة من أجلها أصلاً. كما تعتبر في الوقت نفسه مخزناً هاماً للذخيرة. وفي أثناء الحروب مع الفرس، وعندما كانت المدينة تعيش في حالة من الرعب، كانت توفر ملاذاً للقضاة، وفي أثناء الاضطرابات والقلاقل المحلية تصبح سجناً للمجرمين، وفيها يتم إعدام الإنكشارية عندما يحكم عليهم بالموت.

إن أكثر ما يعكر جو المدينة الغبار والدخان. ويعتبر الخشب أوالفحم الوقود

الشائع في المدينة. ورغم انه يتم نقل الخشب على الجمال من مسافة سفر يومين أو ثلاثة أيام، فهو يباع بأسعار مناسبة. أما الفحم فيستهلك بكميات هائلة وثمنه أكثر ارتفاعاً. وقلما يشعل الحلبيون النار في غرفهم، ولاتوجد مداخن في الحجرات، ويستخدم الوقود بصورة رئيسية في المطابخ. وتعتبر الحمامات أكثر الأماكن إزعاجاً داخل المدينة. إذ يتألف الوقود الرئيسي المستخدم في تسخينها من روث الحيوانات وقاذورات الإسطبلات وقشر الفاكهة بالإضافة إلى الفضلات والنفايات التي يقوم أشخاص يجوبون الشوارع بجمعها لهذا الغرض. ويتم جمع هذه المواد في ساحة ملاصقة للحمام*، تفوح منها روائح كريهة إلى المناطق المجاورة أثناء تجفيفها وحرقها. وتستخدم الأفران الأغصان المقطوعة، إلا أنها تسبب إزعاجاً لمدة ساعة أو ساعتين في اليوم. ونادراً ما يستخدم روث الأبقار في المدينة. أما الوقود الشائع فهو روث الجمال والأغنام بالإضافة إلى أغصان الأشجار أو أغصان النباتات التي تنمو عادة في الصحراء. وتجف النباتات بسرعة في تلك البلاد بعد قطعها أو اقتلاعها.

يوجد مصنع للزجاج في المشارقة يعمل خلال أسابيع قليلة في الشتاء. إلا أنه يتم جلب معظم الزجاج المستخدم في المدينة من أرمناز، وهي قرية تبعد مسافة ٣٥ ميلاً إلى الغرب، كما يجلب منها الرمل المستخدم في المصنع الموجود في المشارقة. والزجاج رفيع، يميل لونه إلى الأبيض، وهو خشن، ويتم تشكيل الآنية بشكل جيد.

توجد مدبغة إلى جنوب غربي المدينة بالقرب من النهر، ويبعد خان الدباغين قليلاً خارج باب النيرب. وقد تم نقل المذابح إلى حقل مفتوح بجانب الضواحي الشرقية باتجاه بنقوسا، ومنها تنقل الذبائح على أكتاف الرجال إلى محلات اللحامين في مناطق مختلفة من المدينة. ويقع سوق اللحوم الرئيسي في الجديدة.

وبالقرب من الأسوار وعلى الطرف الجنوبي الغربي، تعمل عدة تنانير (ج تنور) دون توقف. وفي قرية الحبال، التي تبعد نصف ميل إلى الجنوب، يوجد مصنع لصناعة الأوتار (من أمعاء الحيوانات) تصدر عنه رائحة نتنة وكريهة في بعض أوقات السنة.

توجد مقبرة عامة واحدة داخل الأسوار**، إلا أنه توجد مقابر صغيرة خاصة كثيرة. وتكون المقابر خارج الأسوار واسعة جداً وتحيط جميعها بالمدينة. وفي الأيام الصافية المشمسة، يضفي مشهد الأضرحة البيضاء والقبور الحجرية إحساساً بالجدب الصخري عند رؤيته من مسافة بعيدة.

---

* بناء ملاصق للحمام يسمى القمّيل من القميّن وهي عربية وتعني موقد الحمام (المترجم).

** يقصد المؤلف مقبرة الجبيلة (المترجم).

الملاحظات

(١) إن المؤلفين العرب المتحمسين لدعم الفكرة القائلة بان حلب مدينة قديمة، يرجعون تاريخ نشأتها إلى بواكير عهد النبي إبراهيم، الذي يزعمون أنه عاش فترة من الزمن فوق التلة التي تقوم عليها قلعة حلب حالياً، خلال هجرته إلى أرض كنعان. وتدعم مخطوطة توجد في حوزتي بعنوان 'تاريخ حلب' هذا الرأي، وتضيف أن الناس مازالوا يزورون الجامع بورع باعتباره المكان الذي كان قد أقام فيه النبي إبراهيم، وأنه لايزال يوجد حوض حجري كان يحلب فيه أبقاره. ويبدو أن إبراهيم كان يوزع الحليب على الفقراء في قرية مجاورة، حيث كانوا يتجمعون عند ساعات معينة وهم ينتظرون سخاءه عند سفح التلة. وبما أنهم كانوا يرددون (إبراهيم حلب، إبراهيم حلب) فقد أطلق اسم حلب على المدينة التي بنيت فيما بعد في ذلك المكان. ورداً على الاعتراض القائل بأن 'اللغة العربية لم تكن اللغة السائدة في تلك الفترة، أو قبل عهد اسماعيل وقحطان) فيمكن القول إن الكثير من الكلمات العربية تتشابه وأنها ذات صلة باللغتين العربية والسريانية. ثمة إضافة صغيرة إلى هذه القصة الخرافية تتعلق بصفة (الشهباء)* التي توصف بها المدينة. علماً أن إبداء أي شك في صحة هذا القول يعتبر إهانة للاعتقاد الشعبي. إذ تقول الرواية إنه (كانت توجد بين قطيع النبي (إبراهيم) بقرة تتميز بخوارها ولونها المبرقش. وعندما كانت تحلب، كان الناس الذين ينتظرون عند السفح يميزون خوارها، فيقولون لبعضهم بعضا: إبراهيم حلب الشهباء، أي أن ابراهيم حلب البقرة المبرقشة).

لاحظ العلامة ريسك (Reisk) بأن كلمة الشهباء التي لاتوجد في القواميس، تدل على لون أشهب مبرقش بالأبيض، ويوافق على رأي غوليوس ((Golius) وآخرين بأن هذا الوصف لابد أن يكون مستمداً من لون التربة والأبنية، وهو ماذكره كذلك كاتب عربي في (مخطوطة التاريخ – ص ٢٥) إذ يقول إن البيوت كانت تبنى بصورة رئيسية من نوع من الحوار أو الطباشير. وحول هذا الأمر يذكر ابن الشحنة أنه إذا كانت تلك هي الحالة في الأزمان السابقة، فقد كان الأمر مختلفاً عندما كتب : أن المباني العامة ومعظم البيوت مبنية (كما هي حالياً) من الحجر السلس. ومهما كان السبب وراء إطلاق اسم الشهباء في الأصل، فلا يزال يستخدم في الكتابات الرسمية وعنوانين الرسائل. ويبدو أن المشهد البراق باللون الأبيض المشوب بالرمادي للمدينة من مسافة بعيدة، يسوّغ استخدام هذه الصفة.

إن المخطوطة من تأليف ابن الشحنة، من أهالي مدينة حلب. إلا أنه جاء بعد ابن الشحنة المحامي والمؤرخ المشهور، الذي توفى سنة ٨٨٣ للهجرة (١٤٧٦ م). وهي ملخص مرتب ترتيباً جيداً عن أعمال الكتاب السابقين، وخاصة ابن العديم وابن شداد، وابن الحطاب. ولم يورد أنباء القلاقل والاضطرابات التي حدثت في المدينة بالتفصيل، بيد أنه يذكر بدقة الأحياء والجوامع والقصور والخانات وما إلى ذلك.

(٢) يتفق الكتاب العرب على الرأي القائل بان الاسم الإغريقي للمدينة هو (برويا) أو (بارو) أو (بيرو). ويعثر على اسم برويا في نقشين اثنين فوق باب دمشق (باب المقام)، على كل جانب منه، وكلاهما نفس الشيء. وقد كتب تحت برويا *أبو النصر، مولانا السلطان الملك الأشرف* أعز نصره. وعلى الجدار الأيمن الملاصق للباب، يوجد نقش أطول يذكر فيه أن هذا المكان القدسي (إشارة إلى المقام) كان قد أعيد بناؤه في زمن الملك الأشرف أبو النصر. وثمة نقش آخر على الجانب المقابل للباب يحتوي على دعاء للسلطان بطول العمر. وثمة نقوش على حجرين اثنين آخرين، إلا أنهما تشوها مع الزمن وأصبح من غير الممكن

---

* الشهباء لفظ عربي ولم تعرف به حلب إلا بعد الفتح الإسلامي، وكان يطلق على القلعة ثم شمل المدينة كلها (المترجم).

قراءتهما. إن عدم وجود التاريخ يجعل من الصعب تحديد أي أمير كان يحمل لقب الأشرف الذي يشير إليه النقشان أعلاه، لكن لعله كان واحداً من السلالة الشركسية.

(٣) لايقصد بالأزمنة السابقة الزمن الذي سبق المؤسسات البرتغالية في جزر الهند الشرقية، عندما كانت حلب تتمتع بحصة ضخمة جداً من التجارة مع الهند وفارس. وليست تلك الفترة التي سبقت سنة ١٦٨١، عندما كانت الشركة الشرقية تصدر كميات كبيرة من المصنوعات الصوفية والسلع الإنكليزية الأخرى، التي بلغت قيمتها في بعض السنوات خمسمئة ألف جنيه، وكانت تستورد بالمقابل الحرير الخ.. وكان جزء كبير من السلع يمر عبر حلب: إلا أن الأزمنة المشار إليها هي منذ بداية القرن الحالي تقريباً (القرن السادس عشر).

(٤) كان المكين (Al Makin) قد ذكر قصة تدمير معسكر جيش الصليبيين في سنة ١١٢٣م نتيجة ارتفاع منسوب مياه نهر قويق بشكل مفاجىء. وقد ورد ذلك في مخطوطة غير منشورة، ترجمت عن تاريخ المؤلف بقلم Gagnie في أكسفورد (المخطوطة رقم ١٠ (.Hunt). (بعد أن استمر الحصار ثمانية أيام، وكان المكان على وشك الاستسلام، ارتفع منسوب مياه نهر قويق على نحو مفاجىء وغمر ضفتيه، وجرف الخيام، وهلك عدد كبير من الرجال، مع أمتعتهم وأغراضهم وأحدث ذلك خسائر جسيمة). وكانت قد حدثت هذه الكارثة عند حوالي الساعة الثالثة عصراً، رغم أن كتاب *لتاريخ العام* يشير إلى هذه الفقرة في المكين، ويحدد فيضان قويق قبل موت بلك بن بهرام الموبيج، في حين يقول المكين إنه حدث بعد ذلك، وذلك لأنه مما لاشك فيه أن كلمة ملك وردت خطأ في المخطوطة التي أوردت بلك بدلاً من ملك. ويضيف المكين أن أقسنفر استولى على حلب بعد يوم واحد من حدوث الفيضان أو نحوه. ويذكر أبو الفرج أن وفاة بلك كان في سنة ٥١٨ هـ (١١٢٥م)، ويقول إن أقسنقر استولى على المدينة. إن النقد في التاريخ العام المتعلق بالغازي بن أرتق لهو نقد عادل بالتأكيد. كما يجدر بالملاحظة أن بوكوك في ترجمته لأبي الفرج يكان يكتب دائماً الغازي، رغم أنها ترد في النص العربي البلغزي أو البغازي (التاريخ العام الحديث، مجلد ٣، ص ٣٣٢).

(٥) كان م. دارفيو (M. D'Arvieux) قنصل فرنسا في حلب من تشرين الثاني ١٦٧٩ وحتى بداية عام ١٦٨٦. وخلال إقامته السابقة في بقاع مختلفة من الشرق لمدة اثني عشر عاماً، تعلم اللغة العربية والفارسية والتركية واليونانية، وكان بوسعه التكلم بطلاقة بهذه اللغات، وعقد صفقات تجارية دون مساعدة ترجمان. وقد مكنّه ذلك من التعرف على عادات وأمزجة المسلمين (الذين كان على اتصال وثيق بهم) أكثر من معظم الأوروبيين في هذه الأوقات. وقبل قدومه إلى حلب، كان مبعوثاً إلى تونس والأستانة، وأقام لفترة من الزمن بصفة قنصل في مدينة الجزائر. ورغم أن دارفيو يورد تفاصيل غير هامة في ذلك الوقت، فإن مذكراته ضمت معلومات مثيرة للاهتمام.كانت ملاحظاته حول روح الأتراك وسلوكهم السياسي وشخصيتهم العامة أكثردقة، ورواياته موضوعية تقريباً أكثر من روايات الرحالة الذين قاموا بجمع المعلومات عن طريق التراجمة.

يضم المجلد السادس من مذكراته وصفاً عن مدينة حلب وترد فيها بعض الأمور غير الدقيقة ولكن يمكن أن تعزى إلى المحرر لا له. فالصفة الشهباء تكتب شيلا وكلمة بال عوضاً عن باب فيقول: Bal Tanacarin بدلاً من Bab Kinnasrin وباب المقام مترجم بأنه (باب السيدات) وكلارت بدلاً من قلة، وسوناكات بدلاً من ساحة وما إلى هنالك. إن شخصاً متضلعاً إلى هذه الدرجة باللغة مثل م.دارفيو لا يمكنه أن يقع في أخطاء فاحشة كهذه: فإما أن تكون أوراقه قد نسخت بإهمال شديد، أو أن محرر كتابه قد ملأ فجوات يمكن أن يكون قد صادفها في المخطوطة عن مؤلفين آخرين يجهلون اللغات الشرقية. وقد وجدت أنه من المناسب أن أذكر ذلك قبل أن أورد مقاطع من (المذكرات) التي تخص مؤلفاً أكنّ له كل الإحترام.

وبعد فترة وجيزة من إصدار مذكرات دارفيو صدركتاب صغير في باريس في سنة ١٧٣٥ م

بعنوان 'رسائل نقدية لحاجي محمد أفندي' حول موضوع المذكرات .. وما إلى هنالك، ترجمه عن التركية أحمد إفرنجي، المرتد فلاماند . ويهاجم الكاتب كلاً من دارفيو ومحرره بلا هوادة، إلا أنه يدافع بشدة عن سلوك اليسوعيين في تركيا (ص ٣٩) ويمقت التفضيل الذي يمنحه لسكرتير القنصل،بحيث يتضح أن العمل صادر عن جهة مسيئة وليس عن مرتد.

وينبغي الإقرار بأن محرراً مثل لابات (Labat) قد تجاوز حده مع مؤلفه،إلا أن الكثير من الأمور التي وردت في (الرسائل النقدية) لاتعزى بالتأكيد إلى دارفيو، وإنه من السخف الادعاء بجهله باللغةالشرقية (ص ٤٨).ولايمكن أن يكون ذلك إلا بسبب أخطاء مطبعية ارتكبت أثناء عمليةالنسخ أوعند الطباعة أوربما بوساطة المحرر. وبشكل عام فإن هذا النقد لايقلل من مقام م. دارفيو من حيث الأمور التي استشهدت بها منه،ولاتغير هذه الرسائل من مصداقيته، وخاصة أنه صادر عن شخص خيالي خادع. وفي وصفه للمدينة، يورد قائمة بالشوارع والحارات حيث يذكر أن تلك الموجودة داخل الأسوار تبلغ اثنين وعشرين، وخمسين خارج الأسوار تضم جميعها ١٣٣٦٠ منزلاً، بالإضافة إلى ٢٧٢ مسجداً وكنيسة، و٣٥ قصراً و٦٨ خاناً و١٨٧ قيسارية و ٦٤ حماماً وما إلى هنالك. بحيث يبلغ العدد الإجمالي للبيوت والمباني العامة أربعة عشر ألفاً ومائة ونيف (مذكرات الفارس دارفيو، المجلد الرابع، ص ٤٣٤، باريس ١٧٣٥م).

وقد وجدت بين أوراق أخي قائمة مكتوبة باللغة العربية عن الشوارع والضواحي مع عدد البيوت في كل منها،وهي مؤرخة في سنة ١١٦٦هـ (١٧٥٢م)، واعتماداً على الخط المكتوب، أعتقد أنه حصل عليها من مكتب المحصل، وبما أنها غير مشفوعة بمذكرة تفسيرية فلا يمكنني الركون إلى صحتها. إذ تعطي توزيعاً يختلف عما أورده الفارس دارفيو، إذ يذكر أن عدد الشوارع والضواحي ١٣٦، إلا أنه رغم أن الضواحي داخلة في الحساب، فإن عدد البيوت لايتجاوز ١٠٧٤٢. ولم تذكر الخانات والقيسريات والجوامع وما إلى هنالك ولذا يحتمل أنها لم ترد. وإذا كانت رواية دارفيو دقيقة، فإن ذلك يدل علىانخفاض عدد البيوت بـ ٢٦٢٨ بيتاً منذ عام ١٦٨٣م.

(٦) قد توجد بعض الروايات القديمة عن قنسرين أو Chalcis القديمة، التي يطلق عليها الآن اسم حلب القديمة في كتابات المؤلفين التالين: أبو الفداء Wesselingiush Goliush كانت قد وقعت في أيدي المسلمين في السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٠م) بعد فتحهم سورية بفترة وجيزة.

يصف السيد دراموند (Drummond) الذي بذل جهداً كبيراً في دراسة الآثار القديمة في تلك البقاع من العالم، حالتها الراهنة فيقول: عدنا عن طريق ريحة، ومنها عبر سهل رائع إلى حلب القديمة، كما كانت تسمى، أو مدينة Chalcis القديمة، التي أعطت اسمها للمدينة المجاورة. وبسبب وجود الماء، نصبنا خيامنا قرب نهر سينجاس (قويق الآن)، على مسافة من المكان الذي تقوم فيه المدينة. وفي الصباح رحت أبحث عن بقاياها، وذلك لأنه ليس بوسعي أن أطلق عليها اسم أطلال، وذلك أنه لايمكن مشاهدة فيها شيىء من قبيل بيت قائم، رغم أننا عثرنا على عدد كبير من الأحجار المربعة والأساسات، ولاسيما أحجار الأسوار التي تبلغ سماكتها تسع أقدام. وهي تحتل رقعة واسعة من الأرض. وقد احتلت القلعة هضبة كبيرة جداً ملاصقة للمدينة، ويحيط بها جدار مزدوج. ومن هذه القلعة استمتعنا بمشهد رائع للريف الذي يمتد إلى مسافة شاسعة حولنا، إلا أنه لايزرع خمس هذه الأراضي.

الفصل الثاني
عن القناة والبساتين والمناطق المجاورة لحلب

القناة ، الخزانات الخاصة ، السبيل ، الآبار ، بساتين حلب على ضفتي النهر والقناة ، وصف البساتين، أشجار الفستق الحلبي ، المحاجر ، الحجر والكلس والطين ، ترابة القصّار ، وادي الملح ، القرية الغائصة ، الينابيع المعدنية على طريق الإسكندرونة وفي كلّس ، وصف عام للساحل ، عن الريف.

يتم تزويد المدينة بالمياه من نبعين ينبعان بالقرب من حيلان، وهي قرية تبعد حوالي ثمانية أميال إلى الشمال. وُتنقل المياه من هناك بواسطة قناة جر، ويجري جزء منها على مستوى الأرض. وفي بعض المناطق تكون مغطاة، إلا أن معظمها يكون مكشوفاً. ويجري جزء آخر منها تحت الأرض، وتتم تهويتها بواسطة فتحات للتهوية. وبعد تعرجات عديدة، تدخل القناة المدينة من الطرف الشمالي الشرقي. وُتوزع المياه بواسطة أنابيب فخارية أو رصاصية إلى الأحواض العامة، والحمامات، والسراي، والبيوت الخاصة التي تدفع مبلغاً معيناً لقاء ذلك. أما البيوت الأخرى أو البيوت الواقعة في الأجزاء المرتفعة من المدينة، فتحصل على المياه من السقائين الذين ينقلون الماء من الأحواض في قرب من جلد الماعز تعد خصيصاً لهذا الغرض. ويحملونها على ظهور الخيل أو على أكتافهم.

يعتقد بعض المؤلفين العرب أن هذه القناة وجدت مع وجود المدينة. إلا أنه يقال إن الإمبراطورة هيلين، والدة قسطنطين الأكبر، التي بنت كذلك الكنيسة التي أصبحت حالياً الجامع الكبير*، كانت قد رممتها. وفي عام ١٢١٨ م، وجد الملك الظاهر بن صلاح الدين، أن القناة في وضع يرثى له، فعمل على إصلاحها وتوسيعها. وقد كلفه ذلك نفقات باهظة، وبذل جهوداً عظيمة. ويذكر ابن الشحنة أن ذلك تم في سنة ٦١٥ للهجرة، ويقول إن الملك الظاهر حصل على جزء من نفقات هذا العمل من الأمراء الذين ينضوون تحت سلطته، كما فرض عليهم أن يعسكروا هم أنفسهم في مواقع العمل لكي يتمكنوا من الإشراف على العمال وحثهم على العمل في الوقت نفسه. وبناء على عملية مسح سابق، قدر أن عمق الماء يبلغ ١٦٠ بوصة، وينخفض حتى أقل من ٢٠ بوصة عند وصولها إلى المدينة. ويضيف ابن الشحنة نقلاً عن ابن الخطيب بأن الملك الظاهر أنشأ وقفاً لترميم القناة، إلا أن الوقف لم يعد موجوداً في زمنه.

يشيد الكتّاب الحلبيون، وخاصة الشعراء منهم بجودة المياه الممتازة. وهم لايفضلونها على مياه دمشق ومياه الفرات فحسب، بل على مياه النيل كذلك. وقد تتعكر

* يخطىء المؤلف هنا، فقد تم تحويل الكنيسة إلى مدرسة دينية بعد عام ١١١٩ وسميت 'المدرسة الحلوية' وهي تقوم أمام باب الجامع الأموي الغربي (المترجم).

المياه عندما يتم غرفها، غير أنها سرعان ما تعود وتصبح رائقة بعد ساعات قليلة.

وُتحفظ المياه في البيوت في جرار (خواب) فخارية كبيرة، توضع تحتها أوعية لكي تتحدر عليها الماء الذي يرشح من الأسفل. ومن الواضح أنها تحفظ بهذا الشكل لأغراض أكثر أهمية. وبما أن القناة تتعرض للأتربة كثيراً، فقد يتعين تنظيفها سنوياً. ويتم ذلك في شهر أيار بتوجيه من القاضي. وتستغرق عملية تنظيفها عادة ثمانية أو عشرة أيام. وخلال تلك الفترة، تقطع المياه عن المدينة وُتغلق الحمامات. ورغم أن ذلك يتم وفق إشعار سابق للعامة، فإن إمداد المياه يتم عن طريق الخزانات، ويضيق الناس ذرعاً من جراء ذلك(١).

تزود الكثير من الخانات والبيوت الصغيرة بخزانات مياه كبيرة تحت الأرض تدعى صهاريج*. وُتجلب المياه إلى بعض هذه الصهاريج بواسطة الأنابيب الموصولة من القناة مباشرة، إلا أن معظمها يملأ في أوائل الربيع بواسطة السقائين. وبعد ملئها بالماء، تغلق فتحة الصهريج، وُتحفظ المياه حتى الأشهر الحارة، وُتسحب بواسطة وعاء رصاصي وحبل. وتكون لذيذة وباردة، وتستمر على هذه الحالة طوال الصيف. وتنتاب البعض الشكوك بأنها ليست صحية تماماً وخاصة بعد بقائها راكدة لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر.

إن السبل العامة في المدينة نظيفة، وهي عبارة عن بناء بسيط ذي نوافذ مقوسة واسعة يحميها شبك من الحديد. وُتحفظ المياه في خزانات رصاصية، ويوضع بجانبها كوب نحاسي صغير معلق بسلسال لمن يود الشرب من المارة. أما الذين يأتون لملء دلائهم، فإنهم يملؤون الماء من صنابير نحاسية تكون باتجاه الشارع. وتنتشر السبل في الشوارع الرئيسية، ويوجد دائماً سبيل بالقرب من الجوامع والأسواق. ويقام معظمها من الأعمال الخيرية الخاصة. إن النوافير الكبيرة التي تزين الباحات الخارجية للسرايات تنفتح كذلك على الجوار، ولذلك، فلا تتبدد سوى كميات قليلة من المياه.

توجد في معظم البيوت آبار تسحب منها المياه. وعادة ماتكون الآبار عميقة ومعرضة للجفاف، أو لأن تشح منها المياه في الصيف. وفي المناطق المرتفعة من المدينة، يضطر السكان إلى حفر آبار عميقة جداً للحصول على المياه. وبما أن مياه الآبار عسرة وقليلة الملوحة، فهي تستخدم في غسل الباحات، وتزويد الخزانات والسبل بالمياه، بالإضافة إلى بعض الاستعمالات البسيطة الأخرى. وخلال تنظيف القناة، تجلب المياه في بعض الأحيان من مناطق قريبة من نهر قويق، وفيما عدا السكان المقيمين بالقرب من الباب المظلم أو في المشارقة، فإن النهر لايسهم كثيراً في إمداد المدينة بالمياه.

خلال جريان القناة من حيلان، تزود طائفة من البساتين بكميات كبيرة من المياه، الموجودة بدرجات متفاوتة على ضفافها والتي يطلق عليها عادة بساتين باب الله، من قرية تحمل ذات الاسم في منطقة مجاورة. وُيبذل جهد كبير في توزيع المياه إلى تلك الأراضي بواسطة قنوات متقاطعة صغيرة حفرت في التراب. ومع مرورها بالتتابع من البساتين الواقعة بالقرب من القناة إلى الأراضي الواطئة، تم وضع أنظمة تمنع

*تبنى الصهاريج تحت أرض الدار وبشكل متقن. وللصهريج فتحات للتهوية لئلا تصبح المياه آسنة، كما يتم تنظيفها بشكل دوري (المترجم).

احتجازها بشكل تعسفي لفترة أطول من الفترة المسموح بها لكل بستان، وذلك لكي تحصل جميع البساتين على حصصها بالتساوي. وبين بساتين باب الله وحيلان، توجد بساتين بعاذين* التي يطلق عليها الإفرنجة اسم البساتين المستطيلة، المزروعة كذلك على ضفاف القناة.

تحيط بأحد جوانب بساتين باب الله سلسلة من التلال الواطئة، يقع عند طرفها منزل شيخ يدعى الشيخ فارس، وعلى الطرف الآخر، توجد تلة هرمية جميلة، منحدرة، سهلة الصعود، وتكسوها الكرمة وحقول القمح. وعلى القمة، يوجد مكان يقيم فيه أحد الدراويش وهو الشيخ أبو بكر، وهو مبني بشكل جميل ومزدان بأشجار السرو السامقة. وإلى الجنوب من البساتين، يوجد الطريق العام المؤدي إلى تلال المدينة ذات الارتفاعات المختلفة. ويوجد على جانبه الأيمن مرج جميل، يتم ريه كما ذكرنا من الينابيع، ومن المياه التي تجري عبر البساتين، مما يجعله دائم الخضرة طوال السنة.

يوجد بالقرب من هذا المرج**(٢) قصر كان يقيم فيه السلاطين الأتراك من حين لآخر، عندما كانوا يقودون جيوشهم إلى سورية. إلا أن يد الإهمال طالته منذ أمد بعيد، ولايمكن السكنى فيه وهو في وضعه الحالي. ويسقى بستان الميدان*** من نهر قويق، الذي يلتف جنوباً في هذا المكان. ورغم أنه يقوم على رعايته بستاني من الباب العالي، يقيم فيه، فإنه لايحظى بالعناية الكافية. إذ تطال يد الخراب الإيوانات الحجرية والجسور والأروقة التي فيه بسرعة. وهو المكان الذي ذكره راوولف (Rauwolff) . إذ أن مايسميه كنيسة صغيرة مبنية فوق النهر، ماهي إلا مقصورة حجرية أو سرادق مازال في حالة يرثى لها. ويعتقد بأن الحديث الذي جرى بين السلطان سليمان ومستشاريه كان قد تم في هذا السرادق، وذلك حسب مارواه البستاني لراوولف.

كنا قد ذكرنا أنه توجد مساحات شاسعة من البساتين يبلغ طولها حوالي اثني عشر ميلاً، أي من حيلان إلى مسافة تقارب أربعة أميال على الطرف الآخر من المدينة جنوباً. وتقع هذه البقعة على طول النهر، إلا أن عرضها غير متساو، شأن عرض السهل أو الضفاف المنحدرة التي تسير في نسقها أو تعوق امتدادها: إذ تكون على أحد جوانب النهر في بعض الأحيان، وعادة ماتكون ضفتا النهر مزروعتين.

تمتلك هذه البساتين عادة جهات دينية، أو يملكها أحد الأفندية**** أو الآغوات***** ممن يتمتعون بنفوذ يمكنّهم من حماية الفلاحين المستأجرين لديهم لأنه تبذل عناية في زراعتها. إلا أنه نظراً لأنها تقع بالقرب من المدينة، فهي تتعرض إلى أعمال السلب من قبل الجنود، أو المتسكعين وخاصة في موسم نمو الثمار. لذلك فإن أصحابها يكونون غالباً من ذوي العمائم الخضر أو الإنكشارية.

---

* بساتين بعاذين معروفة وقد بنيت فيها حالياً مؤسسة المياه ونادي حلب الصيفي(المترجم).

* * المرج الأخضر

*** يوجد حي سكني في مكانه يعرف بحي الميدان (المترجم).

* ***رجل قانون

***** سيد

تفصل البساتين جدران حجرية واطئة. ورغم أن تنوع مزروعاتها ينشأ عن اختلاف طبيعة الأرض، فهي لا تختلف في طريقة زراعتها، بحيث أن وصف بستان واحد منها يكفي لإعطاء فكرة عن جميع البساتين في سورية. وبما أنها تزرع سعياً للربح أكثر من المتعة، فإنه لايبذل لتحسينها سوى جهود قليلة جداً، كالتسوية أو إقامة منحدرات في الأرض، أو إدخال أية تحسينات أخرى ليس لها صلة مباشرة بالزراعة التي تدر ربحاً. وهي مزيج من الحدائق المنزلية وحدائق الزهور. ولاتوجد ممرات تفصل بين أحواض الزرع أو القطع المزروعة بالأعشاب.

يقسم كل ذلك إلى حقول مربعة أو مستطيلة الشكل، وهي محفوفة بشكل غير منتظم بأشجار قصيرة، وشجيرات مزهرة، وأشجار طويلة من بينها شجر الدلب، والصفصاف المتهدل، والدردار، والحور الأبيض التي تمنح العين منظراً رائعاً. ويزرع في بعض البساتين الباذنجان، والبطيخ والخيار بالإضافة إلى نباتات صالحة للأكل وخضار وبقوليات للطهي: ويزرع في بساتين أخرى القطن والتبغ والسمسم والخروع والفصة، كما يزرع في بعضها الشعير الذي يتم حشه وهو أخضر لاستخدامه علفاً للخيول في الربيع.

تتخلل هذه البساتين مناطق واسعة مزروعة بالرمان والخوخ والكرز، وفي بعض الأحيان من حقول تضم مختلف الأشجار المثمرة التي تزرع عادة في الريف. ورغم أن هذه الأشجار تزرع في بعض الأحيان في صفوف، إلا أن معظمها يزرع بجانب بعضها البعض دون اعتبار لأي تناظر، فتشكل بذلك كثافة برية غير منتظمة. وفي بعض المناطق، تتشكل أماكن تحت ذوائب الأشجار الباسقة، التي تتشابك أغصانها في الأعلى، وتمنح ظلاً لأزهار مختلفة، وأعشاب طرية برية كثيرة، تحافظ على عبقها لأنها تبقى محمية من الشمس. أما الأزهار المخصصة للبيع، فهي تسهم قليلاً في تزيين الحدائق، لأنه لايتم تنسيقها في رياض منظمة، ولاتوزع بشكل فني بين الأشجار.

يتم ري الحدائق، ماعدا باب الله من النهر بواسطة نواعير فارسية، وتنقل المياه بواسطة مضخات وأنابيب خشبية أو قنوات إلى خزانات في الأراضي المرتفعة، وتترك لتنساب في قنوات الري من حين لآخر كما ذكرنا. وحيث تكون الأرض مظللة جيداً، ولاتحتاج إلى سقاية كثيرة، فإن الجداول المتباعدة تتجمع وتنساب في تيار أسرع، ويظهر الجدول المتسع في بعض الأماكن بين أوراق الأشجار، وعندما يتوارى عن العيون، يسمع له خرير شجي.

رغم أن البساتين في حلب لاتبدو أنيقة بالنسبة لعين الأوروبي، فهي توفر ملاذاً رائعاً للمسافر المتعب عند الظهيرة*. وحتى أولئك الذين يمكن لمخيلتهم أن تستعيد

* تلك الظهيرة القائظة، والشمس العمودية
تتجه باشعتها القوية صوب الرأس مباشرة
وتنتشر في أرجاء السماء والأرض، وعلى امتداد
البصر، الشمس التي تبهر الأبصار
والكل يتلظى من القطب إلى القطب.

المشاهد الخلابة، فبوسعهم إيجاد متعة فائقة في مشاهدة شجيرات الرمان الملتفة وقد نضجت تماماً. وبعد أن تكون النسائم العليلة وخرير الجداول وخضار البساتين قد سحرت لبه، فإن أذنيه تلتقطان صوت تغريد البلابل على نحو أكثر متعة، مما قد يسمعه في انكلترا. ويجد متعة رائعة وهو يتكيء على الحصيرة البسيطة، ويتوجه إلى الله بالشكر. وفيما هو غارق في هذا المزاج الرائق، فلن يشعر بالأسف لأن الأشجار غير مشذبة كما هي الحال في إنكلترا.

رغم أن البساتين تهدف في الأصل لجني الربح، فقد بذلت في الوقت نفسه عناية لجعلها ممتعة. وتوجد بيوت صيفية في معظم البساتين الواقعة بالقرب من المدينة لاستقبال العامة، وهي مزودة بنوافير وأكشاك بارزة فوق النهر، وفي أماكن أخرى توجد على مسافات أبعد قليلاً دور رحبة يلجأ إليها الفرنجة في الربيع، والسكان المحليون في الصيف.

وبما أن التنزه على الأقدام ليست العادة المفضلة بالنسبة للسكان المحليين، فلم تبذل عناية بممرات البساتين، أو تقليم الأغصان الزائدة. إذ يحيط بهذه البساتين عادة طريق واسع، ويمر طريق آخر في وسطها، أما باقي البساتين، فتتخللها ممرات ضيقة متشعبة.

أما نهر قويق الذي تدين له جميع البساتين بوجودها، فإنه يسهم بأقل مايجب توفيره لتزويقها. وهو يبدو قرب الأكشاك والجسور، حيث يتم تسوير ضفافه بالأحجار كقناة اصطناعية. وفي أماكن قليلة، حيث أقيمت أرصفة للمطاحن أو محركات المياه، فإنه يشكل شلالات صغيرة: إلا أن التيار متدفق وعكر، وضفتاه في الكثير من الأماكن إما أن تكونا محفوفتين بالقصب والشجيرات، أو تشوهها جذور الأشجار التي تندفع من الأطراف، فتهدد التربة وتسد القناة. ورغم أنها مهملة في بلد تشكل فيه المياه منظراً يبعث على المتعة، فإن النهر يختلف نوعاً ما، ويعطي المشهد حيوية وجمالاً.

ويتعذر إمداد التلال المنحدرة الواقعة على جانبي النهر إلى الغرب والجنوب الغربي من المدينة، لأنها تكون بعيدة جداً أو شديدة الإنحدار. إذ تمتد هذه التلال إلى مزارع الكرمة وأشجار الزيتون والتين أو إلى البساتين، حيث تختلط كل هذه الأشجار، وتتخللها أشجار الفستق الحلبي. إلا أن كروماً شاسعة من الفستق الحلبي تغطي الأراضي المرتفعة الواقعة شرقي وجنوب شرقي المدينة، المكسوة بأحجار كثيرة، والتي تكون شديدة الجفاف، ويتم إمدادها بالمياه في الصيف من الآبار أو من الخزانات التي تملأ في الربيع. وفي جميع البساتين، يبنى بيت صغير مربع الشكل لإيواء الحارس في موسم الفاكهة، أو تبنى فيها أكواخ مؤقتة من الخشب، وتغطي سقوفها بالقصب الأخضر والأغصان.

يتحدث الحلبيون بمتعة فائقة عن البساتين في حلب. وهي تزود المدينة بالكثير من الخضار والفاكهة. وتسهم في تحسين صحة السكان ومتعتهم، والابتعاد عن حياة الروتين والعيش بوتيرة واحدة، وحصولهم على متعة التروض واستنشاق هواء أنقى: ويمكن الإضافة إلى ذلك، أنه في أشهر الصيف، حيث لايكاد يبقى أثر للخضرة في الحقول المفتوحة، فهي توفر بديلاً مقبولاً، وخاصة للغرباء الذين يأتون من المناطق

الجافة والعارية، التي يمكن مشاهدتها في مناطق عديدة على الطريق من الإسكندرونة إلى حلب.

توجد مقالع أحجار واسعة في مكان قريب من المدينة، تزود المدينة بأحجار بيضاء كلسية، سهلة القطع في البداية، إلا أنها سرعان ماتصبح قاسية بعد تعرضها للهواء. ويتم تشييد جميع المباني بهذا النوع من الحجر، ماعدا جدران القواطع الصغيرة التي تبنى من حجر حوار قاس، يتوفر بكثرة في شمال المدينة. إن المقالع القديمة عبارة عن حفريات واسعة، تشكل تجاويف واسعة تتصل ببعضها بممرات طويلة جداً تحت الأرض*. وهي في وضعها الحالي، توفر مسكناً في الشتاء لبعض البدو الذين ينصبون خيامهم في أوقات أخرى من السنة تحت أسوار المدينة، كما تستخدم في بعض الأحيان كاسطبلات للجمال. وفي معظم الأحيان، يحولها الإنكشارية إلى أماكن لممارسة الفسق. أما المقالع الحديثة فهي مختلفة: إذ يفتح سطح واسع من الأرض، أو يحفر على طول سطح إحدى التلال.

يوجد نوع متدن من المرمر الأصفر الذي يحتاج إلى صقل، ويستخدم في تزيين أجزاء من المباني ورصف الساحات الداخلية. وتُجلب انواع أخرى من المرمر من أماكن بعيدة. إذ يجلبون من دمشق مرمراً أحمر، ومن كلسّ يجلبون نوعاً آخر أسود خشناً، ويستوردون من إيطاليا نوعاً أملس أبيض، ومن انطاكية يجلبون قطعاً قديمة مختلفة. ويشبه المرمر الحلبي المعروف المرمر الدمشقي الأحمر بعد دلكه بالزيت وتركه في فرن متوسط الحرارة لبضع ساعات.

رغم توفر الحجر الكلسي بكثرة في المنطقة المجاورة، فإن تكاليف الحرق تجعل من الكلس مادة باهظة الثمن. وبالإضافة إلى استعماله في البناء، فإن كميات كبيرة منه تطلب لتركيبها مع المواد التي يبنون فيها المصاطب. ويتم تحضير جص باريس (المصيص) من حجر جبسي يوجد في منطقة بعيدة قليلاً عن المدينة، إلا أنه لايوجد بوفرة. ويُستعمل في طلاء ** الغرف الرئيسية، كما يستعمل كإسمنت في الأنابيب الترابية الصغيرة لأحواض *** المياه وقلما تتمكن المناطق المجاورة للمدينة من توفير الصلصال**** وفي حال توفره فيكون من نوعية رديئة لاتناسب الأغراض العامة: الجرار، بل وحتى القرميد المصنوع منها، التي تتفتت من تلقاء نفسها. وعند صناعة القساطل، يضطرون إلى خلط قدر من الصلصال الذي يجلب من أماكن بعيدة. وتصنع أفضل قساطلهم من صلصال يأتون به من دمشق أو صيدا. أما أفضل خوابي المياه

* يعطي بول لوكاس Paul Lucas الذي قام بزيارة بعض المغارات بالقرب من السجن في سنة ١٧١٤، وصفاً دقيقاً عنها وذلك حسب ما بوسعي أن احكم عليه من الأشياء القليلة التي رأيتها بنفسي. وقد اعتبرت على الدوام أن الممرات الطويلة تحت الأرضية التي يتحدث عنها الحلبيون باستمرار أنها ضرب من الخيال.(أنظر رحلات بول لوكاس في تركيا سنة ١٧١٤، المجلد ١، ص. ٢٨٨).

** تطلى جدران الغرف بالكلسة البيضاء لتعكس ضوء النهار عند الغروب (المترجم)

*** لا تبطن النوافير أو الأحواض بالمرمر، بل تُطلى بمادة مركبة مكونة من الكلس السريع والحوار والزيت. وهذا الطلاء متين ويدوم فترات طويلة من الزمن، ويمنع تسرب الماء بصورة فعالة.

**** الطين الغضاري (المترجم)

والفخارات الأخرى التي يستعملونها فهي تلك التي يجلبونها من أماكن بعيدة.

وهم يجلبون كميات كبيرة من نوع من تراب القصّار يسمونه البيلون* إلى المدينة بكميات كبيرة من قرية تبعد حوالي عشرين ميلاً. ويحملونه على ظهور الحمير، ويباع في الشوارع. ويُستخدم كثيراً في الحمامات كمنظف للشعر بديلاً عن الصابون، حيث يمزج بأوراق ورد مجففة، ويُصنع على شكل كرات. وتستهلك الحوامل** والفتيات المريضات خفية كميات كبيرة منه.

يبدو من مظهر بعض التلال الصخرية بأنها تحتوي على حديد خام. وحسب معلوماتي فإنه لم تكتشف معادن بالقرب من حلب أو في أي مكان آخر من سورية في الوقت الحالي. ويستورد الرصاص والقصدير والحديد بشكل رئيسي من إنكلترا وهولندا. وتوجد مناجم الرصاص والنحاس في أرمينيا، وتجلب من توكات (Tocat) إلى حلب كميات كبيرة من الأدوات النحاسية*** الجاهزة الصنع بواسطة قوافل من البغال، حيث يتم طليها بالقصدير وصقلها****. وتوجد في بعض الأحيان أدوات ذوات نوعية أدنى بالقرب من انطاكية.

وعلى مسافة ثمانية عشر ميلاً جنوب شرقي المدينة، يوجد سهل واسع الامتداد يعرف باسم وادي الملح أو بحيرة الملح (سبخة الجبول)، التي تزود حلب والمناطق الريفية الممتدة على مسافة أميال كثيرة بالملح. ويحيط بالسهل أحياناً سلسلة من التلال الصخرية الواطئة، وتمتد على الجوانب الأخرى باتجاه الصحراء على امتداد البصر. ورغم أنها تبدو في وسط السهل بالنسبة إلى الشخص القادم من جهة قرية الجبول، فهي ترتفع قليلاً. ويجدر زيارتها لما توفره من مشهد جميل من قمتها. إلا أن الرحالة الذي يتوقع أن يصادف بقايا أبنية قديمة أو آثاراً، فإنه سيصاب بخيبة أمل كبيرة، رغم أن الفلاحين هناك لايكفون عن التأكيد بأنها لاتزال تشاهد هناك*****.

تشكل الأمطار التي تهطل خلال الأشهر الماطرة سيولاً خفيفة مؤقتة تجري من التلال المحيطة. وبالإضافة إلى المجرى المشهور والمعروف بنهر الذهب****** الذي

*البيلون: نوع من الحجارة الطينية الهشة التي تذوب بسرعة في الماء وتشكل نوعاً من الغضار، تجلب من مواقع قريبة من مدينة حلب وهي تمتص الدهون(المترجم)

**جرت العادة أن تنتاب بعض النساء الحلبيات حين يحملن في الأشهر الأولى رغبة في تناول بعض القطع الصغيرة من البيلون. وهي ظاهرة لدى بعض النساء الحوامل تسمى (الوحم). (المترجم).

*** إلى الغرب قليلاً من التلة التي يطلق عليها الإفرنجة جبل زيلت، يوجد ما يدعى جبل النحاس، حيث يقال إنه كان يوجد منجم للنحاس في الماضي، إلا أنه لم يمكن استغلاله بسبب ارتفاع أسعار الوقود. يُجلب نوعان من النحاس من أرمينيا، أحدهما أغلى ثمناً من الآخر، وذلك لأن الحلبيين يظنون أن الآنية المصنوعة منها تغلي فيها الماء في وقت أقصر بكثير من الآنية النحاسية العادية.

**** وهو مايسميه الحلبيون بالمبيض (المترجم)

***** دلت المكتشاف الأثرية الحديثة على غنى المنطقة بالمباني الأثرية (المترجم)

****** يخص ابن الشحنة نهر الذهب بالذكر ويقول إنه كان يعتبر واحداً من عجائب الدنيا بالإضافة إلى قلعة حلب وبئر كانت تُشتهر بشفاء الأشخاص الذين تعضهم الكلاب المسعورة.

يجري من نبع يبعد بضعة أميال باتجاه قرية الباب، تنضم إلى الينابيع التي تنبع في الوادي نفسه، وتشكل بحيرة ضحلة لكنها واسعة جداً. وتتبخر المياه في الصيف، ويترك الملح الذي يفصل عن التراب العالق بأسفله، لكي يتبلور على السطح، فيشكل طبقة من سماكات مختلفة في أماكن متفرقة من الوادي.

عند النظر إلى البحيرة عند شروق الشمس في شهر آب، تبدو وكأن الماء فيها قد انجمد على سطحها، وبأنها مكسوة بالثلج قليلاً. ويستخدم عدد من الرجال والنساء والأطفال في ذلك الموسم لكسر طبقة الملح، التي تتراوح سماكتها من نصف بوصة إلى بوصة واحدة أو بوصتين اثنتين. ويعد فصل السطح العلوي عن الأجزاء السفلية، التي تمتزج دائماً بالتراب، يكوّم النوعان في أكوام صغيرة، ثم تملأ في أكياس، وتنقل على ظهور الحمير إلى الجبول، حيث يتم تجفيف الملح تماماً، ويذرى كما يذرى القمح، ثم يفصل بعناية أكبر إلى أكوام ذات درجات متفاوتة من النعومة. وأفضل أنواع الملح هو الأبيض الناصع.

إن تربة السهل طمية وشديدة التشرب بالملح. إلا أنه يبدو أن مياه جميع الينابيع في المنطقة المجاورة عذبة. ويوجد في سفح التلة في وسط البحيرة نبع يقول الفلاحون بأنه مالح لكني لم أره. وكان الملح في ذلك الطرف متماسكاً، ويتشكل في كتل أكبر بكثير مما هي في الأطراف الأخرى. وكانت سماكة بعض الطبقات تزيد على ثلاث بوصات، وذات لون جميل ضارب إلى الحمرة. وقد وجد أن الملح قد غطى الأشنيات وأوراق النباتات الأخرى الموجودة على مسافة من حدود البحيرة شأن النباتات التي تنمو على شاطىء البحر.

قد يكون القول بأن مياه الأمطار هي التي تزود البحيرة بالمياه بشكل رئيسي صحيحاً، وذلك لأن كمية الملح الموجودة تتناسب دائماً مع رطوبة الشتاء. وتوجد أكبر كميات الملح في الطرف المتجه نحو الجبول، حيث تستقر المياه في عمق أكبر: وفي أماكن عديدة أخرى من الوادي، يختلط الملح بكمية كبيرة جداً من التراب، بحيث لايجدي جمعه.

وإلى الغرب من حلب وعلى مسافة تقارب أحد عشر ميلاً وثلاثة أو أربعة أميال إلى جنوب قرية عنجر أو عينجارة، يوجد تجويف كبير في الأرض يعرفه السكان باسم (القرية الغائرة)*(٣). وهي توجد في وسط السهل، وأرضها مكسوة بالحجارة. وهي أنسب للزراعة من الأراضي الصخرية الوعرة حولها، رغم وجود تلة مرتفعة أكثر قرباً من الشيخ بركات إلى الشمال الغربي.

إن هذا التجويف الواسع مستدير الشكل تقريباً، ويزداد ضيقاً كلما اتجهنا للأسفل. ويبلغ محيطه ألفاً وخمسمائة وتسعة وثمانين قدماً.وجميع جوانبه مستديرة، ويتألف من صخور عمودية يبلغ عمقها مئة وسبعين قدماً، ثم يبدأ التجويف بالتقلص حتى يتوارى الصخر بسبب التراب والأحجار الصغيرة المفككة، التي يبدو أنها سقطت من الأعلى. ويستمر الارتفاع إلى مسافة كبيرة فوق الأوساخ عند القاعدة. وتتألف بطانة هذا

* يطلق عليها السكان المحليون الآن اسم الهوتة (المترجم).

التجويف من عدة طبقات افقية، تبلغ سماكة كل منها أربع عشر قدماً، توجد بينها فتحات أو شقوق توفر ملاذاً للطيور والخفافيش والحشرات المجنحة. وتتألف المادة الصخرية من المرجان والأصداف البحرية المختلفة، وقد تصلبت بفعل مادة كلسية بيضاء كالثلج تقريباً، إلا في الأماكن التي حال لونها نتيجة الأتربة التي جرفتها الأمطار.

لعل الوصول إلى القعر بسلام مغامرة شاقة، ولايمكن محاولة ذلك إلا من الطرف الشرقي، حيث يتم الهبوط في بعض الأحيان بواسطة ممر ملتو، ودرجات غير منتظمة على الجانب. وفي أحيان أخرى، عبر فتحات أو أقواس في الصخر القاسي. ويوجد في منتصف الطريق وعلى الجانب الأيمن، مدخل إلى مغارة ذات سطح واطىء، وتوجد عند الطرف الآخر فتحتان كنوافذ تبدو منهما إطلالة رائعة رومانسية، حيث تنتشر أنواع متنوعة من الأشجار وتنبثق النباتات من الأطراف، أو تنمو بكثرة في الأسفل.

لايمكن رؤية أية ينابيع أو مياه راكدة: إلا أنه بالإضافة إلى الكثير من الأحجار التي سقطت من الجوانب، توجد في الأسفل عدة أحجار منحوتة بشكل مستطيل ومربع، وهي تشبه تماماً الأحجار الموجودة بين خرائب القرية المهجورة التي تقع على مسافة ليست بالبعيدة عن حافة الفجوة. ويوجد بين هذه الخرائب والفجوة بئر عميقة جداً، أو حفر عميقة لحفظ القمح، وكهف كان يستخدم للأغنام والأبقار*.

لايعرف من أين جاء الإفرنجة بالرأي القائل بأن هذه الفجوة قد نجمت عن هزة أرضية. ولايوجد لدى السكان المحليين رواية من هذه القبيل، إلا أنهم يعتبرونها من صنع الطبيعة، وبأنها تعود إلى زمن الخليقة. ويشبه شكلها فوهة البركان : إلا أنه لاتوجد فيها أية آثار للحمم أو أية دلائل أخرى على وجود بركان فيها أو في منطقة قريبة منها. ويتحدث الرحالة عن وجود بركان يبعد حوالي تسع ساعات من الإسكندرونة(٤).

وتوجد بضعة ينابيع حارة على مسافة تقارب اثنتي عشرة ساعة على طريق الإسكندرونة، بين أرمناز وانطاكية، بالقرب من كفر دبين. ويذكر Teixeir بانه أخذ قسطاً من الراحة في الليلة الثانية من رحلته وهو في طريقه من حلب إلى الإسكندرونة، بالقرب من جدولين مائيين، أحدهما مليء بالفوسفور، والآخر عذب وجيد، رغم ابتعاد أحدهما عن الآخر مسافة أربع خطوات فقط.

ويوجد على جانب إحدى التلال التي تبعد عن كلّس قليلاً نبع معدني بارد. ولايستعمل أي من هذه الينابيع من الناحية الطبية في حلب: إلا أن سكان كلّس يشربون كميات كبيرة من مياه النبع الأخير كدواء لأنه مسهل قليلاً (٥).

يمتد الريف الذي توجد فيه تلال إلى مسافة لاتقل عن عشرين ميلاً بين الغرب –الجنوب – الغرب والشمال الغربي إلى الغرب، ويتخلله عدد من السهول الصغيرة الخصبة. وقد قدم Teixeira وصفاً كاملاً عن جمال الريف الممتد بين حلب والإسكندرونة خلال شهر نيسان، ورسم Moryson صورة جميلة عن الجبال والسهول على الطريق من طرابلس إلى حلب في شهر حزيران(٦).

* أشعر بالامتنان لأحد الأصدقاء لقيامه بتزويدي بالكثير من المعلومات المذكورة أعلاه، والذي قام بناء على طلبي بزيارة المكان في تشرين الأول ١٧٧٥، وقد قمت بتصويب مذكرتي مما نقله لي.

يصبح الريف إلى الشمال والجنوب، وعلى مسافة ستة أو سبعة أميال منبسطاً، ولايعد مكسواً بالحجارة. وبنفس المسافة تقريباً تبدأ الصحراء إلى الشرق، التي تكون تربتها، وعلى امتداد عدة أميال على طريق البصرة، ناعمة وخفيفة وخصبة.

تحيط بالساحل السوري كله جبال عالية، ماعدا المناطق القريبة من سلوسيا (السويدية حاليا) حيث يجري نهر العاصي وهو في طريقه إلى البحر المتوسط، عبر سهل يقع بين جبل Pieria والجبل الأقرع.

وتكسو الجبال أشجار وشجيرات ونباتات متنوعة، تبقى خضراء طوال الصيف بسبب كثرة الينابيع العذبة. ويكون الطرف المتجه نحو البحر وعراً في بعض المناطق، وأقل وعورة في مناطق أخرى. وفي أماكن كثيرة تتداخل سهول ضيقة بين السطح والشاطىء. ويجف عدد لاحصر له من الجداول الصغيرة والسيول الشتوية المنحدرة من الجبال، وبعد أن تروي الأراضي المنخفضة عند اندفاعها بتيار سريع إلى البحر. أما في السهول الأكثر اتساعاً، حيث لايسمح مستوى الشاطىء بتسرب المياه، فتتشكل مستنقعات ضارة، وتنتشر روائحها العفنة التي تتصاعد في الأشهر الحارة إلى المناطق المجاورة. وتنطبق هذه الحالة على الإسكندرونة*، ميناء حلب(٦).

وسرعان ماتضيع الأنهار الصغيرة التي تجري على الجانب الأرضي في السهول الواسعة وراء الجبال، إلا أنها تنشر الخضرة حيثما جرت ويزداد جمالها من فوق التلال وهي تلتف وتجري بصورة رائعة تحت ظلال الآس والدفلى. وتتكون السهول على الطرف المقابل من هذه السهول المتداخلة، من تلال واطئة صخرية جرداء، وتوجد خلفها سهول شبيهة بالسهول الأولى وهي شديدة الخصوبة، رغم أنها تعتمد على الأمطار فقط، وعلى السيول بصورة مؤقتة. ويمتد هذا التعاقب بين التلال والأودية حوالي ستين أو سبعين ميلاً داخل الأراضي، ثم يمتد الريف، كما ذكر لي، بشكل مستو حتى البصرة، ويشكل مايسمى بالصحراء العربية (٧).

يمكن الإضافة إلى هذه الصورة العامة للريف، أنه من بين الأنهار التي تنبع من الجانب الأرضي للجبال البحرية، فلا يتجه نحو البحر سوى نهر العاصي. أما الأنهار الأخرى التي تجري في هذا المكان من سورية (التي هي بالفعل قليلة وليست كبيرة) سرعان ماتتشربها الأرض وهي في طريقها عبر السهول العطشة، أو تصب في البحيرات. ورغم أن نهر العاصي يتلقى إمداداً من بحيرة انطاكية، ويفيض غالباً بسبب الجداول والأنهار الجبلية التي تصب فيه، إلا أنه يبدو كبيراً في المكان الذي يصب فيه في البحر أكثر مما يبدو على مسافة أميال عديدة بالقرب من منبعه.

---

* يقصد المؤلف أنه الميناء الذي تتصل به حلب مع البلدان الأخرى بالتجارة وماتحمله السفن إليه وتصدره منه (المترجم).

الملاحظات

(١) يؤكد الحبر بينجامين الطليطلي، بأنه لم يكن لديهم آبار أو نهر في حلب، وبأن السكان لم يكونوا يشربون سوى مياه الأمطار التي تجمع في خزانات (صهاريج) وكانوا يطلقون عليها اسم الجب (رحلات بنجامين بقلم Baratier مجلد١، ص١٢٦، أمستردام ١٧٣٤). ويعتبر مترجم بينجامين (Baratier) أن هذا التأكيد ليس إلا دليلاً على أن الرحالة لم يقم بزيارة حلب على الإطلاق. إلا أنه يخطئ هو نفسه عندما يؤكد أنه يوجد ما لايقل عن نهرين هما: السينغا (Singa) وقويق، الأول يمر عبر المدينة، والآخر يسقي البساتين، إلا أنهما ما هما إلا اسمان مختلفان لاسم نهر واحد، الذي لا يسهم في واقع الأمر في إمداد المدينة بالمياه إلا قليلاً.

كان بينجامين في حلب في عهد نور الدين، ومن المحتمل أن يكون قد تم إصلاح القناة، لأن الملك الظاهر، وجدها خربة بعد عدة سنوات، وتطلب إصلاحها مبالغ كبيرة. وكان يطلق على الصهريج أو الخزان، في بعض الأحيان، الجب، الذي أصبح يطلق حالياً على آبار السحب، وبما أنه يستحيل أن يكون في كل بيت صهريج، لذا فمن المحتمل أنه كان في معظم البيوت آبار سحب. ولازالت العادة جارية بأن تُحفظ مياه الأمطار لاستخدامها داخل المنزل، إلا أن الأمر يحتاج إلى خزانات ضخمة بالفعل لاحتواء كميات كافية من المياه في بلاد لا تهطل فيها الأمطار لمدة ستة أشهر أو تهطل بكميات قليلة. كما يعتبر Baratier أن حديث المؤلف نور الدين دليل آخر على أن كلامه كان نقلاً عن آخرين. وبافتراض أن المؤلف يعني القصر، فمن المؤكد أنه يقدم وصفاً غير واف، أما إذا كانت السرايا الحالية موجودة آنئذ (ويبدو أنها قديمة)، فإن الوصف صحيح. ولئن كان أمراء ذلك الزمن يقيمون باستمرار في القصر، فهذا شأن آخر. وفي الوقت نفسه، فإن مقالة Baratier في المجلد الثاني، تجعل من المحتمل جداً أن بينجامين كان بالأحرى جامعاً وليس رحالة حقاً. وكانت رحلات هذا اليهودي المفترضة بين سنة ١١٦٠ و١١٧٣.

وقد قيل إنه يمكن تعويض نقص المياه في الصيف لسقاية البساتين بسهولة إذا ماالتقى نهرا الساجور وقويق. وكان هذا المشروع موضع نقاش شديد أكثر من مرة، وخصص أفراد أتقياء أموالاً لهذا الغرض، ومنذ حوالي اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة، أرسل أشخاص من الأستانة لمسح الأرض، وقبل سنوات، كان قد بدأ العمل بالفعل، وأجري بعض التقدم في شق القناة؛ إلا أنه يُظن أن العمل، رغم فائدته العامة، كان قد قوبل بمعارضة في حلب من قبل عدد من الأشخاص من ذوي النفوذ، الذين ستتأثر مصالحهم نتيجة انخفاض قيمة أراضي البساتين التي يملكونها والواقعة بالقرب من المدينة، وذلك لأن توفر المياة بهذه الكثرة سوف يشجع على قيام زراعات جديدة.

يقدر بوكوك في رحلته إلى الفرات أن Zelchif تبعد ثماني ساعات من حلب، وعشرة من عنتاب، وثلاثة من كلس، ودخل بعد أربع ساعات سهل الساجور الذي يمر منه نهر يحمل نفس الاسم إلى الشرق من القرية. وتقع الساجور خلف هذا الجدول عند سفح هضبة صغيرة. وعبرنا ثلاث قنوات شُقت من هذا النهر لنقل المياه إلى نهر حلب، الذي مررنا فوقه حوالي ميل أو أكثر، وفي هذه المنطقة، فهو نهر أكبر مما هو في حلب، وتجري منه عدة جداول في الأسفل لسقاية الريف. وكما علمت فإنه ينبع من مسافة ساعتين جنوب شرقي عنتاب. وقد توجه رجل إنكلزي إلى المكان الذي يدعى Yadereen Hajar أو Gadjcia، حيث شاهد أنه ينبع من حوالي أربعين نبعاً بقرب بعضها بعضاً. وكان ثمة رأي في زمن

Golius أن هذه الينابيع كانت تأتي من الفرات (وصف الشرق، مجلد رقم١، الصفحة١٥٤).
حول منبع نهر قويق انظر Drummond (رحلات، ص٢٠٤ و٢٤٣).

(٢) هذا هو المرج (الذي كان يدعى الميدان الأخضر) الذي أقام فيه صلاح الدين معسكره، بينما كانت تعقد المعاهدة التي مكنته من استعادة حلب بعد موت الملك الصالح (سنة ٥٧٩هـ، ١١٨٣م)، وإلى هذا المكان قدم كبار رجال المدينة لتقديم فروض الطاعة له، ثم انتقل إلى القصر (القلعة) حيث أعد له احتفال مهيب. (Vita saladini vers. schultens, lugd. Bat. ١٧٣٢) ويظهر الكاتب في فقرة أخرى التقدير الكبير الذي كان يكنه صلاح الدين لحلب. وعندما أرسل ابنه الملك الظاهر إلى المدينة وهو يحمل لقب السلطان، وأشار عليه أن يجعلها أساس مملكته وقاعدة لها، وبعد حيازتها ينبغي عليه أن يتخلى عن جميع غزوات الأقاليم الشرقية الأخرى في المستقبل، وأن يقصر جهوده على الحرب المقدسة فقط. وقد قابل الملك الظاهر أعيان المدينة في (عين المباركة)، ودخل إلى القلعة قبل الظهر وسط تهليل وفرحة الشعب (ut supra) ص٦٥

تجدر الملاحظة من الفقرتين أعلاه، أنه يبدو أن الأمراء في ذلك الوقت كانوا يقيمون، أو كان لديهم قصر في القلعة، ومما يقوله دارفيو، يبدو أن الباشاوات كانوا يقيمون هناك بين الحين والآخر في عهده (المذكرات، المجلد الرابع، الصفحة ٤١١ و٤٤٣). إلا أن *Coto vicus* يبين، أنه في عام ١٥٩٩، كان الباشاوات يقيمون في السرايا القديمة، حيث لا يزالون.
(*Itinerarium Hierosol et Syriacum Antwerp.* ١٦١٩)

(٣) يبدو أن الرحالة نادراً ماقاموا بزيارة القرية الغائرة. ويورد بوكوك في كتابه الوصف التالي الذي استمده من شخص التقى به بعد عودته إلى انكلترا: (إنها حفرة مستديرة بيضوية الشكل يبلغ قطرها حوالي مئة ياردة وعمقها أربعين ياردة، وتحيط بها صخور صماء متعامدة في العشرين قدماً الأولى، ويوجد تحتها انحدار وعر إلى القعر. وثمة طريق واحد يؤدي إلى القعر لايمكن للحيوانات المرور فيه. وفي منتصف الطريق، توجد مغارة محفورة في الصخر يبلغ ارتفاعها حوالي أربع أقدام وطولها ثلاثين قدماً (وصف الشرق، المجلد ١، ص. ١٦٩).

(٤) عندما كان O. Otter في بيلان في عام ١٧٣٧، قيل له إنه يوجد جبل أرسيز وهو يبعد حوالي تسع ساعات عن الاسكندرونة، والذي اندلع فيه حريق منذ بضع سنوات. Otter (الرحلات إلى تركيا، المجلد ١، ص. ٧٩، باريس ١٧٤٨). وفي طريقه إلى السويدية يذكر بوكوك أنه سمع بهذا البركان من شخص انكليزي إلا أنه لم يره بنفسه. (Ut. Supra ص. ١٨٢)

(٥) في آب ١٧٥٥، تم ملء قارورة بكمية من الماء من النبع في كلس، وأحكم إغلاقها بفلينة، وتم إحضارها إلى حلب في اليوم الرابع. وبدا لون الماء بلون الحليب المخفف، وكانت رائحته تشبه رائحة البارود المنفجر حديثاً. وكان طعمه طعم بيضة فاسدة، فيها ملوحة ذات مرارة تشبه محلولاً ضعيفاً من ملح إبسورن. ولكن تلاشى الطعم والرائحة الكبريتية تماماً، عندما وضع الماء في وعاء مفتوح بعد حوالي ثماني ساعات. وقد تبخر ٢ باوند ونصف الباوند من الماء بعد وضعها فوق نار هادئة، ووصل وزنها إلى أربع أونصات، ثم تركت تبرد، وترسب راسب سميك مائل للون الأبيض، ويبلغ وزنها عندما جففت خمساً وخمسين حبة، وبدا أنها تحتوي على تراب الكلس مع كمية قليلة من الملح. وتبخرت الأونصات الأربع المتبقية حتى الجفاف، وأعطت خمساً وتسعين حبة من الملح، مختلطة مع شيء من التراب الكلسي الأقل حجماً. تم حل الخمس والخمسين حبة من الراسب مع الخمس والتسعين حبة من الملح في مياه نبع وتم ترشيحها. وبقي في المرشح ست وأربعون حبة من التراب المائل للأبيض، ولم

يكن له طعم أو رائحة. وقد كسر بشكل عرضي الوعاء الذي وضع فيه المحلول المرشح لكي يتبخر، ولم يمكن تحديد كمية الملح بدقة.

(٦) يقدم P. teixeira وصفاً جميلاً عن جزء من الجبال السورية، المكتسية بالألوان الزاهية. ويصف Moryson في اليوم الثالث من رحلته من طرابلس إلى حلب، جزءاً آخر من الجبال والسهول السورية، فيقول: 'انطلقنا في الصباح الباكر، وأمضينا ثماني ساعات في تسلق الجبل الذي كان شديد الارتفاع، إلا أن الطريق كان سهلاً، فيه التفافات وتعرجات كثيرة حول الجبل، الذي تنمو فيه الكثير من الفاكهة البرية اللطيفة غير المسمدة بالروث، وفيه كذلك أفضل البساتين المسمدة بالروث'. وعندما عبرنا الجبل 'صادفنا سهلاً شاسعاً من القمح لم يكن قد حصد بعد (حزيران). وبعد العشاء واصلنا سيرنا في السهل، ورأينا بعض القرى التي تعد نادرة جداً في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف. وفي صباح اليوم التالي، واصلنا رحلتنا ومررنا بنفس السهل، وعلى مدى ست ساعات لم نر خلالها ظل شجرة واحدة، ووصلنا إلى مدينة حماة. وهي مليئة ببساتين نخيل البلح والأشجار المثمرة، وكان يوجد بالقرب منها ست قرى على مرمى البصر. وفي يوم الأربعاء (اليوم الخامس من طرابلس' واصلنا سيرنا (من حماة) بعد الظهر، وسرنا طوال الليل في هذا السهل، حيث لم يكن هناك ظل شجرة واحدة. وعند الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس، واصلنا سيرنا، وعند حوالي منتصف الليل وصلنا إلى مدينة المعرة. وفي صباح اليوم التالي، واصلنا المسير، ومررنا بطريق قاحل، لكنه مليء بأشجار الجوز، كانت تحط عليها الطيور وهي تغرد، ووصلنا بعد أربع ساعات إلى أحد الخانات. موريسون (الرحلات، ص٢٤٤، لندن ١٦١٧).

يقول بيري (Perry) في رحلته إلى حلب: 'كان يومنا الرابع من ادلب إلى حلب. وكان يوم الرحلة ذاك رائعاً حقاً، وكان الطريق كله عبارة عن سهل متواصل، يمتع العين، وتقع بلدة ادلب في موقع جميل، وتحيط بها بساتين من شجر الزيتون على مدى واسع. (مشهد من الشرق، ص١٤١، لندن، ١٧٤٣).

(٧) يقدم Teixeira الوصف التالي عن الاسكندرونة في سنة ١٦٠٥ فيقول: 'عبرنا السهل الذي يشكل معظمه مستنقعاً، ولذلك فهو غير صحي. وبعد فترة طويلة وصلنا إلى الشاطئ، حيث توجد بعض البيوت الخاصة بالإفرنج، الذين يعيشون هناك من أجل التجارة. التي انتقلت في الماضي إلى حلب (على بعد ٨٠ ميل) من طرابلس' في سورية، وقد انتقلوا إليها بسبب خلافات نشأت بينهم وبين الباشاوات منذ حوالي خمس عشرة سنة. ومع ذلك فهم لا يحبونها كثيراً بسبب الإزعاج الذي يسببه نقل البضائع إلى مسافة بعيدة بالبر P. teixeira (الرحلات ص٧٩).

أما Moryson الذي كان قد سافر قبل Teixeira بحوالي عشر سنوات، أي في حوالي عام ١٥٩٦، فيصف الإسكندرونة بأنها 'قرية فقيرة، بيوتها مبنية من التبن والطين، ما عدا بيوت بعض الوكلاء التجاريين المسيحيين. المبنية من الخشب والطين بطريقة ملائمة، وتقع على امتداد شاطىء البحر، ربما أنه لا يوجد لمدينة حلب الشهيرة ميناء آخر، يقوم التجار بتفريغ بضائعهم هنا، إلا أنهم يسرعون إلى حلب، ولا يقيمون فيها إلا أقل فترة ممكنة، ويعهدون بالعناية بنقل بضائعهم على الجمال إلى الوكلاء التجاريين من بلدهم الذين يقيمون هناك باستمرار. إن الهواء غير الصحي في هذا المكان هو السبب الذي يجعلهم لا يجرؤن على الإقامة هناك، وذلك لأنه تحيط بهذه القرية من جوانبها الثلاثة سهل ذو مستنقعات، أما الجانب الرابع فيقع على البحر. وعلى الجانب الشرقي وراء البحر يوجد جبل شاهق يحجب الشمس عن الاسكندرونة، ونظراً لأنه ممتلئ بحشرات المستنقعات، فإن ضباب السهول سيء. وعلى الجانب الآخر نحو الشمال (كما أذكر) وفي الطريق المؤدي إلى الأستانة، يوجد سهل مليء

بالمستنقعات كذلك، ورغم أن الجبال بعيدة، فإنها تحجب الشمس، وتصدر الأرض المستنقعية أبخرة سيئة فتجعل الإسكندرونة شهيرة بموت الإفرنج'. موريسون (الرحلات، ص٢٥٠). وقد حافظت الاسكندرونة على سمعتها بأنها غير صحية حتى وقتنا الحاضر.

(٨) يصف Pietro della valle الصحراء التي اجتازها بين حلب والبصرة ويقول إن معظمها سهول تتخللها بضعة ارتفاعات، والتربة فيها جافة، وفي بعض المناطق مشربة بالملح أو المواد المعدنية الأخرى ولا تكسوها الحجارة إلا نادراً، وتندر المستنقعات فيها، وتكون مكسوة بالقصب. وتكسو معظم بقاعها الأعشاب في أشهر حزيران وتموز وآب، إلا أن معظم نباتاتها من النوع السام. ولا تصلح إلا غذاء للجمال، وقد هبت ريح قوية مزعجة ومتواصلة فهب الغبار والتراب، إلا أنها ساهمت في تعديل درجة الحرارة بحيث أصبح بالوسع تحملها. وكانت الليالي لطيفة، وكان من الضروري إتقاء البرد بارتداء ثياب دافئة. – Viaggii di pietro della valle الجزء الثالث ص٤١٥). ويقدم بوسون صورة رائعة عن الصحراء العربية فيقول في كتابه *التاريخ الطبيعي*، المجلد التاسع ص. ٢٢١):' عندما يتصور المرء بلداً لاتوجد فيه خضرة وبدون ماء ، وتنتشر فيه شمس حارقة وسماء صافية وسهول جافة مترامية الأطراف على امتداد البصر، دون أن تسمع أذن أو تشاهد عين شيئاً حياً، الخ.). وفي وصفه العام عن الصحراء (سقوط الأمبراطورية الرومانية، ٥،١٧٢) قدم جيبسون بمهارة فائقة أوصافاً لم يذكرها بوسون، في حين أن بعض الأوصاف الأخرى تنطبق على الصحارى الافريقية وليس على الصحراء العربية:' حتى أن براري تارتاري قد حبتها الطبيعة بخضرة نضرة وأشجار باسقة وأعشاب زاهية. فيجد فيها الرحالة الذي يجد نفسه وحيداً نوعاً من الراحة والسلوى نتيجة وجود الحياة الخضراء حوله. أما في الصحراء العربية القاحلة، فإن الرمال اللامتناهية التي تتخللها الجبال الجرداء الحادة، وتلهب أشعة الشمس الاستوائية المباشرة والحادة أرض الصحراء التي لايظللها شيء. وبدلاً من النسائم العليلة، فإن الرياح وخاصة التي تهب من الجنوب الغربي تنشر بخاراً ساماً بل قاتلاً. وإن الكثبان الرملية التي ترتفع حيناً وتنبسط حيناً آخر، تقارن بأمواج المحيط. وكم من قوافل وجيوش كاملة دفنت بين الرمال نتيجة هبوب الأعاصير. إن الحصول على المياه من الأمور التي تجذب الجميع وتكون محل صراع، بالإضافة إلى ندرة الأشجار. وأن الحفاظ على عنصر النار مطلب أساسي، ولايوجد في الجزيرة العربية أنهار للملاحة لسقاية التربة ونقل منتجاتها إلى المناطق المجاورة. إذ إن السيول الجارفة الدافقة التي تسقط من التلال تتشربها الأرض العطشى على الفور. وتتغذى النباتات المتحملة كالتمر الهندي والأكاسيا التي تضرب جذورها بين شقوق الصخور على ندى الليل. ويتم جمع كميات قليلة جداً من الأمطار في صهاريج وقنوات. وتعتبر الآبار والينابيع الكنز الدفين للصحراء. ويشعر الحاج المتجه إلى مكة بعد مسيرة طويلة وشاقة في الأراضي القاحلة والقائظة بالغثيان عندما يتذوق الماء الذي يكون قد مر فوق حوض من الكبريت أو الملح.

الفصل الثالث
عن المواسم والزراعة وما تنتجه البساتين والحقول في حلب

وصف المواسم، الرياح الحارة، الأمطار، الثلوج والجليد، البرق، البَرَدْ، النيازك، الشفق القطبي الشمالي غير المرئي في حلب، الزلازل، التربة والزراعة، الغرانيت تحت الأرض، طواحين الماء، المحاصيل الزراعية: القطن، التبغ، الزيتون، الكرمة ومحاصيل أخرى، زيت الخروع، السمسم، الفستق الحلبي، التوت، الرمان، التين ..الخ. أشجار البرتقال والليمون، الجذور الصالحة للأكل، البقوليات والخضار الأخرى.

رغم أن حلب محاطة بالتلال، فهي تتمتع بأنسام عليلة من الهواء. بيد أن هواءها حساس جداً بالنسبة لمرضى السل، فقد يتعرض الأجانب ممن لم يتماثلوا للشفاء من حميات كانوا قد أصيبوا بها قبل مجيئهم، للانتكاسة، ويعزو البعض ذلك إلى خاصية الهواء الذي يتميز بتحريض الأمراض الكامنة. وتساعد الرياح الغربية التي تهب في الصيف على تلطيف درجة الحرارة المرتفعة، ولولا العناية الإلهية، لأصبحت الحياة فيها في غاية الصعوبة، وخاصة إذا كانت السماء خالية من الغيوم، وأشعة الشمس قوية، وما يسببه الوهج الذي ينعكس من التربة الحوارية البيضاء، وجدران البيوت الحجرية. ويقل تغير المواسم وتقلبها كثيراً عن المناطق الشمالية البعيدة حيث يكون الهواء مفيداً للصحة كثيراً. وبدءاً من أواخر أيار، وحتى منتصف أيلول، ينام الناس عادة على أسطح بيوتهم حيث يلتحفون السماء، دون التعرض لخطر الغازات أو أية أنواع سامة أخرى من الجو. وبما أنني سأبحث في الأحوال الجوية بالتفصيل في مقدمتي للأمراض الوبائية، فسأكتفي حالياً بعرض المناخ وتأثيره على حياة الإنسان وتصرفاته.

يمكن القول إن الربيع يبدأ في أوائل شباط إذ تكتسي الحقول بالخضرة، التي كانت أجزاء منها خضراء من قبل، وتتفتح براعم أشجار اللوزيات في حوالي منتصف الشهر، التي تشمل المشمش والخوخ والدراق. ورغم أن أشجاراً أخرى تبقى عارية من الأوراق حتى الأسبوع الثاني من آذار، فإنها تعطي ثماراً ناضجة، وتمنح الأعشاب الخضراء المنتشرة أسفل هذه الأشجار مشهداً جميلاً. أما الرياح التي تكون شديدة البرودة في الشتاء، فإنها تهب غالباً بقوة أكثر في هذا الوقت من السنة. ورغم أن السماء تكسوها غيوم سوداء في معظم الأحيان، فإن كميات كبيرة من الأمطار تهطل في هذا الوقت، إلا أن الأمطار الغزيرة تهطل لفترات قصيرة، وفي أحيان كثيرة تشرق الشمس في هذا الطقس المتقلب.

يبرز الربيع مع نيسان بسرعة، فتصبح السماء صافية، وتسطع الشمس بقوة، ولا تدخل الأمطار التي تهطل من حين لآخر البهجة إلى النفس فحسب، بل تفيد النباتات أيضاً. وتبلغ الحقول أوج جمالها في نهاية هذا الشهر، عندما تسود الخضرة كل مكان. يبدأ القمح بالاصفرار في أوائل أيار، عندما تبدأ الخضرة الجميلة التي كانت تكتسي بها

الحقول خلال الشهرين السابقين بالزوال بسرعة. ويتم الحصاد بعد عدة أسابيع. وبما أن الحبوب تقتلع من جذورها في الحقول القريبة من حلب، فإن الريف يبدو عارياً تماماً، ويخيل للمرء أن هذه الحقول لا تنتج شيئاً سوى النباتات القوية القليلة المتناثرة هنا وهناك التي لم يقتلعها الحاصدون، والتي تتمتع بمقاومة الحرارة اللاهبة.

يتم الانتقال إلى فصل الصيف على نحو مفاجئ، ولا يمكن ملاحظة تقدمه بالتدريج، وتهطل بعض زخات من المطر في الأسبوعين الأولين من حزيران ؛ ومنذ ذلك الحين وحتى منتصف أيلول، يندر أن تهطل أية أمطار، وتكون السماء صافية باستمرار باستثناء بعض الغيوم البيضاء القليلة التي تظهر في بعض الأحيان عند الظهيرة، لتحجب أشعة الشمس، وترتفع الحرارة تدريجياً في حزيران، وتستمر بنفس الدرجة تقريباً خلال شهر تموز، وشطراً من شهر آب، ولولا النسائم الغربية التي تخفف من حدة الحرارة لأصبحت في غاية الإزعاج، وعندما لا تهب تلك النسائم، يصبح الجو قانطاً، ولا يكون هذا الطقس ثقيل الوطأة بهذه الدرجة، عندما تهب رياح من الشمال الغربي، والشرق، والشمال الشرقي، أو من الجنوب الشرقي.

من النقاط التي أتينا على ذكرها، نلاحظ أن هبوب رياح خفيفة أمر شائع في الصيف، مما يجعل الطقس متقداً وحاراً أكثر من اللحظات التي يسود فيها السكون التام، أما عندما يشتد الهواء، ويصبح على شكل عواصف سريعة، ولا سيما عندما يهب من الشرق أو الجنوب الشرقي، فيصبح جافاً وشديد الحرارة، وكأنه هواء منبعث من فرن، يلسع العيون والشفاه والأنوف، ويسبب وهناً وإحساساً بالانقباض في الصدر. وفي داخل البيوت، تصبح الأقفال المعدنية حارة، وكأنها معرضة لأشعة الشمس، كما هي حال الجو المحيط بالنسبة للتبخر، بحيث تصبح المياه المحفوظة في الأوعية الفخارية ذات المسامات التي تجلب من بغداد، أكثر برودة مما لو تعرضت إلى الرياح الغربية، إلا أن هذه الرياح الشديدة الحرارة لاتهب طوال السنة. كما أن هذه الرياح لا تهب في فصول الصيف، وتبين لي أنها لا تدوم لأكثر من أربعة أو خمسة أيام في الفصل الواحد. وعندما تهب هذه الرياح فقد جرت العادة أن تغلق الأبواب والشبابيك لمنع تسربها، لأنه رغم أنها لا تتحدث آثاراً مميتة، كما هي حال الرياح الصحراوية التي تدعى الصمولي، فهي مزعجة إلى درجة كبيرة.

لا تصل رياح الصمولي إلى حلب أبداً، كما أنها ليست شائعة في الصحراء الواقعة بين تلك المدينة والبصرة؛ كما أنها نادراً ما تسبب حوادث للقوافل المتجهة إلى البصرة، ويروي البدو قصصاً لعل بعضها مبالغ فيه، فهم يؤكدون أنها تتقدم بشكل تيارات منفصلة ومتميزة، بحيث تضطر القافلة التي تشق طريقها في وسط الصحراء إلى الانتشار على مسافة واسعة، ولا تتعرض لها إلا في أماكن محددة من خط سيرها، ولا تتأثر الأجزاء المتوسطة منها، كما يقال بأنه، لا يتأثر بها في بعض الأحيان إلا الذين يمتطون الجمال، وتتمثل أفضل وسيلة لتجنب خطرها في الاستلقاء على الأرض حتى تمر الزويعة، إلا أنها تهب في بعض الأحيان بشكل مفاجئ، بحيث لا تتيح وقتاً لاتخاذ أية احتياطات، وفي بعض الأحيان، يكون تأثيرها قوياً، فيصبح الجسم أزرق أو أسود اللون،

---

* الخوابي (المترجم)

كما لو أن الشخص قد أصابته صاعقة، وفي أحيان أخرى، تسبب حميات سيئة، تصبح مميتة في خلال بضع ساعات، ونادراً ما يشفى أولئك الذين يصابون بها.

يكون الطقس هادئاً وشديد الحرارة في آب وحتى نهاية الشهر تقريباً، حتى تظهر ما يسمونه 'غيوم النيل' وغالباً ما يصحبها الندى، ومع زيادة طول الليل، يصبح الهواء أكثر برودة.

وعند الاعتدال الخريفي، تهطل عادة زخات من المطر في حلب أو المناطق المجاورة لها، فترطب الهواء الذي لا يزال حاراً وتجعله نقياً، وإذا كانت هذه الأمطار وفيرة وهي قلما تدوم لأكثر من بضعة ساعات، فإن الحقول تكتسي بخضرة تشبه خضرة الربيع، ويطلق عليها الأمطار الأولى، وعادة ما تسبقها عواصف غير منتظمة من الرياح التي تثير الغبار في شكل دوامات، ومنذ ذلك الحين يسود طقس هادئ ومعتدل ورائع حقاً لمدة لا تقل عن عشرين أو ثلاثين يوماً أو حتى موعد هطول الأمطار الثانية. وتهطل الأمطار الثانية بكميات أكثر من الأولى، ثم يصبح الطقس بعدها متقلباً وأكثر برودة إلا أن الانتقال من الخريف إلى الشتاء، يكون أبطأ من انتقال الربيع إلى الصيف، إذ لا يشتد البرد على نحو مفاجئ، وتهطل أمطار بزخات أقل غزارة، ولكنها تستمر لفترة أطول، وغالباً ما تتلبد السماء بالغيوم خلال فترات توقف الأمطار.

تحافظ الأشجار على أوراقها حتى بداية شهر كانون الأول، ويغير السكان المحليون ثيابهم فور هطول الأمطار الثانية، غير أن عدداً قليلاً منهم يوقد النار حتى في منتصف الشتاء عندما يشتد البرد وحسب ما يقولون، فإن البرد يشتد في الشتاء في حوالي العشرين من كانون الأول، ويدوم أربعين يوماً، ويطلقون عليها اسم 'المربعينية'، ولا يستحبون تناول دواء من أي نوع للأمراض المزمنة في هذا الفصل، وحسابهم بهذه الطريقة صحيح تقريباً، لأنه رغم أن ملاحظة حدوث الجليد والثلج قبل المربعينية وبعدها، فإن الشتاء الحقيقي يحدث في معظم السنوات بينهما؛ ويكون الهواء في غالب الأحيان قاسياً ولاذعاً في ذلك الوقت؛ ويبدو البرد شديداً حتى بالنسبة للأجانب الذين جاؤوا من مناطق ذات مناخات أكثر برودة.

تتباين فصول الشتاء كثيراً من سنة لأخرى من حيث البرودة، وكمية الأمطار والثلوج التي تهطل خلال كانون الأول وكانون الثاني وشباط، وخلال السنوات الثلاثة عشرة من إقامتي في حلب، لم يتشكل جليد أكثر من ثلاث مرات، فقد كان الجليد صلباً في الأماكن الظليلة التي لايتعرض فيها مجمع الماء المشكل من الجليد إلى الشمس، بحيث يمكنه حمل وزن رجل، ونادراً جداً ما يمر شتاء دون حدوث جليد، في حين قد تمر سنوات عديدة دون أن تهطل ثلوج فيها. وإذا هطل الثلج فإنه يذوب في الشوارع بسرعة؛ وقد لاحظت أن الثلج بقي ليوم واحد خلال ثلاث سنوات من أصل ثلاث عشرة سنة فقط، وعندما تكون السماء صافية والطقس لطيفاً، يكون تأثير الشمس كبيراً ويسود الدفء، وفي بعض الأحيان يكون الطقس حاراً نسبياً في العراء، ويزهر النرجس في معظم فصل الشتاء وتكثر زهرة الياقوتية والبنفسج في كانون الثاني، ولا يزرع البرتقال أو الليمون في الحدائق، وفي بعض فصول الشتاء يلحق البرد ضرراً شديداً بالرمان.

نادراً ما تهب رياح شديدة في حلب، وإذا هبت رياح شديدة في بعض الأحيان،

تكون على شكل عواصف مفاجئة وتدوم فترات قصيرة، وتهب الرياح الشتوية والربيعية بشكل رئيسي من الشمال الغربي والجنوب الشرقي، وتكون أكثر برودة وهي تتجه شرقاً، وكنا لاحظنا سابقاً أن هذه الرياح تكون حارة خلال الفترة الممتدة من أيار وحتى أيلول. تكون الرياح معتدلة في الشتاء بشكل عام، ونادراً ما تأخذ شكل عواصف هوجاء وفي الصيف تهب رياح غربية بشدة في الليل أحياناً، لكنها تهب عادة بعد غروب الشمس وتستمر حتى تتحول إلى نسائم عليلة، ثم تتوقف فجأة في المساء، وغالباً ما تهب عواصف مصحوبة بأمطار غزيرة وتصحبها في بعض الأحيان رعود في الربيع والخريف.

غالباً ما تحدث أضرار نتيجة البرق، سواء داخل المدينة أو في الحقول؛ وفي بعض الأحيان يعاني منه الرعاة وقطعانهم، إلا أن مثل هذه الحوادث نادر، ويتناقل أخبارها الناس كثيراً عندما تحدث.

يهطل البَرَدْ غالباً في الشطر الأخير من الربيع، على شكل عواصف قوية جداً، ويكون حجم حبات البَرَدْ كبيراً جداً، ولاحظت أن قطر بعضها يبلغ بوصتين اثنتين، وفي بعض الأحيان تشاهد بينها حبات ذات أشكال غير منتظمة، ويزيد وزنها على درامين وتلحق هذه العواصف أضراراً كبيراً بالنوافذ، والألواح الزجاجية التي تستخدم غالباً في الشتاء، لإغلاق الإيوان الذي يواجه الباحة، والذي يتحول إلى حجرة شتوية ممتعة، وترفع هذه الألواح في الصيف، وقد تحطم أكثر من ألف ومئتي لوح من الزجاج في إحدى السرايات بعد هبوب عاصفة قصيرة من البَرَدْ.

غالباً ما يشاهد وميض قرب الأفق عند المساء خلال أشهر الصيف والخريف، ومع تقدم الليل، تبدو النيازك التي تسمى النجوم الساقطة في مشهد جميل، ولم أشاهد أبداً الشفق القطبي الشمالي، والظاهر أن السكان المحليين لم يكونوا يعرفونه.

يشاهد غالباً في شهري أيلول وتشرين الأول برق لا يصحبه رعد في الليل وهو يخترق الغيوم الداكنة الكثيفة، التي تخيم لبعض الوقت قبل الأمطار الخريفية، كما يُشاهد نفس نوع البرق في بعض الأحيان في الصيف، إلا أن السماء في ليالي الصيف الحارة تكون دائماً ساكنة، وتمنح عالم الفلك مشهداً رائعاً بحيث يمكن أن ينكب على عمله وأن يستمتع بالهواء البارد على السطح في الوقت نفسه.

لا يشعر المرء في عدد قليل من السنين بحدوث هزات أرضية في حلب، نظراً لأن هذه الهزات تكون خفيفة بشكل عام، وقد مضت فترة طويلة لم تتعرض فيها المدينة للكثير منها، إلا أن الذعر الذي تحدثه آني فقط؛ هذا إذا لم ينتب العامة الذعر نتيجة الروايات المبالغ بها عما يمكن أن يكون قد لحق بمدن أخرى في سورية أثناء حدوثها؛ لذلك فإن حدوث هذه الهزات الخفيفة التي لا تكاد تلحظ تنشر الرعب في نفوس الناس. ولا يشعر الناس الذين يسيرون في الشارع بالهزات التي تحدث أثناء النهار، أما إذا حدثت أثناء سكون الليل، فإنها تثير الفزع والرعب في نفوس الأشخاص الذين يستيقظون من نومهم نتيجة الإحساس بها.

لقد تحدثنا عن التربة في المنطقة المجاورة لحلب، والتي يميل لونها إلى اللون الأحمر، في السهول البعيدة نوعاً ما، وفي بعض الأحيان إلى اللون الأسود، وتكون خفيفة، وتنتج كميات كبيرة من الفواكه.

تُزرع الحقول قرب المدينة باستخدام الروث لإنتاج محصولين أو ثلاثة محاصيل سنوياً من مختلف الأنواع، وعندما لا يستخدم الروث، وهو أمر شائع في معظم الأماكن البعيدة عن المدينة، فإن الحقول تزرع مرة واحدة في السنة فقط، وتتعاقب فيها زراعة أنواع مختلفة من الحبوب، إلا أنها نادراً ما تترك بوراً.

يبدأ المزارعون الزراعة في الشطر الأخير من أيلول، أو حالما تهطل بعض الأمطار لتبلل الأرض القاحلة، ونادراً ما يكون الصقيع شديداً إلى درجة تجعل الزراعة مستحيلة في جميع الأوقات خلال الشتاء، والمحراث المستخدم قرب المدينة خفيف، بحيث يمكن لرجل متوسط القوة أن يحمله بيد واحدة، وتجره بقرة أو بقرتان صغيرتان، وفي بعض الأحيان يجره حمار واحد، ويمكن لشخص واحد الحراثة به بسهولة كبيرة، وهو يدخن القصبة خلال عمله، وتكون الأثلام سطحية جداً، لكنها مستقيمة وطويلة جداً بحيث يخيل للمرء أنهم استعملوا مسطرة في رسمها.

يزرع المزارعون محاصيل الحبوب التالية: القمح (الحنطة)، والشعير، والعدس، والحمص، والفول، والجلبان، البيقية الصغيرة (كشنة)، واللوبياء (ماش)، والدخن الهندي (دارو)، ولا يزرع الشوفان قرب حلب، إلا أنني شاهدت بعض الحقول المزروعة به بالقرب من أنطاكية وفي منطقة الساحل، وتعلف الخيول عادة بالشعير، كما تزرع الفصة (الفوسا) لاستخدامها في الربيع.

يُزرع أبكر محصول للقمح في حوالي منتصف تشرين الأول، وتستمر زراعة الحبوب الأخرى حتى نهاية كانون الثاني، ويزرع الشعير في وقت متأخر حتى نهاية شباط، وقلما يستخدم المشط في الزراعة، وبما أن الحبوب تبذر مع مرور المحراث مرات عديدة على طول الأثلام، وفي المناطق التي تكون فيها التربة رملية، فإنهم يبذرون أولاً، ثم يحرثون الأرض.

يبدأ حصاد الشعير في أوائل أيار، قبل بدء حصاد القمح بعشرة أيام أو أسبوعين. وفي أوائل حزيران تخلو الحقول من جميع أنواع الحبوب، وبشكل عام لا يصل طول سنابل القمح والشعير إلى نصف ارتفاعها في بريطانيا؛ لذلك، شأن محاصيل الحبوب الأخرى، لا يحصد هذان المحصولان بالمنجل، بل يقتلعان من الجذور باليد. وفي أماكن أخرى من الريف، حيث تكون سنابل الحبوب أطول، فيستخدم المنجل، ويتوجه الحصادون في الصباح الباكر إلى الحقل ويعودون إلى بيوتهم بعد الظهر بقليل، ويأخذون معهم مؤونتهم ويحملون قرباً من الجلد أو اليقطين المجفف مملوءة بالماء، ويتبعهم أطفالهم أو أشخاص آخرون يقومون بالتقاط الحصيد، وذلك لأن كمية كبيرة من الحبوب تتناثر أثناء الحصاد وأثناء نقلها. وتنتشر لدى جميع الحصادين في أرجاء سورية عادة يطلق عليها 'الهبة'، تشبه إلى حد ما إحدى العادات السائدة في بعض المقاطعات الإنكليزية، فإذا صادف أن مر عابر سبيل قرب أحد الحقول حيث ينهمك الحصادون في العمل، أرسلوا واحداً منهم وهو يحمل حفنة من الحنطة، فيقدمها إلى عابر السبيل، وهو يمسك رسن الحصان في نفس الوقت، ويجري الشخص الذي أرسلوه بأقصى سرعته، وما أن يبدأ بالجري حتى يأخذ بالصراخ بصوت عال: 'شاباش شاباش' فتكرر المجموعة بكاملها هذه العبارة، ولقاء هذا الإطراء يتوقعون تقديم هدية صغيرة، وما أن

يقدم الشخص تلك الهدية، حتى يرفع الشخص المرسل يده دلالة على ذلك، فتنطلق النسوة في زغردة جماعية للتعبير عن شكرهن له.

وعندما ينتهي الحصاد تحمل الحنطة على ظهور الحمير إلى قمة أقرب تلة أو أرض مرتفعة، وتكوم فوق بقعة من أرض صلبة مستوية بدلاً من وضعها في المخزن، ولا تفصل عن العصافة بالذر، بل بواسطة جرجر يثبت على مدحلتين أو ثلاث، مزودة بعدة حلقات حديدية ذات حواف مسننة حادة جداً لقطع القش، ويقود الجرجر رجل يجلس عليه، وتجره ثيران أو بغال أو حمير، ويسير فوق الحنطة المنبسطة تحته بشكل دائري، وبعد تكرار العملية، يتم فصل الحب عن القش، وتقطع الحلقات الحديدية القش وتفصل العصافات والسنابل غير السليمة عن الحب، بنثرها في الهواء بمجارف خشبية، عندما تهب الرياح باعتدال، ويكوّم الحب والقش وتمرر فوقها المزلجة. وبعد بضعة أيام، وبعد أن يكون الحب قد ذري بشكل أفضل و فصل عن القش، يوضع في كومة كبيرة تدعى البيدر، وتبقى كذلك حتى يتم تقاسمها بين صاحب الأرض والفلاح حسب النسب المتفق عليها، وتترك الحيوانات المستخدمة في الحصاد دون أن تكمم، كما ورد في الكتاب المقدس.

عندما تقسّم الحبوب، تنقل في أكياس إلى الأهراء (مخازن الحبوب) التي هي عبارة عن مغاور تحت الأرض، ذات فتحة مستديرة في الأعلى، وتغلق بإحكام عندما يمتلئ المخزن، وتغطى بالتراب لكي تبقى بعيدة عن أعين الأعداء، وفي بعض الأحيان توجد هذه الأهراء في وسط حقل محروث، وفي أحيان أخرى تكون بجانب الحقل، بل حتى في وسط حقل مشاع، وبما أنها تترك بدون غطاء في معظم الأحيان، فإن السفر بالقرب من القرى المهجورة يكون شديد الخطورة في الليل، وبصورة عامة تحفظ الحبوب التي تتمتع بجودة عالية، وتجفف تماماً وتحفظ جيداً في الأهراء، ولا تتعرض كثيراً للضرر، إلا إذا حفظت لفترات طويلة، بسبب الجشع تحسباً لحدوث جفاف في المستقبل.

توجد بضع طواحين مائية على نهر قويق؛ إلا أنه يتم طحن القمح بصورة أساسية في مطاحن تديرها البغال. أما الطبقات الدنيا فتستخدم طواحين يدوية في طحن القمح، أما طواحين الهواء فغير معروفة، ومن الطريقة التي يطحن بها، يتعرض القمح للاختلاط ببذور مختلفة، وبأحجار صغيرة، وبالتراب، ولهذا السبب، يغسل جيداً، وتقوم النسوة بتنقيته قبل إرساله إلى المطحنة في بيوت الطبقة الأرقى، التي تقوم بتخزين حبوبها لاستخدام العائلة.

بالإضافة إلى القمح والشعير والأنواع الأخرى من البقوليات التي ذكرناها آنفاً، تزرع خضار عديدة في الحقول وفي البساتين مثل البطيخ، والجبس، والعجور، وحبة البركة، والسمسم، والخروع، والقنب، والحلبة، والقرطم.

ويزرع القطن بشكل رئيسي في البساتين، وفي بعض الأحيان في الحقول؛ إلا أنه لا تزرع كميات كبيرة منه في حلب، ولا يجمع إلا في تشرين الأول، وتغدو المناطق التي تزرع فيها الخضار مشاهد جميلة خلال الأشهر الحارة.

لا يزرع التبغ إلا في البساتين، ويزرع بانتظام في صفوف، وتترك السوق منتصبة بعد نزع الأوراق عنها بعد نضجها، بسبب فرض ضريبة معينة حسب عدد

السوق، وُتضم الأوراق في خيوط، وتعلق في الهواء الطلق كي تجف، ويعتبر هذا التبغ أقوى، ونوعيته أدنى من التبغ الذي يزرع في القرى وخاصة في الجبال بين جسر الشغور واللاذقية، حيث يزرع بكميات كبيرة. ويشكل التبغ مادة تجارية هامة مع مصر، وقد لاحظ م. دارفيو في سنة ١٦٨٣، أنه قبل زراعة التبغ في المناطق المجاورة لحلب ببضع سنوات، كانت تستهلك كميات كبيرة منه، وإن ثمن التبغ من نوع (Brasil) قد انخفض، ولذا يبدو أن معظم التبغ كان يستورد من أوربا قبل ذلك الوقت.

يشبه الزيتون الذي يزرع في حلب الزيتون الأسباني، إلا أن حبته ليست كبيرة بنفس الحجم، والمحصول السنوي لا يكفي، لذا يورد إلى المدينة من بقاع أخرى، ولا سيما من إدلب والقرى الواقعة حولها، حيث تنتشر أشجار الزيتون بأعداد كبيرة. ويحظى الزيت بتقدير كبير من قبل السكان المحليين، ويكون في بعض الأحيان ممتازاً، إلا أنه نظراً لعدم بذل عناية كافية في تجهيزه، يكون عادة متوسط الجودة لذا يستعمل الأوربيون عادة الزيت الفرنسي أو الإيطالي، وتستخدم كميات كبيرة منه في صناعة الصابون، الذي يصنع بعض منه في حلب، إلا أن القسم الأكبر منه يصنع في إدلب، ويجلب البدو الرماد* المستخدم في هذه الصناعة من الصحراء.

يتم تحضير الزيت الذي يدعى السيرج من السمسم، ويستخدمه اليهود كثيراً في الطبخ؛ إلا أنه قوي بشكل لا يحتمل من حيث المذاق والرائحة ويتناوله البعض ممزوجاً بعصير العنب المكثف، الذي يسمى 'الدبس'، ولايستعمل هذا الزيت سوى عدد قليل جداً من الناس، بخلاف اليهود الذين يستعملونه عوضاً عن زيت الزيتون.

يستعمل السكان زيت الخروع بشكل أساسي لإضاءة مصابيحهم؛ ولا يعرف إلا النذر اليسير عن مزاياه الطبية، ويزرع بشكل أساسي في الحقول الواقعة قرب النهر.

توفر البساتين أنواعاً مختلفة من العنب، ولا سيما نوع صغير أبيض يتفوق على الأنواع الأخرى، وتضفي عناقيد العنب الكبيرة المزروعة في البيوت على العرائش أو التي تغطي الدرج مشهداً جميلاً، إلا أن نكهتها ليست لذيذة جداً. ويبدأ العنب الناضج في الظهور في الأسواق في أيلول، وتصل ذروة غلة الكروم في تشرين الثاني. وجرت العادة أن يتم عصر النبيذ الجديد في أعياد الميلاد، ويظن أنه من الضروري إبقاء العصير في الجرار لمدة ستة أسابيع لكي يتخمر تماماً. ورغم عدم استعمال العنب المزروع في المناطق المجاورة للمدينة في صناعة النبيذ، فإنه لا يكفي للاستهلاك السنوي، ويستعمل جزء منه في تحضيرماء الحصرم، وهو العصير المستخلص من العنب قبل أن ينضج، ويفضله السكان على الخل، ويُترك الباقي حتى ينضج، ويستهلك كعنب مائدة. وُيجلب العنب المعد لصناعة النبيذ من كلس وأماكن أخرى، ويسمح للمسيحيين واليهود بجلب كمية محدودة من العنب إلى المدينة لتحضير النبيذ أو البراندي أو لاستعمالهم الشخصي لقاء دفع رسوم معينة، علماً أن الفرنجة معفيون من الضريبة. ونظراً لأنه لا توجد في بيوتهم الوسائل الخاصة بصناعته، فإنهم يصنعون نبيذهم عادة في منطقة

* يجهل المؤلف طريقة صناعة الصابون، فالرماد هو بقايا حرق نبات ينبت في البادية يسمى 'شنان' ويستعمل في صناعة الصابون (المترجم).

الجديدة. والنبيذ الأبيض مستساغ، إلا أنه رقيق جداً أو سيء، ومن الصعب الحفاظ عليه في حالة جيدة من سنة إلى أخرى، ونادراً ما يظهر النبيذ الأحمر على موائد الأوربيين، وهو داكن اللون لا طعم له وقوي وثقيل على الرأس، ويسبب هذياناً أكثر بدلاً من أن ينعش النفس، ولايحتسيه الأوروبيون في بعض الأحيان إلا بعد مزج ثلث من النبيذ الأبيض مع ثلثين من النبيذ الأحمر وذلك عندما يندر وجود نبيذ بروفانس (الذي يعتبر مشروبهم المعتاد).

من الممكن بذل محاولة لتحسين طعم النبيذ الحلبي، وذلك بتعليق باقة من الزهور المجففة من العنب في الجرة، عندما يتخمر العصير، وذلك حسب الطريقة التي ذكرها م. بيسونيل إلى هاسلكيست، وأظن أن هذه الطريقة لم تجرب في حلب.

يشكل الجزء المجفف من العنب (الزبيب) جزءاً من غذاء السكان ويتناولونه مع الخبز، ويستخدمونه في الشرابات. وتستعمل كمية كبيرة جداً من الزبيب في معامل التقطير التي يقوم بها السكان المحليون والمسيحيون، ويضاف اليانسون إليه ويدعى هذا المشروب القوي جداً 'العرق'. ويستعمل السكان المحليون عصير العنب الناضج المكثف جداً، ويسمى الدبس، ويشبه كثيراً العسل السميك، ويجلب إلى المدينة في جلود ماعز*، ويباع بكميات قليلة في الأسواق، ويستعمله عامة الناس بدلاً من العسل، ولذا تبقى الكرمة مادة هامة في الزراعة السورية، ويؤكد م. دارفيو على أن الاستهلاك السنوي للعنب يبلغ ٢٨٠٠٠ كنتال يستخدم منها ١٤٠٠٠ في صناعة النبيذ.

تبذل عناية خاصة عند زراعة شجر الفستق الحلبي، ويعتبر الفستق المزروع هنا أجود من أي نوع آخر يزرع في مناطق أخرى من العالم ويقول المؤرخ بليني (Pliny) بأن Lucius Vitellius كان قد جلب الفستق للمرة الأولى من حلب إلى إيطاليا في عهد الإمبراطور تيبريوس (Tiberius)، ويذكر جالينوس (Galen) بأن بيروه** كانت مشهورة بتلك الفاكهة في عهده وبالإضافة إلى استهلاك كمية كبيرة منها محلياً، فإن كميات كبيرة منها تصدر إلى أوروبا، وتفقد الفاكهة كثيراً من جمالها بعد تجفيفها، إلا أن مذاقها يتحسن، وعندما تكون الشجرة محمّلة بعناقيد الفستق الناضجة، ذات اللون الأحمر الفاتح الجميل، تبدو جميلة المنظر، ولا يكون شكلها جميلاً عندما تكون أغصانها متباعدة وملتوية، ونادراً ما يتجاوز ارتفاعها ثلاثين قدماً، وفي الغالب لا تزيد على عشرين قدماً، أما الجذع فهو قصير نسبياً، ويتراوح قطره بين ثلاث أقدام و ثلاث ونصف القدم، وعندما لا يتم تطعيم الشجرة الأنثى، فإنها تحمل فستقاً صغيراً ذا قيمة متدنية، وتتعرض للضرر نتيجة الرياح في الربيع، والحبة ذات أحجام مختلفة، ويكون اللب في جميع الأنواع أخضر، إلا أن لون القشرة الخارجية يتدرج من الأبيض تقريباً إلى الأحمر؛ إلا أن هذين اللونين يمتزجان في الغالب، ويتم تطعيم الأصناف للحصول على أصناف أفضل.

تلائم زراعة الفستق الأرض الجافة، وبما أن الأزهار المذكرة والمؤنثة تنموان على أشجار منفصلة، فمن الضروري، زراعة شجرة مذكرة في فواصل بين الأشجار

---

* كانت جلود الماعز تستخدم كأوعية لحفظ المواد السائلة أو شبه السائلة ونقلها من القرى أو البادية إلى المدينة، ويسمى الوعاء الواحد منها 'الضرف' وهي تحريف لكلمة 'ظرف' بمعنى وعاء (المترجم).

** بيروة: اسم حلب في العهد السلوقي في بداية القرن الرابع قبل الميلاد (المترجم)

المؤنثة من أجل تلقيح الفستق، وفي الحديقة الخلفية لمنزل كان يملكه أحد الإنكليز، كانت تنتصب شجرة فستق أنثى، كانت تحمل تقريباً في كل سنة فستقاً جميلاً، ولكن دون لب تقريباً، ويعتبر أصحاب البساتين بأن موقعها المنعزل هو السبب الرئيسي في ذلك.
يجلب الفستق البري إلى المدينة من الجبال، ولا تزرع هذه الشجرة بالقرب من حلب وهي تشبه الفستق الآخر من حيث الطعم، إلا أنها صغيرة جداً، ومنبسطة أكثر، وتكون عادة مجردة من القشرة الخارجية.

تنتشر زراعة التوت الأبيض في البساتين، وُتترك الأشجار تنمو حتى تصل إلى ارتفاعات كبيرة، وتزرع بشكل رئيسي من أجل ثمرتها التي تكون كبيرة جداً، ومائلة للون الأحمر على أحد الجانبين، وذات مذاق حلو، ويغرم سكان الطبقات الدنيا بهذه الثمرة، وُيستخدم كثير من الناس في شهر أيار لجلبها إلى السوق، وتكوّم فوق ألواح مستديرة كبيرة، ويحملونها بمهارة فوق رؤوسهم، أما التوت الشامي فهو لذيذ، ولكنه لا ينضج إلا بعد شهرين، وتنمو الشجرة وتصل حتى ارتفاع شاهق.

تنتج كميات ضئيلة جداً من الحرير في حلب، كما أن الكميات التي تصنع في القرى المجاورة لها ليست كبيرة، رغم أن السكان يربون دودة القز لإنتاج الحرير في جميع الأماكن التي توجد فيها جداول مياه. ويتم إنتاج الحرير الذي يُصدَّر من حلب إلى أوروبا عن طريق الاسكندرونة، في إنطاكية بصورة رئيسية، وفي الجبال المحيطة بها، أو يُجلب إلى حلب من أماكن بعيدة، وتتغذى دودة الحرير على أوراق التوت الأبيض، ولا تترك الأشجار التي تزرع لهذا الغرض لكي يزيد ارتفاعها.

تعتبر زراعة الرمان شائعة في جميع البساتين، وقلما تتوفر الفاكهة الناضجة بكثرة قبل نهاية آب، وتخزنها معظم العائلات لاستهلاكها في الشتاء، وثمة ثلاثة أصناف من هذه الثمرة: واحد حلو الطعم، والآخر حامض جداً، والثالث يجمع بين صفات النوعين الأولين، فيصبح مزيجاً مقبولاً، ويستخدم عصير الرمان الحامض بدلاً من الخل. وعندما تقدم على المائدة، تقطع أنواع الرمان الأخرى وُتخرج حباتها ويرش عليها سكر وماء الورد، ويقدم على المائدة في أطباق، وتشكل الحبات سواء الطازجة أو المجففة، عنصراً هاماً في الطبيخ، وتتعرض أشجار الرمان للضرر الشديد في فصول الشتاء القاسية، وفي الربيع عندما يحدث بَردٌ غير طبيعي.

ترد إلى السوق كميات كبيرة جداً من التين من أنواع مختلفة، ويكون النوع المتوسط الحجم منه مائلاً للصفرة، وثمة طلب شديد عليه، وتتمثل الطريقة المعتادة لتأبير التين في تعليق ثمرة التين البري على عدة أغصان من شجرة التين، ويعتقد أن ذلك ضروري من أجل إنضاج التين، وتربى حشرة على ثمرة التين البري، تحدث في وقت معين شقاً في التين الآخذ في النمو على الشجرة التي علقت من أجلها تلك الثمرة، ويتم الشق في نهاية طرف الثمرة بعيداً عن السويقة، وعندما يلاحظ ظهور نقطة من الدبق عند ذلك الجزء، يعتبر ذلك دلالة أكيدة على أن الثمرة قد ثقبتها الحشرة، وبأنها أصبحت ناضجة الآن، وسمعت أن البساتنة في حلب، يقلدون عملية الحشرة، فيثقبون في بعض الأحيان بضع ثمرات من التين، بإبرة مغموسة بالزيت، للحصول على تين مبكر لتقديمه كهدية لكبار الناس.

تنتج البساتين كميات كبيرة من الفواكه الأخرى، التي يمكن أن تعتبر من الكماليات. وتنتشر زراعة الكرز الأحمر/القلب الأبيض/ (الكرز الاستانبولي) وكرز فيسنا ، وهذا النوع الأخير أكثر شيوعاً من الأنواع الأخرى، ويستعمل كثيراً في صناعة المربيات. وثمة نوعان من المشمش، أحدهما شائع سيء الجودة، والآخر جميل الشكل، لذيذ الطعم، وبذرته حلوة. ورغم أن الخوخ ليس كبير الحجم مثل خوخ طرابلس، وطعمه ليس لذيذاً كما هو في مناطق أخرى من العالم، ويصبح لذيذ الطعم عندما ينضج، إلا أن الحلبيين مغرمون به قبل النضج، وتجمع كميات كبيرة منه وهو في تلك الحالة، ويحفظ في السكر، وثمة أصناف عديدة من الخوخ، أحدها يدعى قلب الطير. وثمة صنفان أو ثلاثة أصناف من التفاح من نوعية لا بأس بها، والإجاص جيد، أما السفرجل فإن عصارته أقل من ذلك الموجود في فرنسا، بالإضافة إلى القراصية واللوز والجوز والبندق والعناب والسماق، حيث يشتد الطلب على الأول كدواء، وعلى الأخير كمادة للطهي. وتوجد شجرة الخرنوب في البساتين، إلا أن ثمرتها التي تجلب من الساحل متوفرة بكثرة في الأسواق، ويتم توريد أبو فراوة (الكستناء)من أناضوليا، والتمر من البصرة، ولا يزرع أي من هذين النوعين بالقرب من حلب. ويستعمل الصنوبر كثيراً في الطهي ويجلب من الجبال، وكما ذكرنا فإن جميع الأشجار المثمرة هذه تزرع في معظم الأحيان بجانب بعضها ولا تبذل عناية كبيرة في زراعتها. وهم لا يتركون فاصلاً بين شجرة وأخرى بهدف تحسين ثمارها أبداً، ومن عادة البساتنة أن يبيعوا منتجات أشجارهم حالما تعقد ثمارها، ويتعين على الشاري أن يتعرض لمخاطر المحصول القادم، ويرسل أشخاصاً لمراقبتها عندما تبدأ الثمار في النضج. وتعتبر الطيور من ألد أعدائهم، ويستحيل منعها من التقاط المحصول، رغم استخدام عدد من الناس باستمرار في ذلك الموسم لإفزاعها بضربها بالمقلاع، أو بالصراخ، والتصفيق باليد.

وذكر Rauwoeff أن البرتقال والليمون والكباد من الفاكهة الشائعة في بساتين حلب، وذكر م. دارفيو بعد قرن من ذلك أنها كانت شائعة في زمانه بالإضافة إلى فواكه أخرى. وإذا أخذنا منحى دراسات راوولف الخاصة بعين الاعتبار والتي تجعله من غير المحتمل أن يكون مخطئاً، فإن ذلك يؤيد إلى حد ما الفكرة السائدة لدى السكان المحليين، بأن فصول الشتاء في سورية، هي في الحقيقية أكثر قساوة، مما كانت عليه في العهود القديمة. ومن المؤكد أن أشجار هذه الفاكهة لا تزرع حالياً في البساتين، لأنه لا يمكنها مقاومة الأربيعينية في العراء؛ لذلك، فإن الأشجار التي تزرع في باحات البيوت في المدينة، إما أن تزرع في صناديق، أو تغطى في الشتاء، أو يتم حمايتها بطرق أخرى إذا زرعت في الأرض. وتجلب هذه الفواكه إلى المدينة من بانياس واللاذقية ومدن ساحلية أخرى. كما نقل راوولف عن وجود موز الجنة والمشمش والآس، إلا أن أياً منها لايزرع الآن في البساتين. ومن الناحية الأخرى فإن الكرز، الذي لم يكن معروفاً في زمانه، أصبح أكثر شيوعاً الآن، كما جُلب الفريز من أوروبا، ويزرع في صناديق على مصاطب، كما علمت أنه زرع في البساتين على سبيل التجربة، إلا أن الثمرة لاتتمتع بذات الطعم كما هي في إنكلترا، وقد تم تجريب الفريز الوردي فقط، وقد تنجح زراعة أنواع أخرى على نحو أفضل.

من بين الخضار التي تدخل في غذاء السكان، يحتل الباذنجان مكانة مرموقة، وتوجد ثلاثة أصناف منه تبدأ في الظهور في حزيران وتصبح متوفرة بكثرة خلال الأشهر الأربعة التالية، وتتناولها جميع الطبقات؛ ويجفف الباذنجان أو يحفظ في الملح لتناوله في أثناء الشتاء. ويستهجن البعض تناول البندورة بسبب صفاتها الحارة وإحداثها للكآبة والغم، إلا إن هذا القول لايلقى كثيراً من الاهتمام لدى الأصحاء* ويمكن وضع الخضارالمتبقية في ترتيبها في مواسمها، فمنذ بداية تشرين الثاني، وحتى نهاية آذار، تزود الأسواق بالملفوف والكرنب والسبانخ والسلق والهندبة والفجل والشوندر والجزر واللفت، ويأتي القنبيط في حوالي أواخر كانون الثاني، ويتوفر بكثرة حتى منتصف آذار، ويأتي الخس والفول والبازلاء والأرضي شوكي والبقلة ونوعان من الخيار في نيسان وأيار وتستمر كلها حتى تموز، ويتوفر الخيار الصغير ثانية في الأسواق في أيلول ويصنع منه المخلل.

ومنذ حزيران وحتى أيلول، تتوافر كميات كبيرة من البطيخ الذي يتمتع بطعم جيد، رغم أنه أقل حلاوة من البطيخ المزروع في إنكلترا، ويأتي بطيخ الببر في أواخر الخريف، وهو فاكهة جميلة وناعمة تزرع على ضفاف الفرات.

أما الجبس (البطيخ الأحمر) فلا يظهر إلا في تموز وهو ذو نوعية ممتازة، ويحفظ في مغاور أو في أقبية باردة، وتستهلك منه كميات كبيرة جداً في الصيف والخريف؛ بل إن بعضهم يحفظه طوال الشتاء، ويعتبرون أن تناوله في الحمّام من المتع الفائقة، وفي موسم البطيخ توجد أيضاً القثاء واللوبيا والملوخية والباميا، والكوسا وأصناف عديدة من القرع، ويأتي القرع نحو أواخر أيلول ويستمر حتى كانون الثاني.

كما تزرع الأعشاب التالية في البساتين: الكزبرة، والشمرا والثوم والبصل والكراث والبقدونس والكرفس والكراوية والرشاد والحلبة والنعناع وحبة البركة.

بالإضافة إلى الخضار المزروعة، تزود الحقول بالقبار، ولسان الثور، والخبيزة، والحميض، وكبة الشتاء، ورشاد الماء، والكمأة. ويستخدم السكان المحليون الزعتر البري والزعتر المزروع في البساتين بشكل كبير؛ لإعطاء نكهة للخبز؛ ويطحنونه عندما يجف ثم يمزجون معه قدراً معيناً من الملح، ويغمسونه بالخبز عند الفطور أو بعد الوجبات. ونادراً ما يستعمل السكان الخردل باستثناء الفرنجة؛ وينمو بكميات كبيرة في البرية، ولكنه لا يُزرع. وينمو السوس بكميات كبيرة باتجاه الصحراء، وتستعمل كميات كبيرة منه في صنع منقوع يُشرب بارداً في الصيف. ويُجلب الحليون البري من حارم.

يُجلب القلقاس في بعض الأحيان من الساحل، إلا أنه لا يوجد طلب عليه حالياً في حلب كما كان في عهد راوولف كما ذكر**، ويوجد بكثرة في الساحل وطرابلس، ويستخدم العطارون أوراقه بدلا من الورق في صر أشيائهم.

---

* شأن الأزهار الأخرى، فإن تفاحة الحب أو البندورة التي لا تزرع إلا في أصص، بدأت تزرع مؤخراً وتباع في السوق. وكان قد جلبها شخص إنكليزي كان قد أقام في البرتغال وإسبانيا فترة طويلة. ويطلق الحلبيون على هذه الفاكهة اسم باذنجان إفرنجي واسمها العلمي *Solanum Lycopersicum*.

**وفوق كل شيء (في بساتين حلب) فهم يزرعون القلقاس (القلقس) بكميات كبيرة كما نزرع نحن اللفت. ص. ٤٨-. إلا أن القلقاس لم يعد يزرع الآن في حلب كما هو حال الموز أو موز الجنة اللذين كانا شائعين في زمن راوولف. كما لم يعد يزرع حبّ الفقد والآس إلا في باحات البيوت.

الملاحظات

(١) يذكر موريسون (Moryson) في عام ١٥٩٦ أن الهواء كان شديد الحرارة (في أواخر حزيران) فيقول: 'ظننت أنني ابتلعت حساء حاراً عندما تنشقته، إلا أنه لطيف جداً، ولهذا السبب فإن الإفرنج الذين يأتون من الاسكندرونة (مكان غير صحي تماماً وذلك لأن الهواء فيها مشبع بالمستنقعات) غالباً ما يصابون بالمرض ويموتون في معظم الأحيان. ولذلك نادراً ما يعود الوكلاء الإنكليز المستخدمين هنا إلى إنكلترا. ويحتسي الإفرنجة المقيمين هنا والأتراك الذين يعملون معهم أنواعاً ممتازة من النبيذ. موريسون (الرحلات ص٢٤٦). وربما كان الإفراط في احتساء الخمرة الذي ألمح إليه دارفيو في القرن التالي كان أكثر شيوعاً بين الإفرنج مما أصبح عليه فيما بعد.

(٢) تنجم هذه الظاهرة عن التبخر. وقد تم بنفس الطريقة تبريد النبيذ بلف قطعة مبللة من القماش حول القنينة، ثم عُلقت على باب الخيمة في الصيف، شريطة أن تبلل قطعة القماش طوال الوقت، وتصبح العملية أسرع بكثير إذا ماعلقت القنينة في الشمس. ولتناول الجبس بارداً، يقسمها الحلبيون قطعاً ويضعونها وهي مكشوفة على سطح البيت قبل ساعة واحدة من مغيب الشمس.

(٣) إن المخطوطة الموجودة في مكتبة الإسكوريال حول موضوع الزراعة هي بعنوان 'كتاب الفلاحة لمؤلفها أبو زكريا يحيى بن محمد بن حمد.

ويشير Casiri إلى نيته في ترجمة هذه المخطوطة. ويقدم في الوقت نفسه فهرساً عن الكتّاب الذين أوردهم الكاتب في ٣٤ فصلاً التي يقسم إليها الكتاب ويبلغ عدد المؤلفين العرب سبعة عشر.

الكتاب الثاني
عن سكان المدينة

الفصل الأول
عن السكان بصورة عامة

عدد السكان، اللغة، الشكل ولون البشرة، زي الرجال، العمامة، زي النساء، مجوهرات النساء وزينتهن، دخول شيء من التغيير على الزي الشرقي في المدن، طلاء الأظافر، وصباغة الرموش، والجفون، واللحية، العطورات، حجاب النساء خارج البيت، عدد السكان، تحضير الحليب المسمى القيمق واللبن، القهوة، التبغ، طريقة التدخين الفارسية، عدم شيوع عادة تعاطي الأفيون ، الأعشاب التي تسبب الانتشاء مع التبغ.

يبلغ عدد سكان حلب ثلاثمئة ألف نسمة، ويذكر م. دارفيو أن عدد السكان كان يبلغ ٢٨٥ أو ٢٩٠ ألف نسمة في العام ١٦٨٣. ويقول م. تافيرنييه قبل ذلك بحوالي ثلاثين عاماً أن عددهم لا يتجاوز مائتين وخمسة وثلاثين ألفاً، من بينهم مئتا ألف مسلم، وثلاثون ألف مسيحي وخمسة آلاف يهودي(١).

إن اللغة العربية العامية هي اللغة الدارجة بين عامة الناس، كما يتعلم الأشخاص من الطبقة الراقية اللغة التركية، وبما أنها لغة الحاكم فهي تُستعمل دائماً في السراي، كما يتكلمها الأشخاص الذين لهم علاقة بالباب العالي، ويدّعي سكان القاهرة بأنهم يتفوقون على غيرهم في التحدث بالعربية الفصحى، ففي الخطاب العادي، يبدو أنهم ينطقونها بطريقة أقرب إلى اللهجة التي يقرأ فيها الحلبيون اللغة الأدبية؛ إلا أنه، يمكن ملاحظة بعض الخاصيات المحلية في كل منطقة تقريباً في سورية، ويختلف عرب الصحراء في لفظهم عن الجميع إلى حد كبير، ويعتقد بأن اللغة التركية المحكية في حلب مشوهة بسبب تلاقي الغرباء من المحافظات الشمالية.

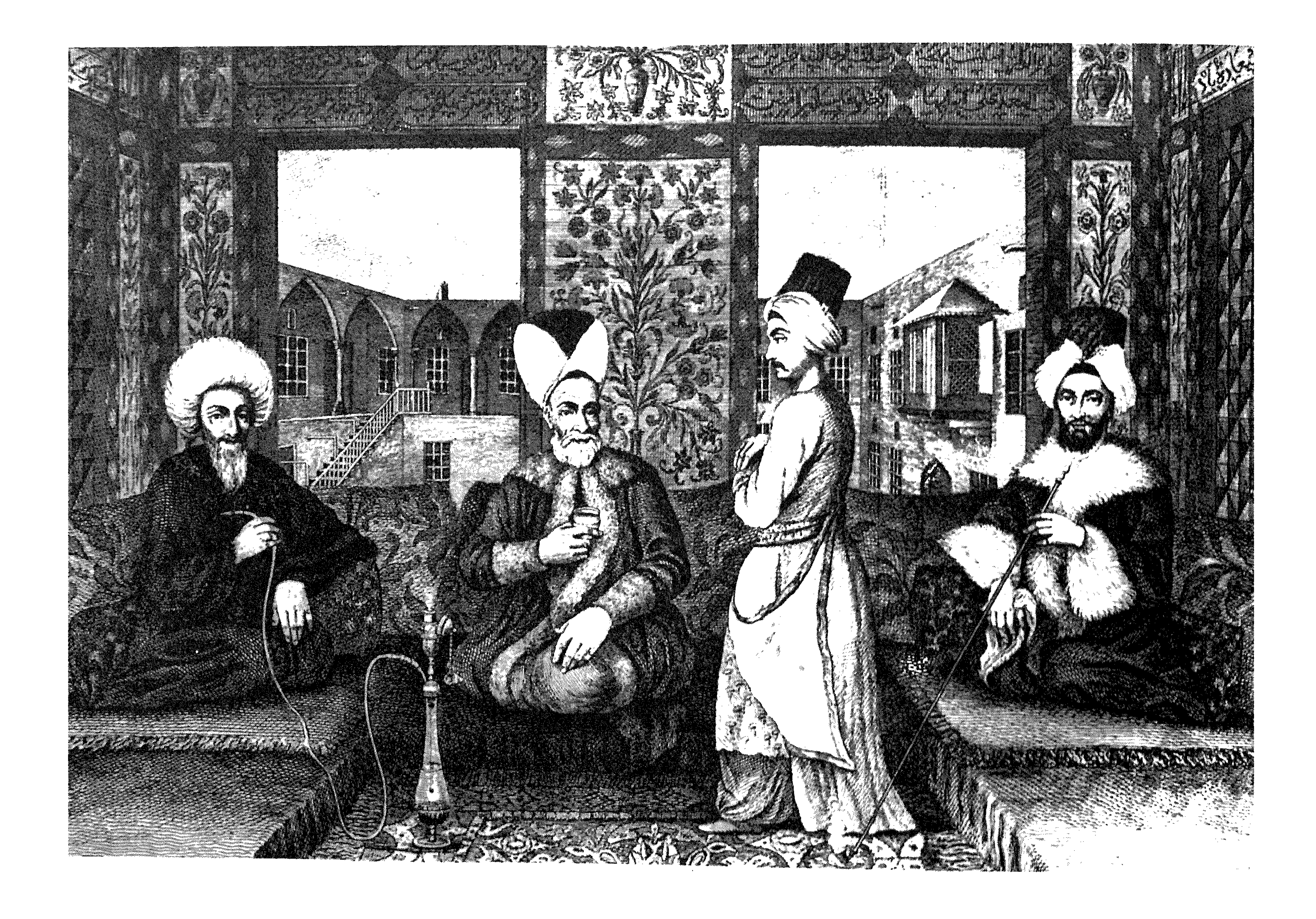
إن السكان بشكل عام متوسطو الطول، ويميلون للنحافة أكثر من ميلهم للسمنة، وهم متوسطو الجمال، إلا أنهم ليسوا أقوياء البنية، وغير نشيطين، ومن النادر أن ترى أحدب، أو شخصاً مشوهاً؛ إلا أنه يجب التنويه إلى أن الزي الشرقي يخفي تشوهات خفيفة، وخاصة في الأطراف، وبصورة طبيعية فإن بشرتهم بيضاء، وشعرهم أسود، أو كستنائي داكن، ومعظم عيون الحلبيين سوداء اللون، ويتمتع كلا الجنسين بالجمال وهم في سن الطفولة (كما لاحظ Teixeira) إلا أن تغييراً كبيراً يطرأ عليهم عندما يكبرون، إذ سرعان ما تشوه اللحى وجه الرجال. أما النساء فيفقدن بريق شبابهن بسرعة إذا دنون من سن البلوغ، وهن يتزوجن في سن مبكرة، وغالباً ما يبدو عليهن الكبر إذا بلغن الثلاثين من

العمر. ويُعتبر الخصر النحيف عيباً وليس جمالاً؛ وتسعى النساء جاهدات لأن يبدون مكتنزات الجسم، وهن لا يستعملن مشدات للخصر، ويتحزمن بنطاق وهو غير مشدود بإحكام، أما الرجال فيلبسون نطاقاً عريضاً ويشدونه بإحكام وحزاماً طويلاً من الشال. يصبح لون بشرة الحلبيين سمراء بحسب تعرضهم للشمس، إذ تكون بشرة سكان الطبقة الدنيا في المدينة والفلاحين داكنة جداً، ويكون لون بشرة بعض البدو أو عرب الصحراء أسود تقريباً، وتبذل النسوة من الطبقة الراقية عناية خاصة، للحفاظ على لون بشرتهن البيضاء، إلا أنهن قد يهملن ذلك بعد سن معينة، ويكون لون بشرة النساء الأخريات أسمر مائلاً للصفار، إذ أنه بالرغم من شدة تحجبهن عندما يخرجن إلى الشارع، فإنهن يتعرضن للشمس كثيراً في البيت، وهن يتنقلن من غرفة إلى أخرى عبر الباحات، نظراً لأن استخدام المظلات غير معروف لديهن.

يرتدي الرجال الزي الشرقي الطويل، كما يرتدون الفرو طوال ستة أشهر من السنة، إذ أن البرد القارس الذي يعقب الخريف، يجعل الحماية منه أمراً ضرورياً، إلا أن ارتداء الفرو يستمر حتى عندما لا تستدعي الضرورة ذلك، إذ يرتديه الكثير من أفراد الطبقة الراقية طوال الصيف. ويُعتبر الفرو أكثر الألبسة الشرقية غلاءً، وفي الزي الكامل، يرتدي الشخص أقل من ثلاث قطع من الفرو، الواحدة فوق الأخرى، فتصل الأولى حتى منتصف الفخذ، وهي مصنوعة من الكيرمازوت الناعم والمبطن بفرو القاقم أو بفرو ذي وبر قصير آخر، دون أكمام، مزين بشريط ضيق من الفرو حول القبة، وتصل الثانية إلى منتصف الساق، وهي ذات أكمام قصيرة تصل حتى انحناء الذراع، وهي كذلك من الكيرمازوت، ومبطنة بالفرو، ومزينة بشريط من الفرو من القبة حتى الأسفل، وحول الكم القصير بعرض خمس بوصات، وتكون هذه الثياب فضفاضة على الجسم، ويطلق عليها الجبة؛ أما الثالثة، فتدعى الفرو أو القرق، وهو ثوب عريض فضفاض ذو أكمام طويلة واسعة، ويكون في بعض الأحيان ضيقاً عند الرسغ، وهو مكسو بنوع من أنواع الفرو الغالية الثمن، وتكون القبة والأطراف والأكمام مزدانة بأغلى أنواع الفرو ذي الوبر الطويل.

وبما أن الكبار يجلسون عادة في غرف رحيبة طلقة الهواء، دون أن يوقدوا ناراً فيها، ويمتطون الجياد عندما يخرجون، فبوسعهم تحمل مثل هذه الثياب الزائدة دون إزعاج، أما الأشخاص الذين يسيرون على أقدامهم، فهم يرتدون فروة واحدة فقط، أو اثنتين على الأكثر، وبدلاً من القرق فهم يرتدون قطعة من القماش غير مبطنة تدعى القرطاق أو ابينيش، كما يلبس الأشخاص من الطبقة الراقية القرطاق كثوب داخلي وتحته قطعة طويلة من الفرو. ويمكن تمييزه عن الجبة بأنه يصل إلى الكاحلين، وله أكمام تغطي الأصابع، ويرتدي عامة الناس قطعة واحدة من الفرو، تصنع عادة من جلد الثعلب الخشن.

أما الألبسة التي يرتدونها تحت الفرو فتتألف من قميص من الحرير أو الكتان، وسروال داخلي، وسروال من قماش أحمر (الشخشور)، تحاك به جوارب من الجلد الأصفر (مست)، وهي بمثابة بنطلون لركوب الخيل وجوارب، وتستخدم داخل البيت كحذاء، ويستعملون البابوج (خفّ بدون كعب) عند السير، ما عدا في الإيوان، وصدارة تدعى قنباز





تصل إلى أسفل الركبة، وثوب طويل يصل حتى الكعبين ويغطي جميع القطع الأخرى، ويسمى الدولامان أو الضلماية، ويمكن ارتداؤهما بسهولة على الجسم، ويلفان ويشدان بإحكام حوله بأشرطة على الجانبين، وتكون الأكمام مفتوحة، وفيها عدد من الأزرار والفتحات الصغيرة، وتكون دائماً (عند ارتداء الزي الكامل) مزررة، ويُرفع الدولامان لإبراز جزء من القنباز وتكون مصنوعة من القماش السادة أو المزهر، وغالباً ما يكون مصنوعاً في البيت، ويستخدم الكيرمازوت الهندي أو الكاليكو أو الموسلين في الصيف، وفيما يلي شرح للوحة (٢).

تطل النوافذ على باحة إحدى السرايات، حيث يمكن تمييز الأعمدة والدرج المؤدي إليها، ويوجد على الجانب الآخر كشك (مشربية)، وتوضح مقدمة الصورة طريقة (السكان) المسلمين في تزيين الغرف بالكتابة بخطوط منمقة، ورسم الزهور وطليها بالذهب وما إلى هنالك، والسجادة، والمصطبة الخشبية المرتفعة المكسوة بمرتبات، والقماش المزين بأهداب، والوسادات الكبيرة في المقدمة، والوسادات الصغيرة الأخرى، والمرتبة ذات الأهداب في الزوايا، تصور كلها إيواناً مفروشاً بالكامل.

يجلس قاض في أقرب زاوية، وهو يدخن القليان الذي يوضع بعيداً عنه قليلاً فوق السجادة، ويرتدي القرق أو الفروة المبطنة بكاملها بالفرو وهي ذات أكمام طويلة وعريضة، وهي الثياب الرسمية للأفندية، رغم أن أشخاصاً آخرين ذوي مقام رفيع يرتدونها كذلك، أما العمامة فلا يرتديها إلا العلماء (رجال الدين)، ويجلس في الوسط سردار، أو آغا من الإنكشارية، والعمامة التي يرتديها تخص ضباط تلك المجموعة، يرتدي هذا الرداء ذو الأكمام الضيقة، والمكسو بالفرو الأشخاص ممن ينتمون إلى مرتبة رفيعة خلال الربيع والخريف، وهو يتناول قهوته الآن، ويقف أمامه خادم بخنوع وتواضع، بالطريقة التي ينتظر بها عادة الخدم، إذ يقف على أهبة الاستعداد لتناول الفنجان الفارغ منه، وتدعو اللياقة لأن ينسدل الدولامان (المرفوع إلى الأعلى لكي يظهر تحته القنباز المزهّر) حتى الأرض من الأمام والخلف، وفي الزاوية الأخرى، يجلس باشا وهو يدخن قليان، وتوضع الزبدية على النيفادا*، وهي وعاء لحماية السجادة، وهو يرتدي عمامة من نفس النوع الذي يرتديه أصحاب الطبقة الرفيعة، والقرق الذي يرتديه هو ثوب كامل للشتاء ومبطن بفرو ذي شعر طويل، والحواف عند الرسغين والرقبة وأسفل الصدر وما إلى هنالك، من أجود أنواع الفرو الباهظ الثمن، مثل فرو السمّور، والوشق، والثعلب الأسود، وما شابه ذلك، ويرتدي هو والقاضي فروة أو فروتين قصيرتين تحت القرق الواسع، إلا أنهما لا يظهران؛ لأن حسن اللياقة تتطلب إدخال القرق تحت الركبتين عند الجلوس، لكيلا تظهر الثياب الغالية تحتها للتباهي بها، ولسبب مشابه، فإن الدولامان الذي يرتديه الخادم منسدل للأسفل وهو ينتظر، والأكمام مزررة بإحكام من الرسغ وعندما يخرج وهو يرتدي قرقاً فوق باقي ثيابه فإنه يحرص على ثنيها في المقدمة وهو واقف في حضرتهم، ويلاحظ عادة قيام جميع الأشخاص بثني القرق بهذه الطريقة، أو لف الثوب الخارجي عندما يقتربون من شخص أعلى منزلة منهم.

---

* ولعلها النفاضة (منفضة السكاير حالياً) (المترجم).

لا يستخدم في اللباس الشرقي أي نوع من الأحزمة، إلا حول الوسط، يطوّق بحزام تحت القنباز، وشال فارسي طويل فوق الدولامان، وهذا الزنار الأخير، يستخدم كحزام لوضع خنجر صغير أو سكينة، يحشر بشكل مائل على الطرف الأيمن، ويربط بالحزام بسلسلة فضية أما بالنسبة للتجار، فإن الزنار يكون لحمل دواة فضية.

تتألف العمامة (الدلبند) من قاووق وشاش يلف حوله، والقاووق عبارة عن قبعة مستديرة، صلبة مذهّبة، ومسطحة في الأعلى، ومغطاة بقماش حسب اللون الذي يختاره الشخص، أما الشاش فهو قطعة من الموسلين يبلغ طولها حوالي أربع وعشرين ياردة، وعرضها ياردة ونصف الياردة، تكون عادة بيضاء اللون، إلا أنها في بعض الأحيان تصبغ بلون أخضر فاتح أو داكن، ويرتدي الأفندية، أو رجال القانون، وبعض المسؤولين المدنيين أو الضباط العسكريين، عمامة مشابهة تقريباً، ولا تتميز إلا بنعومتها بالمقارنة بعمامات الأشخاص من الطبقة الأدنى، ويلبس النصارى واليهود شاشاً بلون مختلف عن اللون الذي يرتديه المسلمون.

وعند الطبقات الدنيا، يرتدي المسلمون والنصارى على حد سواء قبعة قماشية صغيرة، ويلفون حولها شاشاً خشناً بشكل فضفاض عوضاً عن القاووق، ويلبس الأكراد قاووقاً طويلاً، مستدق الطرف من اللباد مع قطعة صغيرة من الشاش، أما الدراويش فيرتدون شكلاً أو آخر من القاووق بدون شاش، وثمة عدد كبير من أنواع لباس الرأس الشرقي*.

يحافظ عدد من الناس في الصيف، ما عدا أفراد من الأعيان على ارتداء الفرو في الاحتفالات، وقلما يستعملون غير فرو القاقوم، وعوضاً عن القرق، يرتدون ثوباً من الحرير أو الـ Camelot بأكمام طويلة، موشى بشريط ذهبي ضيق، ويسمى العباية، وهو الاسم الذي يطلق على الرداء العربي الاعتيادي ويُصنع القرطاق من الشالون بدلاً من القماش وتلبس تحته جبة من الشالون الخفيف بدون فرو ويصنع الشخشور من الكاميلو، ويخلع العامة الشخشور، ولا يرتدون سوى اللباس، ويستبدلون الدولامان المصنوع من القماش بآخر من الكتان، وبهذه التغييرات يصبح الرداء الصيفي خفيفاً وبارداً.

كان من الممكن الإشارة إلى وصف الليدي ماري ورتلي (Lady Mary Wortley) حول لباس المرأة، لو لم يكن هذا الوصف في بعض جوانبه، وبخاصة فيما يتعلق بغطاء الرأس، إغريقياً أكثر منه تركياً، ومختلفاً عن اللباس في حلب.

يشبه لباس المرأة في الكثير من الجوانب لباس الرجال، إلا أن الدولامان والقنباز يكون ملاصقاً أكثر للجسم، ولا يُثنى عند الصدر وتبقى الرقبة بدون غطاء، ويضع كلاهما، بالإضافة إلى الجبة ذات الفرو، المصنوعة من الحرير الأوروبي، أما القماش المقصّب أو المزهّر فيكون من صنع حلب، في حين يكون الشخشور، الذي يسمى الجنتان، مصنوعاً من الحرير أو القماش الهندي، وهن لا يرتدين المست، بل يرتدين جورباً أخضر خفيفاً للقدم فقط، أو أي جلد ملون آخر، ولا يخاط مع الشخشور. والقمصان

---

* إن العمائم الأكثر انتشاراً في حلب مبينة في الرسمين ٢ و٤، إلا أنه ثمة أنواع عديدة أخرى يمكن الإطلاع عليها في كتاب نيبور، 'الرحلات إلى الجزيرة العربية'، ص. ١٢٩.




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصنوعة من قماش حرير ناعم تتدلى حتى القدمين، تحت القنباز وفوق الجنتان، ويرتدين ثلاثة أحزمة، وهي مطرزة وتثبت بإبزيم كبير مذهّب، ومزدانة بلآلئ أو بأحجار كريمة.

يختلف طراز الفرو الذي يرتدينه عن الفرو الذي يرتديه الرجال، إذ يكون ملتصقاً أكثر بالجسم، وتكون الأكمام مفتوحة عند المرفق، ويتهدل عند الأطراف، ولا يخفي الرقبة، وقلما ترتدي السيدات الفرو ذا الوبر الطويل الباهظ الثمن، ويفضلن فرو السمور والقاقوم، ونادراً ما يرتدين أكثر من فروة في وقت واحد، وتكون فتحة الفرو حول القبة أوسع بكثير، أما على الصدر فهي أضيق مما هي عليه فروة الرجال، ويرتدين ذيل القاقوم ويعلق على التشذيبات الخارجية.

سيكون وصف غطاء رأس النساء في كلمات قليلة أمراً بالغ الصعوبة، إلا أنه يمكن تكوين فكرة من الصورة الملحقة. وتقلد الكثير من السيدات المسلمات سيدات إستانبول، فيضعن عمامة طويلة مستديرة من الموسلين الملون، مزدانة بلآلئ ودبابيس ألماس وريش طائر ابن الماء، وأزهار طبيعية أو اصطناعية؛ وترتدي نساء أخريات الغطاء الحلبي العادي، وتجدل البعض شعرهن بعدد كبير من الجدائل، ويشكلنه أخريات في جديلتين أو يتركنها تتدلى بحرية إلى الأسفل؛ ولكن كلتا الطريقتين ليستا بنفس الأناقة التي تبدو عليها السيدات اليونانيات في استانبول.

والسيدات مغرمات جداً بالشعر الطويل، ويبذلن جهداً كبيرة في الحفاظ عليه، ويشجعن على إطالته بغزارة بقدر الإمكان، وبما أنهن يستخدمن قبعة قماشية دافئة، كقاعدة للغطاء العلوي المؤلف من القطن والموسلين، الذي يؤلف باقي رداء الرأس، فإن غطاء الرأس يكون أكثر دفئاً من غطاء رأس الرجال، إلا أنه رغم أنهن نادراً ما يجازفن في إخراج شعرهن، ما عدا في الحمام، فإنهن يتعرضن كثيراً للزكام أو مشاكل أخرى يعود سببها عادة للبرد.

ترتدي النساء أقراطاً وعقداً من الذهب، وأساور ذهبية كبيرة غليظة حول الرسغ وخلخالاً حول الكاحل، وقلادة أو كلانة قريبة من الشعر على الجبهة، وأخرى طويلة حول الجسم، بطريقة الشاش، ويرتدي كلا الجنسين خواتم حول الأصابع، وتضع بعض النساء خواتم كذلك حول الأصابع الكبيرة.

تعليق اللوحة (٣) :تظهر اللوحة سيدة مسلمة من الطبقة الراقية، ترتدي اللباس الحلبي المعروف. وهي تبدو في حالة استرخاء على أريكة وهي تدخن، بينما تتقدم خادمتها نحوها لتقدم لها فنجاناً من القهوة، وهي تمسك عقب الفنجان بين إصبعها وإبهامها، وغطاء الرأس هو الغطاء الذي ترتديه دائماً المسيحيات في حلب؛ إلا أن الكثير من السيدات المسلمات يرتدين العمامة الطويلة حسب الموضة في استانبول، ويبدو بوضوح طوقها والزينة الأخرى، ما عدا الخلخال الذي يخفيه السروال، ولردائها البلبسيه أكمام، إلا أنها مرمية فوق الكتفين، وترتدي جورباً جلدياً رقيقاً في قدميها، أما قدما الخادمة فعاريتان.

جرت عادة الشرقيين منذ قديم الزمان على إنفاق أموال كثيرة على المجوهرات وعلى أدوات الزينة الأخرى لنسائهم؛ إلا أن الرجال أخذوا يستخدمون الفرو الباهظ، والألبسة المزهرة منذ فترة حديثة، ويعتبر الأتراك أن هذا التعبير علامة على فساد العنصر، ويقولون بأنهم يرثون لهذا الاتجاه السريع نحو الإسراف والتخنث الذي أخذ يبرز خلال الأربعين سنة الماضية بين أفراد الطبقة المتوسطة في معظم مدن السلطنة الكبيرة، ويقال إن هذا الرغد كان قد دخل لأول مرة في عهد بيازيد الثاني الذي تولى عرش السلطنة في حوالي ١٤٨١. ويبدو من بيلون بأن اللباس الشرقي في منتصف القرن السادس عشر، كان نفسه تقريباً ما هو عليه الآن، باستثناء بعض التغييرات التي طرأت في بعض الأحيان (٣).

لعله لم يطرأ تغير، أو طرأ تغير طفيف، على اللباس الشرقي عند عرب الصحراء منذ أزمنة سحيقة، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لسكان المدن، إذ أن تغييرات الموضة تحدث بشكل نادر، وهي أقل أهمية مما هي في أوروبا، إذ إن لباس الرأس عند الرجال يبقى بدون تغيير، وطرأ على لباس الرأس عند النساء وباقي ثيابهن تعديلات طفيفة، لتمنح لهن الفرصة لإظهار أذواقهن في وضع المجوهرات واللآلئ والأزهار.

إن استخدام الحمرة (حمرة الخدود) ليس معروفاً كثيراً، وفي بعض الأحيان، تدهن العرائس اليهوديات وجوههن في ليلة الزفاف. أما عند المسلمات والمسيحيات، فالنساء السيئات السمعة وحدهن هن اللاتي يغامرن ويفعلن ذلك، ويدل ذلك على مهنتهن، إلا أن النساء لا ينفرن من الزينة الاصطناعية، ويضعن نوعاً من الطلاء غير الطبيعي وهو يسيء إليهن أكثر من استخدام الحمرة. وهو طلاء مأخوذ من نبات يدعى الحنة يطلين به الأصابع والكفين وظهر اليدين والقدمين وأصابع القدم، ويمنحهن لوناً أصفر داكناً، وبما أن هذا الأمر شائع الاستخدام، لذا تستورد كميات كبيرة جداً من أوراق الحنة من مصر.

تتمثل الطريقة العادية ببساطة في طلاء رؤوس أصابع اليدين والقدمين بشكل خفيف بالحنة، وفي مناسبات خاصة، ترسم أشكال نجوم، أو ورود، أو أزهار أخرى على اليدين والقدمين، بالطريقة التالية: تشكل عجينة من الأوراق المسحوقة من نبات الحنة مع الماء، ويلف جزء منها على شكل خطوط قصيرة، ويحفظ الجزء الآخر من أجل رؤوس أصابع اليدين والقدمين، ويحضر عندئذ قرص من العجينة، توضع فوقها خطوط العجينة حسب الأشكال المراد رسمها على الأطراف، وبعد أن تغطى رؤوس أصابع اليدين والقدمين بعجينة الحنة، توضع قطع من القرص التي توضع عليها الخطوط، وتوضع على الكفين وظهر اليدين والقدمين إلى ما هنالك، وتلف بأربطة، وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات، تكون هذه الأجزاء قد لونت بلون أحمر داكن أو بالأصفر. ثم تغطى اليدان والقدمان بعجينة أخرى مؤلفة من زهر القمح والماء، مع كمية ضئيلة من ملح الأمونياك الخام والكلس السريع، ويترك لمدة تقارب نصف الساعة، ثم يتحول الصباغ الداكن اللون، إلى نوع من اللون الأسود أو الأخضر الغامق.

يصاحب كلا العمليتين، وخاصة الأخيرة شيء من الألم، لأنه من أجل طباعة هذه الأشكال، يلف رباط بإحكام، وتترك العجينة عدة ساعات، ويكون لون الصباغ في

البداية أخضر غامق، إلا أنه يتحول لونه تدريجياً إلى لون أصفر داكن على مدى ثمانية أو عشرة أيام، وتعتبر هذه العملية من الاحتفالات الضرورية في حفلات الزواج وفي المناسبات الأخرى، وتقوم عادة بهذه العملية النسوة اللاتي يقفن على خدمة السيدات في الحمام، كما تستخدم الحنة لإعطاء الشعر لوناً خرنوبياً، وتستخدمه بعض العجائز بعد إضافة مواد أخرى إليه لإعطاء شعرهن لون الآجر (البريك).

وثمة عادة شائعة بين النساء، وهي تظليل داخل الرموش بواسطة مرود (ميل) من العاج أو الخشب أو الفضة، وتدهن بمسحوق يسمى الكحل* الأسود وتغطس أولاً في الماء، ويرش عليها قليل من المسحوق، ويستخدم الجزء الأوسط بشكل أفقي على العين، بعد أن يغلق الجفنان عليها، وتمرر المرود بينهما، فتلون الجزء الداخلي، وتترك خطاً أسود حول الحافة.

كما يستخدم الرجال الكحل، ولكن ليس لمجرد الزينة، لأن ذلك يعتبر مظهراً أنثوياً، ويبدو أنه يقوي البصر، ويمنع أمراضاً عديدة تصيب العين، لذلك، تضاف إليه في بعض الأحيان مكونات من أنواع مختلفة. كما يُكحل الرضع حال ولادتهم، ويتكرر ذلك كل بضعة أيام، حتى وصولهم إلى سن البلوغ، وتكتسب النسوة مهارة كبيرة في القيام بهذه العملية، ويبدو مظهرن صعباً ومزعجاً بالنسبة للأجنبي.

وثمة عادة أخرى تمارسها النسوة، لكنها أصبحت أقل شيوعاً من قبل، تتألف من وضع تركيب معين يدعىالخطاط على الجفون، يلونها بلون أسود جميل ويجعل الشعر ناعماً ولامعاً.

يدهن الرجال في بعض الأحيان أظافرهم، ورؤوس أصابعهم بالحنة، إلا أن ذلك ليس شائعاً، وهم أنيقون في ملبسهم، ويعتبرون أن إيلاء اهتمام شديد لهذا الأمر، شيئ كريه ومبتذل.

جرت العادة على إطلاق اللحية بعد سن معينة، أو بعد الحج إلى مكة، ويبذلون جهداً كبيراً في تشذيبها، إلا أن العديد من المسلمين يكتفون بالشارب فقط، ويصبغ بعضهم اللحية بصباغ أسود لإخفاء الشعرات الشائبة، ويصبغها آخرون بالحنة، وفي كلتا الطريقتين، يحتاج الأمر إلى صبغها بين فترة وأخرى، وبما أن ذلك لا يعتبر أمراً محموداً فلا يشيع انتشارها، رغم أن الرسول نفسه كان يصبغ لحيته بالحنة، وقد اتبع سنته هذه الكثير من الخلفاء(٥)، إن تشذيب الذقن، وتقليم الأظافر، ووضع العمامة من العادات التي يمارسها البربر العاديون الذين يحلقون رؤوسهم. ويحتفظ أكابر القوم بخدم للاعتناء بلباسهم، وقد يكون أفضل وصف عن العربي بل والتركي في مذكرات دارفيو بقلم لابات الذي يقدم وصفاً عن الاحترام الذي يكنه العرب للحية في كتابه *رحلته إلى فلسطين*.

يستخدم كلا الجنسين مجموعة من العطورات المركبة، التي يدخل في تركيبها دائماً المسك وخشب الصندل والناردين (سنبل الطيب)، وتوضع في أكياس صغيرة مسطحة، وتحمل في جيب الصدر، كما يستخدمون عطر الورد وعطورات أخرى تجلب من الهند، وسنأتي على ذكر عود النّد والمياه المعطرة في فصل آخر.

* ويدعى بالتركية سرمة (أنظر الملاحظة ٤)

عندما تسير النساء من جميع الطبقات خارج البيت، يرتدين أحذية عالية صفراء رقيقة تصل حتى الساق، ويرتدين فوقها بابوجاً أصفر أو خفاً؛ أما في الطقس الماطر، فيلبسن نوعاً من القباقيب الخشبية بدلاً من البابوج، يبلغ ارتفاعها ست أو ثماني بوصات يدعى القبقاب، وفي داخل البيت، يلبسن دائماً قباقيب وهن يتنقلن من حجرة إلى أخرى، ولكنها تكون أعلى بكثير، بحيث يبلغ طولها من قدم إلى ثماني عشرة بوصة، وتكون مرصعة بعرق اللؤلؤ (الصدف البحري).

لا تخرج النساء إلي الشارع أبداً بدون حجاب (إزار)، وذلك لأن القرآن فرض ارتداءه. والحجاب نوعان، الفراجي والحجاب الحلبي الشائع. وترتدي النوع الأول النساء المسلمات فقط، أما النوع الثاني فترتديه جميع النسوة دون تمييز، والنوع الأول عبارة عن قرطاق كبير، ذي أكمام طويلة مستقيمة، وغطاء مربع يتدلى على الظهر، ويكون في أحياناً مصنوعاً من الكتان الأبيض، وفي أحيان أخرى يكون مصنوعاً من الشال أو القماش، ويصل (الفراجي) حتى الكعبين، ويغطي الثوب بكامله من الرقبة وحتى الأسفل، في حين يُغطى الرأس والوجه بمنديل أبيض كبير يوضع فوق غطاء الرأس والجبهة، وآخر أصغر حجماً، يربط بشكل متعامد فوق الجزء السفلي من الوجه ويتدلى على الرقبة، وبهذه الطريقة، تعاني النساء كثيراً من هذا التقييد، بحيث يشعرن بسعادة بالغة عندما يتخلصن منه إذا ما دخلن إلى الحرملك، كما تستخدم أنواع أخرى كثيرة، فيستخدمن بدلاً من المنديل الأصفر، قطعة طويلة من قماش حريري رقيق أسود (كريب)، مقسّى، ينحدر قليلاً من الجبهة، ويترك مجالاً للتنفس بحرية أكبر، وبهذه الطريقة الأخيرة، تتحجب السيدات تماماً، أما في الحالة الأولى، فتبقى العينان والأنف مكشوفة، ويمكن التعرف عليهن بسهولة من قبل معارفهن.

أما الحجاب الحلبي الشائع فهو عبارة عن قطعة من الكتان، تكون كبيرة بحيث تغطي اللباس بأكمله من الرأس حتى القدمين، ويسدل على الوجه بشكل يخفي الوجه كله، ما عدا عيناً واحدة، أما حجاب النساء المسيحيات واليهوديات فيكون من قماش Calico أبيض سادة؛ أما الحجاب الذي ترتديه المسلمات فهو من نفس الشكل، ويكون لونه أزرق أو أحمر ومخططاً ذا مربعات؛

ولكن اليهوديات يرتدين حجابهن بطريقة يتميزن بها عن غيرهن، فيتركن إحدى الذراعين حرة بشكل ضفائر كما كانت السيدات الاسكتلنديات يرتدينه في الماضي.

نادراً ما يخرج الرجال إلى الشارع وهم ينتعلون القبقاب، بل ينتعلونه فقط في الحمام أو في البيت عندما تكون الأرض مبللة، وفي الحالات الأخرى، يسيرون دائماً بالبابوج أو الخف، اللذين لا يناسبان الشوارع الوسخة لعدم وجود كعوب لها، أما عامة الناس المضطرين للتجول كثيراً في الشتاء فيلبسون حذاء طويلاً أحمر، ويجعل له نعل من حديد، ويلبس الانكشارية البابوج، وينتعل المسلمون الآخرون بابوجاً أصفر دائماً كما هو الحال بالنسبة لأحذيتهم، ولا يرتدي إلا بعض عامة الناس، كما لاحظنا سابقاً، أحذية حمراً.

يستخدم الحلبيون الذين تتوافر لهم الإمكانات، كمية كبيرة من الغذاء الحيواني في طعامهم العادي، وتتألف وجباتهم بشكل رئيسي من لحم الضأن أو الحمل، الذي يقطع

قطعاً صغيرة، أو يشوى على أسياخ (كباب)، أو يطبخ مع الرز والخضار مع صلصات قوية (اليخني)، ويُحشى الباذنجان والخيار والقرع باللحم والرز، وهي أطباق مرغوبة جداً (محشي)، وتستخدم الطيور في إعداد الحساء أو الفريكة، ولا تشوى كلها أبداً، وسنقدم مزيداً من الوصف عن المائدة التركية في الفصل القادم، وسنكتفي هنا بذكر أنه تقدم أعدد كبيرة جداً من الأطباق بتلاحق سريع على موائد الطبقات الأعلى، وبذا تكون الوجبة متنوعة جداً. أما على الموائد العادية، فإن عدد الأطباق قلما يتجاوز ثلاثة أو أربعة، ويعيش السكان من الطبقة الدنيا في معظم الأحيان، على الأرز والسمن والحليب والجبن الطازجة والخضار والفواكه الصيفية، ويستعملون كمية قليلة من لحم الضأن.

إن الخبز العادي مسطح ورقيق، ويصنع من دقيق، ولا يكون جيد التخمر، ويخبز بطريقة سيئة، ويؤكل غالباً وهو طازج من الفرن، وتوجد في الأسواق نوعية أفضل من الأرغفة وهي على شكل حلقات ترش عليها بذور السمسم أو الشمرة كما تباع في الأسواق أنواع عديدة من البقسماط إلا أن معظم الأسر تحضر العجين في البيوت، وترسله إلى الفرن لخبيزه، وهو على شكل أرغفة صغيرة، متخمرة بعناية أكبر، وفي جميع الأحوال، يكون أفضل من الخبز الذي يباع في الأسواق، ويحصل الأوربيون على نوعية ممتازة من الخبز المخبوز على الطريقة الفرنسية.

يدخل الرز كعنصر هام في عدد من الأطعمة، ويقدم باستمرار مرتين في اليوم في شكل بلاو، والبلاو التركي عبارة عن أرز وزبدة، وفي بعض الأحيان يمزج بأطعمة أخرى، على موائد الأكابر، يقدم كآخر طبق، إن استهلاك الحلبيين للرز كبير جداً، ولا توجد لديهم فكرة بأنه ضار للعيون؛ وهو رأي سائد في بعض بقاع إنكلترا، ويستورد الأرز بشكل رئيسي من مصر، وتزرع كميات قليلة جداً منه في سورية.

كما يستخدم البرغل*، وهو قمح يحضر بطريقة معينة، على نطاق واسع في المطبخ الشرقي. وشأن الرز، يُطهى في بعض الأحيان كبلاو، إلا أنه في أكثر الأحيان يُسحق مع لحمة مفرومة وشحمة وتوابل، ويُعمل على شكل كرات كبيرة، ويقلى أو يسلق (الكبة).

ويجد كل من الحمص والعدس والماش مكاناً لها في أطباق عديدة، وهي غذاء رئيسي للفقراء، وكنا قد أتينا على ذكر الخضار والجذور، ومنتجات البساتين الأخرى، التي تشكل جزءاً كبيراً من الغذاء الشعبي في مكان آخر، وذكر م. دارفيو، بأن الفواكه تستهلك في حلب بكميات أكبر بكثير من أي من المدن الأوربية الثلاث ذات الحجم نفسه.

منذ بداية نيسان وحتى شهر أيلول، ترد إلى المدينة نوعية ممتازة من الحليب بواسطة قطعان كبيرة من الماعز، ترعى على سفوح التلال وتجوب الشوارع في صباح كل يوم، وخلال الموسم نفسه، تجلب إلى السوق كميات وافرة من الجبن الطازج والقيمق(٧)، واللبن** من القرى ومن مضارب القبائل الرحل من البدو والتركمان،

---

*البرغل: يتم تحضيره بنقعه أولاً في الماء الحار حتى تلين الحبة، ثم تفصل عنها القشرة، ويطحن بواسطة مطحنة يدوية، ثم يجفف في الشمس ويحفظ للاستخدام.

** غالباً ما تترجم هذه الكلمة في اللغة الأدبية بالحليب، إلا أنها تعني في حلب نوعاً خاصاً من حمض اللبن يشبه كثيراً ذلك الذي يطلق عليه في الهند اسم صور (أنظر الملاحظة ٨).

ويستحيل الحفاظ على الحليب في حالة جيدة في الصيف لأكثر من بضع ساعات، لذلك يضطرون لاستخراج القشدة بواسطة نار بطيئة، ويمكن أن يؤدي الدخان المتصاعد نتيجة حرق الروث المجفف أو الأغصان المقطوعة إلى جعل مذاقه غير مقبول. والجبن شديد الملوحة، ويصل اللبن في أكمل حالاته، ويشكل على مدى الموسم جزءاً كبيرا من طعام الطبقة الدنيا من السكان، ويقدم على جميع الموائد، إما وحده في زبادي صغيرة أو يمزج مع السلطة ويصب في بعض الأحيان فوق اللحم المشوي واليخني، وفي الشتاء، يزود السكان بالحليب البقري، إلا أن الأبقار تربى في البساتين في أماكن مغلقة وترعى بشكل سيئ، وفي غالب الأحيان يكون مذاق الحليب كطعم أوراق الملفوف أو الثوم.

يستخدم السمن في المطبخ أكثر بكثير من الزيت، ويقوم التركمان والرشوانيون والبدو، بشكل خاص، الذين يجوبون سهول سورية مع قطعانهم الكبيرة ويعيشون حياة رعوية، أو حياة بطريركية (أبوية)، غالباً ما تتسم بالبساطة والبدائية، ويقومون بتزويد المدينة بالسمن، ويصنع السمن من حليب الماعز والأبقار والأغنام والجاموس، ويخض في جلد الماعز، وينقل إلى المدينة، وبغية تخليصه من الشعر ومن الشوائب الأخرى، يصبح من الضروري تذويبه وتصفيته، وبذلك يكتسب مذاقاً زنخاً لا يستسيغه معظم الأجانب، بخلاف السكان المحليين.

بما أننا ننوي التحدث فيما بعد بالتفصيل عن طريقة المسلمين في استقبال الزوار، وأحاديثهم وأسلوب جلوسهم في الجلوس على المائدة، وعادات الطعام الأخرى، فسنتابع الآن الحديث عن أمور عامة مشتركة بين جميع طبقات السكان.

تحتسي جميع الطبقات القهوة بدون سكر أو حليب، وتقدم ساخنة بقدر الإمكان في فناجين من الصيني، وتوضع على أطباق من الفضة لحماية الأصابع من حرارتها. وعند الطبقة الراقية، يملأ الفنجان حتى منتصفه، وتكون القهوة قوية جداً. أما عامة الناس فيستعملون فناجين أكبر حجماً ويملؤونها حتى الحافة، إلا أن قهوتهم تكون خفيفة وتحتسى دائماً بعد تناول الوجبات، وتقدم مع القصبة في الزيارات غير الرسمية، ويحتسي عدد قليل من أفراد الطبقة الدنيا أقل من ثلاثة أو أربعة فناجين خلال الأربع وعشرين ساعة، ويحتسي أفراد الطبقة الأعلى عدداً أكبر؛ وقد يحتسي الأشخاص الذين يترددون على الأكابر عشرين فنجاناً، إن الإفراط في احتساء القهوة يفسد الشهية لملئه المعدة، ولم يلاحظ أن احتساءها بهذا الشكل يؤدي إلى رفع درجة حرارة الجسم أو التأثير على الأعصاب، وتعتبر حتى في منتصف الصيف، واحدة من المرطبات الرئيسية، وكان استعمال القهوة قد عرف في سورية في حوالي منتصف القرن السادس عشر، وربما قبل بضع سنوات من دخولها إلى القسطنطينية (٩)، ويتحدث م. دارفيو عن عادة شرب القهوة مع السكر في زمنه، وهي عادة أدخلها الأتراك في وقت لاحق، وبالتأكيد فإن هذه العادة غير موجودة حالياً.

يدخن جميع الرجال التبغ بشكل كبير، وقلما يشاهد الحرفيون والعمال العاديون وهم لا يضعون قصبة قصيرة في أفواههم، كما أخذ عدد كبير من النساء في هذه العادة، ويبدو أنها في ازدياد كل يوم. ويتذوق الأطفال التبغ وهم في سن مبكرة، لأنهم يقومون في بعض الأحيان بإشعال القصبة لذويهم، غير أنه لا يسمح للصبية

بالتدخين بوجود الأب قبل سن الرابعة عشرة، وقلما تجرؤ الفتيات على التدخين وهن في صحبة أحد قبل زواجهن.

يبدأ الرجال التدخين حالما يستيقظون في الصباح، وفيما عدا أوقات الوجبات، فقلما يكفون عن ذلك طوال النهار، ويحمل كل شخص أكياس تبغ، بعضها مصنوع من الشال المزركش، وهم عادة لا يملؤون القصبة بأنفسهم، بل يأخذ خادم الكيس ويعود وقد ملأ القصبة وأشعلها، ثم يطوي الكيس ويعيده إلى سيده، ونادراً ما يبصق السكان المحليون عندما يدخنون، وهو أمر يعزى في جزء منه للطافة التبغ، الذي لا يهيج الريق، وفي جزء آخر إلى العادة. أما الأوربيون، الذين يبصقون عادة عندما يدخنون تبغ فيرجينيا، فقد تبنوا على الفور عادة السكان المحليين دون إزعاج.

تصنع قصبات التبغ من أغصان شجر الكرز أو اللوز أو الورد أو الياسمين، حيث يقوم صانعو القصبات بتسويتها وثقبها بمهارة كبيرة، ويتراوح طولها من ثلاث إلى ست أقدام، وتزين بالفضة أو بزخارف ذهبية في الأعلى، وتكون القطعة التي توضع في الفم من الكهرمان أو العاج، وتصنع الزبدية من فخار مائل للحمرة، ويجب تغييره في أغلب الأحيان، وتدوم القصبات سنوات عديد، ولا تصبح ذات قيمة عالية إلا بعد استخدامها لفترات طويلة، إلا أنها تنظف يومياً بسلك مصمم لهذه الغاية، وفي الصيف تغطى القصبة بالشال بعناية، يكون في أسفلها طبقة رقيقة من القطن، ويبلل هذا الغطاء تماماً بالماء، مما يجعل الدخان رطباً بشكل ملحوظ، وتكون القصبات التي تستخدمها النسوة أصغر، ومزدانة بصورة أفضل، ويكون غطاؤها في الصيف مزركشاً بشكل جميل.

يُجلب التبغ الذي يستهلك في حلب من بقاع مختلفة من سورية، ولاسيما اللاذقية، وهو ألطف بكثير من التبغ الأمريكي، إلا أنه في الوقت نفسه كثير الزيت، بحيث أن زبادي القصبة، سرعان ما تصبح غير ملائمة للاستخدام، وتحتاج إلى عناية فائقة للحفاظ على نظافتها. ويُفضل مزج أنواع عديدة من التبغ على استعمال نوع واحد، ولا يقل الأتراك في هذا المجال فضولاً عن الأوربيين في اختيارهم للنشوق، ولا يمزج شيء أبداً مع التبغ لإعطائه رائحة عطرة، إلا أنه جرت العادة على وضع عود الند أو العنبر فوق التبغ المشتعل الذي ينشر العطر في الغرفة كلها.

دخلت في السنوات الأخيرة، طريقة التدخين الفارسية إلى صفوف عدد من الأعيان رغم أنها تنحصر بشكل رئيسي بين التجار الذين عبروا الصحراء، أو الذين لديهم مصالح في تجارة البصرة، وتسمى الأداة المستعملة القليان*، وهي عبارة عن وعاء زجاجي بيضوي الشكل ذي عنق طويل مزخرف من الداخل، تنبت في أسفلها أزهار زجاجية ملونة، ويُركب عليها رأس فضي مؤلف من كوب لتلقي التبغ، متصل بالوعاء بأنبوب مستقيم طويل، يصل حتى ثلثي القاعدة ويُفتح أنبوب أقصر على عنق الوعاء قرب الجزء العلوي، وينثني من الرأس على شكل قوس، وهو مزخرف بشكل جميل وإما يكون مذهباً أو مطلياً بالمينا، إلا أنه يمكن فهم هذه الأداة على نحو أفضل من الشكل المرسوم. وعند الاستعمال، يملأ الوعاء بالماء حتى يُغمر الأنبوب المستقيم حتى ارتفاع بوصة أو بوصتين، وقد صمم الرأس بحيث لايتسرب الهواء إلا بواسطة الأنابيب، وتثبيت قصبة

* القليان كلمة فارسية (المترجم)

مرنة طولها أربعة أو خمسة أقدام على فم الأنبوب القصير، ويُحضر التبغ جيداً*، ثم يوضع في الكوب ويُشعل بواسطة قطعة صغيرة أو أكثر من الفحم، التي يجب أن تبقى دائماً في الجزء العلوي، ويُحدث المص (السحب) بواسطة الأنبوبة المرنة، في الوقت نفسه، فقاعات في الماء وفراغاً في عنق الوعاء الذي سرعان ما يملأ بالدخان، وينزل إلى الأنبوبة المستوية، ويرتفع ثانية عبر الماء، وثمة أداة أخرى تدعى النارجيلة، مكوّنة على غرار ذلك، وتستعمل في حلب أكثر من القليان، ولها قصبة مستقيمة بدلاً من الملتوية، وبما أنه يجب إمساك هذه الأداة باليد، فهي ليست مناسبة كثيراً كالأخرى، التي تستخدم بسهولة أكثر بسبب مرونة أنبوبتها، ويستخدم البعض شخصاً لحمل النارجيلة، ويستخدمون لذلك أنبوباً مرناً.

يصبح دخان التبغ في هاتين الأداتين ألطف بكثير، نتيجة مروره عبر الماء، ولا يترك رائحة أو طعماً غير مستحب في الفم، ويمكن الملاحظة، بأن طريقة التدخين تختلف عن طريقة القصبة العادية، حيث تتم العملية كلها بواسطة الشفتين، إذ يضع المدخن شفتيه برفق على الأنبوبة، ويسحب نفَسه بالكامل وبذا يبدو أن أكبر جزء من الدخان يدخل بعمق إلى صدره، بل ينزل إلى الرئتين. أما إذا كان الشخص معتاداً على القليان، وحاول تدخين قصبة عادية بنفس الطريقة، فسيدخل على الفور في نوبة من السعال، وقد لاحظ Kempzar بأن الدخان ينزل إلى الرئتين.

إن التبغ الفارسي أو التنباك (التتن العجمي) هو التبغ الوحيد الذي يلائم تدخينه بالماء، ويبدو أنه أقوى من التبغ العادي، ولا يدخن في القصبة العادية، أما عندما يُغسل ويُحضر جيداً للقليان فتصبح له نكهة طيبة.

لعل الأتراك أخذوا عادة التدخين بواسطة الماء من بلاد فارس، أما عادة التدخين بالطريقة المعتادة، فمن المؤكد أنهم أخذوها من أوروبا، ومن الغرابة في تاريخ الرفاهية البشرية، أن تلقى عادة غير مستحبة في البداية، مصحوبة بمتعة حسية إيجابية قليلة، انتشاراً فيما بعد بهذه السرعة، بين أناس لا يرغبون كثيراً في تبني عادات غريبة(١٠).

يستخدم عامة الناس نوعاً متدنياً من النارجيلة، ولكن بما أن التنباك غالي الثمن، فهم يستبدلونه بالتبغ العادي المبلل بالدبس والماء، أو بكمية كبيرة من الزبيب، ويضيفون إليه في بعض الأحيان الحشيش، أو الشيرا، التي تجعل الدخان ممزوجاً بنوعية تثير الانتشاء، وثمة رجال يجوبون الشوارع، ويترددون على المقاهي، وهم يحملون هذه النارجيلة وهي جاهزة، ويقدمونها للذين يرغبون ويحصلون على مبلغ صغير لقاء نفَس أو نفَسين. ويدخن عدد قليل من أفراد الطبقة الدنيا النارجيلة بهذه الطريقة، ومن المثير للدهش تلك الحماسة التي يبدونها للقليان والكمية الضخمة التي يسحبونها، وبعد فاصل زمني طويل، من كميات الدخان التي ينفثونها من مناخيرهم وفمهم. ويمنع القاضي في بعض الأحيان استعمال النارجيلة في الأماكن العامة طبقاً للشريعة، ويبدو أن الشيء

---

* بعد غسل التبغ يضاف إليه قليل من ماء الورد وسكر بنّي خشن، وتمزج جميعها وتصنع منها عجينة. ويرص في الأعلى تبغ جاف قبل وضع الكرات عليها.

نفسه يطبق في الهند، حيث يطلقون عليه اسم البينغ، المصنوع من أوراق أنثى القنب الهندي، التي تطحن أولاً، ثم توضع في ورق مبلل وتغطى برماد حار، حتى تتشكل منها عجينة، وبعد أن تضغط على شكل قرص رقيق، تقطع إلى قطع صغيرة وتجفف، وإذا ما دخن المرء حوالي نصف درهم منها في قصبة تبغ أو في نارجيلة، فستجعله ثملاً، بل وحتى مجنوناً، وإذ مزجت بضع حبات منه مع أي شيء حلو، وخاصة (كما يدّعي السكان المحليون) التين، فسيكون لها نفس التأثير إذا ما تم ابتلاعها، إلا أنها توقف مفعول الأحماض على الفور. وقد ذكر غالينوس(١١) التأثير المسكر للقنب، وقد انتشرت عادة النشوق منذ العام ١٧٥٣ (وكانت غير معروفة كثيراً في ذلك الوقت)، حتى إن الباب العالي اعتبر في حوالي العام ١٧٦٠ أنه من الضروري فرض رسم على نشوق Rapee. ويمنح حصر (احتكار) صنعه وبيعه في حلب، إلا أن شم النشوق لا يزال منحصراً على نطاق ضيق، بالمقارنة مع التدخين.

لم أتمكن أبداً من إثبات شيوع عادة تناول الأفيون في تركيا، كما يسود الاعتقاد في أوروبا، وتسود هذه العادة بالفعل في إستانبول أكثر منها في حلب، حيث تعتبر، ومن حسن الحظ، عادة مشينة شأنها شأن احتساء الخمر، ولا يتعاطاها إلا قلة من الناس علناً، باستثناء أشخاص لا يبالون بسمعتهم، إذ أن الحلبيين، وهم أقل الناس تعاطياً للأفيون، أناس ملتزمون بالقانون، ولعل ذلك يعود إلى تأثير القدوة؛ ورغم أن قاضياً جديداً يأتي سنوياً إلى حلب من استانبول، فإنه نادراً ما يسن هو أو بعض ضباطه قانوناً جديداً، من أجل عادة كانوا قد تعلموها في العاصمة، حيث تعتبر جنحة صغيرة، ولا تقف حائلاً في وجه تعاطيه، إلا أنه بالرغم من ذلك، فإن الكثير من الأفندية يكتسبون عادة تعاطي الأفيون، وهم لا يحاولون إيجاد مبرر مباشر لتعاطيه، ويدعون أنهم يتعاطونه بسبب صحتهم، ويبررون خرق القانون بنفس مبدأ الضرورة الذي يقودهم أحياناً لاحتساء الخمر.

يُخلط الأفيون بأنواع معينة من التوابل والمواد المعطرة، ويصنع بشكل معجون مع العسل، ويسمى (برس)، ولعل طريقة تحضيره تختلف من مكان لآخر، وهو ساخن وسيء الطعم جداً، ويتناولون من عشر إلى مائتي حبة منه في كل مرة.وهو لا يصنع عادة في حلب، بل يتم تحضير كميات كبيرة منه في استانبول، وترسل إلى المقاطعات في علب من القصدير، ورغم أن الأفيون يؤخذ بهذا الشكل، فهو يؤخذ كذلك نقياً، سواء على شكل حبات أو يقطع إلى قطع صغيرة، وهم لا يمضغونه، بل يبتلعونه على الفور، ويحتسون كوباً من القهوة للمساعدة في ابتلاعه، وفي بعض الأحيان تكون جرعة البرس كبيرة، بحيث يكادون يختنقون عندما يبتلعونها.

إن أكبر كمية من الأفيون النقي التي يتناولها أحدهم على حد علمي، كانت ثلاثة دراهم* خلال أربع وعشرين ساعة، وتكون الكمية عادة أقل بكثير، وتبتلع بقطع منفصلة، وبفواصل زمنية من خمس أو ست ساعات، وكان التأثير الفوري الذي لاحظته

---

* إن الكمية التي ذكرها المؤلف تزيد بنصف درهم عن الكمية التي عرفتها من الأفيون الصافي الذي يتم تعاطيه، حيث أتيحت لي فرصة تحديد الكمية بدقة.

على المدمنين على تعاطيه، يكمن في بعث نشوة في الروح، والتحرر من حالة الفتور والقنوط والإكتئاب إلى حالة الانتشاء فور أخذ جرعة من الأفيون.

من المثير للانتباه أن قوة تأثير الأفيون تتلاشى عندما تحدث أي ضجة مفاجئة، وأية مفاجأة أخرى، حتى لو كان متعاطيها في ذروة نشوته، وتقع عندها الضحية البائسة فريسة للخوف، ولا شيء يشفيه منه سوى تناول جرعة جديدة. ويمضي بعض كبار القوم في بعض الأحيان أوقات تسليتهم مع أشخاص من طبقة دنيا يكونون مدمنين على الأفيون بشكل كبير، وقد شاهدت متعاطياً للأفيون في بيت المحفل في حلب، كان قد نصّب نفسه باشا بعد تناوله جرعة كاملة من البرس، وأخذ يمارس كل ما يمليه هذا المنصب، فجلس في زاوية الإيوان، وأخذ يتحدث مع صاحب البيت بدون كلفة، ودخل في تفاصيل أعمال مثالية، وأمر بإحضار أشخاص للمثول أمامه لضربهم أو سجنهم، وأهان بعض الوصفاء وطردهم، وعيَّن آخرين، وفي خضم هذه المعمعة، أصدر أحد الخدم وكان مختبئاً وراءه (كما كان قد طلب منه ذلك)، ضجة عالية مفاجئة بواسطة أبجور النافذة، وفي لحظة واحدة زالت النشوة وانتابت الباشا المسكين رعشة في جسده، وسقطت القصبة من يده، وما إن استيقظ فجأة لهول الأمر، حتى هرع لتناول البرس ثانية باعتباره الملاذ الوحيد لاستعادة وضعه السابق.

يُطلق على الأشخاص الشديدي الإدمان على هذه الممارسة البغيضة اسم الترياقي (الترياكي) أو الأفيوني. وسيعاني الكثيرون من جراء هذه الممارسة إن عاجلاً أم آجلاً، ففي بادئ الأمر يصابون بإمساك مزمن، ولكن مع مرور الزمن، يبدو أن الأفيون يحدث تأثيراً معاكساً فيصابون بإسهال مزمن دائماً، ويعانون من انتفاخ في الأمعاء بشكل مستمر، ويفقدون الشاهية، وعلى مدى بضع سنين، تبدو عليهم ملامح الغباء، التي تلاحظ غالباً عند شاربي المشروبات الكحولية، وقلما يصلون إلى الشيخوخة، كما أنهم نادراً ما يموتون بسبب داء الاستسقاء، أو الأمراض الأخرى التي تكون في أوروبا نتيجة طبيعية للشراب بكثرة؛ إلا أنهم يفقدون ذاكرتهم، ويفقدون بالتدريج ملكاتهم الأخرى، ويشيخون قبل أوانهم الطبيعي، ويموتون في غير أوانهم.*

كان لدى عدد قليل جداً من الناس، ممن اعتادوا على الأفيون، الإرادة الكافية للتوقف عنه، وهم يعانون كثيراً من حالات الإكتئاب، وتنتابهم آلاف الوساوس، ومع ذلك فإنهم يتوقفون عن المحاولة، في حين يقلل البعض الآخر من الجرعة، ويبدلونها بكأس من النبيذ أو المشروبات الروحية الأخرى، إلا أن أنفع وسيلة تكمن في التقليل من كمية الأفيون بشكل تدريجي، وتناول جرعات صغيرة من المشروبات الروحية أو إلكسير مر الطعم، يمكن أن تدخل المتعة إلى نفس المريض دون أن تقوده إلى الإدمان على الدواء؛ وهي نتيجة طبيعية، عندما تستعمل مشروبات روحية، وخاصة مشروب الروفوليس الفرنسي.

---

* رغم أن لقب الترياقي يطلق عادة على الشخص الذي يتعاطى الأفيون بشكل مفرط، فإنه يطلق كذلك على الأشخاص الذين يتعاطون الخمر أو المشروبات الروحية الأخرى بكثرة.

الملاحظات

(١) في عام ١٧٥٤، أرسلت نسخة من ورقة باللغة العربية إلى أخي، يرد فيها عدد سكان أهالي حلب، جاء فيها أن عدد المسلمين يبلغ ٣٠٠٠٠٠. وكان الكاتب قساً مارونياً، استند في حساباته بشكل رئيسي على الاستهلاك السنوي للحبوب، والوفيات نتيجة تفشي الطاعون في سنة ١٧٤٢، وقد ساعده كذلك في حساباته (كما يقول) صديق أوروبي، خبير في الهندسة.

'في سنة ١٧٤٢، تبين حسب ما ذكرت الورقة أن نسبة المسيحيين الذين ماتوا نتيجة إصابتهم بالطاعون، كانت حوالي خمسة في المئة، وإذا اعتبرنا هذه النسبة هي نفسها التي أصابت المسلمين، فإن عددهم يكون عندئذ ٣٠٠٠٠٠، إلا أنه يحتمل أن تكون نسبة الذين أصيبوا من المسلمين أكبر بكثير، لأنه لم يكن بوسعهم تفادي إصابتهم بالعدوى كالمسيحيين الذين كانوا لا يخرجون من بيوتهم، أو كانوا يعتكفون في بيوتهم عندما تتاح لهم الظروف. لذلك يبدو أن الاستنتاج من وفيات المسلمين أمر مغلوط. وإذا افترضنا أن وفيات المسلمين كانت تتراوح بين سبعة أو ثمانية في المائة، فلن يتجاوز عددهم ٢٠٠٠٠٠، وحسب بيان الوفيات أعلاه، يُظن أنه توفي من اليهود حوالي عشرة في المئة.

وفي مدينة لا توجد فيها سجلات عن الولادات والوفيات، فإنه يكاد يكون من المستحيل التحقق من عدد السكان. ويمكن تحديد عدد السكان من الضريبة المفروضة على البيوت؛ إلا أنه بما أن الأتراك لا يولون أي اهتمام للحسابات السياسية، يجد الأوروبي أنه من الصعوبة بمكان الحصول على تقارير تمكنه من تقدير عدد السكان في كل بيت، إلا أن الحالة تختلف من حيث السكان المسيحيون و اليهود، الذين يدفعون ضريبة الرؤوس، كما يمكن الحصول على معلومات أفضل عن علاقاتهم من الداخل بواسطة قسسهم.

يبدو أن م. درافيو كان قد اعتمد الأسلوب الشرقي، عندما يورد ذلك على أنه إثبات عن كثرة السكان في المكان، بحيث أنه في طاعون ١٦٦٩، لقي ما يقرب من ١٠٠٠٠٠ شخص حتفهم، وأنه بعد ذلك بأسبوع من انتهائه، بدا أن الشوارع والأسواق كانت مكتظة بعدد لا يقل عن قبل.

يحتمل أن يكون في ذلك مبالغة شديدة، حتى لو افترضنا أن عدد سكان المدينة كان يبلغ ٣٠٠٠٠٠ نسمة. إلا أن نسبة الوفيات لم تكن كبيرة جداً كما ذكر شخص من الجالية التجارية الإنكليزية، حج في تلك السنة إلى القدس، إذ يقول: 'في الثالث من أيار ١٦٦٩، أبحر أربعة عشر رجلاً إنكليزياً من الاسكندرونة إلى الأراضي المقدسة، وعادوا إلى طرابلس في حوالي ١٠ حزيران، إلا أن القنصل أوقفهم هناك، لأن الطاعون كان مازال متفشياً في حلب، وعادوا إلى الاسكندرونة في ٢٦ حزيران، حيث مات البعض، وكان البعض الآخر يحتضر، بينما كان آخرون يهرب بعضهم من بعض، ومكثنا في الجبل وعلى متن السفينة فترة من الوقت. وفي ٢ تموز وصلنا إلى حلب، حيث كان يلقى سبعون أو ثمانون شخصاً حتفهم بسبب الطاعون'. (الرحلة إلى القدس في ١٦٦٩، ص٨٦، لندن).

لعل رواية م. دارفيو عن استهلاك الإمدادات يستند على معلومات أفضل، إذ يقول: 'إن الاستهلاك اليومي للحبوب في المدينة والضواحي يبلغ حوالي مائة مكوك من الحنطة، يزن كل واحد منها كنتالين ونصف الكنتال، ويتألف الكنتال من مائة روتالو Rotalo, ويتألف الروتالو من خمسة باوندات وثلاثة أرباع الباوند، وهو وزن مرسيليا. وعندما يكون الباشا مقيماً في المدينة، يستهلك حوالي خمسين مكوكاً من الشعير، وفي غيابه خمسة وثلاثون، أما البقول، التي يستخدمها الفقراء فهي أكثر بكثير، لأن الاستهلاك اليومي يبلغ حوالي ستين مكوكاً، بما فيها الحبوب الصغيرة للماشية السوداء

والجمال'. وكانت تذبح يومياً ستمئة غنمة، إلا أنه كان من المستحيل معرفة عدد الحملان والجداء والدجاج والحمام ..الخ. (المذكرات المجلد٦، ص٤٥٦). وذكرت الرواية التي سمعتها في حلب أن عدد الأغنام التي كانت تذبح يومياً تبلغ أربعمئة فقط، مما يشير، إذا كان الرقم دقيقاً، إلى وجود انخفاض ملحوظ في عدد السكان. وتذبح الأبقار في يومين في الأسبوع فقط، من الساعة السابعة إلى العاشرة في كل أسبوع. وفي الشتاء، يذبح عدد قليل من الجواميس كذلك، وبنفس الطريقة، ونظراً لأن جزءاً من لحم البقر يحضر بالتجفيف أو على شكل سجق (نقانق)، ويتم تناول قليل من اللحم وهو طازج، أما فيما يتعلق بالحنطة فإنه حسب روايتي، يتفق الاستهلاك -تقريباً- مع الحسابات التي أوردها دارفيو.

(٢) حسب Cantacuscion فإن الإسراف والتبذير في اللباس بدأ يدخل في صفوف الأتراك في عهد بيازيد، وأخذ يزداد في عهد سليم، الذي بدأ حكمه في عام ١٥١٢، إذ استورد هذا الأخير كميات كبيرة من الذهب والمجوهرات من فارس ومصر، ومنذ ذلك الحين، بدأت النساء بشكل خاص يلبسن ثياباً بأسلوب مبذر أكثر من ذي قبل، وإلى حد ما الرجال. وكان الاحتذاء وتقليد السلطان الذي كان عسكرياً، يساهم في تثبيط روح التخنث بين صفوف ضباطه، واستعادة الأسلوب البسيط والمتشدد الذي كان سائداً في عهد محمد الثاني، الذي لم يكن يتمكن العسكريون أو المسؤولون الآخرون في عهده أن يظهروا في المحكمة، وهم يرتدون المخمل والثياب الفاخرة، ومعاطف طويلة من الفراء الباهظة الثمن التي بدأوا يظهرون فيها في السنوات الأخيرة. وقد شاهدت بنفسي (يقول المؤلف في سنة ١٥٤٥) زوجة موظف بسيط في المحكمة، وهي ترتدي ثياباً يبلغ ثمنها من ألف إلى أربعة آلاف دوكات (ducats) بما فيها اللآلئ والمجوهرات. ومن ذلك، يمكن إدراك كم كانت ثياب سيدات الأعيان باهظة الثمن (ص١٦٨، فلورنسا ١٧٥١. (Spanducino Commentari, lib. ii.) لذا، يبدو أن هذا الغلو في الثياب ليس وليد الحاضر، ويسود الاعتقاد في تركيا بأن التخنث قد ازداد كثيراً في القرن الحالي، ويبدي الأتراك استياءهم من هذا الأمر، وأكد لي أشخاص ذوو شأن، بأنه بدأ أفراد يرتدون فرو القاقم وأنواعاً باهظة أخرى من الفرو لم يكونوا معتادين على ارتداء أي نوع من الفراء. ويجد الأتراك متعة في ارتداء الثياب ذات الألوان الزاهية، إذ أن لون القاووق الذي يرتدونه أحمر أو أخضر، ويتم غسل الشاش الأبيض عند كل مناسبة، لذلك توفر رؤية جمهرة من الأتراك مشهداً رائعاً إذا ما نظر إليهم المرء من مكان مرتفع.

يتحدث مؤلف عربي مشهور من القرن الرابع عشر عن الناس في غرناطة، ويصورهم على أنهم يرتدون ثياباً فارسية فاخرة مزهرة، شفافة ناعمة، من الموسلين والكتان، ويقارن منظرهم عندما يجتمعون في الجامع بأزهار متنوعة، كالتي تكسو المروج البديعة في الربيع عندما يكون الجو لطيفاً'. ويصف المجوهرات النفيسة والزينات الأخرى التي ترتديها النساء، إلا أنه يلاحظ أنهن مولعات بالثياب الباهظة الثمن، ويواصل كلامه: 'وهن أنيقات في شخصهن، وبشكل عام متوسطات القوام، ونادراً ما يكن طويلات، وهن متيمات ويبدين عناية بشعرهن الطويل المنسدل، وأسنانهن ناصعة البياض، وتعبق من أنفاسهن روائح عطرة، ويتحركن بخطوات مفعمة بالحيوية والنشاط، ووهبهن الله مزاجاً عبقرياً، وفي أثناء الحديث فهن لماحات وذكيات'. ابن الخطيب.

إن الوصف أعلاه قد يلائم سيدات حلب المعاصرات تماماً في جميع الجوانب فيما عدا رشاقتهن وحيويتهن.

(٣) يصف بيتر بيلون (Peter Belon) الحذاء أو الخف الذي يرتديه المسلمون على أنه ذو نعل من حديد. و(يقول) أنه لايختلف في هذا الصدد عن حذاء السلطان أو الأعيان أو أحذية الفلاحين؛ كما أن خف النساء بل وحتى الأطفال منتعلة بنفس الطريقة. ويصف راوولف وموريسون الخف بأن لونه أبيض أو أزرق فيقول الأول: 'إن أحذيتهم تشبه الأحذية التي يرتديها الخدم هنا بالإضافة إلى الخف الذي يسهل خلعه وارتداؤه. وتكون عادة بيضاء أو زرقاء اللون، مطلية من الأمام، ومحمية بمسامير في الأسفل في المقدمة، وبحدوة حصان من الخلف، ويرتديها الصغار والكبار، الرجال والنساء، الفقراء والأغنياء'. Ray

(مجموعة من الرحلات الغريبة ..الخ المجلد٢، ص٢٣، لندن ١٧٣٨). أما الآن، فإن أحذية وأخفاف عدد قليل فقط من الناس منتعلة بالحديد، وهي حمراء أو صفراء اللون ولكنها ليست بيضاء أبداً. أما أحذية اليهود والأحذية الطويلة التي يرتديها الأفندية فهي زرقاء داكنة.

إن طريقة ارتداء الثياب في عصور مختلفة تساعد إلى درجة ما على إظهار تقدم الفنون والحضارة، ورأيت أنه من الجدير إعطاء وصف دقيق أكثر عن الثياب الحالية في حلب، التي تختلف قليلاً عن الأستانة. وفي مقارنة مع الوصف الذي قدمه دارفيو (المجلد٦، ص٤٢٥)، يتبين أن اللباس قد تعرض إلى شيء من التغير منذ عام ١٦٨١.

(٤) إن الكحل عبارة عن دواء عام يوضع على بؤبؤ العين، أو داخل الأجفان، على شكل مسحوق يسحق ناعماً، ويُستخدم للزينة، ويدعى الكحل أو الأصفهاني، وعندما تضاف إليه مكونات أخرى من قبيل أزهار البخور أو الكهرمان أو ماشابه ذلك، يستخدم لعلاج بعض الأمراض. والمادة المستخدمة في حلب لتحضير الكحل العادي، هي نوع من خام الرصاص الذي يجلب من فارس ويتم تحضيره بتحميصه في سفرجلة أو تفاحة أو كمأة، ثم تضاف إليه بضع قطرات من زيت اللون، وتطحن على مرمرة حتى تصبح مسحوقاً ناعماً، إلا أنه في السنوات الأخيرة، بدأ يُستخدم خام الرصاص الذي يُجلب من إنكلترا باسم Arcifoglio بدلاً من «الأصفهاني. علماً أن كمية الكحل التي تستهلك في الشرق كبيرة جداً. وقد ذكر أحد شعرائهم وهو يلمح إلى المِرود المستخدم لوضع المسحوق، والجبال التي توجد فيه هذه المادة المعدنية 'إن جبال أصفهان قد براها المتك'.

إن المرود أو المتك الذي يدعى 'الميل'، وهو بأحجام مختلفة، بدءاً من حجم مكوك عادي وأصغر، مستقيم مستدق الطرف قليلاً، ومثلم عند الحافة. وإذا لم أكن مخطئاً، فقد رأيت بعضاً منها من العاج عثرت عليها في Hesculaneum, وتشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في سورية. ويطلق العرب على المادة المعدنية المستخدمة للكحل 'إثمد' أو 'أصفهاني'، ومما لا شك فيه فهو إثميد أو أنتيمون الإغريق. ولا يستخدم الأنتيمون النقي أو الخام حالياً في حلب في صناعة الكحل، وربما لم يكن يستخدم قط، فقد كان ثمة طلب شديد على مادة الأصفهاني في السابق، ومن الواضح أن هذه المادة هي الرصاص وليس الأنتيمون الخام. وقد لوحظ أن كميات ضخمة من ركاز الرصاص (أو الرصاص الخام) الإنكليزي الشائع تجلب إلى حلب، كبديل للأصفهاني الذي أصبح نادراً وأغلى ثمناً. وقد فحصت نماذج عديدة من ركاز الأنتيمون والرصاص في المجموعات الإنكليزية، إلا أني لم أر قط شيئاً يشبه ركاز الأنتيمون في سورية. ويسود الاعتقاد بأن الأنتيمون الإنكليزي، في حالته البدائية، وبسبب جزئيات ركاز الرصاص التي تخلط معه في بعض الأحيان، غير ملائم للاستخدام الطبي. إلا أنه ليس ثمة اعتراض عليه فيما يتعلق بالكحل، لأن كلاً من ديوسكوريدس وبليني يؤكدان على أن الإثميد الذي يتعرض عند تحضيره إلى حرارة قوية، يتحول إلى رصاص، أما في المادة المستخدمة حالياً للكحل، فلا يوجد مزيج من الأنتيمون. ويعود تاريخ استعمال الكحل إلى عهد قديم جداً.

ويدل المقطع التالي من Naumachius على استخدامه المبكر بين النساء الإغريقيات:

لا تبتهجي، أيتها العذراء من زينة فارغة،

ولا تنظري إلى طلعتك البهية في المرآة،

إذا لم تسوي جدائل شعرك الكثيرة،

أو تسودي عينيك، تحت جفنيك.

(٥) يوجد عندهم مركبات عديدة لخضاب اللحية، وفيما يلي الطريقة المستخدمة عادة. تغلى خمس عشرة أونصة من السماق في ٢ باينت* ونصف من الماء، ثم تضاف خمسة دراهم من كل من المواد التالية: الصفراء وحجر الشَّب، والزاج الأخضر، وغصينات الجوز الطازجة، وتترك في منقوع لمدة خمسة أيام. وتُغسل الذقن بعناية وتجفف لتحضيرها للصباغ الذي يستغرق حوالي الساعة، ثم يصبح الشعر أسود اللون بعد غسله بماء دافئ.

وكان النبي (ص) نفسه يخضب لحيته، ولم يتبع هذه السنة خلفاؤه فحسب بل العديد من الخلفاء الأوائل. أبو الفداء. يصف المكين أبا بكر، الخليفة المباشر للنبي محمد (ص) ويقول إنه كان يخضب لحيته كذلك. (المكين، ص١٨). ولا يورد المؤرخ نفسه هذه الممارسة حتى زمن معاوية، إلا أنه يحتمل أنها استمرت من قبل الخلفاء. وقد اعتمدها عمر، ويذكر 'التاريخ العام' لدى حديثة عن معاوية، صراحة 'أنه كان يخضب لحيته إقتداء بأسلافه'.(المجلد٢، ص٨٤). ويبدو كذلك أن النبي (ص) كان يخضب شعره ولحيته. ويجدر بالذكر هنا أنه إذا كان لون الشعر أحمر لامعاً، فهي تختلف كثيراً عن الصباغ الحالي الذي سكون أسود خالصاً، ويستخدم بهدف إخفاء الشعر الشائب.

وقد شاهدت عدة بدويات وقد صبغن شعرهن باللون الأحمر إلا أني لا أذكر أني رأيت شعر المشايخ الجوالين مصبوغاً. وعادة ما يحلق الرجال (ماعدا بعض المشايخ الجوالين) رؤوسهم بالموسى ويتركون غرة صغيرة في المقدمة. وتستخدم الفتيات المسلمات عادة الحنة لصبغ شعرهن، ولا يصبغنه ليصبح أحمر شديداً، بل أحمر مائلاً للسمرة، قريب من اللون الطبيعي.

(٦) إن الأحكام الواردة في القرآن عن الحجاب واضحة وهي مطاعة بشكل عام:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين وكان الله غفوراً رحيماً.﴾ (سورة الأحزاب).

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني إخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن.﴾ (سورة النور).

(٧) القيمق هو الاسم التركي الذي يطلق عامة على هذا النوع من القشدة، أما الكلمة العربية الصحيحة فهي زبدة. وفيما يلي طريقة صنعه التي طُبقت بنجاح في إنكلترا: 'يوضع في قدر نحاسي قطره ٢٣ إنشاً وعمقه ٢,٥ إنش، كمية ١٩ باينت من حليب الغنم الطازج (وزنها ٣ روتولو تركية أو ١٥ باوند إنكليزي)، وتوضع على نار فحم متوسطة مصنوعة من موقد من الحجر. ويجب رفع القدر عن الموقد حوالي ٦ إنشات بوضع ثلاث حجرات أو منصب، ثم تنفخ النار بهدوء لمدة دقيقتين فقط. وسرعان ما يظهر زبد فوق الحليب، وفي حوالي نصف ساعة تغطي كامل السطح. ثم ستلاحظ بأنها بدأت تغلي في وسط القدر.

ينبغي تحريك الحليب الآن بوعاء ذي مقبض حتى ينتشر الزَبَد ويحتاج ذلك إلى دقيقتين، وعندما يتلاشى الزَبَد والفقاعات، يرتفع القيمق على السطح، ويغطيه على شكل خلية نحل، وينبغي في هذه اللحظة الانتباه إلى النار، فإذا ظهر القيمق منتفخاً في أحد الأطراف، خفف من حدة النار، وإذا كانت قوية جداً ذر عليها الرماد. ويجب نشر النار المتبقية بشكل متساو تحت القدر، وإذا لم تظهر أية انتفاخات على سطح الحليب، يمكن تركها حتى تبرد وتصبح سميكة.

* الباينت: مكيال للسوائل يساوي ٠٤٧ من الليتر. (المترجم).

عندما يبرد الحليب يجب رفع القيمق بعناية بالأصابع، على شكل زلابية مستوية ولكن أكثر سمكاً، وفي هذه العملية قلما يكون من الممكن الحيلولة دون انقسامها إلى قطع ويزن القيمق الناتج باوند وثلثي الباوند (مائتين وأربعين درهماً أو أربع أونصات تركية)، ويبلغ وزن الحليب المتبقي أحد عشر باينت. ويكون الحليب دسماً وحلواً، ولكنه يكتسب طعم حرق. ويعاد الحليب المتبقي في نفسه العملية، وسيعطي قرصاً ثانياً من القيمق يزن ١ باوند وربع باوند إنكليزي، إلا أنه أدنى من سابقه من حيث اللون والجودة.

رغم توفر حليب الماعز بكثرة في حلب، إلا أن حليب الأغنام يُفضل في عمل القيمق. وتتطلب تسوية النار جيداً، وتحتاج معرفة فترة الغليان والقشدة المتشكلة كخلية النحل الخ إلى خبرة جيدة. فإذا أوقدت النار بقطع كبيرة من الفحم، وإذا كانت متوهجة قليلاً في البداية، فستكون دقيقة أو دقيقتين من نفخ النار كافياً، إلا أنه يجب عدم الإسراع في جعل الحليب يغلي خلال نصف ساعة. ويجب عدم تحريك القدر أو تحريك الحليب عند تركه ليبرد. واستغرقت كامل العملية منذ إعداد النار وحتى نزع القيمق حوالي ثلاث ساعات.

(٨) اللبن هو حليب حامض مخثر، يحضر عادة بغلي الحليب، ويضاف إليه وهو ساخن قدر ضئيل من اللبن، الذي يعمل على تخثير الكمية كلها قبل الصباح التالي. ولم أتمكن أبداً من معرفة طريقة صنعه من البدو الذين لا يعتقدون أنه يمكن عمله بدون لبن، ولا يصدقون أنه يمكن أن يوجد مكان على الأرض دون وجود اللبن. وقد علمت أنه إذا ترك لبن حتى يصبح حامضاً، وأضيفت إليه كمية قليلة منه بدلاً من اللبن، نحصل على حليب طازج، وبتكرار العملية بإضافة قليل من المخثر الأخير، لعدة أيام متعاقبة، يمكن الحصول على اللبن في آخر الأمر. وقد أرتني سيدة هندية مؤخراً كمية من اللبن الممتاز (صور) كانت قد حضرته بحليب حامض مخثر. إلا أنها قامت بغلي الحليب الحلو في البداية فوق نار هادئة حتى نصفه، وأضافت المخثر عندما كان الحليب فاتراً.

(٩) في أواخر القرن الماضي، أصدر M. Galland بحثاً عن تاريخ القهوة استقاه بشكل رئيسي من مخطوطة عربية موجودة في مكتبة الملك في فرنسا، يبحث فيها المؤلف موضوعاً أثار كثيراً من الجدل في السابق بين صفوف المسلمين حول جواز احتساء القهوة.

وحسب ما ذكر Galland، فقد أدخلت القهوة إلى الجزيرة العربية في حوالي منتصف القرن الخامس عشر، التي أخذ تنتشر بشكل مستمر منذ تلك الفترة، ولم تصل الأستانة إلا في حوالي منتصف القرن التالي، إلا أنها عرفت قبل ذلك بسنوات عديدة في كل من حلب ودمشق. ووجد راوولف في عام ١٥٧٣ أن استخدامها شائع في حلب، ويقول إنهم يطلقون عليها 'شوب' وهو خطأ يمكن أن يكون قد وقع فيه بسهولة، من سماعه الكلمة العربية التي تعني 'حار' التي تردد كثيراً، والتي لا زالت تستخدم كنوع من تزكية احتساء القهوة.

وفي حوالي سنة ١٥٧٨ توجه Proper Alpinus إلى مصر، حيث أتيحت له فرصة رؤية نبات القهوة الذي جلب إلى هناك من الجزيرة العربية. وقبل دخول القهوة، كان من عادة العرب احتساء منقوع أوراق نوع معين من النبات يسمى القات، ويؤكد Galland على ذلك استناداً إلى رواية المؤلف العربي.

(١٠) لم يكن يعرف الأوربيون التبغ قبل اكتشاف أمريكا. ويقال إن الإسبان قد عثروا عليه أولاً في Iacatan، في حوالي سنة ١٥٢٠ حيث تقع Petun و Petum . ومن هناك نقل إلى جزر غربي الهند، ومن ثم إلى ميري لاند وفيرجينيا الخ. كما أطلق عليه الإسبان اسم Tabac, وهي تدل على الأداة التي كان يستعملها السكان المحليون في تحضير النبات. ودخل التبغ إلى فرنسا في حوالي سنة ١٥٦٠ على يد جان نيكوت، السفير من فرانسيس الثاني إلى سباستيان ملك البرتغال، ومنذ ذلك الحين برز اسم Nicotiana (النيكوتين)، كما أطلق عليه (عشب الراين) (Herbe de la Reine) لأنه قدم إلى كاثرين

أوف ميديسيس Catherine of Medicis عندما نزل السيد فرانسيس دريك في نيو ألبيون في سنة ١٥٧٩، وحصل على هدايا كان من بينها أكياس من التبغ إلا أن دخول التبغ إلى إنكلترا يحدد عادة بعد ذلك، أي في عام ١٥٨٦، عندما عاد دريك من رحلته الثانية.

لا تعرف بدقة فترة دخول التبغ إلى تركيا، ولم يذكره أحد من الرحالة قبل بداية القرن السابع عشر ممن قرأت أعمالهم. وقام ويليام بوستل بيلون Bubequiush بزيارة معظم أجزاء تركيا من عام ١٥٤٠ وحتى ١٥٦٣ بشكل متعاقب، ورغم دقة ملاحظاتهم عن العادات المحلية، لم يلحظ أحد منهما التبغ.إ لا أن التبغ لم يعرف في حلب حتى عام ١٦٠٣، وهو أمر لا يحتمل الشك استناداً إلى شهادة ويليام بيدولف، الذي كان آنئذ القسيس الخاص للجالية التجارية الإنكليزية، وكان قد قدم وصفاً عن رحلته للحج إلى القدس في سنة ١٦٠٠، وبعد أن وصف هذا الكاتب طعام المسلمين، يبدي الملاحظات التالية: 'إن مقاهيهم (في حلب) أكثر شيوعاً من حانات الجعة في إنكلترا، إلا أنهم لا يستخدمون أشياء كثيرة يجلسون عليها في المقاهي، بل يجلسون على مقاعد خشبية توضع على جانبي الطريق بالقرب من المقهى، ويحمل الرجال أكوابهم (فناجينهم) وهي ممتلئة، وحارة ويتصاعد البخار منها، ويقربونها من أنوفهم وآذانهم، ثم يحتسونها على مهل'. هذا هو وصف دقيق لما كان يتم في حلب في ذلك الزمن، ولوكان التدخين دارجاً في حلب في ذلك الوقت، فلا يحتمل أن يكون بيدولف قد حذفها في هذه المناسبة، أو حيث يصفهم وهم يحتسون الشرابات، ويقضمون الأفيون وما إلى ذلك.

كان سانديز (Sandys) أول رحالة إنكليزي (حسب معرفتي) يتحدث عن تدخين التبغ كإحدى الممارسات في تركيا. فقد كان في الأستانة في عام ١٦١٠، وبعد أن لاحظ أن الأتراك يتعاطون الأفيون لجعلهم منتشين، يضيف: حح وربما للسبب نفسه، فهم يجدون متعة في التبغ، الذي تعاطونه من خلال قصبات يضعون عليها رؤوساً كبيرة من الخشب؛ ولا شك أن الإنكليز هم الذين علموهم هذه العادة مؤخراً، كما أحضروها لهم، ولو لم يحظر استعمالها لانتشرت بشكل أوسع (فقد أصدر مراد باشا أمراً منذ فترة يقضي بإدخال القليان (القصبة) في أنف الشخص التركي الذي يدخنه ويسحب في أرجاء المدينة للاستهزاء به).

إن الفقرة السابقة لا تترك مجالاً للشك بأن التدخين لم يكن سوى عادة حديثة في الأستانة، وإن التبغ لم يكن يزرع في ذلك الوقت في ذلك البلد. إن الأمر التالي يجعل من المحتمل أن تكون عادة تدخين القصبة قد انتقلت من العاصمة إلى الأقاليم السورية، في حين أن طريقة تدخين النرجيلة، أو التدخين بواسطة الماء، قد جلبت من فارس. إن اسم التبغ * في سورية ومصر هو 'التوتن'، وهي كلمة ليست من أصل عربي، بل تركي وهي 'دوتن' أو 'دوتون' وتعني دخان. ولا يوجد لديهم بالعربية كلمة أخرى للتبغ*، لأن كلمة دخان، التي قلما تستخدم، ما هي إلا ترجمة للكلمة التركية، في حين يحتفظ نوع التبغ الخاص المستخدم في النرجيلة باسمه الفارسي 'التنباك'. وتجدر الملاحظة أن العرب ترجموا التعبير التركي عن تدخين التبغ 'دوتون ابجمك' أي يشرب التبغ، لأنهم يقولون 'شرب توتن' بنفس المعنى.

(١١) يذكر غالينوس في النص الذي كتبه عن القنب الذي أشير إليه في النص بأن البذور إحدى مكونات الكعك الذي يقدم بعد الشراب. إلا أنه إذا تم تناوله بكميات كبيرة فقد يؤثر على الرأس.

وتطلق كلمة الترياقي على الأشخاص الذين يتعاطون الأفيون بشكل مفرط أو أية مخدرات أخرى، وقد أخذها العرب عن اليونانيين الذين يستخدمون كذلك كلمة الترياق للدلالة على الترياق.

---

* التبغ ذاتها كلمة عربيةمنحوتة من كلمة Tobacco أو Tabac والتي تعني النبات المستعمل للتدخين، أوجدها اللغويون بعد زمن من تاريخ تأليف الكتاب (المترجم)

الفصل الثاني
عن السكان بصورة عامة

الحمامات ووصف طريقة عملها، إزالة الشعر، الزغاريد، أو كيف تعبّر النساء عن فرحتهن، الناس الذين يعيشون حياة مستقرة، الألعاب، الرقصات، الساعة النظامية، ثياب النوم، التسالي بالمقاهي، عروض خيال الظل، الراوي، الخ.. ، الموسيقى، الآلات الموسيقية المختلفة، الغناء، اللهو في الأعياد، المهرجون وما إلى ذلك.

تسود في حلب عادة شائعة جداً لدى الجنسين وهي عادة الذهاب إلى الحمام، إذ يذهب المسلمون إلى الحمام أكثر من غيرهم بسبب ما تمليه عليهم فرائضهم الدينية، وتوجد في بيوت الكثير من أفراد الطبقة الراقية حمامات خاصة، إلا أنه بسبب صغر مساحتها، وعدم تمكنها من استقبال أعداد كبيرة من الناس، تضطر نساؤهم إلى استئجار أحد الحمامات العامة في مناسبات معينة.

وسنقدم في هذا الفصل وصفاً عن الحمام من الداخل، إذ تكون الحجرة الأولى، أو الحجرة الخارجية التي تدعى البرّاني، كبيرة ومرتفعة، مسقوفة بقبة مكسوة بالرخام، وذات نوافذ تطل على الشارع، إلا أن إنارتها الرئيسية تتم بواسطة منور القبة، وتوجد بالقرب من الجدار وعلى الجانبين، مصطبة حجرية واسعة يبلغ ارتفاعها أربع أقدام، مكسوة بالحصر والسجاد، وتشكل إيواناً يخلع فوقه المستحمون ثيابهم ويستريحون، وتوجد في الوسط بركة كبيرة من المرمر، تستعمل للزينة وغسل مناشف الحمام، التي تعلق بعدئذ على الحبال الممدودة بالأعلى لكي تجف، ويسير المستحمون والخدم في هذه الحجرة الخارجية وهم يرتدون القباقيب وذلك لأن تأثير الموقد لايكون كبيراً هناك كما تكون المصطبة المبللة على الدوام، باردة بالنسبة للأقدام الحافية. وفي شهر شباط عندما يصل الزئبق في ميزان الحرارة إلى ٥٤ درجة فهرنهايت بالعراء، يرتفع في البراني إلى درجة ٦٤ فهرنهايت.

ويفتح باب من هذه الحجرة، على ممر ضيق يؤدي إلى الوسطاني، أو الحجرة المتوسطة، حيث يوجد فيها مصطبة يجلس عليها من يرغب من المستحمين، وهي مزودة بأجران حجرية عديدة مستديرة أو مستطيلة، يبلغ قطرها حوالي قدم ونصف القدم، ويوجد على كل واحد منها أنبوبان فيهما صنبوران نحاسيان*، مخصص أحدهما لنقل المياه الساخنة والآخر لنقل المياه الباردة، ويثبتان على الحائط على مسافة قدمين من المصطبة، كما توجد طاسات نحاسية لصب الماء الذي تكون حرارته عند درجة يتحملها

---

* يكونان عادة من الخشب، وهما عبارة عن سدة تحشر في الأنبوب يدوياً وتسمى الحنكّة (المترجم).

المستحمون، وقد ترتفع درجة الحرارة في الممر إلى ٧٥، وفي هذه الحجرة إلى ٩٠ درجة.

ومن الوسطاني تنفتح أبواب مباشرة إلى الحجرة الداخلية أو الجوّاني، الذي تكون مساحته أكبر بكثير من الوسطاني، وأكثر حرارة، إذ يصل الزئبق هنا إلى ١٠٠ درجة، وليس فيها مصطبة، لذا يجلس المستحمون، أو يتكئون على المصطبة، التي تكون شديدة الحرارة باتجاه الوسط* وتكون الحجرتان الوسطى والداخلية أقل ارتفاعاً من الحجرة الخارجية، ومغلقتين بقباب صغيرة فيها عدة فتحات مستديرة مكسوة بزجاج سميك ملون**، تتلقى من خلالها الجدران نوراً داكناً، وتوجد في كل زاوية من الزوايا فجوة صغيرة مفتوحة***، يوجد في واحدة منها (في بعض الحمامات) جرن يبلغ عمقه حوالي أربع أقدام، تكون في بعض الأحيان بمثابة حمام معتدل الحرارة، وتدعى المغطس، إلا أنه بما أنه نادراً ما يغطس المسلمون فيها فلا توجد إلا في بعض الحمامات.

يتم تسخين الحمامات بمواقد في الأسفل، وتبلغ درجة الحرارة الاعتيادية في الجوّاني حوالي ١٠٠ درجة، إلا أنه يمكن رفعها كثيراً عند الطلب، ويمكث الرجال في الحجرة الداخلية حوالي ربع ساعة، بينما تمكث النساء فترة أطول، وتخصص بعض الحمامات لاستقبال النساء فقط، وبعضها مخصص للرجال، إلا أنه يرتادها كلا الجنسين: الرجال من الصباح حتى الظهر، والنساء من الظهر وحتى المغرب.

عندما يخلع المستحم ثيابه، يلف منشفة حول رأسه، ومنشفة تدعى فوطة حول خصره تصل حتى الكاحلين****. ثم يدلف فوراً إلى الجواني، وسرعان ما يبدأ بالتعرق ويبقى مبللاً خلال فترة وجوده هناك، بسبب العرق ورطوبة الحجرة، وأول ما يقوم به المستحم وضع دواء الحمام أو مزيل الشعر على العانة وتحت الإبطين لمدة تقارب الدقيقتين، أو حتى يُزال الشعر فيغسله بعناية؛ إلا أنه يتعرض بعض الأشخاص الذين يستعملونه إلى حوادث نتيجة الإهمال، إذ أن مزيل الشعر مؤلف من كلس سريع وزرنيخ، بنسبة درهم واحد من الزرنيخ إلى أونصة من الكلس، وتدق هاتان المادتان سوية في هاون، حتى تصبحا مسحوقاً، ويبلل قليلاً بالماء عند وضعه(١).

عندما يُزال الدواء بالغسل، يجلس المستحم على المصطبة، ويبدأ أحد العاملين في الحمام بالضغط فوق أعلى الكتفين، وعضلات الذراع، ومن ثم كل الجسم، ويبدأ العملية بلطافة ثم يزيد من الضغط تدريجياً، حتى يصبح شديداً، ولكن دون إحداث ألم، ويكرر ذلك على فترات قصيرة حتى يصبح الجلد ناعماً تماماً، ومن ثم يمسك أصابع المستحم، ويجعل مفاصل كل إصبع منها تطقطق بمهارة، ثم يلقيه على ظهره، ويجعل يديه متصالبتين فوق صدره، ويجعل مفاصل الكتفين تطقطق بنفس الطريقة؛ وفي النهاية (تعتبر هذه العملية أكثر الأمور مثيرة للفزع بالنسبة للأجانب) يجعل الرقبة تطقطق، برفع الرأس، ويدفع الذقن إلى الأمام على الصدر، وبعد أن تنتهي هذه العمليات، يضع العامل في يده كيساً من الكاميلو الخشن، ويبدأ بفرك الجسم والأطراف من الصدر،

* تدعى عادة بيت النار حيث توقد النار تحتها (المترجم)

** تكون نصف كروية وتسمى الواحدة منها قمرية (المترجم)

***وتسمى الخلوة (المترجم)

**** يسمى المئزر (المترجم).

ويصب بين الحين والآخر ماء دافئاً على بعض أجزاء الجسم ويدير المستحم ليصل إلى ظهره ثم يرغي كمية كبيرة من الصابون، ويدلك الجسم كله بليفة مصنوعة من الجزء الليفي من سعف النخيل، تجلب لهذا الغرض من البصرة ومصر، ويقوم بتلييف الجسم كله ما عدا الأجزاء المغطاة بالفوطة، التي يقوم المستحم نفسه بغسلها، ولا يبقى الآن شيء سوى غسل الصابون، الذي يتم بدفقات عديدة من الماء الدافئ ويقترب المستحم من أحد الأجران، ويستخدم البعض البيلون عوضاً عن الصابون، ثم يقاد المستحم إلى الوسطاني، وتقدم له منشفة جافة ومئزر، ويعود إلى الإيوان (البراني)، حيث كان قد ترك فيه ملابسه، وبعد أن يلف بمناشف جديدة، أو بالفرو إذا كان الفصل يتطلب ذلك يدخن قصبة ويحتسي القهوة أو يتناول بطيخة حمراء (جبسة) قبل أن يرتدي ثيابه.

وفي بعض الأحيان يرسل أشخاص من الطبقة الرفيعة، ولا سيما النساء، بياضاتهم المؤلفة من مناشف، ورداء واسع، بالإضافة إلى الطاسة أو وعاء لصب الماء، وكيس (التفريك) وما إلى ذلك– إلا أن معظم الرجال يكتفون بما يقدمه الحمام لهم، وقد أعطى M. Grelo في أحايين كثيرة وصفاً عن الحمامات في إستانبول.

تستغرق العملية التي وصفناها الآن وقتاً طويلاً، ويتمتع العاملون في الحمام بدرجة كبيرة من الخبرة، غير أن المسلمين قلما يمارسون العملية كلها، وبشكل عام يدخلون إلى الجواني، بل وربما إلى الوسطاني فقط، ويصبون عدداً قليلاً من طاسات الماء على جسمهم، ويدلكون جسمهم قليلاً ويخرجون بعد بضع دقائق.

تبقى النساء في الحمام فترة أطول بكثير من الفترة التي يقضيها الرجال، ويعتبر الغسل وتضفير الشعر عملاً شاقاً، كما يكنّ مضطرات للعناية بالأطفال، إلا أنهن لا يبقين طوال الوقت في الحجرة الحارة، بل يتسلين في البراني، لأنه لا يوجد عدد كاف من الأجران لهذا الحشد الكبير من النسوة في وقت واحد، لذا يضطررن للدخول بالدور؛ وهو أمر يسبب الكثير من المشاحنات والمشاجرات الصاخبة.

وفي الأيام العادية، تدخل النساء من كل الطبقات إلى الحمام، حتى يمتلئ تماماً، ويمكن إدراك الاضطراب الذي يحدث في مثل هذا التجمع، إذ غالباً ما تسمع الضجة عند عبور الشارع، وعندما يكون هناك عدد من الأطفال الصغار، فإن النساء أنفسهن لا يتحملن هذا الصخب، ورغم الإزعاجات التي يشتكين منها دائماً، فإنهن مغرمات بالإفراط في الذهاب إلى الحمام، إلا أن الحمام يكاد يكون مكان تجمع النساء الوحيد، ويتيح لهن فرصة عرض مجوهراتهن، وثيابهن الجميلة، والالتقاء بمعارفهن، وسماع القصص المنزلية من كل نوع، وتوجد حمامات أكثر شعبية من الحمامات الأخرى، تجتمع النساء فيها من أماكن بعيدة، وإذا صادف أن جلسن بقرب بعضهن على الأريكة نفسها، فيدخلن في أحاديث سرية، رغم أنهن لم يكن يعرفن بعضهن من قبل.

عندما تقيم نساء من عائلات مختلفة حفلة في الحمام العام، فهن يأخذن معهن جميع الإناث في تلك العائلة، ويحملن في بعض الأحيان فواكه وحلويات وشرابات، ويتناولن ذلك بمتعة وبهجة في البراني بعد عودتهن من الجواني، وبالإضافة إلى تلك المأكولات والمشروبات، تحمل الخادمات السجاجيد، والوسائد الصغيرة، وقصبات التدخين، والأدوات النحاسية، والصابون والبيلون، والحنة والكساء، والبياضات

المخصصة للحمام، المؤلفة من ألبسة معينة مع عدد من المآزر والمناشف المزركشة، وقد ألحقنا وصفاً خاصاً عن كل ذلك في الملحق حيث سيتضح كم كانت العادات المحلية تحترم كياسة المرأة، وبأن النساء الشرقيات لسن أقل اهتماماً بإظهار زينتهن في الحمام عندما تسنح الفرصة بذلك.

تزود كل مجموعة بـ 'قيّمة'، أو امرأة تشرف على تحضير كل شيء، والعناية بالنساء في الحجرة الحارة، وينبغي عليها أن تعرف قواعد الحمام، وتقوم بفض جميع النزاعات، وتكون حاذقة وذربة اللسان، وغالباً ما تجعل النساء المسلمات واليهوديات البدويات كقيّمات لهن.

بالإضافة إلى الأوقات المعتادة لارتياد الحمام، تذهب النسوة إلى الحمام بعد الولادة وبعد الشفاء من المرض، وقبل حفل الزفاف وبعده، وفي فترات معينة بعد وفاة أحد الأقارب، وفي هذه المناسبات الاحتفالية، يستأجر الأعيان الحمام، ولا يقبلون في الحمام إلا المدعوين، وتأتي النسوة وهن يرتدين أجمل ثيابهن، وتحضر إلى الإيوان (البراني) المرطبات في وقت سابق، وتجلب فرقة من المغنيات، وبما أن مجموعة النساء يعرفن بعضهن في الحفلات الرسمية، يسود مرح وحرية وصخب أقل مما يسود في التجمعات المختلطة في الحمام العام (٣).

بما أن هذه التجمعات الخاصة تدوم أربع أو خمس ساعات، تدخل النسوة إلى الجواني عدة مرات، إلا أنهن يمضين فترة طويلة من الوقت في البراني، حيث يجلسن بثياب الحمام، أو يتلفحن بالفرو، لأنهن لا يرتدين ثيابهن إلا عندما يقررن عدم الدخول إلى الحجرة الحارة ثانية، وتعزف الموسيقى ويتم تناول المرطبات في البراني.

كما لاحظنا سابقاً، ترتدي النسوة لباساً مخصصاً للحمام، إلا أن لباس خادماتهن، يكون شبيهاً بلباس الرجال، وتحدث الفتيات الصغيرات، ولا سيما الخادمات، صخباً شديداً في الحمام، ويعتبرن أن دلق الماء على بعضهن من الأمور الممتعة، وقد تسقط الفوطة أو المئزر بسهولة بصورة عرضية، أو تشدّ من قبيل اللعب، وإذا كانت الفتاة التي يحدث لها ذلك، تحمل فنجاناً من القهوة أو الشراب، فقد تواصل مسيرها لتقديمه دون أن تنحني لإعادة الفوطة إلى مكانها، إلا أن مثل هذا الأمر يثير الفزع، إذا ما شوهدت امرأة في الحمام وهي تتجول عارية تماماً على الأقل في حلب (٤).

عندما تذهب امرأة للمرة الأولى إلى الحمام بعد الولادة، تقوم قابلة بالعناية بها وتضعها بقرب أحد الأجران، وتدهن بطنها وأطرافها بمركب اسمه شيدود (أو الجدود)مؤلف من خل وفلفل وجوزة الطيب ومكونات حارة أخرى تخلط بالعسل، وتغسل بماء دافئ بعد فترة محددة من الزمن، وفيما يتم ذلك، تطلق كثير من النساء أصواتاً فيجعلن قباب الحمام تعيد صدى أصواتهن التي يطلقنها، وهي الطريقة التي تعبر فيها النسوة عن بهجتهن، والتي قد تسمع من مسافات بعيدة عند الاحتفالات، وتسمى زغرودة (زلغوطة). وقد خلط Shaw بينها وبين الأصوات الحزينة التي تطلقها النسوة في الجنازات، وظن Belon أنها تشبه الجزء الأخير من نداء القرويات اللاتي يبعن الحليب في باريس، غير أن Pietro della Valle يصفها بدقة أكبر ويقول إنها صيحة عالية وصاخبة تعبّر عن البهجة، وتتم بوضع اللسان على الحنك، وتحريكه بسرعة إلى الأعلى والأسفل،

ويصدرن 'هلي لي لي لي لي' (٥)، ويعتقد أن الشيدود يحول دون حدوث العديد من الاضطرابات التي تنجم عن الولادة، وفي بعض الأحيان، توضع على الأشخاص المتماثلين للشفاء من بعض الاضطرابات المزمنة.

يعيش الحلبيون بشكل عام حياة مستقرة ولا يعتبرون أن الرياضة ضرورية للحفاظ على صحتهم، ولا يقتنعون بفائدتها في علاج أي مرض. وتتم التجارة في المدينة بطريقة لا تحتاج إلى كثير من المشي، وعند الخروج للنزهة، فإن أقصى مسافة يسيرونها هي ميل واحد إلى البساتين، وإذا كانت المسافة أبعد من ذلك، فإنهم يجلسون على قارعة الطريق لينالوا قسطاً من الراحة، وتكون مشيتهم العادية في الشارع بطيئة ورزينة. أما خارج بوابة المدينة، فهم يدخنون قليانهم وهم يتمشون الهوينى.

بما أن النسوة يقمن في الطابق الأرضي، فنادراً ما تتاح لهن الفرصة للصعود والنزول على الدرج، حيث أن معظم مستلزماتهن تجلب إلى باب الحرملك*، فإنهن لا يتحركن، كما لا يذهبن إلى السوق، إلا أنهن يخرجن في مناسبات عديدة، وإذا تعين على غريب أن يحكم عليهن من العدد الذي يلاقيه في الشوارع، فإنه يظن أن نساء هذا البلد سجينات مدى الحياة، وفي بعض الأحيان، وخاصة عندما يصدر الوالي أمراً بأن يمكثن داخل بيوتهن، فإن المدينة تبدو وكأنها صحراء.

لا يعتبر الرقص، كما هي الحال عند المسيحيين، عملاً لائقاً بالنسبة للأشخاص من الطبقة الرفيعة، بل وحتى بين عامة الناس، فإنه نادراً ما يمارس إلا إذا اتخذ كمهنة، ويوجد راقصون من الذكور والإناث يؤدون رقصات في الحفلات العامة، ولا يسمح إلا للإناث بالرقص في الحرملك، في حين يسمح لكليهما بالرقص في الحفلات الخاصة التي يحضرها الرجال. أما في الحفلات العامة، فإن دور السيدات يؤديه الذكور عادة وهم يرتدون ثياباً نسائية، وعندما تكون السيدات هن المتفرجات، فيحافظ الراقصون على درجة من الحشمة (٦)، ويعتبرون أنها ضرورية بين الرجال، وترقص النسوة وهن بدون حجاب، وبعضهن جميل الشكل، ويؤدي الرقص عادة شخصان ويستخدمان صناجات**، ومن حين لآخر يغنيان بعض الموشحات، تتبعهما جوقة (كورس)، وينضم إليهما في الغناء العازفون على الآلات الموسيقية.

إن معظم الألعاب وصنوف اللهو التي تمارس داخل البيوت من النوع المتمدن ويلعب كلا الجنسين الشطرنج، ونوع من لعبة الطاولة، التي يقال بأنها انتقلت عن الفرس، كما يلعبون الداما، ولعبتين أخريين غير معروفتين في إنكلترا وهما: المنقلة *و طاب ودكّ. ويلعب الأولى شخصان، يعتمد الفوز فيها على الذاكرة والسرعة في الحساب، وقد وصفهما م. دارفيو. أما اللعبة الثانية فهي لعبة مختلطة، تعتمد فيها حركة الدبابيس على اللوحة، بإلقاء أربع عصي مسطحة صغيرة بيضاء على جانب، وسوداء على الجانب

---

* يوجد في البيوت الكبيرة قسمان: الحرملك وهو مخصص لمعيشة العائلة، والسلاملك وهو مخصص لاستقبال الغرباء (المترجم).

** يضع كل فرد منهم زوجاً (من الصناجات) في كل يد، وتركب الواحدة منها على الإصبع الوسطى والأخرى على الإبهام، ويُلعب بالزوجين بطريقة ماهرة فيها إيقاع متناسب مع الموسيقى التي تعزف أو مع تصفيق الحاضرين (المترجم).

الآخر، وقد وصفها نيبور بدقة وفي أمسيات الشتاء الطويلة، يتسلون بألعاب أخرى، كلعبه الخاتم التي تمارس بالطريقة التالية: يُقلب عدد من فناجين القهوة على عقبها، وتوضع على صينية كبيرة، ويخبأ خاتم تحت واحد منها، ويقسم اللاعبون المشاركون إلى قسمين، وتنحصر اللعبة في التكهن بمكان وجود الخاتم، ويحق للفريق الفائز أن يطلي وجوه الخاسرين باللون الأسود، وأن يطلب منهم لبس قبعات المهرجين لكي يضحك عليهم الحاضرون وإهانتهم بأغاني النصر، ولا يُسخر في هذه المناسبات إلا من الخدم أو أولئك الذين لديهم القدرة على التهريج.

يلعب المسلمون لمجرد التسلية، وفي بعض الأحيان يجازفون ويلعبون مقابل فنجان من القهوة أو نفقة دخول حمام، إلا أنهم لا يلعبون أبداً مقابل نقود، ولا يعرفون أبداً ورق اللعب والهرزد (أحد ألعاب النرد)؛ فاللعب على شيء أمر يحرمه القرآن (٧)، وفي بعض الأحيان يحسمون النزاعات برهان صغير، إلا أنهم لا يضعون مبلغاً كبيراً باعتباره نوعاً من المقامرة، وقد تعلم بعض المسيحيين الذي يعملون في خدمة الأوروبيين 'المقامرة'.

يتقيد أفراد كل ملة أو طائفة بساعات منتظمة في حياتهم اليومية، إذ ينهضون مع بزوغ الشمس، ويأوون إلى فراشهم بين التاسعة والعاشرة ليلاً، ومعظمهم يستلقي لمدة ساعة بعد الأكل، وتعقد الصفقات التجارية بين الفطور والساعة الخامسة مساء، ويتناول التجار طعامهم عادة في محلاتهم في الخانات؛ ويرسل الطعام إلى بعضهم من بيوتهم، إلا أن الكثيرين يكتفون بتناول الخبز والجبن والفاكهة، أو ربما يتناولون الكباب من السوق، وهم يتناولون الوجبة الرئيسية 'العشاء' في بيوتهم، ويذهب بعدها كثير من عامة الناس إلى المقهى، حيث يمضون أوقاتهم حتى صلاة العشاء، ثم يعودون، وفي بعض الأحيان يتبادل الناس من الطبقة الراقية الزيارات، إلا أنهم نادراً ما يشاهدون خارج البيت بعد الساعة العاشرة.

لا تظهر النساء في الشارع بعد حلول الظلام، وعندما يقمن بزيارات عائلية رسمية، يخرجن في الصباح الباكر، أو يعدن إلى البيت حوالي الغروب أو يمكثن طوال الليلة، وفي هذه الحالة، يخصص لهن الحرملك بكامله، كما يمكن تحضير أسرّة لهن، ويخرج عادة الرجال في العائلة للنوم في الشقق الخارجية (السلاملك).

تتألف الأسرّة* من عدة 'مرتبات' توضع فوق بعضها عبر الجزء الأوسط من الإيوان**، ويمد فوق المرتبة العلوية شرشف من قماش قطني، ويحاك شرشف آخر مع الغطاء*** الذي يكون من الحرير، وتتوقف سماكته على الفصل، وتستخدم إحدى وسائد الأريكة كمساند، ويستعمل البعض وسائد سفلية. وينامون عادة بدون ستائر، أما الأشخاص الأكثر حشمة فيعلقون ستائر من الشاش على حبل عبر الغرفة، ويرفعون المراتب والأغطية في الصباح، وتطوى وتكوّم في أحد أطراف الغرفة، وتغطى بستارة لذا،

---

* مفردها سرير ويقصد به مكان النوم فحسب وليس السرير المعروف حالياً (المترجم).

** فتحة كبيرة في جدار الغرفة السميك، تنضد فوقها الأرائك ومفارش النوم وغيرها. (المترجم).

*** يقصد مايسمى باللحاف وهو عبارة عن كيس من القطن له وجه من الحرير أو الأطلس اللامع المصقول، تكون حشوته من الصوف أو القطن وينجد بأشكال زخرفية مختلفة (المترجم).

يسهل إعداد تسعة أو عشرة أسرّة في شقة واحدة، تستعمل في أثناء النهار لاستقبال الأصحاب.

يتألف لباس النوم من صدارة وسروال داخليين وعمامة أشبه بقبعة وعندما يحين وقت النوم، يجلسون على السرير، ويواصلون التدخين حتى يغالبهم النعاس، ثم يستلقون ويتركون رفع القصبة، وتغطيتهم إلى نسائهم أو إلى خدمهم (إذا كانوا في السلاملك)، ويخلد بعض الأكابر إلى النوم وهم يستمعون إلى موسيقى هادئة توضع في غرفة مجاورة، أو إلى قصص ألف ليلة وليلة التي يدرب الخدم على قراءتها أو روايتها، ومن المعتاد أن يقوم خادم بمداعبة أو فرك أقدامهم وساقهم بلطف؛ وهي عادة تمارس كثيراً في الهند، والتي تسمى الشمبونة (Champooing)، وإذا استيقظوا في الليل ولم يجدوا رغبة في متابعة النوم، فهم يجلسون على السرير، ويحتسون القهوة، أو يتناولون فاكهة مجففة وحلويات في الليالي الطويلة، ثم يدخنون قليانهم حتى يخلدوا إلى النوم ثانية، ويكون للمتزوجين أسرّة منفصلة توضع بقرب بعضها البعض.

وفي الصيف، توضع الأسرّة تحت العرائش، أو الإيوان الكبير، أو فوق الديوان الخشبي في الباحة، وفي بعض الأحيان توضع فوق حصيرة تمد على المصطبة، أما في ليالي الصيف الحارة، فينام معظم الحلبيين على أسطح بيوتهم. وفي الشتاء يفضلون النوم في غرف صغيرة ذات سقوف واطئة في الطابق الأرضي، ويتركون مصباحاً* مضاءة أثناء الليل. وفي الطقس البارد، فهم يضعون غالباً وعاء لحرق الفحم، ورغم أن التجربة علمتهم أن تأثير الدخان قد يكون قاتلاً**، ورغم جميع الاحتياطات التي قد يتخذونها سلفاً، مما ينجم عن احتراق الفحم في الهواء، فإنه قلما يمر فصل شتاء دون حدوث العديد من الحوادث المفزعة والتي يؤدي بعضها إلى الوفاة نتيجة تنشق الفحم الذي يشيع استخدامه في كوانين*** كبيرة في الحجرات الواسعة، حيث تحول دورة الهواء المستمرة في هذه الغرف الكبيرة دون حدوث تأثيرات ضارة سوى الإصابة بألم طفيف في الرأس. أما في غرف النوم والغرف الصغيرة الأخرى، حيث لا يوجد منفذ للهواء نتيجة وجود ستائر النوافذ والأبواب المغلقة، فإن الأمر يصبح عندئذ في غاية الخطورة، رغم اتخاذ جميع الاحتياطات لحرقه جيداً، وذلك لأن الدخان الكثيف يحدث تحذيراً مبكراً، ويتيح وقتاً كافياً لتفادي الخطر، أما البخار الخفيف (الذي لم تعرف حتى الآن طريقة لاكتشافه) فيكون له تأثير مفاجئ وغير متوقع.

يرتاد المقاهي أشخاص من جميع الطبقات سوى الطبقة الراقية، ويوجد في بعض المقاهي الكبيرة، غرف أنيقة، لتسلية الزبائن، بالإضافة إلى فرقة موسيقية، وعرض لخيال الظل وراوٍ في ساعات مختلفة من اليوم.

---

* المصباح أو"اللمبة" كما يسميها المؤلف مكونة من خزان للوقود وفتيلة وغطاء زجاجي رقيق (المترجم).

** يقصد المؤلف التسمم نتيجة تنشق غاز الفحم بسبب الاحتراق غير الكامل (المترجم)

*** الكانون: وعاء من النحاس أو الحديد يحرق فيه الفحم حتى يصبح جمراً لإشاعة الدفء في الغرفة ويقال له "المنقل" (المترجم).

تستمر الفرقة الموسيقية، التي تتألف من مطرب وعدد من العازفين، بالعزف لمدة تزيد على الساعة بدون توقف، وتتنقل من أغنية إلى أخرى بدون فواصل، أما في المقاهي الأدنى، التي لا يوجد فيها فرقة موسيقية منتظمة، فيمضي الرواد أحياناً وقتهم بالاستماع إلى مطرب يتطوع للغناء مجاناً.

ينفذ عرض الدمى المتحركة بأسلوب خيال الظل بنفس طريقة Les Ombres Chinoise ولكن بدرجة أقل من حيث الأداء، وتكون خشبة المسرح في غاية البساطة، وتصبح جاهزة في بضع دقائق، ويقوم بأداء العرض كله شخص واحد يتمتع بموهبة فائقة، إذ يغيِّر طبقة صوته، ويقلد اللهجات المحلية، أو السمات الأخرى للشخصيات التي يقوم بعرضها في المسرحية، ويمكن تقصِّي بعض المحاولات البسيطة لعرض قصص مسرحية في هذه العروض، يتم تنويعها أكثر، وتزويقها بمسيرة قوافل، ومواكب الأعراس ومواكب مبهرجة أخرى. إلا أن تعليقات كراكوز غير المحتشمة تقاطع كل ذلك، وهو أشبه بشخصية بانش (Punch) في مسرحهم؛ وفي العروض التي توجد فيها نساء، كما في عروض البيوت الخاصة، فتحذف هذه الأجزاء من الحوار. أما في المقاهي، فلا توجد قيود على عروض الدمى المتحركة، من حيث بذاءة الحوار. غير أن القاضي يمكن أن يتدخل في بعض الأحيان لمنع ذكر بعض الأفراد في شخصيات المسرحية وتصويرهم بشكل يجعلهم موضع سخرية للجمهور، ففي بداية الحرب الروسية في عام ١٧٦٨، تم عرض تصرفات الإنكشارية في حلب على المسرح بأسلوب ساخر، إذ لا يفوت كركوز الفرصة بعدم إلقاء بعض الملاحظات النقدية الساخرة واللاذعة عن قوتهم. ورغم أن ذلك لقي استحساناً كبيراً من الجمهور، إلا أنه تم توقيفه قانونياً، لأنه رغم عدم الخشية من بطش الإنكشارية كثيراً وهم في حالهم المخزي، خشية انتقامهم من أجل ذلك عند تحركهم للحملة الثانية. وفي إحدى حالات إفلاس كانت قد أحدثت ضجة شعبية كبيرة، تقدم بعض الأشخاص المعنيين بطلب إلى السراي لحمايتهم من وقاحة وسخرية كراكوز، الذي كان قد تقمص على المسرح شخصية تاجر، مشيراً إلى صفقات حدثت مؤخراً، ومثل عدداً من الخدع الاحتيالية، ولقيت تشجيعاً كبيراً من الجمهور.

أما هجاء أشخاص في السلطة هجاء حاداً فيكون حذراً جداً، إلا أن كراكوز يتمتع بمجال واسع لانتقاد حماقات بعض الأشخاص في الحياة الخاصة وعدم نشر العدالة بين العامة، وفساد الحكومة، وقد عرضت قصة أحد الباشاوات الذي استُهزئ به على المسرح بعد مغادرته المدينة، وقلما يسلم من ذلك قاض.

يصحب سرد القصص الشرقية نوع من الأداء التمثيلي، وهي ليست مجرد رواية بسيطة، بل إن الراوي يدخل فيها الحيوية بالأسلوب والحركة، ويوفر عدداً متنوعاً من القصص الأخرى، بالإضافة إلى ألف ليلة وليلة المعروفة قليلاً بهذا الاسم في حلب (٨) مادة وافرة للراوي، الذي يقوم بالجمع بين أحداث مختلف الروايات، ويقوم بتنويع مآسيها كما كان قد رواها من قبل، بحيث تضفي مسحة من الجدة حتى بالنسبة للأشخاص الذين يظنون في البداية أنهم يستمعون إلى روايات يعرفونها، ويقوم الراوي برواية قصصه وهو يسير جيئة وذهاباً في وسط المقهى، ويتوقف بين الحين والآخر، عندما تتطلب العبارة نوعاً من التوكيد، ويستمع الجميع إليه عادة باهتمام بالغ. ويتوقف

الراوي عن الإلقاء عندما يصل إلى نقطة أو مغامرة شائقة، وتبلغ الإثارة عند المستمعين أوجها، فيتوقف فجأة عن الكلام ويهرب من المقهى، مخلفاً وراءه بطله ومستمعيه وهم في قمة الإثارة، ويحاول أولئك الذين يجلسون بالقرب من الباب منعه من الخروج ويتوسلون إليه بأن ينهي رواية القصة قبل مغادرته المقهى. لكنه ينسحب ويعلق المستمعون فضولهم، ويتحمسون للعودة في نفس الموعد من اليوم التالي لسماع ماتبقى من الرواية، وما إن يخرج من المقهى حتى يشكل الحاضرون مجموعات منفصلة، وينهمكوا في نقاش حاد حول شخصيات الرواية، أو عن أحداث المغامرة التي لم تنته، وتزداد حدة الجدال شيئاً فشيئاً، ويعبر الحاضرون عن آراء متناقضة بحماس منقطع النظير كما لو كان مصير المدينة يتوقف على هذا القرار.

يتمتع الحلبيون، بشكل عام، بأذن موسيقية مرهفة، وهم مغرمون بالموسيقى، ويوجد لديهم تسميات فنية للنوطات والمفاتيح المختلفة، إلا أنه لا يوجد لديهم موسيقى مدوّنة، وهم يتعلمون الألحان والأغاني بالسماع، ويحفظونها بالذاكرة، وينقلونها إلى الآخرين بنفس الطريقة التي تعلموها بها، ويختلف السلم الموسيقي العربي، في تقسيمات الفواصل فيه كثيراً عن السلم الأوروبي(٩)، ولا توجد عندهم موسيقى منفردة، بل إن العازفين في الفرقة يعزفون دائماً بشكل جماعي، إلا أنه تحصل الأصوات والآلات في بعض الأحيان على راحة من فواصل موسيقية عديدة يحرصون على التمسك بها بدقة كبيرة.

تنقسم الآلات الموسيقية إلى نوعين: عسكرية صاخبة، مخصصة للميدان، وأخرى أقل ضجيجاً، ومواءمة للعزف، وتتألف آلات الفرقة العسكرية من المزمار، الذي يكون أقصر وصوته أكثر حدة من المزمار الأوروبي، والبوق، والصنج، وطبل كبير الحجم، يقرع الجزء الأعلى منه بعصا طبل ثقيلة، ويُقرع الجزء السفلي في الوقت نفسه بلطف بعصا صغيرة جداً؛ كما تحتوي الفرقة على طبول أصغر بكثير، يقرع عليها بنفس طريقة 'النقارة'، وتوجد تسعة طبول كبيرة في فرقة الباشا الصدر الأعظم، وثمانية في فرقة الباشا ذي الذيلين، وعدد الآلات الأخرى غير محدد بدقة، وتعزف الفرقة الموسيقية التابعة للقصر، التي تكون أصغر بكثير من فرقة الباشا، بانتظام مرتين في اليوم في داخل السور.

كما تعزف فرقة الباشا مرتين في اليوم في باحة السراي، وتُقسّم الفرقة، التي تعزف لمدة تزيد على نصف الساعة، إلى ثلاثة أقسام بدون تمييز فواصل التوقف، ويكون إيقاع المعزوفة بطيئاً في البداية، إلا أنه يتغير بالتدريج ليصبح سريعاً، وفي هذه الحركات، يكون من المعتاد إدخال بعض الألحان الغنائية الدارجة.

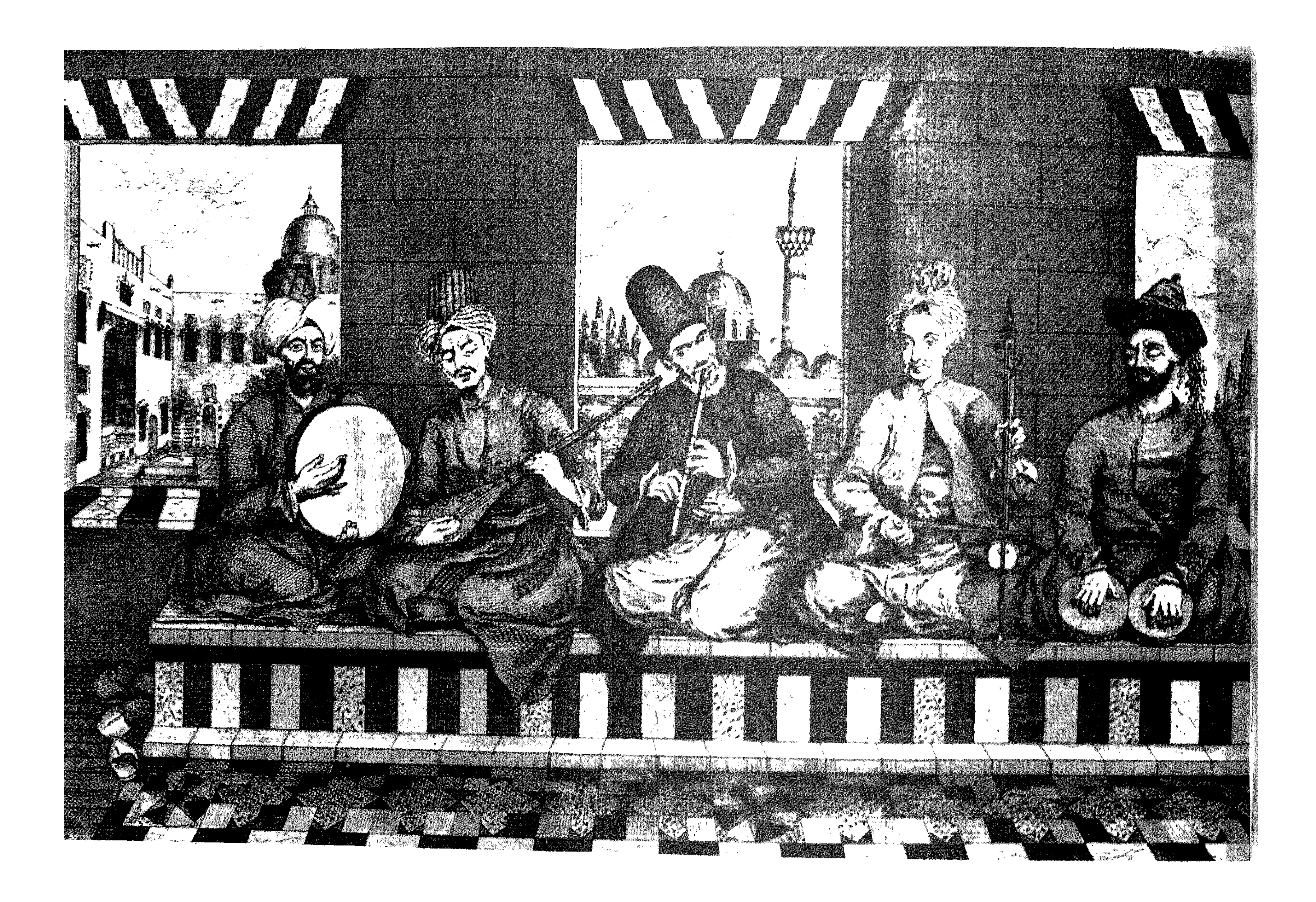
أما موسيقى الحجرة، فتتألف من أصوات يرافقها القانون، والطنبور*، والكمنجة وطبلات صغيرة (دربكة)، والناي، والدف أو الدائرة، ويصدر عن هذه الآلات عزف جميل، عندما تعتاد الأذن على هذه الموسيقى، وتعزف الآلات ألحاناً جميلة، وتمثل اللوحة فرقة موسيقية تركية تبين مختلف الآلات المستخدمة في موسيقى الحجرة.

---

* الطنبور: آلة وترية ذات عنق طويلة لها ستة أوتار من النحاس وهي أشبه بالبزق (المترجم).

اللوحة ٤: تبين هذه اللوحة فرقة موسيقية مستمدة من واقع الحياة، يرتدي كل عازف من أفرادها لباساً خاصاً بطبقته. فالعازف الأول مسلم ينتمي إلى أدنى الطبقات الشعبية، ونرى كيف ان الشاش ملتف حول القاووق برخاوة وبدون إحكام، فيعطي العمامة مظهراً غير أنيق بالمقارنة مع العمائم التي يضعها الأشخاص الأنيقون، وهو ينقر على الدف ويغني في الوقت نفسه. أما الشخص الثاني فهو مسيحي من عامة الناس، ويرتدي ثوباً بطريقة مبتذلة غير أنيقة، وهو يغني أيضاً ويعزف على الطنبور. أما الشخص الجالس في الوسط، فهو درويش يرتدي قاووقاً عادياً بدون شاش، ويعزف على الناي أو مايدعى بـ 'ناي الدراويش'، في حين أن الشخص الرابع مسيحي من الطبقة الوسطى، وهو يجلس ويرتدي القرطاق والدولمان المطوي تحت ساقيه ليخفي قنبازه. وهو يضع خنجراً في نطاقه ويظهر المقبض من فوق حزامه، وشاش عمامته أزرق ذو خطوط بيضاء كشاش المسيحي الآخر، إلا أنه يمكن ملاحظة فرق في الثوب، وذلك لأن الأول لايرتدي قرطاقاً، بل يرتدي ثوباً خارجياً طويلاً معقوداً بحزام ويلبس تحته قنبازاً، وهو يعزف على الكمنجة (الكمان) بالطريقة المألوفة مرتكزة على قاعدتها. أما الرجل الأخير، فثيابه تشبه كثيراً ثياب المسلم الأول، في حين أن عمامته تشبه العمامة التي يرتديها الإنكشاريون في بعض الأحيان، والتي يرتديها في معظم الأحيان (العربجير) أو الخادم الأرمني الذي يعمل في خدمة الأوروبيين، وهو ينقر على النقارة بأصابعه لتخفيف أو تنعيم الصوت، وتظهر عصي الطبلة من تحت صدارته. وتوضع بوابيج العازفين عند طرف المصطبة التي يجلسون فوقها، وجميعها من نوع واحد. وكما ذكرنا سابقاً، فإن لون خف المسلمين أصفر، في حين أن لون خف المسيحيين أحمر. والآلة الوحيدة غير الموجودة في الفرقة هي آلة الصنطير أو القانون.

يلاحظ أن واجهة حجر المصطبة من المرمر الملون بألوان مختلفة، وأن جزءاً من الباحة مبلط بالموزاييك كما هو مبين في الرسم. ومن خلال النافذة، يظهر جزء من أحد الجوامع بمئذنته، وتبدو الشرفة التي يقف عليها المؤذن للدعوة إلى الصلاة بالقرب من الأعلى. وتظهر من خلال النافذة الأخرى، بشكل مصغر، الباحة الداخلية لأحد البيوت الكبيرة. ويبدو في المقدمة باب القاعة وجزء من القبة، وتظهر على الجانب كوة في الجدار أو الإيوان والظل فوقه. ونرى أن واجهة المصطبة من المرمر، والرصيف مزخرف بالموزاييك والماء ينبعث من النافورة. أما الشجيرات في الباحة فهي غير مرئية.




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبدو الغناء بالنسبة للأذن الأوروبية في البداية غريباً كغرابة سماع اللغة العربية، إلا أن الأذن تتقبله شيئاً فشيئاً، ويوجد بشكل خاص نوع من الغناء، يقع بين اللحن والتكرار، يدعى 'موال'، ويكنّ له عامة الناس تقديراً خاصاً، ويؤديه صوت واحد بدون صحبة الآلات، ويمدد المطرب صوته، بعد أن يضع يده خلف أذنه، وكأنه يريد إنقاذ طبلة أذنه من التلف، ويكون موضوع الأغنية حزيناً: شخص متعثر الحظ يندب غياب محبوبته، ويتذكر الأوقات السعيدة، ويدعو البدر أو الليلة المضيئة ليشهدا على إخلاصه ووفائه. ويتوقف المطرب وقفات طويلة متكررة، ليس بين مقطع وآخر، الذي يكون قصيراً جداً، بل يتوقف في منتصف السطر، وينتهز الفرصة لاستعادة نفسه، ويبدأ من جديد مضخماً ألحانه لالتقاط أنفاسه، ويقدر ما يغرم الحلبيون بهذا الموال، ثمة أجانب لا يقوون على سماعه، أو دون أن يندبوا نشاز الأصوات التي تكون غالباً قوية وواضحة وجميلة بشكل رائع.

رغم وجود عدد كبير من الألحان العربية، فإنه لايوجد تنوع كبير فيها، بل ثمة تشابه كبير في معظمها، والأشعار التي تغني تكون عادة عن الحب، وفي بعض الأحيان تكون مرحة، ويؤدي الأغنية صوت واحد أو عدة أصوات ترافقها عدة آلات موسيقية، ويكون القانون بدل البيان القيثاري، وتضبط الدف أو النقارة الزمن. وبعض الأغاني ممتع جداً، إلا أن الأصوات مرتفعة جداً وخاصة الكورس.

رغم أن الموسيقى تحظى بتقدير كبير، وحضور مستمر في جميع المناسبات، فلا يعمل فيها أي من الأشخاص من الطبقة الراقية، يُعلم الشبان من كلا الجنسين على اعتبارها عملاً غير مرموق، ويبذل عدد قليل من النساء جهوداً لتحسين أصواتهن، ورغم انضمام بعض الشابات من حين لآخر إلى الكورس، فإنهن لا يعتبرن من اللياقة الاستمرار فيها، ويغني كثير من الرجال من الطبقة الدنيا في فرقة، ولسوء حظ الأذن المرهفة، ينضم إلى الكورس أحياناً عدد من الأشخاص ممن يظنون أنهم مؤهلون لذلك. بالإضافة إلى الآلات الموسيقية التي ذكرناها، توجد آلات أخرى* لا يمكن قبولها في الفرق الموسيقية منها مزمار ذو نوعية متدنية، وأنواع عديدة أخرى من المزامير الشائعة السيئة بالإضافة إلى القربة. ويقوم بالعزف على المزمار والقربة أشخاص يدعون للعزف في الأعراس، وفي القرى وفي العطل، وقد يعزفون بطريقة سيئة للغاية على أطراف المدينة.

مازال الناي الآلة الموسيقية التي يستعملها الرعاة في سورية، وهو معروف كذلك في المدينة، إلا أن عدداً قليلاً جداً من العازفين يجدونها ملائمة، وتكون النغمات الأعلى واضحة وممتعة، إلا أن القصبات الطويلة، كالناي يمكن أن تصدر هسيساً، رغم قيام عازف جيد بالعزف عليه، ويختلف عدد القصبات التي يتألف منها الناي باختلاف الآلات، من خمسة إلى ثلاثة وعشرين.

إن الحلبيين، الذين يكونون مقتصدين على عائلاتهم بشكل عام، ينفقون بإسراف في بعض المناسبات، إذ تتسم أعيادهم بمظاهر الوفرة والضيافة، ويكلف رب

* إن معظم الآلات الموسيقية المذكورة أعلاه هي من رسم .Kaempfer وبشكل عام فإن الأسماء هي نفسها، إلا أنه رسم كذلك آلات عديدة أخرى غير معروفة في سورية.

البيت أولاده أو واحداً أو اثنين من أقاربه لمساعدة الخدم في رعاية الضيوف، وتعزف فرقة موسيقية، تجلس في الباحة، بدون توقف تقريباً، والماء يتدفق من النوافير، ويضع الخدم أزهاراً على عمائمهم، ويكون الضيوف في أبهى ثيابهم، وتغمرهم المتعة والبهجة، وينطبق ذلك أكثر على المسيحيين واليهود خاصة، لأن المسلمين من الطبقة الراقية نادراً ما يتخلون عن مهابتهم في حضرة عدد آخر من الأشخاص.

وتحضر مجموعة من المهرجين في جميع احتفالات التسلية الكبيرة، ويتألف هؤلاء من بعض الموسيقيين، ويتم استئجار أشخاص آخرين لكي يتقمصوا شخصيات مهرجين معروفين. ويقلد بعضهم أشخاصاً معروفين، فيستخلصون منهم المزايا المضحكة، وفي بعض الأحيان يلمحون بشكل ارتجالي إلى أشخاص موجودين بين الحضور؛ إلا أن ذكاءهم يتسم بالبذاءة إلى حد ما.

قلما لا يكون لرجل من الطبقة الرفيعة مهرج بين أتباعه، يتسلى معه في أوقات فراغه، وبما أن المهرج يتمتع بحرية قول ما يشاء فغالباً ما ينتهز هذا الامتياز بدعابة مقبولة على سيده وأصحابه، وفي بعض الأحيان يتقمص جاويش* الباشا شخصية المهرجين ويقدم عروضاً للترويح عن سيده.

تحدث النساء في احتفالاتهن ضجيجاً أكبر بكثير مما يحدثه الرجال؛ ويتألف كورسهن من عدد أكبر من الأصوات، وغالباً ما تقاطعهن الزغاريد، وتنضم إليهن الفتيات بمرح وحبور، ولديهن عازفات ومهرجات من جنسهن بعضهن من القيّمات اللاتي يقمن بالعناية بهن في الحمام.

---

*الجاويش: هو ضابط صغير يحمل عصا قصيرة مزدانة بالفضة ويقف عند باب السراي ويستخدم لنقل الرسائل والدعوات لحضور المجلس وما إلى هنالك. ورئيسهم رجل ذو اعتبار ويعمل بمثابة رئيس للتشريفات والاحتفالات.

الملاحظات

(١) يستخدم دوا الحمام نفسه في أجزاء أخرى من الشرق ويدعى روسما (Rusma). واستناداً إلى فيلامونت فإن الروسما مادة معدنية مميزة تحتوي على خاصية عدم حرق الجلد. ويصفها بأنها تختلف عن orpiment التي يقول إنها تستعمل في أوروبا.

(٢) إن الفوطة التي ترتديها النساء، والتي تُلف حول الخصر، تختلف عن الفوطة التي يرتديها الرجال في أنها أكثر جودة ومزدانة أكثر. وهي تغطيهن تماماً من الصدر وحتى الأسفل، أما الرأس والعنق والذراعان، فتكون مكشوفة تماماً عندما يكن في الجواني، وعندما ينهين حمامهن، يخلعن هذه القطعة المبللة، ويحصلن بدلاً عنها على منشفة كبيرة من القطن المزهر، ذات أرضية بيضاء، وحافة ملونة، وتسمى 'محزّم' ويغطين أنفسهن بها، كما يفعلن بالفوطة، ثم يلففن شعرهن بقطعة من موسلين ناعم، ذات حواف مشغولة ومطرزة في الوسط بزهور ذهبية، وتدعى 'معصر الشعر'، ويوضع على الرأس منشفة ناعمة على شكل عمامة، تصنع في الأستانة وتسمى 'منشفة خولية'، ومنديل مطرز بكثافة بالحرير والذهب يطلقون عليه 'يسير' وتعقد حول الرقبة، وفي النهاية يرتدين 'قبا' المصنوعة من القطن، وهي على شكل قميص واسع جداً، ذي أكمام واسعة طويلة، مطرزة بكثافة حول الحاشية، حيث تُفتح قليلاً عند الصدر. وترتاح النسوة لبعض الوقت وهن يرتدين هذا اللباس، بالإضافة إلى أنهن يكن مزودات بسجادة ووسادة صغيرة، قبل أن يرتدين ثيابهن.

يتم طي لباس الحمام الذي وصفناه بعناية في قطعة مربعة من الحرير، أو قماش مطرز، تشكل صرة تسمى 'بقجة' وتحملها إحدى الخادمات تحت ذراعها، في حين تحمل خادمة أخرى كوباً نحاسياً لصب الماء، وذلك لأن النسوة لا تستخدمن الأكواب العامة التي يقدمها الحمام، وهي تدعى 'طاسة جان'. وتجدر الملاحظة إلى أن 'كيس الحمام' أو الكيس الذي يستخدم لفرك الجسم مصنوع من الكاميلو (Camelot) الأحمر، وهو أقل خشونة من الكيس الذي يستعمله الرجال وقلما يستخدم الرجال شيئاً آخر في الحمام غير الفوطة. ويقوم الحمام بتوفير المناشف التي تلف حول الرأس بالإضافة إلى باقي العدة، إلا أنهم لا يظهرون عراة تماماً أبداً.

(٣) بعد أن لاحظ غريلوت مّا أنه يسمح للصبية بدخول الحمام بعد بلوغهم ٧ أو ٨ سنوات من العمر، يقول إنه تعرف على البعض الذين يتذكرون جيداً ما كان يحدث هناك. ويبدو أن ماذكره ليس له أساس قوي من الصحة عندما نأخذ بالاعتبار أن معظم المستحمات في الحمام العام، يكن غريبات عن بعضهن، وأن الفتيات الصغيرات لاتكن تحت أعين والداتهن فقط أو المشرفات عليهن، بل يعتقدن في قرارة أنفسهن أنه يجب المحافظة عليهن وعلى حسن السلوك في الحمام، ومن ذاك المكان تختار الأمهات عادة الزوجات لأبنائهن.

(٤) إن ما ذكر عن الحمام في حلب ينطبق كذلك (حسب المعلومات التي تمكنت من الحصول عليها) على الحمامات في الأصقاع الأخرى من تركيا، وخاصة في الأستانة وسميرنا (أزمير).

أكدت لي سيدة تركية من عائلة راقية من استانبول، من حريم القاضي في حلب، والتي كانت مريضتي لفترة طويلة، بعد أن انتهزت الفرصة لأقرأ لها بعض المقاطع المتعلقة بالحمام/ من رسائل كتبت من تركيا كانت صدرت قبل سنوات قليلة أنه 'حالما تخلع النسوة ثيابهن في الغرفة الخارجية، يلبسن ثياب الحمام على الفور، ولا ينزعنها أبداً حتى يلبسن ثانية'. وقالت إن بعض الفتيات يمكن أن

تسقط عنهن الفوطة عرضاً، إلا أنها لم تر أو تسمع أبداً عن موكب سارت فيه النساء وهن عاريات عبر غرف الحمام. كما ذكرت أن الرسالة لا بد أن تكون قد كتبت للتسلية، لأنه إذا كانت السيدة كما كنت قد وصفتها، فمن المستحيل ألا تكون قد ميزت اللعب والمرح العرضيين لبعض الفتيات عن عادات راسخة توافق عليها الحشمة والتربية الجيدة.

(٥) الزلاغيط أو زلغوطة (كما كتبها لي أحد الحلبيين) هو الأسلوب الشائع عند النساء للتعبير عن بهجتهن، أو للتعبير عن فرحة عارمة مفاجئة. والكلمات التي يطلقنها هي: لي لي لي، ويكررنها بقدر ما يمكنهن بنَفَسٍ واحد، وهي تطلق بسرعة وبنغمة حادة وعالية، وتُسمع حتى مسافة بعيدة. وتسبقها في بعض الأحيان مقطوعة شعرية مؤلف من أربعة أسطر، تنشدها واحدة منهن، تعبّر فيها عن شكرهن لله لما حصلن عليه أو ابتهالات وتمنيات طيبة، وفي أوقات أخرى، يأخذن دوراً أخف، وبما أنها تكون ارتجالية، فيلمحن تلميحات خفيفة إلى أشخاص موجودين بين الحاضرين. وفي هذه الحالة تكون الزلغوطة بمثابة الكورس، إلا أنها تُسمع غالباً كذلك بدون مقطوعة شعرية مسبقة، بين فواصل المعزوفات الموسيقية، وفي المواكب الاحتفالية نتيجة الابتهاج الشديد.

عندما ينطلق أحد المسلمين في رحلة طويلة أو يعود إلى بيته بسلامة فمن عادة النساء استخدام المؤذنين (الذين يدعون للصلاة) كي ينشدوا من شرفة أقرب مئذنة، بعد أن تضاء في تلك المناسبة، وتجيب النسوة المجتمعات في المنزل بين فترة وأخرى بالزغاريد.

تعتبر هلوليا في العهد القديم هتاف بالإستحسان يرافق المقطوعات الشعرية الموجهة إلى الله. وفي القاموس فإن هلوليا تعبير عن فرح الزواج.

إن الفعل باللغة العربية للتعبير عن البهجة هو نفسه تقريباً بالعبرية هلّ ومنها تأتي هليلة وهللينة. وإن عبارة لا إله إلا الله عندما تلفظها النسوة بسرعة وبصوت حاد قد تتحول بسرعة إلى لي لي لي في الزغرودة، محافظة على مقاربة في الصوت، إلا أن المعنى يكون قد فُقد.

ويورد بوكوك مثالاً من هيرودوتوس، حيث يقول إنه من المحتمل جداً أن الله تعالى في العربية قد تحولت عند اليونانيين إلى أورتال أو أولوتال، ويفترض أنها التسمية العربية لباخوس.

(٦) تقدم الليدي ماري وورتلي (Lady Mary Wortley) وصفاً عن الرقص التركي في رسالتها الثالثة والثلاثين، إلا أنه في تلك المناسبة، يجب عدم الشك بأن الجواري كن يحتفظن بآداب محددة لا تلتزم بها الراقصات المحترفات. وتقول سعادتها عن الرقص الإغريقي: "إنه بالتأكيد نفس الرقص الذي يقال إن ديانا قد رقصته على ضفاف يوروتاس. وماتزال السيدة العظيمة تقود الرقصة وتتبعها فرقة من الشابات الصغيرات اللاتي يقلدن خطواتها، وإذا غنت، فيؤدين دور الجوقة".

(٧) يحظر القرآن لعب الميسر بالإضافة إلى احتساء الخمر كما جاء في الآية التالية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة.﴾ انظر حول هذا الموضوع Pocock. Shale ويلاحظ هذا الأخير من أحد المفسرين العرب أن الميسر يشمل ألعاب النرد والورق والشطرنج وجميع الألعاب التابعة للقمار. أما بالنسبة للصور و تشمل الأشكال البشرية وما إلى هنالك، فثمة خلاف بين العلماء، وأن تحريمها أقل بكثير من تحريم الميسر (القمار). انظر D'ohsson (المجلد٢، ص٢٣٥).

(٨) إن عنوان كتاب الليالي العربية هو "حكايات ألف ليلة وليلة". وهو كتاب نادر في حلب. وبعد جهد كبير تمكنت من العثور على مجلدين يحتويان على مئة وثمانين ليلة، وبصعوبة بالغة تمكنت من

الحصول على نسخة. وقد رأيت أكثر من نسخة في مكتبة الفاتيكان، ونسخة في مكتبة الملك في باريس، ويقال إنها كاملة أيضاً. وقد سمعت مؤخراً أن البروفيسور السيد وايت اكسفورد قد حصل على نسخة كانت تخص المرحوم السيد ورتلي مونتاج. إلا أني لا أعرف كم عدد الليالي الموجودة فيها.

وبالإضافة إلى المجلدين الآنفي الذكر، تمكنت من جمع عدد من القصص بشكل منفصل، يتعلق بعضها بألف ليلة وليلة، وحسب تسلسل الليالي العربية التي صدرت في أدنبرة عام ١٧٩٢، فإن جميع القصص الواردة في المجلدين الأول والثالث موجودة تقريباً في مجموعتي.

(٩) تحظر الشريعة الاستماع إلى الموسيقى: كما أن العزف مخالف للدين، وأن المتعة الناجمة عنها تجعل الشخص كافراً: D'ohsson (١٨٨ .Tableau Genre, Tom. ii.). رغم هذا القول الذي يقال إنه جاء على لسان النبي (ص) فإن قلة من الناس هم الذين يطيعون ذلك طاعة تامة، إلا أن عدد المسلمين الذين يعزفون الموسيقى قليل، كما يتردد عدد قليل منهم في الاستماع إلى الموسيقى.

ذكر Casiri مقالات عديدة من بينها: عناصر الموسيقى بقلم محمد .. أبو النصر الفارابي، وتقسم أعماله إلى ثلاثة أقسام: يتطرق القسم الأول منها إلى أصل الفن، والثاني إلى التأليف الموسيقي من حيث الأصوات والآلات الموسيقية، والثالث ضروب التلحين المتعددة. ويورد أكثر من ثلاثين شكلاً من أشكال الآلات الموسيقية مع النوطات الموسيقية.

وكتب أبو الفرج علي بن حسان بن حمد الإسباني كتاب'المجموعة الكبرى للألحان' في سنة ٣١٥ للهجرة (٩٢٧م) في مجلدين. ويحتوي المجلد الأول على خمسين لحناً عربياً، مع ذكر حياة أربعة من المغنين كانت لهم حظوة لدى الخلفاء.

الفصل الثالث
عن السكان المسلمين في حلب

تمييز السكان المسلمين، العثمانين، العلماء، الأغاوات وما إلى ذلك، التجار، المهن المختلفة، البدو (الأعراب) ، التركمان ، الخ ، أسلوب الحياة التركية، الزيارات الرسمية، العشاء الخ، غذاء الطبقات العادية، أحاديث السمر، الدين والمرأة، الموضوعات التي قلما تبحث هناك، تعاطي الخمرة ليس من الرذائل المنتشرة.

يقدر عدد الأتراك الذين يشملون المسلمين من جميع الفئات بمئتي ألف نسمة ،، بعضهم من سكان مدينة حلب وكانوا يقطنوها قبل أن يخضعها السلطان سليم في عام ١٥١٦م، وبعضهم جاء ليستقر بها، وآخرون جاؤوا إليها بدواعي التجارة من معظم المقاطعات العثمانية، ومن الأمور التي تجمع بينهم، العيش في كنف حكومة واحدة، والاشتراك في عقيدة دينية واحدة، وذلك لكونهم جميعهم من السنّة*.

يُطلق على الباشا وحاشيته وجميع الذين يقومون بخدمة الباب العالي 'العثمانلية'، وهم يتكلمون أو يدّعون أنهم يتكلمون اللغة التركية، ويشكل 'الأفندية' هيئة العلماء ويتكلمون العربية، لأن معظمهم من سكان حلب المحليين، باستثناء عدد قليل يمكنهم تكلم التركية جيداً. ولا يزال الأغوات**، أو (بمعنى أضيق) أولئك الذين يستأجرون الأراضي، يتمتعون بشيء من النفوذ في الديوان، أو في مجلس المدينة، غير أن نفوذهم وعظمتهم آخذة في الإنحدار عما كانت عليه منذ زمن بعيد؛ فقد انقرضت معظم العائلات القديمة الآن، ومن بين البيوتات القديمة القليلة المتبقية عائلة الشحنة***، وكان أحد الأفندية الذي يتحدر من عائلة المؤرخ المعروف (ابن الشحنة الذي كتب تاريخ مدينة حلب) يعيش في سنة ١٧٥٢، وكانت العائلة تدعي قرابتها للمحامي والمؤرخ الشهير الذي كان يحمل ذلك الاسم، كما يتكلم الأغوات اللغة العربية، رغم أن بعضهم تعلم اللغة التركية نتيجة تعاملهم مع السراي، أو نتيجة إقامتهم من حين لآخر في الآستانة.

ويؤلف الأشراف (أو ذوو العمائم الخضر كما يطلق عليهم الإفرنج) مجموعة كبيرة وقوية جداً، تضم أشخاصاً من جميع الطبقات، ويتميزون بلون الشاش الأخضر الذي يلفونه حول عمائمهم، وهم يتمتعون بمزايا خاصة تحت ظل رئيسهم الذي يعينه الباب العالي الذي يلقب بـ'النقيب'. وبالطبع فإن عدد المسلمين الذين يضعون الشاش

---

* السنة: هم الذين يقرون بسلطة السنة أو مجموعة أقوال وأفعال الرسول (ص) التي تعتبر مكملة للقرآن.

** يُطلق لقب الآغا بدون تمييز على العديد من الأشخاص ويعني السيد. أما معنى الكلمة كما وردت أعلاه فتدل على أغوات حلب ممن يملكون الأراضي والأعضاء في المجلس، كما يشملون ضباط الباشا والسرادار آغا ومحصل آغا وما إلى هنالك.

*** الشحنة ليست هي العائلة الحلبية الموجودة الآن، إنما الشحنة تعني هنا وظيفة تركية لمن كان يعمل في المدينة (المترجم).

الأبيض آخذ في الانحدار في كل يوم، بسبب تزاوجهم مع بنات الأشراف، حيث يصبح الأطفال، المولودون من هذه الزيجات، من ذوي العمائم الخضر بسبب انتسابهم إلى أمهم.

يوجد عدد كبير جداً من التجار* في حلب، وثمة عدد قليل منهم من الأغنياء، وقد سافر بعضهم أثناء شبابهم إلى بغداد والبصرة، بل حتى إلى الهند، ورغم تقدمهم في السن، فهم مازالوا يسافرون من حين لآخر إلى العاصمة في القوافل التي تنقل بضائعهم، وعندما لا يسافرون بأنفسهم يوكلون أمر بضاعتهم إلى خادم مخلص.

ينضم إلى هيئة التجار عدد كبير من الأجانب الذين يفدون من جميع المدن التجارية الكبيرة في السلطنة، ويمكثون في حلب حتى يبيعوا جميع البضائع التي جلبوها، أو حتى ينهون استثماراتهم، وتتاح لهم فرصة العودة إلى وطنهم الأصلي بالقوافل بسهولة. وقد لا تكون هذه القوافل متجهة إلى حلب، بل تمر بالقرب منها وهي في طريقها إلى أماكن أخرى لينضم إليها المسافرون.

تقسّم الحرف إلى مجموعات مختلفة، يرأسها سادة أو شيوخ**، وكانت هذه المجموعات*** تسير في الماضي في مواكب رائعة في مناسبات معينة، إلا أنه فرض حظر على هذه المواكب، بسبب القلاقل التي أثارتها النزاعات حول الأسبقية.

يُعتبر الحرفيون بصورة عامة نشيطين ومقتصدين، وهم يعملون ببطء، إلا أنهم يعملون لساعات طويلة جداً خلال الأربع والعشرين ساعة، ويحصلون على عطل قليلة جداً. ويُعتبر تعاطي المشروبات الروحية، رغم ندرته في صفوفهم، أمراً مشيناً للغاية، علماً بأنه ليس شائعاً بينهم. وهم يستخدمون أدوات غليظة، إلا أن ذكاءهم الفطري يعوّض ما ينقص هذه الأدوات، التي يمكن الحصول عليها بسهولة من أوروبا، ورغم أنهم يبدون إعجاباً كبيراً بالأدوات المصنّعة، والأثاث الفاخر المورّد من إنكلترا، فإنهم يعملون في ظروف محبطة تحول دون التطور لفترات طويلة، إن لم نقل للأبد، ويتفوق الحلبيون في فن صناعة الخيام بدون منازع، إذ تصنع في حلب عادة الخيام للسلطان وكبار المسؤولين في الباب العالي.

يعمل عدد كبير من العمال في صناعتي الحرير والقطن، فبالإضافة إلى المصانع الكبيرة التي تضم عدداً كبيراً من الأنوال، يوجد لدى عدد كبير من صغار الحرفيين نول أو نولان في بيوتهم حيث تقوم النساء، عند فراغهن، من الأعمال المنزلية، بغزل كمية كبيرة من الحرير والقطن وإعدادها للنول، وتحصل الكثيرات منهن على قوتهن من هذا العمل ومن أعمال كثيرة أخرى. وعندما تتفشى أمراض معدية في المدينة، تصبح الكارثة مزدوجة، وذلك لأن أصحاب الحرف لايتركون موادهم متناثرة بين عدد من

---

* وبالتركية بازركان (وهي الأكثر شيوعاً).

** ويلفظها عامة الناس 'شيه' ومعناها الحرفي الرجل الهرم أو المسن، إلا أن لها استعمالات عديدة أخرى. إذ يطلق على الأمراء العرب في بعض المناطق 'مشايخ'، وهناك شيخ القرية، وشيخ المهنة أو الحرفة من كل مناطق المدينة. وهي في هذه الحالة تعادل كلمة رئيس قبيلة، أو صاحب شركة أو رئيس مجموعة.

***تسمى المجموعات الحرفية هذه 'أصناف' (ج. صنف) وهي بمثابة نقابات المهن الحرفية الآن (المترجم).

البيوت الصغيرة المظلمة، خشية تعرضهم للإصابة، فتتوقف الأعمال ويسود الكرب والحزن.

يقطن عدد لا بأس به من الأعراب في المدينة والضواحي وفي القيصريات أو في بيوت صغيرة وضيقة، ويعمل الرجال منهم في مختلف أنواع العمل اليدوي، وغالباً ما تلحق النسوة بحرملك الأكابر بصفة خادمات أو مرضعات، ونادراً ما يتزوجن من خارج قبيلتهن. وهم يحتفظون باللباس والعادات العربية، ويطلق عليهم اسم 'البدو' بصفتهم عرب الصحراء. بالإضافة إلى قبائل أخرى تضرب خيامها في الربيع تحت أسوار المدينة، وفي الصيف يقتلعون خيامهم، وينتقلون إلى القرى المجاورة، وفي الشتاء يلتجئون إلى المغارات أو الكهوف قرب المدينة (١).

يرتدي البدو ثياباً بسيطة أكثر، و تكون مختلفة عن ثياب بقية السكان من نواحٍ عديدة، وخاصة فيما يتعلق بشكل العمامة. إذ يقول دارفيو بأنه يوجد اختلاف ضئيل بين ثياب الأمراء العرب وثياب المسلمين من الطبقات المميزة، إلا أن الأمير الذي يأتي في بعض الأحيان إلى حلب، بالإضافة إلى خدمه الخاص، يرتدي دائماً الشاش الأسود المتدلي على الرقبة من أحد الجوانب، بالإضافة إلى العباءة العربية، كما يرتدي القنباز ولكنه لا يرتدي الدولمان، أما نساؤهم، فيجعلن شفاههن زرقاً بواسطة إبرة ونوع معين من المسحوق، ويرسمن إشارات زرقاء بنفس الطريقة*، أو زهرات على خدودهن وصدورهن وأذرعهن، يفتحن ثقوباً بواسطة الإبرة في تلك الأجزاء، ويدلكن تلك الثقوب بالمسحوق، وتبقى العلامة ثابتة لا تمحى، كما يمكن مشاهدتها بين البحارة وبعض عامة الناس في إنكلترا. وهن يعلقن أقراطاً كبيرة من الذهب أو الفضة على أنوفهن، ويثقبن غضروفاً في أحد المنخرين لهذا الغرض، ويكون عادة الغضروف الخارجي للمنخر الأيمن من الأنف، وقد شاهدت بعض الأقراط يبلغ قطرها ما لا يقل عن بوصة ونصف البوصة، ويصفها La Roque بأنها لا تصنع من الذهب والفضة فحسب، بل كذلك من القصدير أو النحاس، وقد يحيط حجمها بالفم، ويضيف أن البدو يعتبرون أنه من الشهامة تقبيل نسائهم من خلالها، ويزيّن أذرعهن وكواحلهن بأساور من الفضة، أو من الزجاج الملون، ويرتدين أقراطاً وأطواقاً من الكهرمان، أو من حرز البندقية (فينيسيا)، ويجدلن شعورهن بالخرز أو الصدف الأصفر، أما اللواتي يلتحقن بالحريم، فإنهن يتبعن عادات سيداتهن، ولا يقمن بتلوين شفاهن، ولا يضعن أقراطاً على أنوفهن، ويرتدين ثياباً نظيفة من الكتان، وأحذية صفراً أو بوابيج، ويخرجن وهن محجبات، وترتدي أخريات نفس لباس البدويات اللاتي يعشن في الخيام، ويرتدين ثياباً زرقاء خشنة مصنوعة على شكل قميص ذي أكمام عريضة، مفتوح قليلاً عند الصدر، ويصل حتى الكاحلين، أما الشاش الأسود الذي يرتدينه على الرأس، فهو يخفي الوجه، وتشد إحدى زواياه باتجاه الفم والذقن، وفي أحيان أخرى، يرتدين لفاعاً، وحجاباً قصيراً من الكتان، ويلقينه بدون إحكام على الرأس، وتكون سيقانهن عارية. ورغم أنهن يسرن حافيات في الريف، فإنه ليس من المعتاد رؤيتهن في المدينة بدون حذاء. ويحافظ البدو من سكان المدينة على شيء من لباسهم المحلي، لتمييزهم عن غيرهم، إلا أنهم بدؤوا يأخذون عن السكان الأكثر

* ويدعى الوشم (المترجم).

رقياً الذين يعيشون معهم عاداتهم وطريقة لباسهم، ولكن بشكل يعوزه حسن الذوق. ويعتبر البدو الذين يقيمون مضاربهم تحت أسوار المدينة من فئة أدنى، وتنطبق أوصافهم أكثر على الوصف الذي أورده دارفيو (٢).

يقطن عدد كبير من العائلات التركمانية في الضواحي، ويتكلمون بلكنة تركية ذات نبرة أقوى بكثير من تلك التي يتكلمها العثمانيون، وبما أنهم أناس أقوياء، فهم يعملون بشكل رئيسي في الزراعة، أو كحداة* للجمال في القوافل، وبما أنهم يقطنون في أطراف المدينة، فهم أقل اختلاطاً مع السكان في المناطق الداخلية، لذا فإنهم يحافظون على عادتهم ولغتهم نقية أكثر من البدو، إلا أنهم يختلفون عن القبائل التي تعيش باستمرار في الخيام. ويرد ذكر بعضهم في الملاحظات (٣).

كما يقطن الضواحي عدد كبير من الأكراد، ويطلق على إحدى الضواحي أو الحارات، حارة الأكراد، ولغتهم أقرب إلى التركية منها إلى العربية، إلا أنها تختلف كثيراً عن كلتيهما، ويعيشون كما يعيش التركمان، ويزاولون نفس العمل، ويضع الأكراد والتركمان على رؤوسهم 'القاووق' المستدق الطرف من اللباد، ويلفون حوله قطعة قصيرة من الشاش الأبيض، وبالإضافة إلى الأكراد الذين يقطنون جبال بيلان، وهم معروفون جيداً من الإفرنجة. وتوجد قبيلة رحّالة، غالباً ما تأتي إلى سهول حلب، تعرف باسم الرشوان (٤).

بالإضافة إلى البدو الذين يضربون خيامهم خارج أبواب المدينة الذين أتينا على ذكرهم، يضرب الجنكنا** كذلك خيامهم بالقرب منهم، وهم قوم يختلف تماماً عنهم (رغم أنهم يعيشون بنفس الطريقة)، ويتكلمون اللغة العربية، ولكن يتخللها عدد من الكلمات والعبارات التي قلما تفهم في سورية. وهم يهاجرون في الصيف إلى القرى المجاورة، ويعودون في أوائل الربيع، ويشبه لباسهم لباس البدو، وتلوّن نساؤهم شفاههن، ويتزينّ بالحلقات بنفس الأسلوب (٥).

كنا قد ذكرنا بأن المسلمين يتمتعون بمزاج معتدل، وقد خصصنا هذا الفصل للحديث عن أسلوب حياتهم وعاداتهم على المائدة، وأسلوبهم في إزجاء الوقت بمزيد من التفصيل.

يدخن المسلمون القليان حالما يستيقظون، ويحتسون فنجاناً صغيراً من القهوة، وبعد ساعة تقريباً، يتناولون طعام إفطارهم المؤلف من الخبز، والفاكهة، والعسل، واللبن، والجبن، والبيض، أو الكعك المصنوع بالزبدة، ويقدم أحياناً في الحرملك على مائدة صغيرة، إلا أنهم يتناولونه عادة في السلاملك.

ويمكث الأشخاص من الطبقة الرفيعة في البيت بعد الإفطار لاستقبال الضيوف، أو يخرجون هم أنفسهم لأداء الزيارات، وعندما يخرجون من البيت، ولا يرغبون في ركوب العربة ذات الدواليب، فإنهم يمتطون الخيل يرافقهم أربعة خدم، يسير اثنان منهم على كل

* الحادي (من فعل يحدو) هو الشخص الذي يسير أمام قافلة الجمال، ويطلق أصواتاً وأغاني لحث الجمال على السير (المترجم).

** الجنكنا: اسم يطلق على الغجر، وقد جاءت الكلمة من التركية وقد تكون محرفة عن الفرنسية أو الاسبانية: Tzigan والألمانية Zigaune (المترجم).

جانب. وتتم تهيئة الخيل بصورة رائعة، ويغطى السرج برداء يكاد يصل إلى الأرض، يكون كثير الزركشة أو مرصعاً بالفضة، وذا أهداب من الحرير تغطي رأس الخيل وجزءاً من رقبته، تكون على شكل شبكة، وتغطي قطعة من الفضة أو قطعة معدنية مطلية بالفضة، مرصعة بأزرار زينة وأهداب غزيرة تتدلى من الجانب وتغطي الصدر. وتكون جميع هذه التزيينات والزركشات جيدة الصنع، وترصع في بعض الأحيان بأحجار كريمة، أما السرج فهو من المخمل الأحمر، مضفور بالفضة من الخلف، أما الركاب فيكون من الفضة الصلبة.

ويُثَبَّت سيف على الطرف الأيسر من السرج، تحفر على نصله آية قرآنية، ويثبت على الطرف الأيمن سلاح حربي قصير يشبه شكل الدبوس. ويكون رأس السيف ومقبضه من الفضة المشغولة، أومذهّبة في بعض الأحيان.

يتم ترويض الخيول بشكل ممتاز، وهي تخب برشاقة، لذا يبدوا المسلمون الذين يُدرَّبون على ركوب الخيل وهم صغار في مظهر نبيل وهم يمتطونها. ويسيرون من البوابة الخارجية، حيث يترجلون، في أحذيتهم حتى باب الغرفة، إذ يقوم خادم بخلعه، ويحمل البابوج وهو مغلف بقطعة من القماش القرمزي اللون، وتصنع الأحذية من الجلد الناعم الأصفر، وتكون قصيرة وعريضة جداً بحيث تنزلق بسهولة فوق الشخشور. ويدخل بعض الأشخاص من الطبقة الراقية الحجرة وهم يرتدون أحذيتهم وينزعها الخدم لهم بعد جلوسهم على الأريكة.

يقف الباشا عند دخول أو مغادرة المفتي والقاضي ونقيب الأشراف وبعض كبار العلماء، بينما يستقبل جميع الزوار الآخرين وهو جالس، وينهض بعض الأشخاص البارزين للترحيب بضيوفهم أو لوداعهم، وما إن يأخذ الزائر مكانه حتى يظهر عدد من الخدم في العتبة، يتقدمهم رئيسهم (قهوجي)، يرتدي مئزراً واسعاً من الحرير، ويحمل طبقاً مستديراً، مغطى بقماش أحمر، توضع في وسطه دلة قهوة تحيط بها ستة فناجين صغيرة مقلوبة. ويتقدم الخادم الأول الذي يحمل منديلاً كبيراً إما أن يكون من الحرير أو منديلاً مزركشاً، نحو الأريكة، ويجثو على ركبتيه، ويفرش المنديل فوق ثوب الزائر، لكيلا يتلوث عرضاً. ويقدم خادم ثان، وبنفس الوضعية، حلويات* في طبق من كريستال مع ملعقة صغيرة يتناول بها الضيف الحلويات. وبعد أن يأخذ خادم ثالث الفنجان من الخواجه**، يكون مستعداً لتقديم القهوة، وهو لا يجثو على ركبتيه، بل ينحني قليلاً إلى الأمام، إذ ينحني أولاً، ثم يمد يده، ويقدم الفنجان بسرعة ومهارة لا تكتسب إلا بالتدريب، ويُحضر خادم رابع القليان وهو مشتعل، ويضع أولاً وعاء*** (للحفاظ على السجادة)،

* تتألف الحلويات من مربيات من ورق الورد المحفوظة والتي تُحمض قليلاً بالليمون أو كرز الوشنا (فيسنا)، زهر البرتقال، قشر البرتقال وأنواع أخرى من المربيات.

** الخواجة وهي كلمة غير عربية تعني الرئيس أو المسؤول، وهنا يقصد بالرئيس 'القهوجي' (المترجم)

***النيفادا: صحن مدور من القصدير أو الجلد القاسي يُرصع بالفضة، وينزلق بسهولة على السجادة. وهو ناتئ في الوسط ومبطن بالفضة لكي يحتوي حق القليان (القصبة) وبذلك يحافظون على السجادة من الاحتراق بالتبغ أو الرماد الذي قد يتساقط من القليان.

ولعل كلمة النفاضة المستخدمة الآن اشتقت من كلمة النيفادا التي قد تكون اسم 'ماركة' للصحن أو الحق الذي يذكره المؤلف أعلاه (المترجم).

يوضع فوقه حقّ القليان، ويقدم الطرف الآخر من القصبة بحركة سريعة بإحدى ذراعيه، في حين يضع يده الأخرى على صدره. وما إن تنتهي القهوة، يتقدم خادم يكون على أهبة الاستعداد لأخذ الفنجان الفارغ فيمسكه بين يديه الاثنتين، ويكون الكف الأيسر مرفوعاً إلى الأعلى. ويرفع خادم آخر، يكون جاثياً كذلك، المنديل عنه، وبعد أن يعاد الفنجان إلى الصينية، ينسحب الخواجه، بينما يبقى الخدم في العتبة، وهم يضعون يداً على الحزام، والأخرى فوقها في تواضع.

وفي أيام الأعياد، حيث يتعاقب الزوار باستمرار، يعرف الخدم متى يقدمون العطر للضيوف، إذ يحضرونه دون انتظار أوامر سيدهم، وفي أوقات أخرى، ينتظرون حتى يضع الضيف قليانه، أو يشير إلى أحدهم لإبعاده، ثم يرفع القليان والنيفادا، وبعد فترة قصيرة يدخل الخدم في موكب، فيفرش أحدهم منديلاً يختلف لونه عن المنديل السابق، ويقدم خادم آخر إناءً صغيراً من الشراب، ويمسك باليد الأخرى منديلاً مزركشاً من الشاش لتجفيف شفتيه، ويقوم ثالث برش ماء الورد أو زهر البرتقال على يدي الزائر من وعاء فضي ذي عنق طويلة (قمقم)، وبعد رفع المنديل، يحضر أحد الخدم مبخرة من الفضة إلى سيد البيت، الذي يخرج من جيبه علبة صغيرة تحتوي على عود الند، مقطعاً قطعاً صغيرة، فإما أن يذر قليلاً منه لوضعه على الفحم المشتعل، أو يضعه بنفسه في المبخرة، ويعتبر ذلك آخر جزء من مراسم عملية الترحيب بالزائر الذي ما أن يُعطّر حتى يستأذن بالانصراف، فيستقبله خدمه عند الباب، وبعد أن يرتدي حذاءه، يبتعد سيراً على الأقدام بين صفين من خدم البيت، الذين ينحنون له وهو يمر.

وإذا كان الزائر من مرتبة رفيعة جداً، يوصله المضيف حتى أعلى الدرج، ويفترقان عند الإيوان، وفي مناسبات خاصة، يُقدم للزائر حصاناً مزداناً، إلا أنه يكون في معظم الأحيان مكسواً بقماش فقط، وجرت العادة على تقديم هدية من الفرو، ثم يوضع رداء الفرو على كتفي الزائر في حضرة الباشا، وفي أثناء ذلك، يقول الشخص الذي يقوم بوضع الرداء كلمات من المباركة والدعاء بصوت عال

وفي زيارات المجاملة، يدور الحديث عن أمور غير ذات بال، وغالباً ما تكرر الإطراءات، وهي تتألف عادة من عبارات تتسم بالغلو والمبالغة، ويُعبّر عنها بجدية ورسمية باللغتين، ويكرر السؤال 'كيف حالك؟' عدة مرات، وبعد فترة طويلة من الصمت، يكررون ثانية 'ومرة أخرى كيف حالك؟'، وهذا شائع عند الأتراك والعرب على حد سواء إذ يقول الأتراك: 'فابير داهة نيدج كيفينيز؟' أما العرب فيقولون: 'وكمان كيفكم؟' ويليه السؤال 'شو هي الأخبار؟ وكيف الأحوال؟' وما إلى ذلك، أما الحديث في الزيارات العادية، فيكون أقل رسمية، وبالإضافة إلى الطقس والموضوعات العامة الأخرى، يدور الحديث حول الأخبار المحلية، وتروى قصص مسلية، وإذا شجع رجل مرموق على ذلك، أظهر بعض الضيوف مواهبهم في المزاح، وإذا رغب في الحديث، وجه الكلام إليه، وإلا فإن الموجودين يسلون بعضهم بعضاً، وإما أن ينضم إليهم من حين لآخر، أو يواصل تسليته، وذلك حسب المزاج الذي يكون فيه. وفي بعض الأحيان، يسود صمت مطبق، وبعد المجاملات الأولى، قلما تقال كلمة واحدة خلال الزيارة كلها، وبما أن الكبار يجلسون ساعات عديدة ويستقبلون الناس، فمن الضروري أن يتركوا ضيوفهم يتحدثون مع بعضهم، إلا أنه في الوقت نفسه لا يتم إهماله، إذ يروح ويجيء بعض المسؤولين وآخرين

ممن لديهم أعمال يرغبون في إنجازها دون مقاطعة الحديث، وهم إما أن يتحدثوا بصوت عال، أو يجثوا أمام الشخص المرموق، ويتحدثوا بصوت خفيض لكيلا يسمعهم الآخرون، أما الأعمال الخاصة الهامة، فتعقد في أوقات لا يسمح فيها للزوار بالدخول، ويمنح الباشا بانتظام مثل هذه اللقاءات للكيخيا أو الوزير الأول عند العصر*، ثم يطلب من جميع الأشخاص الخروج مهما كان مقامهم.

يتناول المسلمون طعام غدائهم، عند حوالي الساعة الحادية عشرة ظهراً في الشتاء، في حين يتناولونه في الصيف في وقت أبكر. وتحضر المائدة بالطريقة التالية: تفرش على قماشة مستديرة لحماية السجادة وسط الإيوان، وإما أن يوضع عليها حامل قابل للطي (يشبه شكله الصلبان التي تستخدم في الموائد الأوربية) أو كرسي صغير يقارب ارتفاعه خمس عشرة بوصة، لحمل طبق مستدير كبير** أو منضدة، تكون في بعض الأحيان من الفضة، إلا أنها تكون عادة من النحاس المطلي بالقصدير، وتصَفّ فوقها عدة أطباق بانتظام تحتوي على مخللات وسلطة ولبن وملح، وتوضع قرب الحواف من جميع الجوانب، قطع رقيقة من خبز شديد البياض وملاعق خشبية، أو مصنوعة من صدف السلحفاة وهم لا يستعملون سكاكين أو شوكات على المائدة، بل يستعملون أصابعهم بدلاً منها، ويكون اللحم المشوي عادة مشوياً كثيراً بحيث يقطع بسهولة شديدة، أو يقوم أحد الخدم بتقطيعه بسكينة أو خنجر، ويتناول كل ضيف طعامه، وإذا كانت كمية الطعام كبيرة جداً، فإن قطع الخبز تحل محل الصحون، وتفرش على الأرض منشفة من الحرير والقطن حول المائدة التي يضعها الضيوف فوق ركبهم عندما يجلسون.

بعد أن تعد المائدة بهذه الطريقة، يُجلب إبريق وطست*** لغسل الأيدي إلى لضيوف الذين يأخذون أماكنهم بعد أن يخلعوا ثوبهم الخارجي في الصيف، أو الفروة الكبيرة في الشتاء،، ويجلسون على باطن ركبهم وكواحلهم: وهي وضعية متعبة جداً للذين لم يتعودوا عليها منذ الصغر، أما بالنسبة للكثير من المسنين، الذين لا يرتاحون من هذه الوضعية، فإما يجلسون على حافة المرتبة، أو يستندون على وسادة مقلوبة، وجرت العادة أن يتمتم كل شخص بعبارة دينية قصيرة****.

تجلب الأطباق وهي مغطاة ويوضع الطبق تلو الآخر في وسط المائدة، بحيث يصل عدد الأطباق عشرين أو ثلاثين طبقاً، وتكرر نفس الخدمة مع اختلاف قليل في كل يوم. ويكون الطبق الأول عادة حساء (شوربة)، ويكون البلاو الطبق الأخير، وتتكون الوجبة بينهما من عدة أطباق، ويصل عدد قائمة الأطباق التركية التي أحضرتها معي من

* بين الثالثة والرابعة بعد الظهر.

** يقصد الصينية التي يوضع عليها الطعام (المترجم)

*** يصنع الإبريق من فوهة منحنية، ويكون الطست أو الطشت مستديراً ومسطح الشكل ذا غطاء مليء بالثقوب تصب فيه المياه الملوثة، ويمسكه الخادم بيد ويصب الماء باليد الأخرى ببطء من الإبريق، ويقدم خادم آخر منشفة.

**** يقصد البسملة التي يرددها المسلمون قبل البدء في تناول طعامهم (المترجم)

حلب إلى مائة وواحد وأربعين طبقاً، بالإضافة إلى الخشاف والكريمات والمربيات، وتشوى قطع صغيرة من لحم الضأن على أسياخ حديدية، مع شرائح من التفاح، أو الشوكي والبصل توضع بين كل قطعة من اللحم والأخرى، أو يفرم لحم الضأن ناعماً، ويعمل بشكل كرات ويشوى على الأسياخ كذلك ؛ ويسمى كلاهما كباباً، ويطهى لحم الضأن مع القرع والجذور والأعشاب واليخني، ولحم الدجاج، والحمام، وفي بعض الأحيان، طائر السماني، أو طيور صغيرة أخرى، ويتكون المحشي من لحم الضأن المفروم والأرز والفستق الحلبي، والكشمش* والصنوبر، واللوز، والشحم، والبهارات، والثوم، ويطهى في أشكال عديدة ويطلق عليه أسماء أخرى عديدة وذلك حسب نوع الخضار أو الفاكهة المحشوّة، من قبيل محشي الباذنجان، والخيار، أو القرع، كما يُلف في ورق العنب، أو السلق، أو الشوندر ويسمى عندئذ يبرق، ومن الشائع شيّ حمل بكامله مع لحمة مفرومة في الأعياد (خروف محشي)، وكنا قد ذكرنا سابقاً الكرات المصنوعة من البرغل، والتي تسمى كبه، فضلاً عن الأنواع الأخرى من القشدة، كما يوجد لديهم أنواع أخرى من الفطائر (السنبوسك)، وثمة طبق مؤلف من لحمة مفرومة مع حبات الرمان، تمد فوق رقائق، وتخبز على لوح حديدي (لحم العجين)، ونقانق مصنوعة بدون دم، وأنواع كثيرة من الحلويات (البقلاوة والكنافة والبرك)، وتصنع بالعسل أو الدبس، وهي لذيذة وشهية ويمكن تذوق طعم السمن العربي القوي فيها.

نادراً ما يتناول المسلمون السمك، وقلما يُجلب السمك البحري إلى المدينة إلا للأوروبيين، كما أنهم ليسوا مغرمين بالإوز أو البط، ورغم كثرة الطيور البرية المتاحة للصيد إلا أنها نادراً ما تقدم على المائدة.

تقدم عدة أنواع من المرطبات الباردة (بالوظة)** بعد تناول الطعام، لأنهم قلما يقدمون الفاكهة في ذلك الوقت، وفي النهاية يقدم صحن كبير من الخشاف، وهو عبارة عن تين مجفف،أ و كشمش، أو كرز، أو تفاح أو أي نوع آخر من الفاكهة التي تطهى وتترك مغمورة بالسائل. وهي تقدم باردة، وفي بعض الأحيان مجمدة، وتنتهي الوجبة ببضع ملاعق منها.

وهم لا يشربون أثناء الوجبات سوى الماء، وفي الغالب لا يشربون إلا بعد ساعة من العشاء، وهم لا يتبادلون الأنخاب، إلا أنهم يتمنون الصحة الجيدة للشخص بعد أن يشرب، سواء كان ماء أو شراباً، ويكون الرد على هذا الإطراء بلمس الصدغ الأيمن قليلاً، وتكون أصابع اليد ممدودة، متمنياً له دوام الصحة. وهم يجلسون على المائدة لفترة قصيرة، وعندما لا يرغب الشخص في تناول المزيد من الطعام أو يرغب في انتظار تقديم الخشاف، يمكنه النهوض دون أي إساءة للعادات، إلا أن المضيف غالباً ما يدعو إلى تذوق أطباق معينة، وتنقل أصناف الطعام بسرعة، لكي يتاح للضيف تناول مجموعة من الأطباق أكبر مما لو ترك الخيار له وحده.

بعد النهوض من المائدة، يعود الجميع للجلوس على الأريكة وينتظرون حتى

---

* زبيب لا بزر له (المترجم)

**بالوزة بالتركية والفالوزة بالعربية.

تُجلب المياه والصابون لغسل الفم واليدين، ثم يقدم القليان والقهوة بعدها.

إن الوصف المبين أعلاه يتم على موائد الكبار، أما الأشخاص من الطبقة الدنيا فيقدمون وجبة أقل بكثير؛ ونادراً ما يقدم أفراد الطبقة المتوسطة أكثر من ثلاثة أو أربعة أطباق، توضع كلها دفعة واحدة على الطاولة، وعندما ينتهي صاحب البيت من طعامه، يجلس الخدم، بعد أن يكونوا قد أحضروا القهوة والقليان، لتناول ما تبقى من الطعام، وبالطبع فإن عدد الأطباق يقل عند الطبقات الدنيا، إلا أنه باستثناء الأشخاص من أدنى الطبقات، الذين يعيشون كلية على الخضراوات، فإن نوعية الأطباق تكون نفسها تقريباً، أي تستخدم فيها التوابل والمقبلات بكثرة، وتكون كثيرة الدهن، وعادة ما تكون حامضة جداً بسبب عصير الليمون أو الرمان أو الحصرم.

ينسحب الأعيان بين الساعة الواحدة والثانية من بعد الظهر إلى الحرملك لأخذ القيلولة، ولا يعودون ثانية حتى الساعة الثالثة أو الرابعة، ويعتبر الحرملك ملاذاً لا يجرؤ أحد على التطفل عليه، إلا لأمر عاجل وهام جداً، لذلك فإن الأشخاص الذين يشغلون مناصب عالية، ينسحبون إليه غالباً كملاذ من إرهاق التعامل مع الناس، ويعتبر الجواب 'إنه في الحرملك' رداً كافياً لرد السائل المُلحّ اللجوج.

ويتناولون العشاء في الشتاء عند حوالي الساعة الخامسة، وفي الصيف عند السادسة، والفرق بسيط في الطعام بين تلك الوجبة والغداء، وغالباً ما يتناولون العشاء مع بعض الأصحاب، أو يقومون بزيارات ودية بعده، إلا أنهم نادراً ما يسهرون بعد الساعة العاشرة، وهذا ينطبق على الطبقة الراقية، وذلك لأن الآخرين يتناولون العشاء في البيت، ونادراً ما يشاهدون في الشارع بعد صلاة العشاء.

وهم يدخنون بدون توقف في هذه السهرات ويحتسون القهوة مرتين أو ثلاث مرات، وفي الشتاء يتناولون الكنافة أو أي نوع آخر من الحلويات، وثمة أمور عديدة تجعل من هذه السهرات أكثر امتاعاً وتسلية من تجمعات قبل الظهر، إذ لا يشوبها غالباً العمل، ويكون الأصحاب منتقين أكثر، ولا يقدم الشراب والعطور، ويكون الجو أقل رسمية.

نادراً ما يتحدث العثمانيون، الذين لا يكتسبون معارفهم عادة من الكتب، عن موضوعات ذات طابع أدبي، ولكي يُظهر العلماء معرفتهم، فهم يفاجئون في بعض الأحيان الموجودين ببعض الظواهر المثيرة للعجب عن الفيزيولوجيا، أو يروون حادثة تاريخية مثيرة للاهتمام، يكونون قد تعلموها من الكتب التي قرؤوها؛ أو ينتهزون فرصة ترديد بيت لأحد الشعراء، يطابق مقام الحديث، وهذا أمر يثير الإعجاب ويدعو إلى الاستحسان.

أما الأشخاص الذين تعلموا من مدرسة الحياة، فمن الطبيعي أن يأخذ الحديث عندهم طابع القص، إذ تشكل تجارب العثمانيين، الذين يرتقون في بعض الأحيان من أدنى المراتب إلى أعلى مناصب الدولة، مادة خصبة للمتعة، إذ يتذكرون بمتعة أحداث الماضي، والمصاعب التي واجهوها، والمخاطر التي نجوا منها، والصراعات التي خرجوا منها منتصرين بالإضافة إلى قصصهم وقصص أسيادهم ورفاقهم ومنافسيهم، وتتخلل أحاديثهم أفكار تنم على حياة خصبة دون سفسطة المدارس، ويجب الإقرار بأن قصصهم تكون مسهبة بشكل ممل، إلا أنه في جزء كبير منها، تظهر بأن الراوي شخص مطلع،

بحيث لا يمكن لشخص أوروبي أن يطلع عليها إلا في مثل هذه المناسبات، وفي الغالب تكون مسلية ومثيرة للاهتمام ويمكن استخراج عبر منها.

رغم أن المسلمين متحفظون نوعاً ما حول المواضيع السياسية، إلا أنهم لا يلوذون بالصمت، إذ أنهم يتكلمون بحماس عن انحسار في التدين، والأخلاق، وتزايد الرفاهية، وفساد الحكومة؛ وفيما يبدي المتكلمون احتراماً حذراً للإدارة الحالية، فإنهم يوجهون نقداً لاذعاً للإدارات السابقة، إلا أنه في هذا الأمر، كما هو الحال بالنسبة لجميع الآراء التي يمكن أن يختلفوا بشأنها، فإن الجدال يدور من كلا الجانبين بعصبية شديدة، وقلما يستمر الجدال طويلاً حتى يعبّر سيد البيت (إذا كان شخصاً هاماً) عن رأيه؛ فيخضع عندها معظم الحاضرين للرأي الذي يبديه ويوافقون عليه مهما كان.

إن عادة احتساء الخمر أو المشروبات الروحية ليست شائعة بين المسلمين في حلب، ولكنها شائعة في الآستانة كما يقال، وباستثناء الإنكشارية، فإن احتساءها منحصر إلى حد كبير بالأشخاص من الطبقة الرفيعة أو الوضيعة، أما الأشخاص من الطبقة المتوسطة، فلا يمارسون هذه العادة التي حرمها النبي محمد (ص) (في السنة الرابعة للهجرة، وتشمل الخمرة جميع أنواع المشروبات المسكرة، وقد ورد تحريمها في القرآن في أكثر من موضع).

إن المسلمين الذين يتعاطون الشراب، يفعلون ذلك بهدف الانتشاء، لذلك يفضلون عادة البراندي على النبيذ، وذلك لأن تأثيره أسرع بكثير، ولنفس السبب، تجرع الكمية في الزبدية، على دفعة واحدة أو دفعتين؛ ولا شيء يبدو لهم سخيفاً أكثر من عادة الأوروبيين الذي يشربون في كؤوس صغيرة يمضون فترة طويلة في احتساء زجاجة أو زجاجتين من النبيذ.

أما الأعيان الذي يتعاطون الشراب، فهم يشربون عادة وحدهم في الحرملك، ويحاولون إخفاء ذلك عن خدمهم، ولكن عبثاً، وعندما ترتكب خلاعة من هذا النوع مع مجموعة من الأشخاص، يكون دائماً في الليل، وعلى جانب كبير من السرية، أما الأشخاص من الطبقة الدنيا، مهما كانت سمعتهم، فهم مضطرون للقيام بذلك بحذر، لأنهم يتعرضون للعقاب عندما يكتشف أنهم سكارى، ولا يشرب على الملأ سوى الإنكشاريين، وبما أن عملهم يقودهم للتعامل مع المسيحيين واليهود، فيكون البراندي غالباً الرشوة الفعلية بدلاً من النقود.

يُعتقد بأن عادة الشرب، وخاصة بين العثمانيين، آخذة في الازدياد، وهم يتحدثون عنها فيما بينهم بشكل عام، بقدر أقل من الاحتقار كما في السابق، وبالإضافة إلى الكميات الكبيرة من المشروبات الروحية الفرنسية المستوردة من مرسيليا، يقال إن عدد أماكن التقطير ازداد في حلب خلال السنوات الأخيرة. ويتوقف الأمر على الكبار في قمع أو تشجيع هذه الرذيلة، وذلك بما يقدمونه من قدوة في ذلك، وعندما يكون الباشا، أو شخص هام آخر متعففاً عن الشراب، فإن أعوانه أو الذين يعملون بالقرب منه، يخشون الاقتراب منه خشية افتضاح أمرهم؛ أما إذا كان هو يتعاطى الشراب، فمن المألوف أن تجد نصف حاشيته يتحدثون عن روسوليس* كما لو أنهم يتحدثون عن القهوة.

---

* لعله نوع من المشروبات الروحية (المترجم)

ثمة قصة عن أحد سردارات حلب المدمنين على الشراب، الذي اعتاد على الانزواء في أحد البيوت الصغيرة القريبة من النهر داخل أحد البساتين القريبة من المدينة، لتعاطي الشراب.

فبينما كان عائداً من إحدى جلساته هذه في إحدى أمسيات الصيف، وفيما كان يعبر بالقرب من مقبرة مسيحية، شاهد مارونياً يجلس فوق أحد القبور الحجرية، وهو يدخن قليانه، وما أن لمح السردار من مسافة بعيدة حتى نهض ووضع قصبته جانباً، وحاول في أثناء ذلك أن يخبئ شيئاً في جيبه بسرعة، فأثار ذلك شكوك السردار، وكان الشيء الذي خبأه زجاجة عرق، فأوقف السردار حصانه، وأرسل أحد أتباعه لإحضار الشخص المدان للمثول أمامه. ولم يوجه السردار اللوم للشخص المسيحي لأنه كان يشرب على الملأ، بل هدده بإنزال عقوبة به على الفور لأنه ارتكب جريمة الشرب وهو جالس فوق أحد القبور. وعندما أقسم بالكتاب المقدس أنه لم يذق مشروباً قوياً منذ أسبوع، أمر السردار بتفتيش جيوب المسيحي، الذي كان قد احتاط لذلك ورمى الزجاجة الفارغة قبل الإمساك به. ثم أمر السردار شخصاً آخر من أتباعه لأن يشم نَفَسَه (زفيره)، فطلب الإنكشاري منه أن ينفث في وجهه، فتردد المتهم وهو يرتجف من الخوف في البداية، إلا أنه كان يعرف العقوبة التي ستحل به إن هو رفض الامتثال لذلك ففعل، فقال السردار 'كنت واثقاً بأنني سأكتشف أمر هذا اليهودي، أليست رائحته كريهة يا مصطفى؟ قرِّبه مني.. ألم تلحظ نفَسَه؟ فأجاب الإنكشاري نصف الثمل: 'إن وجود رائحة عرق قوية بيننا أمر لا شك فيه، ولكن لعنني الله إن كنت أستطيع التمييز فيما إذا كانت تصدر عنك ياسيدي أو عني أو عن هذا الكافر الملعون'.

ثمة أشخاص يجعلون القهوة والتبغ في مصاف الخمر، ويمتنعون عنهما من حيث المبدأ، إلا أنهم ليسوا كثيرين في حلب.

الملاحظات

(١) يُقسم البدو إلى قسمين رئيسيين، وهما البدو الذين يقطنون المدن والقرى، وأولئك الذين يعيشون دائماً في الخيام. ويطلق على القسمين أسماء مختلفة، إذ يطلق على القسم الأول 'العرب'، أهل الحضر أو أهل المدر، ويظن أن الكلمة الأخيرة مستمدة من كلمة مدر، بمعنى الطين، المادة التي تبنى منها البيوت. أما العرب من الفئة الثانية فيطلق عليهم الأعراب، أهل البدو، وهم سكان الصحراء، كما يطلق عليهم اسم أهل الوبر، وذلك لأن خيامهم مصنوعة من وبر الجمل.

(٢) في سنة ١٦٦٤، أقام دارفيو عدة أشهر في أحد مضارب البدو، وأتقن في ذلك الوقت اللغتين العربية والتركية، إلى حد مكنه من العمل كوكيل للأمير من حين لآخر. وإن روايته عن الأحوال والعادات المحلية لأولئك الناس دقيقة وصحيحة. ووصف الأعرابيات من الطبقة العادية، بأنهن يرتدين قميصاً من قماش أزرق، وحزاماً من الحبل أو الكتان وعباءة، ويلبسن حجاباً فوق الرأس يغطي الرقبة، والجزء السفلي من الوجه حتى الأنف، غير أن الفتيات يرتدين الحجاب، بحيث لا تظهر سوى عيونهن، وفي الصيف يخرجن حافيات، وفي الشتاء، يرتدين حذاء يشبه كثيراً الحذاء الذي يرتديه الرجال.

(٣) صادف دارفيو وهو في طريقه إلى حلب في تشرين الثاني ١٦٧٩، قوافل عديدة من التركمان، كانت متجهة جنوباً لتفادي الشتاء، فقال: 'كان الرجال راكبين ومسلحين برماح وأسلحة أخرى، وكانت الفتيات الشابات والأطفال يمتطون الجمال بالإضافة إلى أمتعتهم، بينما كانت النساء الأخريات يسرن على الأقدام، وكن يغنين ويغزلن وهن يمشين، أو كن يعملن أعمالاً حسب ما يسمح لهن مسيرهن عمله. وتسير الثيران والأبقار والجمال والخيول والمهور والأغنام والماعز في قطعان صغيرة، التي تقودها النساء وهن يغنين ويغزلن. وقد تبادلنا التحية بأدب، وبالفعل فهم ضرب جيد من البشر، يحبون الحياة السعيدة، ومغرمون بالحرية. ويمتطي الرجال الخيول باستمرار، ويتركون الشؤون الأخرى للنساء، وتقوم النساء على رعاية الخيول، وينشغلن طوال النهار في عمل أو آخر، مما يجعلهن قويات البنية لا يشعرن بالتعب، والتركمان أقل غيرة على نسائهم من بقية الشرقيين الآخرين. وقد تحدثت النسوة معنا بحرية ولم يخبئن وجوههن، وكانت الشمس قد لوحتهن كثيراً، أما ملامحهن فهي متناسقة وأسنانهن جميلة، وعيونهن تشع لهيباً، وقد أظهرن حيوية ومرحاً في حديثهن (المذكرات، المجلد٥، ص٥٠٣).

يتطابق الوصف الوارد أعلاه تماماً مع ملاحظاتي حول مجموعة كبيرة من التركمان التي صادفتها في سهول إنطاكية، وكانوا يقيمون مخيمهم على مسافة قليلة من خيامنا، وكان سلوكهم يتسم بالأدب الجم. وعندما جلسنا على طاولة في الهواء الطلق، أحاط بنا بعد العشاء عدد من نسائهم الصبايا والعجائز، وأمضينا وقتاً ممتعاً بالرد على أسئلتهن وملاحظاتهن. إن خيامهم مصنوعة من الكتان الأبيض، وحسب ما ذكر دارفيو، فهم أكثر أناقة بكثير في مضاربهم، وأكثر اقتصاداً واعتدالاً في غذائهم من البدو. ويعيشون باستمرار في الحقل، ويحترمون سيدهم الكبير، ويعملون في تجارة المواشي، وهم لا يسلبون المسافرين، بل يعاملونهم بحفاوة بالغة، وثمة قول شائع بين الشرقيين 'بأنك يجب أن تأكل مع الأعراب، وتنام مع التركمان'، الذين تزود خيامهم بمراتب ووسائل الراحة الأخرى (الرحلة إلى فلسطين، ص١٢١).

يذكر بيتر تيكسيريا في رحلته من بغداد إلى حلب (كانون الثاني ١٦٠٥) في أحيان كثيرة التركمان ويقول: 'وأغنامهم، وجمالهم وبغالهم في الجوار. والبيوت جميعها مستديرة والأسطح مقببة، والهيكل من الداخل من الأعمدة أو القصب، تكسوه أغطية من اللباد من الخارج. وهي جميعها قابلة للنقل، ومصنوعة بشكل يمكن فكها وحملها على الجمال من مكان لآخر. وكان بعضهم نظيفاً جداً وفضولياً، وهؤلاء التركمان أتراك حقيقيون ومصممون في أي عمل، ويعيشون على سلالة مواشيهم الخاصة بهم، وإذا صادفوا أي فرصة للسلب لم يدعوها تفوتهم، ونساؤهم لا تختبئ، لكن خلقهن صلب لا يلين، ويعتنين بشكل عام بالماشية، وهن يرتدين ثياباً تشبه كثيراً الغجر Galicians في اسبانيا، ويرتدين جميعهم جزمات من الجلد، وثياباً طويلة جداً، ويضعن لفاعاً على رأسهن بشكل هرم. (ستيفينز 'مجموعة الرحلات'، مجلد٢، ص٥٨).

(٤) يقول بوكوك (Pockock) إن الرشوانيين ضرب آخر من البدو، يبدؤون بالانتقال في الشتاء مع مواشيهم من أرضروم باتجاه مصب الفرات في Capedocia القديمة، ويتجهون جنوباً حتى دمشق، وفي الصيف يعودون مع القافلة إلى حلب. وقد سافرت مع بعضهم، ويبدو أنهم أناس طيبون (وصف الشرق مجلد١، ص٢٠٧).

يعتبر الرشوان قبيلة من الأكراد الرحل، والآخرون المعروفون في حلب هم الذين يعيشون في جبال بيلان وكلس، ويغيرون على الأرياف في السهول، ويظهرون في بعض الأحيان بأعداد كبيرة.

(٥) يذكر دارفيو ضرباً من البدو يعيشون في الإسكندرية يشبه أسلوب حياتهم حياة الغجر في فرنسا. إذ يقيمون معسكرهم بين شاطئ البحر وأسوار المدينة، ويعيشون في خيام، ويختلط الرجال بالنساء والأطفال ومواشيهم بعضهم ببعض. وترتدي النسوة منهم قطعة طويلة من البوركان الأبيض، في حين يخرج أطفالهم عراة تماماً في جميع الفصول. لاروك (رحلة إلى فلسطين، ص١١٩).

'يوجد الجنكنا الذين ينتشرون في أرجاء العالم تقريباً بكثرة في شمالي سورية. ويعيشون في الخيام وفي بعض الأحيان في المغارات تحت الأرض. ويصنعون نوعاً من السجاد الخشن للمنازل والسروج والاستعمالات الأخرى. وعندما يكونون قريبين من المدينة، يبيعون حليب الأبقار. ويتمتعون بشخصية أفضل بكثير من أقربائهم في هنغاريا أو الغجر في إنكلترا، الذين يعتقد البعض أن أصلهم يعود إلى نفس القبيلة'. بيكوك (وصف الشرق، المجلد١، ص٢٠٧).

(٦) يصور م.دوليو M. du Liot تبادل الأنخاب عند المسلمين على المائدة ويقول إن الشخص الذي يُشرب في صحته، يقدم مقابل ذلك قطعة من الفاكهة أو الجبن (الرحلات، ص١٦٨، باريس، ١٦٥٤).

ويمارس المسيحيون شيئاً من هذا القبيل، أما المسلمون في حلب، فهم لا يتبادلون الأنخاب إلا نادراً. فعندما يشرب المرء، سواء على المائدة أو بعد تناول الطعام، فإن الشخص الجالس بجانبه، أو صاحب البيت، إذا لاحظ ذلك، يضع يده اليمنى على القلب (الطريقة المعتاد في التحية) ويتمنى له صحة طيبة ويقول بالتركية 'أسيات أولا' و'صحة' أو 'صحة وعافية' بالعربية. ويرد على هذا الإطراء على الفور بعد أن يشرب الشخص، ويرد على ذلك بلمس الصدغ الأيمن مساً خفيفاً ويقول: 'معمر أول' بالتركية أو بالعربية 'الله يطول عمرك' أو تعبير آخر بالأمنيات الطيبة.

وفي وصفه عن الزيارات الرسمية، يقول إن العطر يقدم أولاً ثم الشراب وأخيراً القهوة. وهو أمر أظن أنه من بين أمور غير دقيقة، وليس اختلافاً محلياً في العادات. (الرحلات، ص١٦٩).

وإذا كانت الرواية التالية عن المائدة عند المسلمين بقلم Symon Simion صحيحة، فإن المسلمين قد أحرزوا تقدماً حضارياً كبيراً منذ عام ١٣٢٢م:

'يجلس سلطان مصر (استناداً إليه) لتناول طعامه على الأرض غير مراعٍ للنظافة شأن جميع المسلمين.

ولا يشاهد في قصره طاولة لتناول الطعام، أو كراسي أو فوطة للطعام، وبدلاً من الطاولات، توضع صواني من الذهب أو الفضة مرتفعة قليلاً عن الأرض، ويوضع الطعام في صحون كبيرة واسعة من الفخار. ويتحلق الضيوف في دائرة، ويلتهمون طعامهم كالحيوانات، ويلعقون أصابعهم، ويبللون ذقونهم ويفعلون أموراً أخرى لا يمكن وصفها، حتى يملؤوا بطونهم. ثم ينهضون وهم مبللون بالشحم، ويعقبهم آخرون فيلتهمون ما تبقى من الطعام بنفس الطريقة (رحلات سيمون سيميون، ص ٤٧، كانتبريري ١٧٧٨).

تجدر الملاحظة هنا أن حماس هذا الحاج الورع ينكر حتى على الكفار أنهم يضعون فوطة للطعام لمسح أصابعهم، ولكني عرضت النص كمثال عن سوء التصوير لأساليب مختلف الطبقات في وصف عام واحد. وإنه من المرجح أنه لم تتح لهذا الحاج فرصة رؤية السلطان وهو يتناول طعامه أبداً؛ وذلك لأن أسلوب الطعام الذي يصفه لا يمكن أن يتعلق بموائد أشخاص من الطبقة الراقية، كما أنه لا يمكن إدانة الطبقة الدنيا من المسلمين على هذا الإهمال التام للنظافة.

يقدم بوستل (Postel) رواية مختلفة وكان يعتقد أن وصفه للمائدة عند المسلمين وأسلوبهم في الاستضافة يبين تأدب الناس من الطبقتين الراقية والمتوسطة؛ (ويواصل كلامه) أما بالنسبة للطبقة الدنيا فهم يتناولون الأرز ولحم الضأن على قطعة مستديرة من الجلد تسمى 'السفرة' وهي بمثابة السلة والطاولة والفوطة والكيس، وتغلق كمحفظة بخيط من الجلد، ويكون لها عادة حلقة حديدية'. (جمهورية الأتراك الخ ص٢١، ٢٥، بواتييه ١٥٦٠).

كما يذكر رادولف هذه السفرة الجلدية التي يحمل فيها كل شيء كما لو أنها كيس، ويضيف 'إن الأغنياء يضعون قطعة من الكتان القطني الناعم حول أعناقهم، وتعلق إلى الأسفل، أو تعلق عند حزامهم الحريري، التي يستخدمونها بدلاً من الفوط'. Ray (مجموعة من الرحلات الغريبة الخ. ص٧٣، لندن، ١٧٣٨).

ومن المؤسف أن الرحالة المعاصرين لم يحذو حذو بوستل في تمييز مختلف الطبقات التي يصف أساليبها وخلافه في الأمور التي لم تتح له فرصة رؤيتها بدقة. (ويقول) أعتقد أن موائد السيدات تكون بنفس أسلوب الرجال، إلا أننا لا يمكننا رؤيتهن وسواء كن يرقصن أم لا فهذا أمر لا داعي معرفته، إلا أني سمعت أنهن يفعلن ذلك (جمهورية الأتراك، ص١٦).

الفصل الرابع
عن السكان المسلمين في حلب

الاحتفالات الدينية، الأعياد، العيد الكبير، الاحتفالات في العيد الذي يعقب رمضان، الوضوء والصلاة، ارتياد الجامع، المآذن، الحج، الوضوء، الزكاة، النساك أو الزهاد، الدراويش، المشايخ الجوالون، المعتوهون والمجاذيب، المسلمون غير متحمسين للدعوة، التسامح في تركيا، نظرة المسلمين إلى الديانات الأخرى، المخصيون، الخلوة أو الاعتكاف، الجرد، شخصية المسلمين، الرق في تركيا، الضيافة، الأتراك أناس يلزمون بيوتهم، الحلبيون قلما يسافرون.

لا أهدف في هذا العرض الذي سأقدمه عن ممارسات الأتراك الدينية إلى الحديث عن الدين الإسلامي بالتفصيل. بل سأقتصر على التطرق بشكل مقتضب إلى الأمور الإيجابية العديدة الواردة في القرآن، والتي يبدو أنها تؤثر على المظاهر الخارجية للسكان. وإذا رغب القارئ في إجراء دراسة موسعة عن العقيدة الدينية التي انتشرت بصورة كبيرة في الكرة الأرضية، فيمكنه الرجوع إلى المؤلفين المذكورين أدناه (١).

لا يوجد شيء ديني عند المسلمين يماثل الصوم الكبير عند المسيحيين؛ إذ يتمثل صيامهم، شأن صيام اليهود، في الامتناع عن الأكل والشراب. ويكمن صومهم الرئيسي في تغيير وقت تناولهم إفطارهم من النهار إلى الليل. والصيام مفروض على الجميع، بيد أنه يمكن عدم التقيد به في حالات المرض، أو حدوث أي عائق مسوّغ آخر، شريطة صوم عدد مماثل من الأيام في وقت لاحق عندما تسمح الظروف بذلك. وبشكل عام، يلتزم كلا الجنسين بالصوم على نحو دقيق.

لا يتناول المسلمون طعاماً ولا يشربون ماء ويمتنعون عن تدخين التبغ؛ حتى إن الأشخاص الأكثر تديناً يمتنعون عن شم زهرة، وذلك منذ الفجر، وحتى الغروب خلال شهر رمضان كله، وبما أن هذه الفترة مخصصة للعبادة، فقلما تعقد صفقات قبل الظهر، ولا تفتح المحلات في الأسواق إلا في وقت متأخر من النهار، ولا يخرج الأشخاص ميسورو الحال من بيوتهم معظم الوقت. وهم يعانون بشكل رئيسي من عدم احتساء القهوة وتدخين التبغ؛ أما الأشخاص الذين تستدعي ظروفهم التجوال والعمال المياومون، فيتعرضون للحرارة والبرد، ويعاني الكثير من التجفاف أو الجوع، ولذلك، عندما يأتي رمضان في الشتاء، يكون قاسياً جداً على الفقراء. ويأتي رمضان بشكل متعاقب في كل موسم من السنة، ويحسبه المسلمون وفق الأشهر القمرية، ولا يسمحون (كما يفعل اليهود) أن يتطابق حسابهم مع المواسم، وبهذه الطريقة فهم يفقدون أحد عشر يوماً في كل سنة شمسية، لذلك، فإن شهر رمضان يتقدم نفس عدد الأيام تقريباً في السنة في كل عام. أما في شؤونهم المدنية، وكما هي الحال بالنسبة لإيجار المزارع أو الجمارك، فهم يحسبون بالأشهر الإغريقية التي تماثل التقويم اليوناني (الشرقي الميلادي).

يحتسي الناس خلال شهر رمضان كوباً من القهوة أو جرعة من الماء البارد عند الغروب، ويجلسون لتناول الإفطار بعد الصلاة، ويوجد فاصل بين ساعتين وثلاث ساعات بين المغرب والعشاء، وفاصل آخر، وذلك حسب الفصل، بين العشاء والسحور. ويجول الحراس في الشوارع، ويعلمون الناس عن انتهاء الليل* بواسطة قرع طبلات صغيرة**.

تضاء الأسواق بعدد لا يحصى من المصابيح، وتبقى المحلات مفتوحة إلى وقت متأخر من الليل، ولا تغلق المقاهي والحمامات إلا مع اقتراب الفجر، وبما أن المسيحيين واليهود يستجيبون لهذا النشاط الليلي، فإن الشوارع تمتلئ بخليط من الناس. وبالاختصار ينقلب الليل إلى نهار، ويتبادل المسلمون عدداً أكبر من الزيارات، وينفقون أموالاً أكثر خلال شهر رمضان من أي وقت آخر من السنة.

تعاني النساء في رمضان أكثر من الرجال، وذلك لأنهن لا يستطعن التجول مثلهم في الليل، وفي النهار فقلما يسمح لهن بالخروج إلى الشارع.

عندما لا يوجد عائق ديني يحول دون الصيام، فإن غالبية الناس يلتزمون به، وغالباً ما ينتهكه العساكر الفاسقون، وبعض العثمانيين الفاسقين؛ إلا أنهم يلتزمون بقدر من الاحترام مظاهر اللياقة الخارجية، ويرتكبون مآتمهم في السر.

يعقب رمضان عيد يتألف من ثلاثة أيام متواصلة، ويعلن عن بدئه بواسطة مدافع القلعة فور رؤية القمر الجديد، وبعد أن يقوم الشخص الذي شاهد القمر بأداء القسم في المحكمة، وعادة مايأتي هذا الشخص من إحدى القرى، يحصل على مكافأة لقاء ذلك وهي عبارة عن ثوب من القماش.

تبقى معظم المحلات مغلقة طوال أيام العيد الثلاثة، وتتوقف الأعمال بالكامل خلاله، وتنصب عند بوابات المدينة قلابات وخيول طائرة؛ وتقام دكاكين خشبية صغيرة تباع فيها الألعاب والفاكهة في أسواق مكشوفة (كما هي الحال في الأسواق في بريطانيا)، حيث يقوم الراقصون على الحبال والمصارعون والحواة والصبية الراقصون بأداء عروضهم، وكما كان يفعل العداؤون القدامى، يدهن المصارعون أجسامهم وأطرافهم بالزيت، ولا يرتدون سوى سراويل رقيقة، ويبقون عراة تماماً من الوسط حتى الأعلى، ويختالون في مشيتهم أمام الناس قبل بدء الاشتباك، ويصفقون بأيديهم، ويطلقون عبارات مفعمة بالتهديد والوعيد، إلا أنهم يظهرون أسفهم عندما يبدؤون المصارعة.

أما الحواة فهم أكثر خبرة في عملهم، ويرافقهم صبي يقوم بدور المهرج أو البهلول، ويؤدي مقاطع بين فترات العرض لتسلية المشاهدين، ولا يكون لديهم طاولة، بل يجلسون على الأرض دون أن يرتدوا مئزراً، وتكون أذرعهم عارية حتى المرفق، وهم حاذقون في لعبة الفناجين والكرات، ويؤدون حيلاً عديدة بالثعابين الحية، وتسمع الموسيقى في غضون ذلك، وفي هذه المناسبة يرفل الجميع في ثياب جديدة، وتحتشد الشوارع بشكل غير اعتيادي بأعداد غفيرة من كلا الجنسين وهم يتجولون من مكان إلى آخر.

---

* يقصد المؤلف قرب موعد الإمساك عن الطعام (المترجم).

** دبدب

أما علية القوم فيلزمون بيوتهم لاستقبال الزوار معظم اليوم الأول، ويقدم المسيحيون واليهود تهانيهم بالإضافة إلى المسلمين، ويُطلب من طبقة معينة من الزوار الجلوس بعد تقديم تهانيهم، وتقدم لهم القهوة والشراب، أما التابعون من الطبقة الدنيا فلا يجلسون في حضرة سيدهم، بل يقبلون يده أو كم ثوبه، وينسحبون إلى السلاملك حيث يحتسون القهوة. وتتمثل التهنئة المعتادة في القول 'عيد مبارك، وكل عام وأنتم بخير'، ويحييّ المسلمون بعضهم في الشارع بهذه الطريقة، وإذا كانت علاقتهم حميمة أكثر، فيتعانقون بشكل يلامس أحدهم بذقنه رقبة الشخص الآخر.

وفي الأيام التالية، يقوم علية القوم بزيارة بعضهم بعضاً، ويظهرون في أبهى حلة عندما يخرجون: ويرتدي أفراد حاشيتهم ثياباً جديدة، وتزدان خيولهم بصورة فاخرة، وتتواصل الأفراح والمهرجانات في السراي، وتطلق الألعاب النارية في كل ليلة لإدخال البهجة إلى نفوس الناس.

تبقى أبواب بيوت أغوات المدينة مفتوحة خلال أيام العيد الثلاثة، ويقدمون هدايا إلى أتباعهم ويوزعون أقواتاً ومالاً إلى الفقراء ويتصرف الأتراك من جميع الفئات بحرية أكبر في هذا الموسم الاحتفالي.

كما تحتفل النساء بهذه المناسبة، إذ ترسل النساء تهانيهن إلى قريباتهن، ويتبادلن الزيارات، ويقدمن الهدايا إلى الأطفال.

وبعد رمضان بشهرين وعشرة أيام، يحل عيد آخر يسمى عيد الأضحى، يدوم كذلك مدة ثلاثة أيام وذلك اعتباراً من اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو اليوم الذي يقدم فيه الحجاج في مكة أضحياتهم في جبل منى. وفي الصباح الباكر من أول يوم من أيام العيد، تذبح خراف كثيرة عند باب السراي، وأمام أبواب عدد من علية القوم، وتوزع اللحوم على الأهالي، وقبل أسبوع من العيد، يمكن مشاهدة الأطفال وهم يسوقون الحملان في الشوارع لبيعها في البيوت الخاصة.

إلا أنه لا يقدم جميع الأهالي الأضاحي، أما في مكة فيعتبر ذلك من أكثر شعائر الحج أهمية، وفي أماكن أخرى، يكون تأثير هذا العيد أقل على عامة الناس من العيد السابق، لأنه يحتاج إلى تحضيرات أقل، إذ يكون الناس قد تزودوا بثياب العيد، وتكون التغيرات في المناصب الكبيرة التي تحدث سنوياً بعد رمضان قد تمت، ولا ينتظر الناس هذا العيد بفارغ الصبر ولا يحتفلون به بنفس البهجة والبهاء الذي يبدونه تجاه العيد الصغير. ولا يطلق المسلمون في حلب على العيد الذي يلي رمضان العيد الكبير، فإما أن يسموه *العيد الصغير* أو عيد *الفطر*؛ في حين يطلقون على العيد الثاني اسم *العيد الكبير* أو عيد *الأضحى*، ويجدر الملاحظة إلى أنه عندما يتحدثون عن العيد دون ذكر نعت له، فهم يقصدون بذلك على الفور العيد الذي يلي رمضان(٢).

بالإضافة إلى صوم رمضان، يفرض المسلمون من كلا الجنسين على أنفسهم صياماً طوعياً آخر(٣)، إلا أن ذلك النوع من العبادة ليس شائعاً كثيراً؛ إذ أن شدة التقشف

لا تتماشى مع روح دينهم، ولا يشجع عليه القرآن*.

يعتبر المسلمون بصورة عامة أناساً نظيفين، ويعزى ذلك في أحد أسبابه إلى فرض الوضوء قبل الصلاة، ويؤدون الصلاة خمس مرات** في أوقات محددة خلال الأربع والعشرين ساعة. وإذا ما حالت عوائق دون أدائها، فيعوضونها في وقت لاحق. وقبل الصلاة يقومون بغسل الوجه واليدين والقدمين، ويسمى ذلك الوضوء. وفي مناسبات معينة، يطلب منهم غسل الجسم كله، ولهذا السبب يتعين عليهم الذهاب إلى الحمام حيث يتوضؤون.

وعند الوضوء فإن الأشخاص من الطبقة الراقية لا يخلعون الشخشور دائماً، ولا يصبون الماء على أقدامهم العارية، ويكتفون بلمس المست مساً خفيفاً مرتين أو ثلاث مرات بأصابعهم المبللة؛ أما عامة الناس الذين لا يرتدون الشخشور، أو يرتدونه دون خياطه بالمست، فيغسلون أقدامهم دائماً، ولا يعتبر المسلمون الوضوء مجرد طقس من العبادات الخارجية، بل يسمونه الطهارة، ويتحدثون عنه باحترام زائد (٤).

ليس الوضوء هو الذي يرغم المسلمين على استعمال المياه بهذا الشكل المتكرر فقط؛ بل إنهم يغتسلون قبل تناول طعامهم وبعده؛ ويحملون إبريقاً معهم دائماً عندما يختلون بأنفسهم، ويترددون كثيراً على الحمام باختيارهم وبداعي الضرورة، وهم يصلون بورع ظاهر. وأثناء الصلاة يركعون حيناً، ويسجدون عدة مرات، وتلامس جباههم الأرض عند سجودهم (٥). وعندما يصلون في البيت، يخلعون الفروة الكبيرة، ويبقون بالجبة فقط، ويغير في بعض الأحيان الأفندية عمامتهم الكبيرة بأخرى أخف وزناً، وتمد سجادة ضيقة صغيرة (يحتفظون بها لهذا الغرض) على الإيوان، ويتوجهون في صلاتهم دائماً نحو القبلة أي إلى بيت الله الحرام في مكة (٦).

بالإضافة إلى الصلوات التي فرضها القرآن، والتي تعتبر أمراً إلهياً، يتوجه السنيون بصلاة الاستسقاء في بعض الأحيان، للخلاص من الكوارث والمحن العامة وماشابه ذلك، ويخصص بعضها الآخر للأعياد والجنازات، ونعني بالسّنة (كما ذكرنا للتو) أعمال النبي وأقواله غير الواردة في القرآن، والتي حفظت في البداية شفهياً ثم تم تدوينها فيما بعد.

يؤم المسلمون الجامع مرتين أو ثلاث مرات في اليوم: عند الظهر والعصر والمغرب. وهم يصلون صلاة الظهر بشكل رئيسي في المسجد، في حين يصلون في الأوقات الأخرى حيثما كانوا، إذا سمعوا الأذان من المآذن. ومن الشائع أن تراهم وهم

---

* أنظر القرآن (الآية الخامسة، ص ٩٤) وملاحظات Sales حول الفقرة.' اتفق عدد من أصحاب الرسول (ص) على الاستمرار في الصوم تقليداً لبعض النصارى المنكرين للذات. إلا أن الرسول (ص) لم يوافق على ذلك وقال إنه لا رهبنة في الإسلام.

** إن الصلوات الخمس هي: صلاة الصبح، صلاة الظهر، صلاة العصر، صلاة المغرب، صلاة العشاء. وحسب الرأي الشائع فإن العصر هو الفترة الواقعة بين صلاة الظهر والعشاء. وكما قيل لي فإن طريقة الحساب تكمن في ترك فترة من الزمن بعد صلاة الظهر تقدر بنفس الزمن الواقع بين صلاة الصبح والظهر.

يصلون في حوانيتهم، وإذا طلب منهم طلبٌ على عجل ردوا عليه بإشارة دون أن تبدو عليهم علائم الحيرة أو الارتباك، إلا أنهم لا يجيبون.

وفي مناسبات معينة، يتوجه الباشا إلى الجامع مع حاشيته، وتضاء الأسواق التي يمر فيها، ويرافقه ضباطه وهم يمتطون الخيول، إلا أنهم يترجلون جميعهم عند باب الساحة، أما الأشخاص الآخرون من الطبقة الراقية، فيذهبون مشياً على الأقدام إلى الجامع، ولذلك يفضلون عادة التوجه إلى أقرب جامع لهم. وعندما لا يذهبون إلى الجامع يصلون في البيت، فينادي الإمام لإقامة الصلاة في البيت، ويؤدي الآغا وضباطه وخدمه الصلاة، وكما يفعل في الجامع، يؤم الإمام المصلين جميعهم، فيتلو جزءاً من الصلاة بصوت عال، وعندما يسجد، يسجد الجميع وراءه في وقت واحد وبحركة واحدة. وعندما يصلي المرء وحده في البيت، فإن صلاته لا تجعل الذين يجلسون معه يتوقفون عن الحديث، إلا إذا كانت المجموعة كبيرة، أو يكون الأشخاص مجتمعين لغرض معين، فإما أن ينسحب إلى غرفة أخرى ليصلي فيها، أو يؤجل صلاته إلى وقت آخر.

يعتبر يوم الجمعة أكثر أيام الأسبوع تكريساً للعبادة، إلا أن معظم الحوانيت تبقى مفتوحة ما عدا ساعة واحدة عند الظهيرة، وعندما يفرغ الناس من صلاة الظهر، يعودون لمزاولة أعمالهم الاعتيادية، ولا يعقد بعض كبار التجار صفقات تجارية بينهم في ذلك اليوم، رغم أنهم يتركون أتباعهم يقومون بذلك.

من المعروف أن استخدام الأجراس الكبيرة محظور تماماً في تركيا، ويدعى الناس إلى الصلاة بواسطة أشخاص يصعدون إلى شرفة المئذنة في أوقات محددة، وينادون لإقامة الصلاة بإنشاد أدعية معينة، ويدعى أولئك *المؤذنون*، ورغم أنهم يلحقون بجوامع محددة لهذا الغرض، فلا يكونون دائماً من الطبقة الدينية، بل غالباً ما يتم اختيارهم بسبب حلاوة صوتهم. وبما أنهم يتقاضون أجوراً زهيدة جداً، فإنهم يواصلون أعمالهم الخاصة. ويوجد لكل جامع عادة شخص يؤذن، ويدور ببطء حول شرفة المئذنة، ويوجه صوته إلى جميع الأحياء، أما الجامع الكبير ففيه ثلاثة أشخاص يؤذنون في وقت واحد.

ويقال إن الوليد الذي أصبح خليفة في سنة ٨٦ للهجرة هو أول من بنى أو ألحق المآذن بجميع الجوامع*.

يبدأ يوم الراحة منذ ليلة يوم الخميس، عندما تضاء جميع منارات الجوامع بصفوف عديدة من المصابيح التي تعلق حول الشرفة؛ كما ينار صف أعمدة الجوامع، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف من بعد ظهر يوم الجمعة، يبدأ المؤذنون بالأذان من المآذن، ويزداد عددهم في ذلك اليوم زيادة كبيرة. وعند الظهر يتوجه الجميع إلى الجامع، حيث تتم صلاة خاصة بذلك اليوم و يلقي الإمام خطبة.

لا تضاء المآذن في ليالي الخميس فقط، بل تضاء كذلك في جميع ليالي رمضان، وخلال العيدين وفي احتفالات أخرى أقل شأناً، وفي مناسبات سارة أخرى كمولد الأمراء.

---

* يسمى النداء إلى الصلاة 'أذاناً' وتسمى المنارة 'مئذنة' ويطلقون عليها عادة 'مادنة' وتسمّى كذلك 'منارة'.

بالإضافة إلى هذه الإضاءة، فقد جرت العادة أن يطلب بعض الأشخاص إضاءة إحدى المآذن على حسابهم الخاص عندما تردهم أخبار طيبة من أقارب غائبين، أو عند رجوعهم من رحلة طويلة. ويطلبون من جوقة مؤلفة من خمسة أو ستة مؤذنين الإنشاد من فوق المئذنة، ويتم اختيار أقرب جامع لهذا الغرض، وتصعد الجوقة حالما يحل الظلام، ويواصلون الإنشاد لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات بدون توقف، وتختلط أصوات الغناء الصادرة عن المقهى والتي يمكن سماعها من مسافة بعيدة بأصوات الأناشيد. وفي غضون ذلك تجتمع النسوة في البيت ويحتفلن بطريقتهن الخاصة؛ وتعزف لديهن الموسيقى، ويستجبن إلى الإنشاد من المئذنة بإطلاق زغاريد عالية. وينتهي المنشدون من إنشادهم عند صلاة العشاء، إلا أن النسوة يواصلن الغناء والاحتفال حتى منتصف الليل. وتضج المدينة كلها بهذا الصخب المفعم بالبهجة عندما ترد أخبار من قافلة مكة وعند عودة الحجاج.

يقال إن عدد الحجاج الذين يتوجهون من حلب إلى مكة أقل بكثير مما كان عليه في السابق، وقد يعزى ذلك في جزء منه إلى تدني الروح الدينية، ولكن السبب الأهم يعود إلى تدني التجارة مع مكة؛ لأن التجار كانوا يسافرون عدة مرات في حياتهم في الماضي. وكانت القوافل تعود وهي محملة بالبضائع من الهند والجزيرة العربية، علماً أن القرآن يبيح التجارة خلال الحج.

بالإضافة إلى الحلبيين الذين يتوجهون إلى مكة، تلتقي في المدينة أعداد كبيرة قادمة من بلاد فارس والأقاليم الشمالية، وهم في طريقهم إلى دمشق التي تعتبر أكبر نقطة تجمع للحجاج الآسيويين، وتنطلق القافلة إلى دمشق بعد انتهاء العيد الصغير مباشرة. وبعد التقاء القوافل من المدن الأخرى، تواصل مسيرها بقيادة باشا دمشق، الذي يعين دائماً (على الأقل منذ سنوات عديدة) أميراً للحج.

يقود الوالي وكبار القوم موكب القافلة لمسافة أميال عديدة عند انطلاقها من حلب، ويرافق الكثير من الحجاج نساؤهم وأقاربهم إلى مسافة أبعد من ذلك. ويسود الموكب هرج ومرج وهو في طريقه إلى دمشق لعدة أيام بعد العيد. وبعد انطلاق القافلة من دمشق، توفر لها الحماية اللازمة من إغارات بدو الصحراء عليها ؛ و قد تتعرض كذلك لشح المياه، عندما تضطرها المشاحنات والاقتتال بين البدو أنفسهم إلى تغيير طريقها المعتاد لتفادي الوقوع في وسط القبائل المتنازعة، إذ تتوقف سلامة القافلة على الاتفاق الودي بين القبائل أكثر من قدرتها على المقاومة. فقد أدى الهجوم على قافلة الحجاج ونهبها في سنة ١٧٥٧، الذي ذكره السيد جيمس بورتر، عندما كان وزيراً في الباب العالي، إلى إثارة فزع كبير في الأستانة، وأودت بحياة آخر الباشاوات القدامى، الذي استمر أميراً للحج لفترة اثنتي عشرة سنة متعاقبة، والذي اعتبره عامة الناس قديساً نتيجة لذلك*.

يطلق على الأشخاص من كلا الجنسين ممن أدوا شعائر الحج اسم *حاج*؛ وعند الكتابة أو في مناسبات رسمية أخرى يسبق هذا اللقب اسمهم، إلا أنه وباستثناء عدد قليل من التجار، فإنه نادراً ما يطلق هذا اللقب على الأشخاص فوق الطبقة الوسطى أثناء

* ربما قصد بورتر أسعد باشا العظم والي دمشق في ذلك الحين (المترجم).

الحديث العام، وتسود فكرة خاطئة بأن الحجاج، نتيجة احترام خاص، معفون من عقوبة الإعدام، بل إنهم يخضعون في جميع الحالات للقوانين شأن بقية المسلمين، بل حتى إذا أدان القاضي مجرماً يرافق القافلة المنطلقة إلى مكة، فينفذ فيه حكم الإعدام.

فرض الحج في السنة السادسة من الهجرة، إلا أن زيارة الكعبة أو البيت الحرام في مكة، بالإضافة إلى شعائر عديدة أخرى كانت موجودة في العادات العربية القديمة قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة، مع إدخال بعض التغييرات عليه.

يتم ختان الصبيان بين السادسة والعاشرة من عمرهم، وفي بعض الأحيان عندما يكونون أكبر من ذلك، ولكن نادراً جداً قبل ذلك، ومنذ تلك الفترة تحلق رؤوسهم تماماً، ويلبسون العمامة بدلاً من المنديل الذي يضعونه أثناء فترة الطفولة، وتجري الحفلة في بيت الوالد، حيث تجري الاحتفالات الصاخبة لعدة أيام ويتلقى الصبي هدايا من أقاربه ومن أشخاص آخرين تتم دعوتهم إلى الحفلة، ويرتدي ثياباً جديدة، وتزين عمامته بالأزهار والزينات الأخرى، ويرتدي نوعاً من مآزر الحرير العريضة فوق كتفه لمدة خمسة أو ستة أيام للدلالة على أن العملية قد تمت، ويقاد وهو يرتدي هذا الرداء على صهوة حصان في موكب يعبر الشوارع، تسبقه فرقة موسيقى القلعة وعدد من الرجال المدججين بالسيوف والدروع. ويتوقف هؤلاء الرجال بين الحين والآخر لإجراء استعراض قتالي تطلق بعده نساء عديدات، يرافقن الموكب، الزغاريد، في حين يأخذ الرجال بالهتاف. ومن عادة الناس من الطبقة الراقية ختان طفلين أو ثلاثة أطفال في وقت واحد مما يزيد الاحتفال مهابة. إن الختان عادة قديمة جداً في الجزيرة العربية، ورغم أنه ليس وارداً في القرآن، إلا أنه شائع بين المسلمين ، وثمة حديث للنبي (ص) يقول إنه من الشعائر المفروضة على الرجال، وتكرم به النساء (٧).

تعتبر الزكاة أحد أركان العقيدة الإسلامية. ورغم ورودها في القرآن، وعدم تنفيذها بحذافيرها (إذ أن تغير الظروف جعل بعضها غير ضروري)، فإن المسلمين يعتبرون بحق قوماً يحبون الخير، إذ تعتبر معظم الجوامع وعدد كبير من السبل داخل المدينة والخانات والجسور، والسبل على جانبي الطريق، أمثلة هامة عن الروح الخيّرة. كما أن استقبال الخانات لجميع المسافرين بدون تمييز، من الأمثلة الواضحة على تحرر المسلمين، وهو يعطي انطباعاً جيداً لدى الرحالة السابقين في معظم الأحيان. إذ يلاحظ Villamont (الذي كان يتحدث عن أحد الخانات) بأن المسيحيين يُستقبلون كما يستقبل المسلمون، و يشمل عمل الخير عند المسلمين جميع الأشخاص دون تمييز ديني.

تلحق ببعض الجوامع بيوت خيرية* تخصص لاستقبال الرجال المتدينين إلا أنه لا توجد فيها مشاغل للمتسولين العاديين، لذلك فهم يعتمدون على تصدق الغرباء عليهم، ويضطرون إلى الخروج إلى الشوارع العامة للتسول. ويمكن رؤية المسلمين من هذه الفئة عند وقت العشاء تقريباً، وهم ينتظرون عند الأبواب الخارجية، وهم يستجدون من أجل الحصول على الطعام باستعمال تعابير دينية، ينشدونها بطريقة مأساوية من خلال ثقب الباب. ويبدو بعضهم في مظهر لائق بحيث لا يمكن تمييزهم في أوقات أخرى، وقد يشاهدون في بيوت الأكابر في أيام الجمع، وهم ينتظرون صامتين وتبدو عليهم

* وهي ماتعرف 'بالخانقاة' (المترجم).

تعابير الصبر المتواضع. كما تمتلئ شوارع السرايات والجوامع الرئيسية في ذلك اليوم بصفوف من المتسولين، من يستحقون الصدقات، ويمر عدد قليل من الأشخاص دون أن يعطوهم شيئاً.

ويقال إنه إذا قدمت الصدقات بانتظام لفترة من الزمن، فإن الشخص الذي يطلبها يكتسب حق طلب الصدقة باستمرار. وقد اتخذت قرارات من هذا القبيل في المحكمة، إلا أنه قلما يرفع هذا الأمر إلى القضاء لأن القاضي قد ينصح بطلب الإيواء. وقد ذكر لي مفتي حلب مثالاً على ذلك بعد أن سألته إلى أي مدى يمكن أن يكون الشخص ملزماً بالاستمرار في تقديم صدقة كان يعطيها طواعية لبعض الوقت.

فقد شاهد المفتي وهو في طريقه إلى أحد الجوامع الذي اعتاد أن يرتاده كل يوم جمعة، رجلاً مسناً عاجزاً وضريراً من بين متسولين آخرين، فشعر بالعطف تجاهه، وأعطاه بارة أو قطعة نقدية فضية صغيرة، بدلاً من القطعة النحاسية التي اعتاد أن يعطيها للآخرين. وقد استمر على هذا المنوال أسبوعياً لمدة تزيد على السنتين. وخلال تلك الفترة كان المفتي يستغرب كيف بقي العجوز طوال هذه الفترة، واعترف أنه كان يرغب من حين لآخر في التوقف عن منحه هذا المبلغ غير الاعتيادي. وبعد فترة طويلة، لاحظ بأن متسولاً آخر قد حل مكان المتسول العجوز، وهو شخص لم يكن أصغر من العجوز بسنوات كثيرة فحسب، بل كان بعين واحدة. وواصل المفتي كلامه بقوله 'انتابني شعور بالقلق في البداية لأني ظننت أن صديقي القديم قد توفي، إلا أنني سرعان ما عزيت نفسي بأنه يمكنني مساعدة عدة متسولين بنفس المبلغ بدلا من متسول واحد. وعندما قدمت للمتسول الجديد قطعة نحاسية أو فلساً، إذا به يمسك برسن حصاني من أحد الجوانب، ويصر على إيقاف حصاني، فتوقفت وقلت له: عفواً يا صديقي ماذا يعني كل هذا العنف؟ فأجاب المتسول: 'انظر يا سيدي، إن الله عادل، فقد استأجرت هذا المكان من الشيخ الضرير الذي لم يعد قادراً على المجيء إلى هنا، ونحن نعرف بأنك تدفع بارة، وبإذن الله فإنك ستدفعها لي'، واختتم المفتي كلامه بقوله حح حاولت أن أقنعه عبثاً بأنه كان أعور وبأنه أصغر من الشيخ العجوز، ولكن كل ما أمكنني فعله هو الحصول على شبه وعد منه بأنه عندما يصبح عاجزاً فإنه لن يبيع المكان إلى متسول آخر'.

يوزع المال عند الجنازات، ويقوم بعض التجار في أوقات معينة بتوزيع الخبز عند بوابة خاناتهم، ويجتمع المتسولون المسيحيون في جميع تلك المناسبات، وهم يشكلون نسبة لا بأس بها من الذين يجوبون الشوارع.

غير أن العدد الذي يجوب الشوارع لا يزال ضئيلاً بالنسبة إلى اتساع المدينة، إلا في أوقات الجفاف حيث تكتظ الشوارع بالفقراء الحقيقيين الذي يحتاجون للصدقات بحق، والذين يرضون بأقل شيء يمكن أن يسد رمقهم، والذين يكسبون رزقهم بالعمل اليدوي، وهم لا يخرجون إلى الشوارع للتسول إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك. ولهذا السبب يثير الجفاف الذعر في حلب؛ إذ يُطرد الفقراء المجدون من عملهم، وتقل الصدقات كثيراً، رغم أن المسلمين يجزلون العطاء بشكل عام، كل حسب ظروفه. ومما يزيد الأمر هولاً، أن الخبز الذي يباع في الأسواق في تلك الأوقات، يكون غالباً من نوعية رديئة، ذلك لأنهم يخرجون الحبوب المخزونة منذ سنوات عديدة، من الحفر المطمورة فيها، ليوزع

لأنهم يخرجون الحبوب المخزونة منذ سنوات عديدة، من الحفر المطمورة فيها، ليوزع على الناس من الطبقة الدنيا وهي في هذه الحالة السيئة. ويعزى الجفاف في بعض الأحيان إلى أسباب عديدة، ويؤدي غالباً إلى حدوث حالات من العصيان، نورد مثالاً عليها لاحقاً.

لقد ذكرنا أن روح الدين الإسلامي لا تحبذ حياة التنسك، إلا أنه بدأت تظهر فرق من هذا النوع في القرن الثالث أو الرابع للهجرة، ورغم تزايد عددها فهي ليست كثيرة (٩). وتقع زاوية تدعى *الشيخ أبو بكر** في مكان بارز جميل، على مسافة نصف ميل إلى الشمال من الضواحي، ويعيش فيها ثمانية أو عشرة دراويش حياة مريحة جداً. ويعامل أهالي المدينة رئيسهم باحترام بالغ، ويُدفن عادة الباشاوات الذين يتوفون في حلب داخل أسوار هذه الزاوية. وعلى الجانب الغربي من المدينة، بالقرب من النهر، توجد زاوية أصغر للمولوية أو الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم، ويقدمون عرضاً في أحد أيام الأسبوع تسمح فيه للنساء بالمشاهدة.

لا توجد إلا هاتان الزاويتان الإسلاميتان في حلب؛ إلا أنه يطوف المدينة عدد من المشايخ ممن لا ينتمون إلى طريقة محددة، ويرتدون الثياب التي يرتديها العلماء عادة، ويمضون معظم وقتهم في القراءة، ويلتزمون بممارسة الشعائر الدينية بدقة متناهية، وهم يستقبلون في بيوتات الطبقة الراقية، ويحترمهم عامة الناس ويندفعون لتقبيل أيديهم في أثناء مرورهم في الشوارع.

كما يطلق لقب شيخ على أصحاب الكتاتيب والناسخين والكتبة والمؤذنين وآخرين ممن يرتبط عملهم بخدمة الجامع، وهم يشكلون عدداً كبيراً.

وينتمي إلى طبقة المشايخ جوالون ينتقلون من مدينة إلى أخرى، ويرتدون ثياباً مهلهلة، وعمامة سيئة، ويتدلى شعرهم حتى الرقبة، ويعلقون قربة من القرع المجفف على كتفهم، ويحملون في أيديهم نوعاً من المطرد** موشى بقطع صغيرة من القماش من مختلف الألوان، يطلق عليهم اسم *الدراويش*. وكما يحدث غالباً فإن معظم الوضيعين يتنكرون تحت هذا القناع، لذا فهم يكونون موضع شك وريبة. ولايستقبل الناس سوى عدد قليل منهم، وهم الذين يعرفونهم جيداً، استقبالاً حسناً. أما الكبار فيظهرون لهم احتراماً ظاهرياً، رغم أنهم لا يكنون لهم احتراماً حقيقياً، وفي بعض الأحيان، يقود هؤلاء موكباً عبر الشوارع، وهم يمتطون بغلاً أو حماراً تسبقهم فرقة موسيقية، ويتبعهم عدد غفير من كلا الجنسين من الطبقة الدنيا. وتسهم أصوات قرع الطبل الممتزجة بأصوات صياح الرعاع المتوحشة، في جعل هذه المواكب تشبه احتفالات باخوس الداعرة***.

وثمة ضرب آخر من المشايخ يحتلون مكانة أفضل بين أفراد الطبقة الوسطى، وهم يقيمون في حلب على الدوام، وغالباً ما تسمع أصواتهم في الأمسيات الهادئة، من

---

* لاتزال قائمة إلى اليوم، وقد تهدم جزء منها وهو بحاجة إلى ترميم (المترجم).

**سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب (المترجم).

***إله الخمر والعربدة عند الرومان (المترجم).

بقاع مختلفة من المدينة. وقد يشاهدون في بعض الأحيان يمارسون طقوسهم في العراء، وهم لا يمارسون شعائرهم وحدهم كما هو حال الدراويش، بل قد ينضم إليهم أي مسلم شريطة أن يكون متوضئاً، ويقف الشيخ في وسط دائرة قد تضم عشرين شخصاً، ويأخذ في إنشاد أناشيد دينية، بينما يقف الآخرون في حالة من الورع الشديد، ويكررون كلمات (الله هو! الله هو)، ويرفقها بحركة بطيئة بجسده إلى الخلف والأمام، وتحذو الدائرة كلها حذوه في نفس الوقت. وبعد فترة وجيزة يبدأ بتحريك جسمه بسرعة أكبر، ويتوقفون عن ذكر كلمة الله، ويكررون بدون توقف ترديد كلمة 'هو'، وتستمر هذه الحفلة قرابة الساعة، والشيخ يردد كما يفعل الآخرون، بحيث يصبحون في مواجهة الدائرة بالتتابع، وتظهر عليهم علائم الإثارة بشكل غريب، ثم يجلسون كما لو أنهم أصيبوا بالإرهاق نتيجة ذلك*. وقد أطلق مؤلفون عديدون أسماء مختلفة على هذه الفرقة من المشايخ، إ يدعوهم دو لوار *المنشدون*، أما بورتر وآخرون فيطلقون عليهم اسم *القادرية*** (١١). ويقدم رقص الدراويش مشهداً أكثر إمتاعاً بكثير من هذا المزيج الغريب من التعصب وعدم الاحتشام. ويشجب معظم المسلمين ممارسات هؤلاء المتعصبين والمشايخ الجوالين، ويؤكدون أن ذلك مخالف لتعاليم القرآن. إلا أنهم في الوقت الذي يبدون فيه منطقيين في ذلك، فإنهم يظهرون نوعاً من السذاجة لا يقل عن ذلك، يتمثل في احترام المجاذيب والمجانين الذين لا يصدر عنهم أذى.

إن الاعتقاد بتأثير الأرواح الخفية على الإنس، وهو اعتقاد سائد في الشرق منذ عهد قديم، لا يزال شائعاً بين الناس. ويلجأ الناس في الكثير من الأمراض إلى الرقى والتعاويذ بنفس القدر الذي يلجؤون فيه إلى الدواء. إلا أنه لا يعامل جميع المجانين*** بنفس الطريقة، إذ يقيد المجانين الخطرون بالسلاسل، ويشرف عليهم الأطباء أو المشعوذون، في حين يتم احتجاز البلهاء داخل البيوت، أو يصبحون موضع استهزاء للصبية المتسكعين في الشوارع. أما أولئك المصابون باضطراب خفيف في عقولهم، فيعاملون بعطف وحنان شديدين، وإذا كان بوسعهم أداء دور ديني كالصلاة، أو ترديد بعض آيات من القرآن، عدوّا عندئذ أشخاصاً ملهمين ربانياً. ويُسمح لهم بالجلوس مع الأشخاص من الطبقة الرفيعة وهم في ثيابهم الرثة وأطرافهم العارية، بل يسمح لهم بتقبيل خدودهم.

يتم استشارة المشايخ الملهمين في بعض الأحيان وكأنهم أطباء، فيقدمون النصيحة على أنها مستوحاة، ومن الأمور المثيرة للاستغراب رؤية أشخاص، يتمتعون بحكمة واضحة في مجالات أخرى، وهم يبذلون جهوداً كبيرة في حل ألغاز رجل مجذوب، ولتوضيح ذلك أود أن أقدم المثال التالي: عندما كنت جالساً في صباح أحد الأيام مع أحد

---

* تعرف إلى اليوم بحلقات الذكر تتم في بعض مساجد حلب الصغيرة، ويُطلق عليها اسم 'الزوايا' (المترجم).

** لانعرف إذا كان المؤلف يقصد الطريقة القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (المترجم).

*** المجنون هي الكلمة التي تطلق على الشخص الذي يفقد عقله، أو الشخص الذي تتلبسه أرواح طيبة أو شريرة.

كبار التجار، وكان يشكو منذ فترة طويلة من الروماتيزم في كتفه، وكان قد استعمل أنواعاً عديدة من الأدوية بدون فائدة، ثم قال لي إن له صديقاً جاء لزيارته وذكر أنه شاهد رجل دين مجذوباً، فانتهز الفرصة وسأله عن رأيه بهذه الحالة التي حيّرت الأطباء، فتلقى جواباً عن ذلك بقوله: 'إن أفضل علاج هو زيت من عند العطار'، ووافق جميع الذين كانوا حاضرين على الفور على استعمال الزيت، إلى أن أثير السؤال: ماهو الزيت الذي يعنيه نظراً لتوفر أنواع كثيرة من الزيت عند العطار، وأعقب ذلك حديث سخيف جداً حول عدم إمكانية استعمال أنواع عديدة. وفي أثناء ذلك، أرسل خادم للحصول على جواب أكثر وضوحاً، إلا أنه سرعان ما عاد، حيث بدا أن الشيخ استمع في البداية إلى الرسول باهتمام بالغ، وكان يحدق في وجهه، وهو صامت لاينبس ببنت شفة. ثم ابتعد عنه، وبدأ يدمدم بكلمات وهو متجه نحو الحائط الذي كان يتحدث إليه عندما اقترب منه الخادم، وعندما ألح الخادم في الحصول على جواب لينقله إلى سيده، استشاط الشيخ غضباً وصب عليه سيلاً من الكلمات النابية، واستمر في توجيه اللعنات والسباب إلى الخادم حتى غاب عن ناظره. ثم أرسل التاجر خادماً آخر إلى دكان العطار، لطلب الزيت كما ذكر الشيخ، فأخذ أول نوع قدمه له العطار، واستعمله على الفور، إلا أن الألم، كالمعتاد، ازداد سوءاً أثناء الليل، وعزي فشل العلاج إلى عدم فهم ما أوحى به ذلك المجذوب.

يلاحظ أن نظرة الاستعلاء التي ينظرها المسلمون إلى الديانات الأخرى تتزايد طرداً مع القرب من مكة. فالمسلمون في الأستانة وسميرنا يظهرونها بدرجة أقل من أهالي حلب: ومع ذلك فقد خف هذا الشعور كثيراً في السنوات الأخيرة، بحيث منح العديد من الباشاوات وكبار المسؤولين مكانة خاصة لبعض الإفرنج وعاملوهم باحترام زائد، بينما كان ذلك يحدث في الماضي استياء شعبياً كبيراً*. ورغم ذلك فإن الشعور بالكراهية إزاء جميع الكفار مازال موجوداً، ولايبدوا أنه سيتوقف بين العامة، علماً أن مشاعر التعصب لدى الكثير من العلماء والتجار الذين سافروا، ومن العثمانيين من الطبقات الأدنى بدأت تخف كثيراً.

رغم نظرة الاستعلاء التي ينظرها المسلمون إلى الأديان الأخرى، فإنهم يسمحون لأتباع تلك الديانات بممارسة شعائرهم وطقوسهم بحرية، ويتسامحون في ممارسة شعائر الدينين المسيحي واليهودي. إذ يرتدي مختلف الرهبان ثيابهم الخاصة بهم، وينتقلون بحرية لممارسة وظائفهم. وفي مواكب الجنازات، فهم يرفعون الصليب عند خروجهم من أبواب المدينة. وقد أكد دولا موتراي الذي عاش في تركيا أربع عشرة سنة، وأقام فترة طويلة في الأستانة، بأنه لا يوجد بلد تمارس فيه جميع الأديان بحرية مثل تركيا، ولاحظ م، دولا كروا نفس الشيء.

إن ذكريات الماضي البعيد، وربما لأسباب أخرى خرافية، تسهم في إثارة مشاعر البعض الموروثة التي يقال إن المسلمين يكنونها تجاه الفرنج، وقد يكون

* كان المؤلف نفسه عرضة لما ذكر أعلاه: فالأسلوب الذي كرّمه به إسماعيل باشا بعد أن أقام سنوات عديدة في حلب، ورفعه إلى مقام رفيع في المدينة، كان يستدعي منه الحذر نتيجة الشعور بالحسد الذي كان يثار بين الأهالي المحليين وخاصة عندما يشاهدون أن تكريماً خاصاً قد منح لشخص ينتمي إلى عقيدة من غير عقيدتهم.

للأعمال الوحشية البربرية التي مارسها الطرفان خلال الحروب الصليبيبة المدونة في التاريخ، أو التي تتناقلها الروايات، التي حفظت في القوالب التذكارية للعداوات القديمة الباقية، شيء من التأثير، ولا تزال توجد بعض المشاعر المتميزة من هذا النوع في بعض المدن الداخلية من أوروبا، التي تعيش في حالة سلم منذ فترة طويلة مع المسلمين، والتي لا داعي لإيجاد استفزازات جديدة لإثارتها. أما بالنسبة إلى سورية، فإن أعمال السلب والنهب من البحر التي قام بها المالطيون، وسكان جزيرة سردينيا، وصليبيون آخرون تسهم إلى حد كبير في إذكاء مشاعر الكراهية الشعبية نحو الإفرنج، أكثر من الحروب الأخيرة مع ألمانيا وروسيا، والتي لها تأثير ضئيل على الولايات السورية.

إن مشاعر الكراهية نحو الإفرنج كأعداء للمؤمنين، ليس أمراً خيالياً بالتأكيد، فلم ألحظها بين الأشخاص الذين لا يعملون في التجارة فحسب، بل كذلك بين النساء والأطفال، الذين كانوا يعبّرون في حضوري ويبدون حذر عن آراء تشير بشكل كاف إلى الفكرة التي يكنونها تجاه الإفرنج، أما المسلمون الذين يشتغلون بالتجارة، أو ممن هم على صلة بالأوروبيين، فهم يحاولون إخفاء هذه المشاعر. وفي الوقت نفسه، يتمتع الإفرنج في حلب بالحماية التامة، ويعاملهم الكبار بكياسة وأدب.

إن وضع الرق في تركيا يختلف عما هو متصور في أوروبا، إذ يتم شراء معظم الرقيق وهم صغار ويربون مع أطفال الأسرة، وإذا ما اكتشف فيهم ذكاء فطري، فإنهم يحصلون تقريباً على نفس القدر من التعليم، إن احترام وإطاعة الوالدين من الأمور الأساسية التي تهدف إليها تربية الشبان، إذ يبقى الابن محافظاً على علاقة رسمية مع أبيه حتى بلوغه سن الرشد، ويمارس الكثير من الأعمال الصغيرة التي يقوم بها الخدم نحو أبيه، لذا فإن الخدم الصغار قلما يدركون أنهم خدم إذا كانوا مميزين بموهبتهم، وهم يكادون يكونون واثقين بأنهن سيعتقون في يوم ما، وفي الوقت نفسه، يجدون أنفسهم تقريباً في نفس وضع الأطفال المتبنين. وغالباً ما يتزوجون إحدى بنات العائلة، وفي بعض الأحيان يترقى خدم العثمانيين إلى المراتب الأولى من الدولة.

يجلب الخدم البيض (يُطلق عليهم المماليك)، الذين يتمتعون بمنزلة عالية من جورجيا وسيركاسيا* بشكل رئيسي، وهم أولاد نصارى، إلا أنه يتم فصلهم عن آبائهم ويبعدون عن بلدهم وهم في سن مبكرة. وبالطبع فهم يفعلون ما يفعله الآخرون، ويتبنون تدريجياً دين أسيادهم ويحدث ذلك تلقائياً. وفي حلب على الأقل لا يستخدم العنف من أجل جعلهم يعتنقون الدين الإسلامي، كما أن الخدم البالغين الذين يتم أسرهم في الحرب لا يرغمون على تغيير دينهم. وكما لاحظت فإن المسلمين لا يأبهون بدين خدمهم. وقد تعرفت إلى الكثير من الخدم الذين انتقلوا إلى العديد من الأشخاص، وكانوا غير متعلمين، ولم يكونوا في الواقع مسيحيين أو مسلمين، ولم أصادف أبداً مثالاً واحداً استخدم فيه الإكراه على تغيير دينهم.

يقوم عدد من التجار الذين يتخذون من هذه التجارة حرفة لهم، ببيع الرقيق الأبيض على حدود جورجيا، وينقلونهم إلى أصقاع مختلفة من السلطنة، وخاصة إلى

---

* من بلاد القوقاز من قبائل الشركس (المترجم).

الآستانة، ويجلب بعضهم إلى حلب في كل سنة من أرضروم مباشرة، ويعتني بهم التجار عناية كبيرة خلال فترة بقائهم في حوزتهم، ونتيجة لدوافع مماثلة تتم حماية الأشخاص من كلا الجنسين من أعمال الانتهاك التي قد يتعرضون لها، وفي هذا المجال يرثى لحال الصبيّة عندما يباعون إلى سيد فظ ومتوحش، لأنهم يقعون ضحية نزوات غير طبيعية.

لقد تناقص عدد الرقيق الذين يجلبون من جورجيا بشكل كبير خلال الثلاثين سنة الماضية؛ ونتيجة لذلك فقد ارتفع ثمنهم وخاصة في الأقاليم، إلا أن المسلمين، ولأسباب محددة، مغرمون بشرائهم بأي سعر. فعندما يكون لديهم خادم جيد يتمتع بالإخلاص والنفع، فهم يكتسبون صديقاً إذا كبروا، ويخلفون وصياً أميناً على أطفالهم إذا ماتوا.

تمتعت تركيا بفترة طويلة من السلم، لذلك لا يوجد سوى عدد قليل من الرقيق المتبقين في حلب ممن كانوا قد أسروا خلال الحروب الألمانية أو الفارسية السابقة، ويوجد لدى القنصل السلطاني قانون عام يقضي بإعادة شراء هؤلاء الرقيق الألمان الذين قد يتواجدون في سورية. وتُجلب الخادمات البيضاوات من جورجيا، إلا أننا سنتحدث عنهن في الفصل القادم.

إن صعوبة الحصول على الجورجيين، جعل الأتراك يضطرون لاستخدام الخدم السود (الذين يطلق عليهم في حلب اسم 'العبيد')، ويُجلب هؤلاء في كل عام بأعداد كبيرة من الحبشة عن طريق مصر، ويمتاز هؤلاء بتبلد الحس وصعوبة القياد، وقلما يصلح أحدهم إلا للمناصب الدنيا، وحال وصولهم إلى حلب يصبح التفاهم معهم صعباً، وتبدو لغتهم قاسية وفظة، ويندر أن يتكلم أحدهم اللغة العربية بشكل مقبول، ويكون معظمهم من النساء اللاتي يستخدمن في مطابخ الحريم. وقلما يرتقي الذكور منهم إلى مستوى أدنى مراتب الخدم. أما الزنوج الآخرون الذين يأتون من أصقاع أخرى من العالم إلى الآستانة، فهم أفضل حالاً، ويحتلون مراتب عليا في الأقاليم، علماً أن عدد الخدم السود من الذكور، أقل من الإناث بكثير في حلب.

إن جميع الخصيان في حلب من الزنوج، و يعملون في خدمة الحريم فقط؛ غير أن عددهم قليل جداً، ويكون لدى الباشا واحد أو اثنان منهم عادة، ويوجد آخرون في بيوت التجار الموسرين، الذين يشترونهم في أثناء أسفارهم عموماً؛ ويجلب عدد قليل منهم إلى المدينة للبيع، أما الذين يعملون في خدمة النساء، فتكون لهم شقة قريبة من الحرملك، حيث يدخلون إليه بحرية حسب اقتضاء الأمر. ويكون معظمهم على درجة كبيرة من القباحة، ويبدون نعومة أنثوية للغرباء.

يستسلم الخصيان غالباً إلى رذيلة الشراب، ويغرم الكثير منهم بالنساء، وقد عرفت أمثلة عديدة كان من بينهم المشرف على حريم رجب باشا، الذي اعتاد الخروج من السرايا في الليل، بعد أن يكون سيده قد خلد للراحة، ويمضي وقته حتى الصباح في صحبة مومستين أو ثلاث مومسات في بيت يقع في المنطقة المجاورة. وفي إحدى الليالي حدث حريق في الحرملك نتيجة إهماله، وعندما اكتشف الباشا أمره استشاط غضباً وأمر بقتله على الفور، فهرب المشرف وتوارى عن الأنظار، وبعد فترة من الزمن هدأ روع الباشا، وغيّر حكمه من قتله إلى نفيه بصورة دائمة.

لم تعد تمارس الرياضات الميدانية بشكل عام كما كان من قبل، إذ يحتفظ عدد قليل جداً من الناس بالصقور والكلاب السلوقية، إلا أنه لايجيد الصيد إلا عدد قليل منهم، كما لا يجيد فن الرماية سوى عدد قليل من المسلمين من جميع الطبقات، باستثناء أولئك الذين يكسبون معيشتهم منها، وقلما يعرف الصيد كمتعة وتسلية.

مرّ زمن كانت فيه ميزة امتطاء الخيل داخل المدينة وقفاً على المسلمين، فعندما وصل راوولف إلى حلب (سنة ١٥٧٣)، ترجل عن حصانه عند البوابة 'لأنه لا يحق لغريب أن يمتطي حصاناً داخل المدينة في تركيا'. أما الآن، فإن حرية امتطاء الخيل ليست محصورة بالإفرنج فقط، بل يحق ذلك لجميع الأهالي المحليين من المسيحيين واليهود.

إن العثمانيين، رغم كونهم وقورين في تصرفاتهم، قد يعتبرون بحق مهذبين ودمثين، فهم يبدون دماثتهم ولطفهم عندما يتحدثون مع أشخاص أدنى مرتبة منهم، حتى مع المسيحيين واليهود، أما إذا كانوا غاضبين، فترتفع أصواتهم ويتفوهون بكلمات نابية، وعندما يتواجدون في حضرة أشخاص أعلى منهم مرتبة، يلوذون بالصمت وتبدو عليهم سيماء الخضوع، ومهما استثارهم شيء، فلا يجعلهم ذلك يتخلون عن الاحترام الذي يكنونه لهؤلاء الأشخاص، أو يخرجون عن طورهم الذي يظهرونه؛ ورغم أنه تنتابهم مشاعر قوية إلا أنهم يخفونها.

أما بعض المسلمين الآخرين الذين لا يعتبرون عثمانيين، وخاصة بعض الأشراف المتحمسين، فهم متعجرفون، ومتحفظون، وباردون، بل فظون في حديثهم مع الآخرين. أما التجار فرسميون، ولكنهم اجتماعيون في بعض الأحيان، وتكون ثيابهم وتصرفاتهم متواضعة، ولا يبدون سوى القليل من المظاهر الخارجية، وفي الوقت نفسه، يبدون متكبرين مع حريمهم وفي بيوتهم. وثمة عدد قليل آخر، ممن يتعاملون مع أشخاص في السلطة، فهم يقلدون سلوك السراي، ويعيشون في أبهة وعظمة.

أما عامة الناس، فعندما لا ينتابهم الوجل أو الخوف من حضور من هم أعلى منهم مرتبة، فإنهم يستثارون لأقل استفزاز؛ ويصبحون عدائيين، ويتفوهون بكلمات نابية، لذا يندر أن يمر المرء في الشارع دون أن يشاهد شجاراً صاخباً، ويقترب الخصمان المتقاتلان من بعضهما، ويتأهبان للاشتباك بالأيدي، وتنطلق من كل منهما كلمات نابية بأعلى صوت ممكن، مع ارتسام تعابير الغضب على وجوههم، إلا أن الشجار يبقى كذلك، ولا ينحون للاشتباك أكثر من إطلاق الشتائم، ويبدي المتفرجون اهتماماً في وقف الشجار الذي نادراً ما يخفق ويؤدي إلى رفع دعوى إلى المحكمة أو السراي. ويخشى جميع الحاضرين التورط في هذا الأمر، ولكن بالرغم من كونهم عرضة لنوبات الغضب بسرعة إلا أن عامة الناس يتمتعون بضبط النفس.

يعتمد الأوربيون للحصول على المعلومات في تركيا على المسيحيين واليهود بصورة رئيسية؛ ولا يتجشم عناء تعلم اللغة العربية سوى عدد قليل منهم، نظراً لأنها لا تعتبر ضرورية لعقد الصفقات، لذا، يجد هؤلاء المترجمون سهولة كبيرة في تصوير الأمور وفق أهوائهم، إذ يعتبرون أن المسلمين أدنى مقاماً، وأن مآلهم الهلاك والعذاب في العالم الآخر، ويعتقدون أنه من عدم الورع التحدث عن الكفار على نحو طيب، وقد تعلموا بالوراثة أن يلعنوهم، وهم يستمدون شخصية المسلم من مشاعر الكراهية والبغض.

لعل ظروفاً محددة حول الوضع السياسي في تركيا جديرة بالنقد و الاستهجان حول الشخصية التركية، إذ إن تعيين عدد كبير من الطغاة الصغار في السلطنة (الذين يحكمون البشاليق)، وتغيير الولاة بشكل مستمر، لا يعرض الأقاليم للظلم فقط، بل ينشر روحاً من المؤامرات والدسائس. فالخضوع الذليل الذي يفرضه الكبار، والذي يتدرج في سلسلة بدءاً من السلطان وحتى أدنى مسؤول في السراي، يزرع الرياء والنفاق، فالخادم الذي تكون عيناه عالقتين بالأرض، وهو يتلقى أوامر سيده بصمت وخنوع زائد، سرعان ما يصبح مبجلاً عندما ينسحب إلى غرفته، ويلقب بالآغا، اللقب الذي يكون قد منحه إياه خسيس يثير الشفقة. إن فساد إدارة العدلية، التي أصبحت موضع تذمر منذ وقت طويل يمكّن الأغنياء في أغلب الأحيان من التهرب من القوانين، وإلحاق الأذى بالأبرياء بموجب قوانين رسمية، إن زيادة الرفاهية التي (إذا وُثق برواياتهم) تسارعت في هذا القرن، تجعلهم يشتهون ما لغيرهم بجشع كبير، إذ أن المال لايعتبر ضرورياً للإنفاق على المتع الباهظة الثمن فحسب، بل كذلك لشراء الحماية والهدوء، عندما يمتلك المرء ثروة، وذلك لأنه ما إن يُشك في أن أحد العثمانيين ثري حتى تتجه إليه عيون الباب العالي إن آجلاً أم عاجلاً، ويؤدي ذلك إلى سلبه ثروته وعدم الإبقاء على شيء له، بدلاً من مشاركتهم الثراء مع الوزراء المفضلين من أجل الحفاظ على ما تبقى من ثرواتهم لعدد أطول من السنين (١٣).

تعد الضيافة إحدى الفضائل الشرقية، وهي لاتزال منتشرة في سورية، إلا أنها أكثر شيوعاً في القرى والمدن الصغيرة، وبين الأعراب والبدو وسكان جبال كسراوان، إن حسن الضيافة الذي يتلقاه الرحالة الأوربيون على الطرق، والأشخاص الذين يقدمون لهم بيوتهم دون أن يُطلب منهم ذلك، لقاء هدية صغيرة، أمر ثابت لاشك فيه.

إن قيمة البقشيش والهدية التي يقدمها الرحالة الذي يكون قد ضل طريقه التي يقدمها لمستضيفه، قلما تكون ذات قيمة تجعل الشخص المضيف يربك اقتصاد عائلته، ويفرض على نفسه نفقات إضافية، ما لم يعتبر ذلك أمراً مشرفاً له، وإذا لم يقم بذلك فإنه سيكون عرضة لاستهجان واحتقار إخوانه القرويين.

أما في المدينة حيث توفر الخانات أماكن الإقامة للمسافرين، فإن حسن الضيافة يكون على درجة أقل، إلا أنه يتم استضافة العديد من الغرباء في بيوت خاصة يحملون توصية لها، وهذه العلاقات العرضية تؤدي غالباً إلى الصداقة التي تستمر وتنتقل إلى أطفال عائلاتهم.

أما المسؤولون الرسميون من ذوي المراتب العالية الذي يأتون من القسطنطينية، أو من أماكن أخرى، فيحلون في بيوت كبار الأغاوات، وينفق مجلس المدينة مبلغاً معيناً لهذه الضيافة. أما الآغا فيعمل بمثابة مضيف ويعتبر مسؤولاً عن معاملة ضيفه معاملة لائقة.

تعتبر العلاقة بين الضيف والمضيف علاقة مقدسة، وتذكر دائماً باحترام بالغ، ويتوقف قيام الصداقة على معرفة سابقة، والعيش سوية في بيت واحد، ولكنها قد تنشأ خاصة عند تبادل مراسم الضيافة التي يعبر عنها بكلمة 'أكلنا معاً خبزاً وملحاً'، وعندما تسود العداوة، لايأكل البدو من نفس مائدة خصومهم؛ إذ إن الجلوس معاً يعني المصالحة، أما المسلمون فإنهم أكثر تهذيباً، وأقل تشدداً في هذا الأمر.

للدفاع عن ضيفهم، أو للانتقام من أجل ضرر ألحق به وهو في كنفهم. أما في المدينة، فلا تعتبر بيوت الكبار ملاذاً للأشخاص الذين ينتهكون القانون، أما في حالات الجرائم الطفيفة، فإن الشخص المهم يعتبر نفسه تحت درجة من الالتزام، ويبدي اهتماماً لمصلحة الشخص المستغيث، الذي قد يكون قد هرب إلى كنفه وطلب حقوق الضيافة، ومن التوسلات الشائعة، سواء لاستدرار العطف أو الحماية قولهم: "أنا في أرضك"*.

إن المسلمين أناس أليفون، فهم يستمدون مسراتهم الرئيسية في نطاق عائلاتهم، ولا توجد سوى مغريات قليلة يمكنها أن تبعدهم عن بيوتهم للحصول على المتعة. ويكن الأبناء احتراماً بالغاً للآباء، ويظهر العطف تجاه الأقارب عند رعايتهم في أثناء مرضهم. وعندما تنشأ خلافات بين أفراد العائلة فمن السهل العثور على محكمين. والقمار ليس معروفاً البتة، والسكر إثم نادر، وقلما تسمع حوادث عن الخيانة الزوجية. وبشكل عام، وسواء كان ذلك يعزى إلى دستورهم السياسي، أو إلى غياب الشعور بالرغبة كما هو الحال في أوروبا، الذي غالباً ما يؤدي إلى انتهاك أفضل القوانين، يوجد عدد قليل من المدن التي تسود فيها فضائل خاصة ومنزلية أكثر مما هي في حلب.

إن الاستسلام للقدر عند حدوث الكوارث التي تعرفها البشرية، والتقلبات السياسية غير المتوقعة تعتبر على درجة كبيرة من الأهمية لدى المسلمين. فالإيمان بالقضاء والقدر يمنحهم شعوراً بالمناعة والقوة إزاء نكبات الدهر. ورغم أن هذه المبدأ مقبول بشكل عام، يبدو أنه ذو تأثير ضئيل على سلوكهم في الحياة العادية. ففي حين تبقى أمور معينة موضع شك، فلا يتخذون الخطوات التي تستدعي الحذر، ولاتتخذ الإجراءات الضرورية لمواجهة الأخطار الوشيكة. إن الموضوع القائل بأن الله قد قرر كل شيء سلفاً مازال موضع جدل لاينتهي بين صفوف المتعلمين منهم (١٤).

ويبدو أن المسلمين قد حملوا موضوع القضاء والقدر عند حدوث الطاعون إلى أبعد حد. فقد كان الكثيرون يتخذون احتياطات وقائية معينة ضد الطاعون على نفس المبدأ تقريباً الذي يلجأ فيه الجميع إلى الدواء عند مرضهم. وهم يؤمنون بأن كل شيء مقدر سلفاً، لكنهم يؤكدون على أن الله الذي خلق الداء خلق إزاءه الدواء للشفاء منه**.

والتجار من بين الحلبيين المسلمين هم الوحيدون تقريباً الذين يسافرون بغرض التجارة بنية العودة، كما أن عدد الذين يسافرون إلى أماكن بعيدة جداً عن مدينتهم قليل جداً، وهذه الأسفار تتم بهدف الحصول على الثروة لخدمة العثمانيين، وغالباً ما يصبحون مواطنين في السلطنة بشكل عام، وفي غالب الأحيان، يتركون بلدهم الأصلي إلى الأبد، ولعله لهذا السبب، تقبل الأمهات الحلبيات دائماً وعلى مضض سفر أولادهن خارج بلدهم، ويتم تنشئة الشباب على تعلم تجارة أو مهنة آبائهم. ومن أجل بقائهم، تقوم الأمهات بتزويج أبنائهن في سن مبكرة لكي يستقروا في مدينتهم.

---

* ربما حرفت الكلمة وأصبحت "أنا في عرضك" ، علماً أنه مازال يقال في الريف "الأرض هي العرض" ولذا فهما شيء واحد (المترجم).

** "خلق الله الداء والدواء" قول شائع بين عامة المسلمين الذين يقولون بأن الطبيب يبذل ما بوسعه ولكنهم يضيفون المثل القائل: "الدوا من عند الحكيم، والشفاء من عند الله".

الملاحظات

(١) ذكر هارديان ريلاند في مقدمة كتبها بحماسة وحرية منقطعتي النظير: 'تعرضت جميع الأديان الموجودة حالياً في العالم إلى تشنيع غير معقول، سواء كان نتيجة سوء الفهم والتصور، أو نتيجة حقد وضغينة الأعداء. إلا أنه لم يُسَأ عرض دين أو يعامل بكراهية كبيرة أكثر من الدين الإسلامي على يد الكثير من أعداء هذا الدين'. وأعطى أمثلة عديدة وقوية عن ذلك (عن الدين الإسلامي: ١٧١٧ Rhenum (Trajec. ad

(٢) يذكر ريلاند (Reland) أن العيد الذي يعقب رمضان مباشرة يدعى العيد الكبير، للتمييز عن العيد الصغير الذي يحتفل به إحياءً لذكرى إبراهيم الذي قدم ابنه كأضحية. ولكن بالنسبة إلى هيربيلوت، فإنه ينبغي عكس الأسماء، فعيد الأضحى هو العيد الكبير، أما العيد الآخر فيطلق عليه العامة هذا الاسم فقط بسبب فرحتهم بانتهاء رمضان.

(٣) ذكر كل من بوكوك وريلاند الصوم الذي حددته السنة فضلاً عن الصيام الطوعي. كما يذكران ثواب (حسب السنة) صوم أيام محددة في أشهر محددة. ولا أعرف إلى أي مدى يلتزم المسلمون بهذه المواسم المحددة، إلا أني لاحظتهم غالباً وهم يصومون بعد النجاة من الخطر، أو نتيجة نذر يقطعونه على أنفسهم. وفي الغالب يصومون للتعويض عن أيام لم يصوموها في رمضان. إلا أني لم أعرف بالضبط لماذا يفضلون أياماً بعينها في الأشهر المقدسة.

وهم لا يصومون طوعياً فقط بل يؤدون الأضاحي نتيجة نذور يقطعونها على أنفسهم في أيام الخطر والشدة، ولهذا السبب فهم يجيئون إلى الشيخ أبي بكر أو أي ضريح ولي آخر في الجوار. إلا أن توزيع أجزاء مختلفة من الأضحية كما ذكر Domenichi، فهو أمر لم أطلع عليه من ملاحظتي الخاصة، 'فهم يقدمون الأضاحي كذلك، ولكن نتيجة نذر عامة عندما يكون المرء مريضاً أو في خطر، فيذبحون غنمة أو بقرة حسب استطاعتهم. ولا تحرق الأضحية عند ذبحها كما يفعل اليهود، ويقدم الجلد مع الرأس والقدمين وربع الأضحية إلى المشايخ، و يحتفظون هم بالربع، ويقسم الباقي بين الجيران والفقراء'. لودفيكو دومينيشي.

(٤) يصف ريلاند (ص٦٧) الوضوء قبل الصلاة. أما الغسل فنشرحه في الصفحات التالية من الفصل الثامن. إن تطهر المسلمين هو أحد شعائرهم الدينية وهو أمر أساء العديد من المؤلفين المسيحيين تصويره بصورة غريبة. إذ يقدم أحد القساوسة البروتستانت الذي أقام منذ ما يقرب من قرن لبعض الوقت في الأستانة، وكتب عن عادات الأتراك، رواية عن وضوئهم المتكرر فيقول:'لاحظ حماقتهم وجنونهم. فهذا الوضوء بالماء الذي يسمونه تطهر يظنون بغباء أنه يكفي لتنظيف القذارة من أرواحهم، ويغسلون الآثام الرهيبة التي ارتكبوها؛ ولذا فليس من العجب أن يندفعوا لارتكاب أبشع الجرائم والشرور، بدعوى أن بضع نقاط من الماء ستعيد إليهم نقاوتهم الأصلية'. (سميث).

وخلال الأربعين سنة هذه كتب كاهن كاثوليكي حول نفس الموضوع، وفي نفس اللهجة تقريباً مضيقاً أن المسلمين يهتمون كثيراً بهذا الطقس الخارجي أكثر من تعاليم شريعتهم. (أسماني).
إن مدى اختلاف موضوع الوضوء في الواقع عن التصوير المبين أعلاه يظهر من ملاحظات بوكوك المتضلع حول أبي الفرج (ص٣٠٢، .Specimen)

ومن بين الاثنين فإن مطران أفاميا يبدو أقل حقداً. إذ أن مسيرة دراسته كانت تدفعه لأن يدرس المؤلفين المسلمين، كما كان جيد الإطلاع على لغتهم: وهو أمر يكفي لكي يجعله يسيء إلى تصورهم اللاهوتي العدواني، مهما برر هذا الحماس الزائد في الأوقات السابقة، أما في العصر الأكثر تحرراً فنجد وصفاً عادلاً، ما عدا بين بعض المسيحيين في سورية، أو المبشرين الكاثوليك الجهلة الذين يرسلون لتعليمهم (انظر، ريلاند ١٧٧).

(٥) يؤكد دومينيشي وأسيماني أنه عندما يبدأ المسلمون صلاتهم لا يخلعون عمائمهم، ويقومون بحركة بيدهم كما لو أنهم سيفعلون ذلك. ولابد أن هذا الأمر فات ملاحظتي، رغم أنني أذكر تماماً إني رأيت بعضهم وهم بلا شيء يغطي رؤوسهم سوى القبعة التونسية الحمراء التي توضع عادة تحت العمامة.

ويذكر D'ohsson مثالاً وحيداً لا يتماشى مع عادات الأتراك، وخاصة من أفراد الطبقة الراقية الذين لا يخلعون عن رؤوسهم أبداً، بأن سليم الأول بعد فتحه مصر خلع عمامته تعبيراً عن ورعه عندما كان يرد على الشكر في الجامع الكبير في القاهرة.

يحمل الناس من جميع الطوائف المسبحة في سورية. والمسلمون لا يستخدمونها في صلواتهم، بل يستعملونها عندما يكررون بورع أسماء الله الحسنى ولهذا السبب فهي مؤلفة من مائة حبة. وتميز مسابح المسيحيين عن مسابح المسلمين واليهود بأن لها صليباً صغيراً.

أما حقيقة أن المسلمين يصلون بانتظام في أوقات محددة في حوانيتهم، وفي المقهى بل وحتى وأثناء سفرهم فأمر صحيح، رغم أن هذا الالتزام الشديد لا يوجد في جميع الأماكن. وهم في الغالب يضطرون لتأجيل الصلاة إلى موعد ملائم أكثر إذا كانوا منشغلين بأمر هام. أما القول بأنهم يصلون في الأماكن العامة لإعطاء انطباع لجيرانهم أو للمسيحيين بأنهم ورعون فهذا أمر غير صحيح على الإطلاق. ويصبح أداء الصلاة المتكرر الذي يفرضه الشرع عادة مع الزمن.

وسأختم ملاحظتي حول موضوع الصلاة بذكر خطأ غريب ناشئ عن الجهل باللغة العربية وقد تبناه الكثير من الكتّاب اللامعة أسماؤهم. إذ أن الفعل بالعربية يصلي يحمل معنيين وهما: يبارك ويصلي، وإذا وجهت إلى الله فهي تعني المعنى الأول، أي ليغفر، ليكون رحيماً؛ أما إذا وجهت للملائكة فهي تعني 'الصلاة من أجل الإنسان'، وإذا وجهت للأشخاص فهي تعني الصلاة. إن تعبير 'يصلي الله عليه' بمعنى 'يصفح الله عنه' يستخدم كثيراً بعد ذكر اسم أحد الأنبياء أو الأولياء. وبالطبع يستخدم دائماً بعد ذكر اسم الرسول 'صلى الله على النبي'، وقد ترجم بتحريف غريب 'ليصلي الله على محمد' التي اعتبر مثالاً عن الكفر الشديد الذي ألصق بالمسلمين.

(٦) فيما يتعلق بالقبلة، فإن الآية القرآنية التالية تظهر أن محمداً (ص) ترك الأمر في البداية بدون تحديد: ﴿ ولله المشرق والمغرب، فأيما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم.﴾(سورة البقرة ١١٥).

ويذكر Sale في ملاحظة له أن محمد (ص) وأتباعه لم يولوا وجوههم في البداية نحو أي مكان محدد من العالم أثناء صلاتهم. وعندما انتقل الرسول إلى المدينة أمر أصحابه 'بالتوجه في صلاتهم نحو بيت المقدس في القدس الذي أصبح قبلتهم لمدة ستة أو سبعة أشهر، ثم أمر بأن يتوجه المصلون نحو مكة. وقد تم ذلك في السنة الثانية للهجرة'. ويقول بوكوك إن القدس كانت القبلة قبل خروج النبي إلى المدينة. إلا أنه مهما كان السبب، فإن الأمر حُسم بوضوح في السنة الثانية للهجرة ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره.﴾ (البقرة، ١٤٤).

ويحدد القرآن سبب تغير القبلة ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ (البقرة، ١٤٣).

حساب الواجبات الأكثر أهمية، إذ يقول القرآن :﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون .. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (البقرة، ١٧٧، ١٨٩). وهذه هي الآية التي تعبر عن رأيهم بالله: ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.﴾

(٧) إن التعبير المستخدم للختان هو 'التطهير بالختان'، وفي حلب يقولون طهور أو طهر. إن هذا التقليد المتعلق بالختان يجعل النبي (ص) يعلن أنه سنة، ويقول بوكوك إنها إحدى الشعائر الضرورية، رغم أن السنة حسب تفسير ريلاند لا تشمل الأمور المفروضة بل إن تطبيقها يعتبر نوعاً من الورع وإن إهمالها لا يعرض المرء للعقاب.

ويذكر أن الرسول (ص) قد ولد بدون غرلة. ويؤكد أسيماني أنه تطلق أسماء الأطفال المسلمين في لحظة ختانهم، كما هو حال أطفال المسيحيين عند عمادهم. وفيما يتعلق بختان المسيحيين الذين يعتنقون الإسلام بأنهم كانوا يرغمون في السابق على وطء الصليب والبصق عليه ثلاثة مرات ثم تطلق في الهواء ثلاثة أسهم بواسطة ثلاث أشخاص ويعلن عندها اسم المعتنق الجديد قبل أن تهبط الأسهم على الأرض. غير أن هذين الأمرين غير معروفين في حلب، والأمر الأول خاطئ تماماً لأن الطفل يُسمّى باسمه حال مجيئه إلى العالم. ويقول Glelot إنه في الأستانة لا يؤجلون تسمية الطفل حتى وقت الختان، ولعله محق كذلك حول الاحتفال الذي يجرى للأطفال. إلا أن عادات هذا الضرب من الاحتفال قد تختلف من مكان لآخر. وإذا كانت عادة حمل شخص سهماً في يده تمارس في حلب فإني لم ألحظ ذلك. أما ختان البنات فهو غير معروف في حلب ويسمى 'بطر'.

(٨) تدعى الصدقة الإلزامية 'الزكاة'، والطوعية 'الصدقة' وهذه الكلمة تستعمل بشكل عام لأي مبلغ من المال يقدم للأعمال الخيرية.

(٩) اعتمدت في إرجاع أصل الطرق الصوفية في الإسلام إلى القرن الرابع على Herbelot ويذكر Rycaut وجود ثماني طرق صوفية مختلفة، تنضوي جميعها تحت اسم الدراويش. أما الرواية الأكثر دقة عن الطرق الصوفية الإسلامية، فترد في المجلد الثاني من Tableau General حيث يقدم D'ohsson كذلك (ص٢٩٥) قائمة تاريخية عن مؤسسيها الذين يبلغ عددهم اثنين وثلاثين.

ويمكن الملاحظة من هذه القائمة أن طريقة جديدة واحدة فقط كانت قد أسست في القرن التاسع، وواحدة في القرن العاشر، واثنتان في القرن الثاني عشر، وخمس في القرن الخامس عشر، وست طرق في القرن السادس عشر، وثلاث في القرن السابع عشر، وثلاث في القرن الحالي.

ومن مخطوطة تبحث في حياة التنسك في فهرس الاسكوريال، يبدو أن كلمة صوفي هي كلمة عامة، ولا تدل على طريقة بعينها. ويفترض أنها مشتقة من اللباس الصوفي الذي كان يرتديه النساك.

يرتدي النساك في كلتا الخلوتين في حلب رداء أبيض ذا أكمام واسعة. وقاووقاً طويلاً أبيض، ويضعون في بعض الأحيان شاشاً. وينتمي النساك في خلوة أبي بكر إلى طريقة البكري، التي مات مؤسسها في سنة ١٤٩٦ وهو مدفون فيها. وتقع خلوة المولوية بالقرب من جسر الكتّاب.

يصف Baungarten (في سنة ١٥٠٥) أحد الأولياء شاهده وهو جالس على الرمل وهو عارٍ تماماً. وقيل له إن المسلمين يكنون احتراماً للمعتوهين والمجاذيب، ويقيمون لهم أضرحة لتكريمهم عند موتهم.

(١٠) إن الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم هم فرق من المولوية أسست في سنة ١٢٧٣، ورغم أنها

(١٠) إن الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم هم فرق من المولوية أسست في سنة ١٢٧٣، ورغم أنها تعرف بشكل عام بهذا الاسم فهي ليست الطريقة الوحيدة التي تقبل الدوران في شعائرها. وهي ممارسة لا تتماشى مع روح الإسلام وعادات المسلمين، ويبدو أنها أدخلت بعد إقامة أولى الطرق الصوفية، وقد واجهها الكثير من المسلمين المتعقلين بكثير من المعارضة، وفي عهد محمد الرابع، بذل بعض المسلمين المتشددين محاولات لإلغاء الفرق الصوفية على الفور، إلا أن أغلبية الناس الجاهلين والمؤمنين بالخرافات تمكنوا من التغلب عليهم، دوهيسون (المجلد٢، ص٣١١)

(١١) سواء كان هؤلاء المشايخ في حلب ينتمون إلى طريقة القادرية أم لا فهذا ما لا أعرفه، فثمة تشابه في شعائرهم. وإن صيحة 'هو' ليست خاصة بطريقة معينة من الطرق الصوفية، وتتكون جماعتهم من السكان المحليين ومن غرباء، قد ينتمون إلى طرق مختلفة؛ ولا يستثنى أي مسلم من الانضمام إليها. وفي حلب يطلق عليهم 'مشايخ أو عبدل' وليس القادري، كما لم ألاحظ وجود تمييز بين الطرق الدينية بالإضافة إلى طرق الدراويش والمشايخ.

ويذكر هيربيلوت شخصاً متعصباً يدعى 'بابا بازارلو' كان واحداً من أشباه المجانين المتحمسين الذين يكن له المسلمون احتراماً ويسمونه عبدل، وهو تركي المولد وقد نبذ جميع الأمور الدنيوية واعتكف في غرفة صغيرة وكرس حياته كلها للتأمل والتفكر وكان جدار الغرفة كتابه الوحيد، فقد كتب بأحرف كبيرة جداً على الحائط بأكمله كلمة 'هوأي الله، وهي من بين أسماء الله المئة، وتكتب في بداية جميع الكتب الإسلامية.

(١٢) يؤنب القرآن في مواضع عديدة النصارى على إيمانهم بتعدد الله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم.﴾(المائدة ٧٠٣). ﴿ ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد﴾.(النساء ١٧١).

(١٣) في هذه الملاحظة، نسخت آراء عدد من الرحالة حول الشخصية العامة للمسلمين وأخذت آراء الذين أقاموا زمناً في المدينة. ولعل القارئ سيلاحظ عند المقارنة، بأني أنا وأخي كنا مختلفين عنهم في بعض الأمور، كما سيلاحظ في الوقت نفسه أنهم كانوا يختلفون هم أنفسهم في بعض الأحيان.

يقول م. دو لوار (M. du Loir) الذي أقام في الأستانة في حوالي سنة ١٦٤٠ وكان يتقن اللغة التركية: 'إن المسلمين بطبعهم قوم طيبون، وهو أمر يجب ألا يعزى إلى المناخ، وذلك لأن اليونانيين الذين ولدوا في نفس المناخ لهم طباع مختلفة تماماً، ولا يحتفظون سوى بالصفات السيئة لأسلافهم كالفظاظة والخيانة، والتكبر. أما المسلمون فهم على العكس، فيتفاخرون بتواضعهم واستقامتهم، ويتميزون عادة بانفتاح وبساطة العادات، ما عدا أهل البلاط الذين هم في تركيا كما في كل مكان في العالم هم عبيد الطموح والجشع. وهم يرتدون ثيابهم بحشمة، ومهما تغيرت ثيابهم حسب الموضة في طريقة تفصيلها ولونها فتبقى لائقة وملائمة. (رحلة إلى المشرق، ص١٦٦، باريس، ١٦٥٤).

وكنت قد ذكرت الأب السيد سميث، الذي أقام في الآستانة أكثر من عشرين سنة بعد دو لوار، وفي ١٦٧٨ أصدر ترجمة عن 'رسالته اللاتينية' مع إضافات، وفي مقدمته إلى القارئ يأمل أنه لن يكون هناك تحامل على الكتاب إذا 'ما أدرك أن خيط رجل الكنيسة يمر في الرواية كلها'.

ففي الشخصية التي يرسمها عن المسلمين، رغم أن بعض ملاحظاته صحيحة تماماً، فإن الخيط الذي يعنيه مفهوم: 'إن المسلمين يتمتعون بشخصية همجية، ولا يعزى تقريعهم إلى قساوة أو شدة

عقابهم، وعدم تمسكهم بالنظام/ أو عدم تمسكهم بالسلوك المدني بينهم، لأنه لا يوجد أحد أكثر اهتماماً وخضوعاً وخاصة للأعلى منهم القادرين على إيقاع الأذى بهم، وبالإضافة إلى ذلك فهم يعاملون جميع العالم بتعال واحتقار كبيرين'.

ويمكن الملاحظة أن ما قيل عن همجية المسلمين في 'الرسالة اللاتينية' معدل هنا. إذ يلاحظ فيما بعد كراهيتهم للتعلم ومقتهم للديانات الأخرى الخ (ملاحظات حول عادات الأتراك لندن ١٦٧٨).

' إن المسلمين والأتراك (حسب دارفيو) شعب طيب، وهم لا يلحقون الأذى بجيرانهم إلا إذا تم استفزازهم، إلا أنهم يستثارون بسهولة. وهم يحبون الأجانب وخاصة الإفرنج. وفي التجارة فهم أجلاف ولكن شرفاء. وفي المظهر الخارجي يتمسكون بالقانون بحماس، ولكنهم في الحقيقة متراخون ومنغمسون في الملذات وخاصة النساء'.

' ويقال إن المسيحيين أقل فظاظة من المسلمين، وبشكل عام فهم متبجحون ومتعالون، ويستسلمون للكذب والشراب'.

'أما اليهود فهم أحط عرق على الأرض، ويحملون ضغينة مميتة للمسيحيين'. (دارفيو المجلد٥، ص٤٤١).

(١٤) إن القضاء والقدر كلمتان تنطويان على معنى حكم الله؛ إن الإيمان بالقضاء والقدر شائع في تركيا، وبما أنه كان موضع جدال بين المفكرين، فقد أصبح منذ ذلك الحين مصدراً غزيراً للجدال الفكري. وبغية توفيقها مع حرية الإنسان، فإن الكثير من رجال الدين)حسب (D'ohsson يحصرون القضاء والقدر بالحالة الروحية لعدد معين من البشر الذين يكتب عليهم قبل ولادتهم أنهم سيكونون سعداء أو بائسين، إلا أنه يؤكد أنها لا تشمل حالة الإنسان الأخلاقية والمدنية أو السياسية، الذي يترك للتصرف في أعماله بحرية. إن أنكار الإنسان لحرية تصرفه وعزو التصرفات البشرية إلى إرادة الله معتقدات لا تتماشى مع روح الديانة الإسلامية، وإذا تمسك بها الإنسان بعناد فعقابها الموت. إلا أنه بغض النظر عن قرارت المفكرين بهذا الأمر، فإن الفكرة الشعبية في تركيا تشمل تأثير القضاء والقدر على التصرفات الأخلاقية والمدنية للبشر (المخطط العام، المجلد١ ص٥٦).

(١٥) إن الفكرة القائلة بأن بعض الأمراض تنتشر بالعدوى كانت شائعة بين العرب في الجاهلية، إلا أن الرسول (ص) أدانها وأرجعها كلها إلى الله. إن هذا الإعتقاد بالإضافة إلى الإيمان بسلسلة من الأحداث المقدرة مسبقاً، تجعل المسلمين أكثر إهمالاً لاتخاذ الحيطة فيما يتعلق بالطاعون أكثر من أي قوم آخر.

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً.﴾ (آل عمران، ١٤٥)

﴿ ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (الأعراف، ٣٤).

إلا أن الحيطة من الطاعون أمر مسوغ وشرعي صادر بالفتاوى ومن سوابق ذات تقدير واحترام. ويورد D'ohisson (المجلد٢، ص٢٦٥) فتوى صادرة عن مفتٍ مشهور يعلن فيها: 'إن المسلم الذي يغادر البلد الذي ينتشر فيه الطاعون، ويلجأ إلى مكان آخر لا يرتكب إثماً ضد الدين، شريطة أن يطلب رحمة الله'.

ويقال إن عمر (ابن الخطاب) في السنة الثامنة للهجرة كان قد أجّل حملته إلى بلاد الشام بسبب الطاعون الذي كان متفشياً آنئذ في تلك البلاد. ولدى عودته إلى المدينة، ورداً على أحد الصحابة الذي عبّر عن دهشته لهذا التراجع الذي لا يتماشى مع عقيدة القضاء والقدر، مستشهداً بحديث الرسول (ص) (كما هو مترجم عن D'ohsson) ' إن الذي يجد نفسه في وسط النار يجب عليه أن يستسلم لقضاء الله، أما أولئك خارج النار فلا يجب أن يعرضوا أنفسهم إليها'*.

وقد عمل خليفة عمر المباشر بنفس المبدأ وتبع هذا المثال العديد من السلاطين العثمانيين. ففي عام ١٤٩١، بعد أن علم بيازيد الثاني وهو في طريقه إلى إدرينابول بأن الطاعون كان متفشياً في تلك المدينة، أحجم عن دخولها، وفي ١٤٩٣، وبعد أن تفشي الطاعون في الأستانة أجلّ عودته إلى العاصمة. وفي عام ١٥٠٩، هجر السلطان نفسه قصره بسبب هزة أرضية عنيفة، وأقام معسكراً في وسط إحدى باحات السراي وعندما استمرت الهزات انتقل إلى فيلا في الريف. إن D'ohosson الذي أخذت عنه الأمثلة المذكورة أعلاه يرى أن التفكير الروحي السليم ومبادئ الإسلام الحقة قد تساعد في فهم الإسلام على نحو أفضل رغم أن التحامل ضده منتشر وقائم على الجهل (المخطط العام، المجلد١، ص٥٨).

---

*أرسل عمر بن الخطاب رسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح يطلب فيها عودته إلى المدينة لاستشارته في أمره وكان يخفي خوفه عليه من الطاعون، فرد أبو عبيدة برسالة يقول فيها إنه فهم قصده واستشهد بحديث الرسول (ص): 'سمعنا عن رسول الله أنه قال: إذا وقع الطاعون في أرض وأنتم لستم فيها فلا تدخلوها، وإن كنتم فيها فلا تخرجوا منها'. فبقي في عمواس ومات فيها بسبب الطاعون. (المترجم).

الفصل الخامس
عن الحريم في حلب

مدخل الحرملك، المشرف أو كيخيا الحرملك، الزيارات النسائية الصباحية، الأعيان الذين تقوم النساء على رعايتهم في الحرملك، لهوهن ومرحهن، البائعات المتجولات، سلوك الرجال الفظ في وجود النساء، لجوء الرجال إلى الحرملك عند تعكر مزاجهم، استقبال الأطباء، وطريقة زيارتهم، عمل النساء وتساليهن، اللهو خارج الحرملك، مكايد النساء، المظهر الخارجي للسيدات وثيابهن، الجواري، ملاحظات حول عاطفة الحب في تركيا.

ينبغي على الرحّالة الطامح للاطلاع على عادات السيدات المسلمات في حلب، أن يتوقع مواجهة الكثير من العقبات، إذ إن نظام الحرملك يقف حائلاً قوياً أمام حب الإطلاع. فالعادات السائدة تحول دون اختلاط النساء مع الجنس الآخر، وتفرض قيوداً على ذلك، حتى مع أقرب أقاربهن من الذكور، ولعلهن لا يشعرن بالحرية إلا عندما يختلطن مع جماعة من جنسهن.

قلما يتكلم المسلمون عن نسائهم أثناء حديثهم، ولا يحظى الأجنبي إلا بفرص قليلة لبحث موضوع يبذلون جهداً كبيراً في تفاديه وعدم الإفصاح عنه، ويمكن الحصول على بعض المعلومات من النسوة المسيحيات أو اليهوديات اللاتي تتاح لهن فرصة الدخول إلى الحرملك في بعض المناسبات إلا أنه ينبغي الاستماع إلى هذه الروايات بحذر، وذلك بسبب التحامل الديني وميل الشرقيين للإيمان بالخرافات.

وقد تعرض جميع الرحالة الذين زاروا بلدان المشرق إلى هذه العقبات بدرجات متفاوتة، بالإضافة إلى معوقات أخرى أثناء عملية بحثهم، لذلك فإن الأمور المتعلقة بالنساء المسلمات التي يقرؤها المرء في بعض أفضل كتب الرحلات، تكون في غالب الأحيان، متناقضة أو مشوبة بأخطاء كثيرة، دون إبداء أي شك في مدى صدق الكاتب أو أنه يطلق العنان لأهوائه. ومن تجربتي الشخصية، فإنه بوسعي القول بأنه إذا لم يكن الشخص يتقن اللغة، وإذا لم يكن قادراً على الاحتكاك والتواصل مع السكان المحليين، والإقامة لفترة طويلة في هذه البلاد، فلن يتمكن من التغلب على الصعوبات، التي كان قد واجهها آخرون يتمتعون بمزايا أقل. وقد يكون من اللائق أن أستميح القارئ عذراً عن بعض الأخطاء التي قد ترد عند الحديث عن عادات المسلمين؛ حيث سأعرض لبعض الشؤون المنزلية، التي أتيحت لي فرصة ملاحظتها داخل الحرملك.

كنا قد قدمنا وصفاً عن القسم المخصص للنساء* في قصور المسلمين في الفصل الأول من الكتاب السابق، ويمكن الإضافة هنا إلى أنه توجد بالقرب من الباب

---

* يُطلق عليه في غالب الأحيان خطأً 'السراي' والصحيح هو الحرم أو الحرملك. وتسمى الزوجة 'حرمة' أما نساء العائلة بما فيهن الزوجات والبنات والجواري فيطلق عليهن 'الحريم'.

الخارجي، فتحة في الحائط على علو قدمين عن الأرض، ويبلغ طولها قدمين ونصف القدم، وعرضها قرابة قدمين، مثبت عليها إطار خشبي ضيق، ويملأ الفراغ في وسطها بأسطوانة خشبية فارغة. توضع بشكل عمود على محاور لكي تدور بسهولة، ويستخدم هذا الدولاب، الذي يقسمه قاطع أفقي واحد أو أكثر، ومفتوح على أحد الأطراف، من الأعلى إلى الأسفل لتقديم الأطباق من المطبخ، أو لاستلام رزم صغيرة، دون الحاجة إلى فتح الباب الخارجي، أو لكيلا يرى أحد أياً من الأشخاص على كلا الطرفين*، وهذه الحواجز متحركة، ويمكن إزالتها في بعض الأحيان من أجل استلام رزم أكبر حجماً. أما النساء اللاتي لديهن عمل في الحرملك فيستدعين الوصيفات في الداخل بالنقر على الدولاب بهدوء، وإذا لم يرد أحد بسرعة، فيستخدمن عندها السقاطة على الباب الخارجي بقوة أكبر. وتجدر الملاحظة إلى أنه قلما تقفل أبواب الحرملك في القصور الكبيرة من الصباح وحتى الغروب، وذلك بسبب تقاطر الناس بشكل مستمر بين غادين ورائحين: أما في حرملك البيوت الأدنى مرتبة، وفي البيوت العادية، حيث لا يوجد مكان منفصل للنساء، فإن سيد البيت لا يغلق الباب المطل على الشارع فحسب عندما يخرج، بل يقفله ويحمل معه المفتاح كذلك.

يوجد في حرملك الأعيان مسؤول يدعى كيخيا** الحرملك، يقوم بالإشراف على جميع الأمور المتعلقة بالحريم من الخارج، ويعمل بإمرته عادة صبي أو صبيان اثنان، يمكنهم الدخول إلى داخل الشقق، وتستخدمهن السيدات في نقل الرسائل، أو في القيام بخدمات صغيرة أخرى، ويكون هؤلاء الصبية عادة خدماً من الزنوج ولكن ليسوا من الخصيان، أما عند الباشاوات، فإن هذا المنصب يمنح عادة لخادم أبيض موضع ثقة، أو لخادم متقدم في العمر.

لا يقترب أي من الخدم العاديين من الذكور من باب الحرملك أبداً، إلا إذا كان كيخيا الحرملك، أو أحد أتباعه موجوداً. ويجب على جميع النسوة اللاتي لديهن شأن مع السيدات، أو الأطباء والممرضين الآخرين، أن يحصلوا على إذن منه بالدخول. وحتى الأعيان أنفسهم، فلا يفترض من صاحب البيت أن يدخل عند وجود زائرات عند حريمه، حتى يُعلن عن حضوره لمنحهن وقتاً للاستعداد لاستقباله، إذ لا ينبغي عليهن أن يظهرن أمامه بدون حجاب حسب العادات السائدة، وعندما يُعلم عن وجود عدد كبير من الزائرات في الحرملك، فلا يقترب من الحرملك حتى تغادره الزائرات.

عندما تقوم السيدات بزيارة بعضهن قبل الظهر، فهن لا ينزعن الحجاب فور دخولهن الحرملك خشية وجود بعض الرجال في المنزل، الذين قد يروهن وهن يعبرن؛ إلا أنهن ما إن يدخلن شقة السيدة التي ينوين زيارتها، حتى تقوم إحدى السيدات الشابات أو إحدى الخادمات بمساعدتهن في نزع الحجاب، ويوضع جانباً بعد طيه بعناية، وعندما تنوي الزائرة القيام بزيارة قصيرة، لا تنزع حجابها، بل تكشف عن وجهها فقط، وتترك الحجاب مدلى على كتفها بدون عناية، ويؤدي ذلك عادة إلى حدوث مشادة ودية

* يوجد مثل هذه النافذة في بعض الأديرة في أوروبا حيث تأتي بعض النسوة ليضعن أولادهن لرعايتهم دون أن يعرف من في الدير هذه الأمهات (المترجم).

** الكيخيا: لقب يطلق على النائب إن كان والياً أو غيره، فهو نائب الباشا أو نائب الوالي الخ.(المترجم).

بين الطرفين: فالواحدة تلح على نزع الحجاب، والأخرى ترفض الإذعان لذلك، وتحدث مشادة مماثلة عند اقتراب انتهاء الزيارة، وعندما لا يجدي التوسل للزائرة للبقاء فترة أطول، يتم إخفاء حجابها، وتقوم الخادمات اللاتي يُعلمن مسبقاً عن مكانه فيتظاهرن بالبحث عنه في كل مكان ولكن بدون جدوى، وعندما تلح على المغادرة بسبب ضرورة ماسة تدعوها للذهاب، يؤكدن لها بأن الآغا أو سيد المنزل، لم يخرج بعد، ويتحدينها من باب المزاح أن تجرؤ على الخروج بدونه.

يكون استقبال السيدات بعضهن بعضاً أقل رسمية من الرجال، إذ إن عبارات الإطراء، رغم أنها تتم بوتيرة عالية، تكون سريعة وبدون كلفة.

يتم السلام بوضع اليد اليمنى على الصدر الأيسر، وخفض الرأس قليلاً، وفي بعض الأحيان تكون التحية بتقبيل الخد، وتقبّل الشابات يد قريباتهن الأكبر سناً، ويقدمن القهوة والتبغ، أما الشراب والعطر فلا يقدمان إلا في مناسبات خاصة.

تقوم خادمات بالعناية بالأعيان في الحرملك، بنفس الطريقة التي يقوم بها الخدم خارج الحرملك، إذ يبقين واقفات بتواضع، ويضعن أيديهن بشكل متصالب على حزامهن وعيونهن مثبتة إلى الأرض. أما السيدات الأخريات، فضلاً عن فتيات الأسرة، فيجلبن من حين لآخر القصبة والقهوة، إلا أنهن لايبقين واقفات، فإما أن يجلسن، أو ينسحبن حسب رغبتهن، وهذا الأمر ينطبق على الأعيان؛ أما في الحياة العادية، فإن الزوجات والبنات يقمن على خدمة الرجال، ولا يجلس الجنسان أبداً على المائدة سوية. قلما تجتمع سيدات الحرملك مع بعضهن بوجود كبير العائلة، إلا في الصيف عندما يفاجئهن وهن جالسات في الإيوان، حيث يجتمعن ويستمتعن بتنشق الهواء العليل، وما إن يقترب حتى ينهضن جميعهن، ثم يعدن إلى أماكنهن (باستثناء بعض الخادمات) ويواصلن عملهن، ومهما بلغت ثرثرتهن وضجيجهن قبل دخوله، فإن الصمت يسود في اللحظة التي يظهر فيها. ومن الأمور المثيرة للدهشة، أن يلوذ الأطفال بالصمت فور اقتراب الأب، وغالباً ما تتذمر النسوة من عدم تمكنهن من فرض سلطتهن على الأطفال لإسكاتهم في غيابه، سواء بالتهديد أو الترغيب والملاطفة.

رغم أن وجود كبير العائلة قد يفرض الصمت من جانب الشابات، فهو يجد على الدوام بعض النساء المسنات المستعدات لتسليته، إذا كان مزاجه يسمح بتجاذب أطراف الحديث، وبهذه الطريقة يطلع على ما يجري في المدينة. ورغم أنه يندر تناقل هذه الأخبار بين الرجال، إلا أنه توجد رغبة كبيرة في الاطلاع عليها في الحمامات العامة، والتي تنتشر بواسطة البائعات المتجولات، والبدويات اللاتي يعملن في الحرملك. وتبيع البائعات المتجولات، اللاتي غالباً ما يكن من اليهوديات أو المسيحيات من عمر معين، الشاش، والموسلين، والمطرزات، والحلي الرخيصة للسيدات، كما أنهن ماهرات في فن جمع القصص الخاصة وتزويقها. أما البدويات فهن لسن أقل ثرثرة أو أكثر حفاظاً على السر، بل يمتلكن كذلك ميزة التحدث بحرية إلى الرجال، وهنّ يعرفن تماماً كيف يمارسن ذلك، ويستمددن هذه الميزة من كونهن في غالب الأحيان مرضعات، وبذلك يحظين بموقع دائم في العائلة، إذ تبقى الأخت بالرضاعة على صلة بالحريم، ومع الزمن تحل محل أمها. ويتحادث الكبار في ساعات الاسترخاء هذه حول شؤونهم المنزلية، ويقضون

وقتاً ممتعاً مع أطفالهم، وعندما يرغبون في الحصول على مزيد من العزلة، فهم ينسحبون إلى غرفة أخرى لا يمكن لأحد دخولها سوى السيدة صاحبة الغرفة، إذ يمكنها الدخول بدون استئذان.

يتخذ الرجال موقفاً متعالياً ومتحفظاً أكثر من المعتاد في وجود زوجاتهم، وهم أقل تأدباً في التحدث إليهن، وأكثر فظاظة مما لو كانوا يتحدثون إلى بعضهم، بل حتى إلى أشخاص أدنى منهم بكثير. ونظراً لملاحظة ذلك بشكل متكرر عند أشخاص مشهورين بدماثتهم، فقد يعتبر ذلك أسلوبهم العادي أكثر مما لو كان سلوكاً يظهرونه في أثناء وجود أوروبي بالمصادفة؛ ويؤكد ذلك السلوك العدائي للصبية الذين يتحدثون إلى النساء بطريقة متغطرسة، والتي لا يمكن أن يكونوا قد تعلموها إلا من أمثالهم، ولعل الرجال يعتبرون أن من الحكمة اتباع هذا الأسلوب، في موقف يفترض أن الهيمنة فيه قد تكون أكثر صعوبة مما هو بين الأتباع من الذكور، ولذلك فهم يغامرون في ساعات الخلوة فقط ويظهرون لطافتهم، التي تبدو وكأنها تحط من كرامتهم، ويعتقدون أن مهابتهم لا يمكن فرضها إلا بالعبوس.

تبدو السيدات وخاصة من الطبقات الراقية، متحفظات إزاء أزواجهن، ورغم أنهن يبدين حناناً وحباً لإخوتهن، فإن ذلك لا يعود عليهن بأكثر من مبادلتهن بلطف فاتر، كما لو كان حنانهن يعتبر ميزة بسبب تفوق الذكور عليهن. إلا أن الشباب يظهرون أحياناً عطفاً يفوق الشعور باللامبالاة الفاترة. إذ أن رؤية الأخت وهي في محنة، أو في مرض شديد غالباً ما يكون مدعاة لإظهار الحنان، لأن تصنع الفتور صفة يتميزون بها. كما أن المشاعر هي التي توجههم عند وقوع المصائب، فهم يتظاهرن بالطمأنينة أكثر مما يمتلكون في الواقع، وفي مناسبات أخرى، يبذلون مابوسعهم لإخفاء رقة مشاعرهم التي تعتبرها شعوب أخرى أمراً مشرفاً لها. ويتسم سلوكهم الخارجي عادة بهذا التصنع؛ فهم يحاولون إخفاء مشاعرهم وأحاسيسهم الحقيقية التي تتأثر بها بينابيع البشرية المشتركة عن عين الملاحظة.

يغادر الأشخاص الذين يشغلون مناصب هامة الحرملك في الصباح الباكر، ويمضون معظم وقتهم في السلاملك، ما عدا ساعتين بعد الظهر. أما الآخرون الذين ليس لديهم أعمال كثيرة، والشباب المرفهون من جميع الطبقات، فيقضون ساعات عديدة في الحرملك، ويُسمح للشباب بذلك لبضعة أسابيع بعد الزواج. أما الأشخاص المخنثون الذين لا يحظون بأدنى احترام بين صفوف الرجال، فلا يُسمح لهم بالبقاء مع النساء. إن وجود الرجال في ساعات غير اعتيادية في أثناء النهار، يجعل الحريم كلهن مقيدات، وعندما يمنح سيد البيت السيدات الأثيرات له اهتماماً خاصاً، فإن باقي النساء يندبن حظهن لحرمانهن من الحرية بسبب بقائه في البيت.

إذا أصيب الأعيان بشيء من تعكر المزاج فهم يواصلون الجلوس مع أصحابهم في السلاملك، أما إذا تحول مزاجهم إلى غضب، فينسحبون إلى الحرملك لتقوم نساؤهم بالعناية بهم. وفي هذه الحالة، لا يمكن لأي أحد أن يدخل عليهم إلا في الحالات ذات الأهمية القصوى، بالإضافة إلى الخدم الذين يقدمون لهم عناية طبية وأقاربهم المقربين جداً، ويختارون هم النساء اللاتي يرغبون في القيام بالعناية بهم مباشرة. وتعين امرأة

واحدة لكي تنقل إلى الطبيب ما يحدث خلال زيارته، وتتلقى تعليماته وإرشاداته وتشرف على تنفيذها.

يمكن للأطباء والممرضين، سواء كانوا أوروبيين أو حلبيين، الدخول إلى الحرملك في جميع الأوقات عندما يقتضي حضورهم ذلك، فبعد أن يُعلن عن حضور الطبيب، يتعين عليه أن ينتظر عند الباب حتى يتم إخلاء الطريق لكي يمر، أي حتى تتحجب المريضة ومن معها من النساء، والوصيفات والأخريات اللاتي قد يتواجدن في الباحة التي سيمر منها، أو لكي يخلين الطريق، ثم تقوده إحدى الخادمات إلى غرفة المريضة، وهي تنادي بصوت عال طوال الطريق، محذرة من اقترابه بقولها: 'درب، درب، الحكيم جاي'*، وهو تحذير لا يمنع دائماً السيدات غير المحجبات اللاتي لم يعلمن بوجوده، من عبور الباحة عرضاً، مما يستدعي من الطبيب المهذب أن يشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى.

عندما يدخل الطبيب الحجرة، تكون المريضة مغطاة بحجاب غير محكم الربط، وبما أن فكرة فحص المريض من نبضه فكرة شعبية سائدة**، فما يكاد الطبيب يجلس حتى تمد له المريضة رسغها العارية لفحصها***، ثم تشرح له ما ينتابها. وإذا اقتضى الأمر يقوم بفحص لسانها، ترفع الحجاب لهذا الغرض، في حين تحرص المساعدات على الإبقاء على باقي الوجه مغطى بعناية، ولا سيما قمة الرأس. ولا تتردد النسوة في الكشف عن رقبتهن أو صدرهن بل حتى عن بطنهن، عندما يتطلب الأمر فحصها، إلا أنهن لا يوافقن على الكشف عن رأسهن، إلا بعد ممانعة شديدة. فقد كنت أعرف شابات صغيرات لم يكن يبالين بإخفاء وجوههن عني بسبب معرفتي الطويلة بهن، إلا أنهن لم يكن يظهرن أمامي أبداً بدون منديل أو أي غطاء خفيف آخر يُلقى على رأسهن، وحسب تقديري للأمور نتيجة زياراتي الطبية، يبدو لي أن تغطية الرأس يعتبر أكثر أهمية من تغطية الوجه.

يُقدم للطبيب عادة التبغ والقهوة، ولا يمكن رفضهما لأنهما تعبّران عن الاحترام وحسن الضيافة، رغم أن قبولها يؤدي إلى الإكثار من تعاطيها. وبعد أن ينتهي الطبيب من فحص المريضة، وإعطاء توجيهاته، يستأذن بالانصراف. إلا أنه نادراً مايتمكن من المغادرة دون أن يسمع شكاوى عدد كبير من النساء الموجودات اللاتي ينتابهن شعور بأنهن مريضات. وتلك النسوة إما أن يكن جالسات وهن محجبات، أو يتحدثن من وراء ستارة، تُعلق في بعض الأحيان في الحجرة، وتعتبر تلك النسوة أنه من حقهن الحصول على مشورة شفوية، أو على الأقل أخذ فكرة عن العلاجات التي نصحهن بها آخرون؛

---

* عندما يكون الطبيب على وشك الدخول تنادي الجارية التي تقوم بإخلاء الطريق: 'اعمل درب، اعمل درب' ثم تعود بعد فترة من الوقت لتقول: 'في درب' أي أن الطريق سالك.

** يسوغ الأطباء المحليون هذه الفكرة السخيفة. وقد حذوت في ذلك حذو أخي الذي كان يصر على قيام المريض بشرح مايعانيه له قبل أن يجس نبضه، إلا في حالات الحميات.

*** كن في بعض الأحيان يقدمن رسغهن وهو مغطى بقطعة رقيقة من الموسلين، إلا أن السيدات الحلبيات كن يسخرن من هذا الاهتمام الدقيق، وقد كنت دائماً أرفض الامتثال لذلك التزمت الذي لاتقره المهنة.

وتعتبر القدرة على التملص من هذه الاستشارات بمهارة، جزءاً هاماً من الفنون الطبية بين الأطباء المحليين.

وفي الأسر التي اعتاد على زيارتها طبيب أوروبي، فإنه عندما تتماثل مريضته للشفاء، فإنه يطيل زيارته في بعض الأحيان لإشباع فضول السيدات اللاتي يطرحن عليه أسئلة لا حصر لها حول بلده، وينتابهن فضول خاص للتعرف على أحوال النساء الإفرنجيات، وطريقة لبسهن وعملهن وزواجهن ومعاملتهن لأطفالهن، وكيف يمضين وقتهن، وفي المقابل، فهن يتحدثن على سجيتهن، ويظهرن مواهب جيدة رغم قلة ثقافتهن، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى تأثير المناخ اللذيذ. وتكون أسئلتهن عادة ذات صلة بالموضوع، والملاحظات التي يبدينها من حين لآخر حول أمور تختلف كثيراً عن أمورهن، تكون غالباً مرحة وحكيمة.

عندما تنتهي الزيارة أخيراً، يتم إخلاء الطريق، ويخرج الطبيب من الغرفة تسبقه الخادمة كما فعلت عند الدخول، ويندر ألا يتوقف أكثر من مرة ليقدم شرحاً لبعض النسوة اللاتي ينتظرن خروجه، لأنه مهما كانت درجة توعكهن ضئيلة، فإنهن لايقوين على مقاومة الرغبة في ذكر شكاويهن للطبيب، وقلما تتحجب تلك النسوة بأكثر من منديل يُلقى على رأسهن، ويمسكن طرفه بفمهن، ومن أجل تجنب هذه المشكلة، يقفن غالباً وراء أحد الأبواب، أو خلف أباجورة نافذة موارية، ويرمين إحدى أذرعهن ويلححن على الطبيب لفحص نبضهن.

وفي حرملك البيوت الكبيرة، قد يعترض سبيل الطبيب أحياناً عائق آخر قبل أن يصل إلى الباب، ويسبب ذلك بعض الصبايا الأصغر سناً، أو الجواري اللاتي يعملن في الباحة، حيث يرفضن أن يتحجبن أو ينسحبن من الطريق، بهدف إغاظة الخادمة التي تقود الطريق، فتضطر عندها للتوقف بين الحين والآخر، وعبثاً تنادي 'درب، درب'، وتلجأ إلى أسلوب لا يفشل أبداً، فتتابع سيرها، وتطلب من الطبيب السير وراءها، فيؤدي ذلك إلى حدوث هرج ومرج، وتتراكض الصبايا في كل اتجاه، ويمسكن أول حجاب تقع أيديهن عليه، أو يحاولن الاختباء وراء بعضهن. ولا يحدث ذلك إلا عندما لا يوجد أي من الرجال في الحرملك ،، أما عندما يقود الآغا الطبيب بنفسه، فيتم كل شيء بهدوء ونظام، وفي غرفة المريضة، لا يشارك أحد في الحديث سوى المسنات أو القريبات؛ إلا أنه نادراً ما يزعج الآغا نفسه بذلك بعد الزيارات القليلة الأولى، إلا إذا كان الطبيب غريباً عن العائلة.

تمضي النساء من الطبقة الراقية جلّ وقتهن في البيت، ويستحممن في المناسبات العادية في داخل الحرملك، ولا تقع مسؤولية شراء الحاجات البيتية عليهن، فإما أن تُرسل لهن الأقمشة والألبسة والحلي من المحلات للاختيار منها، أو تجلبها بائعات متجولات كنا قد أتينا على ذكرهن سابقاً. وهن لسن كسولات في داخل البيت، إذ تشغل عملية الإشراف على الشؤون المنزلية، والعناية بالأطفال، وأعمال الإبرة والتطريز الكثير من وقتهن.

وفي صغرهن يتعلمن القراءة، وفي بعض الأحيان يتعلمن كتابة العربية، إلا

أنهن عندما يتركن المدرسة* يهملن الكتابة والقراءة، لذلك ينبغي عدم اعتبار القراءة من تسليات المرأة، إلا أني وجدت بعض الاستثناءات لذلك، فقد أحرزت ابنة الوزير الراحل رجب باشا (كما أكد هو لي) تقدماً مدهشاً في الأدب العربي، وأراني مخطوطة مكتوبة بخط في غاية الجمال كتبته بيدها، ولا يبدو أن العبادة تأخذ الكثير من وقتهن، إذ لا يذهبن إلى الجامع أبداً، وباستثناء السيدات المسنات اللاتي حججن إلى مكة، فهن لسن دقيقات في مواعيد صلاتهن، كما هي حال الرجال.

وقد تأكد لي ذلك من الملاحظة فقط، ففي الأيام العامة، يمكن مشاهدة النساء في الغالب وهن يصلين في الحدائق، إلا أن عددهن قليل جداً من بين المجموع العام. أما في الحرملك ، فلم تتوفر لي فرصة مماثلة لرؤيتهن وهن يصلين، كما هو الحال بالنسبة للرجال، وقد كونت رأيي هذا نتيجة اضطراري الانتظار حتى يفرغن من الصلاة عندما كنت أقوم بالزيارة عند الظهر أو المغرب، وعندما كنت أدخل إلى الحرملك قبيل أوقات الصلاة، فكنت ألاحظ أن عدداً قليلاً جداً منهن قد استعد للصلاة بالوضوء، لأنهن عندما يتوضأن، لا يسمحن لنصراني بلمس نبضهن، دون أن يضطررن للاغتسال ثانية، ويبدو لي أن المغرب هو الوقت الذي تصلي فيه النساء بصورة رئيسية.

يبدو لي أنه لاداعي لبحث موضوع استبعاد النساء من الجنة الذي يذكره كثير من الرحالة في كتاباتهم، التي يشوبها عدد لايحصى من المغالطات وسوء التأويلات المتعلقة بها (١).

من ألعابهن الشائعة لعبة المنقلة وطاب ودك والداما، وفي بعض الأحيان الشطرنج، إلا أنه كما كنا قد لاحظنا سابقاً عن الرجال، فإنهن يلعبن للتسلية فقط. وفي أمسيات الشتاء، عندما يمضي الرجال أوقاتهم في السلاملك، تمضي النسوة غالباً أوقاتهن في الاستماع إلى قصص ألف ليلة وليلة، إذ تقوم إحداهن إذا كانت تتمتع بصوت متميز بقراءتها. ومن حين لآخر، تلقى الأبيات التي تتخلل القصة غناءً، وكنت قد نوهت بأن ألف ليلة وليلة المعروفة في إنكلترا، قلما توجد في حلب، فلم أر سوى مخطوطة واحدة تحتوي على مئتي ليلة وثمان ليال، وتمكنت من الحصول على نسخة منها نتيجة حظوة خاصة. وقد تعاقب على تداول هذه النسخة أكثر من عشر نساء، وأكد لي بعض العلماء بأنه حتى ذلك الوقت، لم تكن النسوة يعلمن بوجود مثل هذا الكتاب.

يتألف التواليت من وسادة مقلوبة، توضع عليها مرآة صغيرة. ولا تستغرق النسوة وقتاً طويلاً في استخدامها، لأنهن يضطررن إلى خلع غطاء الرأس بالكامل، وحل الضفائر التي تعمل بصعوبة بالغة، وهي عملية تتم دائماً في الحمام. وهن يرتدين ثياباً أنيقة أثناء النهار منذ الصباح الباكر، إلا في الأيام التي يخرجن فيها للزيارات، أو إلى الحمام العام، عندها لا يستغرق تغيير الثياب وقتاً طويلاً.

والنساء مغرمات بالزهور والنباتات ذات الروائح العطرة التي تزرع في بعض

* كانت المدرسة بالنسبة للفتيات وهي مايسمى بالكتّاب، وهي عبارة عن تجمع لهن في دار والد واحدة منهن، أو في دار المعلمة التي تسمى 'الخوجة' التي تعلمهن مبادئ القراءة والكتابة بواسطة قراءة القرآن الكريم وحفظ بعض آياته والتدرب على الكتابة (المترجم).

الأحيان برعايتهن. إلا أنه في معظم الأحيان يتم شراؤها من بائعين يقومون بزراعتها، ويحفظنها في أصص أزهار من الصيني أو الزجاج، ويتم ترتيبها فوق مساند هرمية خشبية توضع في وسط الإيوان، ويجعلنها في باقات صغيرة أنيقة عند الحاجة. وعندما تبعث النسوة برسائل تهنئة، أو دعوة لحفلة، يرفقنها عادة بباقة من الزهور، تلف بمنديل مطرز، وتكون الرسائل عادة شفوية، وتلقى غالباً في ضمير الشخص المتكلم: 'تقول سيدتي إني لن أقبل أي عذر– ولا تقولي لي– ألم تعديني، وهلم جرا'، علماً أن ذلك لا يحدث دائماً، بيد أن الكلمات التي قيلت تنقل بدقة، وتأخذ المرأة التي تتلقى الرسالة بيدها، وتطوي المنديل بعناية، وتعيده بواسطة الرسول. وهن يحتفظن بالأزهار التي تتساقط أوراقها في الصيف، بلفها بمنديل من الموسلين ورشها بالماء، ثم تصف في حوض معدني، وتوضع في قبو بارد. ويمكن بهذه الطريقة حفظ أزهار البرتقال والياسمين العربي وورد المسك ناضرة لساعات عديدة.

تمضي الفتيات أوقات تسليتهن في ربط باقات الزهور بخيوط من الحرير بألوان مختلفة، كما لو أن ترتيب الزهور بأشكال معينة يقدم إيحاءات محددة، ورغم أن النساء يفهمن هذه الإيحاءات جيداً، إلا أنه يبدو أن هذه الحيلة لا تلائم غرض المراسلات السرية، والدليل على ذلك أن الرجال الذين يتلقون باقات زهور من نسائهم، سواء قمن هنّ بأنفسهن بترتيبها، أو التي ترسل إليهن من نساء أخريات، لا يلقون بالاً إلى ألوانها في معظم الأحيان، بل يضعونها جانباً، أو يقدمونها لزائريهم. وتجدر الملاحظة بأن الرجال في معظم الأحيان يتبادلون زهرة واحدة أو زهرتين أو ثلاث زهرات مضمومة إلى بعضها، وفي بعض الأحيان تغير النساء شكل ربطة الباقة قبل تقديمها، كما لو أن الخيوط التي نزعنها غير ملائمة.

قدمت الليدي ماري ورتلي مونتاج في رسالتها الأربعين نموذجاً عن أسلوب الكياسة واللباقة والتودد الذي تتمتع به النساء فقالت: ' لا يوجد لون عشبة، أو زهرة، أو فاكهة، أو ريشة لا ترتبط بقصيدة ما، وبوسعك أن تتشاجر، أو توجه اللوم، أو تبعث برسائل مشبوبة بالعاطفة، أو تعبّر عن الصداقة، أو اللطافة، بل حتى بوسعك إرسال أخبار دون أن تلوث أصابعك بالحبر'، إلا أن السيدات في حلب لسن بارعات إلى الدرجة التي تتحدث عنها سعادة الليدي كبراعة السيدات في استانبول، إلا أن الأشعار والتلميحات والإشارات الضمنية هي نفسها تقريباً، ويكمن الفرق في أنهن يجدن اللغة العربية بدلاً من التركية، ويشير لون خيط الحرير إلى الخوف، أو الشك أو الغيرة، أو نفاذ الصبر أو اليأس.

تنشغل النسوة في الأعمال المنزلية، سواء كانت جادة أو للتسلية، انشغالاً تاماً، ونادراً ما يشتكين من مرور الوقت ثقيلاً بطيئاً. وهن يخرجن في مناسبات عديدة،، إذ يقمن بزيارة قريباتهن المقربات عدة مرات في السنة، كما هي الحال عند الولادة أو المرض، ويقدمن يد المساعدة في حفلات الولادة ومراسم الوفاة، وفي ساعات معينة، يذهبن لاستشارة طبيبهن في منزله، عندما لا تقتضي الضرورة حضوره إلى الحرملك، وهكذا، فإن النساء من طبقة معينة يكنّ مشغولات تقريباً حسب ارتباطاتهن، أما النساء من الطبقات الأدنى، فيضطررن للخروج إلى السوق وإلى الحمام بشكل مستمر. ويجعل

الحمام كل النساء يخرجن من البيت، لأنه حتى اللاتي لديهن حمام في البيت يضطررن إلى تلبية الدعوات التي توجه إليهن لحضور الاحتفالات التي تقام في الحمام.

يُسمح للنساء بالخروج من البيت أيام الإثنين والخميس لزيارة القبور، ومع أولادهن وخادماتهن للتروّض في الحقول والبساتين، وتحمل الخادمات البسط والقصبات، ومعدات صنع القهوة والطعام؛ ويحصلن من البستان على الخس والخيار أو الفواكه حسب توفرها في الموسم، ولدى بعضهن بيوت صيفية في البساتين، وتجلس أخريات تحت ظلال الأشجار، ويمضي الجميع اليوم بمرح وسرور، وفي الربيع تزدحم البساتين القريبة من المدينة بالنساء، ونحو المساء تمتلئ شوارع المدينة المحفوفة بالأشجار بهن وهن عائدات إلى بيوتهن، وتسبق بعض النسوة من الطبقة الراقية، فرقة من المغنيات، وتسير السيدات في الخلف بخطوات وئيدة رزينة؛ أما نساء الطبقة الأدنى، فهن أقل تكلفاً ويسرن في مجموعات، ويغنين وهن يتمشين، ويجعلن الجو يصدح بأصوات الطبلة والزغاريد التي يطلقنها، وترتدي سيدات الطبقة الراقية في هذه المناسبات لباساً بسيطاً، ويضعن الحجاب المخطط المعتاد بدلاً من الفراجي الأبيض، وترتدي معظم النساء الأخريات ثياباً خفيفة. وما إن يبتعدن قليلاً عن المدينة، حتى يصبحن أقل اكتراثاً بحجابهن، ويتحين فرصاً عرضية للكشف عن أجزاء من وجوههن، أكثر من أي وقت آخر.

بما أنه لا يتم إبعاد الرجال عن البساتين في مثل هذه الأيام العامة، فمن الطبيعي أن يتسكع بعضهم في الممرات، مما يجعل النساء أكثر حذراً وحيطة، ويبقين متسترات. وثمة نساء أخريات يأتين إلى البستان في أيام أخرى، ولا يتعرضن لمثل هذه التقييدات، بل يطلقن العنان للفرحة والبهجة، وتتمتع تلك النسوة بنزهتها من جميع النواحي، وتتألف هذه المجموعات من سيدات ينتمين إلى عائلتين أو ثلاث عائلات يستأجرن البستان طوال النهار، حيث يحضرن معهن طاهيات لإعداد الطعام؛ ويقف كيخيا الحريم مع عدد من الخدم عند بوابة البستان، ليحول دون فضول الغرباء، ولا يظهر أصحاب البستان في تلك الأوقات، وتشعر النسوة بحرية كبيرة في التجول في أرجاء البستان، غير مكترثات بحجابهن. وتنطلق مجموعة النساء تلك من المدينة عند الفجر، وتعود عند المغرب، وينتهز عدد كبير من الجواري والخادمات الفرصة للاستمتاع بوقتهن، ويُعتبر ذاك اليوم يوم حبور ومرح، وتحضر مع المجموعة موسيقيات وراقصات ومهرجات، ويمكن سماع أصوات موسيقاهن وزغاريدهن من على مسافة ميل. ولايرغب عادة البستاني كثيراً في قبول مثل هذا النوع من النزهات، لأنه لا يمكن تعويض الضرر الذي يلحق بأشجاره المثمرة، إذ يقمن بقطع الأغصان المزهرة بلا رحمة، ويقطفن الثمار وهي فجة قبل نضجها بكثير.

تذهب النسوة في هذه المناسبات إلى البستان سيراً على الأقدام، إلا إذا كان البستان بعيداً جداً، فتذهب الكبيرات منهن على محفة مغطاة يحملها بغلان، أما ما تبقى من الحاشية، والنساء اللاتي لا يرغبن في المشي فيمتطين حماراً أو بغلاً.

تسمى المحفة 'تختروان'* ويستخدمها المسنون والعاجزون في بعض الأحيان، وهي أكثر الوسائل عصرية بالنسبة للسيدات، وفي الرحلات الطويلة، يحملها جملان بدلاً من البغال، وخاصة عند الحج إلى مكة، ويوجد دائماً عدد معين من التختروان في جناح الباشا.

ثمة وسيلة أخرى لنقل النساء والأطفال من الطبقة المتوسطة، إذ تعلق محفتان منهما على الجانبين المتقابلين من الجمال لكي تكونا متوازنتين بشكل مستمر، وهي عبارة عن سرير خشبي مغطى بأطواق رقيقة من الخشب، يوضع فوقه أحياناً مظلة. وهي مزودة بمرتبة ووسائد، بحيث يمكن للشخص الجلوس فيها براحة حسب الطريقة الشرقية، غير أنه لا يمكنه أن يتمدد بكامل جسمه، وهي تدعى محفة.

بالإضافة إلى اليومين العامين في الأسبوع، ثمة أيام عديدة أخرى يُسمح فيها للنساء بالخروج للاحتفال بذكرى بعض المشايخ والأولياء، حيث يقمن بزيارة أضرحتهم سنوياً كنوع من أنواع العبادة؛ إذ تقوم أعداد كبيرة من النساء بزيارة ضريح الشيخ أبي بكر مرتين أو ثلاث مرات في السنة.

يعتري النساء استياء شديد عندما يصدر الوالي أو القاضي أمراً بمنع النساء من الخروج من بيوتهن في الأيام المخصصة لهن، وهذا يحدث عندما تسير القوات بالقرب من المدينة، وعند حدوث اضطرابات، وقلما يصدر الباشا أمراً كهذا نتيجة نزوة منه، إلا أن هذا الأمر يُعتبر أمراً جائراً على الدوام ومبعث استياء، ورغم أنه ينفذ بدقة، إلا أنه يحدث همهمة كبيرة بينهن.

من الأمور التي ذكرناها يتبين أن السيدات المسلمات لسن مقيدات بشدة كما يسود التصور: ويمكن الإضافة إلى أن العادات، وفكرة الاحتشام المرتبطة بتقييدهن لا تجعلهن يشعرن باستياء شديد، وإن عدم معرفتهن بالمزايا التي تتمتع بها المرأة في بقاع عديدة من أوروبا، تحول دون عقد مقارنة بينهن، وعندما يسمعن بهذه المزايا، فلا يبدين رغبة في الحصول على مثل هذه الحرية، ويعتبرنها في كثير من الأحيان، لا تتماشى مع مفهومهن عن الشرف والحشمة.

عندما ورد في الطبعة السابقة بأنه نظراً لأن المسلمين في حلب شديدو الغيرة، ففيهم من يترك زوجته حبيسة في البيت لأطول فترة ممكنة، ونادراً ما يسمح لهن بزيارة بعضهن، كان القصد من ذلك عقد مقارنة مع الحرية التي تتمتع بها النساء الأوروبيات، إلا أن عادة بقاء النساء في بيوتهن عادة مغرقة في القدم في الشرق، وقد اعتمدها المسلمون وطبقوها.

يقول بلوتارك: 'تمتاز طباع الشعوب البربرية، بما فيها الفرس على نحو خاص، بالغيرة والفظاظة والعناد تجاه نسائها، لذلك، فهم لا يقيدون زوجاتهم فقط، بل جواريهم وسرياتهم كذلك، فيبقونهن حبيسات البيت، بحيث لا يمكن لأحد أن يراهن سوى أفراد عائلتهن، وعندما يخرجن للسفر، يوضعن في عربة مغلقة من جميع الجوانب، وكانوا قد وضعوا ثيمسيستوكليس في عربة مشابهة، وكانوا يقولون لمن يصادفونهم أو يتحدثون إليهم في الطريق، بأنهم يحملون سيدة إغريقية شابة من اليونان إلى بلاط أحد النبلاء.

* التختروان: وهو مايسمى بالفصحى 'الهودج' (المترجم).

إن هذا الحدث مؤرخ في السنة الأولى من Artaxerxes، أي حوالي سنة ٤٦٢ قبل الميلاد، كما يجدر التنويه إلى أن عبور الطريق عند مرور عربة تحمل نساء كان يعتبر إهانة كبيرة، غير أن الإغريق أنفسهم كانوا يخصصون أجنحة لاستقبال النساء فيها، وهي تشبه الأجنحة المخصصة للنساء في السرايات في سورية. وكانت النساء يعشن وهن محتجزات ومقيدات إلى أبعد الحدود، وكان الخصيان يقومون على رعايتهن، ولم يكن يخرجن أبداً بدون حجاب أو بدون مرافقات مسنات، أما العادات الرومانية في هذا المجال، فكانت مختلفة تماماً، إلا أنه ليس من المحتمل أن تكون غزواتهم إلى سورية قد أحدثت تغييراً كبيراً في العادات الإغريقية المتعلقة بالنساء.

إن هذه الأمور، بالإضافة إلى عدم وجود أماكن ملائمة لعقد لقاءات، قد تعتبر من الأمور التي تعوق القيام بمغامرات غير شرعية، التي يمكن كشفها بسهولة، فضلاً عن ذلك، وبما أن هذه المغامرات نادراً ما يسمع عنها، يمكن الاستنتاج بأنها لا تحدث بشكل متكرر، فقلما أذكر حادثة زنى جرت في حلب خلال سحابة عشرين سنة، ومن بين الفضائح الخاصة التي سمعت بها، كانت بين الطبقة الدنيا، ولم يتجاوز عددها اثنتي عشرة، أما بالنسبة إلى دخول غرباء بصورة غير شرعية إلى حرملك العائلات الكبيرة، فإن وجود العدد الكبير الذي يتعين الوثوق به من أجل كتمان السر، يجعل الأمر ضرباً من المستحيل، ولعل حلب لا تختلف كثيراً في هذا المجال عن باقي المدن التركية؛ رغم أنه قد توجد في العاصمة أماكن ثالثة ملائمة لعقد لقاءات غرامية غير شرعية، أكثر مما عليه الحال في الأقاليم. وفيما يتعلق بالإفرنج، فإن هذه العملية ليست محفوفة بالمخاطر بالنسبة للفرد فقط، بل قد تؤثر نتائجها كذلك في جميع أفراد الجالية، لذلك ينبغي ألا يتم ذلك على الإطلاق أو أن تتم بسرية تامة. ولدي أسباب تجعلني أعتقد أنه كانت تقدم في بعض الأحيان للرحالة الأوربيين، مومس يونانية على أنها سلطانة، وبعد أن يدب الذعر في نفوسهم، كانوا يرغمونهم على دفع مبلغ كبير لكتمان السر، الذي كان يشاع إلى نصف الأخوات في المدينة (٢).

إلا أنه ليس من الإنصاف أن نعزو عفاف النساء إلى هذه العوائق الخارجية فقط إذ أن الاحتشام الفطري الذي تعززه تربية الأم منذ الصغر وفي سنوات الصبا، يحميهن من كثير من الإغواءات الماكرة، كما يعتبر المناخ والقانون الطبيعي مواتياً لذلك؛ إذ أن المهارة في فنون الإغواء، أو التورط في علاقات غرامية غير شرعية لا تعتبر من الأمور الهامة والضرورية في تكوين الشاب المسلم وتعليمه.

إن صلة القربى التي تجمع بين الزوجات والسراري اللاتي يعشن معاً تمنعهن من إقامة اتصالات غير شرعية، لأنها تعتبر عاراً مخزياً. وفي الواقع، فإن العلاقات السرية بين الصبية والجواري، مهما كانت الأسباب، هي أقل حدوثاً مما هو متوقع. كما أنه قلما يمكن إبقاء علاقة غرامية بالخفاء لمدة طويلة في الحرملك، وتحرص الأمهات عادة على الإسراع في تزويج أبنائهن، قبل أن تتأجج العاطفة فيهم، ويصبح من الصعب على السلطة الأبوية السيطرة عليها.

ذكرت لي بعض السيدات المسلمات، إن سبب تفضيلهن الجواري على النساء

الحرائر، يعود إلى كونهن خادمات وضيعات، فإن ذلك يحول دون إقامة علاقات جنسية في البيت، فعندما يتم إغواء فتاة حرة، يستغل أهلها هذا الحادث لإرغام العائلة على دفع مبلغ من المال بواسطة التهديد بالتوجه إلى القضاء العام، الأمر الذي لا يفضي فقط إلى دفع مبلغ ما، بل يعرض شرف الحريم للخطر، وهذا يثير حفيظة النساء أكثر، وفي بعض الأحيان، يتم تشجيع الفتيات سراً وبصورة ماكرة على القيام بذلك، ليس بأمل الحصول على تعويض مالي فقط، بل كذلك بأمل الحصول على زوج.

لا تتاح للشابات من الطبقة الراقية، خارج حدود الحرملك، فرص التورط في متع غير مشروعة، أو تكون الفرصة نادرة، لا لأنه لا يسمح لهن بالخروج بمفردهن فحسب، بل لعدم توفر أماكن خاصة تمكن الجنسين من اللجوء إليها. وتنتمي المومسات (اللاتي يقمن علاقات مع الجنود) إلى أدنى الطبقات، ويقمن في مناطق مظلمة من المدينة، لا يمكن لأي شخص ذي اعتبار أن يقترب منها. وتُمنح المومسات رخصاً من الفنكجي باشي التابع للباشا، ويدفعن له مبلغاً من المال لقاء توفير الحماية لهن، وبعضهن من أهالي حلب، إلا أن الكثيرات منهن يفدن من أماكن أخرى، ويستعرضن أنفسهن في الشوارع والمناطق الواقعة خارج حدود المدينة، ويرتدين ثياباً مبهرجة، ويتطاير حجابهن عن وجوههن، ويطلين خدودهن، ويضعن زهوراً على أصداغهن بطريقة تنم على ذوق فج، ويكون صدرهن مكشوفاً، وتشبه طريقة مشيتهن مشية الرجال وهي مليئة بالتصنع. وهن في أحسن أحوالهن صفيقات خليعات.

وقد يوجد عدد قليل من المومسات من طبقة أعلى نوعاً ما، وهن اللاتي يستقبلن زبائنهن في بيوت أفضل، إلا أن أصحاب تلك البيوت يجازفون بالتعرض إلى علمية ابتزاز أو للسخرية العامة عند اكتشاف أمرهم، مما يجعل هذا الأمر يقتصر على الفئة الدنيا من العسكريين أو الإنكشارية.

تتألف سيدات الحرملك من المسلمات الحرائر من سكان تركيا، أو من الجواري من أصل مسيحي يجلبن من جورجيا؛ وعدد هذا الأخير قليل نسبياً في حلب.

تبذل عناية في تعليم البنات من الطبقة الراقية، وتعلم الفتيات من جميع الملل السكوت والتواضع والتحفظ في سلوكهن في وجود الرجال. ومنذ الطفولة، قلما يخرجن من البيت دون وضع منديل من الشاش على رؤوسهن، ويرتدين الحجاب وهن في السادسة أو السابعة من العمر، ويرسلن إلى الكتّاب وهن في السابعة من العمر تقريباً لتعلم الخياطة والتطرين، إلا أن جودة تطريزهن أدنى بكثير من تطريز السيدات في استانبول. ويتم تطريز مناديل الرجال بالحرير من مختلف الألوان بالإضافة إلى الذهب والفضة، ويتم تحضيرها بشكل عام كهدايا تقدمها النسوة، وتصنع بنفس الطريقة علبة للساعة ومحافظ وأكياس تبغ، وكما ذكرنا، تعلم بعض الفتيات قراءة وكتابة اللغة العربية، إلا أنهن يُعلمن جميعاً الصلاة، وواجباتهن نحو آبائهن، وأسلوب السلوك الخارجي، وقلما يرسل الأشخاص من الطبقة الراقية بناتهم إلى الكتاتيب العامة بعد التاسعة من العمر، فإما أن تأتي معلمة مؤهلة إلى الحرملك، أو يقمن بتعليم أطفال بعضهن بالتبادل، وبهذه الطريقة الأخيرة، يتم تقويم الطبع المشاكس الذي ينشأ غالباً نتيجة المكوث في البيت، وذلك لأن المعلمة المتطوعة تتمتع بسلطة صارمة، وتبقي

التلميذة الصغيرة تحت مراقبتها، وتجلسها في الشقة حيث تعمل هي وخادماتها، وعندما تخرج من البيت تبقى الفتاة تحت رعاية امرأة تقدم لها تقريراً عن سلوكها، وعند الحديث في وجود تلك الفتيات، يتم الحفاظ على سرية جديرة بالثناء، وفي بعض الأحيان يعطى لهن درس غير مباشر عن طريق توبيخ الخادمات أثناء وجودهن. وفي واقع الأمر، فإن تعليمهن كله يبدو أنه لا يجري على منهاج رسمي لتعليم مبادئ السلوك، بقدر ما يتم فيه تزويد التلميذة بأمثلة عن الحياة المنزلية بأسلوب ماهر، لكي تستمد منها قواعد سلوكها.
إن عزل الصبية عن الفتيات في وقت مبكر (لأنهم يرسلون إلى كتاتيب مختلفة لتعلم القراءة) سرعان ما يؤدي إلى انفراد كل جنس بألعابه الخاصة، يعدّهم بشكل تدريجي إلى حياتهم المفضلة في المستقبل، ويضيق الصبية ذرعاً بتقييدهم في الحرملك، ويحبذون قضاء أوقاتهم بين الخدم والخيول، ويتصنعون مظهراً جاداً رزيناً، ويقلدون سلوك الأشخاص الأكبر منهم، وتتكون لدى الفتاة آراء مختلفة تتعلق بكرامتها، وتبدأ في الاهتمام بدقائق الأمور المتعلقة بجنسها، وتصبح مغرمة بالتفاخر بحجابها، وتبذل ما بوسعها لتقليد مشية ونغمة صوت السيدات اللاتي تعجب بهن وتقلدها في ترديد عبارات معينة. وحسب ما ذكر م. دارفيو فإن الصبية لا يسمح لهم بدخول شقق النساء بعد بلوغهم السابعة من العمر: بسبب غيرة الرجال، وقال آخرون الشيء نفسه؛ إلا أنه إذا كان صحيحاً في الوقت الذي كتب فيه ذلك، فإن ذلك ليس هو الحال في حلب الآن، إذ يتمتع الصبية بحرية الدخول إلى الحرملك حتى بلوغهم السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، وهم لا يذهبون مع النسوة إلى الحمام بعد بلوغهم السادسة من العمر (٣).

إن ملامح النساء جذابة أكثر من كونهن أنيقات، وكنا قد ذكرنا سابقاً أنهن يتمتعن بالجمال خلال فترة طفولتهن، إلا أن جمالهن يتناقص عندما يكبرن؛ ومع ذلك فهن يحتفظن بتلك العيون النجلاء الجميلة إلى الأبد، وتحافظ الكثيرات منهن على سماتهن الفاتنة دائماً، أما بشرتهن فيصيبها التغيير، وهن لا يرتدين مشدات، ولا يبذلن جهداً كبيراً في الحفاظ على قوامهن، وبصورة عامة، فإنهن قصيرات القامة، والطويلات منهن محدودبات، وتتصنع النسوة من الطبقة الراقية مشية وقورة ذات مهابة، إلا أنهن يسرن بشكل غير أنيق، ويخلو شكل جسمهن من البساطة والمظهر الذي اعتادت عليه العين الأوربية، فهن لا يفصلن ثيابهن التي يخرجن بها لإبراز صفات معينة، فالحجاب يسيء إلى قوامهن وشكلهن، وتختفي الساقان في الحذاء الطويل ذي الساقين بصورة فظة، بل وحتى بدونه فإن حركتهن لا تكون أنيقة وسهلة كما هي حال حركة أيديهن؛ وقد يكون هذا هو السبب الذي يجعلهن يبدون في أجمل مظهر لهن عندما يجلسن في الإيوان.

إن الطريقة العابرة التي يمكن أن يشاهد فيها الأجنبي النساء المسلمات، يجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، التحدث عن جمالهن بصورة دقيقة، ومقارنتهن بجمال النساء من البلدان الأخرى اللاتي يُشاهدن أكثر، إذ إن الثياب والحجاب تسيء إلى شكلهن، وقد لا تظهر (وخاصة الأخير) جمال طلعتهن، فقد أتيحت لي فرصة رؤية أعداد كبيرة منهن، وكنت أظن أنهن يتمتعن بجمال أكثر من السيدات المسيحيات أو اليهوديات، إلا أنني أصبحت أميل للشك فيما إذا كان ذاك الرأي قد يعزى إلى حد ما لرؤيتهن بصورة غير كاملة أو عندما يبدون بطريقة مثلما يفعلن عندما يبرزن جمالهن. وقد بدأت أغير

رأيي عندما كانت النسوة، اللواتي كنت أظن أن وجوههن فاتنة من تحت حجاب غير محكم، يكشفن عن وجوههن أكثر.

عندما يتم شراء الجواري وهن صغيرات، وهو أمر نادراً ما يحدث، تتم تربيتهن كما تُربى فتيات العائلة؛ ولكنهن إذا بلغن الخامسة عشرة من العمر أو أكثر، يعتبر أنهن تجاوزن سن الدراسة النظامية، فيبدأن بتحسين وضعهن في المستقبل للفرص العارضة، ولاينطبق ذلك إلا على اللاتي يُجلبن للبيع في حلب، وذلك لأن التجار يقومون على العناية بالكثيرات اللاتي يؤخذن إلى الأستانة وهن صغيرات حتى يبلغن درجة عالية من المهارة لكي يرتفع سعرهن، إذ يتم تعليمهن الموسيقى والرقص وارتداء الثياب، وفن الإغراء، وبصورة عامة، فهن يتمتعن بمفاتن شخصية كبيرة، والنسوة اللاتي تتم تربيتهن بهذه الطريقة قلما يُشاهدن في حلب بسبب ارتفاع أثمانهن، كما يعتبرن قادرات على إفساد الحريم السوريات الأقل شأناً، إذا ما حذون حذوهن، وقد عرفت قصة باشا كان قد اشترى سيدتين من تلك السيدات بثمن باهظ من الآستانة، إلا أنه طردهن بعد أقل من ثلاثة أشهر، مدعياً أنهن أخذن يفسدن عقول نصف النساء في الحرملك، بالإضافة إلى ظهورهن في ثياب جميلة. وكان يعتقد أنهن سيحولن بناته إلى راقصات بعد شهرين اثنين من الزمن.

يتم شراء الجواري وهن في سن معيّن لاستخدامهن كخادمات وضيعات، أو لاتخاذهن كشريكات في المخدع في المستقبل. وفي الحالة الأولى، تثبت الكثيرات منهن أنهن خادمات ممتازات ووفيات، وليس لهن أقارب يغرونهن بالخروج من البيت، ويتعلقن بالأسرة، التي رمتهن المصادفة وحدها إليهابإخلاص، ورغم أن الجاريات يكن في حوزة سيدهن، فإن حمايتهن من أية انتهاكات تتم نتيجة عادات راسخة ولاعتبارات أخرى. وإذا حملن فيبقين جاريات، إلا أنه لا يحق لسيدهن بيعهن مرة أخرى، وتتمتع ذريتهن تقريباً بنفس حقوق الوراثة التي يتمتع بها الأطفال الشرعيون، وإذا كانت الجارية ملكاً لإحدى سيدات الحرملك، سواء كانت مشتراة أو مقدمة كهدية، فإنها تعامل على قدم المساواة تقريباً مع بنات العائلة، وإذ ما تعرضت لأي ضرر، فإن ذلك يعتبر إهانة شديدة لسيدتها.

أما السيدات المخصصات للمخدع، فإن جمالهن وجاذبيتهن الشخصية هي التي تؤهلهن لذلك، وليس مؤهلاتهن المنزلية، ويتوقف مستقبلهن على عدة أمور. فعندما تجلب إلى حرملك شخص شهواني، فإن المحظية الجديدة تتبوأ الصدارة بشكل يثير الحسد لفترة من الزمن، إلا أنها سرعان ما تجد نفسها قد تدنت إلى نفس وضع السيدات المهملات التي كانت قد حلت محلهن. وإذا لم تنجب طفلاً، فهي تتعرض في بعض الأحيان لمهانة منافستها الأكثر سعادة؛ أو تجرب حظها مع عائلة أخرى إذا سمح لها سيدها بذلك، وعندما يسوق الحظ جارية شابة في البداية إلى شاب عزب أو رجل في عمر ملائم، لم يكن قد أنجب أطفالاً، فيحصل على موافقة زوجته لكي يتخذها سرية له، وتستقبل في الحال استقبالاً حسناً، و تنشأ عادة حياة سعيدة. إلا أنه في معظم الأحوال، فإن مصير الفتيات الجميلات اليتيمات يكمن في وقوعهن ضحايا لا حول لهن ولا قوة بيد رجال مسنين أثرياء مصابين بالعنّة، ويكتب عليهن أن يبلغن الصبا وهن مخفيات،

وأن يضعن ريعان صباهن في حالة من الترف المجرد من الذوق، ولايعتقهن من ربقة العبودية إلا موت سيدهن. إلا أنه نظراً لأن حصتهن من ثروته لا تكفيهن بالاستمرار في الحياة التي اعتدن عليها، فإنهن يجدن أنفسهن مضطرات لقضاء باقي أيامهن في عزلة وعوز شديد، أو إذا سعين للزواج من رجل من فئة أدنى، يجدن أنفسهن غارقات في واجبات لم تؤهلهن حياتهن السابقة الخاملة لذلك.

أما البنات اللاتي تملكهن نساء، واللاتي يتم شراؤهن وهن صغيرات، فتتم تربيتهن بعناية، وفي بعض الأحيان، يصبح لهن وضع مشرف في الحرملك. وقد يتزوجن من شخص من عائلة أخرى في حال قبول سيدتهن؛ ويحصلن على حريتهن، ويواصلن ارتباطهن بالعائلة. غير أن نسبة كبيرة من تلك الجواري يبقين عذراوات بقية حياتهن، ويتبعن مصير سيداتهن، ورغم أنهنّ يُعتقن عند وفاة سيدتهن، يبقين على ارتباط بواسطة أطفالهن تعبيراً عن الامتنان.

عندما يتوفى شخص ما، تصبح جواريه (ما عدا اللاتي أنجبن أطفالا) من ممتلكات ورثته؛ غير أنه توجد درجات محددة من صلات القرابة تبعدهن عن مخدع الخلف أو الوريث، وفي بعض الأحيان يمنح الأعيان الجواري اللاتي ليس لديهن أطفال من معيليهم المفضلين، كدلالة على الاحترام والتقدير؛ إلا أن ذلك يتم عادة بموافقة المرأة التي تحصل على حريتها وحصتها من الزواج. ومن الناحية الأخرى، يقدم التجار الأغنياء أو آخرون ممن لهم مصلحة لدى كبار المسؤولين جارية عذراء، وإذا حالف تلك الجواري الحظ وأصبحن من المحظيات، يعبرن غالباً عن شعورهن بالامتنان بتقديمهن خدماتهن لعائلة سيدهن الأول.

كما يقدم الأعيان الجواري إلى بعضهم البعض كهدايا إلا أن هذه العادة أقل شيوعاً، وتعتبر أكثر خطورة، وقد أصبح ذلك من السياسات الشائنة، بحيث تنقل الجريمة إلى داخل البيوت التي تسودها أكثر العلاقات المقدسة للأمن، ويدور الشك بأن أكثر تلك الفتيات جمالاً، رغم أن ذلك غير مبرر في معظم الأحيان، يصبحن في بعض الأحيان أدوات لأكثر أنواع الخيانات شناعة.

فقد كنت أعرف أحد الباشاوات في حلب في عام ١٧٦٢، ممن مات بعد بضعة أشهر من توليه منصب والي القاهرة، وقد دار الشك حول جارية جميلة كان شديد الولوع بها، بأنها له دست السم. وكان قد قدم الوزير الأعظم هذه الجارية كهدية بمناسبة مغادرته الآستانة. وقد أتيحت لي الفرصة فيما بعد لأن أتحدث إلى عدد من ضباطه في البيت، وأصبحت أميل للاعتقاد (على عكس ما يعتقدونه) بأن وفاته رغم أنها كانت مفاجئة، كانت مجرد قضاء وقدر، علماً أنه كان قد استشارني قبل ذهابه إلى القاهرة بأن دواراً كان ينتابه منذ سنوات عديدة، وكان في شبابه مفرطاً في الطعام، ذا رقبة قصيرة، وغير معتدل في ملذاته، وكان يخشى كثيراً الموت نتيجة لذلك، ولسوء الحظ فقد أصابته نوبة، لم يكن معه أحد سوى تلك الجارية.

يفضل الكثير من الأشخاص من الطبقة الراقية والتجار الأغنياء، الزواج من جارية على الزواج من امرأة حرة. وهم يفضلون بذلك الاستغناء عن المال، بل وجميع مزايا التحالفات والارتباطات العائلية الأخرى من أجل عدم الرضوخ للشروط التي

تفرضها عليهم تلك النسوة، إذ تميل المرأة الحرة لأن تكون متعجرفة ومشاكسة، ويفرض ذووها في بعض الأحيان شرطاً في الزواج بألا يضم امرأة أخرى إلى مخدعه. وفي جميع الأحوال، فإن الخوف من نقمة العائلة يجعله مقيداً. ويقال بأن روح عدم الالتزام بالقواعد الصارمة أصبح الآن شائعاً أكثر من أي وقت مضى. كما أن الزوجة التي يفترض أن يكون جل اهتمامها في بذل جهدها للتوفيق بين عواطفها مع عواطف الرجل الذي يعتبر معيلها الوحيد، والذي يمتلك قوة هجرها بصورة تعسفية، قد أصبح إرضاؤها أكثر صعوبة نتيجة تدني عدد الجواري الجورجيات اللاتي يُجلبن إلى الأقاليم. وفي الوقت نفسه يمكن ملاحظة أن الالتزام بامرأة واحدة، نظراً لكونه شرطاً يرد في عقد خاص، وليس من التعاليم الدينية، فإنه غالباً ما يتم خرقه، ويؤدي ذلك إلى نشوب خلافات عائلية كثيرة.

نظراً لأنه لا يمكن إظهار الغزل والتودد إلا بعد التملك، أو على الأقل إلا بعد أن يصبح الشيء في حوزة المحب، ثمة شك بعدم وجود سوى مجال ضئيل لرقة المشاعر، ونظراً لأن الرجل لا تقوده سوى عواطف سمجة، ولا يبدي اهتماماً بفنون التودد المهذب الراقي، فإن المرأة ستنظر بلامبالاة وإهمال إلى الخيانة التي أقرت بها العادات، والتي ليس بإمكانها منعها أو رفضها، ويتظاهر الرجال بنفورهم من التودد للنساء ومغازلتهن، ويعتبرونه امراً تافهاً، كما أن مخيلة كلا الجنسين لا تتأثر بالروايات الرومانسية، إلا أنه من خلال معرفتي الأكثر عمقاً مع بعض الأفراد، أصبحت أعتقد بأن الطبيعة نفسها تفرض عواطف رقيقة لا مثيل لها، تجعلهم في غالب الأحيان قلقين أو غير سعداء، وتظهر أن شيئاً آخر ينقصهم حتى يكتمل ذلك الرغد، أكثر من مجرد سلطتهم على الجمال السلبي.

ومن الناحية الأخرى، فإنه رغم أن هجر الرجل للمرأة أمر غير خطير كثيراً بالنسبة للمرأة، فإن مشاعر محددة تجعلها تشعر غالباً بجرح عميق، وتندب حظها في السر، ورغم أن الأسلوب السائد قد يبررها، فهي لا تستطيع كتم مشاعر قلب إنساني. إن الاهتمام المفرط بالثياب والتهذيب في السلوك، الذي يلاحظ بعد الزواج بفترة وجيزة عند العديد من الشبان المسلمين، لهو دلالة ضمنية على احترام الجنس الآخر أكثر من المبدأ الذي يقر به الرجال؛ فضلاً عن أن الخدود الشاحبة للجميلات المنبوذات، مع سلسلة طويلة من الأمراض المزمنة، التي تؤدي إلى الدخول في حالة من الاكتئاب، ماهي إلا براهين على مشاعر الأنثى، التي تستهلك الروح ببطء وتعرض ريعان الصبا إلى الوقوع في براثن الأسى والحزن الخفي هي أمور تتم مصادفتها في معظم الأحيان.

يجب اعتبار الأمثلة التي ألمحت إليها، رغم عدم شيوعها، استثناءات بالنسبة للتأثير المنتظم الذي يجعل الجنس الآخر يستسلم لتقلبات أمزجة أزواجهن، أو يجعلهن يخضعن فقط إلى نوبات عارضة من الاستياء، وتبدو السراري اللاتي تطفلن على الأخريات بشيء من الادعاء حول عاطفة الرجل المنقسمة، راضيات في مشاركتهن للأخريات. وتجد الزوجة أن من مصلحتها أن تلوذ بالصمت، وعندما لا تحرم من حقوقها القانونية من الزوج، فهي تستسلم لمصيرها ولاتبدي أي اعتراض أو احتجاج. ويكون من حسن حظها، عندما يكون لديها أطفال أن تشغل اهتمامها بأطفالها، وتنقل إليهم حبها

وعطفها، وتسعى بدأب إلى تنمية الإرادة الطيبة للأب من أجلهم، رغم وجود أمل بعودة عواطفه.

يقتصر الشاب بعد فترة من زواجه على زوجة واحدة، ولا يمنح نفسه حق تعدد الزوجات إلا بعد فترة لاحقة من حياته، أو إلى أن يمتلك عقار الأب، إن الفكرة السائدة بأن المتعة لا يمكن العثور عليها إلا من خلال التنويع، تحول طبيعياً دون بذل جهد لتنمية عواطفه التي قد تجعله يرتبط بزوجة واحدة. وقد يحدث في بعض الأحيان، أن يقع في شباك امرأة على حين غرة. وقد تجد أن عواطف الرجل تتركز على سيدة واحدة في حرملك الأعيان، بينما لا تؤدي الزيارات التي يلتزم بالقيام بها للأخريات إلا إلى إقناعه بالفرق بين مجرد الشهوة والعاطفة المشبوبة، وقد ذكر لي الرجال أنفسهم أمثلة عما دعوه عاطفة جياشة تعرضوا لها في أوقات مختلفة من حياتهم، والتي اعترفوا بصراحة أنها جعلتهم يستسلمون بغباء للمرأة، وأنهم قد يشعرون بالخجل من قلبهم لضعفهم، كما أنه من المثير للاهتمام ملاحظة أنه في الحالات التي لا يكون فيها للمال أو دوافع أخرى أي تأثير، فكيف يمكن لقليل من الجمال أن يحدد اختيار الرجل، ويلاحظ غالباً أنه يتم تفضيل السيدات اللاتي يتمتعن بمفاتن قليلة على النساء الأكثر أناقة وجمالاً. وثمة أمثلة كثيرة جداً عن العلاقات الدائمة التي تشكلت مع نساء متوسطات الجمال في الحرملك.

الملاحظات

(١) يعزو Rycaut (الذي كان سكرتيراً للورد وينشلسيا سفير الباب العالي من قبل تشارلز الثاني ومن ثم القنصل في سميرنا (إزمير) السبب إلى 'أن النساء فاسقات، وغير محتشمات وأنهن يتفوقن في فنون الحصول على متعتهن (الوضع الحالي للسلطنة العثمانية، ص٢٧١، لندن، ١٦٧٥).

وبعد أن يذكر بيلون أن النساء المسلمات لا يخرجن إلا لزيارة الحمام والمقابر يضيف: وحسب الدين الإسلامي فهن لا يدخلن الجنة، ولا يسمح لهن بارتياد الجامع لأنهن غير مطهرات. وثمة رأي بأنه يوجد مكان معين في الجامع مخصص للنساء، إلا أنني أستطيع تأكيد العكس، وبعد أن تقصيت الأمر تأكد لي أنهن لا يذهبن إلى الجامع.

كما يذكر رحالة آخرون أخطاء فاحشة عن الإسلام أمثال م. فولني (M. Volney) الذي يتبنى الخطأ الشائع فيقول: 'إن محمداً رغم حبه للنساء لم يكرمهن في القرآن على أنهن بشر، ولا يذكر الشيء الكثير عن مكافأتهن في العالم الآخر، كما يوجد جدل عند المسلمين فيما إذا كان للنساء روح أم لا'.

والآية التالية من القرآن تثبت أفضل دحض لهذا الخطأ الشعبي فيما يتعلق بمستقبل النساء المسلمات:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل، ٩٧).

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ (التوبة، ٧٢).

﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ (غافر، ٤٠).

﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ (الحديد، ١٢).

إن بيلون محق عندما يؤكد أن النساء لا يذهبن إلى الجامع. وبالتالي فهن لا يفعلن ذلك في حلب، رغم أني سمعت أنهن يذهبن في بعض الأحيان إلى جامع معين في إحدى الضواحي. ويقول أسماني إن النساء من الطبقة الراقية يذهبن أحياناً وإن كان نادراً إلى الجامع، وأنه يوجد مكان مخصص لهن حيث لا يمكن للرجال رؤيتهن.

ويُسمح للنساء في سن معينة بحضور العبادات العامة ويتعين عليهن عندئذ عدم الاختلاط بالرجال. أما بالنسبة للواجبات الدينية الأخرى، فيبدو أن النساء ملزمات بقدر التزام الرجال. وأعرف الكثيرات من السيدات المسلمات اللاتي ذهبن إلى الحج وكن ورعات تماماً، أما الأصغر سناً، فرغم أنهن يصمن رمضان ويقمن بنفس واجبات الرجال، فيبدو أنهن أقل دقة في الصلاة.

(٢) يتحدث دارفيو عن سيدات حلب فيقول: 'يفيد أولئك الذين يتمكنون من الدخول إليهن بأنهن ذكيات ومرحات للغاية، ورغم احتجازهن والعناية الشديدة التي يبذلها الزوج فهن يحاولن عادة إقامة علاقات غرامية، عادة بواسطة امرأة يهودية، ولكن الويل للطرفين إذا ما اكتشف أمرهما (المذكرات، المجلد٦، ص٤٢٢).

وتجدر الملاحظة أن دولوار ودارفيو يتفقان على جعل اليهوديات وسيطات في هذا الأمر

الفاسد. ويقال إن حوانيت اليهود في الأستانة هي الأماكن المعتادة لعقد اللقاءات الغرامية، والأمر ليس كذلك في حلب، لأن جميع الحوانيت موجودة في السوق العام ومساحتها صغيرة.

وفيما يلي الوصف الذي أوردته الليدي ماري ورتلي مونتاج:

'أما بالنسبة لأخلاقياتهن وسلوكهن فأستطيع القول، كما قال Harlequi إن الأمر يتفق تماماً معك، والسيدات المسلمات لا يرتكبن إثماً واحداً ليس لأنهن لسن مسيحيات. وقد اطلعت الآن على بعض أساليبهن. ولا يسعني إلا أن أعبر عن إعجابي، سواء للتحفظ الرائع أو الغباء البالغ لجميع المؤلفين الذين كتبوا عنهن. إذ تتمثل الطريقة المعتادة في إقامة علاقة غرامية في إرسال موعد إلى العشيق للقاء السيدة في أحد حوانيت اليهود، وهي ملائمة كثيراً لذلك كما هي بيوت الهند (India Houses) عندنا. وقلما تدع السيدات من الطبقة الراقية عشاقهن من معرفتهن. وبوسعك تصور عدد الزوجات الوفيات بسهولة عندما لا يخشين من افتضاح أمرهن'.

أما إلى أي مدى كانت معلومات السيدة ماري صحيحة فهذا أمر يصعب تحديده. إلا أنه من المؤكد أنها مخطئة، أو أن وصفها غير صحيح عن حجاب المرأة الذي يغطيها بالكامل فيجعلها حرة لكي تفعل ما تشاء دون خطر اكتشاف أمرها.

إن وصف دو لوار للحجاب الذي ترتديه النسوة في الآستانة أكثر صحة: إلا أنه يؤكد (ص١٨٥) أنه عندما يقابلن عشيقاً شاباً، ينتهزن الفرصة، متظاهرات أنهن يسوين الحجاب لإظهار وجههن، وفي بعض الأحيان للكشف عن أماكن أكثر فحشاً.

غالباً ما تضطر النساء إلى تسوية حجابهن، إلا أنه في مثل هذه الظروف، يقفن دائماً ووجوههن إلى الحائط. أما الأمور الفاحشة التي يشير إليها دو لوار فهي تصدر عن نساء ينتمين إلى أدنى فئات العاهرات.

(٣) بعد أن لاحظ م. دارفيو أن غيرة الرجال تمنع الصبية الذين تزيد أعمارهم على السادسة من الدخول إلى الحرملك، فهو يضيف أن أقرب الأقارب وأكثر الأصدقاء ودية يمنعون كذلك إلا في حالات نادرة أو في تقييدات عديدة، وتحتجز النساء (وخاصة من الطبقة الراقية أو الغنية) بشدة ويراقبن كما لو أنهن في أديرة؛ في حين أن نساء الطبقات الأدنى يشاهدن في الشوارع.

'وبما أن عمل السيدات وهن في سجنهن هذا يتألف من الحياكة والتطرين؛ وتسليتهن تكون في الحمام، أو في سماع الموسيقى والرقص الذي يفعلنه لإمتاع أزواجهن. وهن لا يذهبن إلى الجامع'.

'وإذا كان دخول الحرملك متعذرا على المسلمين، فهو محرم تماماً على الإفرنج. (ويقول المؤلف) إلا أنه صحيح أنه عندما يذهب تجارنا في عمل تجاري إلى منازل التجار المسلمين، فإن زوجاتهم اللاتي تنتابهن رغبة جامحة في مشاهدة الإفرنج، يجدن وسيلة لإشباع فضولهن، وهن في الوقت نفسه، لا يظهرن فقط، بل وعندما يجدن أنفسهن أنهن غير معرضات لخطر إدراك زوجهن لهن، يقمن بألف إيماءة وحركة (المذكرات، المجلد السادس، ص ٤٢٢).

فإما أن تكون الأمور قد تغيرت منذ زمن دارفيو، أو أنه قد ضلل بالمعلومات في بعض الأمور المذكورة أعلاه. فليس من المعتاد بالنسبة للنساء الحرائر، في حرملك الأغنياء أن يغنين ويرقصن لإمتاع أزواجهن، كما أنهن لسن محتجزات إلى حد عدم مشاهدتهن في الشارع، و لسن مقيدات جداً في عدم استقبال أو القيام بالزيارات، أما بالنسبة لقصة التجار الفرنسيين فإني أميل للاعتقاد أنها من نسج الخيال، لأنها لا تتماشى أبداً مع أفكار اللياقة والاحتشام في ذلك البلد، وأن تقوم زوجات أو بنات تاجر (مثل الذي كان التجار الفرنسيون يزورونهم) بإبداء إشارات غير محتشمة داخل حدود منازلهن.

الفصل السادس
عن الحريم المسلمات في حلب

تعدد الزوجات ، الطلاق ، الاحتفالات الداخلية في الحرملك ، حفلات الزفاف ، تقدير مقارن للسعادة الزوجية في تركيا ، النساء قلما يتدخلن في السياسة ، احترامهن لدى العامة ، تعدد الزوجات بالنسبة للسكان ، احتفالات الولادة ، الجنازات ومراسم الوفاة ، الولاويل أو الترانيم الجنائزية ، زيارة القبور.

لقد أساء الكثير من الكتاب الأوروبيين بصورة غريبة تفسير تعدد الزوجات عند المسلمين. ورغم أنه واضح تماماً في القرآن، فان الكثير من السكان المحليين يسيئون تفسيره كذلك: إذ يسود الرأي الشائع بأن القانون يبيح الزواج من أربع زوجات والاحتفاظ بالسراري والجواري مهما كان عددهن وذلك حسب قدرة الشخص. غير أن ممارسة بعض الرجال قد تبدو أنها تبرر هذا الرأي، وان الواقع الذي يعرفه تماما المسلمون الأكثر تعلما، أن العدد يجب ألا يتجاوز أربع نساء، سواء كن زوجات أو سراري (١).

رغم أن الشرع يبيح تعدد الزوجات، فإن لمعظم الناس زوجة واحدة. وثمة عدد قليل جداً من أفراد الطبقة الدنيا متزوج من أكثر من واحدة، ورغم أنه يوجد العديد من أفراد الطبقة الوسطى ممن لهم زوجتان، أو ربما زوجة وسرية، فإن العدد ما يزال ضئيلاً. وينغمس الناس من الطبقة الأعلى ، حيث تفيض المتع والرفاهية من كل نوع، في هذه الأمور. وبينما يتزوج القليل منهم بأكثر من زوجتين، أو على الأكثر ثلاث زوجات في وقت واحد، يحتفظ العديد منهم بخمس أو ست جواري بالإضافة إلى زوجاتهم: بل قد تجد أنه لدى بعض الناس ممن يتمتعون بثروة طائلة من عشرة إلى عشرين سيدة في الحرملك التابع لهم، وهن مخصصات لمتعتهم*.

يتألف الحرملك من عدد كبير من النساء. ولا يملك تلك النساء شبان صغار، أو على الأقل نادراً مايكون الأمر كذلك، إذ يزداد عددهن مع مرور السنين، ونتيجة لذلك فان النساء اللاتي استقدمن في فترات مختلفة، يكن من أعمار مختلفة. فقد زال الجمال عن بعضهن، وهجر بعضهن الآخر نتيجة الملل، وأهملت أخريات بسبب النزوة. وبشكل عام،

---

* لقد تعرفت على أشخاص ذوي ثراء فاحش كان لديهم أربعون امرأة، بالإضافة إلى الخادمات والنساء اللاتي كن يعملن في أعمال وضيعة في العائلة.

نقلت هذه الفقرة من الطبعة السابقة، وذكرت بدلاً منها، عدداً أقل من ذلك في حلب. إن المثال الذي ألمح إليه أخي كان (كما أعتقد) باشا يدعى باشا كور وزير، إلا إني لم أسمع عن مثال آخر بعد أن غادر أخي.

تجري زيارة عدد قليل جداً منهن. ويتم توفير القوت واللباس لهن بشكل لائق، ولكن ليس بنفس الأبهة كما هو حال المحظية منهن التي تجد حظوة لدى الرجل لفترة مؤقتة. أما اللاتي ينجبن أطفالا فيحظين باحترام خاص. إن الأعيان الذين شرعوا للمرة الأولى في هذه الرفاهية، يواصلون عادة هذا الأمر طوال حياتهم، ويستمرون في شراء ضحايا صغيرات. وبالإضافة إلى التفاخر والتباهي، فلا توجد دوافع أخرى تجعلهم يفعلون ذلك سوى الخرف.

إن الإنفاق على هذا العدد الكبير من الحريم يكلف باهظاً. إذ تكلف الثياب والمجوهرات مبالغ طائلة، ويعتبر شراؤها ضرورياً من أجل الحفاظ على الهدوء والسكينة في البيت، وبغية نشر نوع من العدالة في توزيع الهدايا التي تقدم عادة في الأعياد. ومائدتهن أكثر اقتصاداً من مائدة الرجال، ومن المؤكد أن تأمين مستلزمات القهوة والتبغ والحفاظ على عدد كبير من الخدم مكلف جدا. إن هذا الاعتبار يجعل الكثير من الناس من الطبقة الراقية يحجمون عن الاحتفاظ بعدد كبير من الحريم. أما عند الطبقات الدنيا، فإن نسبة كبيرة من الناس تحجم عن تعدد الزوجات بسبب عدم قدرتهم على إعالتهن.

كما قد يعزى أحد أسباب عدم شيوع الطلاق بين الطبقة المتوسطة، الذي يمكن الحصول عليه بسهولة، إلى اعتبارات اقتصادية. وذلك لأنه، وبدون ذكر أسباب أخرى، تطالب المرأة عندما تطلق (إلا في حالات استثنائية) بمهرها، وإذا رغب الزوج في الزواج من أخرى، فإن ذلك يتطلب نفقات جديدة. كما أن الطلاق نادر بين أفراد الطبقات الراقية، إذ أن تدخل الأقارب، ووجود مصالح مشتركة بين الطرفين تتضافر للحيلولة دون حدوث انفصال، ويحتمل ألا يحصل الزوج من جرائه على ميزات أخرى بعدم التمكن من الحصول على شروط أسهل: تمكنه من الزواج ثانية أو شراء جارية.

ورغم أنه بوسع الزوج، ولأسباب تافهة، أن يتخلص من زوجته بشكل شرعي، فهي لا تستطيع من طرفها الحصول على الطلاق، باستثناء حالات خاصة، دون أن تجازف بفقدان مهرها.

قد تعود الأطراف التي تنفصل بهذه الطريقة للالتقاء ثانية، خلال فترة محددة. فإذا ندم الرجل على فعلته في أي وقت قبل انقضاء ثلاثة أشهر، فإن أمر إعادة المرأة يقع بيده. أما إذا انقضت تلك الفترة دون أن يعلن عن نيته، فإن المرأة قد لا تقبل، وتكون حرة في الزواج ممن ترغب وفي أي وقت تشاء. غير أنه يحق للرجل طلقتان اثنتان، لأنه إذا طلقها للمرة الثالثة، فإنه لا يمكنه إرجاعها حتى تتزوج من رجل آخر، ويتوجب عليه أن يطلقها بعد انقضاء الفترة المحددة في القرآن. ويسمى هذا النوع من الطلاق ' الطلاق بالثلاثة'، ويمكن للرجل أن يفعل ذلك بنطق جملة واحدة، فلا تحق له المرأة حتى تتزوج من رجل آخر. ولم يسأ فهم أي من عادات المسلمين كما أسيء فهم مثل هذا الطلاق البائن (بالثلاثة) (٢). إذ يمر الطلاق في إجراءات معينة في المحكمة، أو على الأقل بعد أن يثبته شهود.

إن حق الرجل في تطليق جواريه وبيعهن أو التخلص منهن بشكل اعتباطي، قد يكون أحد أسباب الحفاظ على سلطته في جو من الغيرة وتضارب المصالح بشكل كبير بين أعداد كبيرة من الحريم. وتعزى كذلك أسباب أخرى لاستتباب السكينة في البيت*.

و لكل من الزوجات والسراري الرئيسيات شققهن ووصيفاتهن الخاصات بهن. ويشتركن في استعمال مطبخ واحد، إلا أنهن يتناولن طعامهن على موائد منفصلة. ويقمن بزيارة بعضهن، وتنمو بينهن مشاعر الود. وهن يستقبلن أقاربهن في شققهن، ويتبادلن الزيارات بشكل منفصل: ولا تجتمع جميع السيدات في الحرملك الواحد، أو يدعين خارج البيت مع بعضهن إلا في مناسبات خاصة.

إذا كانت الحريم تخص رجلاً واحداً، فإن الزوجة الأولى تدعى عادة ' الست الكبيرة '، وتحظى إلى درجة ملحوظة باحترام باقي النساء. إلا أنه يحدث في بعض الأحيان (وخاصة بين التجار الأثرياء) أن يقيم الأب، وأولاده المتزوجون العديدون في الحرملك في آن واحد، نظراً لمساحته الشاسعة، أو يقطنه الاخوة مع عائلاتهم، بعد وفاة الأب. وفي الحالة الأولى، تنتقل حقوق الست إلى زوجة الأب، وفي الحالة الثانية، تبقى هذه الحقوق بيد الأرملة، أو تصبح بيد زوجة الأخ الأكبر. وبهذا النظام، رغم عدم تطبيقه بدقة متناهية، يتم تجنب الخلافات حول الأولوية. وتتم استشارتها حسب العادات المحلية، وعادة ما تمارس سلطتها في أحيان كثيرة. فعندما ينظر إلى أم مسلمة بهذا المنظور، وخاصة عندما تترأس عائلة ضخمة، وتنجح في إدارتها، تعتبر في الحقيقة شخصية محل تقدير كبير: وكانت توجد الكثيرات في حلب ممن يستحققن هذا اللقب بجدارة. وعادة ما تعقب وفاتها هجرة الفروع الأصغر من العائلة. كما أن ازدياد عدد الأطفال يجعل من الضروري كذلك الانتقال إلى منازل منفصلة: إلا أنه في كلتا الحالتين، تبقى هناك أواصر اجتماعية قوية بين الأقارب.

يرغب المسلمون بشكل عام في تزويج أبنائهم في سن مبكرة. وفي بعض الأحيان يتم الاتفاق على الزواج بين الآباء عند الأغنياء، ويتم الزواج عند بلوغ سن الرشد. وقد يكون الشبان قد حظوا بفرصة رؤية بعضهم بعضا وهم صغار، ولكنهم يكونون غرباء في العادة من حيث العواطف.

ومن بين الإطراءات المتبعة التي تقدم لسيدة ما عندما تلد، أن يتمنى لها الآخرون بأن تحتفل بزواج رضيعها. وما إن يقترب الصبي من سن المراهقة، حتى تبدأ الأم بالشوق إلى تزويجه. وإذا لم تكن قد اتخذت أية ترتيبات سابقة، فإنها تطلب مساعدة معارفها من السيدات لإيجاد عروس مناسبة. إن الحمامات والحدائق والمناسبات الاحتفالية الأخرى التي تجمع النساء، تتيح للنساء فرصة مشاهدة الفتيات الأخريات. وُتعد البائعات المتجولات مراقبات ممتازات، ولاتعدم الأم وصديقاتها الحيلة للدخول

---

* 'قد يبدو أنه من المستغرب كيف أن مثل هذا العدد (من النسوة) يتفقن وهن يقمن معاً، وفي واقع الأمر فإن كبير العائلة يبذل جهداً في معظم الأحيان للحفاظ على الهدوء بينهن.' الطبعة الأولى.

كانت الصعوبة التي ألمح إليها هنا (بقدر ما تمكنت من ملاحظته) أقل في حرملك البيوت الكبيرة مما هي في الحرملك الأصغر، حيث تعيش النسوة مع بعضهن بصورة أكبر.

إلى حرملك النساء ممن لا يعرفنهن، ولاسيما إذا لم يكن بالإمكان رؤية الصبية التي سمعن عنها في أماكن أخرى. ويوكل الرجال هذا الأمر إلى قريباتهم من النساء، ويثقون بصحة ماينقلنه من أوصاف وأحوال العروس، ونادراً مايتم خداعهم أو إعطاؤهم صورة غير حقيقية عن هذا الأمر: أو على الأقل لا تجري محاولة إخفاء أي عيب ظاهر في المرأة.

عندما يعثر على الفتاة التي تتمتع بالمواصفات المطلوبة، وتظهر إمكانية حدوث قران، يتم طلب يد الفتاة من الأم، وإذا لم يرفض الطلب على الفور، يأخذ أصدقاء كلا الطرفين وقتاً كافياً للاستفسار عن أمور معينة. وإذا كانت نتيجة هذه الاستفسارات مرضية، يطلب والد الشاب يد الفتاة رسمياً من ذويها. وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد، يعين كل من الطرفين، بوجود شهود، وكلاء عنهما للاتفاق على شروط الزواج. ولايكون عادة للرجل وكيل عنه، أما موافقة الفتاة فتؤخذ عادة بواسطة وكيل عنها.

يحدد الوكلاء في اجتماع يحضره العديد من الأقارب الذكور، المبلغ الذي يتعين دفعه إلى والد العروس، مع شروط عقد الزواج الأخرى؛ ويسأل الإمام أو الشيخ الذي يحضر عقد القران، أحد الوكلاء إذا كان يرغب في اتخاذ الفتاة زوجة له، وعمّا إذا كان مستعداً لدفع المبلغ المتفق عليه، ويسأل الطرف الأخر إن كان موافقاً. وإذا كان جواب الطرفين بالإيجاب، يأخذ الشيخ يد كل منهما، ويضمهما إلى بعضهما، وينطق ببعض كلمات التبريك كما هو الحال عند إتمام صفقة ما. وتسلم عندها محفظة تحتوي على المبلغ المتفق عليه إلى والد العروس؛ ويتم التوقيع على العقد وختمه بشكل نظامي، وينتهي الاحتفال بقيام الشيخ بتلاوة بعض آيات القرآن. وما أن يتم العقد بهذه الطريقة، حتى يمنح القاضي موافقته على الزواج، وتكتب عادة على ظهر العقد، أو على ورقة منفصلة، يختمها القاضي. وإذا كان أحد الطرفين من الأشراف، فإن النقيب يضع ختمه كذلك*.

يتبقى الآن على العريس أن يحدد يوماً لاستقبال عروسه؛ وفي الوقت نفسه، تبدأ التحضيرات للاحتفال المنتظر. ويوجه العريس دعوات إلى الأقارب والمعارف الذكور. ويرسل الباشاوات والقضاة والآخرون ذوو المناصب العليا دعواتهم إلى جميع الأشخاص المهمين، بل وحتى إلى القناصل الأوروبيين. ويبعث جميع المدعوين، سواء ذهبوا أم لم يذهبوا إلى الحفل، تهانيهم مقرونة بالهدايا. وتتألف الهدايا التي يرسلها الأوروبيون من ثوب من القماش، أو قطعة من القماش المقصب أو المطرز، أو أية أقمشة نسائية فاخرة أخرى فضلاً عن الحلويات. وتوجه الدعوات إلى النساء من الحرملك، وتزين باقة الزهر الصغيرة التي ترسل في هذه المناسبة بشريط لماع للزينة.

تبدأ قريبات العروس بدعوتها إلى الحمام قبل عشرة أيام من الزفاف، ويتناوبن على ذلك بالدور في كل يوم تقريباً**، حتى اليوم الذي يسبق ليلة الزفاف، حيث يتوقفن عن ذلك، لإتاحة الوقت لوضع الحنة. وهو جزء هام من الزينة بحيث تقوم جميع النسوة من كلا العائلتين، والجواري والأطفال، وجميع الضيوف من النساء

---

* يمكن الإطلاع على نسخة من عقد الزواج مع رخصة القاضي في الملاحظة (٣).

** يطلق على ذلك 'حمام غرة' وتتم عملية إزالة الشعر لأول مرة في أحد هذه الأيام.

المدعوات بوضع الحنة مجدداً في هذه المناسبة. وخلال ذلك، تجري الاحتفالات في منزل العريس، وترسل الحلويات وأطعمة أخرى إلى منزل العروس كهدايا. وفي عشية اليوم الأخير، يرسل عشاء يطلق عليه، تعبيراً عن هذه المناسبة 'عشاء النقش'.

من العادة أن يضيف والد العريس مبلغاً مماثلاً للمبلغ الذي يدفعه العريس، وذلك حسب ظروفه، يشترى به كله ثياب ومجوهرات للعروس وأثاث لمنزلها. وُتعتبر تلك من ممتلكات الزوجة الخاصة، وُترسل قبل الزفاف بثلاثة أيام، وُتعرض بشكل واضح وتنقل فوق عدة بغال إلى منزل الزوج.

رغم أن العادة قد جرت في حلب أن يقدم الأب مبلغاً إضافياً إلى المبلغ الذي يدفعه العريس، لمصلحة ابنته، فإن الأمر مختلف بالنسبة للبدو وفي القرى؛ إذ يحتفظ الأب هناك عادة بجزء من المبلغ الذي يحصل عليه لابنته. ويقال إنهم قد يبيعون بناتهم إلى الأشخاص الذين يملكون أكثر (٣).

وفي يوم الزفاف، تسير النساء في موكب من منزل العريس لجلب العروس، التي تحضر إلى المنزل وسط بهجة النساء، تصحبها أمها وعدد من قريباتها الأخريات. ويكون الموكب دائماً في أثناء النهار، وعادة ما يكون في حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر. إلا أنه في حلب، لا يحملون شموعاً كما ذكر بعض الرحالة. وتغني نساء يستأجرن لهذه الغاية أو الجواري بعض القصائد والأغاني، وُتطلق الزغاريد وكأنها جوقة عامة. وعند وصولهن إلى البيت، يمضين باقي اليوم في الحرملك وهن في حالة عارمة من البهجة. وتواصل فرقة موسيقية عزفها بدون توقف، وتنضم النساء ذوات الصوت الجميل إلى الغناء. وفي الأمسيات الهادئة في أوائل الصيف، الذي يعتبر موسماً للزواج، يمكن سماع أصوات الأفراح في كل حي من أحياء المدينة.

يعد الزفاف فرصة رئيسية لكي تقوم النساء فيها باستعراض ما لديهن من ثياب؛ ولهذا السبب يجلبن معهن ثياباً متعددة، ويبدلن ثيابهن مرتين أو ثلاث مرات على سحابة أربع وعشرين ساعة. وتتعامل الأمهات اللاتي لا يعرفن بعضهن جيداً برسمية زائدة. أما النساء الأكثر شباباً فيشاركن في ألعاب بريئة عديدة. وتبقى العروس جالسة طوال الوقت في مكان مرتفع في نهاية غرفة واسعة، وهي تضع حجاباً من الشاش الأحمر، وتبقى صامتة وعيناها متجهتان بتواضع نحو الأرض.

ويحتفل الرجال في السلاملك، وتعزف عندهم كذلك فرقة موسيقية؛ ويكون فرحهم أقل صخباً من بهجة النساء، ولا ينضم الرجال إلى الغناء إلا عند الطبقات الوسطى.

عندما يقترب وقت النوم، يذهب العريس، الذي يرتدي حلة جديدة، في موكب عبر الباحة، يرافقه جميع صحبه. وتسير الفرقة الموسيقى أمامه، ويطلق الخدم بين الحين والآخر أصواتاً عالية تعبّر عن البهجة أثناء سيرهم. ويتركونه عند باب الحرملك حيث تستقبله قريباته، اللاتي يقدنه باتجاه الدرج المؤدي إلى غرفة العروس التي تكون عادة في الطابق العلوي، ويطلق عليه 'مربع العروس'، وتطلق النسوة حينها مزيداً من الزغاريد، وتغني بعض منهن وترقص أمامه.

ما إن يصل العريس عند أسفل الدرج حتى تظهر العروس المغطاة بحجاب

الشاش، تساعدها قريباتها عند أعلى الدرج، وهي ترتدي ثوب زفافها، ويكون شعرها مضفوراً بالزهور وشرائط الزينة، وإذا كانت صغيرة جداً، تلصق على وجهها في بعض الأحيان قطع من أوراق الذهب. ولبضع دقائق، تتظاهر المرافقات بإعاقة تقدم كل من الطرفين، إذ تلح المرافقات من طرف العريس بأنه يتعين على العروس أن تنزل الدرج لتستقبل زوجها، بينما تطالب النسوة الأخريات من طرفها، بأن يصعد هو إليها: وسرعان ما يتوصل الطرفان إلى حل وسط، فيتقابلان عند منتصف الدرج، فيأخذها العريس إلى مخدع الزوجية، وتودع القريبات الزوجين الشابين ويتركانهما وحدهما.

تعاود الموسيقى العزف، بعد أن تكون قد توقفت في ذلك الوقت، وتواصل النساء اللاتي يعدن إلى أماكنهن في الإيوان الغناء والحبور حتى الصباح. ويعود بعض الرجال للنوم في بيوتهم، ويتناوب الرجال الآخرون من أصحاب المنزل بقدر الإمكان في السلاملك، لأن الضيفات يشغلن الحرملك بكامله.

وإذا تم الدخول في الليلة الأولى، ينتهي الزفاف في اليوم التالي، وتعود قريبات العروس اللواتي حضرن معها إلى بيوتهن، وتفعل الضيفات الأخريات الشيء نفسه: وإذا لم يتم ذلك، تبقى القريبات مع عدد من النساء الأخريات.

وتتواصل أفراح الزفاف عدة أيام، ويبقى البيت مفتوحاً، ويستقبل الرجال ضيوفاً بشكل متلاحق. وتنهمك النساء كذلك، في استقبال الزائرات اللاتي لم يدعين إلى الزفاف لتقديم التهنئة. ويمر حوالي أسبوعين أو ثلاثة أسابيع حيث تؤخذ عادة العروس إلى الحمام وسط احتفال، قبل أن يعود الحرملك إلى هدوئه المعتاد.

لا توجد مناسبة أخرى يظهر فيها الناس في الشرق بهجة ومتعة وإسرافاً في الإنفاق كما يفعلون عند تزويج أبنائهم، لاسيما ابنهم البكر. وهذه العادة قديمة جداً، ولا تقتصر على المدن فقط، بل تسود كذلك في القرى وفي مضارب البدو الرحل في سورية. وينحصر ذلك في الزواج الأول للرجل من امرأة حرة؛ أما الزيجات التالية فيكون الاحتفال بها أقل تكلفة، في حين يتم الزواج من جارية ببهجة أقل، أو لاتجري احتفالات أبداً.

قد يشك فيما إذا كان المسلمون الأثرياء ليسوا أقل إنفاقاً وسخاء في هذا الأمر من اليهود والمسيحيين. أما بالنسبة للطبقة الوسطى من جميع الملل، فمن المؤكد أن المصاريف التي ينفقونها على حفلات الزواج تكون ضخمة وتتجاوز إمكانياتهم. كما أن ثياب ومجوهرات المرأة تكون كذلك فخمة ، وتتجاوز كثيراً ثروات الأشخاص الذين يرتدونها. وهي تتألف من خيوط من القصب أو قطع نقدية ذهبية أخرى، ومن أساور وعقود من الذهب، وأقراط بسيطة، وفي الطبقات العليا تصنع من الماس واللؤلؤ، والحلي الصغيرة ذات القيمة الكبيرة.

وبما أن الموضة قلما تتغير، فإن الثياب الجميلة تدوم لسنوات كثيرة، وتحافظ المجوهرات على قيمتها تقريباً إلى الأبد. وهي تعتبر من ممتلكات الزوجة حصراً، ولا يمكن إعطاؤها شرعاً إلا بموافقة الزوجة، وتشكل في معظم الأحيان المورد الوحيد للأرملة وأطفالها. كما تعتبر مورداً هاماً عند أوقات الشدة، ولكنها تؤدي في معظم الأحيان إلى حدوث كثير من المشاكل في الأسر: لأنه إذا أصرت الزوجة على عدم رهن

مصوغاتها أو حليها، وعندما لا تنفع معها توسلات الزوج، فإنه يلجأ إلى معاملتها معاملة فظة. وهذا الأسلوب من الظلم لا يقتصر على أفراد الطبقة الوسطى، إذ يدان الكبار بإتباع هذا الأسلوب عند الحالات الطارئة، إلا أنه لا تواجههم صعوبة كبيرة في الحصول على موافقة الزوجة. إذ إن الزوجات اللاتي يمتلكن كمية كبيرة من المجوهرات، لا يشعرن بقلق كبير حيال تخليهن عن حلي لا يستعملنها لفترة محدودة. في حين لايمكن للمرأة من الطبقات الأدنى، ممن تكون قد اعتادت على لبس جميع حليها في كل يوم، أن تظهر بدون حليها أمام الأخريات لكيلا يعرفن أن الحاجة هي التي اضطرتها إلى التخلي عنها: وهذا ما يضطرها إلى البقاء في البيت، وإذا كانت ستذهب إلى الحمام، فتضطر إلى استعارة حلي إحدى جاراتها. وبهذه الطريقة فإن غرور المرأة وكبرياءها يسهمان في الحفاظ على ما يكون ضرورياً جداً لدعم المرأة، بعد وفاة زوجها.

يصعب على الملاحظ، حتى في البلدان التي يسمح فيها للغرباء بالاختلاط، أن يكون فكرة صحيحة عن السعادة الزوجية. إذ يبدو للوهلة الأولى أن وضع الزواج في تركيا مجرد من بعض خصائصه الرائعة والمحببة. إذ يجلس الزوج الوقور لتناول طعامه وحيداً، تحيط به نساء أصابتهن العادات بلعنة الانتظار كخادمات حوله، رغم كونهن الشريكات المختارات لمخدعه ويحظين بأشد اهتماماته. كما أنهن يعاملنه باحترام زائد، ويحافظ على صرامة في سلوكه، معكراً بذلك الحياة السهلة المفعمة بالمرح. ولايحظى أكثر المقربين من المعارف بأي امتياز في التمتع بهذه الساعات الاجتماعية العائلية، حيث يمكن أن تسهم الزوجة التي تشرف على ولائمه في تعزيز مكانته نتيجة الاهتمام بأصدقائه؛ في حين أن تلك النساء، اللاتي من المفترض أن يكون سلوكهن مهذباً، ويشعن الحيوية في المجتمع، يصبن بالوهن من قلة التمرس وضعف التثقف. إلا أن هذه الأمور وأموراً عديدة أخرى تبديها المخيلة الأوروبية، لاتعطي انطباعاً واضحاً عن الأشخاص الذين لم يتعلموا أبداً على اعتبارها أموراً ضرورية للسعادة، ولذا نادراً ما يتذمرون من عدم امتلاكهم لها. فللمتع الأكثر رقياً، التي تتوفر في البلاد الأكثر حرية، ثمن مقابل لها، والتركي الكسول راضٍ في جهله بكليهما.

وإذا أجزنا شيئاً من التسامح، يمكن عدم اعتبار أن الحياة الزوجية هي أقل سعادة في تركيا مما هي عليه في بلاد أخرى. فالنساء اللاتي لم يطلعن على لطافة العادات الأوروبية، يعتقدن بأنهن يعاملن بكياسة لا تخلو من اللطافة. إن الأمور المتعلقة بالإنسانية تمنحهم أهمية في الحرملك. فمع ازدياد الأسرة، تصبح رعاية الأم ذات أهمية أكثر فأكثر، ويقدر المسلمون الذين تعوزهم العاطفة الأبوية، الفضائل المنزلية ويعملون على تنميتها، من خلال استقرارهم، فضلاً عن رفاه أطفالهم. وعندما تفشل العاطفة من جانب الرجل، فإن العادات تبقى قوية. وعندما تتقدم النساء في العمر، يلقين احتراماً من أزواجهن، أو يجدن عزاءً ودعماً في أولادهن؛ وبما أنه لدى معظم الناس زوجة واحدة، فإن القليلات منهن يعانين من آلام الإهمال التام.

يبدو أن النساء لا يتدخلن كثيراً في الأمور التي تتعلق بأمور الرجال، سواء كانت ذات طابع خاص أو عام. ولا تطمح الكثيرات منهن لأن يصبحن مؤتمنات على أسراره، ولا يعرفن سوى القليل جداً عن شؤون أزواجهن. وفي بعض الأحيان ، ولكن ليس غالباً،

يتم التوسط لدى الكبار عن طريق النساء، وتكون عندئذ محصورة بالنطاق المنزلي ، أو للشفاعة للمذنبين: إلا أنها لا تطال الدسائس والمؤامرات السياسية. ويجدر فهم ذلك عن حلب، حيث تكون الاستثناءات نادرة. أما في بعض الأقاليم البعيدة حيث يبقى الباشوات لفترات طويلة فإن الوضع يكون مختلفاً. فقد تزوجت ابنة أحمد باشا، والي بغداد من الوالي الذي خلفه 'سليمان باشا'، وقد دعمته قوتها إلى حد كبير. فقد كانت تدير أموراً عامة من خلال كيخيا، وكان يجلس ناس في حضرتها.. وفي مناسبات عديدة، كان الإفرنج في بغداد يلتمسونها، وقد رأيت رسائل تتعلق بأعمال موجهة منها إلى قنصل حلب. إن وضع المرأة في سورية حالياً يختلف تماماً عما كان عليه في ظل حكومة المماليك، هذا إذا كان ما رواه بعض الرحالة السابقين صحيحاً (٤).

تعامل النساء خارج البيت باحترام بالغ، فالمسلم المهذب لا ينظر إليهن وهن يمررن في الشارع، بل يشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى، أو يثبت عينيه في الأرض. ولايسوّغ أي استفزاز له ضربهن. وبما أنهن لايتعرضن إلا للتوبيخ الشفوي، فإنهن يسرن في الشارع في أوقات الاضطرابات دون الخشية من توجيه إهانات إليهن: بل تستخدم بعض النساء من الطبقة الدنيا في بعض الأحيان تعابير بذيئة، بحيث تنتابك الدهشة عندما ترى جندياً إنكشارياً شجاعاً وهو يلوذ بالصمت أمام امرأة تشتمه.

وقد حدثت قصة مؤخراً في حلب في عام ١٧٥٠ ، عندما توقفت بعض القوات المتجهة إلى الحدود لبضعة أيام في المدينة في أثناء الحرب مع نادر شاه، ورفض الجنود مغادرة ثكناتهم في الوقت المحدد، وتمكنت مجموعة من النساء المسلحات بعصي المغازل والحجارة من إخراجهم.

بعد بداية الحرب الروسية بفترة وجيزة، (في ١٧٦٩)، استغل ذوو العمائم الخضر (الأشراف) فرصة غياب الباشا والإنكشارية، الذين ذهبوا إلى المعسكر، واستولوا على حكومة المدينة، وعلى البوابات، وأرغموا جميع أتباعهم على حمل السلاح. وكان من اللافت للنظر في ذلك الوقت الشجاعة التي كانت تتمتع بها العجائز في شتم الثوار، الذين كانوا يتجولون ليل نهار وهم مدججون بالسلاح في الشوارع العامة. وبدا أن النساء لم يكن يخشين شيئاً، إلا عندما كان العصاة يشربون خمراً. وفي غمرة هذه الفوضى والاضطرابات التي دامت عدة أسابيع، لم يحدث أي شيء يثير الرعب بشكل عام، إلا في حالات قليلة كان الثوار يداهمون فيها الحرملك بالقوة بحثاً عن سيد البيت الذي يرفض الانضمام إليهم.

يتوسل المجرمون للحصول على الرحمة باسم الحريم، باعتباره أقوى وسيلة للتوسل. كما أن أسوأ إهانة يمكن أن توجه إلى رجل، هي أن تقذف نساؤه. ولايدخل مسؤولو العدل باب الحرملك إلا بحضور شيخ الحارة، وحتى عند ذلك، يتيحون بعض الوقت لكي تتمكن النسوة من وضع حجابهن. ولا تنحصر هذه الميزات بالنساء المسلمات فقط، بل كذلك بالنسوة المسيحيات واليهوديات على حد سواء.

وأما مسألة هل كان تعدد الزوجات في سورية من الأمور التي يستحسنها الأهالي أم لا، فهذا أمر تصعب مناقشته. ففي بلد لا يبالي إلا قليلاً بشؤون السياسية، يصبح من المستحيل معرفة الوقائع اللازمة لتكوين تقدير سليم: لذا لا يمكن جمع كل هذه الأمور إلا من الملاحظة الدقيقة.

وقد تبيّن أن عدد الأطفال في حرملك بيوت الطبقة الراقية، بالمقارنة مع أطفال عائلات الطبقات الدنيا، قليل بالنسبة إلى عدد النساء. ويتزوج الناس من الطبقة الراقية في سن مبكرة أكثر من الآخرين، وفي الحالات التي ينغمسون فيها في الملذات بإفراط، يصابون في الغالب بالوهن عندما يبلغون الثلاثين من العمر: وربما يساهم في الإسراع بذلك استعمالهم للأدوية الحارة المثيرة، التي ما أن تنتابهم أولى أعراض الوهن حتى يلجؤوا إليها بشكل مفرط. وعندما تتزوج النساء وهن صغيرات جداً، أي في حوالي الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهن، يتعرضن إلى حالات متكررة من الإجهاض، وذلك لأن تكوينهن الجسدي يكون ضعيفاً جداً، بحيث أنهن يتوقفن عن الإنجاب تماماً عند بلوغهن الواحدة والعشرين من العمر، أو يبقين عاقرات لعدة سنوات. بل إن أولئك اللاتي يتزوجن في سن اعتيادية أكثر، أي بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة من العمر، رغم أنهن أقل تعرضاً للإجهاض، لا ينجبن إلا طفلين أو ثلاثة أطفال قبل أن يبلغن الثالثة والعشرين، ثم يتوقفن بعدها عن الإنجاب لفترة طويلة متعاقبة.

فيما يتعلق بالحريم في البيوت الكبيرة، فقد لوحظ بشكل عام أن عدداً قليلاً من النساء أنجبن أكثر من طفلين أو ثلاثة أطفال، وتعرضت بعضهن إلى إجهاض متكرر، وبقيت أخريات عاقرات إلى الأبد، ولم تلد أي منهن (أتحدث هنا بشكل عام) عدداً كبيراً كما تفعل النساء المتزوجات عند الطبقات الدنيا. كما يمكن ملاحظة أنه بعد أن تلد جارية، تهجر غالباً وهي في ريعان الصبا، لإفساح المجال أمام محظية أخرى؛ بينما يصبح الرجال الذين ينغمسون في الملذات بهذا الشكل، عاجزين عن الإنجاب في وقت مبكر: أو على الأقل تجد امرأة واحدة حبلى من بين عدة نساء. ويتم تجنب الواجبات الزوجية المنصوص عنها في القرآن تحت ذرائع عديدة.

يمكن أن تساعد الملاحظات المذكورة أعلاه في تكوين فكرة عن تعدد الزوجات عند الطبقات العليا من المجتمع: أما فيما يتعلق بالآخرين، فإن تأثيراتها موضع شك. فالزوجة الأولى قد تكون إما عاقراً تماماً، أو تتوقف عن الإنجاب بعد ولادتين أو ثلاث. وقد يتزوج الرجل في تلك الحالة امرأة أخرى، وإذا فشلت فزوجة ثالثة، وبذلك يزيد من عدد أفراد أسرته، وهو الأمر الذي لم تتمكن الزوجة الأولى من القيام به: وينطبق ذلك على السراري، عندما يثبت أن واحدة أو اثنتين عاقرتان. وهنا يمكن الافتراض أن تعدد الزوجات مرغوب فيه لإكثار عدد أفراد الأسرة. وفي الواقع فإن العائلات التي تنطبق عليها الحالات التي تحدثنا عنها، يكون لديها عدد من الأطفال أكبر من العائلات التي لا يوجد فيها أكثر من امرأة ولود. إلا أن العائلات من هذا القبيل نادرة نسبياً، وذلك لأنه عندما تقود الرجل الرغبة في التعدد، وتسمح له ظروفه بتحقيق متعه، فإن حب المتعة يفوق الرغبة في الإنجاب، وبذلك يصبح بنفس حالة أولئك المنغمسين في الملذات من الطبقة الأرقى.

يعزى العجز عند الرجال في غالب الأحيان إلى السحر؛ ويطلق على الشخص في هذه الحالة اسم 'مربوط'. ويلجؤون إلى استخدام وسائل خرافية لفك السحر. إلا أن الجميع يقبل هذه الفكرة، مهما بلغت من السخافة، وتساعد كثيراً في تخفيف كرب ذلك الشخص الذي يكون قد أصيب بالوهن نتيجة أسباب أخرى. وفي بعض الأحيان، يكون تأثيره على

مخيلة الشباب كبيراً، حتى في بداية زواجهم، مما يجعلهم فعلاً عاجزين لعدة أيام (٥).

إن قلة عدد الأطفال في حرملك البيوت الكبيرة أمر معروف جيداً، ويدعي المسيحيون واليهود أن ذلك يعود إلى استعمال وسائل محددة إما بمنع الحمل أو بالإجهاض(٦). ولهذا الزعم شيء من الصحة، رغم أن فعالية معظم الأدوية المستخدمة لهذا الغرض ضعيفة. كما لايحتمل أن تقوم النسوة المتزوجات باستخدامها إلا بعد ولادة عدة أطفال، والخوف من إنجاب ذرية كثيرة. كما يمكن القول إن الإجهاض يحدث بشكل متكرر في بداية الزواج.

ترغب جميع النساء في إنجاب أطفال، لأن ذلك يجعلهن محببات إلى الرجال، كما يجدن فيهم دعماً عند سوء الأحوال. إلا أن لهذه الأمنية حدوداً معينة: إذ أن الولادات الكثيرة بشكل متكرر تضعف بنيتهن، ويتحملن مشاق كبيرة في تربية أطفالهن، بحيث أنهن بعد أن ينجبن طفلين أو أكثر يكون من الطبيعي أن تنتابهن الرغبة في الحصول على فترة توقف للراحة. وفي مثل هذه الحالات، قد يكن مرغمات على تناول دواء مأمون لمنع الحمل. ومن حسن الحظ أنه لا يتم التفاخر بذلك؛ ويشك بأن جميعها (بالإضافة إلى الوسائل العنيفة للإجهاض التي تمارسها القابلات) تؤدي إلى إحداث عقم دائم، لذلك فهي نادراً ما تستخدم.

تصاب النسوة بمخاض أسهل من النسوة في المناطق الشمالية، ولعل ذلك يعود إلى ارتيادهن الحمام بشكل متكرر، واعتدال المناخ، وذلك لأنهن يذهبن إلى الحمام كثيراً في الأشهر الأخيرة من الحمل.

وعادة ما تلد النسوة في حضور أمهاتهن، وبعض القريبات، وعدد آخر من نساء العائلة. ويقام السرير في واحدة من الشقق الكبيرة، حيث تستلقي فيها النفساء (النفسة كما يطلقون على المرأة الحديثة الولادة)، وتحيط بها الخادمات والزائرات اللاتي يتحدثن بصوت مرتفع، ويحتسين القهوة، ويدخن التبغ، دون أدنى اعتبار لحالتها. ولاتسدل ستائر النافذة أبداً، إلا لمنع تسرب الشمس مباشرة إلى السرير: لأنه ليس لديهن أدنى فكرة عن فائدة تعتيم الغرفة، والمحافظة على الصمت والهدوء.

تجلس النفساء على السرير وتستند إلى وسائد. ويزين رأسها بمنديل كبير من الموسلين المطبوع يوضع فوق رقبتها وصدرها، وتربط زاويتان منه وراء أذنيها. وتستقبل زائراتها وهي في هذه الحالة، وتقدم لها كل زائرة زهرة. ويتوقع أن ترد على كل واحدة منهن بشكل فردي. وفي الغالب تضطر للتكلم كثيراً أكثر مما ترغب.

إذا كان الطفل ذكراً (وخاصة إذا كان بكراً) فإن عدد الزائرات يكون كبيراً جدا كما تحضر موسيقيات، وتنهمك النسوة في فرحهن الصاخب كالعادة. وفي بعض الأحيان ينجم عن هذه العادة السيئة عواقب غير محمودة، كما أن أي كلام حول هذا الموضوع لا يجدي نفعاً، إلا إذا مرضت النفساء مرضاً شديداً. ولا تراقب اضطرابات الطفل السريرية. وعندما يكون الطفل أنثى، يكنّ أكثر اعتدالاً في أفراحهن، ولا تكون هناك موسيقى، ويأتي عدد أقل لتقديم التهنئة.

كان لدى العرب في الجاهلية عادة غير إنسانية وهي عادة وأد البنات، التي يذكرها القرآن في الآية التالية: ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتواري

من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون.﴾ وقد حظر القرآن هذه العادة، إلا أنه يبدو أن ولادة الأنثى مازالت تسوّد وجوه الأسرة.

يعتقد السكان المحليون أن عدد ولادات البنات أكثر من الصبية. وإذاا انطلق الشخص الغريب في حكمه على عدد الفتيات اللاتي يشاهدن في البيوت العادية، فقد ينساق للظن بأن هذا الاعتقاد صحيح. إلا أن الواقع مشكوك فيه، على الأقل بقدر ما تمكنت من معرفته. إذ يجب ملاحظة أن عدد الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والسابعة، يعملون في صناعات الحرير والقطن، لذلك فإن رؤيتهم تكون أقل من رؤية الفتيات في ذلك السن، فيما عدا ساعات ذهابهم وإيابهم من العمل. وأميل للظن بأن الفرق في نسبة الذكور والإناث المولودين في سورية، ليست كبيرة جداً، وهي تنطوي على نتائج مادية لاتخاذها ذريعة طبيعية لتعدد الزوجات (٧).

تبقى النساء الحديثات الولادة من الطبقة الراقية في السرير لمدة ستة أيام، وفي اليوم السابع، يرفع السرير ويستقبلن الزائرات وهن جالسات على الأريكة. وبين اليوم الخامس عشر واليوم العشرين يذهبن إلى الحمام في احتفال. أما نساء الطبقة الدنيا، فإنهن يغادرن السرير في اليوم الرابع أو الخامس. أما في القرى فهن يغادرنه في وقت أبكر، ومن المؤكد أن البدويات قويات البنية فلا يبقين في السرير أبداً. والبدويات في حلب لسن قويات البنية كما هي حال البدويات في فلسطين اللاتي يذكر م. دارفيو أنهن يلدن في الطريق، أو في أي مكان يصيبهن فيه المخاض، فيحملن الطفل بعد أن يأخذن استراحة قصيرة، ويتابعن سيرهن، ويغسلن الطفل عند أول نبع ماء يصادفنه.

ترضع الأم طفلها في معظم الأحيان، إلا إذا حالت دون ذلك إصابتها بمرض أو عدم إدرارها للحليب، أو ألم في الحلمة، وهي اضطرابات تتعرض لها المرأة. وفي بعض الأحيان تحضر الطبقة الراقية مرضعة، لأنه لا يقدم للطفل غذاء آخر سوى الحليب خلال السنة الأولى، ثم تقدم له ملعقة صغيرة من غذاء آخر، ويسمح له بقضم كسرة من الخبز، وقطعة من الخيار أو ما شابه ذلك. وعندما تستدعي الحاجة إحضار مرضعة للطفل، فهي تقيم في الحرملك على الدوام وتبقى تحت إشراف الأم. وتكون المرضعات إما زوجات بعض الخدم في المنزل، أو من البدويات. وقلما يرضع الطفل لمدة تقل عن السنتين، وفي بعض الأحيان يستمر في الرضاعة ثلاث أو أربع سنوات.

إن مدة الرضاعة سنتان يحددهما القرآن في حالة الطلاق في الآية التالية:

﴿ والوالادات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما أتيتم بالمعروف.﴾

من بين الأسباب التي تذكرها النساء لإطالة فترة الإرضاع أنهن يصبحن أقل عرضة للحمل عندما يستمررن في الإرضاع. إلا أنهن غالباً ما يصبن بخيبة أمل في أملهن هذا. ولا يفطمن الطفل حال اكتشاف أنهن حوامل، بل يتابعن الرضاعة حتى الشهر السادس أو السابع قبل أن يعهدن به إلى مرضعة. وفي بعض الأحيان يواصلن الرضاعة طوال فترة الحمل.

وقد عرفت نساء كن يرضعن خلال طوال فترة الحمل، وليس جزءاً منها فقط.

وفي بعض الأحيان يواصلن إرضاع الطفل السابق بالإضافة إلى الرضيع الجديد. وكانت هذه الأمثلة من نساء في الطبقة الأدنى، عندما يحملن بعد الولادة بفترة وجيزة. إن هذه المجهودات الكبيرة التي تتعرض لها المرأة تؤدي إلى تدمير بنيتها. كما يتعرض الأطفال الذين يرضعون من امرأة اجتازت مرحلة طويلة من الحمل للأمراض، رغم ذلك فإن أمراض الأطفال في الأشهر الأولى تعزى في الغالب إلى حمل الأم، التي يمكن أن تحدث بسبب تناولها فاكهة فجة أو عدم انتظام غذاء المرضعة.

يقمط الطفل خلال الأسابيع الأولى، ويلبس فيما بعد ثياباً يمكن إلباسه إياها بسهولة، وتربط عند الأطراف بشريط رفيع. ويوضع في السرير (المهد) بعد الأسبوعين الأولين، ويُهز بواسطة حبل يربط عند الجزء العلوي منه. كما يوجد عندهم سرير من نوع آخر يعلق في إطار، وعندما يهز، يأخذ في التأرجح كالأرجوحة.

لا تسود عادة حمل الأطفال بالقدر الموجود في أوروبا. إذ يمددون الطفل على الأريكة، أو يوضع وهو متكئ على وسادة، ويترك ليحبو بحرية على السجادة إذا أمكنهم ذلك. وبهذه الطريقة يتأخر الأطفال في تعلم المشي، لأنهم سرعان ما يكتسبون وسيلة أخرى من التقدم التي تلبي كل أغراضهم تكمن في الانزلاق على مؤخرتهم بمساعدة عقب القدمين ويفعلون ذلك بمهارة فائقة، كما لو أن روحاً خفية تحميهم من السقوط، إذ نادراً ما يقتربون من حافة الأريكة. وعندما يكبر الأطفال أكثر، لا تحملهم أمهاتهم خارج البيت على أذرعهن، بل يحملنهم على أكتافهن (مفرشخين)(٨)، ويؤخذون في وقت مبكر إلى الحمام، وبشكل عام، تتم العناية بنظافتهم كثيراً(٩).

سأختم هذا الفصل بالتحدث عن مراسم الجنازات التي يتبعها المسلمون في حلب، حيث يكون للنساء دور بارز فيها.

جرت العادة أنه عندما يشتد مرض أحد الأشخاص، يجلس شيخ أو شيخان بجوار المحتضر ويأخذان في تلاوة آيات من القرآن والدعاء له. وعندما يلفظ أنفاسه الأخيرة، يدير الخادم وجه المريض (الممدد على ظهره) باتجاه القبلة، أي باتجاه مكة المكرمة. وما إن يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى تأخذ النسوة الموجودات في الغرفة بالصياح، وسرعان ما تنضم إليهن النساء الأخريات في الحرملك، ويسمى ذلك 'الولاويل'. وهو صوت حاد جداً وخاصة في الليل، ويُسمع من مسافات بعيدة جداً. وفي زمن تفشي الطاعون، يدب الخوف في نفوس المرضى عند سماعهم هذه الصيحات، ويفيق الأصحاء من نومهم ويدب فيهم الخوف. ولا يوافق الرجال على ذلك، ولا يشاركونهن ذلك، إلا أنهم يعرفون أنه من العبث منعهن من عمله: فيذرفون بضع دمعات، ويلوذون بالصمت، وينزوون بأنفسهم. وعندما تعرف القريبات اللاتي يقطن في منطقة مجاورة بالنبأ، يهرعن إلى المنزل، فتطلق الولاويل من جديد كلما دخلت زائرة جديدة إلى الحرملك.

لا يحفظ الجثمان فترة أطول من الفترة التي تستلزمها التحضيرات للدفن، والتي غالباً ما تحتاج إلى أكثر من بضع ساعات. وأول شيء يقومون به هو غسل الجثمان، الذي يقوم به أشخاص يمتهنون ذلك، ويأتون إلى البيت حال إعلامهم بذلك، ويحضرون معهم طاولة خشبية طويلة، تكون من الأملاك العامة للمنطقة. وبعد أن يمدد الجثمان

فوق الطاولة، يغسل عدة مرات بالماء العادي، ثم بماء ممزوج بالكافور بنسب تقل أو تزيد حسب حالة المتوفى. ويتم سد الفتحات الطبيعية في الجسد بالقطن لمنع تسرب الرطوبة التي يمكن أن تتسرب من الجسد بعد غسله، ويرش على بعض أجزاء الجسد مسحوق مؤلف من الناردين وأعشاب عطرية أخرى. وتقوم النساء بغسل المتوفيات. ثم يلف الجسد بشرشف نظيف أبيض من القطن، ويوضع في تابوت، يرتفع غطاؤه قليلاً عند الأطراف، مشكلاً حدبة في الوسط. وُتثبت عند رأس التابوت عصا توضع عليها عمامة الرجل، أو غطاء رأس المرأة. وبالنسبة للرجل تكون العمامة التي كان يلبسها المتوفى، أما بالنسبة للمرأة فيكون غطاء رأس قديم، وفي بعض الأحيان يكون غطاء رأس كانت تستعمله امرأة مسنة جداً. ويكون مستديراً ومسطحاً مثل صينية خشبية، ويغطى بمنديل من الشاش الأبيض. ويلقى فوق النعش غطاء أسود مطرز في الوسط. وفي بعض الأحيان يكون مزيناً بقطعة صغيرة من بقايا ستار البيت الحرام في مكة. وتوضع بعض من أفضل ثياب المتوفى. وتنثر الزهور فوق النعش إذا كان المتوفى شاباً من أحد الجنسين.

يحضر جنازة الميت معارف المتوفى وأقاربه، وتسير حسب الترتيب التالي: يسير أولاً عدد من المشايخ المسنين وهم يحملون رايات من الأسمال البالية ويدندنون بدون توقف' الله الله'، ثم يأتي النعش محاطاً بعدد آخر من المشايخ، يقوم بعضهم بتلاوة آيات من القرآن بصوت مرتفع. ويحمل النعش حمالون يستخدمون لهذه الغاية. وفي بعض الأحيان يأخذ مكانهم بعض الأشخاص الذين يعتقدون أنه من الواجب المساعدة في حمل النعش. ويسير وراء النعش تماماً أقارب المتوفى ومعارفه في أرتال، ثم تأتي النساء والجواري، تقودهن كبيرة النادبات التي تعتبر حقاً شخصية مثيرة للاهتمام. إذ تتقدم وتسندها وصيفتان، ويكون شعرها متناثراً، وحجابها متطايراً، وعيناها مغرورقتين بالدموع، وتطلق صرخات مشوبة بالفجيعة أو بألم مبرح، وتنشج وتشهق بألم شديد: وفجأة، كما لو أنه انتابها الجنون، تأخذ في شد شعرها، وتلطم على صدرها العاري، أو تصفق بكلتا يديها، وتمد ذراعيها إلى أقصى امتداد لهما، ثم ترفعهما إلى الأعلى وكأنها تعاتب السماء على قسوتها بصمت. وتكون هذه التصرفات مصطنعة في بعض الأحيان، ولكن ليس دائماً. وتظن بعض القريبات جداً، شأن النادبات اللاتي يستأجرن لزيادة مهابة الجنازة، أنه من اللائق إظهار تعابير الحزن المفرط، في حين تمشي باقي النسوة بهدوء، ولا يشاركن في الولاويل إلا بين حين وآخر. وبهذا الترتيب تتقدم الجنازة بخطوات سريعة إلى باحة أحد المساجد المجاورة، حيث يوضع النعش، وتقام صلاة الميت بقيادة إمام، ثم تعود لتنطلق بنفس الترتيب السابق إلى المقبرة.

عندما يتم إخراج الميت من النعش، يوضع في القبر بشكل متكئ، بحيث يتجه الرأس نحو الغرب، والوجه باتجاه مكة: وُيهال على الجثمان بعض التراب. ثم توضع أحجار خلال القبر لتحول دون سقوط التراب مباشرة على الجثمان. وبعد أن يتم ذلك، وبعد صلاة الميت يأخذ الإمام أو الشيخ حفنة من التراب ويلقيها فوق القبر، ويفعل مثله جميع الواقفين بجانبه، ويتلون في وقت واحد ترحمات قصيرة عليه، ثم يغطى القبر،

وإما أن يغطى بحجرة مسطحة أو يترك هكذا*.

تحفر القبور باتجاه الشرق والغرب، وتوضع على الجوانب أحجار يبلغ ارتفاعها حوالي قدمين ونصف القدم من الأسفل، وتوضع أحجار مستندة من الجوانب تغطي الجسد قبل إهالة التراب عليه. وتقام حجرتين متقابلتين عند طرفي القبر، يحفر على واحدة منهما شكل عمامة للرجال، وثوب امرأة قديم للمرأة: وتنتهي الحجرة الأخرى بشكل مدبب. وتحفر كتابة بالعربية تشمل اسم المتوفى، وبعضاً من آيات القرآن بصورة نافرة، وإما أن تكون الأحرف مذهبة أو تطلى باللون الأبيض على أرضية زرقاء سماوية اللون. هذا هو الشكل العام للقبور التي تكون مرتفعة عن سطح الأرض، وليس كما هو الحال في أوروبا حيث تكون مكسوة بالأعشاب.

تغطى في بعض الأحيان قبور الأكابر من الرجال أو من أقاموا مساجد أو المشايخ أو الأولياء بحجر مصطبة يقام فوقها سطح مقبب على أربعة أعمدة. ويمكن رؤية العديد من هذه الأضرحة خلف بوابة دمشق، على الأرض المرتفعة إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وتتخلل البساتين من الطرف نفسه بعض الأضرحة القديمة المقامة بشكل أفضل في ذكرى بعض الرجال البارزين. وهي أبنية ضخمة مغلقة من جميع الجوانب، وتوجد على الباب أو على الجدار الأمامي كتابات طويلة (١١). وتبدو جميلة الشكل. إلا أنه بشكل عام، لا يمكن تمييز القبور إلا من خلال الشواهد المنتصبة. وبما أن حفر الأرض ثانية في أقل من سبع أو ثمان سنوات مخالف للعادات، فإن المقابر تحتل مساحة واسعة حول المدينة. وتتقاطع مع الطرق الرئيسية، وهي غير مسورة. ولهذا السبب تصبح أماكن للتنزه، حيث يتسكع الناس في الأمسيات.

يقوم الأقارب الوثيقو القرابة (الرجال أولاً ثم النساء) بزيارة القبر في اليوم الثالث واليوم السابع واليوم الأربعين بعد مواراة المتوفى التراب، كما يحتفلون بالذكرى المئوية: وتقام صلوات عند القبر من أجل راحة المتوفى، ويوزع الطعام والمال على الفقراء. كما تقوم النسوة بزيارة المقابر في أيام خروجهن إلى الحدائق المحددة لهن. ويخرجن برفقة عدد قليل من النساء في الصباح الباكر، ويحملن معهن أزهاراً ونباتات عطرية لوضعها على القبر. وما إن يصلن إلى القبر، حتى يطلقن العنان لأحزانهن من جديد بصرخات عالية، تقاطعهن من حين لآخر كبيرة النادبات، التي تبدأ بتذكر الأحداث السعيدة الماضية بصوت خفيض، وتناجي المتوفى، وتعيد إلى الذاكرة المعاناة التي بذلت لجعله سعيداً: وتصف الحالة البائسة التي آلت إليها عائلته، وتخلط بين لومه بأسلوب محبب ولطيف والعواطف الجياشة. ويكون سكون الصباح الباكر مناسباً لإطلاق

---

* يتلو الإمام عند القبر ما يلي: ' أيها الإنسان، من التراب خلقت وإلى التراب تعود الآن: إن هذا المكان المؤقت ما هو إلا الخطوة الأولى نحو قصور الأبدية. فإذا فعلت في الدنيا خيراً، فإن الله سيغفر لك هفواتك، وإذا لم تكن قد فعلت ذلك، فإن رحمة الله لا تعرف حدوداً. وتذكر ما تعلمته في هذه الدنيا، أن الله ربك، ومحمد رسولك – وأنك تؤمن بجميع الأنبياء والرسل، وأن رحمة الله واسعة'

أما صلاة الميت عند الأكراد فهي أكثر إيجازاً: ' إذا كنت قد أخذت فإنك ستستعيد، وإذا كنت قد أعطيت فسيعاد إليك: وإذا كنت تشك في ذلك، فإنك ستؤمن الآن'.

الولاويل. إن القبور المجاورة، وتصرفات ومواقف النادبات تتضافر كلها لشد اهتمام الناظر.

وكما لاحظنا سابقاً، فإن الرجال يعّبرون بشدة عن استيائهم وعدم رضاهم عن مظاهر الحزن هذه، ويعتبرونها إلى حد ما كفراً، وذلك لأنه عندما يتوفى أحد الأقارب، كما هو حالهم عند وقوع مصائب أخرى، يتخذون مظهراً متواضعاً من الحزن كما أمرت السماء. وقلما يقومون بزيارة القبور في الأيام غير الاعتيادية، لذا فلا يفعلون شيئاً سوى الجلوس وهم صامتون، أو يطلقون صيحة قصيرة. وفي بعض الأحيان، عند اجتياز إحدى المقابر عند حوالي المغرب، يمكن رؤية أب منكسر الخاطر وهو يجلس وحيداً بجانب قبر ابنه الوحيد المتوىي حديثاً: وتكون السنون والأحزان قد حنت ظهره، وعيناه ترتفعان في توسل صامت إلى السماء، وتنهمر دموعه بغزارة على لحيته المهملة التي غزاها الشيب، ويترك العنان لعواطفه المكبوتة والممنوعة من الحزن. إن كل ذلك يترك مشهداً مؤثراً في عيون الناظرين.

لا يغير الرجال ثيابهم تعبيراً عن الحزن، أما النساء فلا يرتدين حليهن ويلبسن أبسط ثياب لديهن، ويضعن على رأسهن منديلاً مطرزاً بلون ترابي قرميدي داكن. ويستمر الحزن اثني عشر شهراً بالنسبة للزوج المتوفى، وستة أشهر للأب، إلا أنه لا يتم التقيد باستمرار بهذه الفترات. وينبغي للأرملة، قبل أن تتزوج ثانية، أن تنعزل في حزن شديد لمدة أربعين يوماً*، لا تبرح خلالها البيت، ونادراً ما تتكلم أو تنبس ببنت شفة، حتى إلى اقرب أقربائها.

---

*لم يدرس المؤلف الانعزال الذي يدوم مدة أطول ويعرف عادة بـ'العدة'، ونص عليه الشرع الإسلامي، ويقصد به منع زواج المرأة مباشرة بعد وفاة الزوج، للتأكد مما إذا كانت المرأة حاملاً من زوجها المتوفى (المترجم).

الملاحظات

(١) تقول الآية المتعلقة بالزواج: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾(النساء، ٣).

يعتبر Sale أن الآية أعلاه تعبر بوضوح عن عدد النساء اللاتي يسمح بهن الشرع الذي يجب ألا يتجاوز الأربع سواء كن زوجات أو ما ملكت إيمانكم، وإذا لم يكتف الرجل بزوجة واحدة، أمكنه عندئذ أن يتزوج أخريات شريطة ألا يتجاوز عددهن أربعاً.

(٢) حسب Rycaut توجد ثلاث درجات من الطلاق في الإسلام. الأولى: انفصال الرجل عن زوجته في نفس البيت والسرير، وتستمر النفقة في هذه الحالة على الزوجة؛ والثانية: لا يكتفى بالانفصال في تلك الحالة، بل ينبغي على الزوج دفع مهرها الذي كان قد حدد عند زواجها، وتصبح حرة في الزواج من شخص آخر. أما النوع الثالث من الطلاق (الذي يسمى الطلاق بالثلاثة) فيتم بشكل رسمي وبشروط انفصال أشد. وفي هذه الحالة، إذا ندم الزوج على طلاقه، ورغب في استعادة زوجته، لا يسمح الشرع له بذلك دون أن يوافق ويرضى بأن يعاشرها شخص آخر أمامه، وذلك كعقاب لتسرع الزوج (وضع السلطنة العثمانية ص٢٧٧، الفصل ١١).

وفي المجلد السادس من مذكراته، يتحدث م. دارفيو عن حلب فيقول: 'يحق للرجل أن يطلق زوجته، ويحكم القاضي بشرعية الأسباب. وإذا ندم الزوج على فعلته، يحق له، ويقبول القاضي أن يستعيد الزوجة إذا لم تكن قد تزوجت رجلاً آخر. ويحق له عمل ذلك مرتين، أما إذا طلقها للمرة الثالثة، فيجب أن يقبل بأن تمضي ليلة مع أحدهم قبل استعادتها، وإذا فضلت المرأة ذلك الرجل يمكنها أن تختار أن تبقى معه، وإذا لم ترغب فتعود إلى زوجها الأول الذي لايمكنه تطليقها بعد ذلك أبداً(المجلد٦، ص٤٤٧).

يحدد القرآن بدقة حالات الطلاق على النحو التالي:﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يُقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون، فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، فإن طلقها فلا جُناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون، وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهنّ بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ (البقرة ٢٢٩-٢٣١).

يجب أن يلفظ الطلاق في الفترة التي تكون فيها المرأة في الحيض، عندما لا يتصل الزوج بها؛ ثم تترك لتكمل فترة الطلاق ثلاثة أشهر، وعند انتهاء هذه المدة، إذا لم تكن حاملاً، أو إذا لم يقربها الزوج خلال هذه الفترة، أو لم يعلن عن نيته في إعادتها، تصبح منفصلة تماماً عن الرباط الزوجي، وإذا رجعت يكون ذلك بمحض إرادتها: بافتراض أن الزوج راغب في إعادتها.

إذا أطلق الرجل حكماً ثانياً في نهاية الشهر الأول، وثالثاً في نهاية الشهر الثاني، يحدث عندئذ الطلاق بالثلاثة (البائن) ويكتمل الطلاق. ومهما كان الطرفان راغبين في العودة إلى بعضهما، فلا تستطيع المرأة ذلك ثانية إلا بعد أن تتزوج رجلاً آخر، ومن ثم تطلق منه.

غير أنه يمكن للرجل أن يطلق زوجته بالثلاثة مرة واحدة، أو يكرر الطلاق ثلاث مرات بشكل

منفصل في الشهر الأول؛ وفي كلتا الحالتين يكون قد دخل في حالة الطلاق بالثلاثة. وثمة أساليب كثيرة في إعلان الطلاق، وقد حدد المشرعون فروقاً دقيقة بينها يمكن للقارئ أن يطلع عليها في كتابه'الهداية' (Hedaya) الذي صدر مؤخراً، المجلد الأول. وتتوقف هذه التمييزات غالباً على دقة نحو اللغة العربية، ولا يمكن ترجمتها (إلى الإنكليزية)، إلا أن الكثير منها واضح، ويحدد حق المرأة في الميراث.

وثمة أنواع من الطلاق يمكن الرجوع فيها وأنواع لا يمكن الرجوع عنها. فعندما يلفظ الرجل طلاقاً أو طلاقين يمكنه التراجع عنهما، وبوسعه إعادة المرأة سواء رغبت أم لم ترغب وذلك في أي وقت قبل انتهاء الفترة المحددة، إلا أنه إذا ترك الفترة تمر، فقد عندها حقه ولا يمكنه استعادة زوجته، إلا بالحصول على موافقتها بالزواج منه ثانية، وفي الحالة الأولى، يكون من الملائم (رغم عدم وجود حاجة قانونية إلى إعلان عودتها أمام شاهد، أما في الحالة الثانية، فيتطلب الأمر إجراء زفاف قانوني).

وعند النطق بالطلاق الذي يمكن الرجوع فيه، فإن الرجل الذي يحصل على موافقة المرأة يحق له الزواج منها ثانية، خلال فترة الاختبار، إلا أنه ليس بوسعها أن تتزوج رجلاً آخر إلا بعد انتهاء الفترة.

يعتبر طلاق المرأة قبل الدخول بها، أمراً لا رجوع فيه، ولا تحدد لها فترة، ويمكنها أن تتزوج ممن تشاء وحينما تشاء.

أما إذا نطق الرجل ثلاث طلقات (طلاق بالثلاثة) فالزواج يلغى تماماً، (ومهما كانت الزوجة راغبة) فلا تخضع له شرعاً حتى تتزوج من رجل آخر، وبعد أن تُطلق، أو بعد موت الزوج الثاني، تكون قد أكملت الفترة القانونية.

(٣) إن الوصف الذي يقدمه Cantacuzene عن عقد الزواج يتفق إلى حد كبير مع الأسلوب المتبع في حلب. فما إن يتفق الأقارب على المبلغ الذي سيدفعه العريس كمهر للعروس، يدفع المبلغ مقدماً. ويبلغ المهر ألفين أو ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف دوكات حسب إمكانيات الزوج. ويدفع الناس من الطبقة الأدنى خمسين دوكة أو ما يستطيعون دفعه. ويتم شراء أي أثاث منزلي ولباس للعروس بالمبلغ مهما كان، عندما يتسلمه الأب بوساطة أحد الأقرباء، أو الوصي على فتاة يتيمة. وإذا كان الأب ميسور الحال، أضاف مبلغاً لشراء أثاث للزينة. ويقوم بذلك أناس من الطبقة الراقية، لأنه رغم عدم وجود قانون ملزم للأب بدفع أي مبلغ، فإن العاطفة تدفعه إلى ذلك، وفي بعض الأحيان الغرور والتباهي لكي يزيد من فخامة العرس. كما يقدم العريس هدية إلى العروس قبل إتمام الزواج.

إن الكلمة العربية 'بائنة (دوطة) الزواج' هي 'مهر'، وفي الكلام الشائع 'جهاز'، رغم أنها تعني أكثر المواد التي تجلبها المرأة معها عند زواجها.

ينفذ عقد الزواج بوجود الشخص الذي يقوم بتسجيله، وتكتب إجازة (رخصة) القاضي لاستكمال عقد الزواج عادة على الجانب الآخر من الورقة نفسها.

نسخة عن عقد زواج

السيد محمد بن سعيد يحيى، المعين وكيلاً عن العروس، في وجود الحاج بكري بن محمد وطه بن إبراهيم، وهما شخصان يعرفانهما بشهادة سعد عبد القادر بن سعيد عمر، وصالح بن حاج عرابي. ويبقى العريس وكيلاً عن نفسه، ويبلغ المهر كله مئة دولار، تم دفع خمسين منها، وتحفظ الخمسون المتبقية كأمانة تُدفع في حينها.

الشهود

الحاج ياسين بن فتحي　　　　الشيخ محمد بن الحاج مراد

سعيد محمد بن سعيد مصطفى　　　　يحيى بن عبدي باشا

الحاج عبد الرحمن بن الامام

تصديق القاضي

(ب)

يمنح القاضي الشرعي سعيد حسين الموافقة إلى عائشة بنت الحاج عبد القادر، القاطن في منطقة الشيخ عربي في حلب، بعد أن تم عقد نكاحها بوجود الشهود القانونيين على سعيد عبد القادر بن سعيد يحيى. ونعتقد بأنه لا يوجد أي عائق شرعي لنكاحهما.

العاشر من حزيران ١١٧٨.

يمهر القاضي خاتمه في (أ) وإذا كان أي من الطرفين من الأشراف (أو الأشراف) فإن النقيب يثبت خاتمه في (ب).

(٤) سافر Lewes Vertomannus من روما في حوالي سنة ١٥٠٣، وتمكن من زيارة المدينة ومكة وهو متنكر. وفي دمشق قدم الرواية التالية عن التجاوزات التي تتعرض لها المرأة يقول: 'نادراً ما كان يظهر المماليك إلا في مجموعة من اثنين أو ثلاثة على الأقل. وإذا حدث أن صادفوا عدداً مماثلاً من النسوة، فإنهم يعتبرون أن من حقهم التعرض لتلك النسوة. ولذلك، يكمنون للنساء بالقرب من أحد الخانات الكبيرة، وما إن يعبرن البوابة، حتى يمسك كل واحد بواحدة منهن، ويرغموهن على الدخول إلى الخان معهم. وعندما يطلب من المرأة خلع حجابها، تقول له:"يا أخي أنا بين يديك، ويمكنك أن تفعل بي ماتشاء، ولكن أتركني أحافظ على حجابي'، وهم يمتثلون لهذا الطلب أحياناً. وبهذه الطريقة (يتابع المؤلف) يقعون بين أيدي زوجاتهم بدلاً من امتلاك، كما يظنون، فتاة من طبقة راقية غير معروفة، ؛ وهذا ما حدث عندما كنت في دمشق.

(٥) إن حدوث حالات العنة، بسبب تأثير الرهبة، من الأمور الشائعة. ونادراً ما تبذل محاولة أو محاولتين غير ناجحتين لإقناع العريس بأنه تحت تأثير قوة فوق طبيعية. وإن التوبيخ الذي توجهه إحدى القريبات في وقت غير ملائم، لا يساعد في إصلاح الأمور كثيراً، حتى تصلح الطبيعة هذا الأمر في نهاية الأمر. وكنت أنصح الأطراف في بعض الأحيان بخداع أقاربهم لكي يتخلصوا من تعنيفهم وكان مفعول هذا السحر يتلاشى بعد ذلك بسرعة.

(٦) استخدمت عدة مرات أدوية لمنع الحمل، ولكن نادراً ما كانت تستخدمه نساء من الطبقة الراقية، بل لا يوجد أبداً. وكانت الذريعة في ذلك، الحمل المتكرر والحصول على عدد من الأطفال يفوق القدرة على إعالتهم، وكان الجواب عادة أن هذه الأدوية لم تكن قانونية، وترافقها دائماً مجازفة بالحياة. أو على الأقل المرض والعقم الدائم. وكانت قد جاءتني امرأة من أجمل النساء اللاتي رأيتهن في هذا البلد، تبلغ من العمر حوالي واحد وعشرين عاماً، وهي أم لأربعة أطفال، لفحصها بسبب إصابتها باختلال عقلي شديد، ناجم عن استخدام رصاص أبيض، كان زوجها الفظ يرغمها على ابتلاعها في جرعات صغيرة بهدف منعها من الحمل. وكان هذا الحادث غير اعتيادي، ولم أواجه حادثاً من هذا القبيل. علماً أن مرض Pictonum الذي أصيبت به تلك المرأة، مرض نادر جداً في حلب.

وهم يعرفون وسائل فعالة أكثر من أجل الإجهاض، وهم أقل حرصاً في استخدامها من قبيل

النساء غير المتزوجات، لتجنب عواقب اكتشاف العلاقات الغرامية غير الشريفة. وتُستخدم القابلات في هذه الأمور، واعترفت لي بعضهن أنهن كن يشعرن بأن استخدامها مسوّغ، من أجل إنقاذ عائلة من الدمار، وفي جميع الأحوال، لا يوجد شك بأن هذه الممارسة الشنيعة لازالت تستخدم، لكني أعتقد أن استخدامها ليس إلى الحد الذي يؤثر مادياً على السكان، وذلك لأن الأدوية المستخدمة غير فعالة بشكل كافٍ في المقام الأول، وفي المقام الثاني، لأن عمليات القابلات عنيفة جداً، بحيث أنه لا يستسلم لهن إلا النساء المصممات على ذلك، عندما يدفعهن إلى ذلك الخوف من الفضيحة، وهي ليست حالة النساء المتزوجات. ويتم استشارة الأطباء كثيراً في حالات العقم.

(٧) يبدو أن صديقي السيد بروس (Mr. Bruce) قد بذل جهداً أكبر مما بذلته أنا في دراسة نسبة الذكور إلى الإناث المولودين في سورية، وقد توسع في بحثه أكثر مما أتاحت لي الفرصة بذلك بكثير 'من بحث دقيق في الجنوب والجزء المذكور في العهد القديم من بلاد ما بين الرافدين وأرمينيا وسورية، ومن الموصل إلى حلب وإنطاكية، وجدت أن النسبة هي امرأتان تولدان مقابل رجل واحد'.

وخلال تقدمه جنوبياً وجد أن نسبة الإناث تزداد 'ومن السويس إلى مضيق باب المندب الذي يضم ثلاث مناطق عربية، فإن النسبة هي أربع نساء مقابل رجل واحد، ولدي سبب للاعتقاد بأن ذلك ينطبق حتى الخط ٣٠ وما وراءه (رحلات لاستكشاف مصدر النيل، المجلد١، ص٢٨٤، أدنبرة، ١٧٩٠).

واستناداً إلى تقرير أحد القساوسة الموارنة في ١٧٤٠، الذي قام بتعداد تلك الملة في حلب، فقد وجد ٣٠٣٣ شخصاً، كان ١٥٠٠ منهم من الذكور و١٥٣٣ من الإناث. ورغم أني لا أعول كثيراً على دقة هذا التقرير، فإني أميل للاعتقاد أن عدم التناسب بين الذكور والإناث في حلب كبير كما بدا للسيد بروس.

(٨) يحمل الأطفال الصغار عادة على الكتفين منفرجي السيقان، أما عندما يكونون رضعاً فيحملون بالطريقة المعتادة على الذراعين، وينقلون أحياناً من مكان لآخر، عندما لا تكون المسافة كبيرة، ويحملون على أحد الوركين.

يورد المطران Lowth الفقرة التالية من مخطوطة السيد Chardin جرت العادة في الشرق بحمل الأطفال على الجانب؛ وهي ممارسة شائعة في الهند. وصحيح أن الأطفال يمسكون بشدة. فيما تمسكهم المرأة التي تحملهم بذراع حول الجسم، وهم لا يقمطون أو يرتدون ثياباً تقيد أطرافهم.

' ويذكر Cotovicus أن الأطفال الشرقيين، بدلاً من حملهم بين الذراعين، يُحملون منفرجي السيقان على الكتف (ملاحظات على إشعيا، ص٢٥٨).

إن العادة الأولى شائعة في الهند، أما الثانية فشائعة في سورية، وإن التعبير الوارد في إشعيا اولذي يعلق عليه المطران، مؤلف من نفس الكلمات التي تستخدمها النساء العربيات 'على الكتف'.

ويرد المقطع التالي في إشعيا

'وسيحضرون أبناؤك على صدورهن

وبناتك ستحملن على أكتافهن'.

ويستشهد بقول لـ Pitt في Barbay بأنه: 'إذا كان الطفل صبياً، فإنه يحمل على كتف الجارية'. أما في سورية فإن الأطفال يُحملون بدون تمييز في تلك الطريقة، سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً. وقد يعزى الفرق في حمل الطفل على الصدر أو على الكتف إلى اختلاف العمر دون اعتبار للجنس، وتمتطي النسوة الشرقيات الحمير أو البغال أو الخيول وهن منفرجات الساقين.

(٩) لا تستعمل المرضعات في سورية مناديلَ لإبقاء الرضيع جافاً في المهد، بل يوجد مكان يشكل لهذا الغرض في وسط المرتبة (الفرشة)، ويملأنها بتراب جاف، ويضعن ثياب الطفل وراءها ويضعنه عليها.

(١٠) لا تتعدى في بعض الأحيان ولاويل المسلمات والنساء الأخريات في الشرق (لأنها شائعة بين المسيحيين واليهود) صرخة أو صيحة، إلا أنه من الشائع إقحام صوت خاطف (ويل) أو كلمة (يا ويلي). وتكرر الندابة الرئيسية، أو النساء المستخدمات لهذا الغرض بعض الكلمات البسيطة مصحوبة بشهقات وذرف دموع، ثم تضرب على صدرها، وتصرخ صراخاً عالياً، وتنضم إليها النساء الأخيرات في الولاويل، كما لو أنها الجوقة المصاحبة للنواحة.

(١١) يذكر بوكوك أنه :'في الطرف الجنوبي من المدينة توجد أضرحة عديدة رائعة تعود إلى الزمن المملوكي، وهي موجودة في الجوامع التي قام رجال عظماء ببنائها عندما كانوا على قيد الحياة لكي يدفنوا فيها؛ وتتألف الأبنية عادة من رواق يبنى على ثلاثة جوانب من الباحة مع أعمدة باهظة التكاليف ورائعة وبوابة عظيمة في المقدمة. وأمام هذا يوجد الجامع المكسو عادة بقبة أو المحراب الذي يتوجهون نحوه في الصلاة ويكون مصنوعاً من أجمل أنواع المرمر، وهو شيء يشبه عمل الموزاييك'. بوكوك (وصف الشرق، المجلد١، ص١٥٢).

إن الأضرحة التي ماتزال موجودة رائعة، إلا أني لم أر أروقة ذات أعمدة على الجوانب الثلاثة من الباحة، ولا يدفن المسلمون داخل المساجد، وكنت أظن دائماً أن المباني الحالية ليست جوامع بل مجرد أضرحة.

وكما يذكر Cantacuzene بحق 'يدفن السلاطين والباشوات والأعيان في مبنى صغير بالقرب من جوامعهم. وتوضع العمامة والثياب على القبر، وتبدل يومياً، وتنثر عليه الأزهار المتوفرة في الموسم'(ص٢٠١).

(١٢) في وصفه جنازات المسلمين يقول Cantacuzene أن حدادهم يتكون من تغيير شاش عمامتهم إلى أسود مخطط، يشبه ذلك الذي يلبسه الأرمن. ويرتدون ذلك ثمانية أيام فقط، وفي نهاية الفترة، يجتمع الأقارب وبعد تبادل التعازي، يعودون لارتداء العمامة المعتادة، أما رجال الدين فيضعون عمامة الحداد مدة ثلاثة أيام فقط (ص٢٠١). ولا يمارس الرجال شيئاً من هذا القبيل في حلب.

الفصل السابع
عن حكومة حلب

مدى اتساع البشاليق، دخل الحكومة، الباشا يتجول في المدينة متنكراً، القاضي والمحاكم، المفتي، النقيب أو رئيس العمائم الخضر (الأشراف)،ديوان المدينة، الجنود، الباشا ليس استبدادياً بشكل مطلق، الدسائس في الديوان، العصيان بسبب شح الحبوب، العقوبات، تدني المبادئ السياسية القديمة للحكومة العثمانية، نبوءة سقوط الإمبراطورية، تبديل الباشاوات باستمرار يؤدي إلى حدوث شرور ومظالم كثيرة في الأقاليم،المناطق الجبلية تتعرض لظلم أقل وهي أفضل زرعاً، حالة الفلاحين البائسة، قرى صغيرة مهجورة بسبب قيام الخيالة المطرودين من الخدمة بأعمال السلب والنهب وأمور أخرى.

يتبوأ حاكم (والي) حلب مرتبة وزير ويمنح لقب باشا، رغم أنه قد تمنح الولاية في بعض الأحيان إلى باشا أدنى مرتبة ذي ذيلين*. وقلما يبقى حاكم لمدة تزيد على اثني عشر شهراً بشكل متواصل، ويمكن أن يصبح الباشا والياً على حلب عدة مرات، وثمة أمثلة عن استمراره لسنوات عديدة متعاقبة.

إن الإقليم أو البشالق (حلب) واسع المدى، إذ يصل شرقاً من خليج اسكندرون إلى ضفاف الفرات، ومن مسافة أربعين ميلاً شمال المدينة، على امتداد مايقرب من خمسين ميلاً إلى الجنوب الشرقي. إلا أنه ليس واسعاً بالقدر الذي كان عليه في أوقات سابقة. فقد أصبحت كلس، التي كانت تابعة لحلب في السابق، إقليماً منفصلاً نتيجة أعمال السلب والنهب المتكررة على يد الأكراد الذين يقطنون الجبال المجاورة. ومنذ عام ١٧٥٢، طرأ تغير على بيلان التي وضعت بالإضافة إلى قرموط والاسكندرونة وبياس والمناطق الجبلية المجاورة، تحت حكم أحد سكان بيلان، وقد جعل لهذه الغاية باشا ذا ذيلين. وفي الوقت الحالي، فإن البشاليق تحده من الشمال قرية بيليك الواقعة على الطريق إلى عنتاب؛ ومن الشرق تحده الصحراء: الباب التي تبعد مسافة عشرساعات إلى الشرق والشمال الشرقي، وحجلا التي تبعد المسافة نفسها تقريبا إلى الجنوب والجنوب الشرقي، بين آخر القرى المأهولة. وإلى الجنوب، سرعان ما تحده الصحراء الواسعة، حيث توجد على أطرافها إلى الغرب أو الغرب والشمال الغربي، أكثر أجزاء الإقليم خصوبة وكثافة سكانية. وتشكل سرمين آخر بلدة باتجاه الجنوب، ويمكن أن تشكل أنطاكية مع المناطق التابعة لها، الحدود الغربية، التي وصلت، في السنوات الأخيرة إلى البحر، حيث

---

* تعني وزير باشا ذا ثلاثة أذيال. ويلفظها العرب باشا إلا أن الكلمة تركية وتلفظ باشا (بتشديد الباء) أو وزير باشا.

(يطلق على الذيل الذي يعلق بأعلى العلم الذي يحمل في موكب الباشا–المترجم).

كانت اسكندرون وبياس البلدتين الحدوديتين المطلتين على البحر. وتقع جسر الشغور تحت حكم آغا يمتد حكمه إلى إدلب كذلك، وقد عيّنه الباب العالي مستقلاً عن أي باشا آخر. ويقال إن أكثر من نصف القرى التي كانت مسجلة سابقاً في سجلات الإقليم قد هجرت تماماً.

قلما يعترف سكان المناطق الجبلية في هذه المناطق بأية سلطة غير سلطة رؤساء قبائلهم. وإن الأراضي السهلية في الكثير من الأماكن إما صحراوية أو تقطنها القبائل التركمانية و Begdelees والرشوان من الشمال، أو البدو والجنكنا: الذين بالرغم من أنهم يدفعون الجزية السنوية، لا يمكن اعتبارهم من رعايا الإقليم.

يسود الاعتقاد بأن دخل الباشا الرسمي لا يكاد يكفيه لتحمل نفقات ثلثي مصروفاته السنوية، بما فيها المبالغ التي يتعين عليه أن يحولها إلى الآستانة، لكي يضمن مصالح أصدقائه في الباب العالي(١). لذلك، فإنه يتبع أسلوباً شنيعاً بفرض إتاوة (avanias)* على الناس، أو يقوم بجمع الأموال بذرائع كاذبة للتعويض: وهو أسلوب شائن من الظلم. ورغم أن هذا الأمر غير دستوري، فإنه يدافع عنه بحجة العرف والضرورة. ويستخدم التوفنكجي** باشي، أو رئيس حرس الباشا، بصورة رئيسية في جمع الإتاوات الأقل قدراً، ويقوم هو وجواسيسه بالمراقبة الدائمة، فلديهم عيون مدربة جيداً، يشيعون الذعر والرعب بصورة مستمرة في المدينة، ولاسيما بين المسيحيين واليهود. إذ إن أي تقصير مهما كان نوعه، يتخذ ذريعة لفرض الإتاوة. ورغم أنه يمكن تحقيق العدالة، فإنه في كثير من الأحيان يمكن ملاحظة الظلم الذي ينزله القاضي.

من عادة بعض الباشاوات السير في الطرقات وهم متنكرون، ولا يرافقهم إلا التوفنكجي باشي وعدد قليل من الجنود، يسيرون على مسافة قليلة وراءه. وفي هذه الحالات، يتم القبض على المسيئين وهم متلبسون أثناء ارتكابهم جريمتهم، أو يضربون بالفلقة*** في الحال في نفس المكان: وثمة أمثلة عديدة تم فيها إطلاق سراح أحد المحكومين سراً من السجن، وكان يعتقد أنه مجرم عتيد، فادعوا أنهم اكتشفوا أمره مصادفة في الطريق، ويقطعوا رأسه في الحال دون اتخاذ أية إجراءات أخرى. ويكون تأثير مثل هذه الدوريات كبيراً. إذ يأخذ السكان ، بخلاف عادتهم في أوقات أخرى، بتجنب المشاجرات الصاخبة، ويدخل الرعب والوجل في نفوس الأشخاص المثيرين للشغب. إلا أنه نادراً مايقوم الباشا بهذا العمل بنفسه، إذ أن مجرد السماع بذلك يكفي لبث الذعر في قلوب الناس: ومن المعتاد أن يقوم مسؤول من السرايا بتقمص شخصية الوالي، ويقوم بالجولات عوضاً عنه.

يعين الباب العالي القاضي لمدة سنة واحدة، ويأتي كل سنة من الأستانة،

---

* أواني (هكذا يلفظها السكان المحليون) والكلمة إيطالية وتعني حرفياً 'ضرر جائر'. وتستخدم في الشرق كثيراً وهي تطلق على جميع أنواع الابتزاز المجحفة والظالمة التي تؤخذ بموجب ادعاءات باطلة.

** اشتقت الكلمة من 'تفنكة' وتعني البارود (المترجم)

*** الفلقة أداة خشبية مستقيمة كالعصا يربط طرفاها بحبل لوضع الأرجل فيها ويتم الضرب على الأقدام (المترجم)

ويحضر معه عدداً من كبار الموظفين، ويقيم في قصر قديم يدعى المحكمة الكبرى. ويجلس وكيله الذي يدعى النائب في المحكمة الخارجية لسماع القضايا الصغيرة، بينما يحسم القاضي الأمور الأكثر أهمية بنفسه. وبالإضافة إلى المحكمة الكبرى، توجد ثلاث أو أربع محاكم فرعية في أماكن متفرقة من المدينة، يقوم القاضي بإلزامها بعدد من الأفندية الذين يعملون تحت سلطته، وينظرون في القضايا البسيطة، أو يقومون بأعمال قضائية أخرى للأهالي الذين يقطنون النواحي البعيدة: ومع ذلك، يقدّم جميعهم استئنافاً إلى المحكمة الكبرى.

لا يوجد للقاضي* راتب منتظم، بل إنه يجد وسائل عديدة لجمع مبالغ كبيرة من المال، ليس فقط من خلال منصبه كقاض. وهذه الوسائل كثيرة جداً. إذ يدعي لنفسه الحق بأن يكون وصياً عاماً على التركات لجميع الرعايا الذين يموتون في المدينة خلال فترة وجوده، لكي يمهر بخاتمه على بيوتهم وممتلكاتهم فور وفاة الشخص. ويضطر الورثة إلى التفاوض معه، والاتفاق على منحه نسبة معينة من القيمة المقدرة للعقار. وفي جميع القضايا التي تعرض أمامه، يطالب بنسبة عشرة في المائة على المبلغ المتنازع عليه، يدفعه الشخص الذي يكسب القضية. إن هذا الأسلوب يؤدي إلى حدوث ظلم لا حدود له، وذلك لأن مصلحة القاضي تكون مرتبطة بعدد من القضايا التي تعرض على المحكمة، مما يشجع على رفع الدعاوى الكيدية. ويوجد أناس وضيعون بين أفراد الطبقة الدنيا يعيشون على إثارة النزاعات، ويحرصون على أن تنتهي تلك النزاعات برفع دعوى أملاً في الحصول على مكافأة صغيرة من المحكمة، 'كبنات آوى القانون'. كما يقوم أشخاص وضيعون برفع دعاوى لا أساس لها من الصحة ضد أشخاص توجد بينهم ضغائن بدافع الانتقام. ويمكن القيام بذلك دون التعرض لدفع التكاليف أو النفقات إذا ماخسر القضية، وذلك لأن المدعى عليه، رغم براءته، يكون مرغماً على دفع تكاليف الدعوى، وذلك بحسب الضرر المقصود به. وفي الحالات التي يكون فيه الظلم واضحاً جداً، يرضى بعض القضاة بمبلغ أقل مما هو متعارف عليه، أما المدعي، فلا تنزل به أية عقوب

يعتمد تقرير الوقائع في حل النزاعات على الأدلة الشفوية بشكل رئيسي. وهذا سبب رئيسي في التهاون والتقصير عند تنفيذ القوانين ضد حنث اليمين (اليمين الزور). لذلك يمكن العثور على شهود يمكن استئجارهم من أجل حلف اليمين في المحكمة. كما أن القاضي والمسؤولين** الذين يعملون معه يقبلون رشاوى بالسر بهدف تأخير البت في القضية، وفي حال عدم قبول القرائن، يتخذ قرار مناقض للحكم تماماً، أو يتم الإسراع في اتخاذ القرار، عندما يكون الحكم لصالح الراشي: وفي هذه الحالة الأخيرة، يظهر شيء من الضمير في قبول رشوة أقل. وبصورة عامة، تتخذ القرارات في القضايا بسرعة، إما في جلسة واحدة أو في جلستين.

---

* يطلق على القاضي بالتركية الملي.

** كان هذا هو الحال منذ قرن من الزمان ولايزال حتى وقتنا هذا (مذكرات دارفيو).

ويحرص القاضي على مغادرة المدينة قبل بضعة أيام من انتهاء فترة ولايته ووصول الوالي الذي سيخلفه، وذلك لكي يتفادى المطالبة بتعويض يمكن أن يطالبه أحد ما به، إلا أنه يرغم في بعض الأحيان، عند عودته إلى الأستانة، على إعادة جزء من غنائمه التي حملها معه. وعرفت أمثلة تمكن فيها أشخاص كانوا قد صمموا على رفع شكاويهم إلى شيخ الإسلام وحصلوا على نتائج مرضية.

يسمي الباب العالي المفتي سنوياً، وغالباً ما يبقى الشخص في نفس المنصب سنوات عديدة. ويكون عادة أحد الأفندية الأثرياء من سكان المدينة نفسها، ممن لهم تأثير في الديوان. وعندما يمنح المنصب إلى شخص ذي ثروة ضئيلة، وذي شخصية دينية أكثر بروزاً، يتخذ المنصب مظهراً بسيطاً. ويعيش هذا الشخص حياة بسيطة، ويقسم مصروفه حسب دخله الضئيل، وتكون مشاركته في السياسة ضئيلة، ولايستمد احترامه إلا من وضعه الديني وسعة اطلاعه على القانون.

يصدر المفتي فتاوى، أو أحكاماً شرعية حول جميع الأمور التي تعرض عليه. ويتم عرض الحالة بإيجاز على قصاصة من الورق، وتكتب الفتوى التي تتألف من بضع كلمات تحتها. ويتعدى الرسم الذي يتقاضاه مقابل ذلك أكثر من شلن بقليل. وفي بعض الأحيان، يدعم القاضي قراره بفتوى من المفتي، وتعرض الفتوى غالباً عند استئناف الحكم، وتلقى احتراماً إذا ما قبلها القاضي، وإلا فإنه يتم عدم قبولها إذا ثبت أن القرائن والوقائع لم تعرض بشكل صحيح.

لايرافع محامون في المحكمة للدفاع عن المتهمين، بل يقوم كل شخص بالترافع عن قضيته. غير أن الأطراف قد تستشير بعض الأفندية ذوي المعرفة الواسعة بالقانون. ويمنحون مكافأة لقاء ذلك، أما إذا كانت عملية البحث عن سوابق تتطلب جهداً كبيراً جداً، فإن ذلك يكلفهم تقديم هدية. ويقوم كتبة مهرة بكتابة الصكوك والعقود والرسائل القانونية والكتابات الأخرى، تدفع لهم مبالغ معينة متعارف عليها.

يسمى النقيب، أو رئيس العمائم الخضر، في الأستانة، وقد يثبت أو يغير في كل سنة. ويجلس كقاض في بعض القضايا الخاصة، ويتم تحويل الاستئناف إلى المحكمة، ويجب أن يحضر المحاكمة الأشراف وآخرون سنأتي على ذكرهم.

يعتبر المحصل، الذي كان يدعى سابقاً 'الدفتر-دار'، الشخص الثاني في المدينة من حيث الأهمية من حيث التسلسل المدني. وعند وفاة الباشا، يعين عادة من قبل الديوان 'المتسلم' أو وال موقت حتى تصل الأوامر من الباب العالي. وهو المحصل العام عن أراضي الميري، والجمارك، والخراج، لذلك يضطر إلى استخدام عدد من المساعدين الذين ينتشرون في الأقليم، ويتدخل في تفاصيل الأعمال الكبيرة. ويمارس سلطة قضائية محدودة في الأمور التي تتعلق بالدخل. ولديه سجن في قصره. ويتمتع المحصل بنفوذ واسع، ويعيش بسعة ورخاء، ويتقرب منه الآغاوات أو مستأجرو الأراضي كثيراً فضلاً عن التجار (٢).

إن الباشا والمحصل والقاضي والمفتي والنقيب والسردار أو آغا الإنكشارية هم أعضاء ، بحكم مناصبهم، في الديوان أو المجلس الذي يتألف بالإضافة إلى ذلك، من كبار الأفندية والآغاوات مع الشهبندر أو كبير التجار. ولا يدعى التجار إلى الاجتماع إلا

في الحالات التي تتعلق بصورة خاصة بالباشا أو ببعض كبار المسؤولين في الباب العالي. ويعقد الديوان اجتماعه كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ويتم إرسال دعوة إلى كل عضو بواسطة الجاويش التابع للباشا. إلا أنه يجتمع بانتظام قبل ظهر كل يوم جمعة في السرايا. ويجتمع الأفندية أولاً في المحكمة، ثم ينطلقون في موكب مع القاضي، ويسير صغار الأفندية أولاً، والقاضي في المؤخرة. وُتبحث القضايا المتعلقة بالمدينة وجميع أصقاع الولاية في الديوان. ويدعي الباشا دائماً أنه يريد الاطلاع على المعلومات بدقة. ويستفسر برسمية زائدة عن أحوال المدينة وأحوال الناس، أو عن حالة التجارة، أو وضع القرى. وبطبيعة الحال تقدم له أجوبة عن جميع استفساراته مع مراعاة شديدة للأوضاع السياسية. وبعد انتهاء اجتماع الديوان يوم الجمعة، يتوجه الباشا عادة في موكب مهيب إلى الجامع يرافقه معظم الأعضاء.

وبالإضافة إلى الحرس المشاة الآنفي الذكر، يواصل الباشا دفع رواتب عدد محدود من الخيالة، عندما تقتضي الضرورة ذلك، وهم الدلي (ويدعي الدلي باشي) والنيكيجري*. ويتمركزون بصورة رئيسية في القرى. ويتمركز عدد قليل من الجنود في السرايا والضواحي.

إن معظم الإنكشارية في حلب، كما هي الحال في المدن الإقليمية الأخرى، أشخاص يعيشون في بيوتهم ويمارسون مهنهم الخاصة بهم. ولا يحصلون على رواتب، بل نظراً لكونهم مسجلين في واحدة من الأوض أو الغرف في الأستانة، فهم يتمتعون في وقت السلم بمزايا واستثناءات عديدة. وفي أوقات الحرب، يمكن استدعاؤهم، وهم مرغمون ليس فقط على المجيء مع أسلحتهم، بل المجيء كذلك إلى المعسكر على نفقتهم الخاصة. ولا يدفع لهم راتب بصورة منتظمة قبل وصولهم إلى معسكراتهم. ويتم تشكيل حرس المدينة المؤلف من عدة مئات من الرجال بقيادة السردار، الذي يتلقى تعيينه من آغا الإنكشارية في الأستانة. ويرتدون ثيابهم بطريقة خاصة، رغم أنها ليست بذلة موحدة. وفي الاحتفالات يلبسون قبعة الكتان الطويلة. إلا أنهم لا يتدربون على السلاح بشكل منتظم، وعندما يخرج السردار يكون لديه عدد من المرافقين . ويتميز هو ومرافقوه بعمائمهم. وفي أحيان خاصة، يسبقه ضابط على ظهر حصان ويحمل حزمة من القضبان، تشبه إلى حد ما الحزيمة** (التي كانت تحمل أمام القناصل في روما القديمة)، ولكن بدون فأس. وتنحصر إدارته بالإشراف على الأسواق وفروع الشرطة الأخرى، ويجول في الشوارع، وتجلب له في كل ليلة مفاتيح أبواب المدينة. وفي حالات محددة جداً يكون خاضعاً لأوامر الباشا.

رغم السلطات الكبيرة الممنوحة للباشا، فهو ليس حاكماً مطلقاً في الإقليم. ففي الأمور العامة، لا يمتلك حق إنزال عقوبة الإعدام دون إجراء محاكمة رسمية في المحكمة، أو على الأقل، دون الحصول على موافقة المفتي مسبقاً بواسطة فتوى: كما لا يحق له الاستيلاء على أملاك أحد. وصحيح أن الأساليب القانونية غالباً لا تولى أي اهتمام، ويتم

---

* هم الانكشاريون. وأصل الكلمة ريني شاري أي العسكري الجديد (المترجم).

** الحزيمة: مجموعة قضبان محزمة على فأس، كانت إحدى شعارات السلطة عند الرومان (المترجم)

تجاوز القانون بشكل صريح وعلني، إلا أن القيام بذلك يعتبر انتهاكاً غير شرعي، ويمارس في الواقع بشكل أقل مما هو متصور. ويخضع الباشا إلى شيء من المراقبة من الديوان خوفاً من العواقب في المستقبل. إذ يكون القاضي مسؤولاً عن تقديم تبرير شرعي عن الاحتجاجات التي ترسل من الأستانة، والتي قد تثير حفيظة الحكومة. ورغم أن الباب العالي لاتحركه دوافع نقية دائماً عند انتقامه، فهو يرغب دائماً في أن يتذرع بمظهر العدالة: وخاصة عندما تتوافق مصالح الوزراء الخاصة (التي تتمثل غالباً في الإبقاء على الوضع السائد) مع معاقبة المسيء المفترض.

وليس من حسن حظ البلد أن تكون المحكمة والسرايا في حالة من الوفاق والصداقة. إذ أن مثل هذا الاتحاد لا يؤدي إلا إلى تشجيع أساليب الظلم الأكثر بطشاً. وفي هذه الحالة، فإن القوة الوحيدة التي تجرؤ على التدخل لمصلحة الناس هي قوة الأفندية والآغوات، الذين يملكون حصصاً من الأراضي. ومن الطبيعي أن يحثهم ذلك على الوقوف في وجه الظلم، الذي يلحق ضرراً مباشراً بأتباعهم. فلا بد أن يتأثروا نتيجة ذلك. وهذا لا يزال أمراً ضرورياً أكثر، لأن أعمال الابتزاز تقدم في الغالب كسوابق من قبل الولاة اللاحقين، عندما يعدمون الحيلة في جمع الأموال.

تدنت سلطة الآغوات كثيراً في السنوات الأخيرة. أما نفوذ الأفندية، ومعظمهم من الأشراف، فلا يزال واسعاً: وإن إئتلافهم يشكل ما يمكن تسميته بحزب المدينة. وعادة ما يقوده زعيم رئيسي، وهو بالإضافة إلى أملاكه، يتمتع بمواهب لحياكة المكائد والدسائس، وتتاح له فرصة الاطلاع على الشؤون الإقليمية نتيجة إقامته الدائمة في الموقع، ويعرف كيف يفيد من مصالح عائلته وفن السياسة في سباق الطموح. وإذا حدث وإن كان نقيباً في الوقت نفسه، فإن نفوذه يزداد بالطبع، رغم أن ذلك المنصب بحد ذاته لايقدم إلا قدراً ضئيلاً من الأهمية السياسية، إذا لم يكن لصاحبه مقدرات خاصة. إن وجود مثل

هذا الزعيم كما أسلفنا ذو فائدة مادية للمدينة. إلا أنه نظراً لأن تصرفاته تكون جائرة في معظم الأحيان، فإن عدداً كبيراً من الناس ممن كانوا يتوددون إليه من أجل الحصول على رعايته ودعمه، يصابون بخيبة الأمل في توقعاتهم في الحصول على رضاه، ونادراً ما تدوم شعبيته إلى أمد طويل. وتكون سلطته موضع خشية وتملق وكراهية، وسرعان مايصبح تأثيره كرادع للأعضاء الآخرين في الديوان في طي النسيان في غمرة ضعف تأثيره نتيجة إهماله أو ظلمه. وفي الوقت نفسه، يتنافس عادة كل من الباشا والقاضي على صداقته. إذ ليس من مصلحة أي منهما إبداء معارضة غير ضرورية، مما يمنحه فرصة أكبر للتوسط في النزاعات التي تنشب بينهما بين الحين والآخر. ونظراً لكونه مفاوضاً بارعاً، يتاح له مجال واسع، لتحويل الصراع بينهما إلى مصلحته الخاصة أو إلى المصلحة العامة.

لذلك فإن المصالح المختلفة التي تدور في الديوان تكون متعادلة إلى حد ما، ورغم انتهاك حقوق الناس بشكل متكرر، فإن الأمور العادية تسير بشكل عادل أكثر مما قد يتوقع، في حكومة يعتبر فيها الناس مجرد عبيد لسلطة غاشمة. وقلما يحدث ائتلاف بين مختلف الأطراف لمصلحة أي إجراء جائر، إلا في أوقات القحط الشديد، عندما يتمكن

الآغوات ، الذين كانوا يخزنون القمح من إقناع الديوان على التواطؤ في أكثر الاحتكارات خسة. ويعاني الشعب المخلص لفترة من الوقت، إلا أن ذلك لا يمر بدون همهمة، ويعاني الأهالي من أقسى المشقات، حتى يثوروا بعد فترة من الزمن يدفعهم إلى ذلك اليأس والدفاع عن النفس. وتكون سلطة الديوان ضعيفة جداً لوقف التيار الثائر، ويصاب الجميع بالاضطراب، ويضطر عدد كبير من أكبر الأعيان المشكوك فيهم، وربما الوالي نفسه، إلى إنقاذ نفسه بالهرب. إلا أن الديوان يتجنب أمراً كهذا بحكمة، لأن ذلك لا يمر دون حدوث ضجة في العاصمة، ويعرف الكبار من التجربة بأن انتقام الباب العالي ينصب دائماً على الأغنياء. ولهذا السبب فإنه قلما تترك الأمور لتصل إلى حد إثارة عصيان عام.

أذكر أنه حدث قحط في إحدى المرات، فاستولت مجموعة من النساء على عدة مآذن، ومنعن المؤذنين من الآذان لصلاة الظهر، وصعدن بأنفسهن إلى المآذن، ورحن يصرخن بأعلى صوتهن من شرفات المآذن، وأخذن يناشدن المسلمين المؤمنين الوقوف إلى جانب نسائهم وأطفالهم وإنقاذهم. وكان من نتيجة ذلك أن قام الكثيرون باقتحام العديد من مخازن القمح، ووجد المتسلم (كان الباشا غائباً في ذلك الوقت) أنه من الأسلم له أن يلوذ بالفرار. ولم تهدأ حدة الاضطرابات إلا بعد عدة أيام. وفي بعض الأحيان، يتدخل الباشا لمصلحة الناس ضد الأشخاص الذين يقومون بتخزين الحنطة. ويقال إن الحادثة التالية جرت في حلب.

فقد هاجم الناس أحد الباشوات، عند دخوله المدينة لأول مرة، وطالبوه بإحقاق العدل وناشدوه بتوفير الخبز لهم. وبعد وصوله إلى السرايا، وفور انتهاء تقديم التهاني له بتسلم منصبه بفترة قصيرة، سأل الأعيان الذين كانوا قد اجتمعوا لتقديم التهاني له، عن سبب الاستياء الشعبي. وأجمع الأعيان على جواب واحد وهو: " فشل المحاصيل في منطقة حلب لسنوات متعاقبة، وشح إنتاج الأقاليم المجاورة بصورة عامة. لذا كان من الضروري توزيع الكميات القليلة المتبقية لتجنب حدوث مجاعة عامة بشكل تام، قبل حلول المحصول التالي. وإذا لم يتبع مثل هذا الإجراء، فسيكون من المستحيل إقناع الشعب، بعد أن نفد كل شيء، بأنه لم يكن شيء مخبأ في المخازن، وأنهم قدموا كل الحبوب إلى الغوغاء الثائرين". وأقسموا برأس السلطان أن ما قالوه صحيح. واستمع إليهم الباشا باهتمام، وبعد أن عبّر عن استعداده للتعاون في أي إجراء لمصلحة العامة، طلب تحديد الكمية المتبقية من الحبوب بدقة في مختلف القرى المعروضة أمامه. وبناء على ذلك، قدم له حساب ذلك، إلا أنهم لم يعلموه بوجود إلا أقل من نصف الكمية الحقيقية. وفي اليوم التالي خرج في موكب رسمي في الصباح الباكر من السرايا، وراح الجميع يتساءلون إلى أين ينوي الذهاب. وتوجه مباشرة إلى إحدى القرى التي ذكروها له، وسرعان ما اكتشف وجود ضعف الكميات التي كانوا قد ذكروها له في الحفر. وأصدر أوامره بأن تنقل إلى السوق، وأن تباع الكمية التي تتجاوز الكمية المحددة له لحسابه الخاص. ووجد الشيء نفسه في قرية أو قريتين أخريين، ثم عاد إلى المدينة. وفي اليوم التالي امتلأت الأسواق بالحنطة، وتدنى سعرها إلى النصف. وانتاب الآغوات الذعر، وكانوا سعداء بالحصول على حقهم حسب البيانات التي قدموها له، في حين استولى

الباشا على الباقي: وعند تسوية الحسابات النهائية، لم ينس الباشا جريمتهم البشعة عندما أقسموا برأس السلطان.

يقع التجار تحت حماية المحصل مباشرة، ولذلك لا يخضعون للإتاوات التي يفرضها الباشا. إلا أنه عندما كانت تتفشى المجاعة في المدينة، كانوا يرغمون في بعض الأحيان على المساهمة في شراء القمح. إلا أنهم كانوا يتذمرون من فرض إتاوات بشكل غير اعتيادي. كما يتذمر التجار الغرباء في الغالب من المحصل نفسه، الذي يحول التجارة إلى دمشق بغرض النكاية. فمن أجل تحصيل فائدة مؤقتة تافهة، يكون قد ألحق ضرراً دائماً بالمدينة.

عندما يتوفى الباشا، يتسلم المحصل ممتلكاته بصفته مسؤول الدخل الرئيسي، إلى أن يصل القبوجي باشي من الأستانة ليتسلمها باسم السلطان. ويجدر الملاحظة أن العقارات الشخصية فقط التي تخص كبار الموظفين التي تستخدم فعلياً في خدمة الباب العالي هي التي تخضع لوضع اليد: أما مساجدهم وأسواقهم وقصورهم وأملاكهم الأخرى، فيخصص جزء منها للأغراض الخيرية، ويخصص الباقي لاستخدام العائلة.*

تؤول عقارات التجار إلى الورثة وفق قوانين راسخة، تسمح بأن يحدد جزء معين بوصية، ويفترض أن ينفذ القاضي القوانين بصورة عادلة جداً إلى الورثة. أما بالنسبة للتجار الأجانب، الذين يتوفون في الخانات العامة، فيحق للمحصل التدخل واحتجاز البضاعة للتصرف بها بإشرافه، بعد تسوية جميع الأمور مع القاضي، إلى أن يطالب الورثة الشرعيون بها.

إن الجرائم التي عقوبتها الإعدام نادرة جداً في حلب. ففي خلال عشرين سنة لم تصدر أكثر من ستة أحكام بالإعدام. وصحيح أن تخفيف العقوبة بموافقة أقرب الأقارب مسموح بها، حتى في حالات القتل، إلا أن حق طلب دم القاتل يبقى أمراً مقدساً. وقلما يمكن الحصول على الموافقة بتخفيف الحكم، وقد لا يمكن الحصول عليها أبداً. وفي الحالات التي يتدخل فيها نفوذ قوي لإنقاذ قاتل ما، فقد علمت أن الباشا يضطر عند ذلك إلى تنفيذ حكم الإعدام بالقاتل، بعد أن تقوم قريبات القتيل بعرض ثيابه الملوثة بالدماء، ويطالبن بشكل صاخب بتنفيذ العدالة حسب قانون الله ورسوله، ويترددن على السرايا يومياً إلى أن يستجاب لطلبهن.

إن حكم الإعدام المعهود هو الشنق، وقطع الرأس، والخنق والخوزقة. وفي هذا العقاب الأخير، يرغم المجرم المنكود، عندما يقاد لتنفيذ الحكم فيه، إلى حمل الخازوق** بنفسه في بعض الأحيان. وينحصر ذلك بشكل رئيسي بالأكراد، أو المجرمين العتاة الآخرين. وغالباً ما ينفذ هذا الحكم الباشا، خلال سيره عبر الأقاليم، وهو يدعي حق تنفيذ الإعدام بصورة عاجلة، شأنه شأن الضباط العسكريين، بهدف زرع الرعب في نفوس الناس. ويتركون الجسد معلقاً على جانب الطريق العام. وقلما يرى ذلك في حلب، رغم أن

---

* وهذا ماكان يعرف وإلى اليوم بـ "الأوقاف الخيرية والذرية" (المترجم).

** كان يستعمل حسب القانون العثماني لتنفيذ عقوبة الإعدام بالمجرم بأن يدخل في مؤخرته ويضغط عليه حتى يخرج من فمه أو من كتفه أو من رأسه (المترجم).

الناس تذكر جيداً حسين باشا، الذي خوزق منذ بضع سنوات عشرين كردياً مرة واحدة في مكان قريب من المدينة. وبقي عدد منهم أحياء عدة ساعات وهم على الخازوق، ولا يعرف كم من الوقت بقوا أحياء. وقد تم الحصول على إذن لوضع حد لتعذيبهم بإطلاق النار عليهم. إلا أنه لم يسمح بإنزال أجسادهم، لكي يشكلوا مشهداً يثير الرعب والاشمئزاز. وكان من عادة ذلك الباشا، عندما كان يسافر أن يحمل معه عدداً من المذنبين المدانين سابقاً، ويخوزقهم واحداً تلو الآخر عند كل مرحلة. ويتركهم لكي تلتهمهم الطيور الجارحة، لأن الخازوق مرتفع بحيث لا تتمكن الحيوانات البرية من الوصول إلى الأجساد. وقد أكسبته ممارسته المتكررة لهذا الضرب من العقاب لقب الخازوقجي.

يعتبر الشنق العقوبة المعتادة لجرائم القتل والمسيئين من الطبقات الدنيا الذين يلقى القبض عليهم في أثناء العصيان. ولا توجد مشنقة منصوبة، كما لا توجد مشنقة مقامة بشكل دائم لهذا الغرض. ويحمل المجرم إلى السوق ويشنق في أول بقعة ملائمة. ويكون منفذ حكم الإعدام عادة أرمنياً. وليس من غير المستبعد أن يقوم الجنود وهم في طريقهم إلى مكان الإعدام ، إذا صادفوا في طريقهم يهودياً أو مسيحياً، أن يبتزوا منه مالاً زاعمين أنهم سيرغمونه على تنفيذ عملية الشنق.

رغم أن قطع الرأس طريقة تركية شائعة جداً في تنفيذ أحكام الإعدام، فهي تنفذ في مدينة حلب بطريقة غير متقنة بسبب قلة خبرة المنفذ. ويتم قطع رؤوس بعض المجرمين بعناية، وتحمل إلى الآستانة بعد حشو الجلد للمحافظة على شكل الشخص. وفي بعض الأحيان، تحمل رؤوس بعض إفراد العصابات أو آخرين يقتلون بالسلاح قرب المدينة كدليل على الانتصار، وهي تعلق على رؤوس رماح المنتصرين.

يجري خنق جنود الإنكشارية، ليس بواسطة سلك قوس، بل بواسطة حبل يلف حول الرقبة، ثم يفتل بعصا. ويتم الإعلان عن إعدام جندي انكشاري بإطلاق مدفع من القلعة. وتبقى أجساد جميع الذين ينفذ فيهم حكم إعدام لمدة بضعة أيام لكي يراها عامة الناس.

لاتعتبر السرقة جريمة شائعة في حلب. وقد أبدى دو لا موتراي (De la Motray) ملاحظة مشابهة في الأستانة، حيث لم يسمع خلال فترة إقامته هناك، ودامت عشرين عاماً، عن أكثر من عشرين شخصاً كانوا قد تعرضوا لها: ويضيف "أما بالنسبة للنشا لين (سارقي الجيوب)، فهم ليسوا معروفين هنا، ولايعرف الناس مامعنى هذه الجريمة".

إن عقوبة السرقة هي قطع اليد، إلا أن العقوبة الأكثر شيوعاً هي الفلقة وتعتبر كذلك العقوبة المعتادة للجرائم من النوع الأدنى. ويكون القضيب الذي يستخدم في الضرب بحجم عكاز صغير. ويلقى المجرم على ظهره، وكاحلاه معصوبان بآلة خشبية، ثم ترفع الساقان في حين يقوم رجلان، يقف كل منهما على أحد الجانبين، بضرب باطني القدمين العاريين بالتناوب. وفي حالات معينة، يتم ضرب جنود الإنكشارية والنساء على الظهرأو على الوركين.

تكون الفلقة في بعض الأحيان مجرد عقوبة خفيفة، وفي أوقات أخرى تمارس بقساوة بالغة. ويحدد عدد الضربات في الحكم الصادر، إلا أنه من المعتاد أن يتدخل شخص ما يكون موجوداً لمصلحة المذنب قبل أن يتلقى العدد الكامل من الضربات، لأن

العقوبة، إذا لم تكن في وجود القاضي، فإنها تنفذ عادة تحت سمعه.

ثمة عقوبات جسدية معروفة في تركيا، إلا أنها ليست شائعة في حلب، وقد حذفناها هنا.

يستخدم النفي بصورة رئيسية لاستبعاد الأشخاص المثيرين للشغب عن الديوان أو عن المدينة. ويتم الحصول على الأمر من الباب العالي عادة بصورة سرية، وينفذ في أقل الأوقات توقعاً. ويتم إبعاد الشخص عن عائلته على الفور، ويرافقه ضابط الباشا لمسافة عدة أميال على الطريق، ثم يترك وحده لكي يتابع رحلته. ومن الأماكن التي اعتادوا النفي إليها جزيرة قبرص والمدن البحرية من Syrra.

كان من بين الأمور الأخرى التي يقال فيها إن الحكومة التركية قد حادت عن المبادىء الدستورية التي تعتبر جوهرية لبقائها، التواطؤ مع العائلات الكبيرة. فقد كان يتم اختيار كبار الضباط في السلطنة من الرقيق الذين كان يتم جمعهم من البلدان التابعة، والذين جرى تعليمهم وتدريبهم في السرايا. وقد جاؤوا إلى هذا العالم وهم لايعرفون صلة للدم والقرابة، ولم يكونوا يعرفون أهلاً لهم سوى الباب العالي. وعند موتهم تسترد الثروة التي يفترض أنهم كانوا قد حصلوا عليها من خلال حظوتهم، وبعد زوال خلفهم، يزول الأمل في وراثة التكريم أو العقارات وسرعان مايصبحون في طي النسيان. وقد ترى في وقتنا الحاضر أولاد أحد الباشوات وهم يتعاقبون على تبوؤ المناصب العليا. وثمة أمثلة عن العديد من الأخوة من عائلة واحدة كانوا باشاوات في نفس الوقت. فقد كان لباشا دمشق، المرحوم أسعد باشا، أخوان أحدهما وزير، والآخر باشا ذو ذيلين. وأقام كلاهما معسكراً في جوار حلب في سنة ١٧٥٧، عندما كان أسعد باشا والي المدينة فعلاً.

إن أعلى المناصب الهامة التي كانت تمنح في السابق لذوي الجدارة أو كانت تكريماً من السلطنة، أصبحت تباع الآن إلى الشخص الذي يدفع مبلغاً أعلى. ويرى وزراء البلاط المرتشون، دون شعور بالغيرة، تعاظم شأن العائلات، الذين يستخدم ثراؤهم لإشباع جشعهم وأطماعهم. إلا أن الأسوأ من ذلك، الظلم الرهيب المدمر الذي يمارس على الأقاليم، التي تعتبر المصدر الرئيسي لذلك الثراء، والتي لاتعاني فقط لكي تتجاوز سوء العاقبة فحسب، بل تتحمل الظلم الذي يفرض على الولاة كمطلب رئيسي للمنصب.

في غمرة كل هذه المشاق، يندب الأتراك حظهم لانحطاط وتدهور السلطنة. ويعتقدون أنهم مقبلون على الزوال بسرعة. ويقولون إن الفضائل السامية التي كان يتمتع بها أسلافهم قد زالت الآن، بعد أن حلت محلها عادات غاية في السخف والابتذال، وأن الدين الذي لم يعد أحد يتمسك بأهدابه كما في السابق، لم يعد يحافظ إلا على الشكل الخارجي له: إذ لم تعد هناك سلطة كافية لكبح الرذائل الكثيرة التي أدخلتها حياة الرفاهية العصرية، وروح العصر التي تتسم بالابتذال والعبث. وقال لي مرة المفتي، الذي كنت على صداقة حميمة معه، في إحدى محادثاتنا، إنه يريد أن يطلب مني معروفاً، بأنه لدى عودتي إلى إنكلترا، أن أكون واعياً بألا أظلم الدين الإسلامي، نتيجة تشكيل آرائي عنه مما شاهدت ولاحظت من ممارسات المسلمين. وتابع قوله: إذا أخذت عكس مارأيتنا نمارسه يومياً على أنه الشرع الحقيقي، فستكون أقرب إلى الحقيقة، وأقل عرضة لتضليل

نمارسه يومياً على أنه الشرع الحقيقي، فستكون أقرب إلى الحقيقة، وأقل عرضة لتضليل أبناء قومك".

إن هذا الرجل الجليل الفاضل، طرابلسي أفندي، كان قد درس في معهد في القاهرة الكبرى، وشغل منصب مفتي حلب لسنوات كثيرة. وكان ضليعاً في القانون ويتمتع بموهبة شعرية. وعندما كان رجب باشا في حلب، أخبرني أنه كان يعتبر المفتي الشخص الوحيد الذي التقى به والذي يمكنه أن يدعي بحق معرفة اللغة العربية. وكان متحرراً في أسلوب تفكيره، لين الجانب، سلساً، ويتمتع بروح مرحة رياضية وهو في هذه السن المتقدمة. وتواصلت صداقته مع أخي عن طريق الاهتمام بي بشكل مستمر، وهو الذي جعل إقامتي خارج وطني أكثر سعادة. وقد عرفني بالأعيان، وعن طريقه تمكنت من الحصول على مخطوطات للكثير من الأصدقاء في أوروبا.

وفي سنة ١٧٧١، أصبح نقيباً في الوقت الذي قام فيه الأشراف بعصيان خطير. وعندما كان طريح الفراش بعد أن أصيب بمرض خطير أودى بحياته بعد فترة قصيرة. ولم يكن بوسعه وقف تيار العصيان، لأنه قال لي قبل سويعات من لفظه أنفاسه الأخيرة، بأنه بذل كل مابوسعه إزاء اجراءات كان يدينها، وتوقع أنها لن تنقذ حياة عائلته من الدمار: وهي نبوءة رأيت نتائجها تتحقق.

إن سياسة الباب العالي المتمثلة في خلع الباشاوات بشكل دائم ونقلهم من ولاية إلى أخرى للحيلولة دون إقامة ولايات مستقلة، تلحق ضرراً شديداً بالأقاليم. وفي خلال التنقلات المتكررة للباشاوات، تتعرض ولاياتهم إلى اضرار كبيرة وتدفع ثمناً باهظاً، وتتعرض الحقول والقرى إلى نهب القوات التي لا تتمتع بنظام لها. كما يميل الولاة أنفسهم للحصول على كل منفعة مؤقتة تتيحها لهم الظروف، دون إيلاء أي اعتبار لمصالح البشالق في المستقبل. وبما أن الباشا غير متأكد من الفترة الزمنية التي سيقضيها في منصبه، فإنه يعمل بحماس ولهفة على إقامة أي مشروع يدر عليه الربح، ويدرك الناس الذين يتطلعون إلى التغيير، والذين علمتهم التجربة، أنه يندر أن تتحسن أوضاعهم.

لذلك، يمكن أن يعزى إهمال المصلحة العامة في تنظيم الشرطة، فضلاً عن الوضع المثير للشفقة للكثير من القرى التي رغم أنها كانت مكتظة بالسكان ومزدهرة في بداية القرن الحالي، أصبحت الآن في أفول، وآل بعضها إلى الخراب. وقد تدهورت النيرب وتادف تدهوراً كبيراً. وهجرت قرية شجرة الزيتون تماماً. وقد تأكد أنه من بين ثلاثمائة قرية كانت مشمولة في السابق في البشالق، فإن أقل من ثلثها مأهول الآن (١٧٧٢) بالسكان، ونتيجة لذلك فإن الزراعة آخذة في التدهور.

يعيش الآغوات، الذين يعملون بشكل رئيسي في زراعة الأرض، في ثراء ملحوظ، وأصبحت ضيافتهم أقل من ذي قبل. وهم ينفقون الكثير من أموالهم بغرض المباهاة لسنوات عديدة إلى أن يصلوا إلى حد لا يمكنهم معه دفع ضريبة الميري فيفلسون. ويهاجر الفلاحون إلى بقاع أخرى بعد أن يجردوا من أراضيهم ويخسروها إلى غير رجعة. لذلك فإن مساحات شاسعة من السهول والأودية الجميلة في بشالق حلب تكسوها الأشواك بصورة مؤسفة. وتشكل تناقضاً صارخاً بالمقارنة مع بقاع عديدة من المناطق

الريفية الجبلية، التي يحميها موقعها الجغرافي الطبيعي من الظلم الجائر، فتكون مزروعة بشكل جميل وممتلئة بالناس، وتكون أراضيها كلها مزروعة بالنباتات ومزدهرة.

لا تتعرض السهول لفوضى حاشية المسؤولين الكبار عند مسيرها عبر الأقاليم فحسب، بل كذلك تتعرض إلى غزوات قبائل التركمان والرشوان والبدو الرحل: وأسوأ من كل ذلك تتعرض إلى قوات اللاوند *(Levand) التي لاتعرف الرحمة والمطرودة من الخدمة، والتي تتنقل باستمرار من مكان لآخر، وهم عرضة لإنزال عقوبة حكم الإعدام العسكري بهم. فيجمعون أموالاً من القرى التي لاحول لها ولاقوة.

وبشكل عام، يعقد بين الباشا وأمير البدو في المنطقة المجاورة تحالف أو معاهدة، بحيث يتعهد الأمير بالدفاع عن الريف والقرى. إلا أنه قد يحدث سوء تفاهم بين الباشا وبينه، أو تشن حروب أهلية بين البدو أنفسهم: وفي كلتا الحالتين، يغيرون عادة على القوافل وينهبون القطعان.

يكون من واجب الباشا، رغم أنه لايكون في وسعه ذلك باستمرار، منع حدوث الاضطرابات. إلا أنه في معظم الأحيان ينهمك في المدينة بالأعمال التي تدر عليه ربحاً أكثر. لأنه يعرف أن شن حملة بقواته تستلزم بالضرورة نفقات باهظة، فضلاً عن المخاطر التي تترتب عنها. وهو غير متأكد متى سينقل إلى ولاية أخرى، فلا يحرص على ازدهار البشالق، الذي يحتمل أن يأتي خلفه ويجني ثمار أعماله. ويمكن الملاحظة في الوقت نفسه، أنه عندما يبرز طموح لدي الباشا أو تستفزه الإهانات المتلاحقة، يصمم على شن حملة، ويقع جزء من نفقات الحملة العسكرية ثقيلاً على عاتق القرى، فتنتابهم الشكوك بأنه أليس من الأفضل لهم الاستسلام لأعمال السلب والنهب التي يتعرضون إليها من حين لآخر، بدلاً من شراء الدفاع بثمن باهظ.

تختلف الحالة عندما يجد الباشا وسيلة لإطالة فترة إقامته لعدة سنوات في الإقليم نفسه. إذ يجد نفسه شيئاً فشيئاً مهتماً في رعاية مصالح الناس، فيصبح مزارعاً للأراضي، ومشاركاً في زراعتها، ويصبح لديه دافع اقل لاعتماد أساليب الظلم والقهر المعتادة التي يعرف أنها ستعرض تأييد الشعب له للخطر، الذي يعتبر أفضل أمان له حيال دسائس الباب العالي: ومن الطبيعي أن يبذل كل ما بوسعه لوقف أعمال النهب والسلب التي يكون هو نفسه خاسراً رئيسياً فيها. وفي هذه الحالة، فإن الباشا يستثير غيرة الباب العالي، إذا كان رجلاً مقداماً. وفي كل الأحوال، فهو يجذب إليه جشع الباب العالي بسبب الثروة التي يفترض أنه قد جمعها: إلا أن الباب العالي، بعد أن يحدده ضحية المستقبل، يتركه يواصل عمله بهدوء لفترة طويلة. وبعد أن يتخلص من جميع الطغاة الأقل شأناً، يبدأ في الحكم بشكل مطلق في إقليمه، إلا أنه يطعم حكمه الاستبدادي بأعمال من العدل والحرية من حين لآخر بمهارة كبيرة، لكيلا يمكّن الناس الذين يرغبون في إحداث تغيير من القيام به، الأمر الذي قد يجلب لهم حاكماً أكثر قسوة وفظاظة. وفي النهاية، تقترب اللحظات الحاسمة، ويبالغ الباب العالي في امتداحه بشكل ماكر وحاذق،

* ربما يقصد المؤلف اللاوند وهم الدرك التركي (المترجم).

وتقدم له الوعود، ويُبعد إلى ولاية بعيدة تحت ادعاءات اطرائية، ويقع ضحية قبل أن يكون قد أتيح له الوقت لإقامة صلات دفاعية: ومن الأمثلة الواضحة عن ذلك، أسعد باشا والي دمشق. فقد تمكن من جمع ثروات طائلة، وكانت ولايته في حالة ازدهار زراعي.

إن الأمثلة عن هؤلاء الباشاوات الأقوياء وشبه المستقلين لا توجد إلا في الأقاليم الحدودية أو النائية. إذ أن يقظة الباب العالي نشطة إلى حد يكفي لجعلهم نادرين معدودين على أصابع اليد. وفيما يتعلق بالإدارة العادية، تترك الأقاليم عرضة للنهب والسلب من قبل أولئك الذين يقع على عاتقهم واجب حمايتها. ويكون الباشا نفسه شديد اللهفة والحاجة في غمرة البهاء والجلال والتملق الشديد لتلبية طلبات الباب العالي التي لا تعرف حدوداً. وتثير الرحلات الطويلة والباهظة التكاليف حفيظته، ويدأب باستمرار ويشكل حثيث لتحصيل تلك الثروة التي قلما يترك لكي يستمتع بها، والتي يجب عليه غالباً أن يحصل عليها بوسائل لاتتلاءم مع سبل العدالة بشكل يدمر الإقليم وينهب ثرواته. وفي ظل هذه الظروف، لا يستغرب أن يكون الريف، رغم ما حباه الله من مزايا طبيعية كثيرة من التربة والمناخ الجيدين، مأهولاً بعدد قليل جداً من السكان، والمزروع بصورة سيئة.

يحق للفلاحين الحصول على ثلث محصول الأرض. ويُحسم سنوياً من هذه النسبة (التي تتباين بموجب اتفاق خاص) المبلغ الذي يمكن أن يكون قد دفعه الآغا سلفاً، ومستلزمات الزراعة، بالإضافة إلى نسبة معينة من الميري التي تفرض من حين لآخر على القرى. وذلك لأنه رغم أن الآغا ملزم بدفع الميري من حصته البالغة الثلثين، بالإضافة إلى جزء معين من الإتاوة من حين لآخر، فهو يمتلك دائماً المقدرة على التلاعب بالحسابات لكي يطالب بمبلغ أكبر مما دفعه في الواقع، وخاصة فيما يتعلق بالإتاوة، وبذلك، وبالإضافة إلى مراكمة الفائدة على المال المقدم سلفاً، يبقى الفلاحون غارقين في الدين إلى الأبد.

تبنى القرى من الحجارة، إلا أن معظمها مكون من أكواخ بائسة من الطين ذات أسطح مخروطية الشكل، وتبدو من بعيد مثل مجموعة من بيوت زجاجية صغيرة. ويتم تزويدها بالمياه من آبار عميقة أو من مياه الأمطار التي تحفظ في صهاريج. وإذا كانت القرية تقع بالقرب من نهر صغير أو جدول مياه، وجد عادة بستان مزروع على ضفتيه، حيث يقيم الآغا، وإذا لم يكن لديه بيت في القرية نفسها أقام مخيماً في أثناء رحلاته الصيفية. أما في القرى الكبيرة، فيكون للآغا والشيخ بيوت من حجر، وتكون واسعة فسيحة جداً، وتستخدم في بعض الأحيان لاستقبال المسافرين والمسؤولين الذين يرسلون للإشراف على عملية الحصاد. ويوجد في كل قرية مسجد أو كنيسة صغيرة، وفي القرى الأكثر أهمية يوجد سوق وحمام ومقهى وخان عام.

يرتدي الفلاحون ثياباً بسيطة، ويعيشون بلا مبالاة، ويقيمون أودهم على الخبز الخشن واللبن والبقول والشعير والبطيخ. وقلما يتذوقون لحم الضان أو الحمل إلا في الأعياد. ويرسلون كميات كبيرة من الدجاج والبيض إلى سوق المدينة. وهم في حقيقة الأمر لايتذوقون إلا قدراً ضئيلاً جداً من الفواكه التي يزرعونها. ومع ذلك، فهم يظهرون في بعض الأحيان روحاً من الكرم والضيافة، ويقدمون للغريب بأريحية مطلقة جزءاً

من طعامهم المنزلي. وتبدي النسوة حماسة كبيرة بجر الماء العذب المستخرج من أكثر الآبار عمقاً. إن العادات السائدة والجهل تخفف كثيراً من حالتهن. إن مثل هذه الصعاب والمشقات التي يتعرضون لها تثير الحنق إلى حد الجنون، وهي تبدو لهم خفيفة بالمقارنة مع أعمال سيئة أخرى يتعرضون لها. وعندما تنجح مصالح سيدهم في السرايا لحماية أكواخهم من زيارات الجنود لهم غير النظامية، تنتابهم السعادة: إلا أن مصالحه لا تنفذ دائماً بشكل لائق، في حين تتركهم بلادة أو ضعف الباشا تحت رحمة الأوباش المتشردين التي ربما تثير الحنق والغضب. لذلك، فإن سكان القرى يعانون من بؤس متراكم. ونتيجة الرعب والقنوط، يطمرون حاجياتهم وأغراضهم نظراً لعدم تمكنهم من نقلها بسرعة، ويهجرون قراهم ويبحثون عن مكان آمن عن طريق الاتحاد مع قرى أكثر قوة وبأساً، أو يلوذون بالفرار إلى مناطق نائية، بعيداً عن الطرق التي يمر بها عادة قطاع الطرق. وفي كل هذه الأمور مجتمعة، ينتقلون هم وأطفالهم وقطعانهم إلى أي مكان يدعوهم مكان مظلل للتوقف فيه. وهم مستعدون للهرب إلي أي مكان ناء عند أول إنذار، وينطلقون إلى أي مسافة يمكن أن تطأها خيولهم. إن هؤلاء الهاربين البائسين البريئين يقدمون صورة حية عن البؤس المزري، الذي لايمكن لرحالة أوروبي أن ينظر إليه وهو يمر عبره ويتمكن من كتم مشاعر الدهشة والعطف والسخط في آن معاً.

الملاحظات

(١) يقول م. درافيو الذي كان منصبه في حلب يمكنّه من الحصول على معلومات أن 'راتب الباشا المنتظم يبلغ ثمانية آلاف دولار (أكثر من ٨٣٠٠ جنيه استرليني) يخصص منها خمسة وثلاثون ألفاً للحفاظ على قواته المؤلفة من أربعمئة إلى خمسمئة رجل، وبالإضافة إلى ذلك ينبغي عليه أن يحصل على مبلغ كاف ليدفع تكاليف تنصيبه، وشراء حماية الأصدقاء في الباب العالي لضمان تعيينه مرة أخرى عندما يُنقل من حلب. إلا أنهم باتباع أساليب الابتزاز وتقديم الهدايا ووسائل أخرى، يرفعون دخلهم إلى مئتي ألف دولار (حوالي ٢٥٠٠٠ جنيه استرليني). المذكرات، المجلد الرابع، ص٤٤٤).

يقل دخل الباشا حالياً (١٧٦٩) عن مائتي ألف دولار بكثير، رغم أن الأتاوات ربما كانت شائعة كما كانت دائماً. ويذكر Vonley في عام ١٧٨٣ نفس الرواية تقريباً عن دخل الباشا مع م. درافيو، إلا أنه يذكر مثالاً عن باشا يدعى عبد باشا، الذي تمكن خلال عشرين سنة، من جمع مبلغ ضخم وصل إلى ١٦٠٠٠٠جنيه استرليني نتيجة اتباع أساليب ابتزاز غير عادية في خلال خمسة عشر شهراً (المجلد٢ ص١٤٠، لندن، ص ١٣٠ مجلد٢، باريس).

(٢) في زمن دارفيو كان المحصل يدفع أربعمائة ألف دولار إلى خزينة السلطان من أجل الالتزام*. 'وفي حال نشاط التجارة، كان يعتبر فائزاً كبيراً، وإذا كان عكس ذلك فيكون خاسراً كبيراً، ولا يتوقع الحصول على رحمة أو شفقة من الباب العالي. وكانت الخزينة تحتجز أثاثاته وخيوله وخدمه ويزج هو نفسه بالسجن حتى يدفع كامل الدين. (المذكرات، المجلد٦، ص٤٥٠). أما الآن فإن الالتزام أقل بكثير، ومع ذلك فغالباً ما يدمر الشخص الذي يتورط في ذلك: وقد عرفت أكثر من حالة منذ عام ١٧٦٠.

(٣) يشير لودفيكر دومينشي Ludvico Domenichi إلى وجود نبوءة تركية بأن الأوروبيين سيدمرون الامبراطوية العثمانية مع ترجمة وتعليق. ويذكر رولامب، المبعوث السويدي في الأستانة في سنة ١٦٥٧ بأنه حج‌ثمة شك خاص ينتاب الأتراك ضد الأمة السويدية، حيث أنه مسجل في نبوءاتهم بأنه سيتم تدمير السلطنة على يد أمة من الشمال (ص٦٨٤). ويقال إن الأتراك سيستولون على روما، وسيصبح البابا بعد ذلك بفترة وجيزة بطريرك القدس، ثم يصبح مسلماً. ثم سيهبط المسيح، ويعد أن يخذله الأتراك سينتقل إلى الجزيرة العربية، وسينتهي العالم وما إلى هنالك (رحلة إلى الأستانة بقلم نيكولاس رولامب ١٦٥٧).

ويلاحظ أن النبوءة تتنبأ بقيام الروس بغزو الأستانة، وهو اعتقاد شائع بين العامة في المدينة كما كان في القرن العاشر قفىا (سقوط الامبراطورية الرومانية، مجلد٥، ص٥٧٠).

** الاقطاع بالالتزام: جعل عائدات الأرض أو ضرائبها حقاً لشخص معين يلتزم بجبايتها لقاء مبلغ محدد يدفعه. (المترجم).

الملحق

مخطط عن أولى مؤسسات الشركة الشرقية في تركيا

كانت الحركة التجارية بين الشركات الإنكليزية وبلاد المشرق ضعيفة قبل بداية القرن السادس عشر، وكانت تنقل بضائع هذه الشركات على متن السفن الجنوية (التابعة لجنوة)، والفينسنية (البندقية)، والبرتغالية، والسفن الأجنبية الأخرى. وقد ازداد نقل البضائع على متن السفن التي كانت تبحر من لندن وسوثامبتون وبريستول إلى كانديا (Candia) وساقس (Scio) وقبرص بين الأعوام ١٥١١ و١٥٣٤ زيادة كبيرة، وكذلك إلى طرابلس في سورية وبيروت:ورغم ذلك كانت السفن الأجنبية لا تزال تستخدم لشحن السلع الإنكليزية خلال تلك الفترة. (أندرسون – استنتاج تاريخي وتأريخي عن أصول التجارة – لندن، ١٧٦٤).

توجهت خلال ١٥٣٤ و ١٥٣٥ ثلاث سفن إنكليزية، بلغت حمولة إحداها ٣٠٠ طن، وكان على متنها مئة رجل إلى كانديا وساقس حيث عين الإنكليز وكلاء لهم اختاروهم من بين السكان المحليين، إلا أنه بعد عدة سنوات (١٥٥٠ و ١٥٥٧) بدأ التجار الإنكليز والفرنسيون والجنويون يستقرون في ساقس.

رغم أن كانديا بقيت تابعة للبندقية، وساقس تابعة لجنوة، فقد استمرت التجارة على متن السفن الأوروبية المتجهة إلى هناك. إلا أنه بعد أن سقطت هذه الجزر في يد الأتراك توقفت التجارة حتى جاء وقت قام فيه مواطنون من تلك البلدان بعقد معاهدات تجارية مع الباب العالي العثماني. وقد أسفرت التجارة الإنكليزية مع المناطق الشرقية من هذه الولايات الإيطالية إلى إقامة تجارة مباشرة مع تركيا شيئاً فشيئاً.

وفي عام ١٥٧٢ بدأ قناصل من فرنسا وفينيسيا وجنوة وفلورنسة يقيمون في الآستانة، ولم يكن بينهم قنصل من إنكلترا: وقد توقفت التجارة مع الشرق (كما يبدو) بين ١٥٥٣ و ١٥٧٥ (أندرسون، ص، ٣٢٩،٤١٤).

ولايعرف بدقة متى تم إحياء التجارة مع المشرق، ويحتمل أن يكون هيربراون (Harebrown)، الذي أدت مفاوضاته التي أجراها مع الآستانة إلى إقامة الشركة في تركيا، من بين أوائل التجار الذين عادوا إلى المشرق بعد سنة ١٥٧٥.

قال كامدن (Camden) في سنة ١٥٧٩ حح إنه، نتيجة توسط إليزابيث لدى السلطان العثماني، تم عقد معاهدة بين الإنكليزي ويليام هيربراون، و الباشا التركي مصطفى بك، تمكن التجار الإنكليز بموجبها من التنقل بحرية في أنحاء الإمبراطورية، كما هي حال الفرنسيين والبنادقة وسكان بولونيا وما إلى هنالك. (كامدن 'تاريخ إليزابيث'، ص، ٢٣٥، لندن، ١٦٧٥).

اقتصرت على هيربروان وشريكيه، سير إدوارد أوزبورن ومستر ريتشارد ستيابرز. 'نعلمكم أن شخصا كان قد قدم إلينا، باسم جلالتكم المعظمة، وحمل إلينا من طرفكم كل المودة واللطف، وطلب إلى جلالتنا بتواضع أن نمنحه الإذن والحرية، له ولتاجرين آخرين من رعاياكم... الخ وقد أعطيت الموافقة للأشخاص المذكورين على ذلك، كما صدرت الأوامر المتعلقة بها'.

وردت إليزابيث على هذه الرسالة برسالة جوابية في ٢٥ تشرين الأول من العام نفسه، يستشف منها أنها كانت تعتقد بأن المزايا الممنوحة اقتصرت على مجالات محددة جداً. فقد كررت شكرها للاهتمام الذي أبداه 'للطلب المتواضع الذي تقدم به أحدهم وهو ويليام هيربروان، أحد رعايانا، للسماح له ولتاجرين آخرين من شركته، وهما من رعايانا كذلك، بجلب سلع عن طريق البر والبحر وما إلى هنالك.

'إن الشرف الذي منح إلى عدد قليل من رعايانا، وبناء على طلبهم فقط، دون تدخل من جانبنا، المتمثل في منحهم حرية المجيء والذهاب، كما هو ممنوح لأي من الكونفيدراليات التابعة لسلطنتكم والفرنسيين والبولونيين وما إلى هنالك، فإننا نرغب من معاليكم، بألا يقتصر هذا الشرف الذي منحتموه على رجلين أو ثلاثة رجال فقط، بل يشمل جميع رعايانا بصورة عامةحح. أنظر الرسائل بالتفصيل (Hakluyte ص ١٦٣).

ولايعرف بالضبط متى أعيد إحياء التجارة مع المشرق، رغم أنه يحتمل أن يكون هيربراون، الذي أرست مفاوضاته مع الآستانة دعائم الشركة في تركيا، من بين أوائل التجار الذين عادوا إلى المشرق بعد سنة ١٥٧٥.

ذكر كامدن أنه نتيجة لتدخل إليزابيث، منح السلطان مراد في بداية حزيران ١٥٨٠ أول ميثاق للمزايا (أو الامتيازات كما يطلق عليها الآن) إلى الإنكليز ' وبما أنها (أي الملكة) طلبت منا أن نمنح هذا الشرف إلى جميع رعاياها بصورة عامة، وهو ما كنا قد منحناه سابقاً إلى عدد قليل من رعاياها.. لذلك نمنح إذناً لجميع شعبها وتجارها، وما إلى هنالك'. ويحتوي الميثاق على إحدى وعشرين مادة (Hakluyte ص ١٦٣)

وبعد خمسة عشر شهراً من تاريخ الامتيازات، تم تأسيس أول شركة في تركيا، وميثاق الملكة مؤرخ في ١١ أيلول ١٥٨١. وقد منح لفترة سبع سنوات إلى إدوارد أوزبورن ألدرمان من لندن، وريتشارد ستابلر، تاجر، وتوماس سميث إسكواير، وويليام غاريت من لندن، تجار وورثتهم الخ.

وفي ٢٠ تشرين الأول ١٥٨٢، عينت إليزابيث مستر ويليم هيربراون مبعوثاً ووكيلاً لها ومهرت قرارها بخاتمها العظيم، ومنحته السلطة لتصديق الامتيازات، وتنظيم جميع الأمور التجارية، وتعيين قناصل أو حكام حيث يرى ملائماً.

وانطلق هيربراون وهو يحمل هذا التكليف بالإضافة إلى رسالة جلالتها إلى السلطان، على متن Susan of London وعليها ٣٤ مدفعاً. وأقام سلاماً في البداية مع الجزائر وتونس وطرابلس، وبعد أن أقام جميع الخانات التجارية في تركيا (رغماً عن الفرنسيين والبنادقة) عاد إلى الأراضي الإنكليزية في سنة ١٥٨٩، لأن رسالة السلطان إلى الملكة في أيلول من ذلك العام شملت توصية قوية عن هيربراون، فيما كان على وشك مغادرة الآستانة: 'ورغب في أن يبعث هو أو أحد السفراء الرئيسيين الآخرين إلى الباب

العالي دون تأخير'. (نولز، تاريخ الأتراك، ص ١٠٠٧، لندن، ص. ١٦٢١).

نتيجة لذلك، تم تعيين السيد إدوارد بارتون، الذي كان هيربراون قد تركه هناك كقائم بالأعمال، سفيراً، ويبدو أنه رافق السلطان محمد إلى معسكره في هنغاريا في سنة ١٥٩٦. ويذكر سكرتير السفير السير توماس غلوفر شيئاً عن هذه الحملة، وأبقى ساندرسون وكيلاً في الآستانة خلال غياب السفير. (بوركاس، رحلات الحج، الجزء الثاني، ص ١٣٥٤، لندن، ١٦٢٥).

توفي بارتون في الأستانة، وخلفه السيد هنري ليلو، الذي، وفق ماذكره بيدولف، عاد إلى بلده وهو يتمتع بسمعة طيبة، ومنحته صاحبة الجلالة لقب فارس، بعد أن رأس الجالية الإنكليزية في تركيا لمدة عشر سنوات.

إذا كان ليلو (Lillo) قد أقام في الآستانة لمدة عشر سنوات، فلا بد أن يكون السيد بارتون قد توفي في سنة ١٥٩٧، وذلك لأن السير توماس غلوفر الذي واصل عمله كسكرتير لليلو، عين خلفاً له في سنة ١٦٠٦. ومع ذلك، فلا يذكر ساندرسون الذي غادر الأستانة في أيلول ١٥٩٧ شيئاً عن وفاة السفير، إلا أنه عند عودته من هناك بعد سنتين، يذكر أنه زار قبر المرحوم السفير بارتون، في جزيرة القلقاس (Calcas) . (بوركاس، ص ١٢٦٢-١٣٣٨).

بذل الأشخاص الذين عملوا على تأسيس الشركة جهداً وسعياً كبيرين. فقد قام جون نيوبري برحلة تجارية إلى سورية منذ ١٥٧٨، وسافر من آذار ١٥٧٨ وحتى تشرين الثاني ١٥٧٩، وزار طرابلس و يافا والقدس ومدناً أخرى وجبل لبنان. ثم انطلق ثانية في أيلول ١٥٨٠، وبعد زيارته لكل من سورية، وفارس، وأرمينيا، وجورجيا، وقرامانيا، والأناضول والآستانة، قطع من هناك طريقاً طويلاً بالبحر الأسود إلى أعالي الدانوب الخ واستغرقت رحلته هذه عامين، وكان دقيقاً جداً في ملاحظاته التجارية.

وكان قد رافق نيوبري من لندن ويليام بارت التاجر الإنكليزي، الذي استقر في حلب، ثم منح مرتبة القنصل. وعندما وصلا حلب في حوالي أواخر كانون الثاني ١٥٨١، دعاهما القنصل الفرنسي إلى وليمة ضخمة. ويبدو أن نيوبري، بعث برسائله بعد ذلك بفترة وجيزة من بغداد إلى السيد هيربراون والسيد بارت، عن طريق القنصل الفرنسي في حلب ' لأنه لم يكن للإنكليز مؤسسة ثابتة هناك في ذلك الوقت'.

وكما ذكرنا فقد تم الحصول على الامتيازات في حزيران ١٥٨٠، إلا أنه لم يتم تأسيس الشركة الشرقية إلا في أيلول ١٥٨١، ولم يمنح هيربراون سلطة تعيين القناصل إلا في تشرين الثاني ١٥٨٢. لذلك لم يتم تعيين قنصل في حلب إلا بعد سنتين من وصول بارت لأول مرة إليها.

مما لاشك فيه أن بارت هو أول قنصل إنكليزي في حلب، ولابد أن يكون قد عيّن بعد وصول السفير هيربراون إلى تركيا في أوائل عام ١٥٨٣. ورغم انتهاء صلاحية أول ميثاق للشركة في ١٥٨٨، يبدو أنه لم يتجدد حتى ١٥٩٣، إذ تلقى ثلاثة وخمسون شخصاً بدلاً من إثنتي عشرة رسالة اعتماد من الملكة لمدة اثني عشر عاماً. ويبدو أن السفراء الذين كانوا يرسلون إلى الباب العالي، كانوا عادة من الأشخاص الذين كانوا قد عاشوا في تلك البلاد في السابق، ويعرفون عاداتها إلى حد ما.

السفراء الذين كانوا يرسلون إلى الباب العالي، كانوا عادة من الأشخاص الذين كانوا قد عاشوا في تلك البلاد في السابق، ويعرفون عاداتها إلى حد ما.

ومنذ حوالي سنة ١٦٢٠، أدت الرحلات البحرية المتجهة إلى جزر الهند الشرقية إلى تخفيض أسعار بضائع الهند إلى حد كبير، وذلك بعد أن ضعفت التجارة بين الهند وتركيا عن طريق الخليج العربي والبحر الأحمر. وفي مقالة كتبت في العام التالي لمصلحة شركة الهند الشرقية، سعى السيد مان (Mun) عن طريق المقارنة إلى إظهار أن البضائع المتجهة عن طريق رأس الرجاء الصالح ستكلف نصف الأسعار تقريباً التي تكلفها البضائع الصادرة من تركيا (أندرسون، المجلد ٢، ص ٣).

كما يذكر مان أنه من بين جميع الأمم الأوروبية، دفعت إنكلترا أكثر التجارات ربحاً إلى تركيا، نتيجة الكميات الضخمة من القماش العريض والقصدير الخ، التي كانت تصدرها إلى هناك، والتي كانت تكفي لشراء جميع السلع التي كنا نريدها من تركيا، ولاسيما ثلاثمئة بالة كبيرة من الحرير الخام الفارسي سنوياً. في حين كان هناك رصيد في الأموال التي تدفعها الأمم الأخرى التي تتعامل تجارياً هناك. فقد كانت مرسيليا ترسل سنوياً سلعاً إلى حلب والاسكندرية بقيمة لاتقل عن ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه، (لم يكن لفرنسا آنئذ تجارة بالأصواف)، والبندقية بحوالي ٤٠٠٫٠٠٠ جنيه، بالإضافة إلى قيمة كبيرة من السلع الأخرى، وهولندا بحوالي ٥٠٫٠٠٠ جنيه وسلعاً قليلة و٢٥٫٠٠٠ لـ Messina.

وفي عام ١٦٧٥، أبرمت اتفاقية تجارية في أدرنة بين الملك تشارلز الثاني (عن طريق سفيره السير جون فينتش) والسلطان محمد الرابع، تم بموجبها تثبيت جميع المعاهدات السابقة منذ عهد الملكة إليزابيث وحتى الآن. وأضيفت مواد جديدة على الامتيازات. ومن بين الأمور الأخرى، أصبح التجار الهولنديون (من هولندا وزيلاند الخ) الذين يعقدون صفقات تجارية مع تركيا، وينضوون تحت علم إنكلترا، ويدفعون الرسوم المستحقة إلى السفير والقناصل الإنكليز، كما هي حال التجار الإنكليز. كما انضوى كذلك التجار الأسبان والبرتغاليون والأسكونيون (Ancona) والفلورنسيون وجميع الهولنديين تحت العلم الإنكليزي. أندرسون (المجلد ٢، ص ٧، ١٥٨٠).

عرض للأحوال الجوية في عام ١٧٥٢

إن ميزان الحرارة المستخدم، والمشار إليه في الملخص التالي، كان ميزان بيرد (Bird) الضخم الذي أقيم سابقاً في دار القنصلية، إلا أنه منذ بداية ١٧٥٢، نقل إلى كشك خشبي، ويقي هناك بصورة دائمة مع مقياس الضغط الجوي (بارروميتر). ولذلك فقد تم تحديد كمية الأمطار، وأشير إلى هطول مطرة أو مطرتين، أو مايسمى بيوم ماطر بـ / واحدة، وتشير /// إلى كميات غزيرة من الأمطار، و // تشير إلى هطول كميات متوسطة.

كانون الثاني

كان الأسبوع الأول من هذا الشهر غائماً وماطراً، وأما ماتبقى من الشهر (ماعدا الأيام الثلاثة الأخيرة منه) فكان الطقس فيه معتدلاً والسماء صافية. وكانت تتناثر غيوم قليلة بين الحين والآخر.

الأيام الماطرة

اليوم الأول والرابع// ليلاً، الخامس/// والسادس// ليلاً مع هبات من العواصف: السابع والتاسع والعشرون// ليلاً، الثلاثون/// والحادي والثلاثون///.

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٥٦ * في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين، الساعة ٣ بعد الظهر
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٤٠ في العاشر والحادي عشر عند الساعة ٩ صباحاً.
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	١ر٢٩ في اليوم التاسع
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٥ر٢٨ في اليوم الرابع

بلغ ارتفاع الزئبق في الصباح خلال الأيام العشرة الأولى، ومن الثامن عشر وحتى نهاية الشهر ٤٦ أو ٤٨: وعند المسافة المتوسطة ٤٢ و ٤٣. وكان التباين في اليوم نفسه عادة ٣ أو ٤، وفي الجو الرائق تماماً ٦ أو ٧، وفي الطقس الماطر ٢ و ١ وفي بعض الأحيان صفر.

* يمكن تحويل درجة الحرارة من فهرنهايت كما هي واردة في النص على درجة مئوية باستخدام الطريقة التالية: درجة الفهرنهايت – ٣٢ ويقسم الناتج على ٨ر١ (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شباط

في بداية الأسبوع الثاني وحوالي أواخر الأسبوع الثالث، هطلت كميات كبيرة من الأمطار على شكل زخات قوية في الليل. وكان الطقس صحواً فيما تبقى من الشهر، إلا أن السماء كانت تتخللها غيوم خفيفة، وفي بعض الأحيان كان الجو مكفهراً بعد الظهر.

الأيام الماطرة

بدأت الأمطار مساء اليوم السابع// واستمرت حتى صباح اليوم الثامن// والتاسع// ليلاً، العاشر// صباحاً، الثاني والعشرون/، الثالث والعشرون// ليلاً والرابع والعشرون/ بعد الظهر.

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٥٣ في التاسع عشر، الساعة ٣ بعد الظهر
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٤٥ عدة أيام.
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٢٨ر٩ الجزء الأعظم من آخر الأسبوع
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٢٨ر٣ في اليوم الحادي عشر بعد الظهر

بلغ ارتفاع الزئبق في الصباح خلال الأسبوعين الأولين ٤٨، وفي الجزء التالي من الشهر ٤٥ أو ٤٦. وكان التباين في اليوم نفسه، ماعدا عندما أمطرت، ٥ أو ٦، وعندما كان صحواً تماماً ٧ أو ٨.

آذار

استمر الطقس المعتدل الذي انتهى به الشهر الماضي، حتى اليوم التاسع، ومن التاسع وحتى الثامن عشر، ظهرت غيوم خفيفة تخللتها زخات من المطر كانت ترافقها في بعض الأحيان رعود. وكان باقي الشهر صحواً ماعدا الأيام ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ التي كانت غائمة وماطرة.

الأيام الماطرة

اليوم الثامن// ليلاً، التاسع/ بعد الظهر، الثالث عشر/ ليلاً، الرابع عشر// والسادس عشر ليلاً مع رعد، السادس والعشرون/ والسابع والعشرون/ صباحاً

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٦٧ في الرابع والعشرين، الساعة ٣ بعد الظهر
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٤٤ في الحادي والثاني عشر، عند الساعة ٩ صباحاً.
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٢٨ر٩ تذبذب بين هذين الرقمين
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	خلال الشهر

بلغ ارتفاع الزئبق في الصباح حتى اليوم السادس ٤٥، وفي حوالي الرابع عشر وصل إلى

٥٢، ومع نهاية الشهر بلغ ٥٩. وكان التباين في اليوم نفسه ٥ أو ٦، وقبل الأمطار في الأسبوع الأخير بلغ ٨ أو ٩.

نيسان

كانت السماء في معظم أيام الأسبوع الأولى صافية مع ظهور غيوم خفيفة بعد الظهر. ومن السابع وحتى الثاني عشر، كان الطقس متقلباً مع هطول أمطار غزيرة متكررة، كانت تهطل بشكل رئيسي في الليل والصباح، وكانت مصحوبة في بعض الأحيان ببرق ورعد. وكان الطقس بدءاً من الثاني عشر وحتى نهاية الشهر، ماعدا يوماً واحداً، صحواً ومشمساً على نحو دائم. وكان ظهور غيوم خفيفة نادراً أكثر من ظهورها في الجزء الأول من الشهر.

الأيام الماطرة

السابع/ صباحاً وليلاً، الثامن/ ليلاً، التاسع/ صباحاً وهبوب عاصفة في الليل، العاشر/// والحادي عشر/ والثاني والعشرين/ مساء وفي الليل.

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٨١ في الثلاثين، الساعة ٣ بعد الظهر
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٥٨ في الثامن، الساعة ٩ صباحاً.
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٨ر٢٨ في اليوم الثامن ومن الرابع عشر وحتى ١٨
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٤٠ر٢٨ في اليوم الثاني والعشرين.

أيار

هطلت كمية كبيرة من الأمطار في بداية هذا الشهر*، وبدءاً من اليوم الثامن عشر، أصبح الطقس صحواً ولطيفاً، وبدأت تهب رياح غربية لطيفة، وخاصة بعد العشرين. وفي صباح الثاني والعشرين حصل رعد ولكن بدون أمطار.

الأيام الماطرة

الثالث: صباحاً/ وليلاً//، الرابع/ صباحاً

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٢٦ في الثلاثين، الساعة، ٤ بعد الظهر
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٦٧ في الثالث والرابع، الساعة ٥ مساءً..
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٩ر٢٨ من ٢٦ وحتى ٢٩، بعد الظهر
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٦ر٢٨ في اليوم الرابع

حزيران

كان الطقس لطيفاً صافياً خلال الشهر بأكمله، وعبرت غيوم قليلة في السابع عشر والسابع والعشرين. هبت رياح قوية نوعاً ما من الغرب بعد الأسبوع الأول.

* تعطل السجل من ١٦ وحتى ١٨

الأيام الماطرة: لايوجد
أعلى ارتفاع لميزان الحرارة ٩٢ في ١٢، عند الساعة ٤ مساءً.
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة ٧٦
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي ٩ر٢٨ من السادس والعشرين وحتى ٢٩
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي ٦ر٢٨ في اليوم الرابع

تموز

رغم أن السماء كانت صافية باستمرار، فقد استمر الطقس لطيف البرودة حتى الأسبوع الأخير، وعندما هبت رياح غربية بدأت تهب بشيء من الشدة منذ بداية الشهر، وراحت تحل محل النسائم العليلة، وأصبحت حارة إلى درجة كبيرة.

الأيام الماطرة: لايوجد
أعلى ارتفاع لميزان الحرارة ٩٥ في الثلاثين و ٣١، عند ٤ بعد الظهر
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة ٧٧ في ٣ و ٢٠ و ،٢١ الساعة ٧ مساءً..
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي ٧ر٢٨ في اليوم الأول، ومن الخامس عند الساعة ٤ مساء.
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي ٥ر٢٨ في السابع في نفس الساعة، وكذلك في ٢٠ و٢١.

آب

استمر الطقس حتى الحادي والعشرين لطيفاً صافياً، وظهرت في السماء غيوم خفيفة متفرقة من حين لآخر حوالي الظهر وبعد الظهر. وفي الحادي والعشرين، ظهرت غيوم مكفهرة عابرة تنذر بهطول أمطار، ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية الشهر، كانت تظهر غيوم من هذا النوع في كل يوم تقريباً. وفي ليالي ٦ و ٢٠ و٢٣ ظهر كثير من الغيوم الداكنة مع ومضات من البرق. وهبت رياح غربية شديدة نوعاً ما طوال الشهر.

الأيام الماطرة : لايوجد
أعلى ارتفاع لميزان الحرارة ٩٣ في ١٢ و ١٧، الساعة ٤ مساءً
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة ٧٤ في ٢٤ و ٢٧ و ٢٨، الساعة ٤ مساءً..
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي ٨ر٢٨ من ٢٨ وحتى نهاية الشهر
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي ٥ر٢٨ في ٧ و ٨.

أيلول*

استمر الطقس كما كان في آب حتى الثامن عشر من هذا الشهر. إلا أن زخة قليلة من المطر هطلت قبل ظهر ذلك اليوم، فأنعشت الجو نوعاً ما، ثم بدأ الطقس يميل إلى البرودة تدريجياً وخاصة في الليل. ظهرت غيوم كثيرة وحدث ندى في الليل. وكانت الرياح غربية

* ينبغي للقارئ أن يتذكر أنه نتيجة للتقويم الجديد أو التقويم الغريغوري الذي طبق في ذلك الوقت، اعتبر ٣ أيلول ١٤ من الشهر.

إلا أنها أقل شدة مما كانت عليه في الشهر السابق.
الأيام الماطرة: الثامن عشر، صباحاً*.

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٨٦ في ١٤، الساعة ٤ مساءً
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٦٨ في ٢٩، الساعة ٧ مساءً..
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٩ر٢٨ من ٢٧ وحتى نهاية الشهر
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٧ر٢٨ من ١٥ وحتى ٢٧.

تشرين الأول

أصبح الطقس بارداً في بداية الشهر نتيجة هبوب رياح غربية قوية نوعاً ما، وتوضعت الغيوم البيضاء الخفيفة بشكل متكرر. ومن الرابع وحتى الخامس عشر، أصبحت السماء صافية، وهبت نسائم لطيفة ودافئة. وعبرت بعض الغيوم الكبيرة في اليوم ١٤، إلا أنه ظهرت غيوم كثيفة بعد يومين رافقتها هبات قوية من العواصف، وأثارت كميات كبيرة من غبار الأرض الجافة. وفي الأيام الأربعة التالية، هبت رياح قوية من الغرب أو الجنوب الغربي. وفي بعد ظهر الثاني والعشرين، تلبدت السماء بالغيوم، وهطلت أخيراً الأمطار في الليل، وكانت طوال تلك الفترة تنذر بهطول زخات قوية. وكان اليوم التالي كئيباً مع زخات من المطر، وهطلت في الليل أمطار غزيرة. وفي اليوم الثاني هطلت زخات خفيفة كاليوم الذي سبقه، ثم انقشعت الغيوم وأصبحت السماء صافية لبضع ساعات، وبعد الظهر هبت عاصفة رعدية قوية، وهطلت كميات كبيرة من الأمطار في المساء. وكان الجو فيما تبقى من الشهر صافياً ماعدا اليومين ٢٦ و ٢٧ إذ كانا متلبدين بالغيوم.

الأيام الماطرة: ٢٢// مساء وليلاً، ٢٣/// و ٢٤//.

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٨٠ في ٤، الساعة ٣ بعد الظهر.
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٥٨ في ٢٩ و ٣٠، الساعة ٨ مساءً..
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٩ر٢٨ تذبذبت بي ذلك و ٨ر٢٨
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٦ر٢٨ في ٢٣ و ٢٤.

تشرين الثاني

كان الطقس جميلاً في الأسبوع الأول: إذ ظهرت غيوم خفيفة في بعض الأحيان باستثناء يوم واحد، ولم تظهر غيوم داكنة. وتلبدت السماء بالغيوم بعد ظهر اليوم الثامن، وكان اليومان التاليان مظلمين كئيبين مع بعض الأمطار. ومن الحادي عشر وحتى السادس عشر كان الصباح لطيفاً، وكانت تتخلل السماء غيوم خفيفة بعد الظهر. وجاء بينها ثلاثة أو أربعة أيام من الطقس الممطر المتلبد بالغيوم، ثم اصبح الطقس لطيفاً ومشمساً حتى ٢٦. وكانت الأيام الأخيرة من الشهر ماطرة.

* كانت المطرة عبارة عن زخة خفيفة وقصيرة، وليست كالأمطار الخريفية الأولى المعتادة. وربما يعزى التغيير في الطقس إلى الأمطار الكثيرة التي هطلت على مسافات أوسع.

الأيام الماطرة

الثامن//، ليلاً؛ التاسع/؛ العاشر/ والسادس عشر صباحاً؛ السادس والعشرون/، ليلاً؛ و ٢٧// و ٢٨// و ٢٩// ليلاً.

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٦٥ في ١ و ٢ و ٣، الساعة ٣ بعد الظهر.
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٤٦ في ٢٥، الساعة ٨ مساءً..
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٥ر٢٩ في ٢٤ و ٢٥ و ٢٦.
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٨ر٢٨ معظم الشهر.

كانون الأول

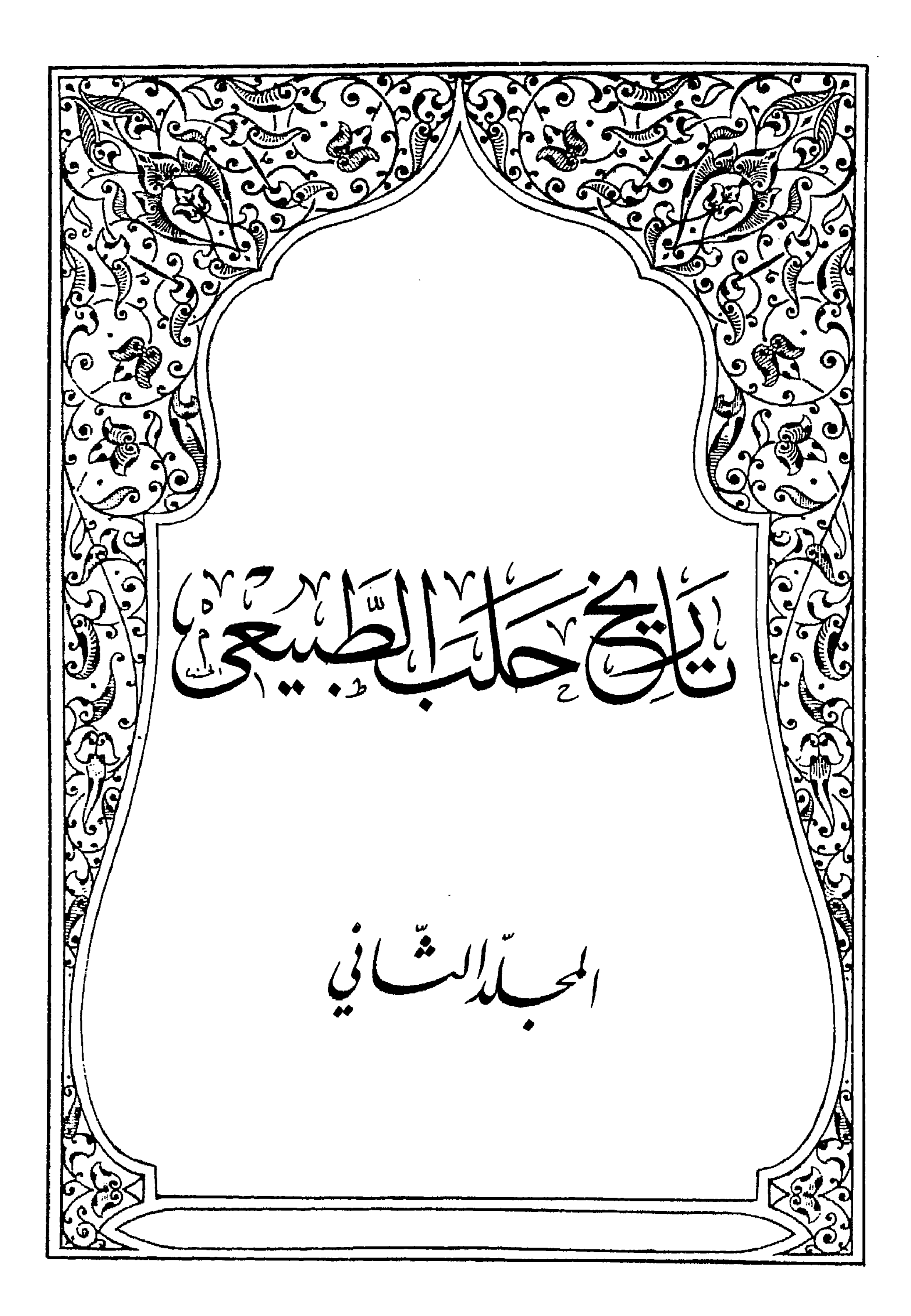
كان الطقس كئيباً مظلماً في الأيام العشرة الأولى من هذا الشهر، ولم يكن سوى يومين منه ماطرين. وكان الضباب منتشرا في الصباح. وبدأ الثلج يهطل في مساء ١١ واستمر الثلج طوال اليوم التالي. ومن ١٢ وحتى ٢٢، ساد صقيع. وكانت السماء في بعض الأحيان صافية، إلا أنها في أغلب الأحيان، كانت ملبدة بالغيوم أو مكسوة بالضباب. واستمر الصقيع خمسة أيام متعاقبة، كما ظل الطقس شتوياً، ثم أصبح صافياً ولطيفاً. وهطلت معظم الأمطار في هذا الشهر، ماعدا في ٢٣، في الليل أو بعد المغرب. وكانت الرياح معتدلة في الشرق أو الشمال الشرقي، كما كان في الشهر الماضي.

الأيام الماطرة

الخامس// مع رعد؛ التاسع // و ٢٣/// و ٢٦// و ٢٧//، وعواصف في الليل من الغرب.

أعلى ارتفاع لميزان الحرارة	٥٥ في اليوم الأول، الساعة ٣ بعد الظهر.
أدنى ارتفاع لميزان الحرارة	٤٢ في ١٣ و ١٤، الساعة ٨ صباحاً..
أعلى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٢٩ في ١٤.
أدنى ارتفاع لمقياس الضغط الجوي	٢٨ في ٢٧.




تاريخ حلب الطبيعي
المجلد الثاني



محتويات المجلد الثاني

الكتاب الثالث

عن الأوروبيين المقيمين في حلب وعن المسيحيين الحلبيين والسكان اليهود والوضع الراهن للأدب

الكتاب الرابع

عن الحيوانات ذوات الأربع، الطيور، الأسماك والحشرات والنباتات التي تنمو في المناطق المجاورة من المدينة

الكتاب السادس
عن الطاعون

ملحق عن أهم الأطباء المؤلفين العرب

الكتاب الثالث
عن الأوروبيين المقيمين في حلب والمسيحيين الحلبيين والسكان اليهود والوضع الراهن للأدب والطب

الفصل الأول
عن الأوروبيين المقيمين في حلب

الإيطالية هي اللغة المستخدمة ، الجاليتان التجاريتان الإنكليزية والفرنسية ، الأديرة ، الهولنديون ، البنادقة والتوسكانيون ، بيوت الأوروبيين ، موائدهم ، اجتماع النساء ، تسالي الإنكليز ونزهاتهم ، أمير أو ملك العرب ، الامتيازات المبرمة مع الباب العالي ، زيارة الباشا والقاضي والمحصل ، المدخل العام للقناصل ، الأوروبيون يعيشون بدون إزعاج في المدينة ويسافرون في أمان ، قلما يصابون بالأمراض الوبائية الشائعة.

يشمل الأوروبيون أو الإفرنج*(١) الذين يقيمون في حلب، كلاً من الإنكليز والفرنسيين والبنادقة والهولنديين والتوسكانيين وبعض رعايا الإمبراطورية الآخرين. ويستخدم جميعهم اللغة الإيطالية، التي يتكلمها أيضاً الأشخاص الذين يعملون في المخازن، والكتبة وعدد آخر من السكان المحليين الذين يعملون لدى الإفرنج. ويتحدث التجار الفرنسيون عادة فيما بينهم، ومع العاملين في المخازن، بلهجة بروفانس. أما عند وجود أشخاص آخرين، فيتحدثون إما بالفرنسية أو الإيطالية. ولا يتعلم اللغة العربية سوى عدد ضئيل من الأوروبيين، حتى أولئك الذين أمضوا فترة طويلة في البلاد، وقلما يتعلمون أكثر مما يفيدهم في الحديث في الأمور البسيطة. ويندر جداً أن يبذل أحدهم عناء تعلم كتابتها أو قراءتها. ويرتدي القناصل والعديد من الرجال المحترمين ثيابهم الأوروبية، إلا أن الكثيرين منهم، ولاسيما الفرنسيون والإيطاليون، يرتدون الثياب الشرقية، ويضعون القبعة والشعر المستعار فقط خلال وجودهم في المدينة، ويضعون العمامة عندما يسافرون. وجرت العادة فيما مضى بأن يرتدي جميع الإفرنج أو معظمهم الثياب التركية، ويضعون القبعة بهدف تمييزهم عن باقي السكان فقط. وفي الآونة الأخيرة، أخذ الجزء الأعظم من الإنكليز يرتدي الثياب الإنكليزية، في حين بقي عدد آخر

* إفرنج وبالتركية فرنك. يطلق هذا الاسم على جميع الأوروبيين بصورة عامة، وتسمى أوروبا بلاد الفرنج. وعندما يتحدثون بتحديد أكثر للتمييز بين بلدان معينة من قبيل إنكلترا وفرنسا وايطاليا فيقولون بلاد الإنجلين، وبلاد الفرنساوي وبلاد إيطاليا. ولاتستخدم كلمة افرنجي للدلالة على الشخصي الفرنسي فقط (أنظر الملاحظة (١).

من الأجانب يتبع العادة القديمة، ماعدا القنصل، أو الإفرنج الذين لا يقيمون سوى فترات قصيرة في البلاد. وفي حوالي سنة ١٧٧٠، امتثل العدد القليل المتبقي من الجالية التجارية الإنكليزية للعادة المتبعة، وبالإضافة إلى بعض الفرنسيين، فلا يظهرون إلا من حين لآخر في ثيابهم الخاصة.

تتألف الجالية التجارية البريطانية(٢) من قنصل، وعشرة تجار، وقس، ومستشار، وطبيب، وضابط يسمى 'جاويش' يسير أمام القنصل، وهو يحمل عصا ذات قبضة من الفضة. وفي عام ١٧٥٣، كان عدد البيوت الإنكليزية ثمانية، بالإضافة إلى بيت القنصل. إلا أن العدد انخفض في عام ١٧٧٢ إلى أربعة. ومما ذكره ب. تيكسيرا، الذي كان في حلب سنة ١٦٠٥، يتبين أنه كان يوجد آنئذ ثلاث عائلات إنكليزية، بما فيها القنصل، الذي كان في ذلك الوقت أحد التجار. وُقدر مبلغ التجارة السنوية بـ ٣٠٠ر٠٠٠ دوكات . وكانت تستخدم سفينتان أو ثلاث سفن سنوياً في تلك التجارة.

ومما يدل على عظمة التجارة التي كان يمارسها الأوروبيون في حلب، استئجار عدد كبير من الجمال لجلب البضائع من الاسكندرونة وإليها. 'فقد كانت لاتقل عن ٨٠٠٠ سكوين في السنة، أو ما يعادل ٩٠٠٠٠ دوكات. وقد أبديت شكوكي في صحة ذلك المبلغ، ولم أقتنع إلا عندما قمت بحسابها بنفسي مع بعض الأشخاص المعنيين'.

يوجد مترجمان اثنان من اليونانيين المحليين في حلب، وهما يتكلمان الإيطالية. إلا أنهما قلما يستطيعان قراءة أو كتابة لغات أخرى غير العربية أو التركية. وهما يحصلان على رواتبهما من الشركة الشرقية. كما تدفع رواتب إلى اثنين من الإنكشارية، يعملان في دار القنصلية. ويسيران أمام القنصل عندما يخرج من القنصلية. وهما يحملان عصا طويلة، يضربان بها الأرض وهما يسيران، لكي يفسح الناس الطريق له في الشوارع. وفي الأحوال العادية، فهما لا يرتديان ثياباً خاصة بهما. ويزداد عدد الإنكشارية في أثناء المناسبات العادية، ويرتدي جميعهم القبعة الكتان الرسمية. وعند التوجه للقاء الباشا، أو في المواكب الرسمية المماثلة، يسير التراجمة الفخريون اثنين اثنين وراء الإنكشارية مباشرة، ويتقدمهم الجاويش. ويليهم التراجمة الرسميون، ثم يأتي القنصل، ويليه جميع الأشخاص المنضوين تحت الحماية البريطانية. وفي هذا الأمر، تختلف هذه الرسميات عن تلك التي يمارسها الأتراك، الذين جرت العادة أن يسير الشخص المسؤول منهم في الأخير.

أما الجالية التجارية الفرنسية، فهي أكثر بكثير من أفراد الجالية الإنكليزية. إذ يوجد لدى كل تاجر كاتب أو شخص يعمل تحت هذا اللقب، يصبح فيما بعد شريكاً في الشركة. كما أن إقامة الفرنسيين في المشرق محددة بمدة معينة من السنين، يحصلون بعدها على لقب وكيل أو تاجر. ولهذا السبب يتم إرسالهم عادة وهم صغار السن من مرسيليا باسم كاتب، ويتهربون من الحصول على لقب وكيل حتى بعد أن يصبح لهم مساهمة في الشركة، لكي يتمكنوا من إطالة فترة إقامتهم في البلاد.

بلغ عدد البيوت التجارية الفرنسية في حلب تسعة في عام ١٧٥٣: وفي ١٧٧٢ انخفض العدد إلى ستة أو سبعة. ويقول تيكسيرا (Teixeira) إنه ' كانت توجد خمس عائلات فرنسية تقيم في حلب في عام ١٦٠٥، إلا أن عدد الذين كانوا يفدون ويذهبون

كان أكبر بكثير من عدد البنادقة. وكانت تستخدم حوالي عشرين سفينة في التجارة. ووصل حجم التجارة السنوي إلى ٨٠٠٠٠٠ دوكة. وكان القنصل الفرنسي في ذلك الوقت قد عيّن مدى الحياة، إلا أنه كان ينوب عنه وكيل كان يدفع له حوالي ٣٠٠٠ دوكة سنوياً. وكان قد منحه الأتراك امتيازاً خاصاً لحماية جميع المسيحيين الأجانب ممن ليسوا من رعايا الدول المسموح لها بمزاولة التجارة هناك، ويعمل عدد من التجار الفلنكيين والـ Lucquese في ظل تلك الحماية.

يوجد لدى القنصل مستشار وجاويش وجنود من الانكشارية، وهو يتمتع بنفس وضع القنصل الإنكليزي، إلا أن له الأسبقية في جميع اللقاءات العامة بسبب أسبقية تأسيس الجالية التجارية الفرنسية في حلب. ويوجد تحت حماية القنصل جراحان فرنسيان يمارسان الطب، أحدهما جراح محلي. ويكون التراجمة من الرعايا الفرنسيين سواء كانوا من الشرق أو من الفرنسيين، ويدرسون فترة من الزمن في باريس، وفترة في الأستانة. ويطلق عليهم وهم طلاب 'طلاب اللغة' (Giovani di Lingua)، ثم يرسلون من الأستانة إلى مختلف المناطق، ويترقون في مناصبهم من مرتبة ترجمان ثالث إلى ترجمان أول.

بالإضافة إلى التجار، يوجد عدد من الرعايا الفرنسيين من مرتبة أدنى ممن يتوجهون إلى الشرق. ونتيجة زواجهم من المسيحيات المحليات، ينجبون عرقاً أو نسلاً فرنسيا خليطاً يسمى (Mezza Razza) وقد أسفر ذلك عن حدوث مشاكل عديدة، نتيجة لاضطرار القنصل إلى توفير الحماية لأشخاص كانوا يدخلون غالباً في أعمال ونزاعات مع الأتراك، مما أدى إلى صدور مرسوم ملكي منذ عدة سنوات، استدعي بموجبه جميع الرعايا المتزوجين من معظم رعايا جلالته من الفرنسيين من الشرق. وخوّل القناصل سلطة إعادة الرعايا الذين قد يتزوجون مستقبلاً دون الحصول على أذن خاص من السفير في الباب العالي، إلى فرنسا على الفور مهما كانت مرتبتهم. ونتيجة لذلك، انخفض عدد الأشخاص ممن يطلبون الحماية، إلا أنه مازالت توجد في حلب عائلات عديدة يقوم الأوروبيون بزيارة بعضها.

كما ينضوي رهبان دير تيرا سانتا (Terra Santa)، ورهبان دير الكبوشيين واليسوعيين تحت حماية القنصل الفرنسي. ويضم الدير الأول حوالي أربعة عشر أخاً من الفرنسيسكان، ويرتاد كنيستهم جميع الكاثوليك الأوروبيين، فضلاً عن الكثير من السكان المحليين من كلا الجنسين القاطنين في الجديدة. ويضم كل من الديرين الآخرين ثلاثة أخوة، وتوجد كنائسهم داخل الأديرة. ويوجد دير رابع في الخان الكبير* ، يتألف من أخوين أو ثلاثة أخوة كرمليين يكونون عادة تحت حماية قنصل السلطنة. ويرتدي جميع المبشرين هؤلاء الرداءالخاص بطائفتهم، باستثناء اليسوعيين الذين يرتدون نفس زي القساوسة الموارنة.

ويمكن الاطلاع على وصف الكنيسة الحلبية، والخلافات بين اليسوعيين والأديرة الأخرى حول الكنيسة الكاثوليكية من مذكرات دارفيو. وحسب ما ذكر الأب

---

* الخان الكبير هو خان الجمرك حالياً . وقد بني في عام ١٧٥٤ وكان يضم الشركات التجارية الفرنسية والانكليزية والهولندية. وُسميّ خان الجمرك بسبب استخدامه من قبل سلطة الجمارك في نهاية القرن الثامن عشر(المترجم)

ناتشي، فإن اليسوعيين هم أول من أسس كنيسة في حلب سنة ١٦٢٥م، ويذكر كذلك الأب العلامة في تاريخ البعثات اليسوعية في سورية. إلا أنه بالإضافة إلى الخليط الغريب من الخرافات السخيفة، فإن روايته مليئة بالأخطاء التأريخية.

وبما أن القنصل الهولندي هو الشخص الوحيد الهولندي الذي يقطن في حلب، فهو يعمل كذلك في التجارة: أما القنصلان الإنكليزي والفرنسي، فيحظر عليهما ممارسة التجارة بشكل مباشر أو غير مباشر. ومنذ سنة ١٧٧٢م، بدأت القنصلية الهولندية تعامل بإسلوب مختلف، وأصبح القنصل يحصل على مواعيد دون الحصول على أية مصالح تجارية. ويبدو أنه كانت توجد عائلتان هولنديتان في زمن تكسيرا (Teixeira) تمارسان التجارة بقيمة مائة وخمسين ألف دوكة وهو المبلغ الذي كان يؤخذ دائماً من المبلغ العام، لأنه قد يزيد أو ينقص في بعض الأحيان.

من بين الشعوب الأوروبية الأخرى، كان البنادقة أول من أقام في حلب. ففي عام ١٦٠٥م كان يقطن في حلب ما لا يقل عن ١٤ عائلة من البندقية بالإضافة إلى عائلة القنصل. وكانوا يستخدمون خمس أو ست سفن سنوياً. وكان حجم تجارتهم يتراوح بين مليون ومليون ونصف من الذهب(٣) . ولا يوجد لديهم حالياً قنصل لدولتهم كما هو حال التوسكانيين: وكانوا ينضوون (في سنة ١٧٥١م) تحت حماية القنصل الإنكليزي، الذي كان يعمل بموجب تفويض من السفراء المعنيين في الباب العالي. وقبل تلك الفترة بسنوات عديدة، كان البنادقة ينضوون تحت حماية الفرنسيين أو الإنكلين، إلا أنه بعد ١٧٥٤م بفترة وجيزة، جاء قنصل منهم ليقيم في حلب.

وكان الرعايا البنادقة (ماعدا تاجرين اثنين) إما من التوسكانيين أو البنادقة اليهود، الذين يملكون بيوتاً ومستودعات في الخانات العامة، إلا أنهم بصورة عامة كانوا يقيمون مع عائلاتهم في بيوت واسعة وأنيقة في بحسيتا، وهم يشبهون في أسلوب حياتهم، عادات السكان المحليين أكثر من عادات الأوروبيين الآخرين.

إن بيوت الإفرنجة رحبة وواسعة بقدر ما تسمح به الخانات. ويستخدم الطابق الأول كمخازن، أو تقع شقق الإقامة في الطابق الأعلى، وتتصل ببعضها البعض برواق طويل، يكون بمثابة مكان لممارسة التمارين الرياضية في النهار، وشرفة (تيراس) في المساء. ومنذ شهر حزيران وحتى هطول الأمطار الخريفية الأولى، ينام معظم الإفرنج على الشرفة، إلا أنهم يستعملون أسرّة وأغطية، ولا ينامون أبداً بدون غطاء كما يفعل السكان المحليون. وأصبحت حالياً البيوت الإنكليزية مؤثثة بشكل أنيق أكثر من أي وقت مضى، وذلك عندما أتاح لهم أسلوب تعاملهم التجاري القيام بنزهات بحرية أكبر، واعتادوا على قضاء عدة أشهر من السنة بعيداً عن بيوتهم في المدينة. ورغم أن بيوتهم لطيفة البرودة في الصيف، ونظراً لأن الجدران فيها سميكة جداً، إلا أنها ليست متكيفة جيداً مع المناخ، شأن البيوت الكبيرة التي يمتلكها السكان المحليون: وهي محدودة أكثر، ولا يوجد فيها نوافير أو إيوان أو قاعة أو باحة.

تقدم جميع أنواع الأطعمة على موائد الأوروبيين ماعدا الأسماك البحرية التي لا يمكن الحصول عليها وهي طازجة إلا في الشتاء. ويكون الطباخون والخدم الآخرون من الأرمن، إلا أنهم تعلموا الطبخ الفرنسي أو الإنكليزي. كما تقدم الأطباق المحلية كنوع

من التنويع. وتكون الدعوات الرسمية في الغالب على العشاء وليس الغداء، وخاصة في الصيف، وتكون خدمة المائدة في كليهما نفسها تقريباً، إذ يتم تناول طعام حيواني في الليل أكثر مما هو معتاد في الموائد الأرستقراطية في إنكلترا. أما أنواع النبيذ المستخدمة بصورة عامة، فهي النبيذ الأبيض المز (غير الحلو) المصنوع محلياً، ونبيذ بروفنسال الأحمر الخفيف. ويقدم الفرنسيون المشروبات في نهاية الوجبة. أما الإنكليز فيحتسون جرعة من شراب البنش* الخفيف جداً قبل الغداء والعشاء. وقد تبين أن تناول هذا المشروب منعش ولذيذ، حتى أن معظم الأوروبيين الآخرين، والعديد من المسيحيين المحليين، بل وحتى بعض السكان المسلمين، قد تبنوا هذه العادة.

يحتسى البنش في بعض الأحيان وهو مثلج، وقلما يستخدم الثلج رغم توفره بكثرة على الدوام في السوق حالياً، وذلك لأن النبيذ المحفوظ في الأقبية، والمياه المستخرجة من الصهريج تكون باردة بصورة مقبولة. وبعد أن ينتهي الفرنسيون من تناول الشراب بعد الطعام، يقدمون القليان والقهوة. أما الإنكليز، فيمكثون فترة أطول على المائدة، ويقدمون النبيذ بعد رفع غطاء الطاولة، ويُحضر القليان أو القصبة حسب الرغبة. وهم يبقون على الغداء حوالي ساعة ونصف الساعة، ثم ينسحبون من أجل القيلولة. ويجلسون فترة أطول على العشاء، إلا أنهم يشربون باعتدال أكثر، وينظمون وقتهم بحيث لا يتأثر عملهم في اليوم التالي.

لا توجد للأوروبيين علاقات اجتماعية مع المسلمين، وإن وجدت فهي ضعيفة. ونادراً ما يلتقون بهم إلا في الأعمال التجارية التي تتم عادة بوساطة ترجمان، رغم أنه قد يحدث وأن يفهم الإفرنجي اللغة.

إن المجتمع النسائي محصور جداً**، وذلك لأن السيدات المسيحيات الحلبيات لا يعرفن سوى اللغة العربية، ولا يتكلم سوى عدد محدود جداً من ذوي العرق المختلط اللغة الفرنسية. ولا يقوم بعض الإنكليز بزيارة السكان المحليين من معارفهم إلا في السنة الجديدة. وحتى أولئك الذين يستطيعون التكلم بالعربية، فنادراً ما يتبادلون الزيارات في الجديدة. وجميع أفراد الجالية الإنكليزية أو الجالية الفرنسية غير متزوج، باستثناء القنصل وأحد التراجمة. وتشكل المسافة إلى ميناء الاسكندرونة عائقاً للكثيرين ممن يعملون في الملاحة المتجهين إلى حلب. ولولا وجود قلة من الرجال الذين يعبرون الصحراء وهم في طريقهم إلى الهند، فإن الإنكليز قلما يسرهم أن يقوم بزيارتهم أشخاص من بني جلدتهم، أو رحالة أوروبيون آخرون.

في هذا الوضع المنعزل، فإن أسلوب الحياة الذي يعيشونه يشبه إلى حد ما حياة التنسك. وتتعاقب ساعات العمل والترويح عن النفس بشكل منتظم، التي نادراً ما يقطعها التطفل من حين لآخر، كما أن مجال المتع قليل جداً، حتى إن الشخص الذي لا يعرف كيف يستغل وقت فراغه، لابد أن يعاني من ساعات طويلة من الوحدة، والشعور بالوهن والخور

البنش (Punch): مشروب حلو يعد من سوائل مختلفة أو من عصير الفاكهة مع شيء من مشروب روحي (المترجم)

** طرأ تغيير كبير على ذلك منذ عام ١٧٥٢، إذ بدأ المجتمع النسائي في حلب يتقبل زيارة عدة سيدات متزوجات أوروبيات.

في الجسم والنفس. إلا أنه بينما يقلل الزمن من شدة الرغبة في المسرات التي تكون بعيدة المنال، فإن الضرورة تؤدي إلى تحسين تلك المسرات المتاحة شيئاً فشيئاً. ورغم أن مسرات الحياة الاجتماعية محدودة في نطاق ضيق، فإن المرء يشعر بمتعة بها، وقد لايكون معرضاً لمشاعر الانزعاج بالقدر الذي قد تتوافر في الدوائر الأوسع.

يعيش الإفرنج بصورة عامة مع بعضهم في انسجام. وهم يتبادلون الزيارات، ويقيمون حفلات لعب الورق، وحفلات موسيقية أسبوعية. وفي بعض الأحيان، يقيمون حفلات تنكرية في الكرنفال*. ولا تؤثر المنافسة التجارية، أو الانشقاقات الوطنية في أوروبا في العلاقات الاجتماعية في سورية. وفي أوقات السلم، كان البريد المرسل إلى الأستانةأو إلى جهات أخرى بواسطة المراسلين، فضلاً عن بريد السفن المتجهة إلى أوروبا، يوزع إلى جميع الإفرنج عن طريق الجاويش المعني. وكانت تتاح للإنكليز فرصة إرسال مراسلين إلى الأستانة، الأمر الذي كان يتيح الفرصة للفرنسيين الكتابة إلى الوطن الأم. وفي مقابل ذلك، كانت تتاح لهم فرصة رد الجميل للإنكليز عن طريق النقل بالسفن إلى مرسيليا. وفي أوقات الحرب،كان البريد من هذا النوع يتوقف، بالإضافة إلى الحفلات العامة بين القناصل. غير أن العلاقة الخاصة التي تكون قد نشأت بالمصادفة بين أشخاص يعيشون في بلد بعيد، تكون الرغبة الشخصية حافزاً إلى إنشاء علاقات من الصداقة فيما بينهم، فتبقى مقدسة. إذ يستمر الأفراد في تبادل الزيارات فيما بينهم، ويتجنبون الخوض في السياسة أثناء أحاديثهم. وباتفاق وديّ، ودون نسيان ما يكنونه للقضية العامة، يحافظ الطرفان على دماثة الأخلاق والصداقة الخاصة في الوقت الذي يتمنون فيه حلول السلام.

يصف أحد المبشرين الزيارات الرسمية التي يقوم بها الأوروبيون في الاحتفالات السنوية قائلاً لمراسله: "إنه يجب ألا تنتابه الدهشة عندما يشاهد الدماثة المتبادلة بين الأشخاص الوافدين من بلدان مختلفة، وذلك لأن الفرنسيين والإنكليز والإيطاليين والهولنديين يعدّون أنفسهم ينتمون إلى بلد واحد. لذلك، فقد كان السكان المحليون يعتبرونهم كذلك، وكانوا يطلقون عليهم اسم الإفرنج بدون تمييز".

من الطبيعي أن تعتمد العلاقات الودية بين الأوروبيين على مزاج الأفراد، ولذلك لابد أن تتباين في أوقات مختلفة. وخلال فترة إقامتنا في حلب، كان الكثيرون ينزعون إلى النزعة الودية التي يتمتع بها م. توماس، الذي استمر في شغل منصب قنصل فرنسا لمدة تزيد على عشرين عاماً، وكان فيما مضى سكرتيراً للسفارة في الأستانة، كما كان قنصلاً في الجزائر وسالونيك. وهو رجل فاضل يتمتع بروح مرحة، ويتمتع بمواهب صقلتها الثقافة الحرة. وكان بيته مفتوحاً لجميع الأوروبيين، إذ كان هو وزوجته يستقبلانهم بحفاوة بالغة. وبسبب اهتماماتها الإنسانية، لم تكن النساء ممن كنّ ينضوين تحت الحماية الفرنسية أقل حباً لها مما كان يكنه الرجال لزوجها. وقد ازدادت سعادة أسرة، كانت موضع اهتمام وحب الجميع، بولادة ابنة على نحو غير متوقع. وقد

---

* في عام ١٦٨١، وجد القنصل الفرنسي م. درافيو أنه من الملائم حظر الحفلات التنكرية في الكرنفال، وذلك لأن الشبان كانوا يطوفون في الشوارع ليلاً وهم يرتدون ثياباً نسائية (المذكرات، المجلد السادس، ص. ٤٩).

عاش بعض الأوروبيين ليروها وهي تكبر لتصبح امرأة جميلة، وكانت حيويتها وعذويتها ورقة سلوكها سبباً في جعل الحياة في حلب ممتعة لم تتوفر منذ سنوات عديدة. إن استطراد المحرر، الذي تمتع بهذه الحفاوة هو وأخوه، ويشاركهما في ذلك الأوروبيون الآخرون، يود في هذه المناسبة أن يعبّر عن عميق امتنانه لهذه الأسرة.

يحتفظ الإنكليز بخيول ممتازة، ويخرجون عادة للتروض يومياً. ومنذ بداية تشرين الثاني وحتى نهاية آذار، يقومون بنزهات مرتين في الأسبوع، ويتناولون طعام الغداء في الريف. وتنصب خيمة كبيرة لهذا الغرض في موقع جميل يبعد أربعة أو خمسة أميال عن المدينة. وينطلق الطباخ في الصباح محملاً بأدوات المطبخ، وخشب الوقود والمواد الأخرى ، بالإضافة إلى رجال الخيمة الذين يحملون كذلك منضدة قابلة للطي، وكراسي، وسجاجيد بالإضافة إلى الخيمة. ويقوم الطباخ الذي يعمل في العراء، لا يقيه شيء من الريح أو المطر، بطهي الطعام أو شيه بل وحتى خبزه. ومع توفر عدد قليل من أسباب الراحة لديه لا يمكن أن يتصورها طباخ أوروبي، يقوم بإعداد خمسة أو ستة أطباق، بالإضافة إلى طعام قد يكفي عشرين خادماً.

وقد تنصب الخيمة على ضفة النهر، أو في بقعة خضراء قريبة من نبع ماء عذب. ولهذا الغرض، فإن نبع رجب باشا الواقع جنوبي المدينة يعتبر من المواقع الملائمة لذلك، ويطلق عليه الحلبيون اسم "العين المباركة"، ويذكره المؤرخون العرب كثيراً. وعندما جاء سيف الدين كأحد الحلفاء إلى حلب ضد صلاح الدين، توقف وهو في طريقه عند هذا النبع. كما أن الملك الظاهر اختار نفس البقعة الجميلة، عندما عينه أبوه صلاح الدين حاكماً على حلب، من أجل إقامة معسكره قبل دخوله المدينة.ويتم تغيير موقع الخيمة بشكل متكرر، لإدخال البهجة إلى نفوس الرجال الذين ينطلقون في الصباح الباكر في مجموعات للصيد.

تبدأ المجموعة بالتجمع في حوالي الظهيرة، وتقف الخيول التي تقيد أرجلها بسلسلة، وتربط بوتد قصير يدق في الأرض على مسافة قصيرة. وتوضع الصقور وكلاب الصيد (السلوقية) قرب خيمة، وتُعلق أنواع مختلفة من الصيد كتذكار عند المدخل. ويكون الطقس رائعاً، إذ يعقب هطول الأمطار الخريفية خضرة زاهية. كما يكسو الحقول المحروثة الزنبق الأصفر الرائع. وحتى في منتصف الشتاء، فإن الحقول لا تكون خالية تماماً من المشاهد الجميلة. إلا أن اللسان يعجز عن وصف خضرة الربيع وأشجار الفاكهة ذات البراعم والنباتات البرية المزهرة في حوالي منتصف آذار. وفي جميع المواسم، فإن مشهد القطعان وهي ترعى على ضفاف قويق، والقوافل التي تمر على مرمى البصر على المرتفعات يكون بالغ الروعة. وفي هذه المناسبات، يقوم الأمير أو ملك العرب بزيارة الإفرنج وهو في طريقه إلى المدينة أو منها. ويتم استقباله دائماً بترحاب بالغ، ومع حاشيته (التي قلما يتجاوز عددها خمسة أو ستة أشخاص).

وفي شهر نيسان، ينطلق الإنكليز إلى البساتين في المنطقة المجاورة لباب الله حيث يقيمون حتى أواخر أيار، ويزورون المدينة من حين إلى آخر، ثم يعودون لتناول طعام الغداء، أو يعودون في الليل. ويكون مكان إقامتهم في الريف واسعاً ومريحاً بشكل معقول، ويمكنهم إدخال مزيد من التحسينات عليه، إلا أن الإفرنج يعتبرون أنفسهم

رحالة، ويعتقدون أنه لا حاجة لهم للإنفاق على تزيين المنازل التي ليست من أملاكهم. ومن نواح عديدة، فإن موسم البساتين ممتع جداً، بحيث يشعر الرجال باستياء عندما يعودون إلى المدينة. إلا أنه في أواخر أيار، ورغم أن الصباحات والأمسيات لا تزال معتدلة البرودة، تبدأ حرارة الظهيرة في الارتفاع بشدة، وإذا لم يتم تعتيم الغرفة، تصبح أسراب الذباب مزعجة إلى حد لا يطاق. كما يكون موسم الحصاد قد انتهى الآن، ويعود الجفاف إلى الأرياف، وتغدو العودة إلى المدينة غير ممتعة بسبب القيظ فيها.

وخلال الصيف، يتناولون الغداء في بعض الأحيان في أحد البساتين، بالقرب من المدينة أو تحت الخيمةز غير إن هذه النزهات لا تكون ممتعة جداً، وذلك لاستحالة إيجاد طريقة تقيهم من شدة الحرارة وازعاج الذباب، بالإضافة إلى عدم توفر مكان لأخذ القيلولة المعتادة. وفي الخريف، يختار البعض قضاء شهر في أحد البساتين الأقل بعداً: وهي عادة ليست شائعة، لأن الندى يتساقط في الليل، وسرعان ما تشتد البرودة في الصباح والمساء، وهو أمر ليس جيداً بالنسبة للصحة كما هو الحال في الربيع، كما يصبح التواجد بالقرب من النهر وانتشار النباتات المجاورة وانخفاض الموقع أمراً غير صحي.

سنأتي على ذكر الصيد والصيد بالصقور فيما بعد. ويخرج عادة الصيادون مرتين في الأسبوع خلال موسم التخييم. وفي أوائل الخريف وأواخر الربيع، يجد المغرمون بالرماية مجالاً واسعا للصيد.

قد يحسب المرء مما ذكرناه آنفاً، بأن الإنكليز يخرجون للنزهة كثيراً. إلا أن حياتهم مستقرة نوعاً ما. ونادراً ما يتطلب عملهم التجاري الخروج من البيت، ويقضون ساعات عديدة وهم يجرون حساباتهم، أو وهم مستلقون بتكاسل على الأريكة. وبالإضافة إلى ما ذكر عن نزهاتهم، فإنهم يتمشون قليلاً على الشرفة في المساء، ونادراً ما تتجاوز خطواتهم خطوات المشي المعتادة.

وبشكل عام، فإن نزهات الأوروبيين الآخرين أقل من نزهات الإنكليز. ويحتفظ بعضهم بخيول، وهم لا يخرجون بانتظام للإقامة في الخيام أو التنزه إلى البساتين. وعدد من يمارس الرياضة منهم أقل.

إن الامتيازات المبرمة بين مختلف الشعوب الأوروبية والباب العالي متشابهة كلها تقريباً من حيث المضمون. إذ تقوم الحكومة ببسط حمايتها على جميع شعوب الإفرنج العديدة في حلب بشكل متساو، وتتمتع بعدد كبير من المزايا. إذ تعتبر القنصليات بمثابة أماكن محرمة، بل لا يمكن لأي مسؤول عن العدالة دخول حتى بيوت التجار الخاصين بدون إذن، وتفرض الرسوم على السلع بشكل معتدل. ويحق لهم رفض أهلية المحكمة في جميع الدعاوى المرفوعة لدى المحكمة، إذا كانت الغرامة كبيرة، ويرفعون الأمر إلى الأستانة.

يمنح الباشا والقاضي والمحصل (المتسلم) مقابلة رسمية منفصلة لكل قنصل. ولا يرد هذه الزيارة إلا المحصل. وفي هذه المناسبات، يخرج القنصل، ويرفقته التجار الموجودون تحت حمايته، فضلاً عن جميع التراجمة الفخريين. ويجري استقباله في السراي بحفاوة كبيرة. وبعد دخول القنصل بقليل إلى حجرة المقابلة، يدخل الباشا وعلى

جانبيه ضابطان، ويتجه مباشرة إلى مكانه على الأريكة، دون أن ينظر إلى الآخرين. ولا يجلس القنصل إلا بعد أن يجلس الباشا، ويكون قد أحضر له كرسي رسمي له من بيته*. ويقف اثنان من الضباط الرئيسيين بالقرب من الباشا، ويقف رجال الجالية وراء كرسي القنصل: وُيدعون في بعض الأحيان، وليس دائماً، للجلوس على الأريكة. وما إن يجلس الباشا، حتى يبدأ الترحيب بالقنصل بعبارات مهذبة ورقيقة للغاية، ثم يطرح أسئلة روتينية، ويوجه التحيات إلى الإنكليز، ويرد عليه القنصل بتقديم الاطراءات، ويمتدح شعبه بسبب تقديم جلالته الحماية لهم. وتنتهي الربع ساعة المخصصة عادة لهذا اللقاء. وخلال هذا الحديث، تقدم للقنصل الحلويات والقهوة والتبغ والشراب والعطر على نحو متعاقب. وفي الوقت نفسه، يقوم خدم آخرون بتقديمها جميعها إلى الباشا. وفي نهاية اللقاء تقريباً، يأمر بوضع فرو قاقوم على القنصل. وتقدم للأشخاص المرافقين له نفس المرطبات ماعدا التبغ. وعند وضع الفرو على القنصل، يتلقى كل منهم منديلاً من الشاش، ويقدمه الخادم بطريقة تثير دهشة الغريب. لأنه حسب العادات الشرقية، يتم حمل المنديل في الصدر وليس في الجيب، لذلك فعندما يقدم الخدم المناديل، يرمونه بطريقة فظة نوعاً ما داخل صدر المعطف، دون اعتبار للاختلافات في اللباس. ويقدم جميع التراجمة فروض الطاعة للباشا، بالجثو أمامه وتقبيل كم ثوبه. ويقف المترجمان الوكيلان بالقرب من كرسي القنصل، إلا أن الترجمان الأول هو الذي يقوم بالترجمة. وعندما يستجيب الباشا لأي طلب، أو عندما يكرر أي إطراء فيه إطناب ومغالاة للقنصل، يجثو الترجمان، ويقبل حاشية ثوب الباشا. وكنوع من الاستحسان، تقدم للترجمان الأول عباءة**، ويتلقي الآخرون مناديل فقط.

وفي أثناء لقاء القاضي، يجلس الأخير فوق عرش مرتفع، يتكون من وسائد مكومّة الواحدة فوق الأخرى، لكي تكون أعلى من كرسي القنصل: وهو تعبير متعال خاص بهذه المناسبة، لأنه في الأوقات الأخرى، يجلس القاضي على الأريكة كما يفعل الأعيان الآخرون. وخلال اللقاء بأكمله، يتسم سلوكه برسمية أكثر من سلوك الباشا، وتقدم القهوة والمرطبات الأخرى إلى القنصل فقط.

أما المقابلة مع المحصل فهي أطول هذه المقابلات، وأكثرها بساطة، ودون تكلف. فيجلس الجميع على الأريكة، وتقدم لهم المرطبات بتأدب. وعند انتهاء اللقاء يتلقى القنصل هدية تكون عبارة عن حصان، وتقدم لحاشيته مناديل.

ويعد كل مقابلة، ترسل صرة (بقجة) إلى القنصل تحتوي على قرطاق صيفي، وشخاشير، وقميص وسراويل من الشاش الحرير، ومنديل ورباط للسراويل مطرزة بشكل

---

* يورد السيد دراموند حادثة عن خلاف نشأ بين الباشا والدولة الفرنسية حول الكرسي القنصلي (الرحلات، ص. ١٨٥). ولم أسمع أبداً بحدوث خلاف حول هذا الأمر، إلا أن الحادثة التي أوردها دراموند لم تكن الأولى من نوعها كما يتبين من بول لوكاس الذي يورد رواية مماثلة عن زيارة أحد القناصل الفرنسيين في ١٧١٤.

** عباية: الرداء الخارجي الذي يرتديه العرب. كما يطلق نفس الاسم على الثوب الفضفاض الطويل المصنوع من الحرير وهو يشبه 'الروب الجامعي' ويرتديه علية القوم في الصيف، وهو المقصود هنا.

جميل. وتوضع هذه المواد بشكل أنيق في قطعة مربعة الشكل من الحرير الأخضر وتشكل بقجة(٤).

ورداً على هذه الزيارة يقوم المحصل بزيارة القنصل. ويتم استقباله بفخامة زائدة في دار القنصلية. وعند انتهاء الزيارة تقدم له من بين أمور أخرى عدة أثواب من القماش وساعة حائط إنكليزية، ترسلها شركة المشرق سنوياً.

يقوم السردار بزيارة القنصل مرة في السنة. وفي بعض الأحيان، يقوم بزيارته أعيان آخرون. وينوب عنه تراجمه برد زياراتهم جميعهم. ويبعث في العيدين رسائل يقدم فيها التهنئة إلى أفراد ديوان المدينة، وكبار الآغوات الآخرين، تصحبها هدايا من الشرابات والحلويات: وترسل هدايا أكثر قيمة لعدد محدود من المسؤولين.

بالإضافة إلى الاحترام الذي تبديه الحكومة للأوروبيين في العلن، يعاملهم كذلك الأشخاص الذين ليسوا على علاقة بهم بدرجة محددة من الاحترام بشكل عام. وقلما ينسى بقية الناس هذا الاحترام، إلا عند استثارتهم نتيجة سلوك غير لائق، أو توجيه إساءة إلى بعض عادات البلد. وفي بعض المناطق البعيدة من المدينة، حيث يندر ظهور الأوروبيين، فيعتبر شكلهم غريباً. وقد يتعرضون للإهانة بتوجيه بعض أفراد الطبقات الدنيا من الناس كلمات نابية إليهم. وفي بعض الأحيان يقذفهم الصبية بالحجارة: ويتدخل دائماً أصحاب المحلات، أو أشخاص محترمون آخرون يصادف مرورهم في تلك الأثناء، لمصلحة هؤلاء الغرباء. ويُعاقب المسيئون بشدة إذا ما رفعت شكوى ضدهم بذلك. ويتعرض الإفرنج في جميع الشوارع، ماعدا الشوارع القريبة من الخانات الرئيسية إلى مضايقات سخيفة، وهي عادة تشيع في عدة مدن أخرى من سورية. فما أن يرى الأطفال والنساء من الطبقة الدنيا إفرنجياً، حتى يأخذوا في الجري وراءه، ويصيحون بأعلى صوتهم 'إفرنجي كوكو'، ويصفقون بأيديهم، ويرددون نفس العبارة، حتى يتوارى الشخص عن نظرهم: وإذا أتيح لهم الوقت، يضيفون أبياتاً أخرى إلى هذه العبارة. ومهما كان أصل هذه العادة، فلا يحتمل أنها ستتوقف، إذ يتم تعليم الأطفال نطق هذه الكلمات حتى قبل تمكنهم من النطق جيداً(٥).

رغم قيام قوة قليلة الشأن بمرافقة الأوروبيين خلال سفرهم، فإنهم يتعرضون لأعمال السلب من قبل البدو والأكراد، بدرجة أقل مما يتعرض له السكان المحليون. ويعزى ذلك في جزء منه، إلى الهدية الصغيرة التي تقدم سنوياً إلى أمير البدو بالقرب من المدينة. أما بالنسبة للمسافات الأكثر بعداً، فيعود ذلك إلى الاتفاقية التي تبرم مع الأكراد بجوار بيلان، الذين يعدون بحماية الطرق عبر الجبال لقاء تقديم بعض الهدايا لهم. إلا أنه توجد كذلك أسباب أخرى تجعل أفراد العصابات أقل ميلاً لمهاجمة الإفرنج. إذ أن الغنيمة المتوقعة من أشخاص يسافرون بغرض التسلية فقط، تكون أقل إغراء بالنسبة لهم من الثروات التي توجد في القافلة. بالإضافة إلى ذلك، فإذا تعرض الإفرنج إلى السرقة، فإن ذلك يحدث ضجة أكبر مما لو تعرض لها السكان المحليون. إذ يثير الأوروبيون دائما الأمر بغية الحصول على تعويضات، أما السكان المحليون، فيؤثرون السكوت عند أول خسارة تلحق بهم، ولايجرؤون على الشكوى، لأنهم يعرفون أن ذلك سيكلفهم بعض المال، ومن المرجح ألا يحصلوا على تعويض لقاء الضرر الذي لحق بهم.

رغم أن وضع الإفرنج يكون كما ذكرنا آنفاً عندما تسير الأمور بصورة طبيعية، ففي أحيان أخرى، تسبب فيها نزوة أحد الباشاوات مشاكل كثيرة، سواء بالتهرب من تطبيق أحد بنود الامتيازات، أو بانتهاك الامتيازات نفسها التي ترسخت نتيجة العادات في حلب لمدة طويلة. إلا أنه يمكن الملاحظة بأن محاولات من هذا القبيل تتم في أغلب الأحيان على التراجمة المنضوين تحت الحماية، أو التراجمة الفخريين أكثر من الإفرنج أنفسهم. ويضطر القنصل عندها إلى الدفاع عنهم. وعندما لا يمكن تسوية الأمور بشكل ودي، فلا يكون أمامه مجال سوى اللجوء إلى الأستانة. وإذا كان الأمر يتعلق بأمر عام، فتصبح قضية عامة، ويرفع القناصل العديدون طلبات إلى سفرائهم في وقت واحد. وفي حين تستمر الخلافات من هذا النوع، فلا تكون مزعجة للإفرنج بقدر ما تكون، في معظم الأحيان، بالنسبة للوالي، لأنه رغم عدم تمكن السفير من الحصول على تعويض فوري بعد بذله جهوداً كبيرة، فإن موضوع شكواه يبقى ماثلاً في ذاكرة الباب العالي. وإن عاجلاً أم آجلاً، وخلال التغيرات السياسية التي تحدث مستقبلاً، يجد الوالي أن منافسيه يستغلون هذا الأمر لإثارة المشاكل لأغراض سرية. ولهذا السبب يفضل معظم الولاة العيش بصورة ودية مع القناصل، الذين يتجنبون بدورهم الاهتمام في الشؤون العامة التي لا تعنيهم أبداً.

نادرا ما يتعرض الإفرنج للإصابة بالأمراض الوبائية السنوية، أو الأمراض المميتة التي تتفشى في المدينة في أوقات غير معلومة. وثمة أسباب عديدة لهذا الاستثناء. فبما أن علاقاتهم بالسكان المحليين قليلة، فهم أقل عرضة للإصابة بالأمراض السنوية التي يكون معظمها معدياً، كما يتناولون طعاماً مغذياً أكثر، ونادراً ما يتناولون فاكهة فجة لا يمكن هضمها. وبما أنهم يعيشون عادة في الطوابق العليا، وتكون شققهم مهواة أكثر من الباحات المغلقة في البيوت العادية، حيث يصبح الهواء رطباً نتيجة التبخر من الأحجار المرصوفة، التي تبلل باستمرار. إن تأثير هذه الأسباب مجتمعة يمكن استنتاجه من هذه الملاحظة، بحيث أن المبشرين الذين يختلطون كثيراً مع السكان المحليين، والإفرنج المتزوجين الذين يعيشون تقريباً كما يعيش السكان المحليون، يتعرضون بشكل متساو للأوبئة السائدة كما هي حال السكان المحليين. وفيما يتعلق بسلامة الأوروبيين في وقت تفشي الطاعون، فقد يبدو أنهم يعودون بصورة رئيسية إلى الاجراءات الاحتياطية التي يتخذونها، والتي سنتعرض لها في مكان لآخر من هذا الكتاب.

الملاحظات

(١) إفرنج وفرنك وتعني الرجل الفرنسي، أو بمعنى أوسع الشخص اللاتيني، وذلك لأن الفرنسيين كانوا متميزين بصورة خاصة بين الأوروبيين الآخرين ممن حملوا السلاح في الحروب المقدسة. هيربيلوت (Herbelot).

وحسب غوليوس (Golius) فإن كلمة أجنبي أو غريب تشمل جميع الأوروبيين ماعدا اليونانيين. ويقول Meninski إن كلمة غريب تعني الشعوب الأوروبية التي شاركت في الحروب الصليبية. إلا أن Schultens يذكر في كتابه ' الدليل الجغرافي' (Geographical Index) بأن كلمة الروم في الكتب الشرقية يشوبها غموض كبير. فهي تعني في بعض الأحيان الروم، وفي أكثر الأحيان تعني اليونانيين الخاضعين لسيطرة الأستانة. وتعني في بعض الأحيان الأتراك الذين يقطنون الأقاليم اليونانية. وبنفس الطريقة امتدت كلمة الإفرنج لتشمل جميع الأمم الأوروبية.

(٢) إن ميثاق الامتيازات الذي منحه الباب العالي العثماني للإنكليز مؤرخ في عام ١٥٨٠، قبل خمسة عشر شهراً من تأسيس الشركة الشرقية.

(٣) استناداً إلى أندرسون (Anderson) فإن أول معاهدة تجارية أبرمت مع الباب العالي مع أي من الممالك الأوروبية كان في سنة ١٥٣٥م بين فرانسيس الأول وسليمان الكبير. ثم حصلت دولة فينسيا (البندقية) على معاهدة تجارية في سنة ١٥٨٠ (الاستقراء التاريخي والتأريخي لأصل التجارة، لندن ١٧٦٤، المجلد ١، ص ٣٦٥).

إلا أنه يمكن الملاحظة بأنه كان للبنادقة شركة في حلب قبل عام ١٥٨٠ بكثير، وربما قبل الفرنسيين. ولايذكر Belon of Mans الذي زار حلب في حوالي سنة ١٥٤٨ أي شيء عن وجود شركة افرنسية هناك، بل ذكر القنصل البندقي، وبأنه هو نفسه كان قد أقام في بيت تاجر بندقي.

ووجد Teixeira في عام ١٦٠٥ أنه كانت توجد أربع عشرة عائلة بندقية في حلب بالإضافة إلى عائلة القنصل. يقول: ' كان لكل عائلة وكيلان رئيسيان، أحدهما يعمل في غياب الآخر، وإذا توفي الأول أو سافر، يخلفه الثاني'. وكانت التجارة مع البندقية تتراوح بين مليون ونصف مليون سنوياً، ترسل من البندقية في خمسة أو ستة آلاف قطعة من قماش الصوف، ونفس الكمية تقريباً من الحرير والبروكار، وكمية كبيرة من القرمز (صباغ أحمر فاتح) وماتبقى من أدوات المائدة الفضية أو الذهبية. وكان العائد يتمثل في الحرير والنيلة (صباغ أزرق) والبهارات والفستق الحلبي وما إلى هنالك.. ومن كل ذلك يحسمون حسب نسبة مئوية إلى مصرف اسمه Gotimo أي للتسديد إلى طبيب وجراح وصيدلاني وقساوسة من الأخوة الفرنسيسكان ممن لهم كنيسة صغيرة في أحد الخانات، حيث يجتمع التجار لصلاة القداس والاستماع إلى المواعظ بالإضافة إلى المشاركة في تقديم الهدايا إلى الباشا والمسؤولين الآخرين وراتب الترجمان ونفقات ثلاثة مراسلين يرسلون سوية في كل شهر عن طريق الأستانة، بحيث إذا فشل اثنان فإن الثالث بوسعه متابعة الطريق. وباختصار فإن نفقات القنصل خلال ثلاث سنوات تراوحت بين سبعين وثمانين ألف دوكة أو سكوين، ولايمكن تخفيضها إلا بموافقة التجار الذين يدلون بأصواتهم وفق الطريقة الفينيسية (البندقية).

(٤) يقدم م. دارفيو وصفاً دقيقاً عن لقاء القاضي، الذي يستشف منه أن القناصل كانوا يعاملون في ذلك الوقت بطريقة خالية من الرسميات من قبل كبار المسؤولين أكثر مما هي عليه الآن، فيقول: ´عندما انتهت المقابلة نهضنا، ونهض القاضي في الوقت نفسه، وضمني إليه وأكد لي عن صداقته (المذكرات، الملحق ٥ ص ٥٢٤). كما عانقه المتسلم عند مغادرته. وكان يفترض أن هذه الزيارة ، رغم أنها كانت مصحوبة بأبهة شديدة، زيارة خاصة. وقد تناول القنصل العشاء مع المتسلم، ويمكن القول بأن النبيذ كان يقدم في هذه اللقاءات.

(٥) فيما يلي الأبيات المشار إليها،والتي ترددها النسوة والأطفال تعبيراً عن كراهيتهم للأفرنج:

افرنجبي كوكو   افرنجي كوكو
عرصة أبوكو   سكينة حدة
تحت المخدة   افرنجي كوكو

كوكو: أي الديوث.

ولاتقل الأبيات التالية شفافية وشاعرية التي كانت ترددفي شوارع حلب بعد انسحاب نادر شاه من الموصل في سنة ١٧٤٣م:

تحماس فينو فينو   دبوس بين كتفينو
موس يحلقلو ا دقنو   سيف يقطع راسو
تحماس فينو فينو..

الفصل الثاني
عن السكان المسيحيين في حلب

عدد السكان المسيحيين، الكنائس، الروم* ، طائفة الروم آخذة في التدني بشكل كبير، اللغة اليونانية لم تعد تستخدم، الأرمن متشددون في صومهم، الأعياد، السريان، الموارنة، صوم الروم والسريان والموارنة، الراهبات، سكن القساوسة، المطارنة، المبشرون اللاتين، الوكلاء العاملون للأوروبيين، ظلم المسيحيين، أسلوب الحياة، النساء المسيحيات، شخصية الرجال، الترجمة، وصف عرس ماروني، رعاية الأطفال، الجنازات وما إلى هنالك.

يقال إن عدد السكان المسيحيين في حلب يبلغ ثلاثين ألف نسمة، يؤلف الروم منهم ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة، وعدد الأرمن ستة آلاف وسبعمائة وخمسين، والسريان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين، وعدد الموارنة ثلاثة آلاف وثلاثين. أما الأجانب الذين يقيمون في المدينة من حين لآخر، فيشكلون ما تبقى من العدد الإجمالي(١) .

توجد كنيسة لكل طائفة من الطوائف المسيحية الأربع في الجديدة، وتتمتع هذه الطوائف بتسامح تام في ظل الحكومة الإسلامية. إن المصاعب التي يتذمرون بأنهم يتعرضون لها في بعض الأحيان بسبب الدين، ماهي إلا نتيجة الضغائن والأحقاد الأهلية التي تنشأ بينهم، وذلك لأن المسلمين لا يتدخلون في شؤونهم إلا بعد أن يطلب أحد الأطراف منهم ذلك.

كانت طائفة الروم في السابق ثرية ومزدهرة؛ إلا أنها أخذت في الانحدار منذ زمن بعيد، وأصبحت حالياً في وضع يرثى له. ومما لاشك فيه، فإن ذلك يعزى إلى تدني أحوال التجارة في ذلك البلد؛ إلا أن السبب الرئيسي يعود إلى الصراعات السيئة التي كانت تنشأ في الغالب بين الذين ينتمون إلى كنيسة الروم القديمة ولا يعترفون إلا ببطريركهم، وبين الذين أصبحوا لاتين، ممن لا يقبلون إلا بسيادة البابا وسلطته.

وكالعادة، فإن الصراعات الدينية هذه كانت تحدث بضراوة، وكانت تكلف أموالاً باهظة. فلكي يحوز كل طرف من الأطراف على كنيسة حلب لصالح مطرانه، كان يبذل قصارى جهده لشراء تدخل الباب العالي، عن طريق البطريرك في الأستانة. وقلما كان الطرف الخاسر يتوقف عن رفع دعاوى كيدية إلى السراي في حلب، التي كانت تقابل ذلك بالتشجيع على الدوام؛ فلم يكن الباشا أبداً يكترث بحيثيات القضية، وكان يميل باستمرار إلى الطرف الذي يدفع أكثر. وكان نجاح هذه الصراعات والانشقاقات المدمرة

* الروم (كتعبير مذهبي) هي جماعة المسيحيين العرب التي بقيت من الناحية الكنسية على إيمان الكنيسة البيزنطية (الرومية) (المترجم)

متعدداً، فتارة كان هذا الطرف يحقق نجاحاً، وتارة ذاك الطرف، فقد وجد الروم الكاثوليك* منذ فترة ليست ببعيدة، ورغم قلة عددهم، السبيل إلى السيطرة على كنيسة حلب عن طريق أصحاب النفوذ في الباب العالي. وذكر المبشرون اليسوعيون في مذكراتهم بعض تلك الانشقاقات الروحية، والمشاكل التي تعرضوا لها خلال إقامتهم في حلب لأول مرة، التي اشتقوا منها تعبير 'الرفضيين أو المنشقين'(٢) .

يعيش مطران الروم في حلب حياة تكون في أفضل أحوالها حياة منعزلة. ويعتبره معظم أفراد طائفته على أنه منشق (رفضي)، ورغم اضطرار أفراد الطائفة إلى الحفاظ على احترام خارجي، ودفع الرسوم المفروضة عليهم، فإنهم يقومون بزيارته في مناسبات لا يمكن تجنبها. وقلما يستضيفونه في بيوتهم، بل حتى أنهم لا يحضرون كنيسته، ويقوم قساوستهم بأداء الصلاة في بيوتهم، أو يذهبون إلى كنيسة الموارنة.

لم تعد اللغة اليونانية تستخدم في حلب، وقلما يستطيع أحد من السكان المحليين الذين لم يسافروا خارجاً أن يتحدث بها، ويدّعي عدد قليل جداً منهم أنه قادر على قراءتها. ويستطيع القساوسة في معظم الأحيان تلاوة الصلاة باليونانية، بنفس الطريقة التي يتمكن فيها الأميون من الروم الكاثوليك من قراءة اللاتينية. إلا أن ذلك ينطبق على الحلبيين، وذلك لأن المطارنة الأرثوذكس، فضلاً عن حاشيتهم من القساوسة والشماسين، الذين يُبعثون من الآستانة، يكونون عادة من سكان تلك البلاد التي تعتبر فيها اليونانية اللغة السائدة. ويجيد بعضهم اللغة اليونانية القديمة. وتوجد عادة مدرسة في منزل المطران لتعليم هذه اللغة، يقوم على إدارتها رجل دين أدنى مرتبة؛ إلا أنه لا يحضر هذه المدرسة سوى عدد قليل من الأشخاص، بالإضافة إلى ذلك، يبعث بعض الراغبين في الدخول في الحياة الكهنوتية، إلى أماكن ما زالت فيها اللغة اليونانية مستخدمة لتعلمها.

كشأن الروم الأرثوذكس، يقسم الأرمن إلى أرمن قدامى وأرمن جدد، أو إلى أرثوذكس ومنشقين. وتتفوق الفئة الأولى من حيث العدد، ولكن ليس من حيث الثراء، والمطران أقل ثراء من المطارنة الآخرين. ويبدو أن أرمن الكنيسة القديمة أكثر عداوة لسيادة البابا، حتى أكثر من أشد المتحمسين من الروم.

يعتبر الأرمن من بين المنشقين الأوائل عن الكنيسة الرومية** ، ويعرفون باليعاقبة*** . بسبب نكرانهم لوجود طبيعتين في شخص المسيح. ويمكن الاطلاع على ملخص عن المقالات الهرطقية التي يعزوها اللاتين إليهم في De Moni، ويرد ذكر كامل عن كنائسهم واحتفالاتهم في 'مذكرات المبشرين'.

بالإضافة إلى لغتهم، يتكلم الأرمن في حلب اللغة العربية، كما يتكلم معظمهم

---

* طائفة نشأت عن كنيسة الروم الأرثوذكس في بداية القرن الثامن عشر نتيجة تدخل كنيسة روما في شؤون كنائس الشرق.(المترجم).

** حدث الانشقاق الكنسي الأول في عام ٤٥١م نتيجة المجمع الخليقدوني،حيث انشق عن الكنيسة الجامعة السريان والأرمن والأقباط (المترجم)

*** فرقة مسيحية تعتقد بأن للمسيح طبيعة مركبة (المترجم)

اللغة التركية. وتتلى الصلاة في كنيستهم بالأرمنية المكتوبة، التي تختلف عن اللغة الأرمنية المتحدثة الشائعة. كما تكتب كتبهم بهذه اللغة، ولايستطيع أحد قراءتها وفهمها سوى رجال الدين الأكثر تعلماً منهم.

يعتبر الأرمن أكثر الطوائف تمسكاً بصومهم، ويرفضون غالباً الحصول على إذن يسمح لهم بالإفطار مهما بلغت الحاجة إلى ذلك بسبب صحتهم؛ ويفضلون الهلاك على تناول أي شيء محرم. وحسب عادات الكنيسة الشرقية، فهم لا يصومون أيام السبت، باستثناء الصوم الكبير، حيث يختلفون مع جميع المنشقين الآخرين عن تلك الكنيسة في تنظيم صومهم السنوي* وعادة ما يتبع صومهم عيد.

يتفق السريان من حيث العقيدة مع الكنيسة الكاثوليكية. ويعتقد العالم أسيماني (Assemani) ولعله محق في ذلك، أن الطائفة السريانية ارتدت إلى ضلالها السابق منذ نهاية القرن الماضي. فهم يحافظون بشكل عام على شعائرهم القديمة، ويتم جزء من الصلاة في الكنيسة باللغة السريانية وجزء بالعربية. ولا يتكلم أي منهم اللغة السريانية، ويفهمها عدد قليل منهم، إلا أنهم في غالب الأحيان، وكما هو حال المارونيين، يكتبون العربية بالأحرف السريانية. ويُرسل عدد قليل من شبانهم الذين يكرسون حياتهم للرهبنة، غالباً إلى روما لكي ينالوا تعليمهم هناك.

وقبل ظهور هذه الانشقاقات التي زعزعت سلام الكنيسة اليونانية** (الأرثوذكس)، لم يكن يستخدم اسم السريان إلا لتمييز السكان المسيحيين في منطقة شاسعة تحدها كيليكيا، والفرات، والجزيرة العربية، ومصر والبحر المتوسط، إلا أنه بعد تلك الفترة، أصبحت كل طائفة تتميز باسم خاص بها، يستمد إما من امتدادها الجغرافي، أو يعبر عن التعاليم الكنسية التي تبنتها. وفي حوالي منتصف القرن السادس، قام يعقوب البرادعي، مطران أورفا في بلاد ما بين الرافدين، بتوحيد تلك الطوائف الكثيرة

---

* يدوم الصوم الكبير سبعة أسابيع، أما جميع أنواع الصوم الأخرى التي تعقبه فتدوم أسبوعاً واحداً.
- صوم مار الياس أو صوم مار بغينا.
- صوم الرشيشة أو صوم تجلي.
- صوم كركور ساوربيج أو صوم غريغوريوس
- صوم سناك أو صوم الغطاس.
- صوم السيدة.
- صوم الصليب.
- صوم عجبة الصليب أو صوم سناشان.
- صوم سركيس أو صوم الخدر الأخضر.
- صوم مار يعقوب.
- صوم مار يوحنا الجنكلي.

وهذا الصوم الأخير هو صوم طوعي لمدة سبعة أسابيع وليس إلزامياً شأن أنواع الصيام الأخرى.

** أطلق لقب اليونانية نتيجة التأثر بالأدب واللغة اليونانية في كتابة الطقوس والصلوات رغم أن جميع أفرادها من العرب(المترجم).

التي كانت تتفق في السابق في رفض مفهوم وجود طبيعتين مميزتين في المسيح، ومنه استمدوا اسم اليعاقبة. وانضوى تحت هذا الاسم كل من الأرمن والأقباط والحبشيين. الذين رغم تلقيهم بعض المبادئ الرئيسية، فقد اختلفوا كذلك في المنهج وأساليب الممارسة، وأفسحوا المجال لحدوث تقسيمات فرعية، ونتيجة لذلك، أصبح اسم السريان يقتصر على المسيحيين اليعاقبة في سورية وبلاد ما بين الرافدين.

يقيم الموارنة علاقات مع الإفرنج أكثر من أي طائفة أخرى. وهم يرسلون أولادهم إلى المدارس الموجودة في الأديرة حيث يتعلمون اللغة الإيطالية، بالإضافة إلى أشياء أخرى تؤهلهم للعمل في المخازن الأوروبية.

إن اندفاع الموارنة للدفاع عن أسلافهم من جميع التهم بالهرطقة، جعل التاريخ المبكر لتلك الطائفة مشوباً بالغموض، وأثار الشكوك حول صحة السجلات التي يبرزونها في دفاعهم عن ذلك. غير أنه رغم كل شيء، فإن الجهود الكبيرة التي بذلها كل من Neroni Faustus لإبطال شهادة Eutychius ووليام الصوري (William of Tyre)، فإن الكثير من الكاثوليك المتعلمين لا يزالون يعتقدون بأن اسم 'ماروني' شأن 'يعقوبي أو نسطوري' كان قد أطلق لتمييز طائفة معينة تختلف في بعض بنود وتعاليم العقيدة عن الكنيسة اليونانية(٢).

يقرّ الموارنة بسلطة البابا، كما أضافوا إلى شعائرهم شعائر عديدة أخذوها عن كنيسة روما. وبعض كتبهم مكتوبة بالسريانية ولغات أخرى، رغم أنهم يكتبون اللغة العربية بأحرف سريانية؛ إلا أن القليل جداً منهم يفهم اللغة، ويقيمون صلاتهم باللغة العربية.

رغم أن قراءة الكتاب المقدس ليس محرماً، فإن المسيحيين الشرقيين بصورة عامة لايتقنون قراءته جيداً، إلا أنهم يؤمنون بالغيبيات إلى حد الإفراط بالتمسك بصومهم واحتفالاتهم. وتعتبر أيام الأربعاء والجمع أياماً عجفاء على مدار السنة. ويتمسك جميعهم –ما عدا الأرمن– بنفس مبادئ الصوم الرئيسية تقريباً* .

بالإضافة إلى رجال الدين، يلتزم سواد الناس بالصوم التزاماً شديداً. فهم لا يفطرون قبل الظهر، ويتألف غذاؤهم بصورة رئيسية من الأعشاب والزيتون، والفاكهة المجففة، وسرطان النهر. ونادراً ما يتوفر السمك إلا في الشتاء، ولا تسمح بعض الكنائس بتناوله أثناء الصوم الكبير. ويتشدد الرهبان من جميع الطوائف بصومهم إلى أبعد الحدود. ويتبدى من روايات المبشرين الروم الذين يمكن الأخذ بشهادتهم (على الأقل في هذه النقطة) مدى التزام المسيحيين الشرقيين بالصوم. وفي بعض الأحيان يقبل

---

* يكون صوم الطوائف الثلاثة على النحو التالي:

	الروم الأرثوذكس	السريان	الموارنة
الصوم الكبير	٤٨ يوماً	٤٨	٤٨
صوم الرسل	١٢	١٢	٤
صوم السيدة	١٥	١٥	١٥
صوم الميلاد	٤٠	٢٥	٢٠

المسيحيون الحلبيون التابعون لكنيسة روما، إعفاء من الصيام. فبعد حصولهم على شهادة من الطبيب، يمكنهم الحصول على إذن بإعفائهم من الصوم من القس. إلا أنهم في هذا الصدد أكثر تشككاً من الروم الكاثوليك، أو الطوائف الأخرى من الأرمن، الذين لاحظنا سابقاً أنهم يفضلون الموت على أن يتذوقوا قطعة من اللحم. وبالإضافة إلى أيام الآحاد والأعياد التي تعقب الصوم الكبير والأعياد الكثيرة التي تتخللها، حيث يتوقف فيها الناس عن العمل الجدي، فهم يستسلمون لإغراء الشراب والملذات الأخرى.

لا توجد أديرة لدى المسيحيين المحليين في حلب، إلا أنهم يسهمون في دعم العديد منها في جبل لبنان والمناطق المجاورة له. ويوجد في أحد تلك الأديرة، وهو دير مار يوحنا، مطبعة للروم الأرثوذكس، يقومون فيها بين الحين والآخر، بطباعة عدد قليل من كتب القداس، أو أية كتب دينية أخرى، إلا أن كتبهم المطبوعة تأتي من أوروبا بصورة رئيسية. والحلبيون ليسوا مولعين كثيراً بحياة الرهبنة، وأولئك الذين يأخذون منحى دينياً، يدخلون عادة في حياة الرهبنة، ويكرسون أنفسهم للخدمة الكنسية الفعلية.

توجد جمعيات خاصة أو مبرات دينية خيرية، يتألف أعضاؤها بصورة خاصة ممن تلقوا تعليمهم في مدارس الرهبان، ويعقدون اجتماعات بين آن وآخر. وهم يعيشون حياة متشددة، ويبقى معظمهم في حالة من العزوبة الطوعية.

يكثر عدد الراهبات وخاصة في الطائفة المارونية. وينذرن أنفسهن للعفة والطهارة، وهن صارمات في ممارستهن التي كرسن أنفسهن من أجلها، ويتميزن بلباس خاص، إلا أنه بما أنهن لا ينبذن العالم كلية، فيبقين عضوات مفيدات في المجتمع في البيت الأبوي. وتلجأ بعض تلك النساء الأكثر ورعاً، إذا ما انحدرت بهن الحياة، إلى أديرة الراهبات في الجبال، إلا أن عدد اللاتي يذهبن إلى هناك من حلب قليل نسبياً.

يتوجه الكثير من الرجال، وقلة قليلة من النساء، إلى القدس للحج. وتؤمن النساء (وخاصة الأرمنيات)، من الأقاليم الشمالية بتلك الخرافة، أكثر من النساء الحلبيات. ويطلق على المسيحي الذي يزور الأرض المقدسة لقب 'مقسي* ، وجرت العادة أن يطلق لحيته منذ ذلك الحين. ولا يحلق رجال الدين لحاهم، إلا أن عادة المسيحيين تكمن في إطلاق سوالفهم فقط.

يرتدي القساوسة من جميع الطوائف لباساً يكاد يكون متشابهاً. إذ يكون ثوبهم الخارجي أسود، وأرديتهم الأخرى داكنة أو أرجوانية اللون. وعمامتهم زرقاء داكنة ، أما المست والحذاء فهما أسودان. ويكون دخل القساوسة ضئيلاً جداً، بحيث أن بعض الأسر منهم تضطر إلى تعاطي التجارة.

يرافق المطارنة عدد من القساوسة عندما يخرجون، ويسير أمامهم جنود الانكشارية. ويرتدون الثوب البابوي، ويحملون عكاز الأسقف. ويظهر لهم عامة الناس

* كماكان يطلق وحتى عهد قريب لقب'مقدسي' نسبة إلى القدس (المترجم)

في بيوتهم تواضعاً أكثر مهابة مما يظهرونه للأعيان الأتراك. ويقبلون أياديهم في الأعياد. فما أن يدخلوا الحجرة حتى يخلعون عمامتهم، وعندما يتقدمون باتجاه المُقَدَّم، الذي يكون واقفاً عند الطرف الأعلى من الديوان، يسجد عدة مرات، ويلمس في كل مرة السجادة بشفتيه.

أما في الشؤون الدنيوية، فيمارس المطران درجة معينة من السلطة التشريعية، إلا أنه لا يملك سلطة إنزال أية عقوبة أخرى تزيد على التوبيخ الديني أو الحرمان الكنسي. أما فيما يتعلق بقضايا النزاعات على الملكية، فإذا لم تقتنع الأطراف بالقرار الذي يتخذه الطران، فيرفعون الأمر إلى المحكمة التركية.

يستقبل الموارنة والمسيحيون الآخرون التابعون للكنيسة الرومية المبشرين اللاتين الذين يقومون بزيارات منظمة في الجديدة بحفاوة، لأن معظمهم يجيد قدراً كافياً من اللغة يمكنهم من التحدث معهم. ومع مرور الزمن يصبحون أصدقاء العائلة. ويرتاد الكنيسة يومياً في دير تيرا سانتا عدد كبير من الأشخاص (ولاسيما النساء) من الجديدة، ويرتادها حشد من كلا الجنسين من ذلك الحي في جميع الاحتفالات الكبيرة.

نظراً لأن محاولة هداية المسلمين واليهود أمر محفوف بمخاطر شديدة، ينحصر عمل المبشرين بالمسيحيين المحليين فقط، ويسعون لإدخال المسيحيين في ظل السلطة الروحية للكنيسة في روما. ويمكن الإطلاع على الجهود الكبيرة التي تبذل في سبيل هذا الهدف، من روايات المبشرين أنفسهم. وقد يستغرب القارئ المتمعن من هذه الروايات، كيف يمكن أن تقوم مجموعة تعتبر متعلمة، وُتبعث بغرض نشر العلم في المشرق غير المتنور، بإثارة اختلافات تافهة بهذا القدر من الحماسة والتعصب، كما لو أنها تنطوي على نتائج في غاية الأهمية.

تقدم مذكرات المبشرين عدداً لا يحصى من الأمثلة عما أشرت إليه هنا. فقد كان الباباوات يضطرون في بعض الأحيان إلى الكتابة إلى المطارنة اللاتين للتدخل لمصلحة الأرثوذكس في أسقفيتهم. إذ كان بعض هؤلاء المقدمين يرغمونهم على إعادة تعميد أطفالهم على طريقة الأرثوذكس ، وصلاة القداس بالخبز الفطير، وأمور أخرى تخالف العادات المحلية. حتى إنهم ماحكوهم حول لحاهم، ومنعوهم من إطلاقها بالطول المعتاد..

واحتكاماً إلى النتائج، فقد ساهمت جهود هؤلاء الآباء، مهما بلغت نياتهم من الطيبة، في إحياء الجدالات اللاهوتية التي طواها النسيان منذ زمن بعيد، في نشر روح ضيقة الأفق، عدائية لاتعرف التسامح، أكثر مما تساهم في توحيد الأشخاص الذين تربطهم عقيدة واحدة. ولم تسهم هذه الجهود في تدعيم وشائج الإرادة الطيبة، ويتضح تأثير تلك الجهود يومياً في هذا البلد، وهو رأي يسود أكثر السكان المحليين إدراكاً وفهماً.

يوجد لكل طائفة مسيحية وكيل يقوم بتنظيم النفقات المحلية وعقد الصفقات التجارية الخاصة بها في السراي. وُينتخب هذا الوكيل في مجلس يضم الشخصيات الرئيسية من كل طائفة، ويقوم الباشا بتثبيت منصبه، ويمنحه Pellice كعلامة شرف. ويتمتع الوكيل دائماً بإمكانيات محددة وقدرة فائقة في الخطابة، كما يكون حاذقاً بصورة خاصة في فنون المكائد التي تحتاجها عملية التفاوض مع الأعيان الأتراك، كما

يعتبر تكلم اللغة التركية مطلباً هاماً. ويحصل الوكيل على راتب لقاء عمله، ويتمتع بفرص عديدة أخرى لكسب المال، ويتودد الجميع إليه باعتباره رجلاً هاماً. ولكن بالرغم من كل هذه الامتيازات، فهو مركز يبعث على الحسد والضغينة ؛ فمهما كان تصرفه مستقيماً في تسوية نسب الضرائب، أو الإتاوات، يُتهم دائماً بالتحيز والاختلاس؛ ولا يشعر ناخبوه بالرضاء أبداً، وفي جميع الحملات الكيدية على الطائفة، يكون له الشرف في أن يكون من بين أوائل الضحايا الذين يزج بهم في السجن.

شأن السكان الآخرين، يتعرض المسيحيون للظلم، إلا أنهم يتذمرون غالباً بأنهم الطرف الذي يتعرض لقدر أكبر من الظلم، ولكن في حقيقة الأمر، فإن المسلمين من الطبقة نفسها يتعرضون كذلك إلى نفس درجة الظلم.

ومما لاشك فيه، فقد كانوا يتعرضون إلى ظروف سيئة. ففي الحياة العامة، كانوا يتعرضون إلى إزعاج من جيرانهم المسلمين. أما من جانب الحكومة التي يتبرمون منها، فإن ذلك يعود بصورة خاصة إلى حماقتهم وعدم تبصرهم. فعندما كان يحين موعد دفع الخراج، كنت ترى جموعاً من صغار الحرفيين في الشوارع يومياً، وهم متجهون إلى السجن. وتكون بوابة سجن المحصل مكتظة بالنساء اللاتي يجلبن الطعام والشراب لأقربائهن المحتجزين هناك بسبب عدم دفع الضريبة. ويوحي المشهد بوقوع ظلم فاحش، إلا أن الأمر ليس كذلك، لأنهم رغم إدراكهم بحتمية دفع الخراج، وبدلاً من توفير المبلغ عندما يكون بوسعهم عمل ذلك، يتركون الأمور تسير حتى يتم زجهم في السجن، ليخسروا ربح عدة أيام من العمل، ويدفعوا مبلغاً كبيراً كرشاوى لحراسهم في أوقات مختلفة، للحصول على حرية آنية، يقارب مبلغ الدين الذي بذمتهم، وهم يعرفون تماماً أنه يتعين عليهم دفعه بعد كل هذه المحاولات والمراوغات.

تختلف العمامة التي يرتديها المسيحيون قليلاً عن تلك التي يرتديها المسلمون، والشاش فيها أزرق ومخطط بالأبيض. والخف الذي يرتدونه أحمر اللون. وعندما يخرجون، تكون ثيابهم أكثر بساطة بصورة عامة، ولاسيما فيما يتعلق بالفرو. فرغم أن الكثيرين منهم يرتدون ثياباً مكلفة جداً داخل البيت، ويقلدون المسلمين في ارتداء العمامة البيضاء، فإن ارتداء الثياب الفاخرة والأمور الأخرى آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم.

بشكل عام، يتناول المسيحيون طعامهم كما يفعل المسلمون. إلا أنهم لايتناولون كثيراً الحساء والأرز المطبوخ، ويتناولون البرغل أكثر من الأرز، ويستخدمون الزيت غالباً في طهيهم، في حين يستخدم المسلمون السمن. ويحل النبيذ والمشروبات الروحية المخمرة التي يشربونها بحرية محل الخشاف. ومن الممارسات الشائعة احتساء كأس صغير من البراندي فور جلوسهم على مائدة الطعام.

وهم لا يمكثون فترة طويلة على المائدة، ويحتسون القهوة فور انتهائهم من الطعام، ويعودون إلى عملهم. أما في العطل، فينحون للاستمرار في الشراب والتدخين لساعات طويلة. وعندما يقدم لهم الكأس الأول بعد الغذاء، تغرز شريحة من التفاح أو فاكهة أخرى على حافة الكأس، وهي عادة تشاهد كذلك في الزيارات أثناء الأعياد، عندما يقدم المشروب قبل القهوة، الذي يسمى كوب العيد.

لا تجلس النساء المسيحيات على المائدة مع أزواجهن، بل يقمن على خدمتهم بنفس الطريقة المذكورة في فصل الحرملك. وقد بدأ مؤخراً بعضهم (ولاسيما من الموارنة) يقلع عن هذه العادة، وأخذوا يستخدمون الطاولات والكراسي والخدمة على الطريقة الأوربية، ولم يقتصروا على جعل نساء الأسرة تجلس معهم على المائدة فحسب، بل بدؤوا يسمحون لهن في بعض الأحيان بالظهور أمام الأوربيين، ممن يستضيفونهم في منازلهم. ويتبع هذا الأسلوب معظم التراجمة وأمناء المستودعات.

تظهر النساء دائماً في الشارع وهن يرتدين الحجاب المصنوع من الكتان الأبيض. إلا أن شكله يختلف عن شكل الفراجي الذي ترتديه المسلمات. وهن يبقين في البيت فترة أطول مما تفعله السيدات المسلمات، لأنهن لسن ملتزمات مثلهن بالذهاب إلى الحمام. ونادراً ما يخرجن للتنزه إلى البساتين* . إلا أن ذلك لا يعني أنهن نادراً ما يخرجن من البيت. فهن يترددن على الكنيسة ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، وإلى الحمام مرة كل عشرة أيام، ويتبادلن الزيارات مع قريباتهن. ومن طبيعة منازلهم (إذ يوجد لعدد قليل منهم مكان منفصل للحريم) تضطر النساء إلى الظهور أمام ضيوف الزوج أكثر من السيدات المسلمات؛ ولا يتحرجن من الظهور بدون حجاب أمام قساوستهن أو أطبائهن والخدم الذكور.

إن السيدات المسيحيات مسرفات في ثيابهن، التي لا تختلف إلا في حالات قليلة من ثياب السيدات المسلمات. ولا يسمح لهن بوضع غطاء للرأس كما تفعل النساء المسلمات، ولا ارتداء ألوان محددة (وخاصة الأخضر) علناً. ولا يتكلم لغة أخرى غير العربية سوى عدد قليل منهن، ورغم أن معظم الذكيات منهن يتعلمن القراءة والكتابة، إلا أنهن قلما يجعلن من الكتب تسلية لهن. أما النساء الأرمنيات، فيتكلمن عادة الأرمنية والتركية بالإضافة إلى العربية.

وعند مخاطبة الآخرين، فهن أكثر رسمية من السيدات المسلمات، ويتصنعن طبقة صوتية خانعة أكثر، وينم تأدبهن كثيراً على خنوع واستسلام. ومن عادتهن تقبيل أيدي قساوستهن أو أزواجهن، بل وحتى يد الضيف الذي يقدمّن له فنجان القهوة، ويتم ذلك بطريقة متواضعة للغاية، بحيث يبدون لعين الأوروبي في البداية ذليلات. إلا أن ذلك لايتم إلا في المناسبات والاحتفالات فقط. أما في أثناء الحديث الودي، فيرمين هذا

---

* يرد المقطع التالي في الصفحة ١٣٠ من الطبعة الأولى: 'لاينبع احتجازهن (النساء المسيحيات) بدافع الغيرة من حيث سلوكهن، أكثر من خشيتهن من العواقب السيئة إذا ما رآهن تركي وأحب أياً منهن'. من المؤكد أن هذا سبب يورده في بعض الأحيان المسيحيون أنفسهم، وقد يكون قائماً على أسس صحيحة في أزمان سابقة، إلا أني لم أسمع قط عن حادثة تعرضت فيها النساء المسيحيات لأي عنف، وقد بدا لي أنهن آمنات في شخصهن كما هو حال السيدات المسلمات في جميع الأمور.

التحفظ البغيض جانباً، ويتحدثن بلباقة، ويظهرن المواهب الحيوية والمسرة التي يتصف بها جنسهن. وفي دعاباتهن فهن أكثر تحفظاً من السيدات المسلمات، فلا يجرؤن على التلميح في كلامهن، ولا يستخدمن كلمة الله بشكل اعتباطي في أثناء حديثهن العادي. لأن السيدات المسلمات وفي مناسبات عديدة يقلن 'والله' أو يستحلفن بعضهن بعضاً على سبيل المزاح 'بالله الرحمن'. وتوجد لدى المسيحيات مجموعة من العبارات الخاصة والتعبيرات الإطرائية، التي إذا استخدمها الرجل عدّ مخنثاً وتعرض للتوبيخ من أجل ذلك.

وبشكل عام، فإن الرجال متملقون أكثر من كونهم ليني الجانب. ويكون الأشخاص الذين تكون أوضاعهم جيدة، مضيافين واجتماعيين، بيد أنهم يحرصون على عدم إبداء ثرائهم خشية لفت انتباه ولاتهم الجشعين. ويرغمون على المساهمة في دعم فقراء طائفتهم بشكل كبير، بالإضافة إلى دفع الإتاوات والابتزازت غير العادلة. وقد حدا هذا الأمر بالكثيرين إلى الحصول على الحماية الأوربية بموجب الحصول على الموافقة كتراجمة شرقيين،وهي التي يتم الحصول عليها من الباب العالي لقاء دفع مبلغ كبير عن طريق السفراء الأوربيين. ونتيجة لذلك يتم إعفاؤهم من دفع الخراج، ويخضعون مباشرة لقانون القناصل، وفي حال وفاتهم، يمهر القنصل، وليس القاضي على ممتلكاتهم. ويتميزون بارتداء قبعة خاصة من الفرو، وارتداء خف أصفر.

تمنح رخص التراجمة الشرقيين بموجب أوامر سلطانية تمنح كحظوة للسفراء الذين يمنحونها بدورهم إلى أشخاص يقوم القناصل بتزكيتهم، ويسمح لكل فئة بعدد محدد منهم. وتكون العوائد التي يحصل عليها السفير كبيرة، وذلك حسب عدد الشواغر التي تحدث خلال فترة إقامته. ففي الماضي، عندما كان هذا الأمر محدوداً، كان ذلك يعتبر بمنزلة خدمة حقيقية للطوائف المسيحية، ولاسيما أن المزايا يتمتع بها عدد قليل من الأفراد، لكي يكونوا مفيدين على نطاق واسع، كان هذا الأسلوب يسهم للصالح العام. إلا أن استخدامه بهذا الشكل الكبير في السنوات الأخيرة، أحدث كثيراً من الخلل في حلب، وقلل كثيراً من الاحترام الذي كان يولى للحماية نفسها.

يخطب المسيحيون في بعض الأحيان لأولادهم وهم صغار السن، وذلك لأنهم لا يسمحون لهم بإتمام الزواج في تلك السن المبكرة، كما هي حال المسلمين، رغم وجود بعض الاستثناءات بين الأرمن. ولا يرى أي من الطرفين بعضهما قبل الزواج. وهم يتمتعون بحرية الاختيار من حيث الجمال أو أية أمور جذابة أخرى في المرأة، بقدر أكبر بقليل من المسلمين. وإذا كانت الفتاة تكره القرين المنتظر الذي يفرض عليها فرضاً، تهدد بأنها ستصبح راهبة. أما الرجال، فيمكنهم في بعض الأحيان التهرب من الارتباطات، التي كان قد حددها آباؤهم، بالسفر إلى بلاد بعيدة. بيد أن الأمثلة على ذلك قليلة.

وبما أنه بوسع القساوسة الدخول إلى بيوت الأسر بسهولة، فإن ذلك يجعلهم قادرين على التأثير في عقد اتفاقات الزواج. إذ تتاح لهم فرصة التعرف على الشبان وأمزجتهم، ويفترض فيهم أن يكونوا صادقين في التقارير التي ينقلونها. كما تستخدم قريبات الشاب (كما هو الحال عند المسلمين) للبحث عن عروس. وعندما يقع الاختيار على إحداهن، ترسل الزهور وهدايا صغيرة أخرى، من حين لآخر، من أسرة العريس إلى

أسرة العروس، ويتبادل الأقارب الزيارات. إلا أنه ليس بوسع الفتاة أن تلمس زهرة واحدة مرسلة من بيت العريس أمام النساء الأخريات، وإذا ذكر اسم العريس أمامها، تتظاهر على الفور بسلوك متحفظ، وتلوذ بالصمت، أو تنسحب خارج الغرفة. وتعرف النساء ذلك جيداً، حتى إن الصبية إذا لم تفعل ذلك وكانت كثيرة الحيوية عدتّ وقحة وهددنها بأنهن سيرغمنها على تغيير أسلوبها قريباً، ويكفي هذا التلميح لإسكاتها.

قد يساعد وصف عرس ماروني في تقديم نموذج عام عن احتفالات الأعراس المسيحية، وذلك لأنه رغم أن لكل طائفة أسلوبها المتميز في مراسمها الكنسية، فإن الاختلاف ليس مادياً، كما أن أسلوب أداء الاحتفال هو نفسه تقريباً.

بعد أن يتم طلب العروس رسمياً، وتتم تسوية الأمور الأخرى، يقوم الأب بدعوة عدد معين من الأقارب الذكور إلى حفل لتحديد يوم العرس، الذي يكون عادة بعد أسبوعين.

ثم يعود الأشخاص أنفسهم مرة أخرى إلى منزل العروس بعد ظهر اليوم الذي يسبق العرس، ومن هناك يواصلون طريقهم بعد العشاء إلى منزل العريس، حيث يجدون معظم المدعوين إلى العرس مجتمعين. وفي البداية لا يظهر العريس والإشبين، إلا أنه بعد عملية بحث قصيرة عنهما، يتبين أنهما مختبئان في مكان ما عن قصد، وهما يرتديان ثياباً لا تليق بالحفلة المرتقبة. فيقادان من مخبأهما في زهو وانتصار حول الباحة وسط صياح المجموعة، ثم يؤخذان إلى غرفة لارتداء ثيابهما، حيث تكون ثياب العرس معروضة وجاهزة. وقبل ارتداء ثيابهما، يقرأ عليها القسيس بعض الدعوات والتباريك. وعندما يرتدي العريس ثيابه، يُرغم على الدوران عدة مرات حول الباحة في موكب كما من قبل. أما النساء فيبقين طوال ذلك الوقت في غرفة منفصلة.

وعند حوالي منتصف الليل، يخرج جميع الرجال ومعظم النساء في موكب وهم يحملون شموعاً، تسبقهم فرقة موسيقية لإحضار العروس. وعند وصولهم إلى بيتها، تقف مجموعة من أقارب العروس في وجههم للحيلولة دون دخولهم، ويتبع ذلك عادة مناورة صورية، يكون طرف العريس فيها منتصراً دائماً. وتدخل النساء إلى الحجرات الداخلية، وسرعان ما يعدن وهن منتصرات برفقة العروس، التي يكسوها حجاب واسع، ولا ترافقها سوى اشبينتها وواحدة أو اثنتان من قريباتها، وذلك لأن العادات لا تسمح للأم وأقرب قريباتها بمرافقتها. وعندما تغادر البيت، ينقلب بيت والديها إلى حالة من البؤس والحزن. أما الجمع المنتظر خارجاً، فيستقبلها بصيحات متكررة من السرور والفرح، وتؤخذ بتلك الطريقة إلى منزل العريس.

عندما تتجاوز العروس العتبة، تطلق الزغاريد. وبعد تبديل الحجاب الطويل إلى آخر من الشاش الأحمر، تقاد العروس إلى حجرة واسعة، وتجلس فوق وسادة عند الطرف الآخر. وفي هذه الحالة، يكون من العيب أن تنطق بكلمة أو أن تبتسم، وتدعو الأعراف إلى أن تبقي جفنيها مطبقين طوال الوقت، إلا أنها تكون على استعداد للنهوض وتقبيل يد كل أنثى تدخل الغرفة لتهنئتها، تقف فتاة بالقرب من العروس لذكر اسم كل واحدة منهن. وتمضي النسوة باقي الليلة وهن في حالة من الفرح والحبور وتتعالى أصواتهن. ولا يقل الرجال عنهن إحداثاً للضجة. وتحتسى كميات كبيرة من العرق والنبيذ والقهوة ومرطبات أخرى، ولا ينسحب للراحة إلا عدد قليل من الضيوف المسنين. وعندما لا يكون المنزل

كبيراً يكفي لمنح الرجال والنساء غرفاً منفصلة، يتم استعارة بيت مجاور لاستقبال الرجال.

عند حوالي الساعة التاسعة صباحاً، يحضر المطران، أو قسيس بالنسبة للطبقات الأدنى، لإجراء مراسم الزواج. وتتوقف الموسيقى لحظة دخوله، ويسود الصمت أرجاء المنزل. وتتحجب جميع النساء لاستقباله. وما إن يضع الكساء الكهنوتي، حتى يدخل غرفة الحريم يتبعه العريس والرجال في موكب صامت. وتبدو العروس واقفة أمام الديوان، تسندها امرأتان، بالإضافة إلى الاشبينة، وتحتشد باقي النساء في الخلف. ويقف العريس الذي يرتدي أجمل أنواع العباءات، ومعه الإشبين على يسار العروس. ثم يتقدم المطران، ويضع تاجاً فوق رأس العريس، ثم فوق رأس العروس أثناء مراسم الزواج؛ وبعد ذلك يتوّج كلاً من الاشبين والإشبينة. ويرد العريس بصوت مسموع على السؤال التقليدي بالموافقة على الزواج، أما العروس فتبدي موافقتها بانحناءة طفيفة من الرأس. وعلى الفور يجمع المطران أيديهما، وبعد صلوات ومباركات عديدة، يضع خاتماً على إصبع العريس، ويسلم آخر إلى الاشبينة لتضعه في إصبع العروس. وفي نهاية المراسم، يلف المطران وشاحاً حول رقبة العريس يبقى حتى يأتي قس بعد الظهر ليحله.

وبذلك ينتهي الاحتفال، ويعود الرجال إلى الغرف الخارجية، وبما أن الوقت يكون مبكراً لتناول جميع الموجودين طعام الغداء، يقدم طعام الغداء للمطران وحاشيته وعدد قليل من الأشخاص المختارين. وما إن يغادر المطران البيت، حتىتعود الموسيقى للعزف بكامل زخمها وصخبها، وكأنها تريد أن تعوض ما فاتها من الوقت الضائع خلال وجود المطران، فتتضاعف الضجة من قبل الجميع. والمسيحيون في هذه المناسبات أكثر إحداثاً للضجة من المسلمين، وذلك لأنه بالإضافة إلى الفرقة الموسيقية التي لا تكاد تتوقف عن العزف، ينضم الكثير من الرجال إلى المغنين المحترفين في الجوقة. ويظهر بعضهم كذلك مهاراته في الرقص، الذي نادراً ما يظهرونه في مناسبات أخرى. ومن أجل التنويع في أسباب اللهو والمتعة، يقدم المهرجون والحواة بعض عروضهم. وبهذه الطريقة يمضي الحاضرون اليوم بكامله، وتدور أقداح العرق والنبيذ بخفة، وتمتلئ المائدة عند الغداء والعشاء بألوان كثيرة من المأكولات، وتقدم الفواكه والحلويات والقهوة والتبغ بين حين وآخر.

وبين الحادية عشرة والثانية عشر ليلاً، يدخل العريس بصحبة عدد قليل من أقرب أقربائه من الذكور إلى الغرفة التي توجد فيها النساء، وتُقدم الفواكه والنبيذ. ووتتاح الفرصة للعريس لأول مرة كي يرى عروسه وهي بدون حجاب. فتستقبله وهي واقفة، وتعاود الجلوس بصعوبة بعد أن يتوسل إليها لأن تفعل ذلك. وسرعان ما ينتهي هذا اللقاء، بعد أن يقدم كل من العروسين كأساً للآخر، ويحتسي العريس كأساً مترعة تحية للضيفات، ثم يعود إلى رفاقه الذين ينتظرونه في الخارج ليستقبلوه بأصوات صاخبة.

وتستمر الليلة على هذا المنوال. وفي صباح اليوم التالي يقدم العريس المجوهرات والحلي إلى عروسه. وفي نفس الوقت يهديها أقاربها نقوداً. وبعد مضي عدة أيام، يرسل الأشخاص الآخرون الذين كانوا قد دعوا إلى الزفاف، هدايا مختلفة، وتتلقى رسائل تهنئة وأزهاراً من معارفها.

ينتهي حفل العرس بحفلة طعام خفيفة بعد ظهر اليوم الثالث، وبعدها يستأذن الجميع بالانصراف باستثناء عدد قليل من الأصدقاء الحميمين، الذين يبقون لتناول العشاء مع العريس، ويتركونه في منتصف الليل وهو في حالة منهكة كي يلحق بعروسه*.

ويمتاز الأسبوع التالي باستقبال رسائل التهنئة والمباركات، وفي اليوم الحادي عشر، تستضيف العروس أمها وقريباتها المقربات اللاتي يحضرن عندئذ لزيارتها للمرة الأولى.

رغم البهجة التي تغمر النساء الأخريات، فإن العروس نفسها لا تستمتع إلا بجزء يسير من مباهج العرس. إذ إن الاحتفالات التي تضطر لتحملها لمدة ثلاثة أيام تجعلها منهكة إلى أقصى حد، كما يجعلها الضجيج الذي يستمر بدون توقف، بالإضافة إلى خفر جنسها الطبيعي، في حالة من التوتر والقلق الدائمين. وبما أنها تعرف أنها قد تتعرض لتوجيه اللوم إليها من بنات جنسها، فهي تخشى أن تحرك أحد أطرافها، لكي لا تلومها الأخريات ويعتبرنها إساءة تنافي اللباقة والأدب. وهي قلما تجرؤ على فتح شفتيها لتطلب كأساً من الماء إذا أهملت إحدى اللاتي يقمن بالخدمة واجباتها تجاهها. وقد سمعت عدة سيدات متزوجات يصفن وضعهن المزري ذاك، عن طريق المزاح. وأكدت لي بعضهن أنهن لم يكن شبه خائفات إلى حد يجعل العقل مضطرباً فقط نتيجة الصخب المستمر والصيحات المفاجئة، بل كن يخشين من الموت عطشاً، نتيجة عدم اهتمام الخادمات بهن، بسبب اندفاعهن للعناية بالمدعوات. وبالإضافة إلى هذه التقييدات التي تنتهي مع انتهاء الأيام الاحتفالية الثلاثة، يفرض على العروس الالتزام بالصمت المطبق لمدة شهر كامل، وإذا سمح لها التفوه بكلمات قليلة لزوجها فإن ذلك يعتبر متعة فائقة. ويقال إن ذلك يستمر فترة اثني عشر شهراً عند الأرمن. وفي بعض الأحيان، يذكر الأزواج من باب الدعابة أنه رغم أن زوجاتهم يلتزمن بالنصائح التي يتلقينها من الأكبر سناً منهن حول هذا الأمر، فإنهن يعوضن عن ذلك بثرثرتهن بعد انتهاء تلك المدة. ويبدو أن النساء المارونيات هن أقل تشدداً من جميع الأخريات في التمسك بهذه التقييدات المتشددة.

إن طريقة تربية أولادهن الصغار تشبه الأسلوب الذي تتبعه المسلمات إلى حد بعيد. وبشكل عام، تقوم الأم بإرضاع طفلها، حيث تستمر عادة فترة الإرضاع سنتين، إذ لم يقطعها حمل، وبدلاً من تسليم الطفل إلى مرضعة، يواصلن إرضاعه حتى نهاية السنة؛ أما في حال الحمل الأبكر، فنادراً ما يخترن الإرضاع بعد الشهر الرابع، ولذلك فهن يستخدمن مرضعة.

يبدي الصبية احتراماً ظاهرياً شديداً للأب، ويقفون دائماً في أثناء وجوده، وفي أثناء الاحتفالات، يقفون على خدمته هو وضيوفه على المائدة؛ إلا أنهم نادراً ما يربون بنفس الشدة كما هي حال الأطفال المسلمين، إذ لا تطبق عليهم السلطة الأبوية بتلك الشدة والصرامة، ويفسد الكثير منهم في الانغماس باللهو مبكراً، وقد يكونون شرسين وعنيدين،

---

* إن حفل الزفاف الموصوف أعلاه والذي حضرناه أنا وأخي، كان حفل زفاف شخص ماروني من عائلة هامة. وكان المدعوون كثيرين وكان كل شيء يتم بشكل رائع.

ويتسم سلوكهم بقلة احترام تثير ازدراء أمهاتهم. ويرى الآباء ذلك، إلا أنهم يتغاضون عن نزقهم بشكل أخرق، ويزعمون أنهم يخشون من أن يؤدي توبيخهم إياهم إلى اتخاذ أولادهم قراراً متهوراً يضر بعقيدتهم. وتسود هذه الفكرة في صفوف جميع المسيحيين، ولاسيما من الطبقات الدنيا، رغم وجود أمثلة نادرة جداً عن حالات الارتداد عن الدين.

إن انغماس الشبان المسيحيين في الملذات (باستثناء أبناء الطبقة الراقية منهم) أكثر من الشباب المسلمين. وفي الحياة العامة، لا يتم فصل الجنسين فصلاً تاماً. ويتم تهدئة المشاعر الملتهبة باحتساء مشروبات قوية. ولا يؤثر الخوف من التوبيخ الكنسي كثيراً في هذا الصدد، ومن مصلحة جميع الأطراف المعنية إخفاء ثمرة قصة حب غير شرعية. إذ أن الطفل غير الشرعي يصبح شأناً عاماً، ويتحمل الجوار كله مسؤولية عنه، بحجة أنه كان بوسعهم الحيلولة دون حدوث هذه الإساءة، أو كان بوسعهم إعلام القاضي في وقت مسبق. ولهذا السبب، فإن احتمال حدوث جريمة الإجهاض أكبر مما هي عند المسلمين. أما فيما يتعلق بالعاهرات المسيحيات، فشأنهن شأن العاهرات الآخريات، فهن معروفات لدى الشرطة.

يتم تعليم أبناء المسيحيين، إذا كانت أحوالهم تسمح بذلك قراءة العربية وكتابتها، وعادة ما يتبعون مهنة الأب في أحد فروع التجارة، أو يعملون كتبة، أو وكلاء للتجار المسلمين. وهم معتادون على السفر في القوافل أكثر من المسلمين الحلبيين، بيد أن نسبة قليلة منهم تترك مسقط رأسها.

لا يدفن المسيحيون موتاهم بسرعة كبيرة، كما هي الحال عند المسلمين الذين يدفنون موتاهم بعد عدة ساعات،. إذ يوضع الجثمان في بعض الأحيان في الكنيسة، ومنها يحمل في موكب إلى مكان مواراته التراب، ويتقدم القساوسة الموكب الذي يضم الأقارب من كلا الجنسين. ولا تثير النساء الصخب في الشارع كما تفعل المسلمات، إلا أنهن يطلقن الولاويل عند لحظة الوفاة، ويستخدمن كذلك ندابات محترفات، ويُحمل الجثمان فوق نعش مفتوح.

تغطي المقابر المسيحية مساحة واسعة من الناحية الغربية بين الجديدة والبساتين. وتكون قبور الأرثوذكس مصفوفة على نسق كقبور المسلمين، وتوضع عليها حجارة مسطحة تحفر عليها بعض الكتابات. وتضع بعض العائلات قبوراً أغلى ثمناً من الحجر المنحوت، أو توضع فوق القبرحجرة واحدة ضخمة طولانية مربعة.

عند وفاة الأقارب لا يغير الرجال لباسهم، وربما أجروا تغييراً طفيفاً عليها. وتخلع النساء مجوهراتهن، ويعبّرن عن حزنهن بالطريقة المذكورة أعلاه. ويقوم الجنسان بزيارة القبر في أيام محددة، أو تخرج النسوة إلى مقابر الأقارب المقربين جداً في كل صباح تقريباً خلال السنة الأولى، وبعد ذلك عند الأعياد الكبيرة.

تؤدي وفاة عروس، أو عريس، أو أم شابة، أو وريث عائلة، إلى حدوث مناحة كبيرة من حين لآخر، تتكون من عدة أبيات يقوم بترديدها بلحن حزين عدد من المتسولين العجائز يأتون إلى باب المنزل، ويدخلون إلى الممر. وتشجعهم النسوة اللاتي يجدن متعة حزينة في الاستماع إليهم، ورغم أن شاعرية هذه القصائد البائسة لا ترقى إلى جمال لحنها، فهي تلامس العواطف، وتجعل دموع الحاضرات تذرف بغزارة من العيون الجميلة.

الملاحظات

(١) قام قس ماروني بحساب عدد السكان المسيحيين في سنة ١٧٤٠ بهدف تعداد تلك الطائفة، ووجد أنها تضم ثلاثة آلاف وثلاثة وثلاثين شخصاً، كان منهم ألف وخمسمائة من الذكور، وألف وخمسمائة واثنان وثلاثون من الإناث. وكان سبب إجراء هذا المسح منافسة بين الأرثوذكس والموارنة، بشأن ضرائب فرضت على الطوائف المسيحية، إذ ادعت الطائفة الأخيرة أن عددها مبالغ فيه. وقد رفع الأمر إلى الوالي أحمد باشا دوركلي والقاضي اللذين أصدرا أمراً لدراسة دفاتر ضريبة الخراج بدقة بهدف إجراء تسوية عادلة، ونتيجة لذلك رفع إليهما التقدير التالي:

ويقسم جميع المسيحيين إلى أربعة وعشرين جزءاً أو قيراطاً، وقد خصص عدد محدد من تذاكر الخراج لكل قيراط، ووزعت الحصص على النحو التالي:

شكّل الأرثوذكس	١٢ قيراطاً وخصصت لهم	٤٦٠٠ تذكرة
الأرمن	٦	٢٠٣٠
السريان	٣ ١/٣	١١٣٠
الموارنة	٢,٢٣	٩٠٠

وعلى هذا الأساس، فقد توصل القس، مفترضاً أن عدد أفراد الطوائف المعنية، إلى نفس النسبة من القراريط التي تأكدت بواسطة المسح فيما يتعلق بالطائفة المارونية، الذين حسب عددهم في كل طائفة كما ذكر أعلاه.

بدا لي أن هذا التعداد أكثر دقة من أي تعداد كنت قد حصلت عليه من قبل في حلب. إلا أنه يمكن ملاحظة أن تسوية القراريط رغم تأكيدها قانونيا، قد لا تكون عادلة تماماً، لأنه من مصلحة الأطراف المعنية رشوة القضاة.

(٢) صدرت أطروحة فاوستو نيروني في روما في عام ١٦٧٩، بذل فيها جهداً لكي يبين أن الموارنة كانوا متمسكين بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة منذ أيام الرسل.

مهما كان الوضع في السابق، فإن الموارنة ينتمون حالياً إلى الكنيسة في روما. واستناداً إلى Dandini فقد لعن بطريرك الموارنة في عام ١٥٩٦ في المجمع الكنسي (سينودس) جميع الهرطقات الملصقة به، وأعلن عن تمسكه الشديد بالكنيسة الحقيقية. وفي حوالي سنة ٦٧٧، استولى الموارنة على جبل لبنان، ونتيجة غزواتهم المتلاحقة على الأرياف، فقد تمكنوا من تحصين أنفسهم ضد المسلمين؛ ولكي يحصل على وقت كاف لصد تلك الغزوات، أبرم الخليفة معاوية (الذي كان يقيم وقتها في دمشق) صلحاً مع إمبراطور الإغريق الذي كان يشن معه حرباً غير ناجحة في كيليكيا. وبعد حوالي ثماني سنوات، عندما تبوأ جوستينيان الثالث العرش، ثبت معاهدة السلم المبرمة سابقاً مع المسلمين، وأضيفت إليها مادة جديدة إلى المعاهدة، تعهد بموجبها جوستينان بقمع الموارنة. وأرسل نتيجة لذلك قائداً على رأس جيش ضخم إلى سورية، وهاجم الجبال بنجاح وقتل اثني عشر ألفاً من السكان.استمر الموارنة في امتلاك جزء من جبل لبنان منذ تلك الفترة. ويقدّر ويليام الصوري الخدمات التي قدموها أثناء الحروب المقدسة (الصليبية)، ويقول إن عددهم كان يبلغ أربعين ألفاً، وبما أنهم كانوا أقوياء وشجعان فقد كانوا حلفاء مفيدين. ونحو أواخر القرن السادس عشر، قدم Dandini و La Roque بعد قرن تقريباً، وصفاً عن حالة الطائفة المارونية في لبنان غير أن م. نيبور يقدم وصفاً حديثاً أكثر، وأكثر دقة في الجزء الثاني من رحلته إلى الجزيرة العربية. كما سيجد القارئ فيه وصفاً ممتعاً عن المتسولين (Mendicants) من جبل لبنان، الذين يزورون أوروبا من حين لآخر تحت لقب أمراء فلسطين.

الفصل الثالث
عن السكان اليهود في حلب

عدد اليهود، الكنيس (معبد اليهود)، المخطوطة القديمة للعهد القديم، لباس اليهود، استخدام الأحرف العبرية في كتابة العربية، اليهود نادراً ما يعملون في المهن اليدوية، يعملون بشكل رئيسي كصرافين وتجار الخ ..، معتدلون في غذائهم، الطبقة الدنيا تتميز بالقذارة وعدم الأناقة في الملبس، النساء، الكاهن الأكبر أو الحاخام، السبت، الأعياد، الصوم، الصوم الكبير يدوم ستة أيام، الصوم الطوعي، تأثير اليهود في تركيا، الزواج عند اليهود، العلاقات السرية، اعتقادهم باستحضار الأرواح وطرد الأرواح الشريرة، اليهود يعتنون كثيراً بمرضاهم، الجنازات وما إلى هنالك ..

يبلغ عدد اليهود المحسوب في حلب حوالي خمسة آلاف*نسمة . وهم يقطنون داخل الأسوار، في المناطق القريبة من الأسوار بين باب العتمة وباب النصر (القديس جورج)، في الحي الذي تحده بحسيتة، والشارع المؤدي غرباً باتجاه المحكمة. وتقع بيوتهم قرب بعضها بعضاً، إلا أنه تتخللها بعض بيوت المسلمين. ويوجد عندهم كنيس واحد يقع في منطقة تسمى ُحارة اليهود ُ، حيث توجد مخطوطة عن العهد القديم، التي يدعون بأنها مغرقة في القدم.(١) وقد وصف Pietro della Valle (٢) الكنيس وصفاً دقيقاً.

يمكن تمييز اليهود بسهولة من حذائهم البنفسجي اللون، ومن عمامتهم؛ بالإضافة إلى ملامحهم التي تميز ذلك الشعب، كما أن عمامتهم أوطأ قليلاً من عمامة المسلمين، أما الشاش المخطط فهو نفسه تقريباً؛ كما يضعون شاشاً من ألوان أخرى، ويعقدونه بطريقة غير متقنة مطلقاً. حجوقبل عام ١٦٠٠ (حسب Biddulph) كان اليهود يرتدون قبعات حمرا بدون حافات، إلا أن الصدر الأعظم الذي لم يعجبه أن يرتدوا اللون الأحمر، في ذلك الوقت، أرغمهم على وضع قبعات زرق(٣) وهو يعني بالقبعات عمائم، ولايزال شاش بعض عمائمهم أحمر اللون. ويطلق الجميع لحاهم، كما يرغم الحاخام حتى اليهود الإفرنج على اتباع هذه العادة.

من الملاحظ أن اليهود يتكلمون لغة عربية ركيكة أكثر من المسيحيين. وعندما يلقون تحيتهم صباح يوم السبت، فهم يستخدمون غالباً اللغة العبرية، إلا أن الأمر لا يعدو استخدام أكثر من بضع كلمات** ، ولا يتكلم أي منهم اللغة بسهولة رغم أنهم يقرؤونها.

---

* كان عدد اليهود في حلب في زمن نور الدين في القرن الثاني عشر (حسب بنجامين الطليطلي) ألف وخمسمائة.

** الكلمات بالعبرية هي شابات شالوم، ويكون الرد شابات شلوم مبارك.

وعند كتابتهم العربية، يستخدمون غالباً الأحرف العبرية، ولذلك يظن الغريب خطأ أنهم يكتبون باللغة القديمة. ويقول Leon Modena بأن يهود Molea يكتبون بالعربية، إلا أنهم في أماكن أخرى يستخدمون لغة البلاد، وفي بعض الأحيان يكتبونها بالأحرف العبرية فقط. ويرسلون أولادهم إلى مدرسة لتعلم القراءة، إلا أن تعليمهم قلما يتجاوز مزامير داوود. وتُجلب معظم كتبهم المطبوعة وتقاويمهم من البندقية.

يعمل عدد قليل من اليهود في الصناعة أو في الحرف اليدوية. أما الكبار منهم فيعملون في الصرافة والتجارة بصورة رئيسية، ويعمل الآخرون سماسرة أو بقالين أو تجاراً جوالين. والصراف الرئيسي في السراي يهودي، كما أن الصرافين الخاصين لمعظم الأعيان هم من اليهود.

وبشكل عام لايتعاطى الكثير منهم المنكرات بإسراف بسبب فقرهم، كما أن ذهابهم إلى الكنيس مرتين في اليوم، وفي جميع الأعياد، والإشراف الدقيق لحاخاماتهم على حياتهم، يجعل من الصعب عليهم إخفاء أعمال التهتك والخلاعة. ويعيش أفراد الطبقة الدنيا بصورة رئيسية على الخبز والبقول والأعشاب والجذور، ويضعون عليها زيت السمسم، الذي قلما يتناوله بقية السكان. ويتناولون لحوم الدجاج أكثر من أية لحوم أخرى، وربما يعزى ذلك إلى أن سوقهم لا تزود جيداً بلحم الضأن. وبما أنه ينبغي ذبح لحومهم بطريقة معينة، وعلى يد جزار يهودي، فلا يمكنهم تأمين حاجاتهم من أسواق المسلمين. وتباع لحومهم إلى فقرائهم بسعر منخفض، ويُعوض البائع بالفرق من صندوق الملة. إلا أن جشع القائمين على هذا العمل الخيري، يجعل السوق غالباً خالياً من اللحم، بحيث يضطر اليهود الأكثر غنى إلى تناول لحم الدجاج كالآخرين، لأن ذبحه يتم بسهولة في البيت.

يعتبر أفراد الطبقة الدنيا من اليهود أكثر الناس قذارة وأسوأهم هنداماً، ولا يمكن العثور على شيء إيجابي أكثر حكمة من أن يفرض عليهم تنظيف بيوتهم وأنفسهم مرة على الأقل في الأسبوع؛ ولذلك تجدهم يمتثلون بشكل صارم ليوم السبت الذي يبدأ ليل الجمعة عند الغروب، وينتهي في حوالي الوقت نفسه من اليوم التالي. إلا أن التحضير له يبدأ قبل ظهر يوم الجمعة. ويعد قيام نسائهم بتنظيف المنازل وطهي الطعام المخصص ليوم السبت، يذهبن إلى الحمام ويرتدين ثيابهن هناك.

يمكن اعتبار بعض نسائهم في غاية الجمال، إلا أن نسبتهن أقل من بقية الديانات. ويختلف غطاء رأسهن كثيراً في طريقة ارتدائه عن السيدات المسلمات والمسيحيات، وفي معظم الأحيان يكون مرصعاً باللآلئ. وفي الأجزاء الأخرى من ثيابهن، أو في مجوهراتهن، فهن يتبعن الطريقة الشرقية، ولا يوجد شيء خاص يميزهن: سوى أن حذاءهن وخفهن بنفسجي اللون. ولون حجابهن أبيض، إلا أنهن يضعنه بحيث يتركن إحدى الذراعين حرة. ولديهن طريقة خاصة بإلقاء التحية، يمارسها الأطفال كذلك، أما الرجال فلا يمارسونها إلا في بيوتهم. فبدل وضع اليد على الناحية اليسرى من الصدر، فإن المرأة التي تؤدي التحية، تمد يديها وهما مضمومتان عند رؤوس الأصابع، فتلامسها الأخرى برفق أو تزلق أصابعها فوقها، ثم ترفع كل منهن، وبحركة سريعة، يديها وهما مضمومتان عند رؤوس الأصابع إلى شفتيها. كما أن لديهن طريقة

مميزة للتعبير عن النفي التام تتمثل في عضّ ظفر إبهام اليد اليمنى، ثم يدفعن اليد إلى الأمام بسرعة.

وأثناء الحديث العادي، تستخدم اليهوديات عبارات وكلمات عديدة لا تستعملها النساء الحلبيات الآخريات، ويتكلمن العربية بلهجة خاصة .مميزة. وفي وجود الغرباء، تتحجب المرأة دائماً، وبشكل عام، فهن لا يتناولن الطعام على نفس المائدة مع الرجال؛ أما في العطل، أو عند عدم وجود غرباء، فيتناولون الطعام سوية. وفي أيام السبت، يمكث اليهود فترة طويلة على المائدة، ويحتسون نبيذاً يصنع حسب شريعتهم. وفي هذه المناسبات، قد يُسمعون وهم يغنون في جوقة؛ إلا أن أغانيهم ليست مبهجة أو مرحة، بل تشبه المزامير وهي ملحنة، ومختلفة عن أي لحن. ويبدو أن سانديز Sandys)) كان قد كوّن رأياً مماثلاً بأن غناءهم غير ممتع كذلك. وعندما يتحدث عن غنائهم أثناء الصلاة في الكنيس يقول: 'إنهم يغنون بألحان ليس لها علاقة بالموسيقى'. ويشرح ليون مودينا (Leon Modena) طريقة غنائهم على كوب صلاة الشكر، ويقول كذلك بأن اليهود في إيطاليا لا يتمسكون بالنبيذ الذي يحضره اليهود فقط.

من الطبيعي أن يؤدي سكن عدة عائلات في بيت واحد والتزاوج بين الأقارب المقربين إلى أن يعيش اليهود بطريقة متآلفة مع النساء أكثر من المسلمين والمسيحيين، ويبدو أن النساء لايتحجبن أمام الرجال من بني دينهن.

يطلق على كاهنهم الرئيسي خاخان أو الحاخام الأكبر، إلا أن هذا اللقب يطلق كذلك على جميع الكهنة بشكل عام، ويمتاز الحاخامات عن بقية اليهود من حجم العمامة ولونها، وأكمام ردائهم الخارجي الطويلة والعريضة.

يمارس الحاخام سلطة دنيوية وروحية، وتلقى قراراته في معظم الأحيان احتراماً أكثر مما تلقاه قرارات المطران من قبل المسيحيين. إلا أن سلطته القضائية المدنية محدودة جداً، وقد تلجأ الأطراف المتنازعة إلى المحكمة. ويطلع الكهنة على أمور كثيرة، لكسب سمعة بأنهم متبحرون في المعرفة، بين أناس أميين جهلة، وهم يقرؤون التوراة باللغة الأصلية، ويشرحونها بالتعليقات والتفسيرات المنقولة عن الأحبار السابقين، إلا أنهم قلما يجرؤون على إبداء آراء جديدة من عندهم، بل لا يجرؤون على ذلك أبداً. ويدير المدارس بعض الكهنة الأدنى مرتبة، وهم يتبعون نفس أسلوب المشايخ المسلمين، في الذهاب إلى البيوت لجمع التلاميذ وأخذهم إلى المدرسة.

بالإضافة إلى تمسكهم بتعاليم كهنتهم وكتاباتهم الأكثر حداثة، يتمسك اليهود الشرقيون بشعائرهم القديمة بشدة فضلاً عن تمسكهم بيوم السبت. وكنا قد ذكرنا، بأن النساء بعد أن يبدأن تحضيراتهن قبل ظهر الجمعة، يذهبن إلى الحمام بعد الظهر، ويعدن في الوقت الملائم ليضئن المصابيح قبل بدء يوم السبت. كما يعود الرجال من أعمالهم أبكر من المعتاد لكي يرتدوا ثيابهم ويعدوا أنفسهم. وفي يوم السبت، يقيمون الصلاة في الصباح وبعض الظهر في الكنيس، ويحضرها على الدوام كلا الجنسين. ويتم قضاء ما تبقى من اليوم في الزيارات والاحتفالات والصلاة المنفردة، ويرتدي جميعهم أفضل

ثيابهم. وعند المساء تشاهد أعداد من الرجال وهم يتسكعون عند باب الجنان أو يجلسون في الرواق. ويحدث توقف تام عن العمل والتجارة* ويُطهى طعامهم في اليوم السابق. وبما أنه يحظر عليهم إشعال النار تماماً، فلا يفعلون ذلك أبداً يوم السبت؛ وفي حال وجود مريض في الأسرة، يسمح لهم عندئذ بإشعال النار بوساطة أشخاص آخرين فقط، لتسخين الطعام أو إعداد الدواء، ولهذا السبب يحتفظون بخادمة بدوية أو مسيحية في البيت. ويحصل الناس العاديون على مساعدة من البدويات اللاتي يحملن أوعية صغيرة فيها فحم مشتعل ويجبن شوارع اليهود أيام السبت ويصرخن: 'نار .. نار للبيع'.

عندما يعود الرجال من الكنيس قبل الظهر، جرت العادة أن يتجمع الرجال ويتنقلوا من بيت إلى آخر لزيارة المرضى. وبما أن عدم ذهاب المرء لأداء الصلاة يجعل الآخرين يظنونه مريضاً، فيدعيّ الرجال أنهم متوعكون ولا يذهبون غالباً إلى الكنيس لكي يتجنبوا عناء القيام بهذه الزيارات الرسمية. أما النساء فيؤجلن زيارة المرضى إلى اليوم التالي إلا إذا كان المريض من الأقرباء المقربين.

تبدأ السنة اليهودية عند حوالي الاعتدال الربيعي؛ ويعتبر نيسان الذي يقع بين جزء من آذار ونيسان الشهر الأول، وفي الرابع عشر من ذلك الشهر يتم الاحتفال بعيد العبور** ، ويليه على الفور عيد الفطير وهما اللذان يشكلان معاً استمرارية لبعضهما، ويعتبران أحد الأعياد الرئيسية في قانون الموزاييك. يتطلب الإعداد لعيد الفطير جهداً كبيراً، ويستغرق ذلك عدة أيام. ويعتبر وجود فطير في المنزل أمراً خطيراً عند اليهود الشرقيين. فيتم تنبيش وتفتيش كل بقعة وزاوية من المنزل، وتغسل بعناية فائقة، وتطلى أدوات المطبخ بالقصدير من جديد. ولو رأى أكثر الأشخاص كفراً بالأديان السماوية الحصر والسجاجيد والأغطية التي يتم فركها ودلكها بعناية في تلك المناسبة وهي معلقة في الهواء، لظنّ أنه في بلد معرض للإصابة بأمراض معدية. ولا يشمل هذا الأمر الفصول الأخرى من السنة.

ويستمر العيد المشترك ثمانية أيام، ويسلكون في اليوم الثاني والثامن كما يفعلون يوم السبت (باستثناء أنهم يشعلون النار ويطبخون الطعام)، ولا يظهر الرجال في الأسواق. ورغم أن التجار لا يقومون بأعمال هامة خلال الأيام الخمسة الواقعة بين اليوم الثاني والثامن، أو أنهم يقومون بأعمال بسيطة، فإنهم يترددون على السوق لبعض الوقت لرؤية أصدقائهم وقضاء وقت ممتع. ويُحَضّر خبزهم من دقيق ناعم على شكل أقراص رفيعة جداً، ويعدون حلوياتهم بأنفسهم، ويقومون بتنقية السكر بعناية، علماً أن الحلويات التي يبيعها صانعو الحلوى أقل نقاوة ومعرضة للتخمر؛ ويستخدم عامة الناس العسل بدلاً من السكر. ويرتدون ثياب العطلة، ويتوج الأطفال بأطواق من الورد، وتعرض النسوة حليهن وثيابهن الجميلة.

وبعد خمسين يوماً من اليوم الثالث من عيد العبور، يُحتفل بعيد العنصرة***

---

* لايفتحون رسالة عمل بأنفسهم، لكنهم يقرؤونها إذا فتحها شخص آخر.

** بالعبرية بيسيح

*** كما يسمى شابوعت

الذي يستمر يومين. أما العيد الذي يستضيف فيه اليهود أصدقاؤهم، والذي يجذب جموعاً من المتفرجين إلى بيوتهم هو عيد لله (قبة العهد). ويبدأ في اليوم الخامس عشر من تسري (Tesri) الشهر السابع من السنة المقدسة، ويستمر تسعة أيام. وفي هذا الفصل تتسكع النساء في جماعات بين بيوت اليهود لمشاهدة قبة العهد، ونادرا ما يمنعن من الدخول. ويقدم للأشخاص من معارف الأسرة القهوة والحلويات والشرابات، أما الآخرون فينسحبون بعد إشباع فضولهم دون الإحتفاء بهم.

تبنى قبة العهد بطرق مختلفة، وتوضع في أماكن مختلفة حسب حجم ووضع البيت. إذ توضع في بعض الأحيان فوق مصاطب صغيرة أمام الغرف العليا، وتوضع في معظم الأحيان في الباحات. أما في البيوت التي تقطنها عائلات عديدة، فهم ينصبون قبة العهد على الأماكن العالية المسطحة من البيت، لأنه مهما كانت الأسرة فقيرة، فيجب أن يكون لها قبة عهد خاصة بها. وتتمثل الطريقة الاعتيادية في إقامتها، بربط أربعة عواميد رفيعة بزوايا أريكة خشبية، لكي يستند من جميع الجوانب، بشبك من القصب الأخضر، ولا يترك سوى فراغ واحد في المقدمة كمدخل. ويغطى من الخارج بالريحان الطازج، ويعلق في الداخل قماش شيت. ويُغطى السقف بالقصب دون نزع الأوراق عنه، وتوضع أفضل الوسائد والسجاجيد على الأريكة. وتتميز هذه الأرائك الخشبية بسهولة نقلها، ويمكن جمع اثنتين أو أكثر ببعضها.

وفي بعض البيوت الهامة، يقام كشك خشبي دائم فوق مصطبة حجرية في وسط الباحة لهذه الغاية، ويكون مشبكاً ويغطى بسهولة بالقصب وأغصان الريحان. و تكون الأريكة هنا والمعلقات أكثر ثراء، ويزين الباب والنوافذ بأطواق من الأزهار والتزيينات الأخرى المصنوعة من البرق والورق المذهب. كما تستخدم طريقة أخرى لتفادي الأوساخ التي تنجم عن تساقط الأوراق الذابلة، بإقامة كشك مؤقت مؤلف من عواميد صغيرة توضع في الأعلى، وتجعل بأطواق من الأعلى إلى الأسفل ببذور القطن. وتعتبر هذه المعلقات بمثابة الجدران وتغطى جميعها بالحصر.

يجلب القصب المستخدم لقبة العهد من بساتين حلب، أما الريحان فيجلب من أنطاكية، ومناطق أخرى، ويعرض كلاهما بكميات كبيرة للبيع في بحسيتا. كما يجلبون من اللاذقية أو طرابلس على أغصان الحمضيات أو سعف النخيل اللازمة لأداء بعض الشعائر داخل الكنيس. وتصل هذه المواد قبل عدة أيام من بدء العيد، ويوزعها الحاخام: إلا أن اليهود الحلبيين لا يعتبرون أن هذه المواد ملائمة لإقامة قبة العهد. ويُحمل غصن الحمضيات بيد، وغصن النخيل مع بعض أغصان الريحان التي تربط ببعضها باليد الأخرى. ويعتبر الريحان الذي تنمو فيه ثلاث ورقات على الغصين، بدلاً من اثنتين كما هو معروف هو المفضل لهذا الغرض. وبما أن هذه الأغصان نادرة فيتم اختيارها بصعوبة بالغة من كومة الأغصان.

يوجد شجر الصفصاف في حلب بكثرة، إلا أن أغصانه أو أغصان شجرة الزيتون لا تستخدم في نصب قبة العهد، والقصب غير مذكور في العهد القديم. 'عند إحياء ذلك العهد، وجه نحيميا الناس إلى الأغصان التي يجب أن يجمعوها، وسمى بعضها بأسماء مختلفة، وعلمنا أنها أغصان زيتون وأغصان الصنوبر الخ'.

يستضيف اليهود في قبة العهد زواراً من جميع الأديان. ويتناولون طعامهم فيها على الدوام، كما ينامون فيها عادة، إلا إذا كان الطقس بارداً بشكل غير اعتيادي. إذ تكون صباحات وأمسيات تشرين الأول منعشة دائماً، والمرضى غير ملزمين بتعريض أنفسهم لذلك. أما إذا هطلت الأمطار في الليل، علماً أن أمطاراً غزيرة كانت قد هطلت في بعض السنوات،فيحدث اضطراب عام، وذلك لأن أساس قبة العهد لايكون متيناً بحيث لا يمكنه مقاومة العاصفة.

ويبدو هذا العيد في نظر الغرباء أكثر روعة من أي عيد آخر لليهود. إذ يستضيفون الآخرين في بيوتهم، ويرسلون هدايا من أنواع مختلفة من الحلويات إلى أصدقائهم وتتوقف جميع الأعمال.

إن الجو المفعم بالمرح الذي يسود عيد قبة العهد 'عيد لله'، أثار فكرة خاطئة لدى الوثنيين بأنه احتفال يقام على شرف باخوس* ، كما يبدو من فقرة من بلوتارك. وقد رأيت كثيراً من اليهود وهم يحملون أغصان الحمضيات والنخيل بأيديهم وهم يسيرون إلى الكنيس، أما بالنسبة للشعائر التي تمارس داخل بيوتهم كما ذكر بلوتارك فهذا أمر أجهله تماماً.

إن عيد النفير (ويطلق عليه اليهود اسم رأس السنة) الذي يصادف الأول والثاني من تيسري، هو عيد السنة الجديدة اليهودية. إذ تبدأ السنة المدنية اليهودية بشهر تيسري وهو الشهر السابع من السنة المقدسة. وتبدأ السنة المدنية مع ظهور القمر الجديد للاعتدال الربيعي. إن السنة المدنية، التي تنظم على أساسها جميع الأمور السياسية، كانت الأكثر قدماً، وربما كانت نفس السنة البطريركية التي يفترض أنها بدأت أصلاً عند الخليقة (هاناكا). ولا توجد مظاهر خارجية تميز هذا الاحتفال، سوى أنه يمكن سماع الصبية من حين لآخر في المنازل وهم يثنون قرون الكباش.

أما العيدان المتبقيان عند اليهود، فهما ليسا عيدين دينيين. ويدعى الأول دين التكريس، ويستمر ثمانية أيام اعتباراً من الحادي والعشرين من كانون الأول، ولايتمتع بنفس الرسمية كأعياد الموزاييك. أما العيد الآخر فهو عيد بوريم (عيد الفور) الذي يُحتفل به في الرابع عشر والخامس عشر من شهر آذار، ويسبقه صوم سنأتي على ذكره لاحقاً. ويعتبر اليهود يومي بوريم ككرنفال، ويقضونه في مرح وحبور.

تبدأ مواسم الصوم السنوية عند اليهود الحلبيين بالترتيب منذ بداية السنة المدنية بصوم كيداليا في الثالث من تيسيري، ويعقب عيد رأس السنة الجديدة على الفور. ويبدأ الصوم الوحيد لعيد الموزاييك في العاشر من تيسيري (٢٣ أيلول) وهو أكثرها قساوة. ويدوم هذا الصوم أربعاً وعشرين ساعة كاملة. وقلما تمنح النسوة الحوامل أو الأشخاص المرضى، الذين يعفون في مناسبات أخرى، إعفاء من الصوم في يوم الكفارة (صوم كيبور)، ولا يمكن السماح بعدم صوم هذا اليوم إلا لأسباب تعرض حياة الفرد للخطر ويقرر ذلك الطبيب. ويزعم بعض العامة الجهلة من المسيحيين الحلبيين، أن اليهود يضحون في هذه المناسبة في بعض الأحيان بطفل مسيحي يخطف من أبويه.

---

* باخوس: إله الخمر ةالقصف عند الرومان (المترجم)

ولعل القس الإنكليزي بيدولف (Biddulph) يلمح إلى هذه القصة التي لا أساس لها من الصحة في عام ١٦٠٠. 'يتمسك اليهود بجميع أعيادهم وصومهم، ولاتستثنى من ذلك إلا الأضحيات. ومع ذلك فقد اعترف بعضهم بأن أطباءهم يقتلون أي مريض مسيحي أو آخر يقع تحت أيديهم في ذلك الوقت بدلاً من الأضحية'.

أما الصوم الثاني فهو بمناسبة رجوعهم من الأسر. ويتم في اليوم العاشر من تيبث (الذي يقع بين كانون الأول وكانون الثاني) وهو اليوم الذي بدأ فيه الجيش الكلداني حصار القدس (صوم استير). أما الصوم الرابع، فيبدأ يوماً واحداً قبل عيد بوريم في الثالث عشر من آذار.

أما الصوم الخامس والسادس فيكون احياء لذكرى الدمار الذي أصاب المدينة المقدسة. أما الصوم الذي يتم بمناسبة الاستيلاء على المدينة فيكون في السابع عشر من تموز (صوم شيبا عاسار بي تموز)، والآخر في اليوم التاسع من آب بمناسبة حرق المدينة والمعبد (صوم تشعابي آب).

يفرض الصوم المذكور أعلاه على الجميع، ولا يمكن عدم الالتزام به إلا في حالات معينة. كما يوجد نوع آخر من الصوم الطوعي لا يتمسكون به باستمرار. فهناك صوم للمولود الأول (تاعانيت بيحوروت)، وآخر في أيام الاثنين و الخميس لمدة ستة أسابيع في شهري كانون الثاني وشباط (تاعانيت شوبابيم)، وثمة صوم شخصي بمناسبة الذكرى المئوية لموت الوالدين.

إلا أن أكثر أنواع الصوم الطوعي إثارة للإهتمام هو الصوم لمدة ستة أيام كاملة، يمتنع خلالها الصائم عن تناول جميع أنواع الغذاء، ويعاني الصائمون من امتناعهم عن شرب الماء أشد المعاناة، كما أنهم يقلعون عن التدخين الأمر الذي يعتبرونه كذلك مشقة جسيمة، ويسمون هذا الصوم (تاعانيت شابواع). وخلال اليومين الأولين من هذا الصوم، يظهر بعض الرجال منهم في السوق لعقد صفقاتهم، إلا أنهم يعتكفون في بيوتهم بعد ذلك، ويقضون أوقاتهم في قراءة التوراة أو الصلاة. ويعانون خلال اليومين الأولين من الجوع والعطش، إلا أن الإحساس بالجوع يبدأ يخف بعد ذلك، ويعانون من العطش بشكل رئيسي. وبعد اليوم الثالث أو الرابع، يبدون في معظم الأحيان بليدين ومتناعسين، ويصبح بخرهم كريهاً إلى درجة بالغة، وينخفض نبضهم، ويصبح سريعاً جداً حيناً وبطيئاً حيناً آخر. وفي عشية اليوم السادس، وعند انتهاء الصوم، يبللون رمقهم ببضع ملاعق من زيت اللون، ثم يحتسون حساء الدجاج. ثم يعودون إلى تناول الطعام شيئاً فشيئاً، وتمضي فترة طويلة قبل أن يستعيدوا شاهيتهم السابقة.

ذكر في الطبعة السابقة أن جميع اليهود يحاولون هذا الصوم مرة في حياتهم. إلا أنه بعد مزيد من التقصي ثبت أن ذلك غير صحيح، ولا يحاول ممارسة هذا الصوم سوى عدد قليل من الأشخاص المتدينين جداً. ففي أثناء حياة والد الحاخام الحالي، عندما كان أخي في حلب، التزم بهذا الصوم حوالي مائة شخص، إلا أنه منذ وفاة ذلك الحاخام، قل العدد تدريجياً. وخلال إقامتي في حلب، قلما تراوح عدد الذين حاولوا هذا الصوم بين أربعة عشر وعشرين شخصاً في السنة، إلا أن عدداً قليلاً منهم كان قد بدأ الصوم ولم يكمله. وقد علمت أنه أدى هذا الصوم بين عشرين وخمسة وعشرين شخصاً في

حلب في عامي ١٧٧٥ و ١٧٧٦. وأكد شخص كان حياً آنئذ بأنه أدى هذا الصوم سبع مرات. لذلك فإن عدد من يحاولون أداء هذا الصوم قليل جداً، ومن بين أولئك يوجد عدد من الأشخاص لايستطيعون إكماله. ولايعتبر الشخص الذي يتوفى نتيجة هذا الصوم شهيداً، بل شخصاً عنيداً آثماً، ومع ذلك فهم يواصلون غالباً أطول فترة ممكنة، كما لو أنهم يجلبون على أنفسهم سلسلة من الاضطرابات الشديدة، وثبت أن بعضهم لقي حتفه جراء ذلك.

يصوم رهبان دير أثوس (M. Athos) اليونانيون، ثلاثة أيام في بداية الصوم الكبير في أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء. ويصومون حتى الساعة الثالثة أو الرابعة ليلاً، وفي الأسبوع المقدس، وبعد استراحة يوم الخميس، يمتنعون عن الطعام حتى مساء السبت امتناعاً شديداً. وقد انتابت الراهب الذي روى هذه القصة الدهشة لشدة تمسكهم بذلك، ونقل ذلك إلى كبار المسؤولين، لأنهم يفوقون صيام أكثر الرهبان الفرنسيين تشدداً. إلا أن اليسوعيين ستنتابهم دهشة أكبر بكثير عندما يطلعون على الصوم اليهودي.

نظراً لارتباط اليهود في التجارة العالمية إلى حد كبير، فإن صومهم وأعيادهم تكاد تحدث جموداً في التجارة. وهم لايعوقون انطلاق القوافل الكبرى، بل يؤخرون مسيرتها وهي في الطريق. ويضطر الباشاوات والأعيان الآخرون إلى تأجيل إرسال سلعهم عندما تتصادف مع الأعياد اليهودية.

فمن عادة اليهود وهم في الصحراء في القوافل المتجهة إلى البصرة، أن يحصلوا على موافقة من رئيس القافلة (قافلة باشي)، ليجعل القافلة تنطلق يوم الجمعة لكي تستريح يوم الأحد. وتسير القافلة كالمعتاد، وإما أن تحملهم وهي في الطريق، أو يلحقونها ليلة السبت. وعندما تتصادف عطلتهم مع زمن انطلاق القافلة من المدينة، يجدون عادة الوسيلة للسيطرة على القافلة باشي لتأخير انطلاقها حتى انتهاء العيد.

إن تمكن شعب ممقوت جداً، من المحافظة على تعاليم دينية قديمة جداً في وسط عوائق كثيرة ما هو إلا دليل على شدة تمسكه بها، وعن روح التسامح عند المسلمين.

يتزوج اليهود بصورة عامة وهم أصغر سناً من المسلمين. وتعقد خطوبة بعضهم وهم صغار جداً، في حين يخطب آخرون قبل الزواج بأشهر قليلة. وبما أن الزواج من الأقارب مسموح عندهم، فإن الفرصة تتاح لكلا الطرفين لرؤية بعضهما والتعرف على بعضهما مسبقاً، إذا لم يكن الأمر كذلك، تحجب العروس حسب العادات الشرقية.

تقام احتفالات أعراس اليهود بفخامة كبيرة، ويستمر الاحتفال سبعة أيام. وتصحب العروس أمها وقريباتها المقربات، ويحضر الاحتفال أكبر عدد يمكن أن تتسع له الغرفة في المنزل، بالإضافة إلى المدعوات. ولذلك يوجد دائماً عدد من النسوة المسلمات والمسيحيات بين المدعوات. وفي اليوم الأول تعزف فرقة القلعة الموسيقية، ويحضرون في الأيام التالية موسيقيين وراقصين ومهرجين ويعزفون في الحجرة. وكما ذكرنا سابقاً، لايتخذ الرقص أو الموسيقى مهنة لهم إلا أشخاص من الطبقة الدنيا فقط، ويكون لليهود مغنون وعازفون من بني جلدتهم من كلا الجنسين.

تجلس العروس على كرسي ذي مسندين (فوتيل) في وسط إيوان مفتوح، وتشعل ثلاث شمعات رفيعة أمامها. وتغطى بحجاب أحمر من الشاش، يمكن من خلاله تبين

وجهها ولباسها بسهولة. وتطبق جفنيها، وفي بعض الأحيان تطبقهما بشدة، وُتطلى بشرتها عادة بالأحمر، وتضع كل يد من يديها على أحد جانبي إبزيم حزامها. وترتدي ثياباً من الحرير الفينيسي، و بالإضافة إلى المجوهرات المعتادة من الذهب، تزين العروس بأحجار كريمة ولآلئ كثيرة جداً. وتجلس أمها وبعض قريباتها على كراسي على الجانبين، وتقف باقي النسوة وجميعهن محجبات، ويشغلن المكان وراء العروس وجزءاً من الباحة.

تبقى العروس في هذه الحالة معروضة للمشاهدة حوالي ساعة قبل مجيء الرجال الذين يتطلب الاحتفال الديني وجودهم مع العريس في الكنيس. وما إن ينتهي ذلك، حتى يأتوا إلى مكان العروس في موكب يتقدمهم الحاخام الأكبر وحاخامان آخران. وفور دخول الحاخامات إلى المنزل، تتوقف الموسيقى التي كانت تعزف على الفور، ويتقدم الموكب إلى مقدمة الإيوان، وتبدأ مراسم صلاة العرس وتقف العروس ووصيفتاها. وبما أن جزءاً من الصلاة يكون عبارة عن قراءة أو تلاوة ذلك، يصعد العريس يقوده أبوه إلى الإيوان، ويقف إلى جانب العروس على الجانب الأيسر. ثم يقوم الأب بتغطية رأسيهما بالغطاء الصوفي المستخدم عادة في الصلاة، ثم يعود إلى مكانه في الأسفل. وخلال الصلاة (التي تكون طويلة نسبياً) يقدم كأسان مترعان من النبيذ إلى الحاخام، الذي يرمي الكأس على الأرض بعد احتسائه النبيذ. ويختلف هذا الجزء من الاحتفال عن العادات الجارية في أوروبا حسب ليون مودينا الذي يقول إن الحاخام ينشد تبريكات على كأس النبيذ، ثم يقدمه إلى العروس والعريس، أو أنه ينشد ست تبريكات أخرى على كأس آخر يقدم كذلك إلى الزوجين، ويصب ما تبقى من الكأس على الأرض، ثم يعاد الكأس الفارغ إلى الحاخام الذي يكسره على الأرض.غير أن المؤلف يلاحظ أن هذه الشعائر والطقوس أخرى تختلف من بلد لآخر.

وقد قيل لي في حلب بأن العريس يضع الخاتم فوق أول عقد من سبابة العروس، ثم تقوم الأم بوضعه بشكل صحيح. ورغم أني حضرت كثيراً من الأعراس، فلم ألاحظ ذلك.

وفي نهاية الاحتفال، يرفع الحجاب، وينزل العريس من الإيوان، ويتلقى التهاني من أصدقائه. ثم يرافقه أصدقاؤه الذكور في موكب إلى بيته، حيث تكون قد أعدت أصناف كثيرة من الطعام تتألف من فواكه وأنواع عديدة من الحلويات الممتازة. ثم تصل العروس مع مرافقاتها بعد فترة وجيزة، وتستقبلها النسوة بنفس القدر من الترحيب والصراخ، الذي يساهم في إحداث صخب لايحتمل بالإضافة إلى موسيقى القلعة. وتحتفل النسوة في غرف منفصلة عن الرجال، وفي الليل يأخذ العريس عروسه.

تبقى الأم وعدد قليل من قريبات العروس معها حتى نهاية الأسبوع، أما بقية النسوة فيعدن إلى بيوتهن في الليل، ويعدن لزيارتها كما يحلو لهن في الأيام التالية. وتكون تكاليف الزواج باهظة جداً فضلاً عن الثياب. فبالإضافة إلى استضافة عدد من الضيوف لمدة سبعة أيام، يتم توزيع الأطعمة على الفقراء.

يؤكد ليون مودينا (Leon Modena) أنه يتعين على اليهود الزواج بين سن الثامنة عشرة والعشرين. أما في حلب فهم يتزوجون في سن أبكر، ويتزوج جميعهم (مهما بلغوا من الفقر). وتعدد الزوجات نادر بين اليهود. ولا يحدث إلا في حالة عقم المرأة، أو

الرغبة في إنجاب طفل ذكر. ومن الشائن أن يتزوج الرجل زوجتين دون أي عذر آخر. وخلال وجودي في حلب، لم يتجاوز عدد الأشخاص المتزوجين من أكثر من زوجة أكثر من عشرين شخصاً. وقد صادفت حالتين أو ثلاث حالات، تزوج فيها أشخاص من طبقة دنيا زوجة ثانية بسبب عقم زوجاتهم، إلا أنهم عانوا الأمرين بعد أن حملت كلا الزوجيتن. وفي إحدى الحالات الخاصة، استمرت الزوجتان ولسنوات عديدة في إنجاب طفل كل خمسة عشر شهراً، الأمر الذي اعتبره العبري المتدين عقاباً ربانياً لعدم ثقته بالعناية الإلهية.

تواصل الخادمات اليهوديات المتزوجات خدمتهن في البيوت حتى ينجبن أولاداً، ويستخدمن في الغالب كمرضعات في أسر أسيادهن السابقين. وفي الغالب تطلب اليهوديات مساعدة مرضعات أكثر مما تطلبه المسيحيات من نفس الطبقة. وقلما يواصلن إرضاعهن لطفلهن، وخاصة إذا كان ذكراً، بعد أن يتأكدن أنهن حوامل. وإذا لم تكن ثمة عوائق أخرى، يواصلن إرضاع الطفل بين ثمانية عشر أو عشرين شهراً. ويبدا لي أنهن ولودات أكثر من المسلمات أو المسيحيات، إلا حسب معلوماتي فإن نسبة كبيرة من أطفالهن يموتون وهم رضع.

لعل العلاقات السرية بين الفتيات اليهوديات أكثر شيوعاً مما هي بين المسيحيات: ولايعزى ذلك لأنهن أقل عفة، بل لأن الفرصة متاحة لهن أكثر، فهن أكثرتعرضاً للإغراءات، ويحول الفقر دون زواج الفتيات في وقت مبكر. إن الخوف من العقاب يجعل الجميع يحرصون على كتمان الأمر، فعندما تحمل فتاة طفلاً، إما أن ترسل إلى بلدة أخرى لكي تلده هناك، أو توفر لها العائلة زوجاً في الوقت المناسب لإنقاذ سمعتها. ويبدو أن علاقاتهم غير الشرعية محصورة ببني جلدتهم، وذلك لأن الأمراض الجنسية نادرة بين يهود حلب، رغم شيوعها أكثر بين المسلمين والمسيحيين.

يؤمن اليهود أكثر من السكان المحليين الآخرين بوجود العين الشريرة، وتأثيرها في تفشي بعض الأمراض. إذ تعزى الأمراض من النوع الهستيري كالصرع، والجنون إلى الأرواح، وفي حالات كهذه، فهم لا يثقون تماماً بحاخاماتهم، بل يلجؤون إلى المشايخ المسلمين لكي يقرؤوا لهم بجانب سرير المريض، واتباع أساليب متعددة في تحضير الأرواح. وشأن المسلمين يؤمنون كثيراً بالتنجيم، ويؤمنون كثيراً بالدجالين الإفريقيين ممن يجيدون السحر ويجولون في الشوارع للكشف عن الطالع والحظ. ومن بين عدد كبير من العادات الخرافية التي تمارسها النساء، فإن العادة التالية أكثرها شيوعاً. إذ يربطن قطعة صخرية صغيرة من الألمنيوم فوق طاقية (لباس رأس) أطفالهن لحمايتهم من تأثير العين الشريرة. ويزعمون أن الألمنيوم يحول دون إحداث الأذى الذي ينقسم إلى قسمين، فينجو الطفل دون تعرضه للأذى. ولايمكن بأي شكل من الأشكال إقناع الكثيرين، الذين يكونون في أحوال أخرى جيدين، بأن الألمنيوم إذا ما عرِّض بهذه الطريقة، أصبح قابلاً للانقسام بتأثير الطبيعة؛ ويرجعون إلى التجربة ولديهم دائماً عدد من الأمثلة الجاهزة لإثبات فعالية هذه التعويذة.

يقوم بعض اليهود بزيارة القدس، إلا أن هذه العادة غير شائعة. ويحج كلا الجنسين إلى قرية تادف* (حيث يزعمون أن عزرا مدفون فيها).

لا يعتني أحد من الشرقيين بالمصابين بأمراض مزمنة في الشرق كما يفعل اليهود. وتأخذ قريبات المريض على عاتقهن مهمة العناية به. ويطعن التوجيهات التي تقدم لهن بدقة، ويقدمن تفاصيل دقيقة عن حالة المريض أثناء زيارة الطبيب. ويقدم الحاخامات عزاءً روحياً للمرضى، وقد شوهدوا في بعض الأحيان، وهم يرفقون صلواتهم بالطقس التالي الذي يبدو غريباً وسطحياً: يجلس الحاخام بالقرب من السرير وبيده سكين، تعلق على طرفها قطعة صغيرة من الخبز. وبعد أن يتفوه بعدة كلمات، يقربها من صدر المريض، حيث يبقيها فترة من الزمن، ثم يوجهها إلى خصره ثم إلى معدته وبطنه، ويدمدم الحاخام خلال ذلك بكلمات غير مفهومة.

تندب النساء عند وفاة أحدهم، ونادراً ما تستأجر نادبات للمساعدة في إطلاق الولاويل. ويُحمل الجثمان إلى المقبرة في نعش مغطى، لايرافقه إلا الرجال، أما النساء فيبقين مجتمعات في بيت المنكوب.

تزور النساء المقبرة في صباح اليوم التالي من الجنازة، وفي صباح اليوم السابع والثالث عشر. ويذهب بعضهن إلى المقبرة صباح أيام الأسبوع الأول. وفي هذه المناسبات، لا يقل صراخهن عن النساء المسلمات. ويخرجن في آخر زيارة في الذكرى السنوية للجنازة. أما الرجال فيزورون المقبرة في اليوم السابع، ومرة أخرى عند انتهاء السنة. هذه هي العادات السائدة، رغم عدم التمسك بها بشدة. ويزور الأقارب قبور الأحبار الذين يحظون باحترام صباح كل يوم جمعة لمدة اثني عشر شهراً.

يدخل كلا الجنسيين شيئاً من التغيير في لباسهم أثناء الحزن. فلا ترتدي النساء حليهن. أما الرجال فيجعلون شقاً صغيراً في ثوبهن الخارجي.

---

* تادف الباب: بلدة بالقرب من حلب (المترجم)

الملاحظات

(١) يعزو اليهود سببين لأقدمية مخطوطة الكتاب المقدس الموجودة في كنيسهم في حلب. الأول، اتفاق أحبارهم وقبولهم المطلق لسلطة قراءاتهم المختلفة للفقرات المثيرة للجدل: وهم يوردون أمثلة عن قدوم أفواج من أوروبا للرجوع إليها. والآخر، أنه توجد في نهاية المخطوطة صلاة لحفظ المعبد ويزعمون أنها دونت قبل حملة تيتوس، لأنه بعد تلك الفترة، أصبحت صلاتهم توجه لاستعادة المعبد في القدس وليس لحفظه.

(٢) يدعى كبير الكهنة عند اليهود في حلب عادة الحاخان (الحاخام) الكبير كوهين. ويستعمل اليهود المحليون دائماً كلمة خاخان بالعربية. أما اليهود الإفرنج فيستعملون كلمة رابينو، ويتبعهم في ذلك أشخاص آخرون ممن لديهم معرفة ضئيلة باللغة البرتغالية.

(٣) اليوم السابع. توجد للكلمة العبرية شابات (السبت) عدة اشتقاقات رغم استعمالها في الكتاب المقدس بمعنى ضيق جداً لتعني اليوم السابق الذي كرسه الله لخدمته. 'إن كلمة شابات التي اشتقت منها كلمتنا الانكليزية Sabbath تعني الراحة، وتطبق على جميع الأعياد، إلا أنها تستخدم بشكل رئيسي لتعني اليوم السابع (Godwyn ص٩٧) و Jennings (المجلد الثاني ص١٩٨).

وقد ورد أول ذكر للشابات اليهودي في كتاب الخروج، ولعل الالتزام بهذا اليوم لم يكن جديداً على اليهود، إذ يبدو أن توقفهم عن العمل بشكل تام، واليوم المحدد الذي يلتزمون به من التعاليم الجديدة (Jennings المجلد ٢ ص١٤٦).

'لقد أثير الجدل بين اليهود والمسيحيين فيما إذا كان الشابات قد فرض بعد الخلق مباشرة ومنح لآدم وحواء في الجنة؟ أو فيما إذا كانت مباركة الرب لليوم السابع وتقديسه، الذي يذكره موسى حول استراحة الرب في اليوم السابع عندما انتهى من الخلق. يفهم منه أنه عين ذلك اليوم يوماً للراحة'.

الفصل الرابع
عن الوضع الحالي للأدب في حلب

مدخل إلى الآداب عند العرب- إهمال الأتراك للأدب- إحياؤه نسبياً في هذا القرن- الكتاتيب- المدارس- المكتبات- المخطوطات التي يجمعها بعض التجار- علم اللغة- علم الكلام- علم الفقه- علم الفلك- علم التنجيم (النجامة)- السحر .. الخ- الرياضيات- التاريخ الطبيعي- التاريخ والجغرافيا- الشعر.

لم يبدِ العرب في بداية عهد الخلافة الإسلامية اهتماماً كبيراً بالدراسات التي تتناول غير اللغة العربية والشريعة. ويُذكر أن الطب كان قد حظي بشيء من الشهرة، إلا أنه لم يطرأ تقدم هام عليه لفترة طويلة، إلا عندما بدأت كتب الأطباء اليونانيين القدامى تترجم إلى اللغة العربية.

ولم تبدأ العلوم والمعرفة بالظهور إلا عندما انتقلت الخلافة إلى بني العباس في حوالي منتصف القرن الثامن، ويعود فضل إدخال الفلسفة والعلوم الأخرى بشكل عام إلى المنصور، الخليفة العباسي الثاني. وواصل الخلفاء من بعده تشجيع رجال العلم والمعرفة، وخاصة هارون الرشيد الشهير. كما كان ابنه المأمون، الذي تبوأ الخلافة في سنة ٨١٣، أكبر راعٍ للعلم والمعرفة عند العرب. فقد بذل جهداً كبيرا، وأنفق أموالاً باهظة لجمع كتب الإغريق، وشجع الأشخاص القادرين على ترجمتها إلى حد كبير. ومنذ تلك الحقبة، أخذ العباقرة ورجال العلم من جميع البقاع يفدون إلى بغداد، وانتشرت روح العلم والمعرفة بسرعة كبيرة في أرجاء الخلافة الإسلامية.

كما واصل عدد كبير من الأمراء، ممن أقاموا دويلات تكاد تكون مستقلة عن بغداد عند أفول الخلافة، رعاية العلم. ويحظى الأمراء في سورية بنصيب هام في هذا الشرف المميز. واستمرت العلوم نشطة في عهد الأتابكة، والفاطميين والأيوبيين، ليس عندما كانوا منهمكين في الخلافات المحلية فحسب، بل حتى في غمرة أكثر ويلات الحرب المقدسة* ضراوة؛ وبعد إلغاء الخلافة في ١٢٥٨م، كان العلم لايزال يحظى بتشجيع الأمراء المماليك الذين حكموا مصر (التي كانت سورية آنئذ إحدى مقاطعاتها) لفترة دامت مائتين وخمسين سنة، وحتى قيام السلطان سليم بإخضاع مصر تماماً في أوائل القرن السادس عشر(١).

لم يكن للأتراك العثمانيين في بداية نشأة إمبراطوريتهم، وهم قوم قساة يحبون الحرب، وقت كبير لتشجيع الأدب. ومنذ تأسيس إمبراطوريتهم في أوروبا، لم يبدوا رغبة كبيرة في تشجيع العلم والمعرفة، لذلك قلما أضافوا إلى التراث المنقول عن العرب. حتى

* يقصد المؤلف الحروب الصليبية (المترجم).

إنهم لم يبذلوا جهداً كبيراً في جمع المخطوطات العربية، التي كانت متناثرة في الأقاليم التي كانوا قد فتحوها مؤخراً، بل تركوها تتلف أو تنقل إلى بلدان أخرى لا تفهم اللغة المكتوبة بها نتيجة إهمالهم.

إن عدد المخطوطات الشرقية المحفوظة في المكتبات الأوربية كبير جداً. فبالإضافة إلى المخطوطات المحفوظة في الفاتيكان وفي عدة مكتبات خاصة في أوروبا، تحتوي الفهارس الموجودة في ليون وباريس وفلورنسة والإمبراطورية (البريطانية) على عدد يتراوح بين سبعة وثمانية آلاف مخطوطة.

تمتلك مكتبة بودليان (Bodlean) في أكسفورد عدداً يتراوح بين ألفين وثلاث آلاف مخطوطة، وتحتوي المكتبات الأخرى في بريطانيا (التي وقعت فهارسها المطبوعة في يدي) على أكثر من ثلاثمائة أو أربعمائة مخطوطة. ويبلغ عددها الإجمالي أكثر من أحد عشر ألف مجلد، معظمها باللغة العربية. ويرد في الملحق قائمة مقارنة مختصرة عن المجلدات الموجودة في تلك المكتبات، التي سيتبين منها للقارئ القدر الهائل من المؤلفات التي كتبت في الفلسفة والشريعة وعلوم الدين، أما كتب الطب، فلا يكاد يصل عددها إلى سبعمائة مخطوطة.

مهما بدا أن أعداد مجموعات المخطوطات الموجودة في أوروبا كبيراً، فهي لا تقارن بالكم الهائل الذي كان موجوداً في المكتبات العربية الإسلامية القديمة. إذ يقول رينودوت (Renaudot) أنه عند أفول الخلافة الفاطمية في مصر في سنة ١١٧١، وجد صلاح الدين مكتبة ضخمة تحتوي على مائة ألف مجلد عندما استولى على الخزينة الملكية ؛ ويذكر كاسري (Casri) أن المكتبة الملكية في قرطبة (إذا صح قول المؤرخين العرب) كانت تضم ستمائة ألف مجلد في القرن العاشر. ويقول رينودوت إنه كان لدى شخص يدعى حاجي خليفة من الأستانة في القرن الماضي مكتبة تحتوي على أكثر من أربعين ألف كتاب[٢] .

يقال، ولعل ذلك صحيح، إن الأعيان الأتراك أخذوا يبدون اهتماماً بالأدب في النصف الأخير من هذا القرن أكثر من أي وقت مضى. إلا أن الأمثلة مازالت شائعة عن باشاوات وضباط كبار آخرين لا يفقهون القراءة أو الكتابة. وقد كان ذلك حال محصل حلب، الذي استمر في ذلك المنصب سنوات عديدة. وكان من الأمور المثيرة للاستغراب والدهشة بالنسبة للشخص الأوروبي أن يرى رجلاً في ذلك المقام، وهو مضطر دائماً لأن يرسل في طلب سكرتيره لكي يقرأ له رسالة رسمية، أو أن يطلب من شخص موجود في صحبته أن يفك له رموز أحرف كلمات نصب أثري. وكان العديد من الباشاوات الأكبر سناً أميين تماماً تقريباً. وعلى عكس ذلك، فقد كان من بين الباشاوات الأصغر سناً ممن يزعمون ولوعهم بالأدب، وكانوا يظهرون في لقاءاتهم وهم محاطون بالكتب والأوراق. وكان شيتيجي باشا بشكل خاص يكتب بخط جميل جداً، وكان يعلق نماذج من خطوطه في إطارات في الغرفة التي يستقبل فيها الوفود.

إن أسلوب الكتابة الرسمية، والرسائل الإطرائية أبعد مايكون عن اللغة المتداولة، بحيث يبذل الشخص الذي يكتبها، جهداً كبيراً لدراساتها لكي يتخذ منها مهنة له؛ وهكذا فقد كان من الطبيعي أن يهمل الأعيان إنجازاً كانت العادات القديمة تخصصه لمسؤول

أدنى وهو السكرتير؛ إلا أنه رغم أن عدداً قليلاً منهم بوسعه الكتابة، فإن بوسع الكثيرين قراءة اللغة على الأقل. كما أن عدداً كبيراً من التجار المسنين أميون تماماً، إلا أن معظم أبناء الجيل الصاعد الذين يعملون في هذه المهنة، أخذوا يتعلمون بشكل يكفي لكتابة مراسلاتهم الخاصة، رغم أنهم في بعض الأحيان يلجؤون إلى الكتبة في الأمور الأخرى.

يوجد بالقرب من بعض الجوامع الرئيسية كتاتيب لتعليم الصبية. والمعلمون هم مشايخ يحصلون على رواتب ثابتة، بالإضافة إلى مبلغ يدفعه التلامذة، كل حسب إمكانياته. وعندما يجلس الصبية في الكتّاب، يمكن رؤيتهم عبر نوافذ كبيرة مفتوحة على الشارع، وعندما يقرؤون سوية بصوت عالٍ، يمكن سماع أصواتهم وهم يرددون الدروس من مسافة بعيدة. ويحركون أجسامهم إلى الوراء والأمام بشكل متواصل وهم يقرؤون، وهو أمر شائع كذلك عندما يقرأ الرجال القرآن. ولا يسمح للتلاميذ بالتسكع في الشوارع وحدهم، بل يؤخذون إلى الكتّاب ومنه، سواء بواسطة خدم أو المعلم نفسه، الذي يجوب البيوت لكي يطّلع على سلوك تلامذته في البيت. وهو يحظى باحترام شديد، وتهدد النسوة أولادهن إذا لم يحافظوا على الهدوء بإبلاغ الشيخ.

أما المدارس المخصصة للطلاب الأكثر تقدماً فهي قليلة جداً. ويتألف بناؤها عادة من غرفة للقراءة، ومكتبة، وشقة للشيخ، ويوجد في بعضها غرف ذات أسرّة للطلبة، ويدفع لهم كذلك مبلغ ضئيل. علماً أن مرتب الشيخ أو الأستاذ ضئيل جداً. وفي السابق، كان عدد المدارس في حلب أكبر، وحالتها أفضل بكثير مما هي عليه الآن، إلا أن عوائدها تحولت مع الزمن لأغراض خاصة بالغش والاحتيال. ومازال تأسيس الكثير من هذه المدارس مدوناً في الكتب. فقد كتب ابن الشحنة (الحلبي) تاريخاً عن المدينة، خصّ فيه بالذكر، بين أمور أخرى، الجوامع والكنائس والمدارس والمؤسسات الخيرية الأخرى. وفي حوالي عام ١٧٦٥، أنشأ أحمد أفندي مدرسة جديدة* قرب جامع أخيه عمر أفندي. وكان قد جمع عدداً من الكتب خصصها للمكتبة وأنفق في سبيل ذلك أموالاً طائلة.

وأصبحت المدارس الحديثة كهنوتية تعلم التحذلق** والخرافات أكثر مما تعلم العلم نفسه. ويرتادها بشكل رئيسي المجدّون من الطبقة الفقيرة الذين يكرسون أنفسهم لخدمة الجامع. كما يحضرها في بعض الأحيان صغار الأفندية، إلا أنهم بعد عمر محدد، يصبح لهم معلمون خصوصيون في البيت. ويُدرس في هذه المدارس النحو وعلوم الدين بشكل رئيسي

وعلى غرار المساجد، يشيد الأغنياء في معظم الأحيان الكتاتيب والمدارس لدوافع دينية حقيقية، أو للتكفير عن ذنوب ارتكبوها. ويوجد للعثمانيين دافع آخر لبناء المؤسسات الخيرية تتمثل في حق تسمية الأوصياء، حيث يضعونها تحت سلطتهم لضمان عائد محدد لعائلتهم، وهو أمر مقدس بالنسبة للباب العالي***

اعتاد الأفندية على الأقل على الاستمرار في التظاهر بإبداء احترامهم للعلم

* المدرسة الأحمدية بجانب جامع البهرمية (المترجم).

** أي التعلم من بطون الكتب دون الالتفات إلى الخبرة العملية (المترجم).

*** يدخل هذا البحث ضمن مبدأ 'الأوقاف' وهو بحث طويل وهام (المترجم).

والمعرفة، إلا أنه لا توجد لديهم فكرة متحررة عن العلم. فهم يظلون بعيدين عن التجربة، ويقنعون أنفسهم بتكاسل بما يجدونه في طيات الكتب، ويعتبرون أن كل حقيقة تقريباً وكل رأي يمكنهم إبراز مرجع مكتوب عنه، أنه حقيقي. ومن بين الملكات التي منحتهم إياها الطبيعة، فهم لايستخدمون سوى الذاكرة، أما الملكات الأخرى، فإما أن تصدأ بسبب عدم استعمالها، أو تستخدم لأغراض بعيدة عن الأدب.

يملك بعضهم، حسب معايير هذا البلد، مجموعة كبيرة من الكتب، إلا أنه يجدر التنويه إلى أن عدد المجلدات الموجودة في أي مكتبة في حلب، يمكن احتواؤها في رف صغير واحد بسهولة. وعادة ما تكوم الكتب التي توجد عناوينها على جانب الأوراق، فوق بعضها بعضاً. وهم يعتقدون أن طريقة ترتيب الكتب بهذا الشكل تحفظها من الغبار بشكل أفضل. إلا إنه يتعذر سحب الكتاب الموجود في الأسفل بسهولة.

أصبح جمع الكتب مؤخراً موضة بين التجار الأثرياء، وبما أن هذه الكتب تحفظ بعناية فائقة، فإنه يصعب على الأشخاص الحصول عليها للرجوع إليها. وفي الوقت نفسه، فقد أدت هذه الموضة (القائمة على أساس التباهي بامتلاك الكتب) إلى ارتفاع أسعار المخطوطات، لأن المشايخ الذين كانوا في الماضي هم الفائزين الوحيدين بها في المزادات، والذين لم يعد بوسعهم مجاراة المنافسين الأغنياء، فقد استبعدوا كمقتنين للكتب إلى درجة كبيرة.

إن تكلفة نسخ المخطوطة الواحدة مرتفع جداً، علماً أن الكتبة لا يكسبون كثيراً من هذا العمل بشكل يمكنّهم من العيش حياة لائقة. إذ أن الورق المستخدم مستورد من فرنسا وإيطاليا ويُصقل في حلب، والحبر الذي يستخدمونه كثيف كحبر الطباعة، وأقلامهم العادية من القصب داكنة اللون مائلة إلى الأحمر، وهي أغلظ نوعاً ما من القصب العادي.

عند الانتهاء من إعداد أية مخطوطة، جرت العادة على دعوة عدد معين من المشايخ والأفندية لحضور قراءتها. ويحضر كل شخص ومعه نسخة من الكتاب الذي سيتم جمعه، مع حامل وقصبة (قليان). وعندما يبدأ أحدهم قراءة المخطوطة الجديدة بصوت عال، يثبّت الآخرون عيونهم بتركيز شديد على مخطوطاتهم. ويتم تصويب الأخطاء الصغيرة، أو حذف الأمور المتعلقة بالتنقيط بسرعة أثناء القراءة دون مقاطعة القارئ، أما إذا عثر على أخطاء أكثر أهمية، أو حدثت قراءات متعددة، فيضعون كتبهم، ويملؤون قليانهم، ويتابعون مناقشة الأمر باهتمام. وفي هذه الحالة، قد تأخذ المناقشات والاستطرادات شأواً بعيداً، وهكذا يتقدم العمل الرئيسي الذي حضر الجميع من أجل مناقشته ببطء في معظم الأحيان.

يمضي المتعلمون وقتاً كبيراً في دراسة اللغة العربية، ويواصل الأفندية المجدون في بعض الأحيان دراستها خلال النصف الأول من حياتهم على يد معلميهم القدامى. ويختلف لفظ اللغة العربية الفصحى كثيراً عن اللغة العامية، لأنها تقرأ دائماً بفصاحة ووضوح؛ وبالإضافة إلى نطق الأحرف الصوتية بوضوح شديد، فإن لفظ اللغة العربية يكون رائعاً بسبب ما يسمى بالتنوين، ويكون بتكرار الحركات الصوتة عند نهاية الكلمات كما لو أنها منتهية بحرف 'نون'. وهكذا فإن كلمة 'رجل' التي تكتب وتلفظ

بشكل عام دون التنوين، تصبح في لغة المتعلمين منونة وتقرأ 'رجلٌ'، أي بتكرار الضمة (ويسمى التنوين) فيصبح لفظها وكأنما أضيفت إليها 'النون'*(٣)

ويوجد لديهم عدد كبير من الكتب التي تتناول علم اللغة الذي يبدو أنه علمهم المفضل. وبالإضافة إلى المعجمين الكبيرين، الصحاح والقاموس** ، يوجد لديهم عدد مختلف من النسخ المختصرة الحديثة.

يشكل علم الكلام وعلم الفقه (٤) اللذين يتناولان دراسات دينية وتفاسير كثيرة جداً حول القرآن والسنة، المواضيع الرئيسية الإسلامية. والكتّاب الأقدمون الذين كتبوا في هذه الفروع من المعرفة كثيرون، وبما أن الموضوع قد أشبع دراسة، فقد انصرف الطلاب المحليون إلى جمع آراء وأفكار السلف، دون أن يجرؤوا على تصويب الأخطاء، أو حذف أي شيء من هذا الكم الهائل من الكتب. وبإلقاء نظرة عابرة على المؤلفين المشار إليهم في الملاحظة السابقة، يمكن تبين المدى الواسع المفتوح أمام علم الكلام الإسلامي. وعند إلقاء نظرة على فهرس (كتالوج) المخطوطات الشرقية المحفوظة في مكتبات عديدة في أوروبا، سيجد القارئ أن الطالب المتضلع في الشريعة الإسلامية، يجب أن يكتسب معرفته بعد الرجوع إلى عدد كبير جداً من المجلدات. ويبدو أن الكتب المتعلقة بعلوم الدين والشريعة تحفظ في حلب بعناية أكثر من الكتب التي تتطرق إلى التاريخ أو المواضيع الأخرى، إلا أنه إلى أي مدى تجري دراستها، فهذا شيء لم أتمكن من الحكم عليه.

من بين الأئمة الإسلاميين الأربعة، مؤسسي المذاهب السنية العديدة التي ماتزال تحمل أسماءهم، فإن أبا حنيفة بن ثابت هو أكثرهم شهرة في سورية، رغم أن الآخرين يحظون باحترام بالغ كذلك. وقد توفي في بغداد في سنة ٧٦٧ م. ويطلق على الأحناف (أتباع أبي حنيفة) أصحاب الرأي تمييزاً لهم عن المذاهب الثلاثة الأخرى، الذين يولون اعتباراً كبيرا في قراراتهم الشرعية إلى أحاديث الرسول وأصحابه(٥) .

أصبح علم الفلك*** (الهيئة) علماً في غاية الأهمية بعد أن كان علماً مفضلاً جداً عند العرب. ولازالت كتب عديدة محفوظة حول هذا الموضوع في المكتبات، كما يوجد لديهم بعض الأدوات، إلا أنه لا يعرف سوى النذر القليل عن هذا العلم في حلب، بحيث أنه خلال فترة إقامتي فيها، لم أعثر إلا على شخص واحد بوسعه حساب الخسوف، ونتيجة لذلك كان يتمتع بسمعة واسعة كفلكي عظيم.

---

* مثل رجل 'رجلٌ'. أنظر المزيد حول هذا الموضوع حول نهايات الأحرف الصوتية.

**– الصحاح: قام بترجمته Golius في قاموسه بالعربية واللاتينية. وقد توفي المؤلف في سنة ١٠٠٧ ولُقب بأبي نصر إسماعيل بن أحمد الجوهري.

– القاموس: كان قاموس المترادفات الذي كتبه العلامة Giggeus قد جمع أساساً من هذا القاموس العربي. واسم مؤلفه محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروز آبادي، وتوفى عن عمر يناهز التسعين في سنة ١٤١٤. يتحدث مؤلف القاموس عن قاموس ضخم اسمه 'اللامع' Lama يحتوي على ستين مجلداً وكتب قبل الصحاح الذي يذكره كذلك. وفي فهرس مكتبة الإسكوريال ، يرد ذكر قاموس أقدم بكثير من القاموسين أعلاه، وُيعتقد أن مؤلفه توفي في حوالي ٦٩٣ م.

*** (Astronomy) يسمى علم الفلك باللغة الأدبية علم الهيئة، أما باللغة العامية فلا يميزونه عن علم النجوم (Astrology)، وهو العلم الذي يبحث في النجوم، ويطلق على العالم المشتغل بأي منهما 'منجّم'.

قبل دخول المعرفة اليونانية إلى بغداد، لم يكن علم الهيئة يستحق أن يطلق عليه اسم علم عند العرب، إلا أنه بعد تلك الفترة، أصبح الدراسة المعتادة لديهم. وبرعاية الخليفة تم إحراز تقدم كبير في هذا العلم. وقد تميز الخليفة المأمون في ذلك الفرع من العلم على نحو خاص، لكونه مؤلف الجداول الشهيرة التي يذكرها Fragamus في كتابه 'عناصر علم الفلك'. إلا أنه بالرغم من المساعدة التي استمدها من الإغريق، يقال إنهم لم يحققوا نجاحات كبيرة!

مازال علم أحكام النجوم* يحظى بأهمية كبيرة في الشرق، ويستغل المدّعون بمعرفة هذا العلم دائماً سرعة التصديق الشعبية. إذ يوجد دائماً عالم نجوم بين أتباع أحد الأعيان. ولا يبدو أن رجال الدين يجادلون في صحة هذا العلم، رغم أن الناس يقعون فريسة لخداع الدجالين. ويدّعي علماء النجوم أنه بوسعهم التنبؤ بالأحداث القادمة من دراسة الأبراج، والتنبؤ بالحروب والأوبئة والكوارث العامة الأخرى؛ إلا أنهم يعرفون مبادئ العلم الذي يدعون معرفته معرفة سطحية، ويتحدثون عن أبي معشر** (Albumasar) بالإضافة إلى مؤلفين آخرين من الأوائل، إلا أنه لم تتح لي فرصة الإطلاع على أعمالهم*** . ورغم أن تقاويمهم (رزناماتهم) مكتوبة بشكل أنيق جداً، فإنه قلما يتم ذلك في حلب، وهي إما أن تجلب من الأستانة أو من القاهرة. وهي مدونة على لفافات طويلة وضيقة من الورق، بحبر مختلف الألوان، تكون مقسمة إلى أعمدة مختلفة تضم أيام الشهر الإغريقية والعربية، وأيام الأسبوع، ورسوم الأبراج. ويخصص عمودان آخران للملاحظات الفلكية، وأيام السعد وأيام النحس، وقواعد حفظ الصحة إلى ما هنالك، وفوق كل تلك الأشياء، توجد الأبراج الفلكية للسنة بكاملها. إذ يوجد للشروع في رحلة، أو البدء في أي عمل، بل حتى لفصد الدم أو تناول دواء، أيام محددة مفضلة من أيام الأسبوع. وهذا التمييز الخرافي بين أيام بيضاء وأيام سوداء، رغم عدم تمسك المسلمين به بشدة، شائع إلى حد ما بين جميع الحلبيين.

يمارس علم السحر بطرائق مختلفة عن (علم الرمل) وذلك لأن العلماء (رجال الدين) لايقرون بعلوم الغيبيات (كالتنجيم والبخت)، كما أن النبي محمداً (ص) حرّم علم التنجيم، الذي كان شائعاً جداً عند العرب الوثنيين.

* رغم إمكانية خلط علم (صناعة) أحكام النجوم بنفس اسم علم النجوم، فيمكن تمييزه في بعض الأحيان بدقة أكبر بـ 'علم صناعة أحكام النجوم'. ويقدم رينودوت ملاحظة ممتازة عن رجاحة الشرقيين في علم أحكام النجوم

** أبو معشر: (٧٨٧-٨٨٦م) فلكي ومنجم عربي. يعتبر أكبر المنجمين المسلمين غير منازع (المترجم).

*** إن اسم العالم الفلكي المشهور هذا هو جعفر بن محمد بن عمر أبو معشر البلخي، وقد يقدم مثالاً عن الخلط عند نقل الأسماء من لغة أجنبية، إذ أن Alumasar، الذي يُلفظ بالإنكليزية بهذه الطريقة، لن يفهمه القارئ في الشرق، لأنه لن يظن أحد بأن أبا معشر هو الشخص المقصود. ويمكن الإطلاع على قائمة بأعمال هذا المؤلف في فهرس الإسكوريال، بالإضافة إلى نبذة عن حياته بقلم أحد المؤلفين العرب. ولا يذكر تاريخ وفاته، إلا أنه يقال بأنه عاش حتى المائة، وإذا كان قد توفى كما يظن في سنة ٨٨٥، فلا بد أن يكون قد ولد قبل خمسة عشر سنة من الزمن الذي ذكره Herbelot.

من بين جميع أنواع السحر الأخرى، يحظى تأثير العين الشريرة باهتمام عام تقريباً. فهم يعتقدون أن الأطفال وصغار الحيوانات معرضون بشكل خاص لتأثير العين الشريرة، ولذا يتم تزويد الأطفال بتعاويذ عديدة لحمايتهم وتحصينهم منها. وبسبب الخوف من العين الشريرة، لايسمح الفلاحون لأي شخص بالدخول إلى الغرف التي تتغذى فيها دودة القز إلا على مضض.

لم يكن الإغريق والرومان أقل إيماناً بهذه الخرافات من الشرقيين في هذه الأيام. ومن بين أمور كثيرة، فهم يؤمنون بها في سورية، إذ سمعت قصة عن كردي مات مؤخراً، بأنه كان يكسر مزهرية كبيرة من الكريستال بمجرد النظر إليها من مسافة معينة. وليس من اللائق التشكيك في صحة هذه القصة في هذه السياق. يقول بلوتارك "إن أشياء كثيرة جداً واضحة لنا تماماً إلا أننا لانتبين أسبابها".

إن الاعتقاد الشائع بالسحر وتأثير الإيمان والغيبيات (التنجيم والبخت) المختلفة، يجعل الاعتقاد بالطلاسم والأحجبة أمراً طبيعياً. ويقر الاعتقاد الديني ببعض هذه الخرافات، ويستعملها جميع السكان الحلبيين على مختلف مشاربهم. ويتألف الطلسم من بعض الأحرف المحفورة على قطعة من الحجر أو المعدن أو أي مادة أخرى، أو تكتب على قصاصة من الورق. ولا يتعين حملها دائماً لكي تكون فعالة، بل يمكن وضعها في أماكن خاصة للحصول على النتائج نفسها. وهي تختلف عن الحجاب الذي يعلق على الجسم دائماً.

رغم أن المسلمين يلجؤون غالباً إلى التعويذات أو الرقى، إلا أنهم يبدون اهتماماً بالطلاسم أقل من بعض الشعوب الشرقية الأخرى، وهم لا يؤمنون كثيراً بهذه المعتقدات الخرافية. إلا أنه توجد لديهم تعاويذ لحمايتهم من العناكب والثعابين والبق والهوام الأخرى؛ وثمة تعويذة لحماية البيوت من البعوض، ويجدر بأن نخصها بالذكر هنا. إذ تتألف هذه التعويذة من بعض الأحرف غير المقروءة، مدونة على قصاصة صغيرة من الورق، وتلصق على عتبة الباب العليا، أو فوق النوافذ. وتُعد هذه التعويذة منحة إلهية تنتقل بالوراثة في إحدى العائلات، التي تقوم بتوزيع قصاصات الورق مجاناً في يوم محدد من السنة، ويقوم عدد من أكثر الأفندية وقاراً بكتابتها قبل اليوم المحدد. وفي الصباح الباكر من ذلك اليوم المعهود يتقاطر الناس إلى بوابة البيت، ويُعطى كل واحد منهم ورقة مع كمية من اللاصق يكفي لتثبيتها. ولكي تصبح التعويذة فعالة، توجد شروط معينة ينبغي توافرها: إذ ينبغي على الشخص أن يكون صائماً، وأن يلتزم بالصمت المطبق حتى يتم تثبيتها في مكانها الملائم. ويمكن التصور بسهولة جمعاً كبيراً من الناس محتشدين، وهم عطشى ومتلاصقون ويتدافعون بازدحام شديد في صباح أحد أيام شهر آذار، حيث يقوم بعضهم بدفع الآخرين إلى الأمام، بينما يحاول آخرون شق طريقهم للخروج بعد حصولهم على الغنيمة المنتظرة وسط مائة عائق. ويتسلل بعض الأشرار بين الجموع ويستثيرون الآخرين لكي ينكثوا بأحد هذه الشروط. أما المهمة الصعبة التي تقع على عاتق النساء فتتمثل في بقائهن صامتات لاينبسن بكلمة احتجاج واحدة حتى لو تعرضن إلى احتراشات وممارسات لا حصر لها يقمن باستهجانها وتعنيفها في ظروف أخرى، من أجل البعوض. ويؤدي الأفندية الذين

يوزعون الأوراق، دورهم في هذه المهزلة وتبدو عليهم سيماء التجهم والجدية بشكل يثير العجب. وقد تشاهد في معظم بيوت المسلمين من الطبقة الدنيا، تلك الأوراق وما شابهها وهي ملصقة باحترام بالغ.

تدّون على الحجاب (الحمايل)* بعض أسماء الله الحسنى، وآيات قرآنية، وأدعية وأمور مشابهة أخرى، وتوضع في قطعة صغيرة لحملها. وغالباً ما تخفى قصاصات صغيرة من الورق من هذا النوع في شاش العمامة بعد لفها.

توجد عادة قبيلة طبية واحدة أو أكثر في حلب، اكتسب أفرادها معرفة سطحية بالكيمياء (الكيميا)**، وهم يجوبون البيوت لممارسة الطب. وبشكل عام، يمكن مصادفة كيميائي بين الحاذقين في علم الفلك وفنون التنجيم والسحر. ويعتقد الكثير من العلماء بإمكانية تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، إلا أنه تم كشف الكثير من الممارسات الخداعية لبعض المشعوذين الدجالين، وقد أصبح الناس أكثر حذراً، وأصبحت حالات وقوعهم في شراكهم نادرة جداً. ويعتبر جابر بن حيان أحد أكثر الكيميائيين العرب شهرة. ويقول هاير بلوت إنه يوجد كتاب لهذا الفيلسوف بعنوان 'كتاب الجبر' بالإضافة إلى أعمال كثيرة حول هذا الموضوع. وقد عاش بن حيان في حوالي منتصف القرن التاسع، أي بعد مئتي سنة من التاريخ الذي افترضه بعض المؤلفين، وهو مذكور في التاريخ الأدبي للفلاسفة العرب، إلا أنه لم يذكر متى عاش.

لا تدخل دراسات الرياضيات*** في مجال علوم المسلمين، وباستثناءات قليلة تعتبر الرياضيات مهملة بشكل عام،، وفيما يتعلق بالعرب المعاصرين يمكن القول، إن هذا العلم يقبع في طيات المجلدات التي كتبها أسلافهم. وكان يوقليدس من بين الكتاب الإغريق الذين ترجمت أعمالهم إلى العربية، وقد قام اسحاق بن حنين بترجمة أعماله للخليفة هارون الرشيد، ثم ترجمت أعمال كاملة أخرى بأمر من المأمون. كما ذكر كاسري (Cassri) كتابات إقليدس المستخلصة من التاريخ الأدبي للفلاسفة العرب. ويمنحهم رينودوت الذي لم يكن متحيزاً لآداب العرب: الفضل والجدارة في الرياضيات أو الهندسة (الشكلية).

---

* إن الحجاب (الحمايل) المذكور أعلاه (غير الاحجبة الطبية المؤلفة من أنواع عديدة من العقاقير) يشبه العصبة (التي يعصب بها الجبين) عند اليهود والاحجبة التي كانت تستخدم في أول عهود المسيحية، التي رغم إدانة عدد من آباء الكنيسة لها، فمازال المسيحيون الشرقيون يستخدمونها. وسواء كانت تعمل بقوة سحرية يميزها العرب عن الطلسم فهذا أمر لا أعرفه بدقة: أعتقد أن الطلسم والحمايل يستخدمان لكلا النوعين بدون تمييز.

** لا تستعمل كلمة سيما إلا للسحر. ولم ألاحظ أنها استخدمت للتعبير عن الكيمياء السحرية، أو حتى للسحر الطبيعي، ولعل المعنى الأخير مفهوم عندما يُضم إلى الكيميا.

*** علم الهندسة أو الهندسة هو ما يطلقه العامة بشكل عام على الرياضيات، ولكنهم يعنون بشكل خاص الهندسة (الشكلية).

وهم يتعلمون الحساب* العملي بشكل يكفي لأداء أعمالهم الاعتيادية. إلا أنه يجدر الملاحظة أن التجار الحلبيين لا يستخدمون عادة القلم والحبر أثناء إجراء حساباتهم، مهما بلغت من التعقيد، وغالباً ما تنتاب الأوربيين الدهشة للمهارة التي يظهرونها ولاسيما عندما تشمل عملية الحساب بضائع وسلعاً من مختلف الأنواع والأسعار في صفقة واحدة. ولا يستخدم الحلبي في حساب النسب سوى رأسه، فهو يجمع ويطرح ويضرب ويقسم، ويبدي دهشته عندما يرى تاجراً أوربياً وهو يملأ نصف صفحة من الورق بالأرقام بشكل غير ضروري.

أما معرفتهم في الجبر** فهي سطحية شأن فروع الرياضيات الأخرى. إلا أن العرب أدخلوا تحسينات على الجبر، وأدخلوا علومه إلى أوروبا، رغم أنهم يعزون اختراعه إلى Dio Phantus.

لم يتم إحراز تقدم في التاريخ الطبيعي والجزء التجريبي من الطب منذ قرون عديدة. فقد انتقلت الأخطاء التي وردت في كتب التاريخ عبر الأجيال من مؤلف لآخر ولم يتم تصويبها أبداً. وهم يعتقدون دائماً أن الأخبار التي ترد في الكتب صحيحة تماماً ولا يمكن تصحيحها. ويجهل المتعلمون نسبياً الاكتشافات وأوجه التقدم التي طرأت عليها مؤخراً في أوروبا. ولايبدون رغبة كبيرة في الحصول على المعلومات، ونادراً ما يبدون اهتماماً في الفكر الفلسفي، إلا إذا كانت الحقائق تثير الاستغراب.

يبدو أن الفلسفة التجريبية لم تحظ باهتمام عند العرب في أي عصر من العصور. أما في مجال التاريخ الطبيعي، فمما لاشك فيه أنهم أدخلوا بعض الإضافات في الموضوعات الخاصة التي تتعلق ببلادهم، وكانوا قد تلقوها من أرسطو، وثيوفراستوس، ودايوسكوريدس، وفلاسفة إغريق آخرين. وسنأتي عل ذكر داميري (Damiri) الذي تحظى أعماله باحترام كبير في الشرق، في مكان آخر، كما سنورد في ملاحظة قادمة عناوين بعض المخطوطات الأخرى التي تتناول موضوع التاريخ الطبيعي.

لم تحظ دراسة علم التاريخ بقدر واف من الاهتمام على يد المتعلمين في حلب. وهم لا يبدون أي اهتمام بالبلاد الأخرى، ويعرفون القليل أو لا يعرفون شيئاً عن الأقاليم البعيدة، أو عن الثورات التي جرت في الإمبراطوريات الكبرى في العالم الغربي. وبشكل عام، لديهم معرفة سطحية حتى في تاريخ العرب، رغم أعداد الكتب الكثيرة التي كتبت عنها، والمتوفرة بكثرة في الشرق. ومن نواح عديدة، لم يكن ذلك يثير الاستغراب، فلا يدرسها الدارسون بشكل منتظم، كما يدرسون الشريعة (القانون)، كما لا يولون اهتماماً بالتواريخ أو بالتأريخ. ولا يعدو التاريخ سوى سلسلة من الحكايات غير المترابطة تروى بدون دقة، وفي مناقشاتهم السياسية، يلجؤون إلى أمثلة حديثة، ولا يرجعون إلى تجربة الأزمان القديمة.

---

* يسمى الحساب كذلك علم الرقم.

** استناداً إلى هير بيلوت لم يستخدم العرب كلمة الجبر وحدها دون إضافة كلمة المقابلة معها وبذا تصبح 'الجبر والمقابلة'. ولم أر هذه الحالة في حلب، وتستخدم في الكتب كلمة الجبر وحدها في بعض الأحيان ومع كلمة المقابلة في أحيان أخرى.

وبما أن العرب لم يبذلوا جهداً كبيراً في تعلم تاريخ الشعوب الأخرى، يبقى كذلك تاريخهم قبل ظهور رسولهم غامضاً غموضاً شديداً. إذ إن مختلف كتبهم المجموعة بعنوان 'التاريخ العام'، تحتوي على روايات قصيرة جداً عن العصور التي سبقت تلك الفترة، تكون في الغالب غير دقيقة. أما بالنسبة للعصور التي تلت الرسول محمداً (ص)، فهناك عدد كبير من المؤرخين. ويرى الراسخون في العلم بالإضافة إلى ريسك أن الأوروبيين أكثر اهتماماً ونشاطاً في كتابة التاريخ من العرب.

كما يلاحظ أن المؤرخين الإغريق لم يكونوا من بين المؤلفين الذين ترجمت أعمالهم إلى اللغة العربية، ورغم أنه يمكن أن يكونوا قد استمدوا منهم ما يسمونه بالتاريخ القديم، فلم تكن المقتطفات القصيرة اللازمة لهذا الغرض كافية لتصحيح أذواقهم أو منحهم لذة التباهي في الإنشاء.

أهمل المؤلفون العرب الجغرافية بنفس قدر إهمالهم للتاريخ. وبما أن معرفتهم العملية في ذلك الفرع مستمدة بصورة رئيسية من ملاحظات عرضية، فتبقى في حدود ضيقة. فليس لديهم خرائط جيدة، باستثناء تلك التي تم استيرادها من أوروبا*. وقد أوردت في الملحق أسماء عدد قليل من المؤلفين الجغرافيين الذين أذكر أني شاهدت أعمالهم في الشرق. بالإضافة إلى ذلك فلديهم مباحث عديدة مجهولة حول الموضوع نفسه، وربما كانت مجموعة من أعمال أضخم. وسيجد القارئ معلومات أوسع حول الجغرافيين العرب في ترجمة Graves لمقدمة أبي الفداء، وفي ترجمة Kochler للجداول السورية التي نشرت مع ملاحظات بقلم ريسك في عام ١٧٦٦(٦) .

يتمتع بعض الأعيان الذين يفدون أحياناً من الأستانة إلى حلب، وخاصة الذين كانوا يشغلون منصب رئيس أفندي، باطلاع واسع على جغرافية البلدان الأوربية التي لها علاقات مع الباب العالي، كما يتمتعون بقدر أفضل من الاطلاع على السياسات الغربية. إلا أن معلوماتهم التي حصلوا عليها عن طريق منصبهم، عبر قنوات غير نزيهة، لاتخلو من سوء التصور أو التحيز. وبما أن أعمال مؤرخي البلدان الأخرى ليست مترجمة إلى لغة بوسعهم قراءتها، فليس من الممكن في مثل هذه الحالة، تكوين أفكار صحيحة وحرة عن تاريخ بلد أجنبي. كما يدعي بعض الأعيان من العثمانيين أنهم على اطلاع جيد بالشؤون الأوروبية؛ وبسبب الجهل والبساطة التي يبدونها، فهم يميلون غالباً في أحاديثهم العرضية مع الأوروبيين، إلى إبداء كره شديد وغير منطقي للرحالة.

أما بالنسبة للفنون الأخرى، فقد نبذت المعتقدات السائدة الرسم، في حين انحطت الموسيقى لتصبح مهنة للارتزاق، وهم يبدون تسامحاً تجاهها إلا أنهم لايشجعونها.

مازال الشعر، الذي أبدع فيه العرب في الجزيرة العربية منذ العصور القديمة، والذي لقي رعاية من الخلفاء العثمانيين، في وقت تقلصت فيه العلوم واعتبرت غير مستحبة، يحظى بدرجة من الاحترام بين صفوف الأدباء. إلا أنه رغم أن الشعر مازال

---

* أراني رجب باشا مجموعة من الخرائط الجميلة المطبوعة على حرير أبيض، وقد دونت الأسماء فيها باللغة الفرنسية ولكنها كتبت بأحرف عربية.

محط الإعجاب والتقدير، فإنه يقال إن شيطان الشعر قد تلاشى. ويقرأ الأفندية الشعر العربي القديم ببرود غير ملائم ويعتبرون هؤلاء الشعراء مجرد نحويين، ولا يحاول الشعراء (الرجازون) الحلبيون المعاصرون. كتابة أكثر من مرثية، أو أرجوزة، أو حكم، وأقوال مأثورة. ولعل سبب ذلك شعورهم بعدم إمكانية الوصول إلى روعة الشعر القديم الذي يكنون له اعجاباً وحماساً زائدين.

ويقال إن الشعر هو الذي ساعد في حفظ اللغة العربية، خلال تلك الفترة القاسية من تاريخ العرب القديم عندما لم تكد تعرف الكتابة في اليمن(٧)

" وصلت اللغة العربية في بداية القرن السابع إلى أعلى درجات الكمال على يد مجموعة من الشعراء، كانوا يجتمعون في أوقات محددة من السنة في موقع يدعى عكاظ، حيث كان كل شاعر يلقي أفضل ماعنده من الأشعار، وكان أولئك الشعراء على ثقة بأنهم سيلقون التقدير الذي يستحقونه؛ وكانت تكتب أفضل تلك القصائد بأحرف من ذهب على ورق البردى، وتعلق على جدار الكعبة (في مكة). وكان يطلق عليها اسم 'المذهبات' أو 'المعلقات'، وكان يطلق على تلك الأشعار القصائد، توجد سبع منها محفوظة في مكتباتنا، وتعتبر أجمل ما كتب في الفترة التي سبقت مجيء الرسول محمد (ص). وكانت القصيدة الرابعة من تلك المعلقات من تأليف لبيد، وهي قصيدة رعوية تماماً وتشبه إلى حد كبير ألكسيس (Alexis) بقلم فيرجيل، إلا أنها تفوقها جمالاً، لأنها موافقة أكثر للطبيعة. وقد تم نسخ القصائد السبع التي تشكل المعلقات، ودونت عليها ملاحظات، وتوجد بين مخطوطات Pocock في اكسفورد برقم ١٦٤، وفي نفس المجموعة برقم ١٧٤، وتوجد مخطوطة تحتوي على أكثر من أربعين قصيدة أخرى كان لها شرف التعليق على جدار الكعبة: وهذا المجلد يعتبر كنزاً لا يقدر بثمن عن الأدب العربي القديم".

سيطالع القارئ الإنكليزي بسعادة المقالة عن شعر الشعوب الشرقية التي استخلصت منها الفقرة أعلاه. وكنت قد شاهدت عدداً من المخطوطات الشعرية في الشرق، إلا أني لم أكن مؤهلاً للحكم عليها. فالمعلقات شائعة ومعروفة(٨) وقد حصلت على نسخة منها بسهولة وأرسلتها مع عدد آخر من المخطوطات من حلب إلى هولندا بناء على طلب صديق للسيد Schultens.

الملاحظات:

(١) يصف أبو الفرج حالة المعرفة والعلوم عند العرب في الجاهلية، فيقول إنهم اكتسبوا من الملاحظة معرفة عملية بعلم الفلك الذي كان يخدم أغراض حياتهم؛ إلا أنهم كانوا يجهلون الفلسفة تماماً. واستمد روايته عن المعرفة بعد رسالة محمد (ص) من المؤرخ العربي المولود في قرطبة بأسبانيا والذي توفى في سنة ٨٥٥.

يقول Gibbon: 'استمر عصر المعرفة العربية ما يقرب من خمسمائة سنة، حتى ظهور المغول، عندما دخلت في أكثر العصور ظلاماً وركوداً وهي كان قد مر بها الأوربيون. إلا أنه يبدو أن الدراسات الشرقية قد تضاءلت وتراجعت منذ بزوغ شمس العلوم في الغرب' (أفول وسقوط الإمبراطورية الرومانية، المجلد ٥، ص ٤٢٥، لندن ١٧٨٨).

(٢) يقول كاسيري (Casiri) إن المكتبة الملكية في قرطبة في القرن العاشر كانت تضم ستمائة ألف مجلد، استغرق إعداد فهرس عنها ما لا يقل عن أربع وأربعين مجلداً من الحجم الكبير.

ينبغي عدم اعتبار الجدول المرفق عن المخطوطات الشرقية المحفوظة في بعض المكتبات الأوروبية على أنه كامل أو صحيح تماماً؛ إذ يتباين ترتيب الفئات في الفهارس المختلفة تبايناً كبيراً. وقد أولي اهتمام رئيسي بالكتب الطبية والتاريخية، وينقل هذا الجدول فكرة عامة كافية، أما أولئك الذين يرغبون في الحصول على معلومات أكثر دقة، فيمكنهم الرجوع إليها في الكتب المبينة أدناه.

المخطوطات الشرقية الموجودة في مختلف المكتبات الأوربية:

	الإسكوريال	باريس	ليدن	فلورنسا	دبلن	بودلينا
التاريخ والجغرافيا	١٨٦	٣٠٥	٢١٢	٣٨		
الطب	١٢٠	١٠٧	١٢٠	٦٠		
الشعر	٢٢١	١٩٣	١٧٣	٢٢		
الفلسفة	٩٧	١٠٤	٢١٤	٣٤		
الرياضيات	٧٩	١٣٠	٢٤٣	٥٨		
النحو والمعاجم وعلم اللغة والفصاحة وأمور أخرى	٦٢٥	٢٠٨	٣١٧	١٣		
القرآن، التفاسير، علم الإلهيات، الشريعة ..الخ	٧١٦	٤٠٥	٧١٨	٩١		
المجموع	١٧٣٨	١٠٤٠	١٦٦٥	٣١٨	٥١١	١٣٩٢

كان الفهرس الوحيد الذي شاهدته من المجلدات التابعة لـ Malsh من مجلدات مكتبة دبلن، إلا أن الكتب منحت إلى أكسفورد، وتشكل الآن جزءاً من مكتبة بودليان .Bodleian

(٣) يوجد في العربية ثلاث حركات، اثنتان منها متشابهتان تماماً ( ) وتتوقف قدرتهما على موقعهما فوق أو تحت الحرف. بَ (با) بِ (بي). وتحذف هذه الحركات في أثناء الكتابة العادية، وفي حين تستخدم بعض الأحرف الساكنة مثل ا، ع، ي محل الأحرف الصوتية الطويلة، فإن الأحرف الصوتية القصيرة تعرف بالخبرة والمران.

رغم أنه بوسع الحلبيين لفظ الحركات الصوتية أثناء قراءة الرسائل التجارية أو الكتب التي تتناول موضوعات عامة، وفي غالب الأحيان، لايجيدون نطقها جيداً عندما يشوب المعنى شيء من الغموض، وذلك لأنه توجد كلمات مختلفة تماماً في المعنى، وتكتب بنفس الطريقة بالضبط، ولا يمكن عندها ضبط المعنى، ومن ثم اللفظ الصحيح، إلا بتحديد سياقها من الجملة. وقد لاحظت أن ذلك يجعلهم يترددون في قراءة النصوص التي لم يطلعوا عليها مسبقاً، ومع ذلك فيبدو أن إدخال الحركات الصوتية يعود إلى تاريخ حديث.

(٤) عندما كان أصحاب الرسول محمد (ص) مازالوا على قيد الحياة، دخل العرب في انشقاقات دينية، ولم يكن لديهم وقت كافٍ لإجراء الدراسات؛ إلا أنه بعد قيام دولة بني أمية، بدأت تبرز مذاهب جديدة ذات طبيعة مجردة على يد رجال مجتهدين، ومع تقدم الزمن برزت مذاهب كثيرة جداً، حملت مبادئ اعتبرها السنّة خارجة عن الإجماع. وفي بداية القرن الثاني للهجرة، جاء واصل بن عطاء الذي أسس الطائفة المسماة 'المعتزلة' والذي يعزى إليه دخول علم الكلام.

(٥) لا يزال الأئمة الفقهاء الأربعة، الذين يعتبرون آباء الشريعة الإسلامية، ومؤسسو المذاهب التي مازالت منتشرة في السلطنة العثمانية، رغم أنها تختلف في ممارسة بعض الطقوس الخارجية للدين، وفي بعض آرائهم عن بعض النقاط المتعلقة بالأخلاق، وإدارة الحكم والقانون المدني، وتعتبر كلها من أهل السنة والجماعة وذات مصداقية متساوية.

ولد أبو حنيفة الذي يحتل المكانة الأولى من حيث الزمن والمكانة في سنة ٦٩٩م (٨٠هـ) وتوفى في سنة ٧٦٧م (١٥٠هـ). وكان من بين الأوائل الذين كتبوا بشكل كامل عن المذهب، وشعائر الدين الإسلامي، والقوانين التي يقوم الإسلام على مبادئها. وتعلم السنة القوانين المنقولة شفهياً عن الرسول (ص) من بعض أصحابه.

ويجدر بالملاحظة بأن مذهبه مطبق في كل أنحاء السلطنة في العبادات العامة، ولا يسمح بممارسة الشعائر الأخرى حسب الأئمة الثلاثة الآخرين إلا بشكل منفرد.

أما الإمام الثاني، فهو مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي، توفى في المدينة عن عمر متقدم في حوالي سنة ٧٩٥ م (١٧٩هـ). وكتب عن الأحاديث النبوية.

أما أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، مؤسس المذهب الشافعي، فقد ولد في فلسطين في سنة ٧٦٧ م، وتوفى في القاهرة في حوالي سنة ٨١٩ م(٢٠٤هـ).

وكان المذهب الشيعي يحتل مكانة مرموقة، حتى إن صلاح الدين لم يسمح بتعليم أي مذهب آخر في الكلية الكبيرة التي أسسها في القاهرة، ولايزال هذا المذهب يدرس (ولكن ليس بشكل مطلق) في القاهرة كما ذكر لي أشخاص درسوا هناك.

أما الإمام الكبير الرابع (ومؤسس المذهب الحنبلي) أحمد بن حنبل، فقد كان معاصراً

للشافعي، إلا أنه أصغر سناً منه بعدة سنوات، وعاش عمراً مديداً. وتوفي في بغداد في سنة ٨٥٥ م (٢٤١هـ)، ونتيجة لمقامه الرفيع، يقال إن أعداداً غفيرة خرجت في جنازته.

إن الكم الهائل من تفسيرات القرآن والسنة، والقرارات التي اتخذها أوائل الخلفاء والأئمة، ومع تزايدها مع الزمن، شكلت كمية هائلة تكفي لردع وإحراج أكثر طلاب الشريعة تصميماً. إلا أنه من هذه الكميات الضخمة ألّف شيخ مشهور في عام ١٤٧٠ كتاباً عن المبادئ العامة بعنوان 'الدرر'، وفي القرن التالي ألف الشيخ إبراهيم من حلب، الذي درس في القاهرة وتوفي سنة ١٥٤٩ في الأستانة، حيث حظي بمكانة مرموقة بين رجال الدين، كتاباً أكثر كمالاً بعنوان 'مجمع البحرين'. وقد ترجم D'ohsson جزءاً من هذا الكتاب الذي يلقى شعبية كبيرة في تركيا، مع إدخال بعض التعديلات في ترتيب أبوابه.

أما في المسائل الشائكة أو الصعبة، فيتم اللجوء أولاً إلى القرآن كسلطة مرجعية رئيسية: ثم إلى السنة، ثم إلى اجتهادات خلفاء الرسول المباشرين، أو على أساس الاتفاق بالإجماع للأئمة السابقين. وأخيراً إلى القياس، حيث لا تكون المراجع واضحة. أبو الفرج (Pockock).

أما فيما يتعلق بتطبيق الشريعة، فيمكن الرجوع إلى فتاوى كبار المفتين التي قام عدد من المؤلفين بجمعها في أوقات مختلفة ، منذ بداية القرن الماضي، وتشمل مسائل عويصة لم تحدث في المجتمع الأكثر بساطة في العصور الأولى من الخلافة العربية الإسلامية. المجلد ١، ص ١٧، مقدمة، قسم ٨). D' ohsson.

وفي ختام هذه الملاحظة يجدر التنويه إلى أن التمييز بين القانون المدني المدون كما هو مطبق في المحاكم الشرعية (الدينية) والقانون الطبيعي المطبق في المحاكم المدنية ويتمتع بالسلطة التنفيذية من جانبه، فهو غير موجود في تركيا بنفس المدى الذي وصفه Chardin في إيران. فالمحكمة في حلب هي محكمة مدنية ودينية على حد سواء، وتنفذ في قراراتها أحكاماً خاصة لم تعبر عنها الشريعة صراحة. وفي الحالات العادية، تقوم بتنفيذ أحكامها الخاصة. أما في الحالات الجنائية، أو حيث يشك بوجود مقاومة، فإن الحكم ينفذ بتوجيه من الباشا. ويطلع الباشا والمسؤولون المنضوون تحته على بعض الجرائم، وفي أحيان كثيرة يستخدمون سلطة أكبر مما يتمتعون بها. إلا أن قراراتهم منظمة، أو ينبغي أن تنتظم على نفس المبادئ كما هي الحال في المحكمة، وعندما لا يفعلون ذلك، يكونون عرضة للوم شديد، ويجب أن لايصل الحكم إلى الإعدام دون موافقة القاضي أو المفتي، في الحالات التي يمكن معها الحصول على هذه الأحكام. وفي الحالات الأخرى، فإن مسار القانون العادي يكون معلقاً، فيتصرف الباشا، بصفته ضابطاً عسكرياً، بطريقة متعجلة؛ إلا أن هذه الحالات لا تشكل فرقاً بين المحاكم الشرعية والمدنية، ولا يجب اعتبار ظلم أحد الباشاوات (رغم أن ذلك ينفذ بالفعل) جزءاً من دستور الحكومة.

(٦)من بين المؤلفات الجغرافية التي أذكر أني اطلعت عليها ما يلي:

كتاب 'تقويم البلدان'، وكتاب 'العجائب والغرائب' و 'كتاب عجائب البلدان'. ولا أذكر أني شاهدت كتاب 'نزهة المشتاق' في حلب، إلا أنه نظراً لأنني لم أبحث كثيراً في الكتب التي تدور حول هذا الموضوع ومواضيع أخرى، فلعلها توجد هناك. وفيما يتعلق بهذا المؤلف 'نزهة المشتاق' الذي صدر في باريس بعنوان: Geographia Nubienis فلا شك أنه جزء من عمل أضخم يعزى إلى الشريف الإدريسي، رغم أنه للمترجمين الموارنة بالإضافة إلى السماني وآخرين رأي آخر.

(٧) كان فن الكتابة قد وصل إلى درجة من الكمال عند العرب قبل ظهور النبي محمد (ص).

(٨) توجد عدة نسخ من المعلقات مع تفاسير لها مذكورة في فهرس اسكوريال، وخاصة Cod. 299 حيث ينتهز Casiri الفرصة لتصحيح خطأ ارتكبه Pockock الذي أكد على أنه لم تكن للعرب القدامى قصائد تتجاوز عدة أبيات.

الفصل الخامس
عن حالة الطب في حلب

مدخل إلى الطب الإغريقي عند العرب، الأطباء العرب الذين ألفوا في الطب، الممارسة الحديثة للطب، الأمراض المزمنة، الأطباء الدجالون، الجراحة، عملية الماء الأزرق في العين (السادّة)، فصد الدم، والحجامة والتشريط، معالجة الكسور والالتواءات.

سنقدم في الصفحات التالية عرضاً عن وضع الطب عند العرب: ليس كما يقبع في طيات المجلدات المهملة التي ألفها الأطباء الأقدمون، بل كما يتبعه ممارسو هذه المهنة في حلب.

لعل الحماس الشديد الذي أصاب أولى فتوحات العرب المسلمين، المتمثل في محاولة نبذ جميع العلوم الدنيوية (غير الدينية)، وعدم فصلهم بين الكتب الطبية والكتب التي كانوا يعتبرونها فلسفية. ومن الرواية التي نقلت عن تهديم مكتبة الإسكندرية، يبدو أنهم أحرقوا جميع الكتب بدون تمييز.

لو كان قد أمضي هذا الوقت الطويل، كما أشارت إليه الروايات، في دراسة المخطوطات، فمن الجائز أن يكون جوهانز غراماتيكوس (Johannes Grammaticus) الذي أدى توسطه لدى القائد العربي إلى قرار الخليفة الجائر، قد وجد وسيلة لإنقاذ شيء من الحريق الذي التهم كل شيء. إلا أنه لايمكن تقدير عدد المجلدات التي كانت موجودة في المكتبة آنئذ، من عدد الحمامات التي قيل إنها كانت موجودة في الإسكندرية، وذلك لأنه لايمكن أن يوفر الورق وحده وقود مواقد الحمامات طوال ستة أشهر، ولا يعقل أن يكون لكل حمام من الحمامات البالغ عددها أربعة آلاف نصيب من هذه الكمية كما ذكر أبو الفرج.

ويعتبر م. رينودوت (M. Renaudot) أن القصة كلها ملفقة، وبعد أن يذكر بأن المكتبة البطلمية القديمة كانت قد دمرت في حرب الإسكندرية الأولى، يأتي على ذكر كل من المكتبة في سيرابيوم (Serapoem) والمكتبة الكنسية، ويبدو أنه لم يكن يعرف بالضبط ماكان يعنيه أبو الفرج.

وتجدر الملاحظة أن المؤرخ الوحيد الذي ذكر هذا الأمر، أطلق عليها اسم الخزينة الملكية أو المكتبة. أما المكتبة الموجودة في سيرابيوم فقد ذكرت بعد تدمير معبد Serapis بوقت طويل، في عهد ثيوديسيوس. ويرى البعض أن العرب كانوا قد دمرّوا مكتبة سيرابيوم في ذلك الوقت.

قد تكون الأوامر الصارمة التي صدرت عن الخليفة عمر قد نفذت في أقاليم أخرى كذلك ؛ وذلك لأن العرب بدؤوا يحصلون على الكتب الموجودة في البقاع التي كانت ماتزال تحت سيطرة الإغريق عندما ازدهرت المعرفة وأصبح لها شأن. وكان أحد المتحمسين قد وجه في ذلك الوقت اللوم إلى أحد أوائل الخلفاء العباسيين لأنه جرح مشاعر المسلمين بسماحه بإدخال علم سطحي، ألا وهو علم الفلسفة التي لا جدوى منها.

عرف العرب الطب الإغريقي في الوقت الذي دخلت فيه الفلسفة الإغريقية. وقد قام نفس الأشخاص بدراسة وتطوير هذين المجالين من المعرفة. لذلك تميز معظم المؤلفين العرب المشهورين واشتهروا بأعمالهم الفلسفية والطبية. وبالفعل فإن كلمة 'حكيم' التي يستخدمها العامة للدلالة على الطبيب، كانت تستخدم سابقاً بمعنى أوسع للتعبير عن فيلسوف أو رجل علم.

ومازال الطب حتى الآن يعتبر أحد فروع الفلسفة، ويدّعي المتعلمون دائماً أنهم على شيء من الإطلاع به؛ ومهما لقي هذا العلم من التقدير، فلم يمارسه المسلمون إلا نادراً، ولذلك فقد بقي هذا المجال مفتوحاً أمام المسيحيين واليهود الحلبيين بشكل خاص.

إن الأطباء المزاولين لمهنة الطب هم أنفسهم أساتذة الطب الوحيدين، وهم يقومون بتعليم أبنائهم وتلامذتهم هذه المهنة عن طريق التجربة والتقليد، أكثر من أسلوب الإرشاد والتعليم. وقلما يتنازل المعلم ويشرح لتلميذه، بل يترك الأمر له لكي يكتشف أسلوب الممارسة قدر ما يستطيع؛ لذلك يتوقف تقدم التلميذ بشكل رئيسي على ذكائه الطبيعي، وملاحظته الدقيقة، دون أية مساعدة من المعلم أو كتب جديدة حول هذا العلم.

يتعين على الشخص الذي يرغب في مزاولة هذه المهنة في حلب أن يحصل على شهادة من 'الحكيم باشي'، وهو منصب يُمنح عادة لأحد الأفندية ممن يتمتعون بمقام رفيع، و لا يكون هو نفسه مؤهلاً بالحكم على إمكانات ومؤهلات المتقدمين، بل يضطر للوثوق بشخص آخر يعمل في هذه المهنة، فيعينه لإجراء الفحص، أو يقوم (وهو أمر شائع جداً) بمنح الشهادة لقاء مبلغ معين، دون الخضوع إلى الفحص المذكور. لذلك ليس من المستغرب أن يمنح في بعض الأحيان أكثر المدّعين جهلاً رخصة بمزاولة هذه المهنة لقاء بضعة سكوينات. ورغم إمكانية سحب الشهادة عند تكرر الشكاوى من سوء الممارسة، فإن الأنظمة السائدة لا تخدم في الواقع كثيراً في ضمان الصحة العامة أكثر من تزويد الحكيم باشي بذرائع جديدة لمزيد من الابتزاز.

ترجمت أعمال كبار الأطباء الإغريق برعاية الخلفاء العباسيين، في الفترة التي ازدهر فيها الأدب العربي كثيراً، بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع. وأعقب ذلك شرح هذه الأعمال والتعقيب عليها، واختصارها، في أشكال كثيرة جداً، ووزعت على مجموعات من المجلدات تضم عدداً كبيراً من المؤلفين الذين كتبوا باللغة العربية. وكان من بين الأعمال المترجمة من اليونانية، الموجودة في حلب، أجزاء من أعمال أبقراط وغالينوس وديسكوريوس، وأوباسيوس وإيتوس وباولوس إيجينتا.

كانت بعض الأعمال الفلسفية والطبية الإغريقية قد ترجمت إلى اللغة السريانية على يد سيرجيوس وآخرين قبل القرن الثامن بفترة طويلة. ويعتمد م. رينودوت فكرة مفادها (يتبعه في ذلك الدكتور فريند في تاريخه عن الطب) إن معظم المؤلفات الأولى التي نقلت عن المؤلفين الإغريق إلى العربية، كانت قد ترجمت عن السريانية، وليس عن الأصل الإغريقي، ولذلك فقد كانت ترجمات عن ترجمات: ويستدل من ذلك ومن أمور أخرى، بأن النسخ العربية، التي لم تكن كاملة ومترجمة بشكل جيد، كما لم تكن ذات فائدة كبيرة في توضيح وشرح النقاط الغامضة عند الكتاب الإغريق. ويختلف كتاب آخرون معه في هذه النقطة، ويدافعون بعقلانية كبيرة عن سمعة الترجمات العربية التي ألحقوا بها الأذى[1].

استناداً إلى بعض المؤلفين العرب فإن طب أبقراط كان قد دخل بلاد فارس (أو ربما تم إحياؤه) في عهد الإمبراطور أورليان في حوالي سنة ٢٧٢ بوساطة بعض الأطباء من حاشية ابنة الإمبراطور التي تزوجت سابور ملك بلاد فارس[2].

بالإضافة إلى الأطباء العرب المعروفين الذين كتبوا في الطب، ثمة عدد كبير منهم ممن لم تترجم أعمالهم أبداً، والتي لاتزال بعض أعمالهم مدفونة في المكتبات الأوروبية. ومن بين الأوائل يمكن ذكر ابن ماسوية وعلي بن العباس وابن سينا والزهراوي وابن رضوان الذي يطلق عليه اللاتينيون .Haly Rodhan ومن بين الأخيرين يمكن ذكر حنين ابن بيطار، وابن رضوان المذكور أعلاه، وابن النفيس وعدد كبير من الذين علقوا على أعمال الرازي وابن سينا.

ويشمل لقب المؤلفين العرب، جميع من ألف باللغة العربية أينما كان مسقط رأسه، وذلك لأن الرازي وابن سينا وآخرين كثيرين كانوا يعتبرون عرباً في هذا السياق. وبصورة عامة يعرف جميع من ترجمت أعمالهم إلى اللاتينية في أوروبا. وقد وجدت أنه من الأفضل أن أجمع أسماء هؤلاء المؤلفين في فصل واحد، وأضيف بعض الملاحظات العديدة عنهم في الملحق.

لن أقدم أي رأي حول أهمية أعمال هؤلاء الأطباء، وذلك لأني لست على اطلاع واسع يمكنني من إبداء رأيي. وقد بذل الدكتور فريند جهوداً كبيرة في إجراء دراسات عديدة حول هذه الأعمال من خلال الترجمات، وقد يتحدث عن آرائه بحرية وصراحة. ولعل الفقرة التالية تعزى إلى رينودوت وليس إلى (فريند)، التي أميل للاعتقاد بأنها كذلك والتي نوّه عنها الدكتور فيما بعد، التي يقوم بحثه عليها: 'أعتقد أنه يمكن للمرء أن يجرؤ على التأكيد، بأن العلوم العربية، مهما بالغ شعبهم وبعض الأوروبيين المعاصرين في أهميتها، كانت مستمدة من الإغريق'. ويقول في مكان آخر: 'رغم أنهم كانوا أكثر من ناقلين عن اليونان، يجب أن نكون عادلين تجاههم، وأن نقول بأننا مدينون لهم بسبب الإضافات الجيدة والمفيدة التي أدخلوها'. ولو كان فريند قد قرأ المؤلفين العرب بلغتهم الأصلية، أو لو كان عنده وقت أكثر ليكرسه لدراستهم، لكان أقل ميلاً للانضمام إلى نقد رينودوت القاسي.

ولهذا السبب إذا كان الأطباء الطبيون المعاصرون جاهلين، فإن ذلك يجب ألا يعزى إلى قلة عدد الكتب الطبية: بل كما ذكرت، لأنهم لا يتبعون منهجاً دراسياً منتظماً،

ولأن قراءاتهم متقطعة واستطرادية. وقد درس عدد قليل منهم أعمال ابن سينا بدرجة مقبولة، رغم أن مخطوطات ذلك الطبيب متوفرة في حلب، والنسخ الرومانية المطبوعة شائعة جداً. أما الكتب المتداولة على نحو أكبر، فهي إما عبارة عن مختصرات حديثة عن المؤلفين القدامى، أو تجمع بين الاثنين، أو أنها مرتبة في جداول أو تقسيمات فرعية حسب أهواء الشخص الذي قام بجمعها. ويتم توارث هذه في الأسرة الواحدة، ويتم تزويدها بوصفات مختارة أو أسرار، لذلك يتم حفظها بعناية.

ليس من المستغرب أن تؤدي القراءة الموجهة بهذا الشكل السيئ إلى معرفة سطحية في الطب، وفي فروع المعرفة الأخرى، ترافقها عادة مظاهر الحذلقة والعجرفة والعناد. ونتيجة التمسك بأفكار متحيزة مسبقاً، يغلق الطلاب منافذ المعرفة، مما يؤدي إلى عدم إسهامهم، مهما كانت ممارستهم واسعة، في تطوير هذه المهنة إلا قليلاً، وذلك لأنه بدلاً من توجيه ذكائهم لاستنباط أفكار عملية مفيدة، فهم يستخدمونه في التوفيق بين ملاحظاتهم وبين النظريات المفندة التي تشربوها. ولعلهم لا يولون اهتماماً كبيراً بدراسة التاريخ والتأريخ، ولذلك فهم لايتمتعون بالمهارة النقدية في اختيار المراجع التي يخضعون إليها خضوعاً مطلقاً. ويؤدي ذلك، بالإضافة إلى العادة الشرقية الشائعة في حشو الهوامش بالملاحظات، إلى جعل المخطوطات الطبية سيئة إلى حد ما، وذلك لأنه بالإضافة إلى أن العناية التي تبذل في مقارنتها أقل مما يتم على الكتب الدينية، فإن ما يحدث غالباً هو أن جهل الناسخ، عند نقله فقرات غريبة إلى النص، يجعل المؤلف الأصلي يتعرض للتقريع بسبب التناقض والتكرار وتنافي الحقائق التي يكون هو بريء منها.

يزاول عدد كبير جداً من الأشخاص الطب في حلب. ولايحول اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر (كما ذكرنا سابقاً) دون اللجوء إلى مساعدة الطب عند إصابتهم بالمرض. ويستقبل الأعيان أطباءهم بحفاوة، ويلقى الأطباء بشكل عام احتراماً من قبل السكان. ولايمارس الأطباء المعروفين في مهنتهم الجراحة، ويقوم جميعهم بتركيب الدواء لمرضاهم. ويوجد عندهم حانوت في بيوتهم، أو في مكان ملائم آخر، يحضر إليه المرضى أو خدمهم في ساعات معينة. كما تتوجه أعداد كبيرة من الناس إلى ذلك المكان، ليس للحصول على الدواء فقط، بل لمجرد المشورة التي تمنح مجاناً لجميع الزائرين. وكما أن الناس من الطبقة الراقية المتوعكين قليلاً يأتون للزيارة لنفس الغرض، فإن الحوانيت يؤمها غالباً جموع من مختلف الطبقات. ويُستقبل الرجال في غرفة، والنساء في غرفة ملاصقة أخرى، يفصلها عن الأولى حاجز من الشبك.

يتقن جميع الأطباء فحص النبض، إذ أن أول شيء يقوم به الطبيب عند فحص المريض جس نبضه باهتمام مفتعل جداً، كما لو أنه سيكشف المرض بواسطته. ثم يواصلون الفحص بإلقاء بعض الأسئلة بمهارة للحصول على المعلومات التي يرغبونها. وفي الوقت نفسه، يدخلون في روع المريض بأنهم حدسوا كل شيء قبل طرح السؤال. كما يدّعون أنه بوسعهم معرفة الحمل من النبض، بل حتى معرفة جنس الجنين في الرحم؛ وهي حيلة في المعاينة أكثر ضرراً بكثير من سابقتها، لأنها غالباً ما تؤدي إلى تدمير الطفل، بإعطاء أدوية ضارة، عند حدوث انسدادات نسوية، وفي أحيان أخرى، وبخطأ

عكسي، فإن النساء اللاتي يعانين من مرض حقيقي، يشعرن بالسعادة والثقة ببعث آمال الحمل فيهن، حتى تتحول تذمراتهن إلى يأس.

بالاختصار، يمكن القول إن ممارستهم عبارة عن تفاهة خادعة. إذ يفرضون نظاماً دقيقاً من الحمية، ويدمدمون بمصطلحات فنية غير مفهومة، ويدارون بذكاء بالغ ميول مرضاهم. وفي الأمراض المزمنة، قلما يجرؤون على وصف أي دواء ذي تأثير قوي، ولا يثابرون على متابعة أي علاج رئيسي، بل يمضون الوقت ويضيعونه في التردد والمحاولات غير المتناسقة للتخفيف من حدة أعراض متداخلة ذات نتائج طفيفة. وطالما يبدو أن الأمور تسير بشكل حسن، فإن الطبيب يستمر في الإشراف على المريض بشكل وثيق، ويسرف في إعطاء الدواء؛ إلا أنه ما إن يشعر بأن الخطر أصبح وشيكاً، فإنه يحاول جاهداً الحفاظ على سمعته، فيتوقف عن وصف أدوية داخلية من تحضيره هو، ويصف علاجاً منزلياً آمناً، أو قد يرسل مرهماً لدهنه فوق منطقة الكبد، ويقلل من عدد زياراته، وفي بعض الأحيان يمتنع عن الزيارة تماماً. وفي هذه المحنة العصيبة، يستدعى أطباء آخرون، يدينون عادة كل ما تم من قبل، ويطلبون إجراء تغيرات طفيفة في حمية المريض، ويمنحون آمالاً كبيرة بالشفاء، ويعدون (وهذا ما يغري النساء كثيراً) بالعودة في صباح اليوم التالي، ويتركون المريض يلفظ أنفاسه الأخيرة في الليل.

وعندما يتوفى المريض، تعزو النساء ذلك غالباً إلى العلاج الأخير، وبذلك تبرر بسهولة الحيطة الفائقة من جانب الأطباء. إن سبب عدم قيام هؤلاء الأطباء بإعلام أهل المريض وأقاربه بحقيقة حالته عندما يبدو الخطر جلياً، ليس مفهوماً تماماً. بل إن العادات الراسخة تقرر عكس ذلك. وتقدم أسباب كثيرة غريبة مستمدة من تأثير العقل على الوظائف الفعلية، عن سبب عدم إعلام المريض بالخطر المحدق به، إلا أن ذلك لا ينطبق فيما يتعلق بالأقارب، الذين يُخدعون كذلك بمواثيق وتأكيدات بالشفاء، في اللحظة التي يقرر فيها الطبيب في قرارة نفسه بأنه لن يعود ثانية. ورغم أن العقلاء من الناس لديهم إيمان مطلق، فهم يشجعون الخداع ببلادة، ويشعرون بالاستياء من الطبيب الذي جرؤ على إثارة مخاوفهم بالحقيقة التي لايرحبون بسماعها.

قبل أن يطأ طبيب أوروبي هذا البلد، يكون حراً في اتباع أسلوبه، إلا أنه غالباً ما يجد نفسه محرجاً بعادة يمارسها الأطباء عامة. وقلما خاطرت في إعلام المريض نفسه بالحقيقة، عندما يكون معرضاً للخطر، إلا أني لم أخف قط الحقيقة عن بعض أقاربه. وكنت ألمح إلى أن الحالة ميئوس منها. وأمتنع عن إعطاء دواء من نفس التركيب، وكنت أجد أن ذلك يدخل في الغالب السكينة إلى نفوس المعنيين، ولم أكن أصف دواء عندما لا تكون ثمة حاجة له، وعندما لا يكون ثمة أمل يرجى منه.

وفي الأمراض المزمنة، فهم يقومون بفصد الدم في البداية، ويكررون ذلك أحياناً ويتهور شديد في المراحل المتقدمة من الحميات الشديدة. ولايستخدمون الأدوية المثيرة للقيء كثيراً، وفي حالات الغثيان، تتم إثارة الإقياء بجرعات كبيرة من الإقسيما (خل مع عسل). وقلما تعطى المسهلات (الشربة) إلا بعد حدوث الأزمة* ، لأن الجسم يبقى

* الأزمة كما يسميها العامة حتى الآن الكريزا وهي من الإنكليزية (Crisis) أو الفرنسية (Crise) (المترجم)

مفتوحاً بـ .glysters وتتمثل باقي المعالجة بصورة رئيسية في الامتناع عن الطعام الحيواني، وتناول محاليل كثيرة. وفي الأدوية الداخلية، يضعون النترات بجرعات ضئيلة جداً، والعناصر الماصّة، ومواد عطرية مؤلفة من مياه مقطرة بسيطة من خشب الصبر* وخشب الصندل، والمسك، وعصير حار خفيف قليلاً. وعندما تقترب الأزمة تعطى بضع حبات من ترياق شرقي بعناية فائقة، لأنه يعتبر واحداً من أقوى الأدوية في الطبيعة.

يتكون غذاء المريض من عدد من الأطعمة المعدة من الشعير والأرز والبقول المسمى ماش، الممزوج بأعشاب مبرّدة، أو عصير فواكه حامضة قليلاً، وبعض الفواكه الصيفية ولا سيّما البطيخ الأحمر (الجبس) والرمان. ويوافق البعض على استعمال الثلج، ويدينه آخرون بشدة، ولكن الجميع يتفقون على التوصية باستعمال مياه الشعير بحرية كنوع من التغيير، كما ينصح برائب اللبن.

يتم تهوية غرفة المريض جيداً، إلا أنها لا تعتم أبداً. وفي الفصول الحارة، جرت العادة على وضع وعاء عريض مسطح، بالقرب من السرير يملأ بالماء البارد. وترمى فيه عدة خيارات طازجة، ويطلب من المريض غطس ذراعيه، أو أن يمسك خيارة في كل يد، حتى تصبح الثمرة حارة، ثم يستبدلها بأخرى.

يسود لديهم الاعتقاد بأن حرارة الحمى تخرج من الكبد والأمعاء نتيجة تبليل الخيارات بالماء وتغييرها من حين لآخر. وفي بعض الأحيان، توضع على السرير أوراق الصفصاف وتغطى بالشرشف التحتي فقط، وتدهن الأصداغ بالمراهم، وتوضع أنواع مختلفة من الكمادات، كما تدهن القدمان واليدان بالحنة. وفي حالات الغيبوبة أو هذيان الحمى، يغطى الرأس بفروة غنم دافئة تؤخذ من الذبيحة وتوضع لصقة الخردل على باطن القدمين. ونظراً لأن النفط يعتبر علاجاً قاسياً، فنادراً مايستخدم، أو أنه لا يستخدم أبداً.

إلى أي مدى يمكن الافتراض بأن طريقة المعالجة هذه التي تستبعد جميع الأدوية الأكثر فعالية، فضلاً عن أسباب أخرى، تسهم في انتظام فترة الإصابة بالمرض في ذلك البلد، إنه أمر جدير بالدراسة. ويكفي حالياً الملاحظة أنه في حالة الإصابة بالحميات العادية من النوع المستمر، فإنه يبدو أن الممارسة الطبية متكيفة جيداً مع المناخ، ومع أسلوب الحياة، والتركيبة الطبيعية للسكان المحليين. وعند استخدام أدوية فعالة أكثر، فلا يبدو أن فترة المرض تقصر، أو أن النجاح كان حليفها باستمرار. أما في ما يتعلق بحمى الثلث** الربيعية أو الخريفية، باستثناء الحميات الوبائية الأخرى المرتبطة بفصيلة الحميات المتقطعة، والحميات المتعلقة بإفراط إفراز الصفراء من النوع الشديد، فقد كانت الأمور تتباين كثراً. وقد أحرز الاستعمال المبكر لقرفة برو*** بحرية، والخروج السريع في البداية والأدوية المطهرة (المانعة للإنتان) الأكثر فعالية في

---

* خشب الصّبر: نبات يستخرج من بعض أنواعه عصارة مرة تدعى aloes وتستعمل في الطب كمسهل (المترجم)

** تتكرر كل ٤٨ ساعة (المترجم)

*** قرفة برو، (Peruvan bark) من لحاء شجرة يؤخذ منه الكينا. (المترجم).

المراحل المتقدمة من المرض تقدماً واضحاً على الطريقة المتبعة في البلد، التي تترك بموجبها الحميات المتقطعة تستمر حتى آخر مدى لها، وكان يعقب ذلك في الغالب انسدادات في الأمعاء. أما بالنسبة للحميات الأخرى فقد ثبت أنها مميتة في أغلب الأحيان.

بعد ممارستي للطب على نطاق واسع في حلب، أصبحت إمكانية عقد مقارنة بين المواسم المرضية أمراً ممكناً. إذ أنه بالإضافة إلى أنه لدى الطبيب الأوروبي مرضى يقوم بعلاجهم طوال الفترة بطريقته الخاصة، فإنه غالباً ما يستدعي كذلك لزيارة مرضى كانوا تحت إشراف أطباء محليين. وقد أتيحت لي فرصة مراقبة التأثيرات الناجمة عن فصد الدم في المراحل الأخيرة من المرض، عندما لا ينصح الطبيب الأوروبي بإجراء ذلك. وفي الغالب، يكون من العبث معارضة هذه العملية، كما يجد نفسه عادة في خضم تحيزات راسخة، فيتعين عليه أن يقف متفرجاً مكتوف الأيدي إزاء سير الطبيعة منذ بداية الحمى وحتى نهايتها.

إلا أنه رغم ارتفاع نسبة المرضى الذين يتماثلون للشفاء من الحميات الشديدة، مهما اختلفت طريقة علاج المرض منذ البداية، ومتابعته بعد أن تطرأ بعض التغييرات، وانتهائه في نفس الفترة الحرجة تقريباً، فقد كانت طريقة العلاج التي يفضلونها على تلك التي يتبناها المحليون أكثر أماناً، رغم كونها أكثر بطئاً. كما كانت استمرارية عمل الطبيعة نتيجة التدخل الطبي سواء كان جيداً أم سيئاً، أقل تأثيراً مما هو متوقع.

أما في الأمراض المزمنة، حيث تكون النتائج أكثر مما يتوقعون، فيكون الأطباء أقل تهيباً. فما أن يطلقون اسماً على المرض، حتى يبدؤوا في البحث عن الاسم المقابل له في كتبهم، ويواصلون عملهم بثبات معقول؛ أما إذا تداخلت أعراض أخرى، رغم عدم أهميتها، فيضطرون عندئذ إلى توقيف أي اعتبار آخر حتى تخف أو تتوقف. إن الامتثال في هذا الصدد لنفاد صبر المريض، أمر لا يمكن تفاديه بطريقة ما، وذلك لأنهم يميلون إلى تغيير الأطباء. وفي حال استمرار المرض، يحاولون سراً تجريب مهارة أي عبقري آخر. ويبذل الأطباء جهدهم لمنع ذلك، إلا أنه في الوقت نفسه يتم إهمال المرض الرئيسي، أو يُسمح بمرور الوقت دون اتخاذ أية تدابير عملية. ويضطر الطبيب إلى تنويع وتغيير الدواء، لأنه من الصعب إقناع المريض في الاستمرار لفترة طويلة في تناول نفس العلاج إلا إذا أحس بفائدة ملموسة منه.

عندما يعتمدون علاجاً ما (لأنه يتم تجريبها جميعها بدون تمييز) فإن نجاحهم يتوقف في معالجة الأمراض المزمنة، على عدم ارتكابهم خطأ خلط علاج بآخر؛ إذ أن أسس طريقة المعالجة تختلف قليلاً عما نقله الأطباء الإغريق. وقلما تحدث أخطاء في هذا الأمر في الأمراض البسيطة من ذلك النوع، إلا أن ذلك شائع جداً في الأمراض ذات الطبيعة المعقدة. إذ يقررون نوع المرض بثقة، وعندما يعلنون رأيهم، لا يأبهون إلا قليلاً بالظروف التي قد تجعلهم يغيرون رأيهم أو يتراجعون عنه.

من بين الأمور التي تثير دهشة الطبيب الأوروبي، رؤية تلك اللهجة الحاسمة التي يقررون فيها موقع المرض في الشكاوى التي لا تتطابق مع واقع الحال، ولا سيما في الانسدادات المعوية، سيما وأن فتح الأجساد (التشريح) بعد الموت غير مسموح به، فلم

ير أي منهم الأجزاء التي يتحدثون عنها بشكل مألوف. وليست حرارة المناخ، أو التلوث الناجم عن لمس الجسد، هي الاعتراضات الوحيدة التي تحول دون إجراء التشريح، بل إن اعتبارات أخرى تردع كلاً من المسلمين والمسيحيين.

عندما أقام رجب باشا (الذي يتمتع بحرية فكرية في أمور كثيرة) في حلب، عرض عليّ أن يمنحني موافقة خطية لتشريح جسد أي شخص يتوفى نتيجة اضطرابات غير عادية حسب رأيي. إلا أن حدة حماسي خمدت لقبول هذا العرض، لأنه رغم أنه لا يوجد شيء يخشاه المرء في أثناء بقاء الباشا في الولاية، فإن عائلة المتوفى قد تسبب لي متاعب ومشاكل بعد رحيله؛ لأنه لايعدم وجود الأشخاص الذين بوسعهم توجيه تهديدات بالقتل، وإبراز أدلة ضد أقرب المقربين. ورغم سهولة العثور على أوراق قانونية لحماية نفسي، فإني لن أتمكن من حماية الآخرين من العواقب الكيدية؛ ولذلك فقد أهملت الأمر.

وأذكر حادثة حدثت لكحّال (طبيب عيون) مسيحي عجوز، أصيب بمرض توجب على إثره قطع جزء من غرلته قبل وفاته بوقت قصير. وبعد وفاته، وجد أحد الأشقياء وسيلة لإزعاج أقاربه برفع دعوى في المحكمة ادعىّ فيها أن المتوفى كان قد صبأ عن دينه، وأنه قد تم ختانه شرعاً، وهو ادعاء زائف.

يستمد هؤلاء الأطباء معرفتهم بالتشريح عن طريق القراءة، وليس بواسطة التشريح. إذ بقي التشريح والفيزيولوجيا على ماهما عليه نقلهما غالينوس. وفضلاً عن عدم إدخال أية تحسينات على أي منهما، فإن عدداً قليلاً من الأطباء ممن هم على إطلاع جيد على ماتحتويه هذه الموضوعات في طيات الكتب التي بحوزتهم. إلا أن اختراعاً جاهزاً يعوض هذا النقص بشكل يثير الإعجاب، فهم يغيرون موضع الأمعاء، ويبدلون توزع الأعصاب والأوعية الدموية عند وقت فراغهم. وعندما يقتضي الأمر الكشف عنها، يمكنهم دائماً ابتداع عظام جديدة غير معروفة في العمود الفقري المعروف لدى الطبيب الأوروبي. وفي جميع هذه الموضوعات، يلقون محاضرات مطنبة، في سيل من الكلمات والتعابير الرائعة. ولزيادة التأكيد على معرفتهم فهم يدخلون في حديثهم أسماء أبقراط، وغالينوس، أو ابن سينا لدعم أكثر الآراء سخفاً وسفهاً.

إن عدم معرفتهم بالدورة الدموية، يجعلهم يتمسكون بالنظريات القديمة، التي كانت مقدسة قبل ذلك الاكتشاف العظيم. ومن بين أمور أخرى، يعتبرون أن الفصادة عملية دقيقة عند وجود أوردة خاصة. ويبقون غير مطلعين على الاكتشافات الحديثة الأخرى في الطب، باستثناء قلة منهم يطلعون على ذلك من الإفرنج المقيمين في بلدهم، فلا يعرفون شيئاً عن استخدام الزئبق وعرق الذهب (إيبكاك) وقرفة.برو والإثمد. كما أن عدم وجود مراسلات علمية مع البلدان الأخرى، حرمهم من الحصول على المعلومات المتعلقة بالعديد من التحسينات المفيدة التي أدخلت على الطب. كما أدى ذلك في الوقت نفسه إلى حرمانهم من الخوض بشكل مثمر في وضع النظريات الإبداعية، التي أخذت تبزغ بشكل متلاحق في أوروبا منذ بداية إحياء المعرفة.

توجد كميات كبيرة جداً من العقاقير، وتضم كتبهم مجموعة من العلاجات المركبة، رغم أن ممارستهم تنحصر بشكل عام في عدد قليل من التحضيرات الرسمية.

وتتألف وصفاتهم دائماً من أخلاط من العناصر. وتلقى الأحجار الكريمة واللآلئ، والفادزهر، وورق الذهب مكانة رفيعة. والأدوية العطرية الرئيسية هي مربيات الكرمز (Alkermes) أو الناردين. ويتم تحضير الترياق في البندقية، ويحظى بمكانة رئيسية بين أنواع الترياق، ولديهم عدد متنوع منه في حوانيتهم.

وتُجلب أعداد قليلة من التحضيرات الكيميائية المستخدمة من الأستانة أو من أماكن أخرى، وتنحصر الصيدلية في حلب بشكل رئيسي في تقطير المياه البسيطة، وتحضير الشرابات، والمواد المحفوظة بالسكر والتطبيخ (غلي الأعشاب واستخراج خلاصتها). أما المياه الروحية والإلكسيرات فيحظرها الدين الإسلامي.

ويُلحق بكتاب المواد الطبية أو العقاقير المستخدمة في القاهرة عرض فورسكال عن الحيوانات الشرقية، الذي يكاد يكون نفسه الموجود في حلب، رغم توفره بأعداد أكبر بكثير. بيد أن الأسماء العربية تختلف في كثير من الأحيان عن تلك المستخدمة في سورية. وقد أدخل البنادقة تحضيرات كيميائية كاللحاء والأخشاب وما إلى هنالك؛ إلا أن الأسلوب المتبع في القاهرة يختلف عن الأسلوب المتبع في حلب. ففي القاهرة يدون الطبيب وصفاته، ويقوم الصيادلة بتحضير العقاقير، الذين يشكل الإفرنج بعضاً منهم، ولعل حوانيتهم مزودة بأدوية على نحو أفضل مما هي الحال في حلب. فالعطارون في حلب بقالون، بالإضافة إلى كونهم بائعي عقاقير، ويتعاملون بأنواع كثيرة من السلع. وفي هذا المجال يوجد مثل دارج يقول بأنه يتوفر 'كل شيء عند العطار إلا الحب بالغصب'.

إن ماعرضناه الآن عن ممارسة الطب والأطباء في حلب، لايعني أنه لا توجد استثناءات لذلك. إذ يوجد دائماً أفراد ليسوا على إطلاع واسع جداً فحسب، بل هم حكماء كذلك في ممارستهم ويمتازون بالنشاط والعقلانية.

يوجد عدد آخر من الأطباء الذين يتمتعون بعبقرية خاصة، يظهرونها في بعض الأحيان، ويخرجون عن المسار العام، ويمتازون بأسلوب جريء في الممارسة. وتكون ثيابهم وطرائقهم مميزة عن الآخرين. وعندما يصفون علاجاً معيناً للمريض ينهى عنه زملاؤهم، يكونون متشددين بتعصب في نقاط أخرى من الحمية. ويتخذون أسلوباً مفعماً بالثقة في إعطاء التوجيهات، وعند أقل خروج أو انحراف عن القواعد، يتركون المريض دون أدنى اعتبار لمرتبته. ومما يثير الاهتمام، رؤية الخضوع المطلق الذي يمنح لعبقري من هذا النوع، من قبل أشخاص لم يعتادوا على الاحترام والامتثال والإطاعة. وقلما يبذل الطبيب جهداً، حسب الطريقة السائدة المعتادة، في الدخول في حديث عن طبيعة المرض، ولذا فهم يضطرون للاستسلام والإذعان؛ فآراؤه بالغة الحكمة، ويقدم نصائحه ببرود شديد، غير مبال إذا نفذت أو لم تنفذ، بحيث أن المريض يدرك عواقب عدم الامتثال لها، فيستسلم بهدوء لمثل هذه الحالات.

وكان أخي يعرف طبيباً يتمتع بهذه الشخصية، وقد توفي عند وصولي إلى حلب، وترك سمعة بأنه كان يمارس الطب بنجاح يكاد يكون خارقاً. وكان يُستشهد بأقواله باعتبارها مأثورة. وكان يكفي للمرء أن يكون طبيباً مؤهلاً، إذا ما تتلمذ على ابن جوزيف الكبير ولو لفترة قصيرة.

تعتبر الجراحة أقل تقدماً من الطب، ويتعرض الجزء الجراحي، في الحالات التي تصاحبها المجازفة بالحياة، لإحباطات كثيرة، بحيث لا ينتاب المرء الدهشة من سبب إهمالها كثيراً. ومن منطلق فكرة لا أساس لها، فإن الطبيين، ولا يثنيهم عن ذلك الأطباء، لايؤمنون بأن أداة فولاذية قد تنقل شيئاً ساماً إلى الجرح، ويخضعون باستياء كبير إلى شق بسيط لخراج عادي، بحيث أن الأورام التي تترك لكي تفتح من تلقاء نفسها، تتعرض إلى جميع عواقب الفتحات الصغيرة. وقلما يُفتح الدَبَل الطاعوني بالشق.

لايغامر الجراحون باستخدام المثقب المنشاري، والبتر في حالات الطاعون الدبيلي، أو إجراء عمليات رئيسية، وإذا أرادوا عمل ذلك فإنه لا تتوافر لديهم الأدوات اللازمة. وفي حالات الأطراف المصابة بالغرغرينا (الآكلة)، يترك الأمر عادة إلى عمل الطبيعة. إذ تترك الأجزاء المصابة بالغرغرينا لكي تنفصل من تلقاء نفسها وتسقط، ولا يقوم الجراح بنشر العظمة العارية التي تكون قد شوهت الجذمة، إلا بعد أن ينفذ صبر الجميع.

إن الحذر البالغ في استخدام المبضع ناشئ جزئياً عن الخشية من حدوث نزف دموي، وجزئياً من التورط في دعوى قضائية. لأنه من الشائع بين أفراد الطبقة الدنيا، بهدف عدم دفع أجور العملية، رفع دعوى إلى المحكمة يزعمون فيها أنهم فقدوا أحد أطرافهم، أو أنهم أصيبوا بضرر لا يمكن إصلاحه، بسبب سوء عملَ الجراح غير الماهر؛ ورغم أنه لا يشك في براءة المدعى عليه، فإن الدعوى تكلف مصاريف باهظة، بحيث يجد الجراح في بعض الأحيان أن من مصلحته تفادي الدعوى، بالتوصل إلى حل وسط مع مريضه وقبول نصف المبلغ، أو برفض جميع مايطلبه منه.

وللتخلص من هذه العواقب الكيدية، فمن عادة الأطباء الأكثر حصافة اللجوء إلى المحكمة قبل إجراء أية عملية خطرة، بهدف الحصول على وثيقة شرعية (حجة) لضمان مبلغ معين لقاء إشرافهم، تتناسب مع نجاح العلاج، وتحميهم من اللجوء إلى القضاء فيما بعد مهما كانت النتيجة. وبموجب ذلك، فهم يغامرون باستئصال الأكياس الدهنية والأورام، وفي بعض الأحيان باستخراج حصاة المثانة بالشق، وقدح السَدّ (إزاحة البلورة). غير أن عدداً قليلاً من الجراحين في المدينة، ممن يحاولون إجراء العمليتين الأخيرتين، يتركونها إلى الممارسين الجوالين الذين يتمتعون بشجاعة أكبر، كما هي حال العمليات الخطرة الأخرى.

أما فيما يتعلق باستخراج حصاة المثانة بالشق، فهم يجرونها بنجاح معقول في الأطفال، إلا أنه لا يعيش نتيجة هذه العملية سوى عدد قليل من البالغين. وبالفعل، فإن عدداً قليلاً من البالغين يوافقون على المجازفة، ولايتم ذلك إلا بعد أن يصبح الألم لايطاق. أو عند حدوث التهاب في المثانة. وقبل العملية بفترة وجيزة، يُحمل المريض يومياً إلى الحمام، حتى تتراخى أعضاء الجسم، ويضطر في الغالب إلى تحمل آلام متزايدة نتيجة الضغط أو الاحتكاك على العانة والشرج، من أجل دفع الحصاة إلى مكانها الصحيح. وتتألف أدواتهم من موسى حلاقة، ونوع من المغرفة، وكلابات سيئة؛ إلا أن الكلابات لا تستخدم إلا عندما لا يمكن استخراج الحصوة بالأصابع. أما القسطر والطوق الحديثين فهما غير معروفين.

لعل المخاطر التي تكتنف ممارسة الجراحة، حدت بالمسيحيين واليهود من الحلبيين إلى تفضيل الطب، وترك الجراحة للمسلمين. ورغم أن الأطباء يتخلون عن إجراء العمليات في معالجة الأورام والقروح للجراحين المؤهلين، فهم يمارسون جميعهم الفصادة لعدد من المرضى؛ أما ماتبقى من الأعمال فيقوم الجراحون والحلاقون بإجراء الفصادة والحجامة* والتشريط. وتتألف العملية الأخيرة من إحداث عدد قليل من الجروح السطحية على شحمة الأذن، وأعلى ربلة الساق، وتمارس عادة على الأطفال الذين قلما تجرى لهم الفصادة وهم في عمرٍ يقل عن السبع والثماني سنوات. وتكون كمية الدم المأخوذة بهذه الطريقة قليلة جداً. وفي بعض الأحيان يتطلب الأمر اللجوء إلى العلقة. كما يمارس التشريط على البالغين، إلا أن الجروح في الربلة تكون أعمق، وطولها أكثر من إنش ونصف، وتوضع فوقها أحياناً كؤوس الحجامة. وتتم العملية بواسطة موسى.

إن المباضع المستخدمة في فصد الدم أوروبية الصنع وهي من النوع المتدني جداً، إلا أن الذين يقومون بالفصادة لا يدركون بشكل عام مخاطرها، وهم بارعون في عملها، ومن العناية الإلهية أن الحوادث السيئة الناجمة عن العملية نادرة جداً. ومن عدم معرفتهم بخطر العملية، فهم يقومون بها دون أدنى خوف من لمس شريان أو وتر، ورغم أن الأوردة الأخرى تكون قريبة، فهم يفتحون في بعض الأحيان الوريد الباسيليقي، عندما يكاد يكون نبض الشريان السفلي مرئياً للعين. وخلال سحابة عشرين عاماً، لم يتح لي فرصة رؤية أكثر من أربع أو خمس حالات من تمدد الأوعية الدموية الناجمة عن المبضع. إلا أنه يمكن الملاحظة أن أوردة الذراع تكون في معظم الأحيان بارزة، ورغم قرب الشريان من الوريد، فقد لايصاب بأي أذى بسبب الأداة غير الحادة. كما أن الحوادث الناجمة عن ثقب الغشاء العضلي أكثر شيوعاً بكثير**.

يمارس الجراحون رد الخلع والكسور على نحو أقل ممن يتخذون ذلك مهنة لهم، الذين يكونون في العادة من النساء العجائز. وتسبب الأنواع المختلفة من الجبس والمراهم المستخدمة في معظم هذه الحالات التهاب الجلد تحت الجبيرة والضمادات. وقدت حدثت أخطاء في مجالات أخرى في أحيان كثيرة بسبب قلة معرفتهم بتشريح الجسم.

إن معظم الأطباء الأوروبيين الذين يزاولون الطب في حلب هم من الفرنسيين والإيطاليين، ويمارسون الطب كما هو سائد في بلدانهم؛ ويستدعي الحلبيون من مختلف الطبقات أولئك الأطباء ممن أمضوا فترة من الزمن في حلب، واكتسبوا معرفة جيدة باللغة. وهم يحظون بترحيب خاص من قبل الأعيان. إلا أنهم جميعهم يستخدمون أدوية

---

* إن الحجامة باستخدام وبدون استخدام التشريط عملية رفيعة الشأن. وتستخدم كؤوس تثبت بواسطة قطعة قطن صغيرة مشتعلة، وفي بعض الأحيان، يرتفع الجلد نتيجة الامتصاص من خلال قرن.

** يعود سبب هذا الاندفاع في النزف كلية إلى جهل الذين يجرون العمليات، لأن الكتاب العرب واضحون جداً في توجيهاتهم المتعلقة بالنزف، وعند الإشارة إلى خطر جرح شريان أو وتر الذراع، ويستفيض Albucasis حول موضوع مقطع الوريد أكثر من Oribasius أو Paulus Aegincta الذي استمدها منهم، وابن سينا الذي يعتبر حح قانونه حح شائعاً جداً في حلب.

ذات مفعول قوي إلى حد ما، و ثمة شك في أنهم يصفون هذه العلاجات في الحالات الحرجة، التي تؤدي إلى قتل المريض، إذا ما فشلت في علاجه. إن هذا التحامل المحلي الذي ربما شجع بعض الأشخاص على نشره، رغم أن هذه الفكرة لم تعد سائدة كما كانت في السابق، إلا أنه مازال تأثيرها سارياً. إلا أن ارتفاع نفقات استدعاء طبيب أوروبي، يحول دون ذلك، إلى أن يصل المريض إلى مرحلة حرجة ويتخلى عنه أطباؤه السابقون.

ويسود الاعتقاد أن الأطباء الإنكليز خاصة يصفون علاجات شديدة، ولعل أخي المرحوم كان أول من عمل مع المسلمين على نطاق واسع. إذ لم يبذل من سبقوه، منذ فترة طويلة، جهداً في تعلم اللغة، أولم يبدوا اهتماماً في اكتساب شعبية، والتعرف على عادات وتقاليد البلد. وقد واجه في البداية صعوبات عديدة، إلا أنه تمكن من التغلب على الكثير من مشاعر التحامل ضده. و من حسن الحظ، فقد نجح في تحقيق ذلك، وبذلكمهد السبيل بوضوح لمن جاء بعده.

من الأمور التي بقي عليّ ذكرها، أنه لا يعرف سوى القليل عن الذين زاولوا الطب من أفراد الأمم الأخرى ممن أقاموا في حلب في القرن الماضي. إلا أنه من المحتمل جداً أنه عندما ازدهرت شركات البنادقة في سورية، وكانت أعمال الأطباء العرب تحظى باهتمام أكبر في الجامعات الأوروبية، فلا بد أن يكون بعض المبدعين قد زاول مهنة الطب في ذلك البلد، الذين قد تكون ملاحظاتهم ألقت الضوء على تاريخها الطبيعي والطبي كما فعل بروسبر ألبينوس Prosper Alpinus في تاريخ مصر. إذ يذكر Alpinus ويكرم Joannes Jacobus Mannus الذي زاول الطب مدة سبع سنوات في القاهرة بنجاح عظيم، ودعاه القنصل الفينيسي إلى حلب في حوالي سنة ١٥٨١م. ولا يعرف أحد ما هي الفترة التي أقام فيها هنا، إلا أن جنود الانكشارية الذين كانوا يرافقونه قتلوه وهو في طريقه من هناك إلى الأستانة. وكان موته حسب ألبينوس خسارة كبيرة للأدب العربي، نظراً لأنه كان معلماً في اللغة، وكان قد كتب تفسيراً هاماً عن كتاب ابن سينا الثاني. وكان ينوي تصحيح جميع أعمال ابن سينا، التي تمتلئ ترجماته بالأخطاء الواضحة.

وقد أعقب مانوس Mannus جون توماس مينادوس Joannes Thomas Minados، الذي أقام في حلب سنوات عديدة، ثم أصبح أستاذاً مشهوراً في بادوا .Padua وقد توفي في سنة ١٦١٥ وخلف عدة أعمال طبية. وختمه ممهور على الشهادة (الدبلوم) الفخرية التي قدمتها جامعة بادوا إلى هارفي الشهير.

من العرض أعلاه، يتبين بأن الطب (بالإضافة إلى العلوم الأخرى) قد تراجع كثيراً في سورية، وأنه حسب الأوضاع السائدة حالياً في هذا البلد، فإن الأمل في أن ينهض أولئك الذين يمارسون هذا العلم من هذا التقاعس بالتشجيع، أو ببذل المحاولات لإدخال تحسينات إليه عن طريق الروح الحرة من المحاكاة والمنافسة أملاً ضعيفاً.

الملاحظات

(١) يقدم م. رينودوت في رسالة بعثها إلى M. Dacier، نشرها Fabricius عرضاً عن الترجمات العربية للإغريق، يؤكد فيها على رأيه بأنه لاتوجد فائدة ملموسة من تصحيح النص الإغريقي. ويعتبر أن الفكرة القائلة بأن الترجمات قد تمت عن الأصل الإغريقي مباشرة خطأ عام؛ ويقر بأن اللغة السريانية كانت اللغة السائدة في بغداد، فضلاً عن بعض المدن الإغريقية، وأن أوائل المترجمين كانوا من النصارى، الذين يجيدون اللغة السريانية أكثر من العربية، وأنه كان من الطبيعي أن يترجموا إلى اللغة التي يتقنونها أكثر.

والمعروف أن سرجيوس كان قد ترجم أعمال أبقراط، وأعمال عدد آخر من المفكرين الإغريق منذ عهد جوستانيان. ويذكر أبو الفرج ترجمات سريانية أخرى عن اليونانية في 'التاريخ السرياني'. ولا يقول م. رينودوت إن هذه الترجمات كانت أول ما عرفه العرب، بل أن الجزء الأعظم من الترجمات العربية كان قد تم في الفترة الواقعة بين عهدي الخليفة المنصور والخليفة المتوكل، أي من سنة ٧٥٤ وحتى ٨٤٧، عن الترجمات السريانية وليس عن الأصل الإغريقي؛ إذ أنه يفضل (كما يقول) ترجمات حنين (الذي توفى في ٨٨١) والذي كان يتقن اليونانية والعربية، هي مفضلة لديه على جميع ترجمات أسلافه. إلا أن الكثير من آراء رينودوت افتراضية بحتة، والواقع يتناقض مع التاريخ العربي.

(٢) لم يذكر المؤرخون الرومان أو الإغريق زواج ابنة الامبراطور أورليان إلى سابور ملك فارس، بل دونه أبو الفرج.

ويظن الدكتور فرند (Dr. Friend) أنه من المحتمل أن الطب كان قد ازدهر في بلاد فارس منذ تلك الفترة، وحتى وصوله إلى العرب المسلمين. فيقول: 'ومن هنا، فلعل معظم الأساتذة المشهورين في الطب عند العرب أمثال الرازي وابن عباس وابن سينا كانوا قد درسوا في الأصقاع الشرقية من آسيا (تاريخ الطب المجلد٢، ص١٠). إذ يوجد خطأ جغرافي في جعل جندي سابور عاصمة خراسان. فقد كانت عاصمة ذلك الإقليم نيسابور، أما جندي سابور فقد كانت توجد في مقاطعة أخرى في إقليم يسمى خوزستان.

الكتاب الرابع
عن الحيوانات ذوات الأربع، الطيور، الأسماك والحشرات والنباتات التي تنمو في المناطق المجاورة من المدينة

الفصل الأول
عن الحيوانات ذوات الأربع

الثور، الجاموس، الأغنام، الماعز، الخنزير البري، الغزال، الأرنب البري، الأرنب، الشيهم* ، القنفذ، الجربوع، الحمل، الحمار، الحصان، الكلب، القطة، الجرذ، الفأر، جرذ الحقل، اليرنب ، الخلد، الخفاش، ابن عرس، ابن آوى، الثعلب، الذئب، الخراف، الضبع، الوشق (الفهد)، القط ذو الأذنان السوداوان، النمر، الأسد، الدب، وما إلى هنالك..**

يتمثل الهدف من هذا الفصل في تقديم عرض مفصل عن الحيوانات في سورية، ولاسيما الحيوانات الأكثر فائدة لخدمة الإنسان.

ثمة نوعان من البقر: نوع كبير الحجم ذو بطن نحيفة، وسيقان رفيعة طويلة، وهو يشبه الرسوم المنقوشة غالباً على القطع النقدية؛ والنوع الآخر أصغر حجماً بشكل عام، والكفل في كلا النوعين قصير. ويمكن رؤية عدد قليل من الأبقار السوداء بالقرب من المدينة، التي تستخدم بشكل رئيسي للفلاحة وإدارة النواعير، وذلك لأن المسلمين واليهود قلما يتناولون لحم البقر، في حين بدأ المسيحيون في تناوله مؤخراً؛ أما الأبقار التي تذبح، فهي تقدم بصورة رئيسية على موائد الأوروبيين. ونوعية لحم البقر جيدة نسبياً في جميع الفصول، ويكون في أفضل أحواله عند نهاية الحصاد. وقلما يجلب العجل إلى السوق، ونوعيته أدنى بكثير من لحم البقر.

يربى الجاموس، الذي يتواجد بالقرب من حلب، للحصول على الحليب بصورة رئيسية؛ ورغم أن لحمه ليس سيئ الطعم، فإنه نادراً ما يؤكل*** . وهو حيوان شائع جداً

---

* الشيهم: حيوان شائك من القوارض (المترجم)

** اليرنب: حيوان قارض قصير الذنب له جيبان واسعان عند الفكين يشبه جرذاً قصير الذنب (المترجم).

*** يقول Prosper Alpinus إن لحم الجاموس في مصر طيب المذاق وسهل الهضم، وإنه يتم تمليح لسانه ويصدر إلى البندقية.

في كثير من مناطق المستنقعات في سورية؛ وتوجد في الاسكندرونة أعداد كبيرة منه، تذبح أحياناً لتناولها من قبل البحارة الإنكليز. أما الحليب الذي تدر كميات كبيرة جداً منه، فيعتبر من أهم السلع بالنسبة للأكراد.

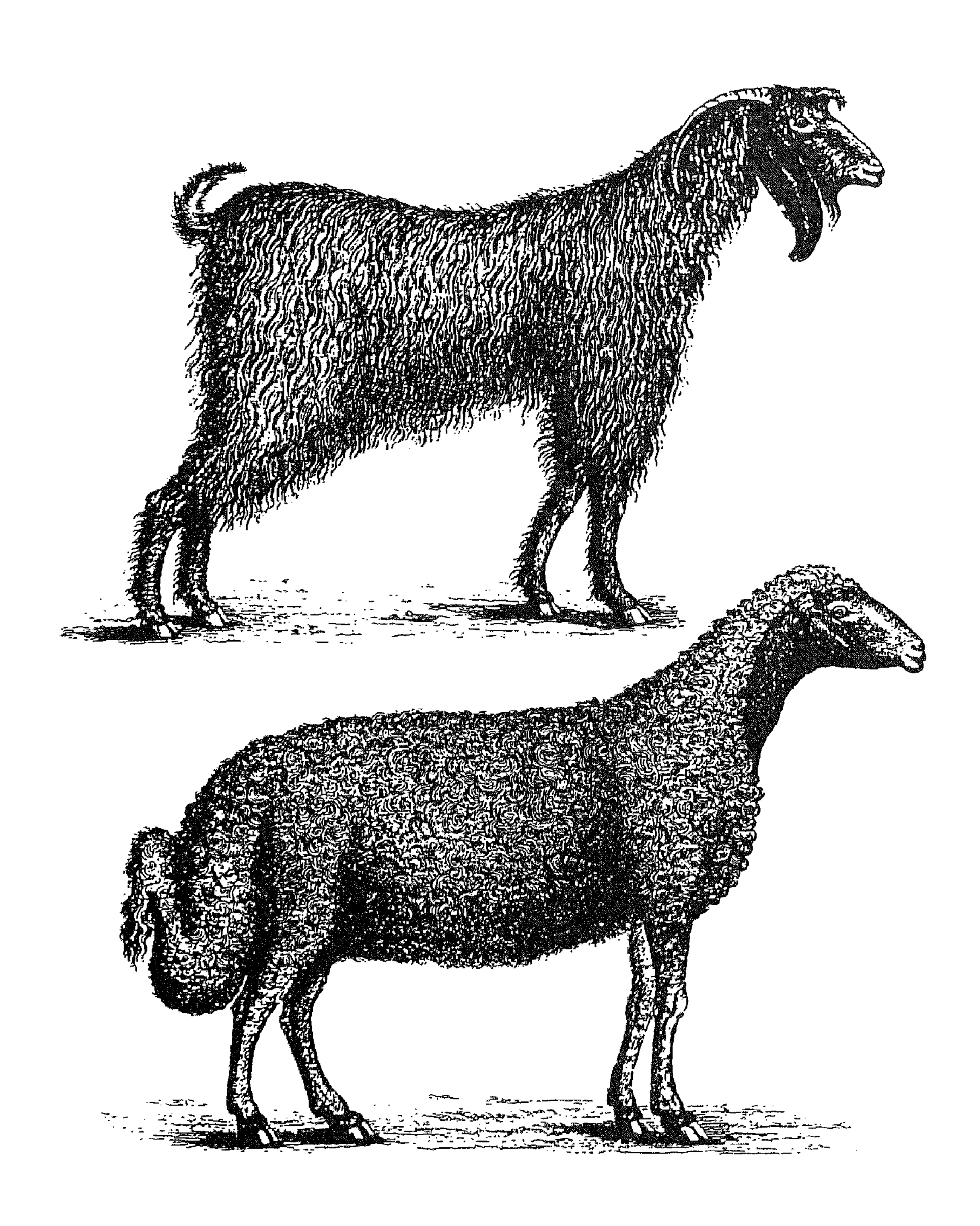
يوجد نوعان من الأغنام في حلب: الأول يدعى غنم البدو، ويختلف قليلاً عن السلالة الكبيرة الحجم في بريطانيا، ما عدا أن الألية أطول وأكثر سماكة. أما النوع الثاني، وهو الأكثر شيوعاً، فقد لاحظه جميع الرحالة الشرقيين بسبب ضخامة إليته. ويزن جسم الغنمة الواحدة بدون الرأس والأقدام والأحشاء والجلد حوالي خمسين إلى ستين باوند، تشكل الألية منها ١٥ باونداً. أما بعض أكثر الأنواع ضخامة التي يتم تسمينها بعناية، فتزن في بعض الأحيان مائة وخمسين باونداً، وتشكل الألية وحدها ثلث الوزن الكلي* . وتكسو هذه الألية العريضة المنبسطة غالباً صوف طويل، وتصبح صغيرة جداً في نهايتها، كما في الشكل المبين في الرسم. وهي مكونة من مخ العظام والدهن، وتستعمل في غالب الأحيان في الطهي بدلاً من السمن، وتقطع قطعاً صغيرة وتقدم في أطعمة مختلفة.

يستخدم السكان المحليون الجلد المأخوذ من تحت الألية كعلاج للالتواء وتورم المفاصل المؤلم، إذ يوضع الجلد المأخوذ من غنمة مذبوحة حديثاً، فوق المكان المتورم، ويترك حتى يفسد إلى درجة لا تحتمل، ويتم ذلك عادة في أقل من أربع وعشرين ساعة. كما يستخدم العلاج نفسه على الرأس وأسفل البطن في حالات الحميات، بهدف إزالة الانسدادات الداخلية؛ و في مثل هذه الحالات، يزداد الجلد عفونة بسرعة، ويصبح مزعجاً جداً للحاضرين، وبشكل عام فهو يضر المريض. ونادراً ما لاحظت وجود فائدة تذكر من هذه الطريقة إلا في حالات ألم الروماتيزم المزمن.

أما الأغنام الضخمة الحجم إلى حد غير اعتيادي المذكورة أعلاه فهي نادرة جداً، وعادة ما توضع في الباحات لكي لا تتعرض لخطر إيذاء إليتها وهي تمشي. أما في الحقول، فيقوم الرعاة في أماكن عديدة من سورية، بتثبيت لوح خشبي رفيع في الجزء السفلي من الألية غير المغطى بالصوف، وتضاف إليه في بعض الأحيان دواليب صغيرة للحيلولة دون إصابتها بأي ضرر نتيجة احتكاكها بالشجيرات. ومن هنا جاءتنا قصة الأغنام الشرقية التي تحتاج إلى عربات لحمل إليتها، مع شيء من المبالغة.

---

* يؤكد ليو الإفريقي Leo Africanus بأنه رأى في أسيوط بمصر ألية غنمة تزن عشرين باونداً. ويتحدث Symon Simion في كتابه'الرحلات' عن إليات غنم في مصر تزن سبعين باونداً (الرحلات-١٧٧٨ ص٣٩). إلا أن هذه الإليات الضخمة نجمت عن تغذية الحيوانات بالنخالة والشعير. أما إليات الأغنام الأخرى التي تناولت علفها المعتاد فيتراوح وزنها بين عشرة وعشرين باونداً. ويستشهد Busson بتسعة أو عشرة رحالة شاهدوا هذا النوع من الأغنام في تلك الأصقاع من العالم. ووجد أن وزن الألية يتراوح بين عشرين وثلاثين باونداً. ويقول Villamont بأنه رآها في سورية ..الخ، وتزن بين ثلاثة وثلاثين باونداً وأكثر. وندما يسير الحيوان، تتأرجح الألية بصورة غريبة. وقال لي رعاة إنه في حالات معينة تحتاج إلى مساعدة. إما إذا لم يكن وزن الألية يتجاوز الوزن العادي بين ١٥- ٢٠ باوند، فإن الكبش يتمكن من التغلب على هذا العائق.



ثمة مبالغة عند تطبيق هذه القصة على الأغنام الموجودة بالقرب من حلب، لأنه رغم أن زيادة حجم الألية يعرضها للإصابة بالضرر من الأشواك أو الشجيرات، فلا يكون ثمة فائدة عندئذ من وضع اللوح، ولا تكون للدواليب فائدة كبيرة، إذ مهما بلغ حجمها من الضخامة فلا يجعلها تنسحب على الأرض. أما ضرورة استخدام العربات لإليات الأغنام الإفريقية التي ذكرها هيرودوتوس ولودولفوس وكتّاب آخرون فهو أمر حقيقي. إذ تنجر ألية ذلك الحيوان عندما يكون سميناً فعلاً، لأنها لا تكون مرفوعة مثل الأغنام في سورية. وشاهدت بعضها في حلب كانت قد جلبت من مصر وعرضت للفرجة، وهي تنطبق تماماً مع الوصف الذي قدمه لودولفوس، وفي الصورة المرسومة عن غنمة Barbory الواردة في تاريخ Busson، فإن الألية مرسومة بشكل مستقيم، ولكنها هزيلة بالمقارنة مع أغنام Barbary التي أتيحت لي فرصة مشاهدتها.

إن لحم الضأن مدهن ومذاقه طيب طوال السنة، باستثناء أسابيع قليلة في الربيع، ويعوض النقص الحاصل بحملان ممتازة. وهو يشكل الجزء الأهم من الغذاء الحيواني بالنسبة للحلبيين، وتزود بها الأسواق دائماً بوفرة.

ثمة نوعان من الماعز، يختلف أحدها قليلاً جداً عن النوع البريطاني، ولا يقل النوع الثاني أهمية عن الأغنام لحجم ذيلها الكبير. والماعز السوري أكبر من النوع الشائع في بريطانيا، وله أذنان تتأرجحان ويبلغ طولهما قدم واحد. وطعم لحم الجدي لذيذ، ويجلب إلى السوق في الربيع والخريف، ويطلب الماعز لحليبه الذي يمتاز بمذاقه الحلو ونكهته الطيبة، وتوفر الأراضي المرتفعة في جوار المدينة مرعى ممتاز له.

توجد الخنازير البرية غالباً في التلال المجاورة، وفي الريف حول قرية الجبول وبحيرة الملح، وتقترب في بعض الأحيان من المدينة كثيراً . وقد علمت أنها كانت تدخل إلى البساتين على بعد نصف ميل من المدينة. وفي إحدى المرات، تمت مطاردة خنزير، فجرى نحو المدينة مباشرة ودخل باب الجنان، وعبر شوارع عديدة قبل أن يدخل باحة الجامع الكبير حيث اختبأ هناك* . ولم يعترضه أحد وهو يجري في الطرقات. وبما أن المسلمين يستهجنونه، ليس خوفاً منه فقط، بل لأنهم يعتبرونه كذلك حيواناً قذراً، فقد قبع بأمان في مخبئه لايجرؤ أحد على الاقتراب منه، حتى تمكن بعض الأشخاص من طرده. واعتبر بعض ممن يؤمنون بالخرافات أن حدوث ذلك في بداية الحرب الروسية في ١٧٦٨ كان نذير شؤم في المستقبل.

وعادة ما يطلق الفلاحون النار عليه، ويكمنون له قرب جداول الأنهار التي تأتي إليها ليلاً لتشرب، ثم يحملونه إلى المدينة على ظهور الحمير ويبيعونه. وفي السابق، كانوا يأتون به إلى إحدى القنصليات حيث يذبح ؛ أما في الآونة الأخيرة، فقد أصبحوا يعرضونه للبيع لعامة الناس في الجديدة.

كان اصطياد الخنازير البرية فيما مضى يعتبر إحدى الرياضات المفضلة لدى أفراد الجالية الإنكليزية، إلا أنهم توقفوا عن ذلك منذ فترة طويلة.

---

* يعتقد مؤرخو حلب الغزي والطباخ وغيرهما أن سبب تبليط أو تبديل بلاط الجامع الأموي يعود إلى هذا الأمر وذلك لإزالة النجاسة التي حصلت بسبب هذا الخنزير (المترجم).

ويقال إن الخنزير البري يتغذى على جذور نبات السوس بشكل رئيسي وهي التي تنمو بكثرة في السهول باتجاه الصحراء. ويكون لحمه لذيذاً في الخريف وبداية الشتاء، ومكتنزاً وجيد الهضم. أما الخنزير المدجن فهو نادر في حلب، إذ لا ترى الخنازير البرية هناك، إلا بين الحين والآخر من قبل الإفرنج في إسطبلاتهم الخاصة، عندما يتلقونها كهدية ترسل من قبرص أو من السفن الإنكليزية الراسية في الاسكندرونة.

يذكر Prosper Alpinus، أن معظم المسلمين والمغاربة يحتفظون بخنازير صغيرة في اسطبلاتهم، لاعتقادهم أنها تخدم الخيول؛ ولذلك (وبما أن تناول لحمه محرم) فهم يقايضون خنزيراً عمره سنة بخنزير صغير، ويقول إن لحمه ألذ مذاقاً، وأخف هضماً من الخنزير الموجود في أوروبا.

تكثر الغزلان في الريف حول حلب، ويميز السكان بين غزلان الجبال وغزلان السهول. وتعتبر غزلان الجبال في غاية الجمال، إذ أن لون ظهرها ورقبتها بني غامق، وتتمتع بحيوية بالغة. أما النوع الآخر، فلونه أكشف بكثير، وأطرافه ليست أنيقة، ولا يتمتع بنفس القوة و النشاط. وكلا النوعين سريع جداً، حتى إن كلاب الصيد، رغم أنها تعتبر ممتازة، لا تستطيع اللحاق بها دون مساعدة الباز (الصقر) إلا في الأراضي الطرية العميقة. وهي تعيش في مجموعات، وتظهر غالباً في قطعان ضخمة على مسافة أميال قليلة من المدينة. وإذا اقترب الخيالة برفق منها، ولم يكن معهم كلاب، فهي تدعهم يقتربون منها، ولاتشعر بالخطر عند مرور قافلة على مسافة قليلة منها. إلا أنها ما إن تشعر بالخطر حتى تلوذ بالفرار، وتلقي نظرة وراءها وهي تعدو بين الحين والآخر، فإذا تبين لها أنها مطاردة، جعلت قرونها إلى الوراء قريبة من الأكتاف، وتركض بسرعة فائقة. وعندما تظهر كلاب، تشعر بالخطر على الفور، ولهذا السبب يحاول الصيادون مباغتة الغزلان، والاقتراب منها قدر الإمكان قبل إطلاق الكلاب ، ثم يندفعون بكامل سرعتهم، ويطلقون الباز (الصقر)، الذي يدربونه على نقر خد الطريدة، ويؤخر انطلاقها بواسطة هجمات متكررة، لكي يتيح الوقت لكلاب الصيد باللحاق بها، وهذه الرياضة نبيلة، إلا أن الصياد يجب أن يمتطي الخيل بصعوبة ويتوقع تعرضه لخطر الموت.

ويقدم Hasslequist وصفاً عن عملية صيد الغزلان بالصقر وحدها وقد أتيحت له فرصة مشاهدتها في الناصرة، إلا أن ذلك لا يمارس في حلب. كما يلاحظ بأنه عند اصطياد هذا الحيوان، فإنه يبدي حباً لدخان التبغ.

وإذا اصطيد الغزال حياً يصبح أليفاً بسرعة (إلا إذا كان كبيراً في السن)، ويترك ليسرح في الباحة، أو في الخان العام، ويقترب من الناس وهم يتناولون طعامهم. وقد لاحظت مرات عديدة الغزلان، وهي تتنشق رائحة الدخان الذي ينفخ في وجهها عن قصد، إلا أن ذلك لم يثر اهتمامي على أنه أمر خاص بالغزلان، لأني لاحظت أن الماعز والأغنام التي كانت تدجن بنفس الطريقة، تفعل الشيء نفسه.

يكون لحم الغزال خلال الشتاء أو موسم الصيد طيب المذاق، وأحمر جداً. وفي الربيع يصبح مدهناً ويكاد مذاقه ينافس حتى لحم الغزال الإنكليزي؛ وتقدم الغزلان التي يتم تسمينها في البيوت أحياناً على موائد الإفرنج، إلا أن الذواقة يعتبرون مذاقه أقل جودة من الغزال البري.

يقسم الأرنب البري كذلك إلى نوعين يختلفان كثيراً من حيث الحجم. وأكبرها هو الأرنب التركماني الذي يرتاد السهول بشكل رئيسي، في حين يرتاد الأرنب البري العادي الصحراء؛ ويتوفر النوعان بكثرة، ويوفران رياضة رائعة في الشتاء. وكان الإنكليز من أفراد الجالية يصطادونه في الماضي بواسطة الكلاب السلوقية الإنكليزية، التي كانوا يضطرون إلى جلبها سنوياً من بريطانيا، بيد أن عدداً قليلاً منها كان يتمكن من تحمل الفصل الحار. وتبين أن هذه السلالة آخذة في التدهور بسرعة. وقيل لي إن كلاب الصيد الإنكليزية فقدت نصف حاسة شمها في الجيل الأول، ومع مرور الزمن فقدت هذه الحاسة كلها. ويستخدم الإنكليز حالياً كلاب صيد محلية بمساعدة صقر من نفس النوع المستخدم لصيد الغزلان. وتتألف فرقة الصيد من عشرين أو ثلاثين خيالاً بما فيهم الخدم الذين يصطفون على مسافة ستة أو ثمانية أقدام. وقرب كل طرف من الخط، الذي يسمى 'برابر*'، يقود أشخاص زوجين من كلاب الصيد، ويتقدمون قليلاً نحو الوسط، ويكون حامل الصقر ممتطياً حصانه. ويجدر بالذكر أن قادة الكلاب يتمتعون بمهارة تثير الدهشة في العثور على الأرانب. ويشجعهم على ذلك مكافأة تقدم لهم إذا أصدروا تنبيهاً في الوقت الملائم بالصراخ 'ياتو' (أي هي نائمة)، ويتقدم البرابر في هذا النسق ببطء، وما أن يتمكن من تحديد مكان الأرنب، حتى ينطلق كلب سلوقي أو زوج من أقرب الكلاب إلى الأرنب، فيلحقها حامل الصقر ويطلقه. ويلحقها من يريد من أفراد المجموعة، في حين يبقى الآخرون واقفين في البرابر، الذي يعود إليه الصيادون عندما يفرغون من المطاردة. ولا يستطيع الأرنب الجري لفترة طويلة، إذا كان سلوك الصقر صحيحاً، إلا أنه يسبق الكلاب في بعض الأحيان، ويصل إلى التلة التالية ويهرب. ويحدث من حين لآخر، عندما يكون الصقر قاسياً وضارياً بطريقة غير معتادة أن يصاب الأرنب بمقتل من أول ضربة، لكن ذلك أمر غير شائع، لأن الصقور التي يفضل استخدامها لصيد الأرانب تدرب على الوثوب والانقضاض على الفريسة، ولا تمسكها، وترتفع قليلاً بين كل هجمة وأخرى لكي تنقض ثانية بقوة جديدة. وبهذه الطريقة تضطرب الفريسة، وتبدأ تتعثر حتى تصل الكلاب السلوقية إليها.

وعندما يخرج الباشا أو الأعيان الآخرون إلى الصيد، يتألف البرابر من ثلاثمائة أو أربعمائة صياد، وفي بعض الأحيان يتسلل أرنب، وينطلق من الأرض التي كانوا قد عبروها، من المؤخرة. وفي البرابر الأصغر حجماً، يحدث ذلك بشكل متكرر.

يلاحظ على الأرانب في سورية أنها عندما تصاب بالإنهاك، تلجأ إلى الحفر الموجودة في الأرض أو في الصخور. وهذا (كما علمت) غير شائع كثيراً في إنكلترا وفرنسا. وفي كتابه Journal، يذكر Carmichael أن السفر يصبح غير ملائم في بعض أجزاء من الصحراء نتيجة الجحور التي تحدثها الأرانب البرية. ويقول Plaisted "إن هذه (الأرانب) تحفر حفراً، وكان عددها كبيراً جداً في الصحراء مثل 'مربى الأرانب في إنكلترا'. إلا أنه يضيف 'انتابني الشك بوجود حيوانات أخرى تحدث الجحور تحت الأرضية، رغم أنه لم يحالفني الحظ برؤية أحدها'. ولا يذكر Carmichael أنه شاهد الجربوع. ولا يبدو أن

---

* برابر: كلمة تركية من أصل فارسي بمعنى التناسق (المترجم).

Plaisted الذي كان قد صادف أعداداً منها في الصحراء، قد انتابه شك في أنها هي التي تحدث الجحور. إلا أنه نظراً لأن الحيوانين موجودان في نفس الأماكن، ومما أورده كتّاب آخرون، ثمة شك ضعيف بأن الجحور لا تحدثها الأرانب البرية، ولا تستخدمها إلا للالتجاء إليها أحياناً، كما تفعل الحفر بالقرب من حلب التي تختبئ فيها الأرانب البرية. وعندما تختبئ الأرانب في الأرض، عادة ما تتمكن من الفرار، إلا أنه تبذل في بعض الأحيان جهود لإخراجها. وكان أحد الرجال الإنكليز من الجالية، قد فقد حياته في القرن الماضي في محاولة من هذا النوع. إذ يذكر السيد Sherman، الذي وصل إلى حلب في عام ١٦٨٨، وأقام فيها أكثر من ستين عاماً، أنه سمع بأن يد الشاب كانت قد تورمت على الفور، وانتابه ألم شديد، وبأنه أخذ يتقيأ. ومما سمعته في حلب، حيث كان هذا الحادث يذكر لتنبيه القادمين الجدد، فإني أنحو للظن بأنهم كانوا يبحثون عبثاً عن ثعبان. ومن رواية نقلها شاب إلى الجمعية الملكية، كان موجوداً في ذلك الحين، يستشف أنه كانت تجرى تجارب كثيرة على الثعابين، التي كانت تقتل بإسقاط زيت التبغ في فمها فيما بعد.

ويلاحظ أن كلباً هلك بعد ثماني ساعات، وديكين هنديين بعد ثلاث ساعات من لدغها؛ أما الشخص المنكود الحظ، فقد عاش خمس ساعات فقط حسب رواية .Goodyear

توجد الأرانب البرية بكثرة في المناطق المجاورة، لذا فإن مشاهدة الصيادين مرتين في الأسبوع وهم في طريق عودتهم يحملون أربعة أو خمسة أزواج معلقة على أحزمة خيول الخدم بزهو يعتبر مشهداً معتاداً. ولا يغرم المسلمون أو الحلبيون الآخرون بلحم الأرانب، ما عدا البدو، الذين يحضرونه بالطريقة التالية: تحفر حفرة في الأرض، وتملأ بأخشاب الشجيرات الجافة حسب توفرها في البادية. وعندما تشعل النار جيداً توضع فوقها الأرنب دون أي تحضير مسبق، بل حتى دون نزع منخارها أو أمعائها، وعندما تتوقف النار عن الاشتعال، يكون التراب المحفور، والذي وضع على الجوانب قد ساخن جيداً، وتشكل مرقته مع قليل من الملح صلصة جيدة، ويقول الذين تناولوه بأنه كان لذيذاً ورائعاً، وقد ذكر M. Busson أنه لا يوجد ثمة طلب على لحم الأرنب البري من قبل الشرقيين، ويضيف أن الشريعة الإسلامية تحرمه، كما حرمه موسى من قبل. إلا أني اعتقد أنه مخطئ في ذلك. فمن المؤكد أن لحم الخنزير محرم عند المسلمين وليس لحم الأرنب. ويمتنع المسيحيون الأرمن عن تناول الأرنب البري من منطلق ديني. وعلى غرار الإغريق، وضع الكتّاب العرب اعتراضات فيزيائية على تناول لحم الأرنب البري كطعام.

أما الأرنب (العادي) فهو نادر في المناطق القريبة من حلب، ويربى بعضها في البيوت لتقديمها للإفرنج، إلا أن المسلمين نادراً ما يتناولون لحمه، أو لا يتناولونه أبداً، ولا يتناوله اليهود، شأنه شأن الأرنب البري، الذي يحرمه موسى. ويتم ارتداء فرو الأرنب الأبيض كثيراً في حلب، أما الفرو الأسود الذي تستورد أفضل نوعيات منه من إنكلترا، فيبلغ سعره الضعف، و ثمة طلب شديد عليه بين المشتغلين في القانون.

رغم أن الفلاحين يجلبون الدلدل (القنفذ) في بعض الأحيان إلى المدينة، فإن ذلك لمجرد الفرجة، وليس لتناوله، رغم أنه يقدم في بعض الأحيان على موائد الإفرنج.

ولا تزال فكرة قذف ريشه الحاد سائدة في سورية. ولم أصادف أبداً شخصاً شاهد ذلك. إلا أن ذلك مدوّن في الكتب، وهو أمر لا يشك في صحته.

يعتبر السكان المحليون أن الدلدل من نوع واحد، وهو يوجد في الحقول بكثرة، إلا أنه لايستخدم إلا لأغراض طبية* . ورغم أنه يطلق على كل من القنفذ (Porcupine) والدلدل Hedge - hog في حلب اسم القنفذ، فإن المؤلفين العرب يميزونه باسم الدُلدُل.

لا يؤكل اليربوع** في حلب، كما لا يأكله البدو في المناطق المجاورة، إلا أنه يؤكل في بعض الأحيان في قافلة البصرة، حيث تتاح للبدو فرصة اصطياده. ويقال إن مذاق لحمه طيب. ويوجد بكثرة على مسافة بضعة أميال من المدينة، ويمكن الحصول عليه بسهولة في الصيف بواسطة الفلاحين في الجبول والسفيرة. وفي البداية، كانوا يصطادونه بطريقة تؤدي إلى كسر ساقيه الخلفيتين. ثم أصبحوا يصطادونه في مصايد، وكانوا في بعض الأحيان يحفرون الجحر لإخراج الأنثى مع جميع فراخها. وحسب رواية البدو، فإن هذا الحيوان نادراً ما يظهر أثناء النهار، لذلك تنصب الشراك له في الليل، إذ تخرج لتأكل. وعندما تتم مطاردتها تهرب إلى الجحر، وغالباً ما تهرب من ممر خفي من الخارج، ويقول أفراد الجالية في حلب، الذين اكتشفوا في البداية تدمر في الصحراء، أن خيولهم وبغالهم كانت تتعرض لمضايقات من الجرذان التي كانوا يصادفونها على الطريق.

---

* عندما يوصف القنفذ طبياً، فالمقصود الدلدل، إذ يوصف لحمه خاصة للأمراض التي تحدث نتيجة فزع مفاجئ والتي يسميها الحلبيون 'الرعبة'.

** اليربوع (الجربوع): رأسه مستدير، وأنفه قصير ومسطح، وعيناه كبيرتان، وهو أسود اللون ونشيط بشكل كبير. ولسانه قصير، وله أربعة أسنان، وهي طويلة ومستدقة ومنحنية قليلاً. ويثقب السنان العلويان، وهما الأقصر، الشفة العليا، وعندما يكون الفم مغلقاً، يقبعان فوق السنين السفليين. والأذنان رفيعتان جداً، ومكسوتان بزغب ناعم رمادي اللون. ولون الشعر على الظهر بني خفيف قرب الجذر، ورمادي مائل للحمرة في النهايات، وهو ناعم للغاية، وطوله حوالي ثلثي البوصة. والشعر على الجزء العلوي من اللون ذاته، إلا أنه مائل للأبيض على الجوانب وحول العينين، وعلى الرقبة والبطن فهو أبيض تماماً. والفرو على الظهر يلمع كثيراً، والساقان الأماميتان مكسوتان بالشعر الأبيض. ويوجد في كل قدم أمامية أربع أصابع ذات مخالب مستدقة ومنحنية قليلاً عند نهايتها، ويوجد في الكف خمس عقد غير متساوية. والساقان الخلفيتان مستدقان وطويلتان بشكل غير متناسب. وفي القدم ثلاث أصابع بارزة جداً عند النهايات، وعند باطن القدم توجد عقدة هرمية الشكل. وفيما يلي مقاييس اليربوع من الحجم الكبير:

الحجم الكبير	بوصة
من طرف الأنف إلى جذر الذيل	
من الجذر وحتى رأس الذيل	
كل أذن	
أطول شعرة من الشارب	
محيط البدن	

تم تربية عدة يرابيع لعدة أشهر، بيد أنها لم تتوالد، وماتت جميعها كبيرها وصغيرها خلال أيام، ما عدا واحدة ولدت في القفص. إلا أنها سرعان ما قتلت صغارها والتهمتها واحداً بعد الآخر. كما لوحظ، أنه عندما تواجد يربوعان في قفص واحد، ومات أحدهما، فإن اليربوع الآخر يلتهمه على الفور، رغم عدم حاجته للطعام. ووجدت أنه من الضروري وضع صفائح من القصدير في القفص، وكانت تقضم بدون توقف وهي مستيقظة. وعندما أطلقتها ووضعتها في غرفة كبيرة، أخذت تتقافز بنشاط بالغ. وإذا ماشعرت بالخوف أو تم مطاردتها، قفزت إلى الأعلى، وإلى الأمام إلى مسافة تزيد على خمس أقدام بقفزة واحدة. وبعد فترة طويلة من احتجازها، عادت إلى نشاطها المعهود كما كانت في الصحراء. ومع اقتراب الشتاء، بدأت بالنعاس ونامت يوماً أو يومين أو أكثر بشكل مستمر بدون طعام. ثم استيقظت لمدة يومين أو ثلاثة أيام، وكانت حيوية في الليل كالمعتاد. وفي منتصف الشتاء بقيت نائمة أحياناً لمدة ثمانية أيام مستمرة دون أن تذوق طعاماً. ولم تكن ثمة دلائل على وجود حياة فيها، إذ كانت أطرافها متصلبة، وأجسادها باردة عند الملمس، وإذا ما وضعت بالقرب من النار وهي في هذه الحالة، كانت تفيق في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تبدي أحاسيس ضعيفة.

لا يشكل الجمل جزءاً من طعام سكان المدينة، إلا أن البدو يفضلون لحم الجمل الصغير كثيراً، وإذا أصيب جمل في القافلة بحادثة وأصبح أعرج، فإنه يذبح على الفور ويتناوله الجميع. ومن بين حيوانات النقل الأخرى فهو أسهلها للرعاية، ويتحمل العطش كثيراً. وهو مفيد جداً في بلد لا يتوافر فيه المياه والكلأ في أماكن كثيرة، ويستخدم في بعض الأحيان لنقل الأحجار الكبيرة، نظراً لأن العربات ذات الدواليب غير معروفة.

ثمة أربعة أنوع من الجمال تشاهد في حلب وهي: التركماني، العربي، الدرميداري، والجمل ذو السنامين:

يمتاز الجمل التركماني بأنه أكبر حجماً، وأقوى وأغزر شعراً، ولونه داكن أكثر من الجمال الأخرى. ويحمل عادة مئة وستين روتيلو أو حوالي أربعمائة باوند من كل جانب، وبعضها قادر على حمل وزن أثقل بكثير. ونظراً لأن الجمل التركماني غير قادر على مقاومة الحرارة الشديدة كالجمل العربي، فقلما يستخدم خلال أشهر حزيران وتموز وآب للرحلات الطويلة؛ وهو أقل انقياداً ويتطلب علفه عناية أكثر.

أما الجمل العربي فهو أصغر حجماً بكثير، وأكثر رشاقة ، وأقل شعراً، ولونه بني فاتح، وقلما يحمل أكثر من مئتين وخمسين باوندا على كل جانب، ولا يحتاج كثيراً كسابقه إلى علفه بعليقة من الشعير والتبن المقطع، بل يكتفي برعي الأشواك الجافة أو أية أعشاب برية أخرى يجدها في طريقه، وبوسعه أن يتحمل عدم وجود الماء إلى درجة لا تصدق.

وأذكر أن الجمال في قافلة البصرة بقيت بدون ماء لمدة خمسة عشر يوماً. ولكن ذلك يعتبر أمراً خارقاً للعادة، لأنه لم يذكر أحد من السكان المحليين حادثة مشابهة. فالقوافل التي تنتقل بين حلب والبصرة، نادراً ما تبقى بدون ماء لأكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، رغم أنها في بعض الأحيان تضطر لأن تحيد عن مسارها بسبب الحروب الداخلية بين القبائل العربية، فتعاني الجمال من نقص الماء لمدة ستة أو سبعة أيام. ويذكر معظم

الرحالة هذا الامتناع عن الماء غير العادي، ويؤكد ليو الإفريقي على أنها قادرة على التحمل لمدة خمسة عشر يوماً دون أن تتأثر صحتها.

وبعد انقطاع طويل عن المياه، فإن الجمال العربية تشرب بنهم شديد حال عثورها على أول مصدر للماء، الأمر الذي يؤدي إلى هلاك بعضها. ومن الأمثلة العديدة على ذلك، ما حدث لقافلة مكة بقيادة أسعد باشا، وكانت قد غيرت مسارها لتفادي بعض القبائل المتناحرة في الصحراء، إذ تعرضت إلى محنة شديدة. وأكد لي أحد الحجاج وكان موجوداً فيها، على أن مكان الماء كان يقع على مسافة تبعد أكثر من ساعة، وقبل أن يدرك أي شخص من القافلة ذلك، اندفع عدد من الجمال، كما لو كان ذلك بدافع الغريزة، إلى بحيرة الماء، ورغم كل الجهود التي بذلها الحادون (ج حادٍ) لمنعها من ذلك، وشرب بعضها كميات كبيرة من الماء ونفقت في مكانها.

من الملاحظ أن الجمال تفضل في بعض الأحيان الماء المالح. فقد راقبتها عدة مرات في الاسكندرونة، حيث كانت تهرع باتجاه الشاطئ حالما تفرغ حمولتها في المستودع البحري التابع للجالية، وتعبر في طريقها مستنقع ماء عذب، وتندفع نحو البحر حتى الركب وتشرب الماء المالح. ولا يدفعها في ذلك العطش في هذه الحالة، لأن المراحل التي قطعتها من قرموط أو بيلان قصيرة، والمياه متوفرة بكثرة على الطريق.

تسير قافلة البصرة المؤلفة من الجمال العربية أكثر من ميلين بالساعة بقليل.

تجلب الجمال العربية بأعداد كبيرة من الشرق عبر الصحراء بغرض البيع؛ ويقدر أن أربعة أو خمسة آلاف رأس منها يصل في قافلة واحدة. ويكون معظمها بدون أحمال، ويحصل المحصل رسماً كبيراً على كل رأس. وهي تساعد كثيراً في تحسين نوعية الجمال التركمانية، إذ يضم النوع الذي ينتج عن ذلك الهجين الصفات الجيدة لكليهما؛ فمن حيث القوة واللون تشبه الجمال التركمانية، إلا أنها ترث مزاجاً ألطف من الجمال العربية، فتصبح طيعة أكثر، وأقل عرضة لرمي حملها. ويسير هذا النوع الهجين عندما يكون محملاً، بمعدل ميلين وثلث في الساعة، وعندما تستحث أكثر تزيد من سرعتها. وتتمثل طريقة سير الجمل المعتادة في رفع ساقين من جانب واحد، وتعقب الواحدة الأخرى على الفور. ولا تحرك الساقان جانبياً بالطريقة التي تتبعها معظم ذوات الأربع. أما جمل الدرميداري، فكل ما علمته أنه سلالة ممتازة من سلالات الجمل العربي. فهو أرشق وأطرافه ممشوقة، وسنامه أصغر، وهو بشكل عام حيوان أجمل من الجمال الأخرى. وهو نشيط في حركته، ويقال إنه يستطيع أن يسير في يوم واحد ما تسيره الجمال في ثلاثة أو أربعة أيام.

ويستخدم المراسلون الذين يرسلهم الإفرنج بين حلب والبصرة الجمل العربي العادي. وبما أنهم ينامون على ظهر الجمل، فهم يسيرون عدداً أكبر من الساعات خلال الأربع والعشرين ساعة من مسيرة القافلة، وعموماً لا يتجاوزون خمسة وأربعين أو خمسين ميلاً في اليوم.

أما الجمل ذو السنامين، فهو سلالة فارسية. وهو أكبر حجماً وأكثف شعراً من الجمل التركماني، ويشبه لونه لون الجمل العربي، ويتميز بسناميه. ويوجد هذا الجمل في

بعض الأحيان في قوافل بغداد، ونادراً ما يشاهد في حلب.

يشاهد عدد قليل من الجمال بالقرب من المدينة، ولذا فإن لبنها نادر. غير أن السكان لا ينفرون منها، وعندما توجد بكثرة يستعملها البدو كثيراً.

ويستخدم وبر الجمل، الذي يُجز سنوياً لأغراض عديدة، وخاصة لصناعة نوع من اللباد الذي يكاد يكون كتيماً للماء، ويستخدم لتغطية بالات البضائع التي تتعرض في فصول معينة إلى أمطار غزيرة. وعندما تستريح القافلة، تمد على الأرض العارية، كما يصنع حداة الجمال ورعاتها عباءات ضخمة من اللباد، ويُستخدم روث الجمال للوقود، وتقوم لهذا الغرض البدويات وأطفال البدو بجمعه بالقرب من المضرب. وتضرب القوافل القادمة من البصرة مضاربها عادة على مسافة خمس أو ست ساعات من المدينة، ويقوم الإفرنج في بعض الأحيان بنزهات لزيارة المضرب. ولاحظت أن البدو مجدون في عملهم، وبعد ساعات قليلة من انطلاق القافلة، لا تبقى آثار من الأعداد الكبيرة التي كانت ضاربة خيامها مؤخراً، باستثناء الدلائل التي تبقى على الأرض لتدل على مكان إيقاد النار.

إن وصول إحدى هذه القوافل إلى الخان الكبير في حلب يتيح تسلية للأجنبي. إذ إن ثياب وشكل البدو الذين يقودون الجمال، وتوحش هذه الحيوانات وهي في حالتها الجديدة، أو الضجة التي تحدث من أجل تطويعها، تشكل كلها مشهداً فريداً. إذ إن جمال قافلة البصرة أقل اعتياداً على السير بين الجدران والبيوت من الجمال التركمانية، فتقاد بصعوبة بين الشوارع، ويستحيل السيطرة على الجمال الحارنة للدخول من بوابة المدينة، لذا يكون من المناسب تفريغ حمولتها خارج الأبواب، وتُنقل البالات إلى الجمرك على الحمير.

إن الصحراء التي تبعد مسافة ثلاثين ميلاً عن طريق البصرة، ليست تلك الأرض الجرداء التي توصف بها المناطق الداخلية، ولا يوجد مكان بالنسبة للقافلة يوافقماأشيع عنه من وجود القفار التي تملأ عادة عقل الرحالة، الذي يتطلع من التلال الموجودة حول بحيرة الملح (الجبول) ويشاهد المدى الواسع للمناطق الريفية الجرداء التي تقبع أمامه. وقلما تدعو الضرورة للذهاب إلى حجلة لإبداء الإعجاب بالصورة الملونة الزاهية عن الصحراء التي رسمها M. Busson.

بعد الجمل، يأتي الحمار في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بين دواب الحمل. وتستخدم قوافل كبيرة منه يومياً لإحضار الإمدادات من القرى. كما يستخدم في الحراثة. وفي داخل المدينة يشاهد الحمار في جميع الشوارع وهو يقوم بأعمال كثيرة. وهذا الحيوان قوي، ويتحمل المشاق، ويعمل بشكل لا يصدق، ويتعرض لأسوأ أنواع المعاملة أكثر من أي حيوان آخر يقوم بخدمة الإنسان. فيُضرب بدون رحمة عندما يحرن، وعند أدنى استفزاز تكال له الشتائم بكلمات قلما تسمع في مناسبات أخرى. إلا أنه لا يمكن السيطرة على روحه المتوفزة. وعندما يحمل أكثر من طاقته، وهذا مايحدث غالباً، فإما أن يستلقي على الأرض بتكاسل، أو يرمي الحمل عن ظهره بتحدٍ ويحاول الهرب.

والنوع الشائع، أكبر حجماً من الذي يشاهد عادة في بريطانيا. ويمتطي عامة الناس، والكثير من أفراد الطبقة المتوسطة الحمير. وقلما يشاهد العثمانيون وهم يمتطون

الحمير، بل يمتطون الخيول. ويستخدم المشايخ أو رجال الدين غالباً الحمير. ورغم استخدام كبار التجار للخيول، فهم لا يشعرون بالحرج، وخاصة إذا كانوا مسنين، بالخروج وهم يمتطون الحمير. وثمة نوع آخر أغلى ثمناً، طويل وأطرافه ممشوقة، ويسير بخفة، وبخطوات سهلة أو يسير خبباً. ويُعلف ويُزين كما الخيول.

وثمة نوع ثالث من هذا الحيوان يعرف باسم 'الجحش الشامي'، وهو شائع في دمشق أكثر من حلب. وله بدن طويل، ضخم، وأذناه طويلتان جداً، وهو أطول من النوع المعروف، وجلده أكثر نعومة، ولونه أعمق بكثير، وغالباً ما يستخدمه الخبازون لنقل الطحين والخشب. وإذا امتطاه الشخص وهو يجلس قريباً من الذيل، بدا عندئذ على شكل القنطور * إذا ماشوهد من الخلف.

توجد سلالات عديدة من البغال، وأرخصها البغال القادرة على حمل أثقال ثقيلة، التي وتستخدم في القوافل. أما النوع العادي فيستخدم في المطاحن والنواعير، ويكلف النوعان أقل مما تكلفه الخيول، وهي تصلح للسفر عبر الطرقات الوعرة في المناطق الجبلية أكثر. كما أن التجارة المحلية مع المدن البحرية، والمناطق الجبلية المجاورة لا تستخدم قوافل البغال بشكل رئيسي فحسب، بل ترسل كذلك حتى إلى الأستانة وأرضروم، أو أية مدن بعيدة أخرى في الشمال. ويعتبر المكاري الذي يقود القافلة شخصاً شجاعاً ومخلصاً. وفي هذه القوافل، يمتطي المسافرون الرجال البغال القليلة الحمولة، وإما أن تجلس النساء وهن مباعدات الساقين بنفس طريقة الرجال، أو يمتطين محفة خشبية تعلق على أحد جانبي البغل بشكل متوازن على بغل آخر. أما الأشخاص من طبقة معينة، فيسافرون في محفة يحملها بغلان. أما في داخل المدينة وفي النزهات إلى البساتين، فيُفضل استخدام الحمير، ويتم حمل الأمتعة على البغال. ولا توجد روايات صحيحة تتعلق بالتناسل بين البغال مع القمرة** التي لا تعتبر نادرة في مدينة الجزائر استناداً إلى شو، والموجودة في حلب؛ رغم أنهم يزعمون أن هذه السلالة توجد في قبرص وتسمى البغل القبرصي.

كانت تشتهر حلب قديماً بخيولها أكثر من الآن. وكما يقال، فإن السلالة قد تدهورت من خلال الإهمال. إلا أنه لا تزال توجد بعض الخيول الجميلة لدى الباشاوات أو الأعيان الآخرين. وينفق الأعيان جزءاً هاماً من النفقات السنوية المخصصة لاصطبلاتهم. أما الخيول التركمانية، فهي أكبر حجماً، وأقوى، وشكلها قتالي أكثر، ويفضلها العثمانيون على الخيول العربية. وتدرب على السير برشاقة بين الجموع، لكي تنطلق فجأة بسرعة تامة، والاستدارة إلى أحد الجانبين بلمسة خفيفة من راكبها، والتوقف حالاً عندما يرغب في ذلك. وبصورة عامة، فإن الخيول في سورية لا تدرب جيداً كما هي الحال في القاهرة.

---

* القنطور أو السنطور: وحش خرافي شطره الأعلى إنسان وشطره السفلي حيوان (المترجم).

** القمرة: كما يسميها الجزائريون، دابة من دواب الحمل يتم تناسلها بين حمار وبقرة وشاهدتها في مدينة الجزائر حيث لم تكن تعتبر حيواناً نادراً، وهي وحيدة الحافر كالحمار، إلا أنها تتميز عنه في أن جلده أكثر ملاسة.

تمتاز الخيول العربية بقوام رشيق أكثر، وأطرافها متناسقة وجميلة، وهي أكثر تحملاً للمشاق وأكثر سرعة. إن التقدير الذي يكنه العرب لها، والعناية الفائقة التي تبذل للحفاظ على نقاء السلالة، وعدم قبول العرب التخلي عن مهراتهم، أمور غالباً ما يذكرها الرحالة. ولا تزال هذه السلالة من الخيول موجودة في أجزاء من الجزيرة العربية.

تقتات الخيول عادة بالشعير المخلوط بتبن مقطع. وهي تعلف بانتظام في الصباح والمساء، ولا تتناول شيئاً خلال هذه الفترة. وفي الإسطبل، يوضع العلف أمامها في أجران. أما في الحقول، فيوضع في أكياس من الوبر، تربط حول رأس الخيل بحيث يمكنه العلف وهو واقف. وفي الربيع، تعلف الخيول لمدة أربعين أو خمسين يوماً بالشعير الأخضر الذي يُحش حالما تبدأ السنابل بالظهور. وتبقى في الحقول خلال هذه الفترة، وخلال الأيام الثمانية أو العشرة الأولى، لا يتم تمشيطها أو امتطاؤها أو حتى قيادتها. ثم توضع عليها العدة المعتادة، ويتم امتطاؤها برفق، ولا تجهد كثيراً في موسم نمو العشب. ويربط الإفرنج خيولهم في باحات اسطبلاتهم، أو في الحدائق، ويستمتعون بالجلوس بالقرب من خيولهم المفضلة، وينظرون إليها وهي تتناول علفها. أما خيول الأعيان فغالباً ما تربط في حقل الشعير، ويترك لها مجال محدد بواسطة دائرة طويلة من الحشيش المجفف. ويعتبر الرعي مفيداً جداً لصحة الخيول، ويكسب جلدها لمعاناً جميلاً. والإسطبل مفروش طوال الوقت ببقايا العلف الممزوج بروثها المجفف في الشمس. وفي الليل يوضع عليها قماش من اللباد، وتلبس بعناية فائقة في الصباح.

لا تربى الكلاب (التي يعتبرها المسلمون نجسة) في البيوت أبداً، إلا أنهم يعاملونها برفق، وهي تجوب الشوارع بأعداد كبيرة، وتنام في الأسواق ليلاً. إن الكلب الذي يطلقون عليه اسم كلب البازار (الكلاب الضالة) حيوان بشع جداً، فجلده قذر نتيجة ارتياده الشوارع باستمرار، ويتغذى على جميع أنواع سقط الذبائح* . وهي تعوي وتنبح بشكل مزعج جداً في الليل. ومن العناية الإلهية، أن هذه الكلاب لاتصاب بالجنون** بسبب العطش الذي تعاني منه خلال الأشهر الحارة.

أما الكلاب السلوقية (كلاب الصيد) فهي رشيقة جداً، وآذانها أطول من كلاب الصيد البريطانية. ومما يضاف إلى جمال هذا الحيوان أن أذنيه مكسوة بوبر ناعم طويل، وهي سريعة، إلا أن النوع الشائع قلما يتمكن من اللحاق بأرنب برية إذا لم يؤازره في ذلك الباز. إن عدد كلاب البوينتر (Pointer) قليل وهي سلالة فرنسية.

أما كلاب الرعاة فهي أكثر قوة وجمالاً من الكلاب الضالة. وهي لاتستخدم في جمع القطيع فحسب، بل في الدفاع عنه من الثعالب كذلك، أو للتحذير في الليل من مهاجمة حيوانات مفترسة أخرى القطيع. كما تمتثل للأوامر بشدة، وتبقى قريباً جداً من الراعي، الذي كما يلاحظ يسير أمام قطيعه دائماً.

---

* كالكرش والمصارين (المترجم).

** بعد وصولي إلى حلب بفترة وجيزة شاهدت حالة شككت في البداية أنها جنون الكلاب (الكَلَب) إلا أنه نظراً لأن أخي لم يصادف أي حالة من هذا النوع، وبما أنني لم أصادف حالة ثانية من هذا النوع، فمن المحتمل أن أكون مخطئاً.

بالإضافة إلى القط المعروف، توجد عندهم سلالة خليط بين ذلك القط والقط الفارسي. والقطة (العجمية) الحقيقية، التي تعتبر نادرة نسبياً في حلب، جميلة جداً، وتوجد بألوان متعددة. ولكن معظمها أبيض تماماً، ووبرها طويل جداً وناعم كالحرير، والذيل كثيف، والعينان في أغلب الأحيان مختلفة الألوان. وتجدر الملاحظة أن الكثير من القطط البيضاء صماء، وتتعرض جميعها، مهما كان لونها، إلى الإمساك، الذي يعرضها للموت وهي لاتزال على متن السفينة المتجهة إلى إنكلترا. ولا تنقذها المسهلات أو الغليسيرين، ويتعين عندئذ استخراج البراز المتصلب. والفائدة منها أقل من القطة الشائعة لأنها تعتبر مفضلة ولا تستخدم كثيراً لاصطياد الفئران.

لا يوجد شيء مميز في الجرذ (الجردون) والفأر، الذي ينتشر في معظم البيوت بشكل وبائي، ويضع الحلبيون، الذين قلما يستخدمون المصايد، زرنيخاً لقتلها، إلا أنه نشأت حوادث نجمت عن الماء الذي كان الحيوان المتسمم قد شرب منه. ونادراً ما تستخدم هذه الطريقة عند الأسر التي يوجد فيها أطفال. وقليلة هي البيوت التي لا توجد فيها قطة، كما أن الثعابين المنزلية تقضي على الفئران.

يوجد في الحقول عدد متنوع من فأر الحقل. وفي السنوات التي لا يحدث فيها صقيع في الشتاء، أو قليل من الصقيع، فإن هذه الحيوانات تلحق ضرراً شديداً بالحقول المزروعة. ويشجع البدو والفلاحون على قتلها لقاء مكافأة معينة على كل رأس مقتول. إلا أن الجربوع نادراً ما يوجد في أعداد كبيرة.

وفأر الحقل قصير الذيل. وهذا الحيوان يحدث أكبر الضرر بالحقول. وينتشر جرذ الماء حول حدائق البيوت بالقرب من النهر.

ويسهم الخلد في الأضرار التي تلحق بالحقول والبساتين، إلا أنه عدو أقل ضرراً من فأر الحقل، ولا تزعجه إلا الأمطار الغزيرة.

ثمة نوعان من الخفاش، أحدهما شائع جداً في المدينة، ويحلق فوق الأسواق وباحات المنازل بعد الغروب، عندما ينسحب السنونو الذي يملأ الجو عند المساء. أما النوع الثاني، فهو نادر الظهور، وهو أبيض اللون، وأذناه أطول من أذني النوع الأول.

يشاهد ابن عرس حول القرى، ونادراً ما يشاهد في المدينة. وتنبعث من جلده رائحة مزعجة دائماً، وفراؤه غير ذي قيمة؛ ويبدو أن ذلك بخلاف ما الحال عليه في أوروبا، حيث تتوفر لديهم طرائق متقدمة في معالجة الجلد.

يمكن سماع عواء ابن آوى من المصاطب داخل المدينة في سكون ليالي الصيف، بحيث يظن الغريب أنها على وشك اقتحام المنازل. وهي تلحق أضراراً بين الحين والآخر على أطراف الضواحي. وهي تكثر حول البساتين، وتمر كل مساء في أعداد أشبه بمجموعة من كلاب الصيد وهي تعوي، ولا تحدث إزعاجاً بصياحها البائس فقط، بل تلتهم كذلك الدواجن والإمدادات الأخرى في حدائق البيوت؛ كما يعرف عنها بأنها تفترس الأطفال الرضع. وفي أثناء النهار، تبقى صامتة، ولا تظهر أبداً في جماعات، ويُصادف كثيراً منها في البساتين إلا أنها تلوذ بالفرار دائماً كما لو أنها مذعورة، وتوجد أعداد كبيرة منها في الإسكندرونة حيث تقترب كثيراً من القرية، إلى حد أن البحارة الإنكليز يتسلون أحياناً في اصطيادها بالحبل والصنارة. وفي الليل، يُسمع عواؤها في السهول على متن السفن

الراسية في الخليج، كما لو أنها ستهاجم المكان وتثير فزعاً كبيراً. وتجدر الملاحظة، أن لون ابن آوى في الاسكندرونة وفي حلب ليس أصفر لامعاً، رغم أن بعض الظلال تكون باهتة أكثر من لون الثعالب.

تنتشر الثعالب في المناطق المجاورة. ورغم أن فراءها مطلوب لدى عامة الناس، فقلما تُصاد طلباً لفرائها، وعندما يصطادون الأرانب البرية فهم غالباً ما يصادفون الثعالب. ويقتلها الإفرنج عندما يخرجون للصيد. وهي بشكل عام أصغر حجماً من الثعالب الإنكليزية.

قلما يجرؤ الذئب على الاقتراب من المدينة كالثعلب، ويشاهده الصيادون في بعض الأحيان بين التلال في المناطق المجاورة. ويعاني القرويون والرعاة منها غالباً. ويُطلق عليها بالعربية كلمة 'ديب' وهو حيوان شائع في جميع أنحاء سورية.

كما يتحدث الحلبيون عن حيوان آخر اسمه 'شيب'* ، ويميزونه عن الذئب، ويعتبر أكثر توحشاً. ويقال إن عضته مميتة، وأنها تسبب الجنون قبل الموت. ويقال إن شكله يشبه كثيراً الذئب، ويصعب تمييزه عنه، ويعتبر حيواناً متميزاً، وخاصة بسبب تأثير عضته. ولعله مجرد ذئب مسعور.

ولم أشاهد أنا وأخي واحداً منها، رغم أننا سمعنا قصصاً عديدة عنه. ففي سنة ١٧٧٢، أحضر الجزء الأمامي من هذا الحيوان بالإضافة إلى ذيله إلى الدكتور فرير Freer)) من السفيرة، وأني ممتن له لوصف الأجزاء التي رآها.

أما الضبع فهي حيوان أكثر انتشاراً ومعروف أكثر من الشيب. ويصاد في بعض الأحيان حياً في التلال غير البعيدة عن المدينة، وينظر إليه السكان برعب شديد، وتنسب إليه قصص كثيرة سيئة تقترفها في الأصل بنات آوى والذئاب والثعالب. ويمكن تمييزه من مسافة بعيدة من طريقة مشيته وكأنه أعرج. وهو ينسحب ويهرب إن طورد، ولا يهاجم الإنسان إلا إذا تم استفزازه كثيراً أو بسبب الجوع. وتجوس الضبع في الليل خاصة، وقد تجرؤ على الاقتراب من المقابر في القرى، رغم أن الصيادين يشاهدونها أحياناً في أثناء النهار. ويؤكد الفلاحون أن بعض الأشخاص يصطادون الضبع أحياناً وهي حية، إذ يزحف شخص إلى عرينها ويغطيه بعباءة. ولابد للشخص الذي يقوم بذلك أن يفعل ذلك بدقة ومهارة. كما يذهب المؤلفون العرب شأواً أبعد من ذلك، ويؤكدون على أنه يجب على المرء أن يدمدم بكلمات معينة في الوقت الذي يقوم بذلك، ويقولون إن سلامة الشخص تتوقف على نطق هذه الكلمات، كما لو أن الحيوان يفهم اللغة العربية.

---

* كان رأسه غليظاً حول جذر الفكين. والأذنان منتصبتان، والأنف طويل ومستدير للأعلى عند القمة، والفم كبير وله ستة أسنان أمامية في كل فك، والأسنان العلوية أطول من السفلية. ويوجد نابان في كل فك. طولها إنش ومنحنية قليلاً. وعدد الأضراس عشرون وهي حادة مدببة، وبعضها ذو حدين. واللسان طويل وغليظ نحو الجذر. ويبدا أن حجم الحيوان يقارب كلب البازار الكبير (أكبر من الثعلب) ولون الظهر رمادي مائل للأصفر يتخلله قليل من الشعر الأسود. وشعر قاس وقصير، وذيله طويل وغزير، والساقان الأماميتان طويلتان ورشيقتان تشبه سيقان كلب الصيد.

وعندما كان Busbequius مسافراً باتجاه أنقرة في آسيا الوسطى، سمع قصة مماثلة، ولكن بفارق أن الضباع في ذلك البلد كانت تفقه اللغة التركية. وفي باربري يدمدم الصيادون كذلك بعدة كلمات؛ ولكن الواقع، كما يروي السيد بروس أنهم يدخلون المغارة التي يقبع فيها الحيوان، وهم يحملون مشعلاً بيدهم، ويندفعون نحوه فجأة، ويلقون فوقه حراماً ويجرونه إلى الخارج.

إن القصص الخرافية التي تروى عن هذا الحيوان لا تعد ولا تحصى، ومازال الناس يصدقون معظمها في سورية* .

يُجلب 'الوشق' أو 'الفهد' في بعض الأحيان من جبال طوروس، وخاصة حول مرعش حياً إلى المدينة لعرضه أمام الناس، وشأن الضبع تخاط شفتاه بشدة من أجل الأمان. وإما أن يكون هذا الحيوان نادراً في الأجزاء الجنوبية من طوروس، أو أن الناس لايبذلون جهداً في اصطياده، وذلك لأن لفروته قيمة كبيرة في حلب، ولذا يجلب بشكل رئيسي من البلدان الشمالية البعيدة. ولا يكون شعره طويلاً إلا على الصدر والبطن، وهو مبرقع بشكل جميل، ويستخدم للزركشة، لذا فإن الحيوان الواحد منه لا يوفر سوى قدر ضئيل من هذا الفراء الممتاز. وبالمقارنة مع الجلود التي تجلب إلى حلب من روسيا والبلدان الشمالية الأخرى، يبدو أن الحيوان أكبر من تلك الموجودة في الأصقاع العليا من طوروس. أما من حيث طول الشعر ونعومته، وجمال البقع فيه، فإن الوشق الذي شاهدته حياً من مرعش لا يبدو أقل شأناً.

رغم أن القط ذو الاثنين السوداوين، أو حسب مايسميه Pennant ، الوشق الفارسي، يشاهد في بعض الأحيان في حلب، وهو يجلب من مناطق بعيدة، وقد يكون منتشراً في المناطق المجاورة.

يعيش النمر في جبال الأمانوس، ويجلب في بعض الأحيان إلى حلب، إلا أنه أكثر شيوعاً في المناطق الجنوبية البعيدة، وفي الجبال الساحلية في سورية. ويطلق عليه العامة النمر، وتدور قصص كثيرة عن الضرر الذي يمارسه في الجبال، ومهاجمته للمسافرين في الليل على شاطئ البحر في لبنان. وقد سمعت عن أشخاص هوجموا ليلاً بين اللاذقية وطرابلس. ويذكر بول لوكاس (Paul Lucas) أنه صادف نمراً (ببر) بالقرب من جبال كراسترافان. ويخلط كثير من المؤلفين بين النمر والببر** .

وكانت الحيوانات التي أتيحت لي فرصة مشاهدتها في حلب أكبر حجماً نوعاً ما من النمر الذي وصفه Busson، أي طوله ما يقرب من أربعة أقدام.

يذكر أن الأسد (السبع) يرتاد نهر دجلة بالقرب من بغداد، وأصقاع أخرى من بلاد الرافدين. إلا أنه لا يشاهد أبداً على طريق قوافل البصرة في الصحراء أو إلى جنوب نهر الفرات. ولم يؤكد ذلك إلا حديثاً بالاستناد إلى معلومات من البدو؛ كما ذكر بعض الرحالة الأوائل عن وجود الأسد في غربي الفرات. ويصف Teixeira أسلوب الحراسة في

---

* يقر بعض الكتّاب العرب بالخرافة القائلة بأن الضبع يغير من جنسه بين سنة وأخرى، كما كان يعتقد الكثير من الإغريق، رغم أن أرسطو كان قد نفى ذلك تماماً.

** قط مخطط (المترجم).

القافلة فيقول: يبقى حارس طوال الليل، والنار موقدة تحسباً لهجوم قطاع الطرق الموجودين في تلك المناطق (قرب حمام علي*) ومن الأسود. وفي اليوم الماضي هوجم شخص من فرقتنا، إلا أنه والحمد لله لم يصب بأذى. وكان من العجب أننا رأينا عددا قليلاً منها في هذه المناطق والأماكن غير القريبة. وخلال رحلة بين البصرة وبغداد شاهد بولاي Boulay (حوالي سنة ١٦٥٠) أسداً يطارد غزالاً على ضفاف نهر دجلة، وذكر أنه رغم صياح الديكة التي كانت على متن القارب، واصل أسد على الشاطئ زئيره طوال الليل.

ويجلب الدب والقرد (السعدان) وأنواع أخرى من القردة (ميمون) التي تعرض في بعض الأحيان في المدينة من أصقاع بعيدة أخرى، ولا يمكن اعتبارها من بين الحيوانات التي تعيش في المناطق المجاورة لحلب.

* قرية موجودة قرب بلدة تل أبيض (المترجم).

الفصل الثاني

الدواجن، طيور الصيد، وصف القطا، أنواع من الصقور، وصف السلوى، الحمام الزاجل كان يستخدم سابقاً في حلب.

قبل تقديم فهرس منتظم عن الطيور الموجودة في المناطق المجاورة لمدينة حلب، لعله من الأفضل أن نعدد أنواع الطيور المحلية، والأنواع المتعددة من الطيور التي تباع في السوق في حلب. واستخدمنا في الوقت نفسه الأسماء الشائعة لها في ذلك البلد (كما فعلنا عندما تحدثنا عن الخضار).

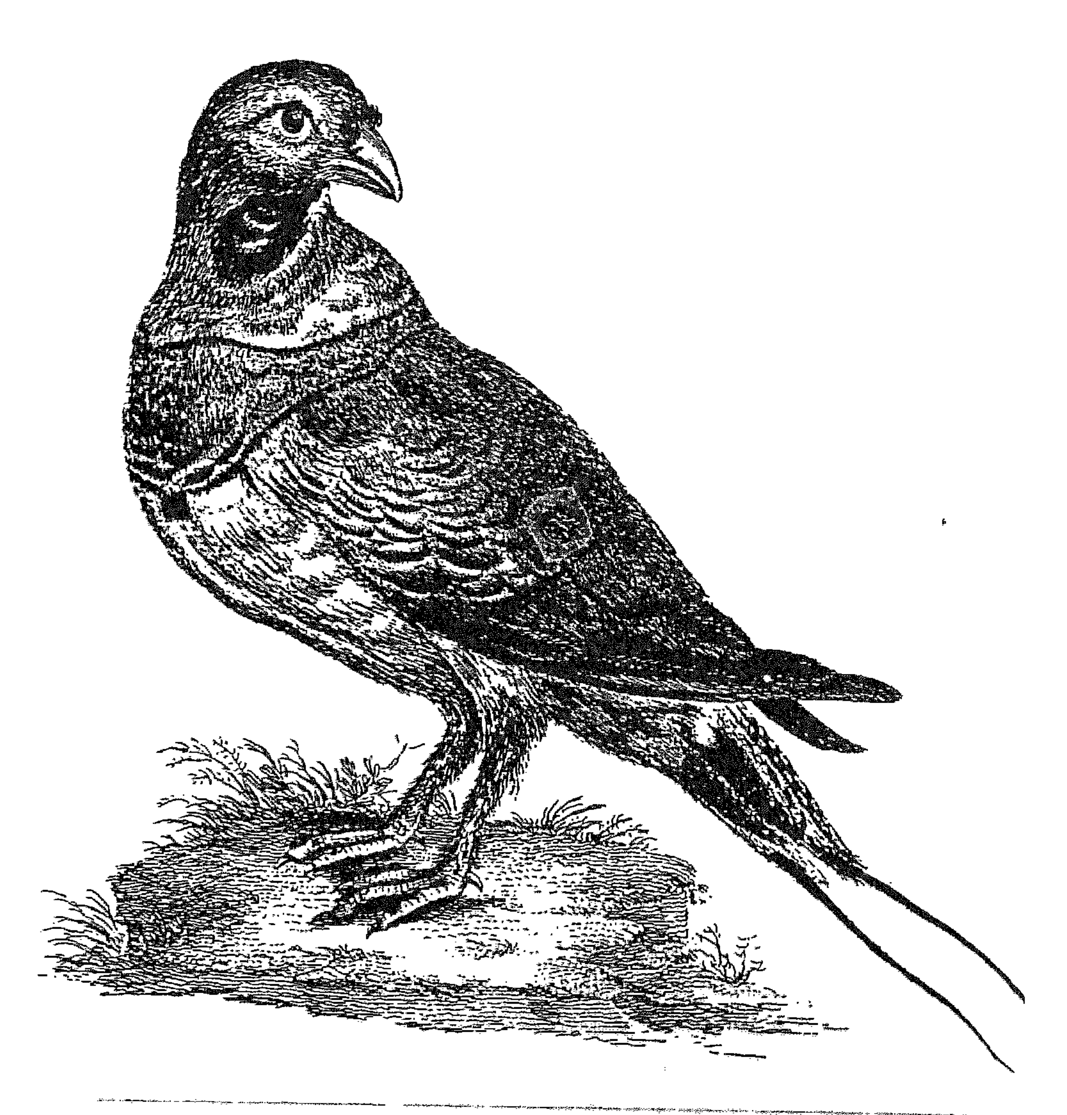
تزود الأسواق بكميات وافرة من الدواجن بما فيها الديوك، والدجاج (الفروج) ونوع من الديوك يدعى الديك البصراوي، والديك الهندي، والإوز، والبط والحمام. وقلما يتناول المسلمون لحم الإوز أو البط، إلا أنهم مغرمون بالحمام. وقد تشاهد أبراج الحمام في معظم القرى على الطريق الممتد من الاسكندرونة، وأسراب ضخمة من الحمام البري عندما يبدأ القمح بالنضج، وتبقى حتى نهاية الحصاد. ويشاهد الطاووس أحياناً في حلب، إلا أنه يُجلب من مناطق أخرى ولا يربى للأكل.

كما توجد كميات كبيرة من الطيور التي يؤكل لحمها في مختلف المواسم، ففي الربيع يتوفر السُمان بكميات كبيرة، وفي الصيف الحجل والدرّاج، وفي الخريف يعود الحجل، ولكن ليس بالأعداد نفسها كما في السابق، كما يتوفر في ذلك الفصل عصفور التين. وخلال الشتاء يوجد ’جاج قرنبيط‘ بكثرة، فضلاً عن الطيور المائية ’الدُجّ‘ والبط البري وطائر (أبو ملعقة) وما إلى هنالك. وسيرد في الفهرس: الحبري والإوز البري والشنقب، والدُجّ، والقنبرة بالإضافة إلى أعداد أخرى من الطيور الصغيرة الأخرى.

ويغرم المسلمون بنوع من الطيهوج الذي لا يتناوله الإفرنج أبداً، إذ إن لحمه اسود وقاس وجاف. ويتوفر الطير في جميع الفصول، إلا أن أعداده تقل خلال شهري أيار وحزيران. وبما أنه لم يتم وصف هذا الطير، فقد أرفقت ملحقاً مصوراً مع شرح مقتضب عنه* .

---

* يطلق الحلبيون على هذا الطير اسم (القطا)، وهو بحجم الحجلة تقريباً، وخطمه غليظ قصير ومعقوف، ولونه فاتح، ولكنه غامق عند الجانب. والجزء الأمامي من الساقين مكسو بريش أبيض قصير، وله ثلاث أصابع كما هي حال الحجلة، مع شوكة خلفية قصيرة (انظر الرسم). ويتباين ريشه كثيراً في أحوال عديدة. والطير الذي سنقوم بوصفه من أجمل الطيور. إذ توجد تحت العنق تماماً بقعة سوداء، ولون الريش حول العينين على الجزء الأمامي من العنق أصفر براق، أما الجزء الآخر، فهو مبرقش بالأسود مشكلاً نوعاً من الحلقة يوجد بينهما خط أسود ثان على الصدر. ولون الريش كموني. والريش على الجزء السفلي من الصدر والبطن أبيض، أما الريش على الظهر، والجزء العلوي من الجناح فهو فأري اللون، ومعظمه مزركش بلون أصفر فاتح. أما الجزء العلوي من كتف الجناحين فهو كذلك فأري اللون، أما



أسفل الريشة العريضة القصيرة فهو أسود اللون أو بلون القهوة، محفوف نحو الأطراف ببقع بيضاء. أما الريش حول الكفل فهو متموج بالأسود والأبيض والأصفر. والذي يتميز بوضوح بريشتين ضيقتين سوداوين أطول من الأخرى بحوالي ثلاثة إنشات، وتنتهي بطرف مدبب.

والطائر الأنثى أصغر حجماً بقليل، والريشتان في الذيل قصيرتين نوعاً ما. وله الريش نفسه تقريباً، باستثناء أنه مميز بعدد أكبر من الخطوط السوداء، واللون الأصفر في معظم الأجزاء أقل نضارة.

وقد وصف ورسم طائر القطا إدوارادز Edwards من طير محشو (محنط) أخذه المؤلف معه إلى إنكلترا.

وسأقدم الآن فهرساً عن الطيور التي تمكنت من مراقبتها، إلا أنه لا بد أن الكثير من الطيور قد فاتني مشاهدتها، ولهذا السبب فإني لا أعتبر الفهرس كاملاً. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن بإمكاني تحديد أنواع الطيور التي أحضرت لي بدقة دون الرجوع إلى الكتب التي لم يكن معظمها متوفراً لدي. ولتجنب التداخل في ترتيب الفهرس، فإن الملاحظات التي تطرأ حول طيور معينة، سنوردها في شكل ملاحظات أسفل الصفحة.

الطيور من رتبة الصقور

النسر (الرخمة) ، الصقر (الباز)، الشاهين

حسب ماذكر السكان المحليون توجد سبعة أنواع مختلفة من الصقور يستخدمها الصيادون، وبما أني لم أشاهد بعضاً منها، فإن الشك ينتابني حول معرفة أسمائها بدقة، وقد ذكرت هذه الأسماء بالعربية كما كتبها لي شخص من بين أكثر الأشخاص معرفة بالصقور في حلب وهي:

الحز أو البرابان ، السافي

يستخدم هذان الصقران لاصطياد الغزلان والأرانب البرية، كما يصطاد الأول الحجل، ويصطاد الثاني الحبارى، ومالك الحزين، وطيور كبيرة أخرى. ويباع هذان الصقران في حلب بسعر خمسين أو ستين دولاراً لكل منهما، ويرسلان إلى بغداد.

الشاهين* ، الزغانز

يستخدم الأول لاصطياد الطيور من جميع الأنواع ولا سيما الضخمة منها. أما الثاني فيستخدم لاصطياد الإوز البري والبط البري وطيور مائية أخرى. وثمة نوعان من الزغانز، يسمى أحدهما الهندي وهو أقل شراسة من الآخر.

---

* ما لم يؤخذ الشاهين من العش (أي وهو فرخ صغير) فلا يمكن تدريبه جيداً. وهو طير شديد البأس بحيث يمكنه اصطياد أي فريسة. ولولم يشهد عدد من الأشخاص الإنكليز الموجودين في إنكلترا حالياً حقيقة ما سأرويه الآن، فلم يكن بوسعي أن أؤكد أن هذا الطير، الذي يبلغ حجمه بحجم الحمامة، يصطاد في بعض الأحيان نسراً كبيراً. وفي السابق كان الصقر يدرب على الإمساك بالنسر تحت الجناح، فيمنعه من استخدام أحد جناحيه، ويسقط الطيران على الأرض سوية: وقد قيل لي إن الطريقة المتبعة حالياً تتمثل في تعليم الشاهين على النقر على الظهر بين الجناحين، الذي يكون له التأثير نفسه، بفارق أن الطير يقع ببطء أكثر، ويتاح للصياد مزيد من الوقت لمساعدة الشاهين الخاص به.

ولم أشاهد الشاهين وهو ينقض على النسر، لأنه لم يعد يمارس في زماني. وعندما يطلق الشاهين، يطير على خط أفقي لايزيد ارتفاعه على ست أقدام عن الأرض لبعض الوقت، ثم يحلق بشكل عمودي بسرعة مدهشة، ويمسك فريسته تحت الجناح، ويقع الاثنان على الأرض، وإذا لم يكن الصياد سريعاً، أفلتت الفريسة.

وتعتبر رياضة الصيد بالصقور رياضة نبيلة ومأمونة في سهول حلب. كما توفر الطيور المائية رياضة ممتعة.

الدوغان ، الأسبير

يستخدم الأول لاصطياد الدُرَّاج والحجل، والثاني لاصطياد الحجل. وهو يجلب من الأستانة. وهو نادر في حلب ويكلف بين مائتي وثلاثمائة دولار.

الباشق

ويصطاد طائر السماني والطيور الصغيرة من جميع الأنواع.
يرد ذكره في مخطوطة غريبة في فهرس الإسكوريال بقلم عيسى بن علي حسان الأسدي برقم ٨٩٨.

الطيور من رتبة الحمام

كويس نجس والشقراق ، حمام قوال ، ناقوية ، بالقجي ، الورور* ، شبويك

الطيور من رتبة الإوز

أبو فروي ، قرة بوطيق ، أوز بري ، أوز ، أبو ملك ، الحَذَف (بط نهري صغير) ، بط بري ، بط ، البجع ، الدنكلة.

الطيور

البشروش ، أبو ملعقة ، الكركي** ، اللقلق*** ، اللقلق الأسود ، بالقجل ، مالك الحزين ، السلوى**** ، الكروان ، دجاجة الأرض (جاج قرنبيط) ، بيكاسون ، الشنقيب ، زمار الرمل ، الزقزاق ، الزقزاق الشامي***** ، أبو طيط ، الغُرّة ، المرعة ، التفلق المائي ، الحبري ، النعامة.

---

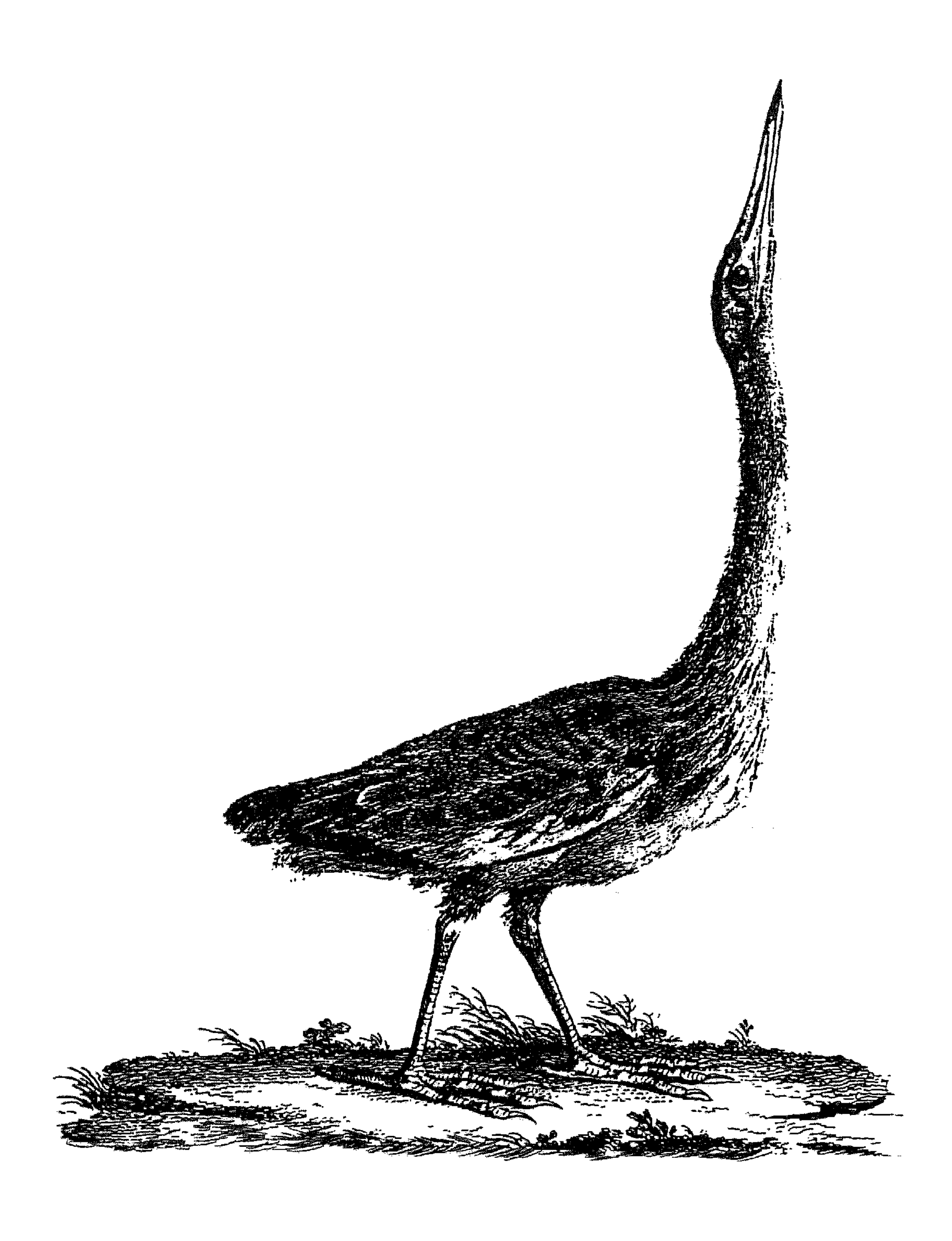
* الورور: يظهر في الربيع ويبقى حتى الخريف. ويوجد بكثرة في الراموسة وباب الله. وفي بداية ظهوره يبدو هزيلاً جداً، ولكن سرعان ما يسمن ولحمه لذيذ الطعم.

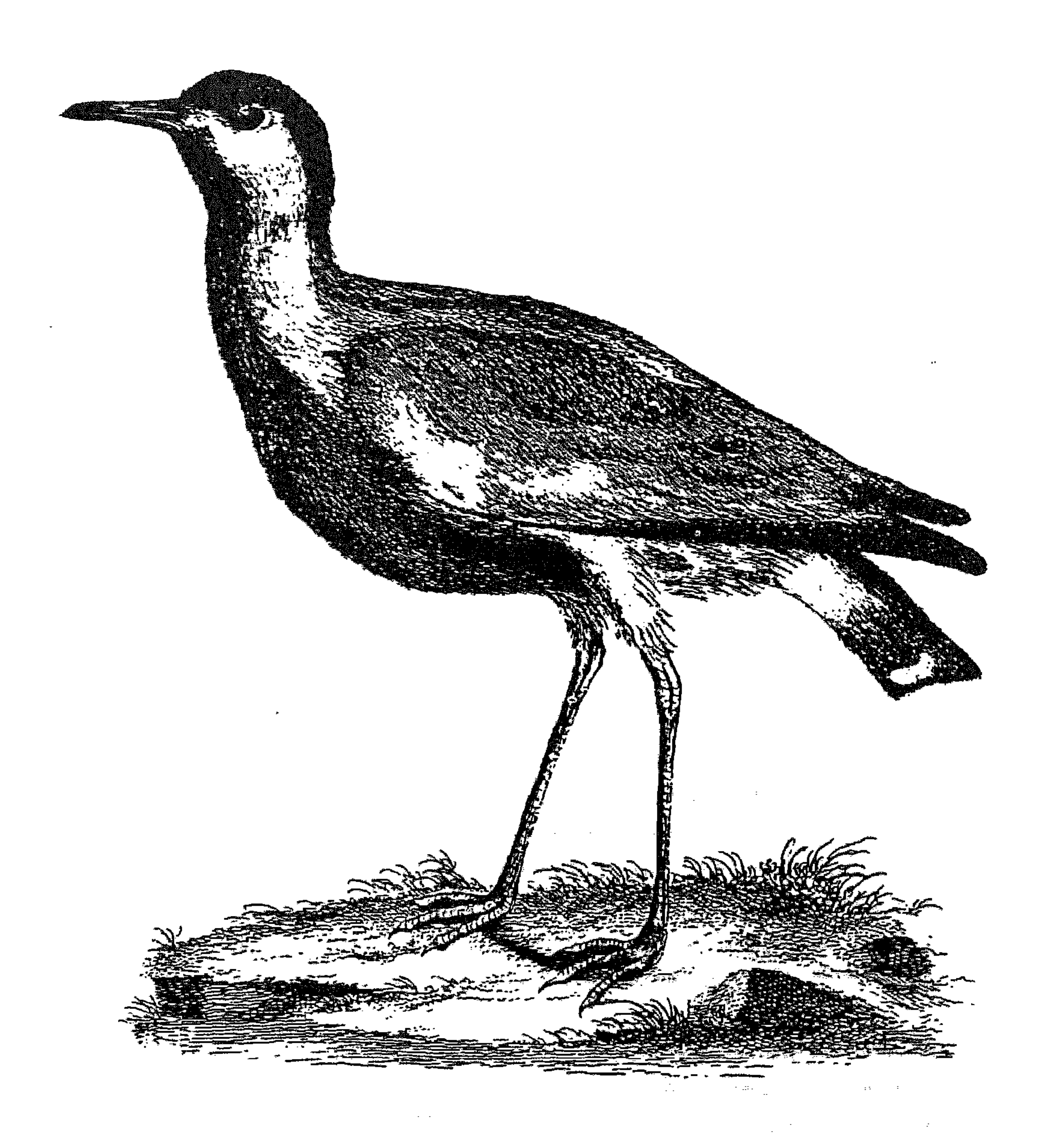
** يعبر هذا الطير عادة بأسراب كبيرة على ارتفاع شاهق في الهواء، بحيث يصعب تمييزه بدقة.

*** لايأتي اللقلق في كل سنة إلى حلب بأسراب ضخمة

**** تبين اللوحة رسماً عن هذا الطير رسم من حيوان محنط، إلا أنه غير مرسوم في وضعه الصحيح، وذلك لأن هذا الطير يقف منتصباً وهو حي، بالإضافة إلى رأسه وعنقه.

***** يبلغ حجم هذا الطير (المبين في الرسم) أحد عشر إنشاً ونصف من قمة المنقار وحتى نهاية الذيل. وثلاثة وعشرين إنشاً بين طرفي الجناحين وهما ممدودان، ويبلغ وزنه أربع بوصات. وطول المنقار أكثر من إنش واحد، والقسم العلوي أطول بقليل من الأسفل ومعقوف عند الرأس. وتاج الرأس أسود، والرقبة على الطرفين بيضاء، ويجري خط أسود من الحنجرة إلى الصدر، وهي بالإضافة إلى الجزء الأكبر من البطن سوداء كذلك. وتكسو باقي البطن والفخذين ريش أبيض.





الطيور من نوع Aves Gallinae

الطاووس ، جاج هندي ، ديك ، دجاج ، الدرّاج ، القطا ، الحجل ، السماني.

الطيور الجوائم

الحمامة المطوقة* ، الحمامة العادية ، حمامة كروبر ، حمامة يعقوب ، التربيت ، الحمام البهلواني ، الحمام الزاجل** ، الحمامة القمرية ، ست الروم ، دلم ، القبرة، الزروزر ، السمّنة ،الدجّ، الشحرور، السمرمر ، نقار الخشب ، سقاقية ، العصفور ، الحسون ، البلبل*** ، عصفور التين، الذعَرة، القليعي الأحمر، أبو حنة، فسفيس، حطيف، الخطاف، الارجواني، الضوع.

---

* يوجد باللغة العربية أسماء عديدة للحمام الذي يسمونه طير الحمام. ولكن بما أني لم أتمكن من الحصول عليها فقد حذفتها.

** كان الإنكليز يستخدمون هذا الحمام سابقاً في نقل الأخبار من الاسكندرونة للإعلام عن وصول سفن الشركة إلى ذلك الميناء. وكان يدون على قصاصة من الورق اسم السفينة وساعة وصولها وأية معلومات أخرى يمكن تدوينها، وتعلق بطريقة أمينة تحت جناح الحمامة لكي لا تعوق طيرانها، وكانت تغمس قدميها في الخل للحفاظ عليها باردة، لكي لا تحط إذا ما شاهدت ماء، مما يؤدي إلى إطالة رحلتها أو فقدان الرسالة. غير أن هذه العملية توقفت منذ سنوات عديدة، إلا أن إنكليزياً أكدها لي وقال إن الحمامة كانت تقوم بالرحلة خلال ساعتين ونصف الساعة. ويكون للحمام الزاجل فراخ صغيرة في حلب، وترسل في قفص مكشوف إلى الاسكندرونة، ومن هناك، وما إن يطلق سراحها حتى تعود بأقصى سرعتها إلى عشها. وجرت العادة أن يرسل الحمام في موسم وصول السفن السنوية لكي تكون جاهزة في الميناء. وفي جميع الأحوال، إذا غاب الطير أكثر من اسبوعين، فمن المحتمل أن تنسى صغارها، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليه. وعندما استفسرت عن كيفية تدريب الحمام على هذا العمل قال لي البعض إنها كانت ترسل في الحال إلى الاسكندرونة في قفص، إلا أني أميل للاعتقاد بما أكده لي آخرون أنهم كانوا يعلمونها شيئاً فشيئاً على الطيران من مسافات قصيرة على طريق الاسكندرونة. وقيل لي إنه عندما كان الطير يطلق من الاسكندرونة، كان يحلق إلى الأعلى مباشرة بشكل عمودي تقريباً حتى يغيب عن الأنظار، كما لو أنه سيتغلب على جميع العوائق التي تعترض سبيل رؤيته لمكان المقصد، بدلاً من الاتجاه نحو الجبال العالية المحيطة بالسهل.

*** يوفر البلبل متعة كبيرة خلال معظم موسم إزهار البساتين والحدائق، فهو يغرد بمتعة وحبور في وسط بساتين الرمان خلال النهار، ومن الأشجار العالية في الليل. كما أن بعض البلابل المحتجزة في أقفاص في المدينة، يُطلق سراحها لفترة قصيرة عند التجمعات الليلية، ولذا فإن معظم حفلات السمر في الربيع تستمتع بأنغام تغريد البلابل.

الفصل الثالث
عن الأسماك

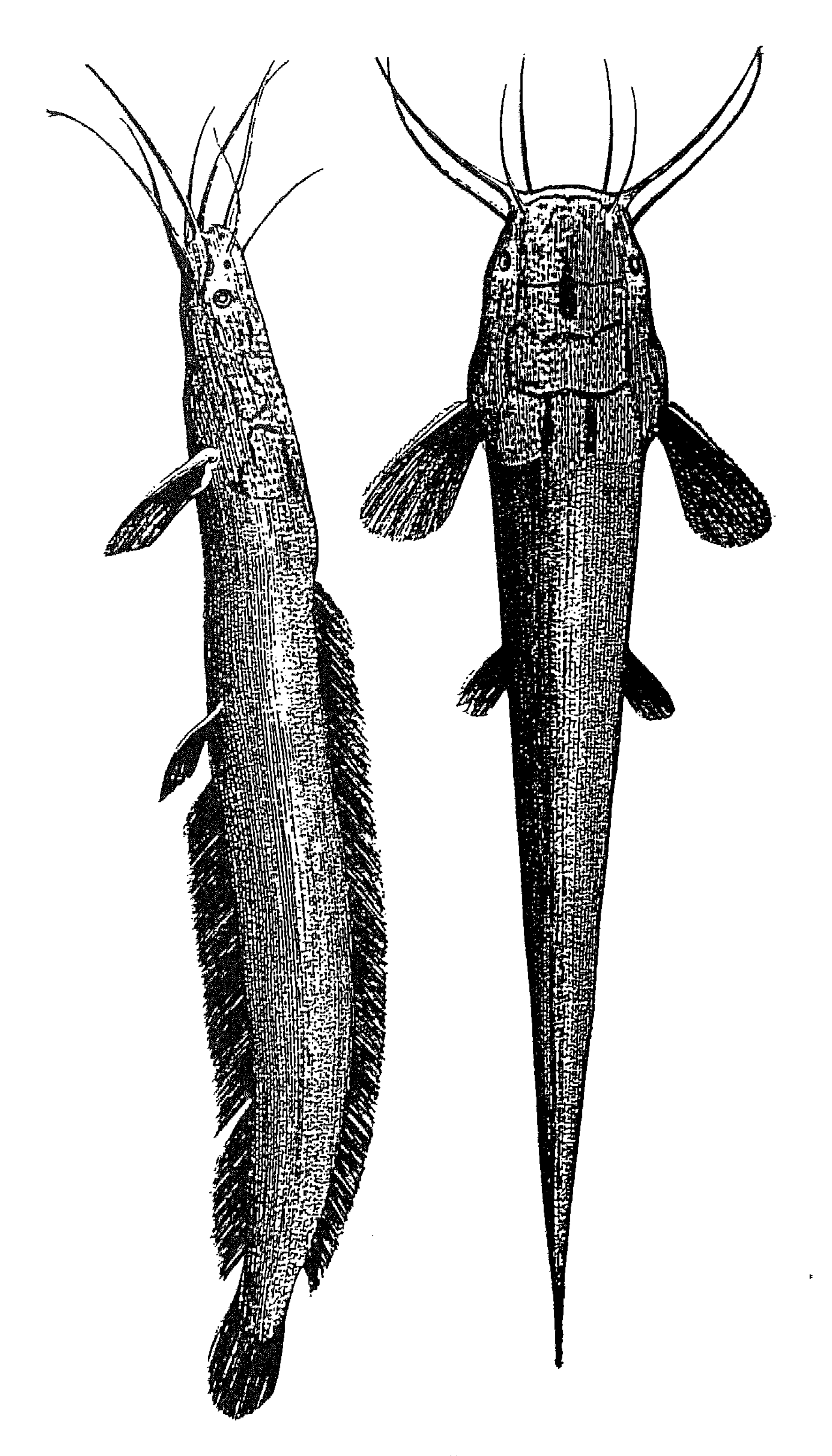
الأسماك المتوفرة في نهر قويق، سمك الإنكليز (الإنكليس) الحلبي، نوعان من جنس السلور، القبوضي، البربيس (البني)، أنواع مختلفة من الشبوط ..الخ، أسماك من نهر العاصي، والفرات وبحيرة أنطاكية، الإنكليس العادي، سمك الحيات، السلور ..الخ، السمك البحري من الاسكندرونة، القد، البوري، الحفش.

لم أكن أتوقع أن أجد هذا العدد الكبير من الأسماك في نهر قويق بعد ماشاهدته من أنواع الأسماك المتوفرة في الأسواق، أو على موائد السكان، ومن مشهد نهر قويق. وبعد الدراسة الوثيقة، تبين لي أنه يوجد سبعة عشر نوعاً من الأسماك في هذا النهر، لم يتم وصف بعضها هنا.

يمكن أن يعزى صغر حجم السمك، في أحد أسبابه، إلى استمرار الصيادين صيد السمك بدون توقف طوال الفصول وبدون تمييز. فإذا بقيت هذه الأسماك دون صيد، فإن حجمها يصبح كبيراً جداً في حيلان، مصدر الأسماك، رغم أنها لا تصبح كبيرة جداً كما هي حال الأسماك المتوفرة في أصقاع أخرى من العالم.

أما بالنسبة للأسماك التي لم أصفها، فإني سأرفق رسوماً عنها. ويعرف الإفرنج أول تلك الأسماك باسم سمك إنكليس حلب* ، الذي أطلق عليه هذا الاسم نتيجة شبهه بسمك الإنكليز المعروف من حيث الشكل. إلا أنه نوع مختلف عنه، وبما أنه يحتوي على كمية أقل من الزيت، فهو طعام أخف وأطيب مذاقاً. ويتوفر بكميات كبيرة ، ويتناوله الإنكليز في الغالب، أكثر من أي نوع آخر من أسماك نهر قويق.

* يبلغ قياس السمكة المذكورة أحد عشر إنشاً، إلا أنها تكون أكبر بكثير في بعض الأحيان، كما سيتضح من الرسم (اللوحة٦) التي هي بالحجم الطبيعي لأكبر سمكة. والرأس طويل بشكل ملحوظ. وأصغر من البدن، ومضغوط من الجانبين، وهو عارٍ في بعض المناطق، وفي بعضها الآخر مغطى بحراشف صغيرة يصعب تمييزها. والخاطوم الناتئ، عندما يكون الفم مغلقاً، يشبه منقار طير مع أنبوبين مرئيين بالقرب من النهاية، إلا أنهما يقعان بشكل مختلف عن الأنبوبين في سمك الإنكليس العادي. والعينان صغيرتان، متوضعتان على الجانبين بالقرب من التاج، ووراء زوايا الفم بقليل، والأسنان كثيرة. والبدن على شكل سمك الإنكليس، رغم أنه أقل استدارة وأكثر انضغاطاً باتجاه الذيل. وهو أملس، ومغطى بجلد صغير، نصف شفاف، وحراشف مستديرة، على حافتها الخارجية. والزعنفة الظهرية طويلة جداً، نائمة من القذال إلى الزعنفة الذيلية وهي مؤلفة من ثلاث وثلاثين حسكة مقوسة، وواحد وثمانين أو اثنين وثمانين إشفيناً. والزعنفة الذيلية قصيرة بيضوية وتتألف من تسعة عشر إشفيناً. ولون الرأس والظهر أسود يتموج مع بقع صفراء غامقة، والبطن بيضاء تتحول تدريجياً إلى الأصفر، والزعنفة الشرجية صفراء، قرب بدايتها والباقي منقطة بالأسود.



أما النوعان الآخران اللذان يصعب وصفهما فهما من جنس السلور. وهما شائعان في النهر إلا أنهما نادراً ما يؤكلان. ويطلق السكان على النوع الأول اسم زقزوق، وعلى نوع السلور الآخر من النهر اسم بابوج* .

يتناول الأوروبيون نوعين فقط من الأسماك من نهر قويق وهما سمك الحيات والقبوضي. أما الأنواع الأخرى التي ينتمي معظمها إلى جنس الشبوط فلا يتناولها سوى المسيحيين الحلبيين في أثناء صومهم. والقبوطي ممتاز ومتوفر بكثرة.

يختلف البرييس أو البني (كرسين) والشوب (براق) قليلاً عن نوع الأسماك نفسها في أوروبا. أما ماجاء في الطبعة السابقة والذي أطلق عليه اسم Roche فهو يقترب كثيراً من وصف السمك البني.

إن ما يطلق عليه التقل، هو نوع مميز، ويقترب كثيراً من الفصيلة الشبوطية. وثمة نوع آخر من الفصيلة الشبوطية ذي هدابتين يطلق عليه السكان، اسم 'كيلور'، ونوع ثالث اسمه كريطي، والقريس والقاصور والزريقي والمرميد، والعرايس.

ويبقى نوعان من نهر قويق، أحدهما يطلق عليه السكان تفتاف، والآخر سلال. وطولهما إنشان تقريباً، إلا أن العينات أصيبت بالضرر الشديد نتيجة حملها إلى حد تعذر فيه تحديد جنسهما.

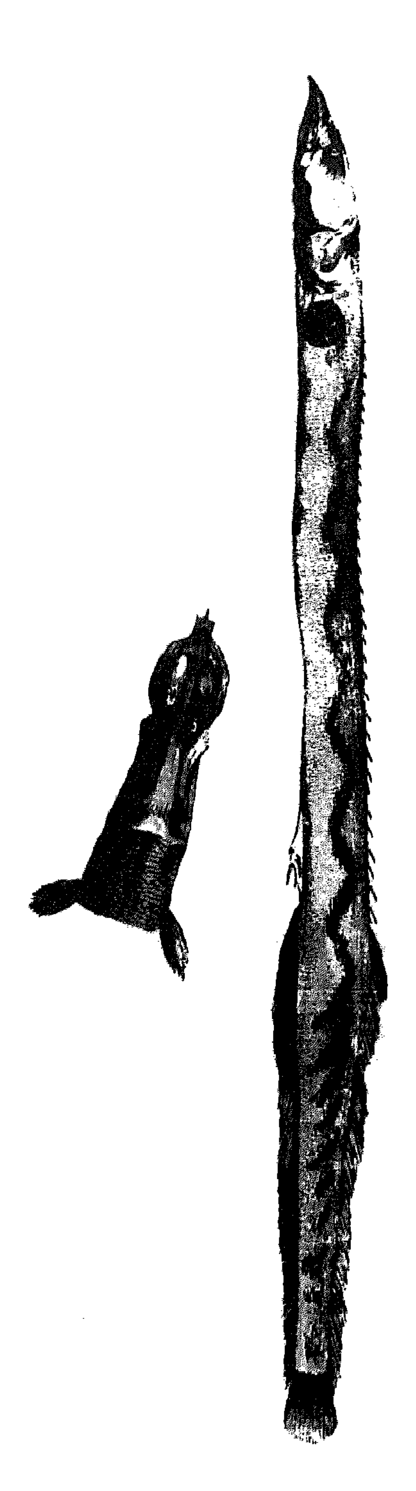
رغم أن المسلمين نادراً ما يتناولون السمك، فإن نهر قويق لا يوفر كميات كافية للسوق في حلب، ولذلك يتم تزويد السكان المسيحيين بالأسماك عند صومهم الكبير من نهري العاصي والفرات؛ بالإضافة إلى بحيرة انطاكية والبحيرة القريبة من مرعش. وكان من بين الأنواع التي شاهدتها: سمك الحيات، والجري، والشبوط، والبرييس (البني).

وثمة نوع آخر من الفصيلة الشبوطية تتوفر كثيراً في السوق منذ بداية الشتاء وحتى آذار، وهي تجلب بشكل رئيسي من نهر العاصي، وأعتقد من بعض المياه الراكدة بالقرب من ذلك النهر. ورغم أن طعمه زنخ ويشبه لونه لون لحم بقر قاس، ورغم أن الأطباء يعتبرونه ضاراً، فإن المسيحيين يتناولونه بكثرة، ويسمى شعبياً السمك الأسود، إلا أن السكان المحليين يؤكدون أن الاسم الصحيح هو السلور.

يرسل من الاسكندرونة إلى الإنكليز من السمك البحري نوعان فقط من سمك القد. ويعادل أحدهما في النوعية والحجم أفضل أنواع القد الإنكليزي، ويدعى الآخر ليتش، وهو أدنى جودة بكثير.

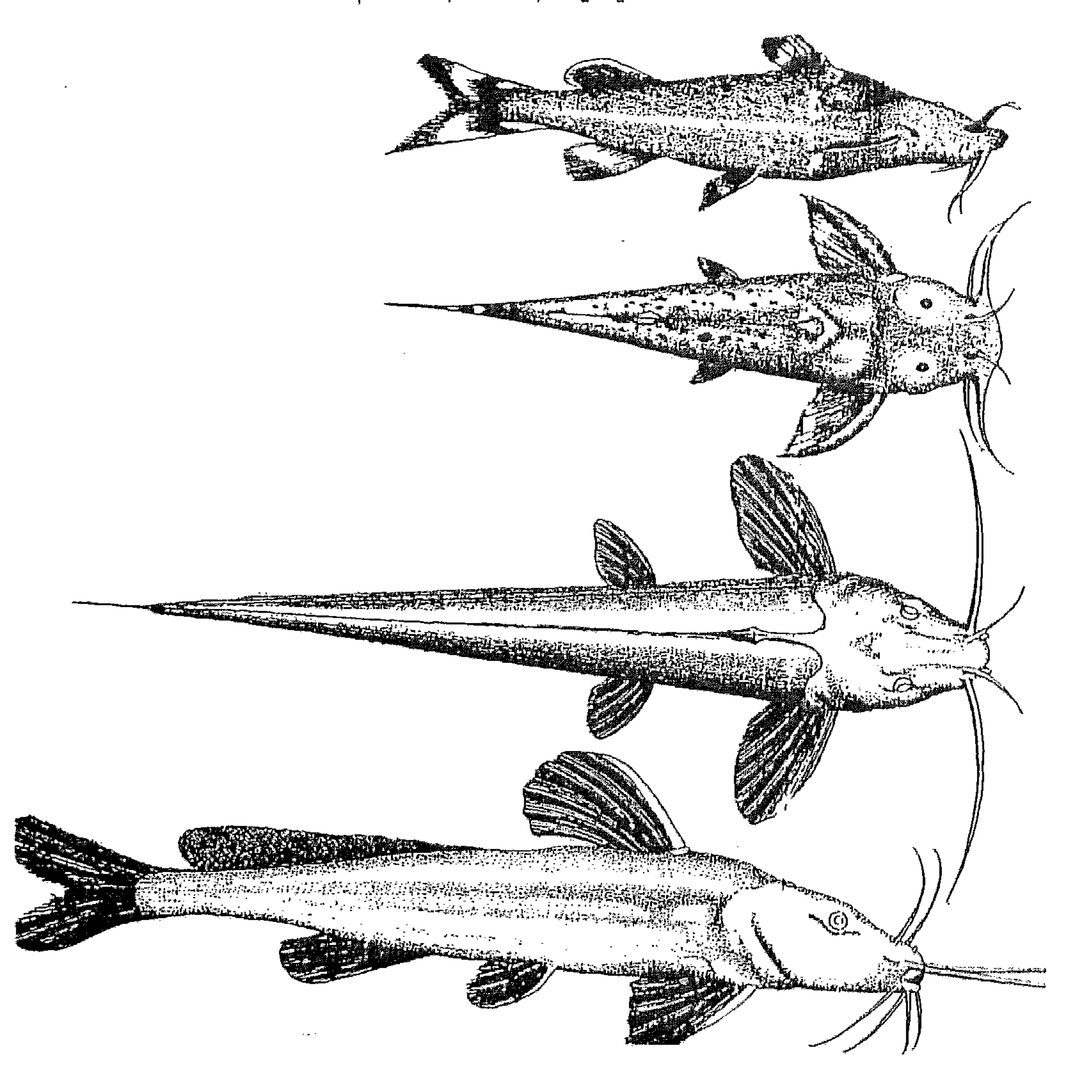
---

* السمك البابوج يشبه بشكله العام الزقزوق، ويشبهه في عدد الزعانف وفي تكوين اللسان والحنك، وتوزيع الأسنان، إلا أنه يختلف عنه في أمور أخرى. والرأس أوسع وأكثر تسطحاً، والفم أعرض بكثير، والفك السفلي أقصر بكثير من العلوي، والخاطوم لحمي وناتئ. والعينان عموديتان تقريباً وصغيرتان للغاية. والخياشيم مزدوجة وكبيرة. وعدد الذوائب ثمانية. وترتفع الاثنتان الأكثر طولاً من الشفة العليا وهما منبسطتان وقويتان وطولهما أكثر بقليل من إنش. وثمة زوجان آخران يظهران من الخياشيم، وهما أقصر بكثير، وزوجان من الفك السفلي. ولون السمك فضي باهت مع رمادي، أما الزعانف والذيل والذؤابتان الكبيرتان فمتموجتان بشكل ملحوظ.



ويتم تزويد الجالية الفرنسية* بكميات أكبر بكثير من السمك بوساطة بحارة سفنهم المزودين بمصايد أسماك أفضل من اليونانيين في الاسكندرونة.

يزخر ميناء الاسكندرونة بكميات وافرة من أنواع السمك، غير أن اليونانيين كسولون جداً، بحيث يصعب إقناعهم للانطلاق بمراكبهم عندما يكون الطقس متقلباً، ولا يمكن حثهم على الذهاب للصيد في أي يوم من أيام أعيادهم الكثيرة.



* من بين الأسماك التي تجلب إلى الفرنسيين من الاسكندرونة سمك البوري. وقد شاهدت مرة أو مرتين سمك الحفش يجلب إلى حلب من الإسكندرونة، إلا أنه يعتبر نوعاً نادراً.

الفصل الرابع
عن الزواحف والحشرات وما إلى هنالك

الضفدع، سرطان النهر، السلحفاة، دودة القز، النحل، العقرب، الحريش (أم أربع وأربعين)، الأفاعي، البعوض، الجراد، الحرباء .. وما إلى ذلك.

تطلب جمع ودراسة الأعداد الضخمة الواردة في هذا الفصل بدقة، وقتاً أطول بكثير مما كان بوسعي أن أخصصه لهذا الفرع من التاريخ الطبيعي. ولذلك سأقتصر على ذكر بعضها، المفيدة منها أو الضارة للإنسان.

يقال إن اسم نهر قويق استمد من نقيق الضفادع التي تقبع على ضفتيه (عقرق)، التي لا تزال توجد بأعداد كبيرة، وحجمها كبير، ونوعيتها لذيذة جداً، إلى درجة أن بعض الذواقين الأوروبيين، يقولون إنه يجدر القيام برحلة إلى سورية لتناولها والتمتع بمذاقها. ويتناولها الفرنسيون والمسيحيون الحلبيون من الكاثوليك أما المسلمون والسكان الآخرون فلا يتناولونها أبداً.

إلا أن ثمة نوعاً آخر من الطعام من نهر قويق بكميات كبيرة، يتمتع بطلب أكبر بكثير من الطلب على الضفادع يتمثل في نوع معين من السرطان (السلعطان)، وهو مختلف تماماً عن أي من الأنواع المعروفة في إنكلترا، ويعتبره الإفرنج من أطيب الأطعمة التي تقدم على موائدهم. كما يقدم على موائد المسيحيين في أيام صومهم وذلك لإمكانية الحصول عليه في جميع فصول السنة. إلا أنه يكون في أجود حالاته خلال فترة نمو التوت الأبيض، إذ يلتهمه عندما ينضج ويتناثر على الأرض تحت الأشجار، وهو خارج من النهر.

وقد صادف بيلون Belon هذا النوع في جبل أثوس، واعتراه الشك في بداية الأمر بأنها قد تكون قد انتقلت إلى النهير من البحر، إلا أنه تبين له فيما بعد أن ذلك ضرب من المستحيل بسبب عدم وجود منفذ إليه.

كما يوفر النهر السلاحف بكميات كبيرة، وفي بعض الأحيان، يتناولها المسيحيون عند الصوم، ولكن نادراً. وتفضل السلحفاة البرية بسبب مذاقها، وتستخدم بيوضها كدواء.

وقلما يؤكل الحلزون (البزاق) إلا عندما يصفه الطبيب. ورغم أن الجراد يؤكل في أماكن أخرى من سورية، إلا أن البدو بالقرب من حلب لا يتناولونه.

تعتبر دودة القز أهم سلعة في سورية لكونها المصدر الرئيسي في التجارة مع أوروبا. وذكر أن كمية قليلة فقط من الحرير يتم تصنيعها بالقرب من المدينة.

إن استهلاك كميات كبيرة من العسل يجعل النحل ذا أهمية كبيرة. إلا أن المنطقة لا توفر كمية كافية من العسل والشمع، لذلك فهما يجلبان من أصقاع أخرى، ولا سيما

من قراميدنيا. وتضاء الجوامع بمصابيح، و يستخدم معظم الناس العاديين الزيت لإضاءة المصابيح، وتتعرض الشموع المصنوعة من الشحم الحيواني للذوبان في الصيف. أما الشمع فيستخدم في جميع البيوت من الطبقة الراقية، وبما أنه لا يتم تبييضها، وتصنع عادة على شكل شموع كبيرة جداً، فإن شكلها ليس أنيقاً بالمقارنة مع الشمع الإيطالي، رغم احتراقها الجيد.

تعد العقارب من الحيوانات الضارة التي تنتشر في البيوت. ويمكن مصادفتها في ليالي الصيف وهي تزحف في الشوارع أو على الدرج، وفي بعض الأحيان، تشاهد بين الفرش الممدودة على المصاطب. ويُلدغ الحلبيون في بعض الأحيان بها، إلا أنه من المدهش أن حوادث الإصابة بها ليست شائعة. وبشكل عام، يسبب الجرح ألماً لبضع ساعات ولا ينجم عنه عواقب سيئة، رغم أني شاهدت حالات من الإقياء والإغماء ناجمة عنها. ويصدر السكان المحليون ترياقاً كما في حالات التسمم الأخرى. إلا أنه رغم أنه ثبت أن استخدام الزيت وحده فعال إلى درجة موازية، فقد كان من الملائم إتباع الأسلوب الشعبي.

إن الجرح الناجم عن الحريش (أم أربع وأربعين) يعتبر أقل سمية من لدغة العقرب، إلا أنها نادراً ما تشاهد داخل البيوت.

أطلعت على عدة حوادث أصيب فيها جميع أفراد الأسرة بالقيء وأعراض أخرى تشبه أعراض التسمم عندما يتركون الطعام مكشوفاً على المصطبة، وغالباً ما يحدث ذلك قبل العشاء في الصيف. ويعزو الحلبيون هذه الحوادث إلى الحيوانات السامة التي تزحف فوق الطعام، وخاصة من نوع العنكبوت الذي يبث عصارة سامة؛ إلا أني لم أشاهده على الإطلاق.

رغم أن عدداً قليلاً من البيوت تخلو من الثعابين، فلم أسمع أبداً عن حوادث نجمت عنها، وبالفعل فهي من النوع غير الضار. وعادة ما ترتاد البيوت الخشبية، أو الأماكن الأخرى، ونادراً ما تظهر في غرف الإقامة، رغم سماعها من حين لآخر وهي تصدر خشخشة على الرفوف بين أواني الصيني في الغرف الأقل ارتياداً، أو يمكن اكتشافها بواسطة نشرها رائحة مسك قوية. وهي تقتل الفئران، وتعلق صغارها في بعض الأحيان في مصايد الفئران، ولايمكنها الهرب بعد إطلاقها. وهي أفعى رمادية مائلة إلى اللون الأبيض، ويبلغ طولها قدمين ونصف القدم، وتوجد في غالب الأحيان في البيوت.

تعيش الأفاعي من النوع السام في الريف خلال الأشهر الحارة، وبما أن الأرض تكون عارية خلال ذلك الفصل وقاحلة، فهي تدرك الأشياء من مسافة معينة، وتهرب عند اقتراب الإنسان منها، وقلما تكون عرضة لوطئها، وإلافإنها تثور، لذلك يندر سماع أحداث سيئة عنها. وثمة مثال عن وفاة شخص إنكليزي نتيجة لدغة أفعى، إلا أنه لم تتح لي الفرصة أبداً لرؤية أفعى سامة في سورية.

ليست الأفاعي السامة شائعة في المناطق المجاورة لحلب، وهي تجلب محنطة لأغراض طبية من مصر. وفي بعض الأحيان يتناول المسيحيون حساء مصنوعاً من الأفعى المنزلية العادية، ولا توصف طبياً أبداً.

بالإضافة إلى بعض الحيوانات الضارة المذكورة أعلاه، ثمة حشرات منزلية

صغيرة تسبب إزعاجاً وضرراً أكبر بكثير وهي :الفسفس والبرغوث والبعوض. وقليلة جداً هي البيوت التي تخلو من الفسفس. وعندما تكون الوسائد والفرش محشوة بالصوف بدلاً من القطن، تنتشر فيها بأعداد كبيرة جداً. ومهما بذلت العناية للتخلص من البراغيث في أكثر البيوت نظافة، فإن الثوب الشرقي الطويل يوفر ملاذاً لها، ويكون ناقلاً ملائماً، وتمتلئ بها الشوارع والأسواق المتربة، بحيث يستحيل السير دون جمع أعداد منها. ومن عادة الأشخاص من الطبقة الراقية، تبديل ثيابهم حال عودتهم إلى البيت. أما عند أفراد الطبقة الدنيا، حيث لا يمكن إتباع هذا التدبير الوقائي بشكل ملائم، فيتعرض الناس إلى عذاب لا يطاق، ويحملون علامات واضحة على جلدهم باستمرار.

ليس من السهل تمييز أنواع معينة من البثور الناجمة عن لسعات البراغيث القديمة بين المرضى من الطبقة الدنيا في موسم الأمراض الوبائية. وإن استخدام الحمام إلى درجة معينة يعتبر وقاية من نوع آخر من الهوام (القمل)، وهو الإجراء الشائع بين الفقراء في بلاد حارة أخرى، إلا أن الحمام لا يعتبر علاجاً للبراغيث. وينتشر البعوض طوال الصيف، ويسبب إزعاجاً بشكل خاص في الليل، ولا يستخدم معظم الحلبيين ما يدعى بصائدات الذباب عند النوم، أو ستائر الشاش، وهم لايستخدمون أكثر من منديل يلقونه فوق وجوههم للوقاية منها.

ويذكر هيرودوتوس إحدى طرق الوقاية من البعوض في مصر فيقول: 'بما أن الرياح لا تجعل هذه الحشرات ترتفع كثيراً عن الأرض، فإن السكان في الأجزاء العليا من البلاد ينامون عادة في أبراج. أما الذين يقطنون في أراضي المستنقعات فيستخدمون هذا البديل، إذ تصبح الشبكة التي يصطادون بها أثناء النهار، مفيدة أثناء الليل. فيغطون أسرتهم بشباكهم، وينامون تحتها بأمان. وإذا ناموا بثيابهم العادية، أو كانوا يرتدون ملابس كتانية، فإن الحشرة لن تكون قاصرة على تعذيبهم، ولكنها لاتفعل ذلك من خلال الشبكة'.

إلى أي مدى يعتبر هذا الكلام صحيحاً فأنا لا أعرف تماماً. وفي البلاد الحارة يستخدم نوع من الغطاء على الخيول، إلا أن الستائر المستخدمة في سورية تشبه كثيراً نوع القماش، وأفترض أنها قريبة من الكونوبيوم (Conopeum) الذي يبدو أن الرومان كانوا يعتبرونه إحدى مواد الرفاهية التي يستوردونها من مصر.

كما يحدث الذباب إزعاجاً عند تناول الطعام، أما في الأوقات الأخرى، فيسهل التخلص منه بواسطة تعتيم الغرفة. ونحو نهاية الربيع، يصبح الذباب مزعجاً جداً في البيوت المنتشرة في البساتين، ويهاجم بأسراب كبيرة أثناء تناول طعام الغداء في الإيوان المكشوف، بحيث يضطر الخدم إلى الوقوف، وفي أيديهم أغصان خضراء لذبّها عن الطاولة. وعند السفر في الصيف، يكون الذباب والبعوض في غاية الإزعاج، في الوقت الذي تتعرض فيه خيولهم إلى عدد كبير من الحشرات، سيما ذباب الخيل، وهو أمر يجعل السفر في قيظ النهار منهكاً إلى أقصى حد. و يكون المسافر تحت الخيمة بعيداً عن هجوم البراغيث، وهو أحد الأسباب الذي يجعلهم يفضلون الإقامة في معسكر على الإقامة في الخان أو في القرى، إلا أن البعوض لا يفارق أبداً. وعندما تكون الخيمة بالقرب من مستنقع، فإن البعوض غالباً ما يثير إزعاج الخيول، بالإضافة إلى الحشرات الأخرى في

الليل، بحيث لا يمكنها الراحة أو تناول علفها.

رغم أن السكان المحليين تعودوا على هذه المشاق عند سفرهم، فهم يعانون من ذلك دون تذمر شديد، أما الإفرنج الذين يسافرون للمتعة، فيجدون أنه من المستحيل تفاديها رغم استخدام جميع الوسائل لتفاديها. ويمكن بالفعل التخفيف من حدتها بالانطلاق صباحاً قبل ساعة أو ساعتين من الفجر، وباختيار مكان ملائم للمخيم. إلا أن هذا الأمر الأخير لا يتاح دائماً، لأنه لايمكن الابتعاد عن الماء، كما تتحول الأراضي المنبسطة المهملة التي تعبرها الجداول إلى مستنقعات في غالب الأحيان.

من بين مجموعات الحشرات، يعتبر الجراد أكثرها إلحاقاً بالضرر والأذى. فلا تنفع كل الأساليب الوقائية التي يستخدمها الإنسان، وتدمر في غضون أيام قليلة الحقول الخضراء الجميلة المزروعة. ولم تظهر مثل هذه الأسراب المدمرة في حلب خلال إقامتي فيها.

وأتيحت لي مرة فرصة مشاهدة أسراب ضخمة منها في جزيرة قبرص، وحتى ذلك الوقت لم يكن لدي فكرة عن الضرر الذي يمكن أن تحدثه. فعندما كنت ذاهباً في عربة من لارنكا إلى حديقة تبعد أربعة أو خمسة أميال، كان الجراد يحلق على ارتفاع قدم في مناطق مختلفة من الطريق العام، ودهست آلاف منها تحت عجلات العربة. ولم تكد تبقى ورقة واحدة على أشجار التوت، رغم إشعال نيران ضخمة في الغابات الخضراء، لكي تكون في مهب الريح باتجاه البساتين. وتشكل هذه الحشرة خطراً على القمح، وذلك حسب موعد وصولها، قبل الموسم أو بعده، لأنها لا تقترب منه عندما يكون الحب ناضجاً تقريباً، وتكتفي بأشطاء وأوراق النباتات الأكثر ليونة (١) ويعتبر طير الجراد الذي يظهر في الوقت نفسه، ذا إفادة كبيرة في هذه الحالات. ولذلك يكن له المسلمون احتراماً كبيراً، كما تلتهم طيور أخرى الجراد من قبيل الزرزور والدوري والسنونو، كما تلتهم أنواع أخرى من الحشرات أعداداً كبيرة منها. إلا أن طير الجراد يعتبر أكثر أعدائها ضراوة.

وسنلحق الملاحظات الأخرى المتعلقة بحشرات معينة في مكانها الملائم في القائمة غير الكاملة التي سنستهلها بالزواحف البرمائية.

الزواحف البرمائية

الضفدع ، الحرباء (الحردون)(٢) ، بربختي ، الأفعى المائية

الحشرات

الصرصور ، الجراد ، الزنبوط ، البق ، الذباب ، العث ، العنكبوت ، العقرب ، الدود ، العلقة (٣) ، الحلزون.

الملاحظات

(١) كما أعلمني الدكتور فرير (Dr. Freer) فقد حدث ذلك في عام ١٧٧٦ عندما أحدثت ضرراً كبيراً في بلاد ما بين النهرين، وحوالي أضنة وعينتاب وانطاكية، وفي أكري (Acri) وفي مدن ساحلية أخرى. وفي الرابع عشر من أيار، ظهرت في حلب واستمرت كذلك على مدى شهرين متعاقبين. وأحدثت ضرراً طفيفاً بالقرب من حلب، ما عدا الكلأ. إلا أنها دمرت نباتات القطن في أماكن أخرى من سورية، وأشجار التوت، وأوراق التين، بل حتى أوراق ولحاء شجر الزيتون. ونجت محاصيل الحبوب بسبب نموها في وقت مبكر. والتقط الطبيب بعضاً من صغارها في حزيران. وقد اعتقد السكان المحليون أنه توجد ثلاث بيوض مختلفة على مدى شهرين. أما السمرمر أو طيور الجراد فقط ظهرت كالعادة وأحدثت ضرراً شديداً بينها. وبالنسبة لذلك الطير، صادفت في مذكرات المبشرين قصة خرافية لا أذكر أني سمعتها في حلب. ففي المدن الكبيرة في الشرق، ولاسيما دمشق وحلب يحرصون على الحصول على نوع معين من المياه من الريف حيث يأتي إليها طير الجراد.

(٢) إن الحرباء شائعة جداً في البساتين وفي التلال الصخرية المجاورة. ويكون لونها عادة أخضر عندما يعثر عليها بين العشب، أو بلون التراب حيث تكون قابعة. وإذا كانت تقبع فوق غصن أو على غصن شجرة، يكون لونها بلون لحاء الشجرة تقريباً.

وعندما تبتعد عن مكانها، لا يتغير لونها على الفور، كما أنها عندما تغير لونها، تتخذ لون الأرض التي تقف عليها. لذا، فإذا وضعت في علبة مبطنة بالأبيض أو بالأسود، فإن لونها يصبح، في بعض الأحيان، عند وضعها في اللون الأسود، أكشف من قبل، وبالعكس. وفي بعض الأحيان تتخذ لون الكبريت. وعندما أجريت التجربة على قطعة قماش مختلفة الألوان، وكان للحيوان مجال واسع للتحرك، فقد حدث الشيء نفسه.

وغالباً ما تتقلب في ألوان عديدة بشكل متعاقب قبل أن تتخذ اللون الأقرب إلى جسمها. فعندما توضع على العشب، فقد يصبح لونها بلون تراب كاشف، ثم يغمّق أولاً، ثم يتحول إلى اللون الأسود، ثم الأصفر، ثم يصبح داكناً ثانية وأخيراً أخضر. وفي أوقات أخرى، يصبح لونها أخضر على الفور. وكذلك بالنسبة للألوان الأخرى عندما توضع على أرضيات أخرى، كان الاعتقاد السائد بأنها تغير لونها على الفور. ولكن رغم هذا الاختلاف في تغير لونها، وخاصة عندما تتم مطاردتها، أو يسبب لها إزعاج، يكون لونها الدائم غالباً عندما تكون في حالة الارتياح بلون الأرضية التي تقبع عليها، شريطة أن لا يكون لون الأرضية أحد الألوان التي لا يمكنها اتخاذه كالأحمر أو الأزرق. وقد لوحظ وجود فرق مادي بسيط، سواء أجريت التجربة في الظل أو في الشمس، إلا أن الحيوان يبدو داكناً في بعض الأحيان أكثر من أحيان أخرى، ويبدو أن احتجاز الحيوان يقلل من قدرته على تغيير ألوانه. ومن بين الأعداد التي جرت عليها الدراسة في الحقل، لم يلاحظ أن أياً منها يمد لسانه مهما فتنه الذباب، ومن بين عدد مختلف منها كانت تُحفظ في البيت لم يشاهد أي منها وهي تلتقط فريستها. وربما يعود ذلك إلى الإهمال في مراقبتها، أو لأنها لا تحفظ لفترات طويلة كافية.

إن بقاء الحرباء على قيد الحياة دون غذاء لفترة طويلة أمر مؤكد. فقد تم احتجازها لعدة

أشهر تحت غطاء من الزجاج بحيث لا يمكن دخول الذباب إليها. ولم تكن تحفظ عادة في أقفاص بل كان يسمح لها بالزحف في أرجاء الغرفة. ولم تكن ترغب في تناول طعامها عندما يتم إزعاجها أو اللعب بها؛ كما لم تحاول تلك المحتجزة تحت الزجاج تناول الذباب عندما قدم لها.

(٣) من الشائع بالنسبة للفلاحين، عندما يشربون الماء من جدول دون حذر أن تدخل علقة إلى فمهم دون أن يدركوا ذلك في حينه، والتي تتثبت في حلقومهم عدة أيام قبل أن يجدوا وسيلة لإخراجها. وقد شاهدت حالات عديدة لم أشك فيها في دخول علقة ، وكان الدم الذي يخرج بين الحين والآخر من الحنجرة، يعزى إلى أسباب أخرى. وفي بعض الأحيان تعلق في مكان معين وتتقلص، بحيث تبقى مختبئة تماماً عند إدخال أداة لفحص الحلقوم. وفي أحيان أخرى، وعند مشاهدتها فلا يتم استخراجها دون صعوبة بواسطة الكلاب. وهذه هي الطريقة الوحيدة لاستخراجها، لأن الوسائل الأخرى التي ذكرها أطباء آخرون لم تنجح أبداً.

الفصل الخامس
عن النباتات

النباتات المتوفرة في المناطق المجاورة من حلب : وبعض النباتات التي تم جمعها من الجبال وعلى طريق الإسكندرونة واللاذقية

لم يكن وقت الفراغ المتاح لي أو معرفتي بعلوم النبات، بمساعدة أخي (الذي وصل مؤخراً من أوروبا، وكان لديه مزيد من الوقت لجمع العينات) تعادل وضع فهرس كامل عن النباتات المزروعة بالقرب من حلب. وبالإضافة إلى الجهد المبذول في عملية البحث، فمما لاشك فيه أنه قد فاتنا الكثير من النباتات*. وفي الوقت نفسه، فقد حرصنا على عدم إدراج أي نوع من النباتات في الفهرس ما لم نتأكد من صحة ذلك بقدر إمكاننا**

وكنا قد لاحظنا في مناسبة سابقة أن النرجس كان مزهراً خلال معظم الشتاء، وأن الناردين (الخزامى الأصفر)، والبنفسج كانا يكثران في كانون الثاني. ومن بين النرجس، ثمة نوع جميل يطلق عليه الحلبيون 'المضعف'، ويزرع في الحقول بالقرب من قرية حدر. ونحو أواخر الشتاء، تشاهد نساء بدويات وهن يجبن شوارع المدينة ويحملن سلالاً من هذه الأزهار يعرضنها للبيع، وهن يغنين وهن يسرن: 'يا محلى زمانو، خالقو كريم'.

إلا أن هذه الأزهار لاتنبىء بمقدم الربيع تماماً، بل يعرف أنه أصبح على

* كان لهذا الشك أساس من الصحة، وذلك لأني صادفت العديد من النباتات الجديدة بعد أن غادر أخي البلاد، واكتشف الدكتور فرير، الذي خلفني، عدداً أكبر.

**لم تمكن أعمال أخرى أخي من بذل اهتمام بالنباتات قبل وصولي إلى سورية، لذلك، فقد تم جمع معظم النباتات وتجهيزها خلال السنتين أو السنوات الثلاث من إقامته في حلب: إلا أنه لتفادي حدوث أخطاء، فإن عدداً كبيراً من العينات المجففة، وخاصة النباتات التي لم أكن أعرفها، أو التي انتابتني الشكوك بصددها، أرسلتها إلى أخي بعد عودته إلى إنكلترا، حيث قام بدراستها مرة أخرى مع بعض أصدقائه من علماء النبات في لندن، وخاصة المرحوم Mr. Millar of Chelsea الذي وافق على الترتيب الذي تم اعتماده في الفهرس السابق. غير أن حالة بعض العينات لم تكن جيدة، بالإضافة إلى أمور أخرى أدت إلى حدوث عدد من الأخطاء في تحديد الأنواع.

ولهذه الأسباب رغبت في تنقيح الفهرس، ووضعه في ترتيب منهجي: وهي مهمة لم أكن لأتشجع على الإقدام عليها لولا المساعدة الكبيرة التي قدمت لي، والتي نوهت عنها في مقدمتي.

وبالإضافة إلى العينات الأصلية التي جمعها أخي، تم جمع مجموعة لابأس بها كنت قد جلبتها من سورية، وكمية كبيرة كان يملكها السير جوزيف بانكس التي قدمها له أستاذ علم النبات في ادنبرة. ومن بين تلك العينات الأخيرة، كان بعضها طازج أكثر من مجموعتي التي أرسلها إلى الدكتور هوب، خلفي في حلب، الذي أكن له كل الشكر والامتنان لاكتشافه العديد من النباتات بعد مغادرتي للبلاد.

الأبواب عندما ينادي بائع متجول في الشوارع ' عجور الجبل '، وهو عبارة عن جذور صغيرة، توضع في باقات بواسطة أوراقها نفسها، وتجلبها البدويات والأطفال البدو بكميات كبيرة إلى المدينة. ويكون لون الجذر أبيض تماماً عندما تنزع عنه قشرته، ويشبه طعمه طعم الجوز الطازج* . ويمكن اعتبار قدومه مبشراً بقدوم الربيع، وسرعان ما تعقبه براعم الصفصاف المصري، وعندها يمكن القول إن موسم نمو النباتات قد بدأ.

توجد أعداد قليلة من النباتات وراء حزام البساتين والكروم قبل منتصف آذار. ومنذ ذلك الحين، يأخذ عالم النباتات بتوسيع مجموعته: وفي الشهر التالي، يتعين عليه بذل جهد مضاعف، وذلك لأن الغطاء النباتي ينمو بسرعة كبيرة، بحيث أن المرء يصادف نباتات جديدة في كل صباح. ومع التحول السريع من نضج النبات إلى هلاكه، تفوتنا دراسة النباتات الأصغر حجماً.

بالنسبة لعشاق النباتات لاشيء يعادل جمال الريف في حوالي نهاية نيسان أو بداية أيار. فالمرتفعات والأراضي تجذب العين من جميع الجهات، كما يبدو أن حقول القمح التي لا تعشب أبداً، قد زرعت بقصد إمتاع البصر. ولازال Leontapetalon، الذي كان في بداية الموسم يزين الأراضي التي تم فلاحتها في وقت متأخر، يظهر في بعض الأماكن وهو يزين سنابل الشعير التي تكون قد بدأت تنضج، بلونه الأصفر الزاهي إزاء زهر سيف الغراب واللون اللازوردي الغامق لنبات لسان الثور الرائعة، والأزهار الجميلة الأخرى ذات اللون الأزرق الفاتح.

وثمة نباتات كثيرة جداً، لا تنمو كثيراً تتناثر بين نباتات القمح والشعير، أو في الحقول الواسعة المزروعة بمختلف أنواع البقوليات: حيث يتناثر الخشخاش المنثور ذو اللون الجميل الذي يبهر العين.

ولا تستثنى سفوح الهضاب وقمم التلال المنخفضة الصخرية، فضلاً عن الأودية الصغيرة التي تتخلل التلال غير المزروعة في هذا الوقت من نباتاتها المميزة، إلا أن حصاد النباتات السابقة يقع في أواخر أيار تقريباً. ويعد حزيران، قلما يصادف المرء أية نباتات في الحقول باستثناء بعض النباتات الأكثر قدرة على التحمل.**

---

* جاء في الطبعة الأولى أن هذا الجذر ينتمي إلى *Syfyrinchium* وهذا خطأ أوقعت أخي فيه، وذلك لأن الغطاء الشبيه بالشبكة على الجذر قد ضللني، ويعد أن وجدت أن النبات شائع في الحقول. أما جذر *Syfyrinchium* الشائع في حلب فهو مر الطعم، وأن المعني في النص هو جذر الزعفران الذي لا يكون مزهراً في ذلك الموسم، ويحضره البدو من مسافات بعيدة، لأنني لم أشاهد النبات بكثرة بالقرب من المدينة. ولم أتمكن من الركون إلى البدويات في جلب النبات بكامله وهو في حالة الإزهار.

** كانت جولاتنا الرامية إلى استكشاف النباتات تنحصر ضمن نطاق ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة، وقلما تجاوزت ستة أميال. ولعله من المفيد معرفة الأماكن التي تم مسحها بنجاح. ففي أوائل الربيع، شملت البساتين القريبة من المدينة والبساتين الممتدة على طول النهر حتى بلوغ أول طاحونة. ومع تقدم الفصل قليلاً، كان الريف المزروع الواقع بين جبل زيلت ومقلع الحجر على الطرف الغربي من النهر: ويجب عدم إغفال المرتفعات المطلة على هذا الموقع. وفي حوالي منتصف نيسان، قمنا بزيارة الحقول والمرتفعات الواقعة بجوار الطاحونة الثانية والراموسة من ناحية، وبين قرية باب الله وحيلان شمالاً أكثر من مرة. ولم أذكر شيئاً عن قرية النيرب، أو المرتفعات الواقعة جنوبي المدينة لأننا نادراً ما عثرنا على أية نباتات في ذلك الجانب.



يبين المسرد التالي بعض النباتات الموجودة في حلب، أما النباتات التي بجانبها إشارة فلم تؤخذ عينات منها إلى إنكل

DIANDRIA

Veronica triphyllos. Linn. Sp.
Verbena officinalis L. f.
Lycopus Europeus L. f.
Ziziphora capitata L.f.
**Rosmarinus officinalis L.f.*
Salvia officinalis L.f.
Horminum L.f.
Verbenaca L.f.
Syriaca L.f.
Spinosa. Linn. Mant
ceratophylla. Linn Sp.
Horminum Arabicum, latis foliis, flore rubello.Pluk.Alm.

TRIANDRIA

Valeriana Cornucopiae. Linn. Sp.
Locusta olitoria L.f.
Crocus sativus officinalis L.f.
Vernus L.f.
Gladiolus communis. Linn. Sp.
Iris sufiana L.f.
Cyperus squarrofus L.f.
Nardus aristatus. L.f.
Phalaris canariensis L.S.
Panicum viride L.f.
Phleum arenarium L.f.
Alopecurus pratensis
Milium effusum L.f.
Agrostis alba L.f.
Aira aquatica L.f.
Lithosppermum avense. L.f.
Anchusa Officinalis. Linn. Sp.
Cynoglossum OFFICINALE. Linn. Sp.
Onosma Pilosa
**Cyclamen Europeam. L. f.1*
Asperugo procumbens. Linn.Sp.
Convolvulus arvensis L.f.
Scammonia2
Borago officinalis L. f.
Campanula strigosa
Samolus valerandi. L.f.

Mellca capillaris
Poa pratensis L.s.
Dactylis glomerata L.f.
Festuca myuros L.f.
Bromus mollis. Linn. sp.
Pappophorum squarrofum
Stipa juncea Linn. sp.
Avena satua L.f.
Lagurus ovatus L.f.
**Arundo Donax L.f.*
Lolium perenne L.f.
Secale cereale. Linn. sp.
Hordeum vulgare L.f.
Triticum aestivum. Linn
Holosteum umbellatum. Linn.
**Dipsacus fullonium. Linn. Sp.*
Scabiosa Syriaca L.f.
Sherardia arvensis L.f.
Asperula arvensis L.f.
Galium verum. l.f.
Crucianella angustifolia L.f.
Rubia tinctorum L.f.
OýPlantago major. L.f.
**Cornus mass. L.f.*
Elaegnus angustifolia L.f.
Cuscuta europea. L.f.
Hypecoum procumbens L.f.
**Potamogeton natans L.f.*
Heliotropium europaeum. Linn. sp.
Myosotis echinophora. Pallas it.
Lycopsis vesicaria L.f.
Echium vulgare L.f.
Androsace maxima. Linn. Sp.

Anagallis arvesis L.f.
Plubago europea L. f.
Salsola sativa. L.f.
Caucalis Leptophylla. L.f.
Daucus Carota. Linn. Sp.
Ammi majus. L.f.
Coriandrum sativum. L.f.

**Lonicera Periclymenum3*
**Mirabilis Jalapa L.f.*
Verbascum Thapsus L.f.
Datra fastofa L.f. Pastinaca Secacul4
**Capsicum annuum. Linn. Sp.*
Nerium Oleander5
Cynanchum monspeliacum. L.f.
Herniaria hirsuta. L.f.
Beta maritima. L.f.

OCTANDRIA
**Lawsonia Incermis7*
Polygonum maritimum. L.f.
Rheum Ribes8
POLYANDRIA
Capparis spinosa. Linn. Sp.
Chelidonium corniculatum. L.f.
Papaver hybridum. L. f.
Nymphaea lutea. L.f.
**Corchorus olitorius. L.f.*
Nigella sativa. L.f.
Adonis miniata
Ranunculus Ficaria. Linn. Sp.
DIDYNAMIA
Satureja stricta
Sideritis montana. Linn. Sp.
Mentha sylvestris. L.f.
Lamium amplexicaule. L.f.
TETRADYYNAMIA
Myagrum pinnatum

**Carum carvi. L.f.*
Alsine media. L.f.
Linum perenne. Linn. Sp.

**Allium Porrum. Linn. Sp.*
** Cepa6 L. f.*
Tulipa genfneriana. L.f.
Hypoxis fascicularis. L. f.
Colchicum montanum. L.f.

MONADELPHIA
Geranium romanum. Linn. Sp.
Alcea rosea. L.f.
Malva rotundifolia. L.f.
Crepis vesicaria. L.f.
**Cynara Scolymus. L.f.*
GYNANDRIA
Orchis collina
Aristolochia maurorum.Linn Sp.
Arum intortum
MONOECIA
Zannichellia palustris. Linn. Sp.
Chara flexilis. L. f.
Poterium Sanguiforba. l. f.
**Juglans regia. L.f.*
Platanus orientalis. L. f.
Pinus Pinea. L.f.
Diandria
Jaminum fruticans. linn. Sp.
Phillayrea latifolia. L.f.

---

i يعتبر هذا النبات محلياً في الاسكندرونة، إلا أنه يزرع في حلب.

i محمودة أو سقمانيا: نبات محلي في الجبال الواقعة بين حلب واللاذقية، إلا أنه لاينمو بشكل بري في حلب. فقد حاولت عدة مرات زراعته في أصص هنا، إلا أنه لم تنجح زراعة البذور التي زرعتها في أجزاء مختلفة من التلال.

i لقد شاهدت هذه النبتة (صريمة الجدي الحرجية) في جبال بيلان حيث تجلب إلى حلب من هنالك في صناديق.

i يحضر هذا الجذر مع السكر حسب طريقة Eringo ويعتبره البدو منعشاً ومقوياً ممتازاً.

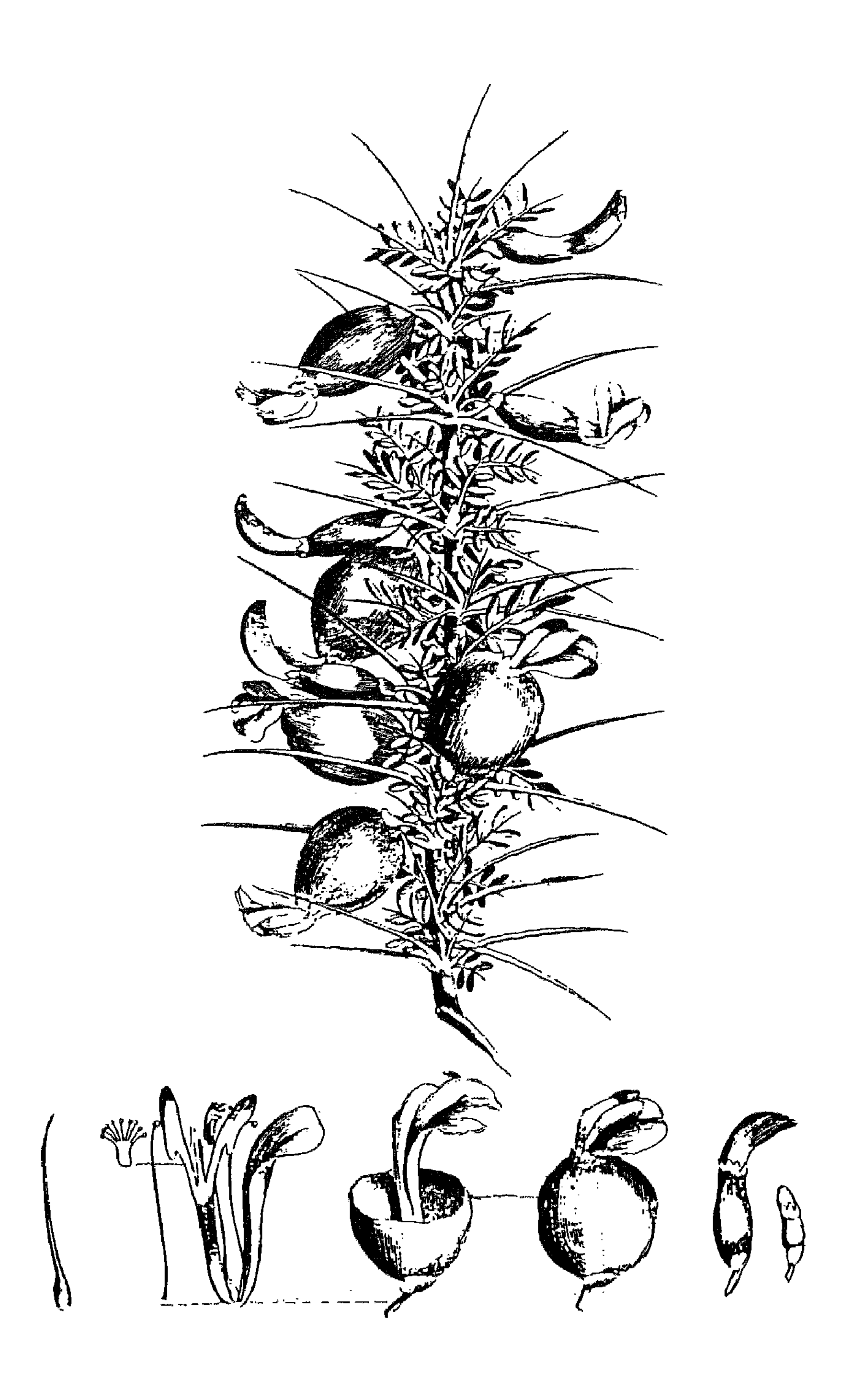
i تزرع الدفلى (أو آلاء) في البيوت في حلب، وهي تجلب من جبال أو سهول انطاكية أو الاسكندرونة حيث تنمو بكثرة شديدة.

i توجد أنواع عديدة أخرى من الثوم في حلب وخاصة نبات جبلي كبير جداً ، إلا أن العينات كانت في حالة سيئة بحيث تعذر تحديدها.

i تزرع هذه النبتة في صناديق في حلب، وتُحفظ معظم هذه الصناديق في الشتاء في مغارة كبيرة، تؤجر لهذا الغرض. والنبات قابل للهلاك في البيوت.












CC



الكتاب الخامس
عن الطقس والأمراض الوبائية

الفصل الأول

وصف الأجهزة، ملخص عن الطقس خلال أشهر السنة، جداول مقارنة، ملاحظات وما إلى هنالك..

نظراً لتشابه الفصول إلى حد كبير في مختلف السنوات، فإني سأقدم عرضاً ملخصاً شهرياً عن الطقس، استمد من دراسة مقارنة لسجل الأرصاد الجوية على مدى السنوات التسع التي سبقت السنوات التي تفشت فيها الأمراض الوبائية، بهدف تحديد أكثر جوانب خروج المواسم عن مسارها الطبيعي أهمية.

تمت متابعة هذا السجل بانتظام لمدة عشر سنوات، باستثناء انقطاعات قليلة، إلا أنه نظراً لأن الأجهزة المستخدمة لم تكن في حالتها الجيدة طوال تلك الفترة، وبسبب استخدام موازين حرارة متعددة (فقد تحطم العديد منها عرضاً)، فقد يكون من المفيد عرض عدد من الملاحظات حول هذه الأمور.

كانت جميع موازين الحرارة زئبقية، أو متدرجة حسب الميزان الفهرنهايتي، وكان معظمها من صنع السيد بيرد (Mr. Bird) في لندن. وكانت الموازين التي استخدمت خلال السنوات الثمانية الأولى موازين محمولة، أما في السنوات ١٧٥٢ و ١٧٥٣، فقد استخدم ميزان حجمه ثلاثين إنشاً، وكان مقياس الضغط الجوي (البارومتر)، المستخدم طوال الوقت، جهازاً ممتازاً من صنع بيرد. وكان يجري فحص الأجهزة مرتين كل أربع وعشرين ساعة؛ مرة عند الساعة السابعة صباحاً، وعند الثالثة بعد الظهر في الصيف، وبعد ساعة من هذا الموعد في الشتاء.

وخلال السنوات ١٧٤٣* و ١٧٤٤ و ١٧٤٥ و ١٧٥٢ و ١٧٥٣، علقت الأجهزة

* في جزء من عام ١٧٤٣، وضعت الأجهزة في غرفة باتجاه الغرب تدخلها الشمس بعد الظهر، وكانت النوافذ تبقى مفتوحة (ما عدا في الشتاء). إلا أن ميزان الحرارة كان قد تحطم في أيار، وبدا أن الزئبق بقي تقريباً على نفس الارتفاع خلال أشهر الشتاء، كما كان عند وضع ميزان الحرارة في الكشك الخشبي، ولم أشعر بضرورة تمييز الأماكن المختلفة. ومن الجدول، يبدو أنه رغم حدوث الصقيع في كانون الثاني ١٧٤٣، لم ينخفض ميزان الحرارة في الغرفة الغربية إلى أقل من ٣٤، وحتى في الكشك، خلال جليد ١٧٤٦، فقد توقف عند ٣٨، رغم أن الغرفة الغربية، نتيجة تعرضها إلى شمس بعد الظهر، كانت دائماً أكثر حرارة من الكشك في أشهر الربيع والصيف.

في كشك خشبي صغير باتجاه الشرق المطل على شارع ضيق باتجاه الشمال والجنوب وتحفه أبنية عالية، ويوجد للكشك أربع نوافذ، اثنتان من الأمام، وواحدة على كل جانب، أبقيت مفتوحة بشكل عام من نيسان وحتى نهاية تشرين الأول، وبسبب ارتفاع المباني، كانت الشمس تدخل حوالي ساعة واحدة فقط في اليوم من النافذة الصغيرة. وكانت الغرفة التي يبرز منها الكشك تتصل مع غرفة أمامية تطل على الغرب، وكانت الأبواب والنوافذ تبقى مفتوحة أثناء النهار. وبسبب ذلك كان الهواء يتدفق باستمرار، وكان الكشك يعتبر في وضع جيد بالنسبة للأجهزة، وتشير خلاصة السجل الشهري إلى ذلك.

اختلف وضع الأجهزة في سنوات أخرى، وبسبب بعض الأعمال التي حالت دون فحص الأجهزة في ساعات محددة، فإني مدين لصديق كان يقيم في دار القنصلية، الذي أخذ ذلك على عاتقه، ثم نقل ميزان الحرارة إلى غرفة ذات أقواس فيها نافذة واحدة باتجاه الجنوب، وتتصل بغرف أخرى على كل جانب بوساطة أبواب. وإزاء النافذة كان ثمة باب ينفتح على قاعة ضخمة ذات قبة كبيرة، يضيئها أحد المصابيح. وقلما كانت نافذة الغرفة تُغلق في الصيف، وفي ذلك الفصل حل باب مشبك محل الباب العادي؛ وبما أنه كان مدخلاً لشقق القنصلية، فقد كان الباب يظل مفتوحاً معظم فترة بعد الظهر. وكانت الغرف بهذه الحالة التي وصفناها دافئة بشكل ملحوظ في الشتاء، وباردة في

---

* حدث خلل في السجل خلال الفترة من نيسان ١٧٥٠ وحتى آب ١٧٥١.

** إن عدم هبوط درجة الحرارة خلال عشر سنوات إلى درجة التجمد أمر يختلف كثيراً عن الملاحظات اللاحقة، أي عندما تم اكتشاف سبب ذلك، وبما أن البحث في ذلك يؤدي إلى أمور أخرى تتعلق بالمناخ في سورية، فإنه لا يلقي الضوء على الملاحظات المستمدة من ميزان الحرارة من عام ١٧٤٢ إلى عام ١٧٥٤ فقط، بل إلى محاولة ضبط الأجهزة المختلفة المستخدمة، ويمكن ربط هذه الملاحظات مع الملاحظات التي أخذت باستمرار بعد تلك الفترة. ومما لا شك فيه فقد تأثر الكشك المذكور أعلاه كثيراً في الصيف نتيجة انعكاس الشمس من الجدران الحجرية بالقرب منه، لذلك ارتفع الزئبق في هذا الوضع أكثر بعد الظهر، وفي جميع الأوقات كان أكثر حساسية للتغيرات التي طرأت على درجة حرارة الهواء؛ أما في الشتاء، فقد انخفض الزئبق عدة درجات في الصباح في دار القنصلية، أما عندما كانت السماء صافية، فقد كان عندئذ تحت تأثير الانعكاس، فارتفع أكثر بعد الظهر، أو بمعنى آخر، كان التغير الذي طرأ في اليوم نفسه أكبر بعدة درجات.

بالإضافة إلى هذا الفرق الناشئ عن وضعية ميزان الحرارة، ينبغي التسامح ببضع درجات بسبب اختلاف الأجهزة المستخدمة في هذه الملاحظات.

وقد حالت أحداث عديدة (مساوئ الإقامة البعيدة) ولمدة طويلة دون مقارنة موازين الحرارة المختلفة الموضوعة مع بعضها في المكان ذاته، وتحديد تبايناتها عندما وضعت فيما بعد في مواضع مختلفة. ولم تبذل مثل هذه المحاولة إلا في عام ١٧٥٥ في الكشك، ولتحديد الفرق بين موازين الحرارة المستخدمة سابقاً بقدر الإمكان والتي كسرت عرضاً، هي ميزان حرارة صغير جداً، من صنع Bewe الذي كان قد استخدم مع الموازين الأخرى في نفس الوقت، واستخدم كمقارنة للمعايير. ورغم أن تدرجه أقل دقة من أجهزة Bird، فقد أدى الغرض جيداً.

كان ميزان حرارة بيرد في الكشك أقل بأربع، أو ست،أو ثماني،أو عشرة، وفي بعض الأحيان

الصيف. وبقيت موازين الحرارة في هذه الوضعية من تموز ١٧٤٦ وحتى تموز ١٧٥٠*

كان وضع ميزان الحرارة أكثر دفئاً بعدة درجات من درجة حرارة الهواء الخارجي في الشتاء، كما يبدو من الزئبق الذي لم يهبط أبداً إلى درجة التجمد، حتى في الأوقات التي استمر فيها الصقيع عدة أيام**.

وأتابع الآن، حسب الطريقة المقترحة، تقديم عرض ملخص عن الطقس في كل شهر على حدة، بالإضافة إلى الارتفاعات الشديدة لميزان الحرارة، وارتفاع درجة الحرارة العادية طوال الشهر، مميزين الليلتين الأولى والثانية لإظهار الانتقال التدريجي للمواسم. أما فيما يتعلق بالبارومتر، فقد كانت الاختلافات ضئيلة جداً بحيث تطلب وضع علامة على أعلى وأدنى ارتفاع للزئبق. وقد يوجد عرض دقيق أكثر في السجل المفصل للعامين ١٧٥٢ و ١٧٥٣.

كانون الثاني

كان الطقس في كانون الثاني إما ماطراً، أو تشكل فيه الصقيع. والثلج يهطل في حلب في هذا الشهر بشكل رئيسي، ولكن نادراً مايهطل بكميات كبيرة، ولا يبقى في الشوارع فترة طويلة دون أن يذوب؛ ويعتبر منتصف الشهر الوقت المعتاد لهطوله، وغالباً ما يستمر تشكل الصقيع حتى نهاية الشهر.

هطلت أمطار في الليل وبغزارة في معظم الأحيان، وهبت الرياح باعتدال من الجهتين الشمالية والشرقية

	الدرجة العظمى	الدرجة الدنيا
ميزان الحرارة	٥٧	٣٤
ميزان الضغط الجوي	٢٩ر٣	٢٨ر٦

بإثني عشرة درجة من ذلك الموجود في دار القنصلية خلال أشهر كانون الثاني وشباط وتشرين الثاني وكانون الأول. أما خلال الأشهر الأخرى فقد كان أعلى وخاصة بعد الظهر، إلا أن الفرق كان طفيفاً. وكان الفرق بين الارتفاع في الصباح وبعد الظهر في ميزان الحرارة، أكبر باستمرار في الكشك.

يتمثل هدفي من عرض مقدمتي هذه في تبيان الاختلاف بين الأجهزة من ناحية، وتأثير المواقع المختلفة المبينة في الجداول التالية من ناحية أخرى. غير أني اخترت لهذا الهدف بعض الأيام التي سادت فيها برودة غير اعتيادية في حلب. و' أ ' هو ميزان حرارة بيرد الموضوع في الغرفة الجنوبية من دار القنصلية، و' ب ' ميزان بيرد الكبير الموجود في الكشك و' ج ' ميزان حرارة Bewe في نفس الوضعية. وكانت ساعات الملاحظة هي الثامنة في الصباح والثالثة بعد الظهر:

تذبذب الزئبق بين ٤٠ و ٤٦ درجة عند الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً عندما لم يكن يوجد صقيع. أما في أثناء الصقيع، فقد هبط الزئبق كثيراً. وعند الثالثة بعد الظهر، ارتفع الزئبق ٣ أو ٤ درجات أكثر من الصباح، باستثناء الفترة التي كان الطقس فيها ماطراً مكفهراً، إذ تعذر إدراك الفرق، ونادراً جداً ما تجاوز درجة أو درجتين.

شباط

كان الطقس في هذا الشهر أكثر تقلباً من الشهر السابق. فقد هطل الثلج في بعض الأحيان، وتشكل الصقيع خلال أيام قليلة، وبشكل عام، كان شهراً ماطراً، فهطلت كميات كبيرة من الأمطار في الأسبوعين الأولين. وكانت السماء صافية وخاصة بعد الظهر، وكانت تكسوها غيوم بيضاء كبيرة في معظم الأحيان، حيث كان الطقس دافئاً باعتدال خارج البيت. وفي بعض الأحيان، هبطت درجات الحرارة، وكان الجو ينذر بهطول أمطار إلا أنها لم تهطل. واستمرت الرياح كما كانت في الشهر السابق، حتى نهاية الشهر، وكانت تهب في بعض الأحيان من الغرب.

آذار

هطلت كميات كبيرة من الأمطار في آذار، لكنها كانت على شكل زخات قصيرة وغزيرة بصورة عامة، وغالباً ما كانت مصحوبة بالرعد، وكان الطقس مكفهراً كئيباً؛ إلا أنه في معظم الأحيان، كانت السماء صافية، أو كانت تكسوها غيوم بيضاء خفيفة. وبدأت الحرارة بالارتفاع في العراء خلال هذا الشهر، وهبت رياح أكثر إنعاشاً من تلك التي هبت في كانون الثاني وشباط، وكانت في الغالب رياحاً غربية.

نيسان

كانت السماء في نيسان صافية بشكل عام، رغم أن الغيوم البيضاء الخفيفة تخللت السماء في فترة بعد الظهر؛ ولم يصبح الجو ملبداً بالغيوم أو مظلماً، إلا عندما كانت تمطر، وكان ذلك يحدث على شكل زخات قوية مصحوبة بالرعد، كما كانت في الشهر الماضي مصحوبة بالبرق. وهبت نسمات شمالية أو غربية، إلا أن الرياح كانت بشكل عام غربية منعشة. وبقيت فترات الصباح والمساء باردة، أما الطقس أثناء النهار فقد بدأ يزداد حرارة.

أيار

تخللت السماء في بعض الأحيان غيوم بيضاء خفيفة، وكان الجو جميلاً بشكل عام. وهطلت زخات قليلة غزيرة من الأمطار كان يصحبها البرق في غالب الأحيان، وكانت قطرات المطر ممزوجة بالبَرَد أحياناً. وأصبح الجو حاراً جداً في هذا الشهر، وخاصة عندما سكن الهواء، أو توقفت الرياح الشمالية أو الشرقية. غير أن معظم الرياح التي هبت كانت غربية.

تجدر الملاحظة هنا إلى أنه خلال الصيف بأكمله، كان للرياح الغربية تأثير بالغ الحرارة. ويمكن أن يشعر جسم الإنسان بالتغيرات التي تطرأ على الرياح الغربية أكثر مما يوضحها ميزان الحرارة. أما عندما كانت تهب رياح شمالية وشرقية فلا يصبح الهواء شديد الحرارة فقط بالنسبة للإنسان، بل كان الزئبق يرتفع كذلك عدة درجات.

حزيران

كانت السماء خلال هذا الشهر صافية، باستثناء بعض الغيوم البيضاء الخفيفة المتناثرة، ويندر مشاهدة زخة واحدة من المطر، وأدت الرياح الغربية التي سادت هذا الموسم إلى ارتفاع الحرارة التي لم تكن تحتمل أحياناً، والتي كانت تصبح منعشة دائماً حوالي الظهيرة، وكانت تستمر كذلك غالباً طوال الليل.

تموز

أصبح الطقس في تموز أكثر حرارة، وبقيت السماء صافية، وفي أحيان أخرى، اختلف الطقس قليلاً عن الطقس الذي ساد في حزيران. وهبت نسمات منعشة من الرياح الغربية، وعندما كانت هذه الرياح تتوقف، كان الطقس يصبح قائظاً.

آب

استمر الطقس كما كان في الشهرين الماضيين جزءاً من الشهر، إلا أنه بعد العشرين من الشهر عبرت غيوم أكبر وأكثر كثافة من الغيوم العابرة التي تشاهد عادة في أشهر الصيف، والتي يطلق عليها الأوربيون اسم 'غيوم النيل'. ومنذ ذلك الوقت بدأ الندى، الذي نادراً ما يشاهد في الصيف، يتشكل في الليل، ولكن ليس بشكل كبير.

أيلول

كان الطقس في الأسبوعين الأولين نفسه تقريباً كما كان في الجزء الأخير من آب، بل أكثر اتقاداً. وبما أنه لم تهطل أمطار، فقد كان الشهر كله صافياً وشديد الحرارة والرطوبة. وخلال ١٥ و ٢٥ من الشهر، ظهرت غيوم سوداء كثيفة، وهبت رياح شديدة أشبه بالزوابع من الغرب، وغلفت المدينة كلها بالغبار. وتنبئ هذه الظاهرة عادة بهطول أمطار، وبالفعل فقد هطلت أمطار غزيرة في المدينة وفي المناطق المجاورة بعد يوم أو يومين،

وتدعى 'الأمطار الأولى'، ورغم أنها لم تكن كثيرة من حيث الكمية، إلا أن الهواء أصبح أكثر إنعاشاً، وأصبح باقي الشهر أكثر لطافة.

ولوحظ برق غير مصحوب برعد في كل ليلة تقريباً وهو يلتمع من بين حواف الغيوم الكثيفة، من الجهة الشمالية الغربية، وعندما كان يظهر من الغرب أو من الجنوب الغربي، فكان ذلك مؤشراً على اقتراب هطول الأمطار التي ترافقها غالباً رعود عالية. وقلما تزيد الرياح الغربية في هذا الشهر عن كونها نسمات لطيفة، وتكون هادئة جداً في الغالب.

تشرين الأول

حتى هطول الأمطار الثانية في هذا الشهر، كان الطقس رائقاً لطيفاً مائلاً للبرودة، وكان أكثر أشهر السنة لطافة. وإلى حد ما، تنتظم الأمطار الثانية الأمطار التي تهطل في أيلول، وتكون الفترة الفاصلة بينهما عادة مدة تتراوح بين عشرين وثلاثين يوماً، كما تتباين الكميات كثيراً في مختلف السنوات؛ غير أن الأمطار الثانية تكون أكثر غزارة من الأولى، وهطلت أمطار على شكل زخات غزيرة متقطعة، على مدى ثلاثة أو أربعة أيام متعاقبة. كما كانت الرياح متقلبة ونادراً ما كانت منعشة ولطيفة.

تشرين الثاني

قد يعتبر تشرين الثاني أحد الأشهر الماطرة، رغم أنه يتخلله طقس جميل، وتهطل فيه الأمطار عادة بزخات قوية. وعندما هطلت واحدة أو أكثر من هذه الأمطار أثناء النهار، فقد ذكرت في السجل بأنها 'ماطرة'، ويبدو أن عدد الأيام الماطرة في تشرين الثاني نادراً ما تجاوز سبعة أيام، وليس من الشائع رؤية الثلج، أما بعد منتصف الشهر، عندما كان الطقس رائقاً، فقد تشكل الجليد في فترات الصباح. أما الرياح التي كانت متقلبة، ونادراً ما كانت شديدة، فقد هبت عادة من الشمال والشرق.

كانون الأول

يُعد هذا الشهر كذلك شهراً ماطراً، وفي معظم الأحيان يكون الطقس بين فترات هطول الأمطار غائماً أو يسوده الضباب، ولا يكون لطيفاً كما هي الحال في تشرين الثاني. وكان عدد أكثر الأيام الماطرة المذكورة في السجل ١٦ يوماً، وأقلها ٦ ايام؛ وتراوح عدد الأيام التي هطلت فيها أمطار عادية بين ٨ أو ٩ أيام. وساد جليد في هذا الشهر، وهطل الثلج أحياناً في حوالي منتصف الشهر، وهو الوقت الذي يبدأ فيه عادة الطقس البارد. وكانت الرياح، كما كانت في الشهر السابق شرقية أو شمالية في معظم الأحيان.

١٧٥٦	الساعة	أ	ب	ج	
كانون الأول	٨	٥٥	٥٣	٤٩	ماطر
	٣	٥٥	٥٣	٤٩	
٢	٨	٥٤	٥٠	٤٦	مكفهر
	٣	٥٤	٥٠	٤٦	
٣	٨	٥٣	٤٦		صافٍ
	٣	٥٤	٤٨	٤٤	
٤	٨	٥٢	٤٤	٤٠	
	٣	٥٣			صقيع خفيف
٥	٨	٥٠	٤٣	٣٨	نفس الشيء
	٣	٥١	٤٦	٤٠	
٦	٨	٥٠	٤١	٣٥	صقيع شديد
	٣	٥١			
١١	٨	٤٧	٣٨	٣٣	نفس الشيء
	٣	٤٨	٣٢	٣٦	
١٢	٨	٤٧	٣٨	٣٣	ثلج
	٣	٤٨	٤٢	٣٦	
١٣	٨	٤٦	٣٨	٣١	نفسه
	٣	٤٦			
١٤	٨	٤٤	٣٥	٢٩	رائق
	٣	٤٤	٣٥	٢٩	
١٥	٨	٤٥	٣٥	٢٨	نفسه
	٣	٤٥	٣٦	٢٩	
١٦	٨	٤٣	٣٢	٢٤	نفسه
	٣	٤٤			

يبدو من هذا الجدول، أنه خلال اليومين الأولين اللذين كانا مكفهرين ورطبين، كان الفارق بين أ و ب درجتين أو ثلاث درجات فقط، إلا أنه مع ازدياد الصقيع في الأيام الأربعة التالية، ازداد الفرق كذلك بين الميزانين، بحيث أصبح في صباح اليوم السادس ١١ درجة. ومن العاشر وحتى السابع عشر، استمر الزئبق في الهبوط، وحافظت موازين الحرارة الثلاثة على الفروقات نفسها في الارتفاع كما في السابق، أو اختلفت درجة أو درجتين فقط.

الفصل الثاني
عن الطقس من سنة ١٧٤٢ وحتى سنة ١٧٥١م

١٧٤٢ م

كان الشتاء في هذا العام قاسياً على نحو غير اعتيادي، وهطلت أمطار في آذار ونيسان بكميات أقل بكثير مما تهطل عادة في هذين الشهرين. وأصبح الطقس حاراً مع اقتراب نهاية نيسان، واستمر كذلك حتى ٢٠ أيار، ومنذ ذلك الحين وحتى ٢٢ حزيران، هبت رياح شرقية قوية، وكانت باردة نسبياً بالمقارنة مع هذا الموسم: إلا أن نسمات خفيفة هبت من الشمال الغربي حلت محل هذه الرياح في ٢٢ حزيران، وأصبحت شديدة الحرارة، واستمرت كذلك حتى ١١ تموز. ولم يطرأ على الطقس خلال الفترة المتبقية من الفصل شيء ملحوظ. ولم تهب أية رياح شرقية حارة في هذه السنة.

هطلت أمطار غزيرة في ٢٥ أيلول، وكانت هذه هي المطرة الأولى. وكان الطقس في الفترة الواقعة بين هطول هذه الأمطار والأمطار الثانية التي هطلت في أيام عديدة متعاقبة نحو نهاية تشرين الأول، رائعاً جداً. ومنذ ذلك الحين، ساد جو جميل لطيف حتى ١٤ كانون الأول، عندما تشكل جليد بشدة، واستمر طوال الشهر.

وشعر الناس بهزة أرضية خفيفة في نفس اليوم الذي بدأ يتشكل فيه الجليد. وقد عرضنا التغييرات التي طرأت على الحرارة والبرودة، من طريق الإحساس بها نظراً لعدم توفر ميزان الحرارة.

١٧٤٣م

هطلت كميات كبيرة من الثلج* في الأسبوعين الأولين من كانون الثاني، واستمر الجليد الذي كان قد بدأ في الشهر الماضي، وكان الهواء شديد البرودة. وكان الزئبق في المحطة الصباحية يتوقف عادة عند ٣٦ درجة (ومرة واحدة ٣٤)، وخلال فترة بعد الظهر، ارتفع الزئبق مرة واحدة فقط إلى أكثر من ٤٠ درجة. واستمر الجليد بضعة أيام ساد فيها طقس معتدل، ثم حلت بعده أمطار غزيرة، واستمرت تقريباً حتى العشرين من الشهر التالي: وكان الجزء الأخير من شباط لطيفاً جميلاً.

حل آذار بطقس ربيعي متقلب، وكان أبرد من المعتاد نسبياً، واستمر كذلك حتى الثالث والعشرين، وهطلت أمطار غزيرة مصحوبة ببَرَد ورعد بين الثالث والعشرين ونهاية الشهر. وبعد ذلك أصبح الطقس جميلاً (باستثناء حدوث أمطار رعدية)، وحتى التاسع عشر من نيسان، كان الطقس دافئاً نسبياً، ومكفهراً مع تشكل الضباب. وفي

* هطلت كمية كبيرة من الثلج في أول يوم من السنة، وأثلجت ثانية في الثامن من الشهر. وهذان هما اليومان الوحيدان اللذان هطلت فيهما الثلوج حسب السجل.

العشرين والواحد والعشرين من الشهر، هبت عواصف شديدة من الجنوب الغربي صحبتها أمطار غزيرة، فأصبح الطقس بارداً بشكل ملحوظ. وخلال بقية الشهر، هطلت كميات كبيرة من الأمطار مصحوبة بالرعد، وقليل من البَرَد. وكانت الرياح تهب من الغرب.

وهطلت بعض الأمطار مصحوبة بالرعد في ١٣ و ٢٣ أيار، إلا أنه فيما عدا هذين اليومين، كان الطقس جميلاً باستمرار، ولطيفاً وأكثر برودة من المعتاد.

وبقي الطقس بارداً حتى العاشر من حزيران، إلا أن ماتبقى من الشهر كان حاراً، رغم هبوب رياح غربية قوية، وظهور غيوم متكررة. وشعر الناس بهزتين أرضيتين خفيفتين عند حوالي الساعة الثامنة مساء من اليوم الثاني عشر: وكانت السماء في ذلك الحين صافية والرياح منعشة.

وفي ليلة الأول من تموز، هطلت أمطار غزيرة مصحوبة بالرعد: وهي ظاهرة غريبة في هذا الفصل من السنة. وكان الطقس بارداً جداً طوال الشهر. وهبت رياح غربية باستمرار خلال النهار والليل، بيد أنه في أوائل آب، خفت الرياح في النهار، وتوقفت تماماً بعد الغروب بقليل، وبدا باقي الشهر دافئاً بشكل غير معتاد، ولعل ذلك بسبب برودة الشهر السابق. وعند الحادية عشرة والنصف من ليلة التاسع عشر، حدثت هزة أرضية خفيفة، وكانت السماء صافية. واستمر الطقس حاراً حتى ١٠ أيلول، ثم أصبح حاراً ورطباً بشكل غير اعتيادي، ولاسيما في الليل وحتى ١٨ منه. وبدأت الأمطار الأولى تهطل في ليلة الثامن عشر، ورغم كمياتها المعتدلة، فقد أشاعت برودة في الطقس. وأمطرت ثانية قليلاً في ٨ تشرين الأول، إلا أن الأمطار الثانية لم تبدأ في الهطول تماماً إلا في ٢٣، عندما هطلت بكميات كبيرة على مدى ثلاثة أيام متعاقبة.

١٧٤٤م

هطلت كمية غير معتادة من الثلج في كانون الثاني* ، وبقي الثلج في الأماكن المظللة دون أن يذوب عدة أيام، وهو أمر غير شائع في ذلك البلد. وكان الطقس في شباط وآذار عادياً كما هو الحال في السنوات الأخرى، غير أن نيسان كان ماطراً بشكل ملحوظ. وشعر الناس بهزتين أرضيتين خفيفتين، بعد الساعة الواحدة والنصف صباحاً، وهزة ثالثة عند الساعة السادسة من مساء ٢٨ نيسان.

كان الطقس في أيار وتموز شبيهاً شهور الصيف المعتدلة في سورية، أما في حزيران، ونظراً لتكرر هبوب الرياح الشمالية، فقد كان أكثر حرارة من المعتاد، وبلغ ارتفاع ميزان الحرارة بعد الظهر ٩٥ درجة.

وبعد الأسبوع الأول من آب، كان الهواء حاراً جداً بسبب الرياح الشرقية التي سادت عدة أيام، وفي الثلاثين هطلت زخة من المطر، وهو أمر غير عادي في هذا الشهر، ورغم قلتها فقد أحدثت برودة مفاجئة. وهبط الزئبق في ميزان الحرارة من ٩٢ إلى ٨٣ درجة.

---

* سجلت أربعة أيام مثلجة في السجل، وهطلت ثلوج كثيرة في اليوم الخامس. ولم يكن ثمة ميزان حرارة ملائم لتسجيل درجة البرودة.

وفي ليلة الرابع من أيلول، سبقت الأمطار الأولى الرياح المعتادة، وكانت شديدة جداً واستمرت بضع ساعات. وطرأت تغيرات طفيفة على درجة حرارة الهواء حتى هطلت كميات أكبر من الأمطار بعد اليوم العشرين. وفي الثالث والعشرين هطلت كمية أكبر من الأمطار، ثم أصبح الطقس بارداً.

هطلت الأمطار الثانية في ليلة ١٦ تشرين الأول مصحوبة برعد كثير، وأمطرت ثانية في التاسع عشر. ولم يطرأ شيء مميز في بقية السنة.

١٧٤٥م

لم يطرأ شيء غير عادي على الطقس هذه السنة حتى ١٢ آذار، عندما رافق صقيع دام بضعة أيام رياحاً شمالية شرقية، أزالت معظم براعم الأشجار. وكان نيسان جافاً بشكل ملحوظ. وهطلت مطرة في اليوم السادس، وهي المطرة الوحيدة التي هطلت في ذلك الشهر. وكان الطقس في أيار وحزيران عادياً. وكان تموز وآب، باستثناء بضعة أيام نحو أواخر الشهر شديدي الحرارة، بسبب عدم هبوب الرياح الغربية المنعشة وعودة الرياح الشرقية. وفي حوالي منتصف آب أصبحت الحرارة قائظة.

وهطلت الأمطار الأولى التي كانت معتدلة جداً في العاشر من أيلول سبقتها كالمعتاد هبات شديدة من الرياح. وهطلت الأمطار الثانية بغزارة في حوالي منتصف تشرين الأول. ولم يكن ثمة شيء مميز في الطقس خلال هذا العام.

١٧٤٦م

أثلجت بشكل متواصل تقريباً من الثالث وحتى السابع من كانون الثاني وبلغ عمق الثلج أكثر من قدم في الشوارع، وهو أمر غير عادي تماماً في حلب. ولم يذب الثلج كله داخل المدينة إلا بعد عدة أيام، أما في الحقول، وفي الأماكن التي تصلها أشعة الشمس، فقد بقي الثلج دون أن يذوب حتى اليوم الثالث عشر. وكان الطقس خلال باقي الشتاء وفي الربيع عادياً.

هبت رياح شديدة غربية في ١٣ حزيران، وجلبت الرياح معها الكثير من الغيوم، التي أدت في ١٤ إلى هطول زخات قليلة من المطر، وهبط ميزان الحرارة من ٨٤ درجة وهي الدرجة المعتادة بعد الظهر إلى ٧٧ درجة. ولم يطرأ شيء مميز آخر في الصيف، ما عدا أن الغيوم النيلية لم تظهر كالمعتاد في شهر آب.

رغم أن الغيوم ظهرت عدة أيام حتى الرابع من أيلول، فقد أرعدت في بعض الأحيان، ولم تهطل أمطار حتى بعد ظهر الحادي عشر، عندما أمطرت بشكل خفيف لحوالي ساعة، غير أن الزئبق سرعان ما ارتفع ثانية، ومن العشرين وحتى نهاية الشهر، كانت الرياح شرقية أو شمالية، وكان الطقس دافئاً على نحو غير معتاد. وفي شهر تشرين الأول هطلت زخة واحدة من المطر (مساء ٢٥) وبقي ميزان الحرارة مرتفعاً طوال ذلك الشهر، وكان الطقس لطيفاً للغاية.

وفي الثاني والثالث من تشرين الثاني هطلت كميات كبيرة من الأمطار، ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية السنة، كان الطقس رطباً وغائماً بشكل ممين، تخلله أحياناً طقس لطيف، وتشكل الجليد من ٩ وحتى ١٣ كانون الأول.

١٧٤٧م

لم يتشكل صقيع في هذا الشتاء، باستثناء أيام قليلة في كانون الأول. واستمر الطقس الماطر بدرجات غير اعتيادية طوال كانون الثاني وشباط، كما كانت الرياح شديدة بصورة غير اعتيادية حتى نهاية آذار، ولذا فقد كان الفصل مكفهراً وغير لطيف. وكانت بقية الربيع والصيف كما كان الحال في السنوات المعتدلة.

اجتازت السماء بعض الغيوم الكبيرة في الرابع من أيلول؛ وفي حوالي ٢٦ منه تشكلت غيوم كثيفة داكنة مع حدوث ومضات من البرق مهددة بهطول الأمطار؛ إلا أنها لم تهطل في حلب، وبما أنه ساد هواء خفيف شمالي أو شرقي، فقد كان الطقس طوال الشهر حاراً، وبقي الزئبق حتى نهاية الشهر عند درجة ٨٢.

هطلت زخة من المطر مصحوبة بالرعد في ١٣ تشرين الأول، وزخة خفيفة في الثاني والعشرين، وزخة لطيفة طوال اليوم الرابع والعشرين، وفيما عدا ذلك كان الجو مستقراً وصحواً. ومن السابع إلى الحادي عشر من تشرين الثاني، هطلت كميات كبيرة من الأمطار، وبعد ذلك استمر الشتاء دون تشكل صقيع، إلا أن الضباب تشكل في كانون الأول بشكل غير اعتيادي.

١٧٤٨م

كان الطقس في كانون الثاني وشباط رطباً وغائماً كثيراً. وفي ١٦ كانون الثاني و٢ شباط هطل ثلج، ولكن بكميات قليلة جداً وكان ممزوجاً بالمطر. ومن ١٧ وحتى ٢٨ كانون الثاني ساد صقيع دائم وسماء صافية.

وكانت الأيام العشرة الأولى من آذار رطبة وقاتمة، وهبت رياح شرقية عاتية، أما ماتبقى من الشهر فقد كان معتدلاً، باستثناء يومين هبت فيهما عواصف رعدية في حوالي ٢٦ من الشهر دون هطول أمطار. وكان نيسان جافاً بشكل غير اعتيادي، وضم السجل يومين ماطرين فقط. وسادت الحرارة طوال شهر أيار، رغم هطول عدة أمطار رعدية في مساء ١٢ و ١٣ و ١٤.

وأصبحت الحرارة معتدلة في حزيران وتموز والجزء الأكبر من آب بفعل رياح غربية قوية. وفي ٢٣ حزيران هطلت أمطار غزيرة، وتمثل الشيء غير المعتاد كذلك في هطول زخة أخرى في ٢٦ تموز. وفي الفترات بين ٩ و ١٣ آب مرت غيوم كثيفة عديدة.

وكان أيلول لطيفاً وهادئاً، وكالعادة حاراً حتى منتصف الشهر، وبعد ذلك كانت السماء غائمة.

وكانت المطرة الأولى التي هطلت عبارة عن زخة خفيفة في التاسع من الشهر، ومنذ ذلك الحين وحتى ١١ تشرين الأول، أصبح الجو رطباً وغائماً على نحو غير معتاد. وهطلت زخات غزيرة جداً من الأمطار وكانت غالباً مصحوبة بالرعد. ولم ينجم عن الأمطار الأولى تغيير شديد في درجة حرارة الهواء. ولم يهبط الزئبق كثيراً قبل ٧ تشرين الأول؛ ولعل مرد ذلك أولاً إلى الرياح الشرقية القوية والنسائم الخفيفة الجنوبية. وكان باقي تشرين الأول من الحادي عشر معتدلاً وصافياً، باستثناء هطول أمطار رعدية في العشرين من الشهر، وفي اليومين الأخيرين من الشهر.

توقفت الأمطار ثانية، التي كانت قد بدأت في ٣١ تشرين الأول، في الثاني من تشرين الثاني. ثم أصبح الطقس معتدلاً لعدة أيام، وفي الصباح تشكل الصقيع. وفي اليوم الثامن، استأنفت الأمطار هطولها، ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية السنة ساد طقس غائم ماطر، مع فترات قصيرة من الصقيع. وهطل الثلج في ٢١ كانون الأول.

١٧٤٩م

حتى العشرين من شباط من هذا العام، كان الطقس في معظمه غائماً وماطراً ولكن بفواصل زمنية قصيرة. وفي كانون الثاني تشكل صقيع؛ ونحو نهايته أصبح الجو ربيعياً، وظهرت براعم بعض أشجار اللوز. وفي ٢١ شباط هطلت أمطار غزيرة صاحبها رعد شديد. وتميز اليوم التالي بهبوب عواصف. وفي الليل هطل ثلج بسماكة إنشين اثنين. وأعقب ذلك على الفور صقيع شديد استمر حتى الخامس من آذار.

لم تهطل أمطار في آذار، وإن هطلت فقد كانت خفيفة، بيد أن الرياح الشرقية كانت أقل هبوباً مما كانت عليه في السنة السابقة، وكان الطقس بارداً. وبشكل عام، انخفض مستوى الزئبق، وقد أنعشت الربيع عدة زخات من المطر.

كان شهر أيار أبرد من المعتاد. وهطلت كميات كبيرة من الأمطار صاحبها رعد في السادس والسابع منه . كما أمطرت في اليوم الثامن ، وهطلت أمطار رعدية في ١٧ و ١٨ منه. وحدثت ثلاث أو أربع هزات أرضية خفيفة عند حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر ٢٣ أيار.

كان حزيران منعشاً باستثناء أيام قليلة منه نحو نهاية الشهر. كما كان حال تموز بعد الأسبوع الأول. وكانت الرياح الغربية دائمة بشكل عام في كلا الشهرين. وكان الهواء في شهر آب ساكناً وحاراً. وفي ١٤ منه ظهرت بعض الغيوم الكثيفة في الغرب والشمال الغربي، وبقيت مخيمة على المدينة طوال الليل، وكان ينطلق من أطرافها برق، دون أن تكون مصحوبة بالرعد.

وفي الأيام العشر الأولى من أيلول كان الطقس حاراً جداً ومطبقاً، وفي الثالث عشر، هطلت أمطار غزيرة جداً لمدة ساعة عند حوالي الظهيرة، ومرة أخرى في المساء، ورافقها في كلا الحالتين رعد؛ كما هطلت زخات عديدة في اليوم التالي. ومنذ ذلك الحين وحتى ١٠ تشرين الأول، باستثناء زخة غزيرة في السادس منه، كان الطقس معتدلاً باستمرار. وكان ما تبقى من تشرين الأول غائماً في الغالب. ومن ١٧ وحتى ٢٣ هطلت الأمطار الثانية بغزارة، ثم سادت في ٤ تشرين الثاني سماء صافية دون أن تسودها غيوم.

ومن الرابع وحتى السابع عشر من تشرين الثاني، ساد طقس غائم مع هطول زخات من المطر، وتشكل صقيع شديد منذ ذلك التاريخ وحتى العشرين منه؛ ثم أمطرت مدة يومين أو ثلاثة أيام، ثم عاد الصقيع واستمر دون انقطاع حتى السادس عشر من الشهر التالي. وكان الأسبوعان الأخيران من السنة شديدي الرطوبة.

١٧٥٠م

تميزت هذه السنة باستمرار الصقيع لفترة طويلة في كانون الثاني وشباط، وبهطول قدر

ضئيل من الأمطار في هذين الشهرين، فقد هطلت في الشهر الأول لمدة أربعة أيام فقط، وفي الشهر الثاني يوماً واحداً. وأثلجت من الصباح وحتى الليل في ٢٩ كانون الثاني.

استمر الصقيع الذي تشكل في بداية كانون الثاني حتى ٢١ منه، ثم هطلت أمطار لعدة أيام. وفي ٢٦ من الشهر زال الصقيع، وعاد بقوة أكبر من قبل، واستمر حتى ١٩ شباط؛ وكانت السماء صافية باستمرار (ما عدا يوماً ثلجياً واحداً) وكانت الرياح الشمالية أو الشرقية منعشة نوعاً ما. ومن ١٩ وحتى ٢٣ ساد طقس غائم، وأمطرت في الحادي والعشرين؛ غير أن الصقيع عاد في الثالث والعشرين واستمر حتى نهاية الشهر.

كان شهر آذار ماطراً باعتدال ورطباً نسبياً، واستمر الصقيع الذي تشكل في السابق لكي يؤخر قدوم الربيع كثيراً، مما أدى إلى عدم تشكل البراعم على أشجار المشمش حتى ٨ آذار. ولوحظ أن الزئبق ارتفع على الفور خمس درجات في العشرين من الشهر، عندما فتحت نافذة الغرفة التي يوجد فيها ميزان الحرارة.

يبدو أن الأمطار الأولى هطلت في ١١ أيلول. إلا أن خللاً طرا على السجل في هذه الفترة أي من آذار ١٧٥٠ وحتى آب من السنة التالية.

١٧٥١م

بدأ السجل الذي كان قد انقطع منذ نيسان ١٧٥٠ تسجيله بانتظام منذ آب من هذه السنة.

كانت موجات الحرارة في الأيام القليلة الأولى من آب معتدلة بسبب هبوب رياح غربية، ثم ازدادت النسائم الخفيفة من الغرب أو الشمال الغربي بعد اليوم الخامس، وساد طقس قائظ. وتشكل الندى في بعض الأحيان ليلاً، وبسبب الرياح المنعشة في حوالي اليوم الثالث والعشرين أصبح الطقس أكثر برودة، واستمرت هكذا بضعة أيام خلال أيلول، ثم هدأت الرياح ثانية. وفي ليلة الثامن من ذلك الشهر، شوهدت غيوم كثيفة داكنة خيمت على المكان، لعدة أيام متعاقبة، وعبرت غيوم بيضاء خفيفة عدة مرات في ذلك اليوم. وفي الأسبوع الثالث من أيلول، كان الجو غائماً غالباً، ومنذ ذلك الحين، ورغم عدم هطول أمطار، أصبح الطقس منعشاً بشكل ملحوظ، بحيث أنه بين الأسبوعين الأولين والأخيرين، تراوح الفرق بين ٨ أو ١٠ درجات في الصباح على ميزان الحرارة.

كان تشرين الأول رائقاً ولطيفاً حتى اليوم السادس، ثم أصبح غائماً، ومن الثامن وحتى الثاني عشر هطلت زخات عديدة من الأمطار، رغم أنها لم تكن غزيرة، إلا أنه يمكن اعتبارها الأمطار الأولى. ومنذئذ وحتى العشرين من الشهر، ساد طقس لطيف صاف، ما عدا بعض الأمطار الخفيفة التي هطلت في ١٦ و ١٧ منه. وبين ٢٠ و ٢٥ منه هطلت أمطار جيدة. ثم أعقبها وحتى ٨ تشرين الثاني طقس لطيف، وهبط الزئبق ٨ أو ١٠ درجات. وأعقب ذلك ثلاثة أو أربعة أيام غائمة رطبة، وأصبح الهواء أكثر برودة، وهبط الزئبق من ٥٦ إلى ٥٠ درجة. ومن ١٧ وحتى ٢١ من الشهر تشكل الجليد، وفي ١٨ منه أثلجت وهبط الزئبق حتى درجة ٤٣. وأعقب الجليد ثلاثة أيام ماطرة. غير أن السماء صحت في الخامس والعشرين، واستمر الطقس لطيفاً ومعتدلاً حتى ١٥ من الشهر التالي.

وكان الأسبوعان الأخيران من كانون الأول ماطرين إلا أن الطقس كان جميلاً ولطيفاً، وقد يسبب التغيير الذي طرأ على الأراضي البريطانية في عام ١٧٥٢، بعض التشويش في

عرض وقائع الطقس، حيث تم حساب التقويم اليوليوسي* ، ولكي أسهل عملية المقارنة بين هذه الملاحظات وبين تلك المأخوذة من أصقاع أخرى من العالم، فقد أدخلت في الملحق ملخصاً عن سجل الأرصاد الجوية للأعوام ١٧٥٢ و ١٧٥٣ مع جدول مقارنة للفصول من عام ١٧٤٢ وحتى ١٧٥٣م.

* التقويم اليوليوسي: هو التقويم الذي أدخله يوليوس قيصر إلى روما عام ٤٦ ق.م، والذي جعل أيام السنة ٣٦٥ يوماً. وجعل كل سنة رابعة مؤلفة من ٣٦٦ يوماً (المترجم).

الفصل الثالث
عن الأمراض الوبائية في حلب بصورة عامة

تعد الحميات المتواصلة، والمتقطعة، والمترددة، والمنتظمة وغير المنتظمة، والحميات الشاذة التي يصاب بها الأطفال بشكل خاص والتي يصحبها عادة الإسهال، والزحار (الدوسنطاريا)، والشّاكة (خرّاج حول اللوزة)، وذات الجنب، وذات الرئة المحيطية، والروماتيزم، والتهابات العين من الأمراض الوبائية الأكثر انتشاراً في حلب. وتتكرر الإصابة بجميع هذه الأمراض سنوياً، مع انتظام الفصول تقريباً، إلا أنها تتباين في درجة تكرارها، فضلاً عن شدة الأعراض في مختلف السنوات.

تظهر أحياناً الحميات المتواصلة والمتقطعة الربيعية في بداية السنة، ولكنها في الغالب نحو الاعتدال الربيعي، وتختفي في حزيران، وفي بعض الأحيان تعقبها على الفور الحميات الخريفية والزحار، ولايحدث ذلك عادة حتى تموز، وتصل إلى ذروتها عند الاعتدال، وتزول عادة في حوالي بداية كانون الأول.

وتبدأ الحميات الشاذة التي تصيب الأطفال في الربيع، إلا أنها تزداد بدرجة عنيفة خلال موجات حرارة الصيف. ويمكن الإصابة بالرمد (التهاب الملتحمة) الذي يصاب به الأطفال كذلك، في جميع الفصول، إلا أنه يزداد باستمرار في شهري آب وأيلول، علماً أن السنوات التي لا يصاب فيها ما لا يقل عن سدس السكان قليلة* .

وتتفشى الحميات الالتهابية العامة، وتلك التي تدعى النزلة، والروماتيزم، والشاكة، وذات الجنب، وذات الرئة المحيطية من كانون الأول وحتى آذار بل حتى نيسان، ونادراً ما تكون من النوع الخبيث. وقلما تنتشر كثيراً، لذلك لا يمكن تسميتها أوبئة.

إن هذه الأمراض لا تختلف كثيراً في أعراضها عن ذات الأمراض التي تتفشى في بريطانيا. وهي لاتتفشى بسرعة ولا يمكنني القول إنها تتكرر أكثر مما عليه الحال في المناطق المناخية الشمالية. إلا أنه يجب استثناء التهاب الملتحمة من هذه الملاحظة العامة، بالإضافة إلى أن عدداً معيناً من الحميات الخبيثة المتقطعة والمترددة التي تتفشى في سنوات أو أحوال خاصة، لا يمكن إجمالها في الأوبئة السنوية، وسنأتي على ذكرها فيما بعد.

---

* يعزى ذلك عادة إلى الندى الربيعي الذي يسقط في بعض الأحيان بكميات ضئيلة في ذلك الفصل، نتيجة نوم الحلبيين في الهواء الطلق، وعدم وضعهم غطاء واقياً. وبما أن الأوروبيين، الذين ينامون في أسرّة حقلية، يلتحفون بغطاء سميك لحماية أنفسهم بالإضافة إلى ستائر، فلا يصيبهم هذا المرض. إلا أن أولئك الذين يستلقون مكشوفين بالطريقة التي ينام فيها الحلبيون يصابون به، ويبدو أن للرأي الشعبي أساساً صحيحاً من التجربة.

ويطلق السكان المحليون على التهاب الملتحمة "الرمد". والجميع معرض للإصابة بها، وخاصة الأطفال والصغار. وهي تتفشى في بعض الأحيان بدرجات مدمرة.

يتعرض المسيحيون قبل الصوم الكبير الذي يسبق عيد الفصح، بشكل خاص للإصابة بحميات يصحبها أزيز (خرير) في التنفس وسعال حاد جاف، ويصاب الجلد بالحرارة والجفاف، وخاصة في راحتي اليد وباطن القدمين. ويعزى ذلك بشكل رئيسي إلى استخدامهم الزيت باستمرار خلال ذلك الفصل، ونظراً لأن القلي أسلوب مفضل في طهي أطعمة الصوم، يصبح الزيت مضراً أكثر مما هو في وضعه النقي. ويمكن الشفاء من هذا المرض بفصد الدم، والتطهير الخفيف، والاستعمال الغزير للمحاليل الصدرية، والامتناع عن تناول الزيت المطهي؛ إلا أن الأمر غالباً يدعو إلى منع استخدام الزيت كلية، والحصول على إذن بالتوقف عن الصوم.

بالإضافة إلى الأمراض التي يطلق عليها أمراض سنوية بسبب تكرارها مع تكرار الفصول، توجد أمراض أخرى تظهر على مدى فترات بعيدة وغير منتظمة. وبما أنها كلها تقريباً معدية، فهي تتفشى أحياناً بشدة لتصبح مميتة. ومن بين هذه الأمراض يمكن إدراج الجدري، والحصبة، والسعال الديكي، والحميات الشديدة، والبثور، والحمى القرمزية، والحميات المتكررة الخبيثة. ويأتي على رأس كل هذه الأمراض الطاعون الذي أفردنا له فصلاً خاصاً.

يمكن أن تتفاقم الحميات المتواصلة، وجميع الأمراض المزمنة الأخرى في هذا البلد مرة أو مرتين في الأربع والعشرين ساعة، التي يصحبها تورد في أحد الخدين أو كليهما؛ ورغم أنه ترافق الحميات المتواصلة التي تتفشى في الربيع، غالباً أعراض تبدو أسوأ من أعراض الحميات الخريفية، فلا تكون خطرة بصورة عامة.

تنتاب جميع المرضى من السكان المحليين مسلمين ومسيحيين ويهود أو أوربيين نفس أعراض أطوار المرض. ويجدر بنا التنويه إلى أن مسار الفترات الحرجة في جميع الأمراض المزمنة، متفق بدقة مع أوصاف الأطباء الإغريق، أكثر بكثير من الملاحظات العصرية الموجودة في بريطانيا. إلا أنه رغم أن مسار المرض يتباين بين مختلف طبقات السكان، فالبعض يرى أنه عند معالجة المريض ينبغي الأخذ بعين الاعتبار مختلف أساليب الحياة، لأن الأشخاص غير المعتادين على شرب شيء أقوى من المياه أو القهوة، لن يتحملوا نظام حمية ساخن كالذين يستخدمون مشروبات روحية مخمرة.

يمكن أن تتخذ الحميات الثلثية في أشهر الربيع والشتاء شكلاً منتظماً فيسهل علاجها. في حين تكون في الخريف أكثر خداعاً ومعاندة، وقد تغير من نمطها، وإذا لم يتم معالجة السعال، تصبح خطرة جداً. وقلما تشاهد الحميات المتقطعة والمترددة من النوع الخبيث في حلب، إلا إذا نقلها شخص مصاب بها من أماكن أخرى؛ وتنشأ هذه الحميات في الإسكندرونة، أو في أماكن أخرى توجد فيها مستنقعات، أو في القرى التي تتجمع بقربها مياه بغرض الزراعة. وفي بعض السنوات تتفشى هذه الحميات بعنف شديد.

بالرغم من أن الحمى المتقطعة لا تكون منتشرة في حلب في ذلك الحين، فإن الأجانب من الأوربيين ممن يقيمون في الإسكندرونة، وسكان الإسكندرونة أنفسهم، سكان المدن الأخرى التي توجد فيها مستنقعات، قد يبدأون رحلتهم وهم في صحة جيدة،

فقد يتعرضون للإصابة بالحمى الثلثية بعد وصولهم إلى حلب؛ كما تصيب الحمى غالباً الأشخاص الناقهين القادمين من الأماكن نفسها. أما فيما يتعلق بالحميات المتقطعة، فتجدر الملاحظة أن وصف العلامة السيد غليجورن عن الحميات الثلثية في مينورقة، تتطابق في أشكالها غير المنتظمة مع تلك التي تتفشى في سنوات محددة في حلب: وبدقة أكثر مع الحميات التي تستوطن في مناطق المستنقعات على الساحل السوري، وفي جزيرة قبرص؛ وبوسعي أن أضيف في الوقت نفسه، أن الخبرة الطويلة أقنعتني بأن أسلوب العلاج الذي ينصح به في هذا البحث الرائع هو أكثر الطرق أماناً ونجاحاً.

تشبه الأمراض المستمرة والعرضية، باستثناءات قليلة، الأمراض التي تتفشى في بريطانيا إلى حد كبير؛ وسنأتي على ذكر الأمراض الأكثر شيوعاً في حلب: فالأمراض الرئوية وبصاق الدم والسل من الأمراض التي يعتبر هواء حلب مسؤولاً عنها بصورة خاصة، وانسدادات الأمعاء، واليرقان (أبو صفار)، وداء الاستسقاء والفتق الأريبي والبواسير. ويمكن إضافة الدودة التي تصاب بها جميع الطبقات والأعمار، ومعظم الأمراض التي تحدث ضرراً للعين، التي تنجم غالباً عن الإصابة بالملتحمة الوبائية التي ذكرناها سابقاً أو الجدري.

قد تتفشى الأمراض المرتبطة بداء الإسقربوط التي يصحبها نتن اللثة، إلا أن الإسقربوط لا يكاد يكون معروفاً. وتعد القوباء الحلقية* شائعة جداً، وأكثر مايتعرض لها الأطفال من بين جميع الفئات. ويتقبل السكان المحليون حلق رؤوس بناتهم اللاتي يعانين الأمرين من ذلك أكثر من الصبية على مضض شديد،، وخاصة عندما لا يزول المرض قبل سن البلوغ، وغالباً ما تزعجهن طوال حياتهن. ومازال هذا المرض أكثر تفشياً بين أطفال الطبقة الأدنى، الذين يعانون، بالإضافة إلى ذلك، من الحكة، وهو مرض يمقته عامة الناس، والعدوى به تثير الرعب أكثر من الإصابة بالطاعون.

بالإضافة إلى هذه الأمراض، توجد أمراض جلدية عديدة أخرى؛ من بينها بعض الإصابات بالأمراض ذات الطبيعة الجذامية، غير أن الجذام الحقيقي أصبح نادراً، رغم عدم زواله من سورية، ويصاب الفلاحون بشكل خاص، أو آخرون من مناطق بعيدة وهم الذين يقدمون إلى المدينة بهدف الاستشارة، بالحالات الجذامية الحقيقية التي تتفشى في حلب.

من بين الأمراض العرضية التي عددناها الآن، وينجم بعضها عن، أو تكون نتيجة لأمراض سابقة، نخصّ بالذكر الملاريا الثلثية الطويلة جداً وفي حين يمكن إرجاع سبب بعضها جزئياً إلى غذاء الحلبيين، وإهمال الرياضة، وطريقة جلوسهم، والأحزمة العريضة التي يرتديها الرجال. وقد يعود سبب كل من القوباء الحلقية والحكة بدرجة ما إلى إهمال النظافة، لأن الكثيرين يرتادون الحمام مرة في الأسبوع، أو كل أسبوعين، حيث يجري تنظيف الجسم والشعر؛ ويتعرض اليهود أكثر من الآخرين بصورة خاصة لهذين المرضين بسبب قذارتهم التي تثير الغثيان، فهم يتصدرون الإصابة به ولا ينافسهم أحد في ذلك.

---

*مرض جلدي ربما يكون "القرعة" (المترجم).

إن الحصى من الأمراض التي يصاب بها المسلمون، أما النقرس (داء المفاصل) فهو نادر جداً، وتبين أنه وراثي.

تنتشر الأمراض الزهرية كثيراً في سورية. وبما أنه لا توجد لدى المسلمين فكرة عن السيلان، أكثر مما هي مستمدة من مؤلفات الأطباء العرب، فهم لا يعتبرونه معدياً، ولا يدركون أنه قد يؤدي إلى حدوث أمراض أسوأ، لذا يؤدي ذلك إلى تفشيه، ويؤدي إهمال معالجته غالباً إلى الإصابة بالسفلس. وفي هذه الحالة، يطلقون عليه اسم 'مرض الإفرنجي' (ربما لأنه انتقل منذ البداية من أوروبا)، وهو مرض يثير الفزع ومعدٍ إلى درجة كبيرة؛ إلا أنهم يميلون للاعتقاد أكثر بأن العدوى تنتشر بواسطة تدخين القليان (القصبة)، وتناول الطعام بدون ملعقة. أو ارتداء ثياب شخص مصاب، وليس من انتقاله عن طريق الجنس. و للأسف، يسهم هذا الخطأ الشائع في زيادة تفشي المرض، وبما أن استخدام الزئبق غير معروف تماماً بالنسبة للأطباء المعاصرين في حلب، يترك الكثيرون يعانون ويغالبون المرض باقي حياتهم، مع تقديم مساعدة ضئيلة أو بدون مساعدة طبية. إلا أنه من الأمور المثيرة للاستغراب معاناة الكثيرين من هذا المرض رغم إمكانية وقف انتشاره، والتخفيف من حدة أعراضه نتيجة دفء المناخ، واستخدام الحمام بشكل متكرر، والامتناع عن الممارسة.

لوحظ في مناسبات أخرى أنه من النادر أن يصاب الأوربيون، باستثناء الذين اعتمدوا على أسلوب الحياة المحلية، بالأمراض المعدية في حلب. إلا أنه بعد وصولهم بفترة وجيزة (وخاصة الإنكليز منهم) يصابون بحمى بسبب عدم تكيفهم مع المناخ، وفي مرحلة أخرى، وبعد فترة غير معروفة، يتعرضون، شأن السكان المحليين وجميع الأجانب للإصابة بنوع من الطفح يسمى حبة حلب؛ التي سنتعرض لها في الفصل التالي.

الفصل الرابع
عن المرض السريع الزوال المسمى أوكا (Oca) وعن حبة حلب

يتعرض الأوربيون حال وصولهم إلى حلب للإصابة بحمى اتفق على تسميتها 'أوكا' أو 'الإوزة'، ولا أعرف سبب تسميتها بذلك، ويصاب المرء بالمرض مرة واحدة، ولعل الإنكليز أكثر إصابة به من الإيطاليين* .

تصاحب المرض عند الإصابة به أعراض أي حمى التهابية. وسرعان ما يزداد النبض، وألم في الرأس، والارتفاع في درجة الحرارة، ويزداد العطش بدرجة كبيرة، ويصبح المريض في حالة مزعجة، ولايشعر بالارتياح إلا عندما يتعرق. ورغم أن هذه الحمى تكون عنيفة عند استمرارها، فقلما تدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة، ولا تعتبر خطيرة.

ورغم أن البعض ينجو منها دون دواء آخر سوى الراحة وتناول محلول مخفف، فمن الضروري كذلك فصد دم كثير في البداية، وعند زوال الحمى، تعطى جرعة أو جرعتان من الملينات الطبية.

يتعرض جميع الحلبيين، فضلاً عن الأوربيين والأجانب الآخرين الذين أقاموا فترة من الزمن في هذه المدينة، وباستثناءات قليلة جداً، إلى نوع من الطفح الجلدي**

---

* إن الهولنديين والأوروبيين الآخرين الذين يأتون من المناطق المناخية الشمالية ليسوا أقل إصابة بهذه الحمى من الإنكليز.

** تسمى الحشرة الناقلة للحمى المسماة 'حمى الثلاثة أيام' المسببة لمرض القرحة الشرقية (داغة حلب) المتسبب عن *Lishmania tropica* ذبابة الرمل (Sand fly) يبلغ طول الحشرة الكاملة منها ٣-٥ مم. وهي تنتشر في بلاد حوض المتوسط وآسيا والشرق الأوسط، تتغذى الأنثى بامتصاص دم الحيوانات ذات الدم الحار ومنها الإنسان، لدغها مؤلم وتسمى بالعامية (السكيت). لون الحشرة بني مصفر، ويغطي الجسم والأجنحة وبر كثيف. تطير الحشرة الكاملة ليلاً بسرعة ولمسافة قصيرة، وتدخل المنازل وتكثر في نهاية الربيع وحتى الخريف، تضع البيض في التربة ويفقس بعد حوالي ٧ أيام، وتعيش اليرقة تحت الحجارة أو في التربة لمدة تقارب الشهر، تصبح بعدها عذراء، وبعد ١-٢ أسبوع تخرج الحشرة الكاملة.

يقول خير الدين الأسدي في 'موسوعة حلب المقارنة' إنها سميت 'حبة سنة' لأنها تظل ملتهبة مدة سنة أو أقل لا أكثر تاركة مكانها أثراً متآكلاً من البشرة، وتسمى أيضاً حبة حلب لاستفحالها فيها وإن كانت تظهر في أماكن أخرى مثل الموصل وبغداد ...وإذا ظهرت على الأنف كان وجعها شديداً وتترك فيه خرماً يسميه الحلبيون 'الشرمة'. ويعتقد الحلبيون أن ظهور حبة حلب في الوجه جميل، وفي القدم سفر وفي اليد عمل وتوفيق. وهكذا نجد أن الحلبيين قد وجدوا لها تبريرات جمالية بسبب انتشارها بينهم (المترجم)

يسميه الحلبيون 'حبة السنة'. ويطلق عليه الأوربيون والمسلمون 'آفة حلب' (Il Mal d'Aleppo)، أو 'حلب جباني' أو'حبة حلب' كما لو أنه خاص بهذا المكان. إلا أن الإصابة به ليست محصورة بهذه المدينة، بل تنتشر كذلك وبنفس الدرجة في عنتاب وفي القرى الموجودة على ضفاف نهري الساجور وقويق، ويعتقد العامة أن سببها الماء.

لا تستثنى أية بقعة من الجسم أو الأطراف من هذا الطفح الجلدي، غير أن فترة ظهوره متباينة وغير أكيدة، و يصاب به الحلبيون عادة وهم أطفال، وتتركز الإصابة في معظم الأحيان في الوجه، وعادة ما تصيب الأجانب بعد وصولهم إلى حلب بفترة وجيزة. وفي بعض الأحيان بعد بضعة أشهر؛ وثمة أمثلة عن بعض الأشخاص الذين لم يقيموا إلا فترة قصيرة في حلب، وأصيبوا بهذه الآفة في بلدهم بعد عدة سنوات. ويصاب الأجانب بهذا الطفح على الوجه أقل من الحلبيين، إلا أن عدداً قليلاً جداً يمكنهم النجاة من الإصابة بها في مكان أو آخر من الجسم.

يتباين عدد البثور في الشخص نفسه، إذ يبلغ في بعض الأحيان اثنين أو ثلاثة أو أكثر، وقلما يكون واحداً، ونادراً ما يتجاوز عشرة. ويندر أن يصاب الشخص نفسه أكثر من مرة، وربما لا يحدث أبداً.

وتتعرض الكلاب والقطط للإصابة بها بالإضافة إلى الإنسان، وتظهر عادة في تلك الحيوانات على الأنف.

ويميز الحلبيون نوعين من الطفح: الذكر والأنثى. إلا أنه يوجد نوع ثالث من الطفح الجلدي الذي مع أنه يقال إنه يحدث نتيجة لسعة بقة مدحرجة* ، فيبدو أنه يتسبب كذلك عن هذه الحشرة.

يظهر ما يسمى بالطفح الذكري على شكل درنة حمراء صغيرة قاسية، ورغم أنها تسبب إزعاجاً لأسابيع عديدة، فإنها تمر دون اهتمام بها. ثم تبدأ الدرنة بالنمو بسرعة، ويزداد حجمها بالتدريج حتى تصبح بحجم قطعة ست بنسات** ، وتصبح قشرية قليلاً في الأعلى. وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر، تفرز سائلاً يجف حالما ينزو من السطح، ويُشكل قشرة سميكة. وتبقى دون إزعاج حتى تلتئم الأجزاء تحتها، ثم تسقط وتترك ندبة صغيرة لا تزال ولا تمحى. وفترتها متباينة، إلا أنها نادراً ما تتجاوز ثمانية أشهر.

يبدأ نوع الأنثى بنفس الطريقة الموصوفة أعلاه، إلا أنها سرعان ما تصبح مزعجة، وتسبب ألماً حسب موقعها. وخلال شهرين أو ثلاثة أشهر يصبح حجمها ضعف حجم الذكر، وتفرز كمية كبيرة من السائل من تحت القشرة، وتبدأ في طرح القشرة شيئاً فشيئاً، وتأخذ شكل قرحة محفورة، محاطة بدائرة ضيقة مائلة للون الأحمر. وفي هذه الحالة، تكون في الغالب أقل إيلاماً مما يتوقع من شكلها، وتستمر في إفراز السائل بغزارة، ولكن دون أن تنتشر على مدى عدة أشهر.

وبشكل عام، ينقضي اثنا عشر شهراً منذ بداية ظهور البثرة حتى اكتمال التئام الندبة. ورغم ذلك، فإن فترتها تتباين عند مختلف المرضى، إذ ينتهي منها بعضهم قبل

---

* حيوان قشري مبسط الجسم يتكور على هيئة الكرة (المترجم).

** قطعة نقدية إنكليزية قديمة (المترجم).

أشهر عديدة من الآخرين. وعندما تتوضع الندبة على مفاصل أصابع اليد، أو القدمين، أو على المرفق، أو الأجزاء الأخرى المكشوفة، تسبب إزعاجاً شديداً رغم اتخاذ جميع الاحتياطات، كما يمكن أن يتم ذلك عند تحريضها بمستحضرات غير ملائمة؛ أما في المواقع الأقل تعرضاً، فلايكون الألم الذي تحدثه شديداً. وتعتبر إصابة الإناث بها من أكثر الأمور إزعاجاً من بين الجميع، وذلك بسبب الندبة البشعة التي تخلفها والتي تبقى للأبد.

أما النوع الثالث من الحشرة فتبدأ بنفس طريقة النوعين السابقين، إلا أنها نادراً ما تنمو إلى حجم أكبر من حجم بذرة الفلفل، وتبقى هكذا دون تغيير لعدة أشهر دون أن تحدث ألماً أو تفرز أي سائل مرئي. وتلقي عادة عدداً قليلاً من القشور قبل اختفائها، إلا أنها تبقى في بعض الأحيان سنوات عديدة.

أما فيما يتعلق بطريقة معالجة آفة حلب، فلا تكاد توجد امرأة عجوز في المدينة إلا وتزعم أنها تعرف بعض الأدوية الشافية التي لاتخطىء، ليس في علاجها بسرعة فحسب، بل (وهذا بالنسبة للكثيرين أكثر أهمية بكثير) في منع حدوث تشوّه بواسطة الندبة. ورغم ذلك، فإن عدد الوجوه الجميلة التي تقبع عليها هذه الندبة، والتي تصادف غالباً بين الأطفال الإناث، ما هو إلا دليل واضح على عدم فعالية العلاج الشافي من جميع الأمراض(١) الذي يتبجحن به كثيراً. وفي الحقيقة، ومما شاهدته، فإنه يكفي تنظيف القرحة المتشكلة، وترك ماتبقى للطبيعة، أفضل من استخدام العلاجات التي لا تعد ولا تحصى، التي ينصح بها السكان المحليون وبثقة كبيرة.

من بين العلاجات الخارجية العديدة، التي جربتها على نفسي وعلى عدد آخر من الناس، وجدت أن اللاصق الزئبقي أكثرها فعالية.(٢) إلا أنه عند تحضير اللصاق حدث تغيير طفيف في المستحضر الذي يتم تحضيره في لندن؛ فقد تم تخفيض نسبة الزئبق وزيادة نسبة بلسم الكبريت نوعاً ما.

وعندما استخدم اللاصق في البداية، حال دون انتشار الدرنة. ولكن بعد أن أخذت القرحة بالتوسع قبل العلاج، أعاق اللاصق انتشارها، وقد أدى إلى تقصير فترة العلاج. وينطبق ذلك على الحشرة الأنثى، وذلك لأن النوعين الآخرين لايحتاجان كثيراً للعلاج الطبي.

الملاحـظـات

(١) إن الندبة السيئة التي تخلفها حبة حلب ، والأدوية الكثيرة التي تستخدمها النساء لإزالتها عن الوجه، حفزني على إجراء تجربة لمعرفة ما إذا كان من الممكن إثارة الطفح على بعض الأجزاء الأخرى الأقل تعرضاً من الوجه، بالتلقيح. ولم تنجح التجارب القليلة التي أجريتها. إن التثليمات (الجروح) التي أحدثتها على الساقين أو الذراعين، في نفس الأماكن التي يفصد فيها عادة السكان المحليون الدم، كما أن وضع مادة جديدة لم يكلل بالنجاح. وقد التأم الجرح الذي لم يكن شديد الالتهاب على الفور. ولعله كان ينبغي تكرار العملية أكثر من مرة.

(٢) ينحاز السكان المحليون لأدويتهم في هذا الأمر، وهم مغرمون بتجريب العديد منها على مدى شهرين أو ثلاثة أشهر، ولذا فإن الفرصة التي أتيحت لي لأجرب اللاصق الزئبقي بشكل جيد كانت قليلة نسبياً. ورغم أنها أظهرت أنها ذات فائدة في بعض الأحيان، فقد فشلت في الغالب.

ويستخدم بعض الأطباء المحليين المغامرين الكي عند أول ظهور للطفح أو بعد ذلك بقليل. ويدعون أنهم يحققون نجاحاً، إلا أني لا أستطيع أن أقول شيئاً عن هذا العلاج اعتماداً على تجربتي الشخصية.

وقد جربت أحياناً الراسب الأحمر وبعض المستحضرات الكاوية، ولكنها باءت جميعها بالفشل؛ وبالفعل فقد ثبت أن جميع الأدوية المهيجة لا تسبب سوى ألم غير ضروري دون أية فائدة. وقد أتيحت لي فرصة ملاحظة تأثيرات أكثر الأدوية قوة (دون أدنى توقع مني)، الداخلية منها والخارجية على حبة حلب.

فقد انتاب جارية أحد باشاوات حلب الفزع، بعيد وصولها إلى الحرملك، نتيجة ظهور قرحة قاسية مستديرة على شفتها السفلى. واعتقد الباشا الذي كان يقرأ من حين لآخر كتباً طبية، أن هذا التورم هو سرطان صلد (Skirrhus) قد يتحول مع الزمن إلى سرطان، فاقترح على الحكيم باشي (وهو يوناني) قطعها أو استئصالها بمادة كاوية؛ إلا أني عبّرت عن رغبتي في استشارتي قبل إنجاز العملية. ولدى فحص الشفة، لم أجد سبباً يدعو للاعتقاد بأنه سرطان صلد، ولذا اقترحت بعض الطرق الأخف في المعالجة قبل إجراء أي عملية، إلا أني يجب أن أقر في الوقت نفسه بأنه نظراً لأني لم أصادف حبة حلب من قبل بهذه الحالة، لم يعترني أدنى شك بأن الورم الحالي هو من ذلك النوع.

وبعد إجراء التفريغ اللازم، أعطيت الصبية علاجات طبية أخرى وفرضت عليها نظام حمية قاس، وكان ذلك الجزء يفرك بمرهم زئبقي بعد وضع الكمادات عليه مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. إلا أن الأمور ساءت أكثر بهذا العلاج، وازداد الورم وبدأ يسبب ألماً، إلا أنه بدأ يبدو أنه ليس سرطاناً صلداً.

وألح الباشا، الذي كان يشرف على عملنا، على إعطاء الزئبق داخلياً، لأنه شك في أنها يمكن أن تكون قد أصيبت بعدوى مرض زهري نتيجة تناول طعام من أدوات غير نظيفة. ورغم أن ذلك لم يبد لنا أمراً محتملاً، وافقنا على الزئبق، الذي أعطي بجرعات ضئيلة مع مستحضر من الأعشاب، ومطهرات لطيفة كانت تعطى بين الحين والآخر. وبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، أفرز الورم الذي كان قد ازداد حجمه سائلاً، وأصبح مؤلماً أكثر، وتم كشط السطح، وكشف عن وجود قرحة جافة غير ناضجة، ثم

عبّرت عن شكوكي بالحالة، واقترحت وقف جميع الأدوية، والاقتصار على غسل الجزء المصاب بحليب وماء، حتى نرى تأثير الزئبق الذي أخذته خلال ثمانية أو عشرة أيام. إلا أنه رغم أنني أنا وزميلي كنا ننحو إلى نفس الرأي، غُلبنا على أمرنا، واضطرت الفتاة المسكينة للمعاناة من ألم متزايد بسبب إعطائها مختلف الأدوية الكاوية التي وصفت لها بهدف تطهير الجرح أو اجتثاث جذور الورم.

خلال هذه العمليات، التي اضطررت لأن أكون مراقباً لها بين الحين والآخر لأكثر من أسبوعين، أعلنت إحدى الوصيفات الطبيات من الحرملك، أن هذه القرحة ليست إلا حبة السنة، ولإعلان ذلك يستحق الأطباء العقاب، سواء لجهلهم أو لعدم إنسانيتهم في تعريض الفتاة المسكينة إلى مثل هذا العذاب، في الوقت الذي كان الجميع يعرف أنه كان بالإمكان علاج القرحة خلال ثلاثة أشهر.

ونتيجة تدخل هذه السيدة العجوز، حصلت على فترة راحة لمراجعة الأمور، وبالفعل كان هذا التوقف ضرورياً جداً، وذلك لأن الأجزاء المحيطة لم تكن متورمة جداً نتيجة المعالجة القاسية للقرحة فقط، بل تأثر كذلك الفم واللثة بالزئبق.

وفي نهاية الأسبوعين تلاشت الأورام الفرعية، وبدا أسفل القرحة سيئاً كالعادة، غير أن الشفتين كانتا أقل تورماً، ولم تعد المريضة تعاني من ربع الألم الذي عانته على مدى أسابيع عديدة من قبل.

ورغم معرفة طبيعة الورم الآن، وضرورة ترك الأمور كما هي، إلا أن فكرة تسريع العلاج بالقضاء على جذور الورم، بقيت قوية في نفسي، بحيث جعلتني مرة أخرى استخدم الكاويات، وقد كررت التجربة مرتين أو ثلاث مرات فقط، لأن الشفتين والخدين تورمت على الفور، وبدت جميع المظاهر أسوأ من قبل، ونُحيت المستحضرات الخارجية جانباً (ما عدا الكمادات والغسيل).

وقد حدث ذلك في الشهر الرابع أو الثامن، ومنذ ذلك الحين أخذ المرض مساره الطبيعي. ونحو نهاية السنة التهبت القرحة تقريباً. إلا أنه بدا أنها ستترك ندبة أسوأ بكثير مما قد يحدث لو استخدمت علاجا أخف.

لقد عرضت هذه الحالة بالتفصيل لأنها تقدم مثالاً عن العلاجات الأقوى التي تستخدم والتي لم أكن أعرف أنها تستخدم لعلاج حبة حلب، وأظهرت عدم فعالية هذه العلاجات القوية في تقصير المسار الطبيعي لهذا الطفح.

الفصل الخامس
عن الأمراض الوبائية في حلب منذ عام ١٧٤٢ وحتى عام ١٧٥٤

١٧٤٢م

كان الفصل جيداً وسليماً من الناحية الصحية حتى حوالي بداية آذار عندما تكررت الإصابة بمرض المَراقَ مصحوباً بألم، إلا أنه نادراً ما أصاب الأطفال تحت العاشرة من العمر.

أجري فصد دم بدرجة كبيرة، وأعطيت أدوية مضادة للالتهاب الداخلي، وحقن شرجية، ومطهرات خفيفة، ووضعت كمادات مهدئة على الجزء المصاب. وبشكل عام تم تخفيف الأعراض، وحدثت نوبة مواتية نتيجة تعرق شديد في اليوم السابع أو التاسع عند البالغين؛ أما النوبة عند الأطفال فكانت بواسطة إسهال.

رغم أن هذا العلاج أزال الألم وخفف من حدة الأعراض الأخرى، إلا أنه لم يتمكن في بعض الأحيان من القضاء على الحمى، التي أصبحت من النمط المتواصل، بعد أن كان يُظن أنها متقطعة، وأمكن علاجها في فترة وجيزة بأمان بواسطة الراوند* ؛ إلا أنه كان يطلب من هؤلاء المرضى إتباع حمية شديدة لبعض الوقت، لأنهم كانوا معرضين لانتكاسات.

عندما لم يكن يحدث التغوط في الوقت المناسب، كان ذلك يدل على أن المرض في الغالب مميت؛ وفي أحسن الأحوال، كانت الحمى تستمر مدة ثلاثين وحتى أربعين يوماً، وقد مات عدد قليل من المرضى من الحمى الدقيّة.

رغم أن الحمى استمرت حتى الخريف، فقد أصيب عدد قليل جداً من الأشخاص بعد منتصف حزيران بحيث أصبح من الصعب تسميتها وبائية بعد تلك الفترة.

كما حدثت إصابات متكررة بالخراج الالتهابي في الربيع وجزء من الصيف، إلا أنه لم يكن شديداً، واستخدم العلاج المعتاد.

انتشر الطاعون في المدينة في هذه السنة وفي السنتين التاليتين، وبما أن وصفاً خاصاً عن نشأته وتقدمه وانتهائه وارد في موقع آخر من هذا الكتاب، فقد يكفي أن نذكر هنا، بالإضافة إلى الأمراض الوبائية الأخرى، أنه استمر دون انتشار كبير بدءاً من شهر أيار وحتى نهاية تموز، ثم توقف لأشهر عديدة.

وفي حوالي منتصف تموز، تكررت الإصابة بالإسهال والزحار (الدوسنطاريا) كثيراً، وأصبحا وبائيين طوال الخريف. وتمثلت الأعراض في أن لون الغائط كان أصفر

---

* الراوند: عشب من الفصيلة البطاطية ذو منافع طبية (المترجم)

في البداية مع مغص شديد، وحمى شديدة جداً كانت ترافقها في الغالب بثور وأعراض سيئة أخرى، كانت تحدث في نفس الوقت.

كان فصد كمية كبيرة من الدم وإثارة القيء الإيبكاكي ضرورياً دائماً في البداية، وتبين فيما بعد أن عدداً قليلاً من جرعات الراوند فعالة جداً، عندما أضيفت إليها بعض حبات الكالوميل. إلا أن المرض غيّر من شكله على نحو غير متوقع وانتهى فجأة إلى الوفاة؛ وهو أمر لا ينحصر خاصة بهذا المرض، بل يلاحظ كذلك في الحميات المتقطعة التي كانت وبائية في الوقت نفسه؛ وبالفعل فإن هذه الوفيات غير المتوقعة، كانت تحدث بين الحين والآخر في جميع الأمراض المزمنة خلال فترة الطاعون، إذ كان المريض الذي لم يكن يتم حجره، يتعرض للعدوى.

في حوالي بداية أيلول، بدأ الجدري بالظهور، وبما أنه من النوع اللطيف، كان يتطلب أدوية خفيفة؛ إلا أنه انتشر بسرعة في الشهر التالي، وازداد سوءاً. وظهرت على جميع المصابين بثور رافقها نزيف دموي، وندوب وبثيرات (في قرنية العين)، وأعراض أخرى من أسوأ الأنواع. وعند حدوث تشنجات في أول نوبة، كانت دائماً عنيفة، وتنبئ بأن الجدري سيكون مميتاً.

وفي حالة تقدم مسيرة المرض بشكل طبيعي، يكون اليوم الحادي عشر من حدوث النوبة هو اليوم المحتوم بالنسبة للمريض بشكل عام، إذا ما ترك المرض كما جرت العادة في هذه المدينة بدون علاج أبداً. أما إذا نجا المريض بعد انقضاء تلك الفترة، فلا ينجو سوى عدد قليل من المرضى من الإصابة بالتقرحات الآكلة مع تسوس العظام، أو انتفاخات قاسية في الأجزاء الغددية، التي يمكن أن تصل إلى مرحلة التقيح بصعوبة ؛ ويرافق ذلك أحياناً سعال وإسهالات كانت تساعد على وضع نهاية أسرع للبؤس المزدوج الذي يعاني منه الأصغر سناً. وقد انتشر هذا الجدري الخبيث بين اليهود بدرجة كبيرة.

عندما كان يجرى فصد للدم في البدء، وتُعطى مضادات للالتهابات مع مشروبات مخففة خلال فترة المرض، وعندما كانت تغسل أطراف الجسم قبل الطفح في ماء دافئ عدة مرات، كان يمكن تفادي العواقب المميتة في معظم الأحيان. ولا يعطي الأطباء المحليون مطهرات عند الإصابة بالحمى الثلاثية أو عند اختفاء المرض.

لا يمارس التلقيح في ذلك البلد إلا المسيحيين* ، لكنه ليس شائعاً بينهم، إلا أنه

---

* تبين للمؤلف أن ممارسة المسيحيين فقط للتلقيح أمر خاطئ، وبقيت على هذا الخطأ سنوات عديدة بعد مغادرتي البلاد. ولم أكتشف إلا في عام ١٧٥٧ وبمحض الصدفة أن هذه الممارسة لم تكن شائعة بين البدو الذين يقطنون المدن فقط، بل كذلك بين البدو في المناطق المجاورة. وبعد هذا الاكتشاف، وبما أنني كنت أظن أن أخي لم يكن يجهل هذا الأمر، لم ألفت انتباهه إلى ذلك إلا بعد عدة سنوات، وقد أدت بعض الدراسات الجديدة التي تلقيتها من إنكلترا، إلى إحياء موضوع التلقيح في ذاكرتي. ثم أرسلت بحثاً بذلك إلى أخي الذي فكر أنه من الملائم تقديم البحث إلى الجمعية الملكية، الذي نشر في المجلد الخمسين من Transactions ويذكر أخي في رسالته التي بعث بها إلى رئيس الجمعية مرفقاً بحثي بها، أنه سمع عند مغادرته حلب أن البدو العرب كانوا يشترون (لقاح) الجدري.

يبدو أنه آخذ في الازدياد يوماً بعد يوم، ويبدو أن أساليبهم غير الحكيمة تحرمهم من فوائدها. فهم لا يعيرون اهتماماً لحالة الشخص الذي سيتم تلقيحه، ولا لنوعية المادة المجدّرة، أو حالة المريض المأخوذة منه؛ ولا يتخذون أية تحضيرات مسبقة. إذ يحمل الطفل على الفور إلى غرفة المصاب، حيث تقوم إحدى العجائز بفتح إحدى البثور بواسطة إبرة، ثم تغرز الإبرة فوراً برأسها المسمم في الجزء اللحمي بين الإبهام والسبابة من يد الطفل، وتسحب منه مادة طازجة بعد كل غرزتين أو ثلاث غرزات. ثم توضع قطعة من القطن على الجرح ويوضع عليها رباط. وبدأ مرض ذات الجنب والروماتيزم ينتشران بشكل متقطع في كانون الأول.

١٧٤٣م

تدنى مستوى الإصابة بالجدري في كانون الثاني، واختفى تماماً نحو أواخر الشهر التالي. استمر مرضا ذات الجنب والروماتيزم اللذان تكررت الإصابة بهما في كانون الثاني وخلال الشطر الأكبر من شباط. وقد رافق الحمى في كليهما وجع رأس وعطش بالإضافة إلى الأعراض العادية الأخرى، أما النبض فكان منخفضاً وسريعاً وشديداً، ولم يكن البول ملوناً كالمعتاد في مثل هذه الحميات الالتهابية، ولم يحدث أي ترسب فيه. وبشكل عام، لم تكن الآلام الروماتيزمية شديدة جداً، بل كانت مركزة في الركبتين، إذ كانتا تتورمان كثيراً، وكانت الإصابة بضعف المفاصل، تبقى لفترة طويلة بعد زوال الألم والحمى.

كانت طريقة معالجة كلا المرضين هي هي، رغم أن المريض لم يكن يتحمل بشكل عام فصد كمية كبيرة من الدم كما هي الحال في الفصول الأخرى. إذ كان يجري فصد للدم مرتين أو على الأكثر ثلاث مرات وسطياً، وكانت تستخدم المطهرات المبردة والكمادات على الأجزاء المؤلمة بالإضافة إلى مضادات الالتهاب ومحاليل صابونية، كانت تضاف إليها مواد طيارة عند تدني حدة المرض بشكل كبير. وفي معظم الأحيان، كان ذلك يعتبر علاجاً لفترة وجيزة.

انتشرت الحمى المتواصلة بشكل غير دائم خلال أشهر الشتاء. وكانت تشبه في الكثير من الحالات الحمى التي انتشرت قبل آذار، ولكن دون أن يرافقها آلام في العادة.

انتشر الطاعون هذه السنة بعنف شديد. وقد بدأ يزداد بسرعة في أوائل نيسان، ولهذا السبب اعتكف الأوربيون في بيوتهم في اليوم الحادي عشر من ذلك الشهر. وخرجوا من اعتكافهم حوالي ١٨ تموز، غير أن الوباء لم يختف حتى منتصف آب.

وأصبحت الحميات المتقطعة الخريفية متكررة في حوالي بداية آب. ووصلت إلى أعلى حد لها في أيلول، ومنذ ذلك الحين، بدأت تنخفض تدريجياً حتى اختفت تماماً نحو نهاية السنة.

واستمرت الإسهالات، التي تكرر حدوثها كذلك في الخريف، ولكن دون أن ترافقها أعراض شاذة حتى نهاية السنة.

١٧٤٤م

انتشرت خلال شهري كانون الثاني وشباط ذات الجنب، واستجابت لطريقة العلاج العادية.

وفي حوالي منتصف شباط؛ أصبح السعال الديكي وبائياً بين الأطفال، وأصيب عدد قليل منهم بعد بداية نيسان. وقد رافق السعال ألم في الخاصرة.

كما أصيب الأطفال بحمى التهابية لم ترافقها آلام موضعية، وحدثت في الوقت نفسه إصابة بالسعال الديكي، وأمكن القضاء عليه خلال بضعة أيام بوساطة فصد الدم والتطهير. إلا أنه بسبب عدم إجراء فصد الدم بشكل صحيح، هلك الكثير نتيجة الإصابة بالسعال الديكي. وقلما كان يتم استخدام المبضع في فصد دم الأطفال، بل يستخدم الأطباء المحليون التشريط في شحمة الأذن، أو في ربلة الساقين، وقلما يحصلون على أكثر من بضع نقاط من الدم.

واستمر الطاعون هذه السنة وتزايد في آذار كما كان في السنة السابقة، واستمر تقريباً على المسار نفسه، ولكن بدرجة أقل. واختفى في شهر آب، ومنذ تلك الفترة لم تصب المدينة بهذا المرض المعدي* على مدى عشر سنوات.

وفي حزيران وتموز وآب وشطر من أيلول، انتشرت حمى خبيثة رافقتها نفس أعراض الطاعون. واستمر القيء الذي صاحب المرض في البداية عدة أيام. وانتهت الحمى في حوالي اليوم الرابع عشر، إلا أنها كانت في غالب الأحيان تستمر لفترة أطول.

١٧٤٥م

تكررت الإصابة بالحميات المتقطعة الربيعية هذه السنة. وكانت المرض الوبائي الوحيد الذي تفشى حتى حزيران. فقد بدأ في كانون الثاني، على نحو أبكر من المعتاد، واستمر حتى بداية أيار.

وبدأت الحميات الصيفية تصيب الأطفال في حزيران، كان يرافقها بشكل عام إسهال. وانتشر الزحار بشكل متقطع في الخريف. وظهر جدري من نوع خفيف في أيلول، وشفي الأطفال الذين أصيبوا به تماماً، ولكن في حوالي منتصف الشهر التالي انتشر المرض وتحول إلى النوع السيئ وكان مميتاً بالنسبة للكثيرين في اليوم الحادي عشر. وتوفي عدد قليل من أولئك الذين عولجوا حسب طريقة سيدنهام. ولكن برغم اختلاف أساليب العلاج، تعرض الذين تماثلوا للشفاء للإصابة بأورام التهابية في المرفقين وكان علاجها صعباً للغاية.

١٧٤٦م

أصبح الجدري الذي كان قد انتشر بشكل مميت منذ تشرين الأول، أخف وطأة في كانون الثاني، وتدنى بسرعة واختفى في بداية شباط. وجلب كانون الثاني وشباط بعض الحميات الالتهابية التي تم علاجها خلال بضعة أيام بوساطة فصد الدم والمطهرات

* ١٧٥٥– لم يصب الطاعون مدينة حلب مرة أخرى حتى عام ١٧٦٠.

الخفيفة واستخدام الأدوية النتروجينية. ولم تنتشر أية أمراض في الخريف وبداية الشتاء.

١٧٤٧م

كان الفصل سليماً من الناحية الصحية بشكل ملحوظ حتى أيار. وظهرت في شهر أيار حمى خفيفة استمرت حتى نهاية تشرين الأول، ثم بدأت تتناقص بسرعة، إلا أنها لم تتوقف تماماً حتى نهاية كانون الثاني ١٧٤٨. وكانت تبدأ برعشة وقيء، سرعان ما يتبعها ألم شديد في الرأس، وألم في الجسم كله، وفقدان القوة بشكل ملحوظ، رغم أن النبض يكون جيداً خلال الأيام الأربعة الأولى. وكان لون اللسان أبيض في البداية، يصبح ثم صار بنياً وقاسياً وجافاً. وتكون الحرارة الخارجية والداخلية مرتفعة جداً، لكنها تتزايد في المساء، وكان يسبقها تورد في الخدين. وفي اليوم الخامس، كان معظم المرضى يصابون بدوخة، وكانت تظهر خلال تلك الفترة بثرة قرمزية اللون بحجم لسعة البرغوث، تنتشر في جميع أنحاء الجسم والأطراف؛ ونحو نهاية المرض يصاب المرضى بغيبوبة. وكانت تشير الدلائل من البول إلى فساده.

وخلال أشهر أيلول وتشرين الأول، تفشت حمى مميتة تختلف عن السابقة وأكثر خبثاً، بحيث أودت بحياة أكثر من نصف المرضى. فقد كان المرضى يصابون أولاً برعشة خفيفة وغثيان، وفي بعض الأحيان بقيء. كما كانوا يتذمرون من دوخة وسماع لضجيج مستمر أشبه بصوت تدفق ماء في آذانهم. ومنذ البداية، كان ينتابهم إحساس بالتكدر النفسي، وتصبح العينان طامستين، وتبدو ملامحهم شاحبة كالأشباح، يشبهون كثيراً المرضى المصابين بالطاعون. وخلال مسار المرض، كانوا يبقون لساعات عديدة دون الإصابة بأية اضطرابات ظاهرة، ويصبح اللسان ندياً كما في الأحوال السليمة، ولا تنتابهم رغبة في الشرب، ثم وعلى حين غرة، يشتكون من حرارة داخلية عنيفة، ويشربون كميات كبيرة من الماء بنهم شديد دفعة واحدة؛ مع أنه لا يطرأ أي تغير على النبض واللسان، كان يلاحظ ارتفاع ملحوظ في الحرارة الخارجية. وكان النبض أسرع بقليل مما لوكان الشخص سليماً، إلا أنه في حوالي اليوم الخامس، كان ينخفض بشدة، ثم ينخفض كثيراً قبل اثني عشرة ساعة من الوفاة بحيث يتعذر إدراكه. ويكون لون البول بلون القش بدون رواسب حتى اليوم السادس، إذ يظهر تكدر ضئيل معلق في حوالي منتصف الكأس.

وخلال فترة مسار المرض، يصاب المريض بالأرق، وينام قليلاً جداً أو لا ينام، ونادراً ما يصيب المرضى هذيان، ولا يصابون بغيبوبة أبدا. وبشكل عام، تبقى حواسهم تامة حتى آخر لحظة. وكانت الوفاة تحدث عادة في اليوم السابع. أما أولئك الذين ينجون من ذلك، فقد كانت تنتابهم نوبة ألم شديد مع تعرق شديد في اليوم التاسع.

كان الدم المفصود في اليوم الأول يشبه دم شخص سليم، أما عندما كان يفصد بعد اليوم الثالث، فيكون بلون البن، ويكون رقيقاً كما لو أنه يجري من الوريد. ولم يكن المرض معدياً. فلم أصادف شخصين مريضين بنفس المرض في نفس العائلة. وبالفعل، فإن جميع المرضى الذين عرفتهم لم يتجاوزوا الثلاثين من العمر، وكان اثنا عشر منهم تحت رعايتي، توفى منهم أربعة.

ومنذ عام ١٧٤٨ وحتى ١٧٥١ م حالت كثرة أشغالي بالإضافة إلى انهماكي بمعالجة والي الإقليم* التي شغلت وقتي فترة بعد الظهر بعد انتهاء عملي دون تسجيل ملاحظات بانتظام كما كان الحال من قبل لكي أدون سجلاً كاملاً عن الأمراض الوبائية؛ لذلك سأحاول (معتمداً على ذاكرتي بشكل رئيسي) إعطاء أهم الأمور المتعلقة بها خلال السنوات الأربع تلك. فقد ظهرت الحصبة في ربيع ١٧٤٩، واستمرت حتى الربيع التالي. وبما أنها لم تتفش في المدينة منذ سنوات عديدة، فقد أصيب بها العديد من البالغين والأطفال، ولذلك أصبح من الشائع رؤية الآباء والأطفال والخدم في الأسرة الواحدة مصابين جميعاً في وقت واحد.

وقد تطابق المرض وأعراضه تماماً مع وصف Sydenham عن الحصبة في سنة ١٦٧٠. ولم يتوف أي من الأشخاص الذين عولجوا بالطريقة التي أوصى بها. ولذلك فإن طريقته هي أنجع طريقة في العلاج. وقد هلك الكثير ممن عولجوا بطريقة الأطباء المحليين، التي تكونت من الحفاظ على المريض في درجة حرارة مرتفعة، ونقله في اليوم التاسع من الغرفة الحارة التي يمكث فيها إلى الحمام، وذلك للحيلولة دون حدوث إسهال لا يمكن علاجه. ويبدو أن الأمر الغريب حقاً نقل الأشخاص الناقهين من الحصبة في هذا الوقت المبكر إلى الحمام، في حين يحظر الحمام في حالات الجدري (يفترض أنه في غاية الخطورة) تماماً قبل مضي أربعين يوماً.

وفي عام ١٧٥٠ تفشى الجدري في منتصف آب، وكان من النوع السيئ. واستمر هكذا حتى منتصف تشرين الثاني؛ ثم عاد وأصبح من النوع اللطيف واستمر هكذا طوال الشتاء، وتلاشى في أوائل ربيع ١٧٥١.

شهد عام ١٧٥١ دوسنطاريا بشكل مخيف تفشت بعنف قاتل منذ بداية حزيران حتى منتصف تشرين الثاني، وُعدّ القحط الذي أصاب المدينة لأشهر عديدة** هو سبب تفشي المرض.

نتيجة فشل المحصول في السنة السابقة. بدأ الناس يتذمرون من قلة القمح في أوائل الشتاء، وفي فترة قصيرة، بدأ الناس من الطبقة الدنيا يعانون من بؤس شديد بسبب الخبز. وكان سعد الدين باشا قد عين في ذلك الوقت باشا على بشالق حلب. وكان ابن أسرة تمتلك أراضي واسعة في نواحي حماة ودمشق.

وحدث (ولسوء طالع المدينة) أنه كان لديه مخزون كبير وقديم من القمح، بقي مخزناً لسنوات عديدة في مخازنه. وبدا له أن وضع السكان المأسوي يتيح له فرصة

---

* كانت مرافقتي للباشا في البداية مهنية فقط، ثم أصبحت تشغل حيزاً كبيراً من وقتي بعد ذلك إذ كنت أرافقه كذلك في نزهاته، مما اضطرني ذلك للإقامة في السراي بشكل دائم تقريباً. إن هذا الوقت الضائع الذي كان من المفترض أن أخصصه لأمور أخرى، أتاح لي فرصة الاطلاع على حياة وعادات المسلمين من الطبقة العليا خلال فترة عملي، فضلاً عن الهدايا الضخمة، والتكريمات العامة الأخرى التي منحها لي الباشا بمسرة عظيمة.

** كان هذا أول مرض وبائي أشاهده في سورية، وذلك لأني وصلت إلى حلب حوالي أواخر سنة ١٧٥٠. وقد فحصت عدة مرات الخبز في السوق الذي كان لونه أسود داكناً وفي الغالب كانت رائحته كريهة. وكان الخبازون يغشون الحب الذي كان أصلاً سيئاً للغاية بخلطه بنفايات وسقط.

مناسبة لكي يتخلص من قمحه، فقد جلب كميات كبيرة منه من حماة بحجة التخفيف من وطأة البؤس، إلا أنه عمل في الوقت نفسه، على منع استيراده من مناطق أخرى حتى يتخلص مما لديه. وكان القمح الذي زودهم به، مصاباً بأضرار كبيرة نتيجة تخزينه لفترة طويلة، ولذلك كان الخبز المصنوع منه أسود جداً وعفناً ومذاقه سيئ.

ورغم رداءة نوعيته وارتفاع ثمنه فقد كان القمح الوحيد الذي كان بوسع الناس الحصول عليه لمدة لا بأس بها إلى حين وصول الحنطة الجديدة.

وقد عزي انتشار الزحار (الدوسنطاريا) بشكل عام إلى هذا السبب، وبالفعل فقد عانى أفراد الطبقة الدنيا كثيراً. إلا أن الكثيرين ممن سمحت لهم ظروفهم ألا يشتروا القمح الفاسد، فقد أصيبوا كذلك بنفس المرض.

١٧٥٢م

كان الفصل سليماً من حيث الصحة حتى الاعتدال الربيعي تقريباً، إذ ظهرت حمى مستمرة وتفشت بسرعة بين جميع الطبقات، واستمرت كذلك حتى نهاية تموز تقريباً، ومنذ ذلك الحين، بدأت تخف واختفت بحلول منتصف أيلول.

انتابت المرضى في البداية رعشة خفيفة رافقها في غالب الأحيان غثيان، أعقبهما ارتفاع في درجة الحرارة، وعطش، وألم في الرأس وفي أسفل البطن. وبالإضافة إلى تلك الآلام، كان ينتاب المرضى اضطراب شديد في الرأس، وكانت تظهر غبشة ملحوظة في نظرات المريض، ويصبح اللسان أبيض على الفور، وبعدها بفترة وجيزة يغدو بنياً، وعند نهاية المرض يكتسي بطبقة سوداء. يكون النبض سريعاً وقلما يكون شديداً، ويستمر كذلك أكثر من أي حمى أخرى لاحظتها في ذلك البلد.

كان معظم المرضى يتعرضون إلى نزيف من الأنف في اليوم التاسع أو الحادي عشر. ويبدا أن هذا الأمر قد خفف من الأعراض بالنسبة للبعض، إلا أن حالة الكثيرين ازدادت سوءاً فيما بعد، في حين لم تظهر عند آخرين أية تأثيرات سواء كانت جيدة أم سيئة. وتصاحب النوبة التي كانت تحدث في معظم الحالات (خلال نيسان وشطر من أيار) في اليوم السابع عشر، تعرق شديد، ولم تحدث أية حالة قبل اليوم الرابع عشر.

تجدر الملاحظة أنه بعد بداية تموز، لم ينج أحد من الأشخاص المتماثلين للشفاء بعد نكوص بدأ بنفس الطريقة كالحمى الأساسية مع فارق أن الحرارة كانت أشد.

ورغم أن المرض ليس خطراً جداً بحد ذاته، فقد كان مميتاً في شهري نيسان وأيار. ومنذ بداية الصيف وحتى نهاية أيلول، انتشر السعال الديكي بين الأطفال بشكل وبائي، ولكن رغم أن المرضى الصغار عانوا الأمرّين من شدة السعال، فقد تلاشى مع الدواء بسرعة أكبر مما لاحظته قط. وقد تفشت الحميات الصيفية بشكل غير اعتيادي هذه السنة. غير أن الأطفال عانوا الكثير كذلك منها.

١٧٥٣م

أصيب في كانون الثاني الكثير من المسنين بالسكتة، وانتهى معظمهم بالفالج، ورغم تقدم سن بعض المرضى فقد أفلح الدواء في علاج المرض.

ظهرت حمى متواصلة في حوالي بداية السنة وانحصرت لفترة من الزمن في الضواحي الشمالية، إلا أنها انتشرت بعد ذلك إلى أجزاء أخرى، حتى بدا انتشارها قد توقف فجأة بسبب الصقيع في حوالي بداية شباط. ومنذ ذلك الحين وحتى العشرين من الشهر شاهدت فقط شخصين أصيبا مجدداً.

كان المرض يبدأ برعشة وغثيان، ونادراً ما كان المريض يتقيأ. وكان النبض خلال اليومين أو الثلاثة أيام الأولى قوياً وسريعاً والحرارة شديدة. ولم يكن المريض يعاني من إحساس يزيد على التشوش في الرأس، وطنين في الأذنين، ويبدو المريض وكأنه على وشك الموت. وكان المرضى يعانون ألماً في الظهر والأطراف ولم يكن بوسعهم رفع أذرعهم. ويكون اللسان في البداية أبيض ثم يتحول إلى أصفر، ويصبح عند ذروة المرض أسود.

وفي حوالي اليوم السادس يبدأ المريض بالهذيان، وبين اليوم السابع والتاسع، يكتسي الجسم بالبثور، التي لم تكن مستديرة كالعادة، بل في أشكال غير منتظمة عديدة. وعندما تظهر البثور، يبدأ النبض بالانخفاض، وينتاب المريض إحساس بالغيبوبة. وبين اليوم التاسع والحادي عشر، كان المريض يصاب بتعرق معتدل، أو يصبح تغوطه سائلاً، ويتم التخفيف من كلا الحالتين من الأعراض مؤقتاً.

وحوالي منتصف نيسان انتشر المرض بسرعة داخل أسوار المدينة، ويبدأ اليهود يعانون كثيراً منه، وفي الشهر التالي، أصيب الأطفال الذين لم يصابوا به في البداية. وقد أصيب عدد كبير من الأطفال الذين يبلغون تسع سنوات من العمر وأكثر. وكانت الأعراض التي أصابت الكبار هي نفسها التي أصابت الصغار.

الكتاب السادس
عن الطاعون

الفصل الأول
عن الطاعون في حلب بصورة عامة

يسود اعتقاد لدى الحلبيين أن الطاعون يصيب المدينة مرة كل عشر سنوات تقريباً، وأنه غير مستوطن في المدينة، بل ينقل إليهم من أماكن موبوءة أخرى من قبيل كلس وعنتاب ومرعش وأورفة من ناحية، أو من دمشق من ناحية أخرى. ويزعم البعض أن أشد أنواع الطاعون تفد من دمشق عادة؛ ويؤكد آخرون أن الطاعون الذي يفد من الشمال، أكثر أنواع الطاعون شدة والذي يتفشى في المدينة.

أما بالنسبة للفترات التي يعتقد أن الطاعون يتفشى فيها، رغم اعتبار السنوات ١٧٣٣ و ١٧٤٢ استثناء للقاعدة العلمية، فإن الرأي الشعبي يبدو أنه يقوم على التجربة إلى حد ما[١]، ومن الأمور التي يبدو أنها حقائق راسخة، فإن الطاعون لايتفشى في حلب أبداً قبل أن يكون قد تفشى في إحدى المدن المذكورة أعلاه أولاً. وحسب ماعلمت، فهو يظهر دائماً لأول مرة في إحدى المدن الساحلية في سورية[٢] فإذا ظهر في صيدا، فإن بيروت أو طرابلس أو دمشق تكون عادة القناة التي ينتقل منها إلى جلب. إلا أنه إذا ظهر أولاً في الاسكندرونة أو بياس، فإن انتقاله يكون عن طريق كلس وعنتاب أو مرعش. ولا ينتشر المرض أبداً خلال الشتاء، بل يفد مع قدوم الربيع ويصل إلى ذروته في حزيران، ويتدنى بسرعة في تموز ويختفي بالتأكيد في آب. ويبدو أن هذا هو المسار الدائم للطاعون في حلب، لذلك لا يصاب به أحد أبداً خلال شهري أيلول وتشرين الأول، حتى عندما تفشى المرض لمدة ثلاث سنوات متعاقبة كما حدث في آخر طاعون في ١٧٤٢ [٣] ويلاحظ وجود فرق كبير من حيث الوفيات الناجمة عن المرض وعدد المصابين في مختلف السنوات. إلا أنه يبدو أنها اقترنت في حلب بمشاهد من الفوضى والرعب، كما يحدث أحياناً في أوروبا[٤].

يبدو أن الحرارة الزائدة تعمل على وقف انتشار المرض. إذ أنه رغم ازدياد العدوى والوفيات خلال بدء الحرارة في بداية الصيف، وبعد أيام قليلة من استمرار الطقس الحار، ينخفض عدد الإصابات الجديدة. ويعتبر تموز شهراً أكثر حرارة من حزيران، والفصل الذي يتوقف فيه الطاعون دائماً في حلب هو الشهر الذي تزداد فيه الحرارة كثيراً.

رغم أن سكان سورية، بالإضافة إلى الكثير من الذين ألفوا في الطب، يعتقدون بتأثير القمر على الطاعون. فإن التجربة في حلب لا تحبذ مثل هذا الرأي.

إن الشخص الذي يصاب بالمرض مرة، قد يصاب به مرة أخرى. إذ مازال عدد من الأشخاص ممن أصيبوا به مرتين أو أكثر موجودين عندما غادرت حلب، وقد شاهدت حالات عن أشخاص أصيبوا ثلاث مرات متعاقبة في فصل واحد.

الملاحظات

(١) في رسالة كتبها شخص إنكليزي في حلب في سنة ١٧١٩، كان قد أقام فيها حوالي عشرين سنة، يقول فيها 'منذ أن كنت هناك، لم يتفش الطاعون أبداً أكثر من مرة خلال عشر أو اثني عشر سنة'.

إن الطاعون الذي تمكنت من الحصول على تواريخه، عن السنوات ١٧١٩ و ١٧٢٩ و ١٧٣٣.
وكان قد بدأ آخر طاعون في ١٧٤٢ وانتهى في ١٧٤٤؛ وقد مضى على ذلك عشر سنوات الآن ١٧٥٥ دون أن يظهر سواء في حلب أو الساحل السوري.

(٢) قيل إن الطاعون في ١٧١٩ وفد من الشمال، إلا أن الرسائل أو الصحف التي تابعتها لاتذكر ذلك، رغم أنها جميعها تؤكد تفشيه في طرابلس وصيدا وأماكن أخرى من المناطق المجاورة لها قبل بضعة أشهر من ظهوره في حلب.

وفي عام ١٧٢٨ أحدث الطاعون أضراراً فادحة في مصر، وفي صيف السنة نفسها تفشى في بياس والمناطق المجاورة، إلا أنه لم يتفش في حلب حتى ١٧٢٩.

وفي عام ١٧٣٢ تفشى الطاعون في طرابلس وصيدا ودمشق، ولم يتفش في حلب إلا في السنة التالية

(٣) إن عدم إصابة أحد أبداً بالطاعون خلال شهري أيلول وتشرين الأول هي حقيقة تؤكدها حادثة الطاعون الأخير لعام ١٧٦٠. ومن المؤكد أنه يتدنى بشكل ملحوظ في تلك الفترة، وأن السكان المحليين يبذلون جهوداً كبيرة في نشر الفكرة بأنه انقرض تماماً. ونتيجة لذلك يحرصون على إخفاء حالات الإصابة بالطاعون عن الأوروبيين بعناية كبيرة، لعدم إثارة الذعر خشية الإضرار بالتجارة.

إن تواريخ الطاعون في حلب من ١٧١٩ و ١٧٤٢ والتقرير الملحق عن الزمن الذي يعتكف فيه الأوروبيون بهدف عدم إصابتهم بالعدوى، حصل عليها المؤلف من صحف ورسائل قديمة كتبت في ذلك الحين. إلا أنه تجدر الملاحظة، وينبغي التذكر أن سلوك الأوروبيين، مهما أظهر زيادة أو تدنياً في الطاعون، لا يشير بدقة إلى بدايته ونهايته، وكان المرض ينتشر دائماً بشكل ملحوظ قبل اعتكافهم، ويخرجون من ذلك الاعتكاف قبل انقراضه بفترة طويلة.

وفي عام ١٧١٩، ألحق الطاعون ضرراً شديداً في حلب. وقد انتشر بسرعة كبيرة في الربيع، واعتكف الأوروبيون في منتصف آذار وظلوا كذلك حتى منتصف تموز.

أما في عام ١٧٢٩ ، فكان عدد المرضى ضئيلاً، وفي ١٧٣٣ لم يكن الطاعون شديداً كما كان في ١٧١٩. وفي ١٧٤٣ انتشر الطاعون بشدة كبيرة، ولكن ليس بنفس الدرجة كما في عام ١٧٣٣.

وفي ١٧٤٤ كان تقدم المرض نفسه تقريباً كما كان في العام السابق، غير أن عدد المرضى كان ضئيلاً جداً.

ومنذ ١٧٦٢ وحتى ١٧٨٧ تمتعت سورية بفترة خلت فيها من الطاعون، وهي فترة أطول من المعتاد بكثير. ومن التقرير الذي حصلت عليه عن الطاعون في عام ١٧٨٧، يبدو أنه تفشى في صفوف اليهود في شهر نيسان، وازداد في أيار، وتفشى بعنف في حزيران، وانتهى في حوالي نهاية تموز.

(٤) إن توافق أحداث عديدة تجعل الذعر الناجم عن تفشي الطاعون في المدن التركية أقل مما يحدث في المدن الأوروبية. إذ يتم تزويد المدن دائماً بالمؤن، والذعر من العدوى به أقل حدة، والمرضى أقل عرضة من أن يهجرهم أقرباؤهم. وإن مواراة الميت في التراب بسرعة وانتظام تحرم من مشهد غير شائع في ... با، لأن ذلك من أكثر إقزاعاً للبشر.

الفصل الثاني
عن انتشار الطاعون في السنوات ١٧٤٢ و ١٧٤٣ و ١٧٤٤

انتشر الطاعون في بياس* في صيف عام ١٧٤١، وحسب المعلومات التي أتيحت لنا انتقل منها إلى كلس وعينتاب واعزاز وإلى معظم القرى الواقعة في الجبال المجاورة واستمر طوال الشتاء.

ثم انتقل إلى حلب في حوالي منتصف نيسان ١٧٤٢ عن طريق الشنكنا (الغجر) والأكراد الذين يأتون من تلك البقاع سنوياً للعمل في الحصاد، ويقيمون موقتاً في بعض أحياء الضواحي. وبقي المرض محصوراً بهؤلاء الناس وبعدد قليل آخر في الضواحي، ولم يسمع الأوربيون شيئاً عنه إلا في ١٨ أيار، عندما تبين بعد تقصيات دقيقة، أن بعض الأشخاص داخل أسوار المدينة قد أصيبوا به. وفي أيام قلائل، ازداد عدد الإصابات نسبياً بين اليهود، وسرعان ما انتشر في كل أنحاء المدينة والضواحي، ولكن ليس بدرجة كبيرة. واستمر على هذا المنوال حتى بداية تموز، عندما حدّت الحرارة الزائدة من انتشاره. وتوقف تماماً عند نهاية الشهر تقريباً. وكان اليهود أكثر المصابين بالطاعون بالنسبة إلى عددهم في هذا الفصل. واعتكف الأوربيون في بيوتهم في بداية حزيران لمدة شهر كامل.

وفي حوالي منتصف تشرين الثاني، ظهر الطاعون مرة أخرى في بنقوسا والضواحي الأخرى الواقعة على ذلك الجانب(١)، واكتشفت بعض الإصابات في بعض المناطق داخل الأسوار قبل عيد الميلاد، وبقي هناك دون أن ينتشر.

ويدأ المرض الذي بقي طوال شهر كانون الثاني ١٧٤٣ في الضواحي دون انتشار ملحوظ، وانتشر بين اليهود في المدينة في شباط، كما أصيب الكثير من المسيحيين في ضاحية الجديدة، إلا أنه مع بدء تضاؤله بشكل ملحوظ في ذلك الوقت في بنقوسا، يمكن القول إن حدته خفت ولم تزد.

في حوالي بداية آذار، أثار موت عدد محدود من اليهود والمسلمين من معارف الأوروبيين الذعر(٢) إلا أن فزعهم سرعان مازال، سواء بسبب توقف المرض أو الجهد المبذول لإخفائه(٣) ولم يعد يسمع أحد عن أية إصابة أخرى لفترة من الزمن، ذلك لسهولة تصديق البشر لما يتمنون حدوثه، الأمر الذي أدى إلى تطمين الناس أنفسهم بأمل اختفاء الطاعون. إلا أنه في العشرين من آذار، وصلت أنباء عن وفاة يهوديين اثنين في بيت واحد، ووفاة عدد من المسلمين والمسيحيين في الآونة الأخيرة، في حين أصيب آخرون بالعدوى، فانتشر الذعر من جديد؛ وفي الواقع، سرعان ما ظهر المرض بسرعة ولاسيما

* بياس بلدة تقع في خليج الاسكندرونة، وهي الميناء الرئيسي في ذلك الجزء من سورية، تستخدم لجلب البضائع من مصر. ويتعامل سكان بياس كثيراً بالتجارة مع الأكراد الذين يمتلكون الجبال المجاورة.

بين الأرمن الذين عانوا بشكل ملحوظ منه في هذا الفصل.

رغم أن المرض ظهر في فترات متقطعة داخل المدينة، إلا أن موقعه الرئيسي كان في الضواحي، وكان العدد الأعظم من المصابين من النساء والأطفال؛ إلا أنه في حوالي بداية نيسان، بدأت تظهر الجنازات في المدينة بشكل جلي، وأصيب عدد من الأشخاص بالمرض في بعض الخانات التي يقيم فيها الأوروبيون، فاعتكف معظمهم في الحادي عشر من ذلك الشهر(٤).

وخلال ما تبقى من نيسان، ازدادت حدة المرض في جميع أجزاء المدينة، وبين جميع الطبقات، إلا أنه انتشر بعنف زائد في أيار، وحسب التقارير التي وصلتنا، فقد وصل إلى ذروته في حوالي نهاية ذلك الشهر. وفي هذه الفترة كانت نسبة الوفيات بالفعل كبيرة، إلا أنه نظراً لعدم حصولنا على أرقام عن وفيات المسلمين يمكن الركون إليها بشكل مطلق، فقد تعذر تحديد العدد(٥) أما عن المسيحيين فكانت حساباتنا أكثر دقة. ورغم أن الكثيرين قد هربوا من المدينة واعتكف الباقون في بيوتهم، فقد تراوح عدد الجنازات اليومية بين عشرين وثلاثين وفي بعض الأحيان أربع وثلاثين. لذلك يتضح أن عدد الوفيات بين المسلمين كان كبيراً. ومع ذلك فقد أكد أشخاص أنّ عدد الوفيات كان متوسطاً بالمقارنة مع عدد الوفيات عندما تفشى الطاعون سابقاً في حلب.

وفي حوالي بداية حزيران، انخفضت حدة المرض حسب التقارير التي وردتنا، انخفاضاً كبيراً بين المسلمين، رغم انخفاض عدد وفاة المسيحيين (الذين حصلنا على معلومات أكثر دقة عنهم) ولكن قليلاً. وبين ١٣ و١٧ من الشهر ازداد عدد الوفيات مرة أخرى، ولا سيما بين المسلمين، ولكن ليس إلى درجة كبيرة كما كان في حوالي نهاية أيار. وفي الثامن عشر، بدأ بالانخفاض ثانية، وباستثناء بعض الإصابات، فقد واصل انخفاضه بسرعة مدهشة حتى نهاية الشهر، إذ كان عدد الجنازات قليلاً جداً؛ واستمر كذلك الشطر الأعظم من تموز. إلا أنه لم يعلن عن أن المدينة أصبحت خالية من الطاعون حتى حوالي منتصف آب. أما في تموز، فقد انخفض كثيراً بحيث تجرأ الأوروبيون على الخروج من اعتكافهم في بيوتهم في حوالي الثامن عشر من ذلك الشهر.

منذ منتصف تشرين الثاني وحتى نهاية السنة، بدأنا نسمع بين الحين والآخر عن وفاة أشخاص بالطاعون. غير أن هذه الحوادث كانت نادرة جداً، ومعظمها مشكوك فيه، وقلما توفي أكثر من اثنين.

وخلال شهري كانون الثاني وشباط ١٧٤٤، بقي الطاعون في المدينة، ولكن دون أي انتشار ملحوظ. وبدأ يظهر ثانية في آذار، ورغم أن ذلك لم يكن بدرجة ملحوظة بالمقارنة مع السنة الماضية، فقد تابع نفس المسار من حيث فترات تزايده وانخفاضه، واختفى تماماً في منتصف آب. ونظراً لأن عدد المصابين كان قليلاً، لم ير أحد من الإنكليز ضرورة الاعتكاف، واستمر بعض الفرنسيين في الاعتكاف حتى منتصف أيار.

كنت خلال السنتين الماضيتين، أصف علاجاً للمرضى، بالاستناد على التقارير التي كان يجلبها لي شخص كنت قد عينته لزيارة هؤلاء المرضى، لأنه قبل أن أبدأ الاعتكاف في بيتي، ورغم اتخاذ جميع التدابير الوقائية، كانت التقارير غير الصحيحة عن الحالة تضللني في غالب الأحيان، لذا كنت أضطر إلى زيارة المرضى بنفسي، رغم

أني كنت أتفادى ذلك ما استطعت؛ إلا أن هذه السنة، وبما أن الخوف من العدوى (شأن المخاطر الأخرى التي يتعرض لها المرء) لم يكن شديداً، فقد كنت أزور المرضى أثناء الطاعون كما كنت أفعل في حالات إصابتهم بالحميات العادية.

الملاحظات

(١) عثرت بين أوراق مخطوطة المؤلف على مفكرة كان قد سجلها خلال سنوات الطاعون، دوّن فيها سجلاً عن الوباء وحالات الوفيات، بالإضافة إلى مذكرات عديدة تتعلق بذلك الوقت. وقد اقتبست بعض الفقرات من المفكرة التي يجدر ذكرها هنا كملاحظات توضيحية حول انتشار الطاعون. تقول المفكرة: 'كان انتشار الطاعون شديداً في كلّس والقرى المجاورة. وهرب الكثير من المسيحيين، وسكان حلب، وغيرهم ممن كانوا يقيمون في بعض الأحيان في تلك القرى بسبب التجارة. ولاذوا بالفرار في وقت متأخر إلى حلب، وكان من بين أولئك الهاربين أشخاص ماتوا في الضواحي، بعد أن جلبوا معهم المرض'.

'ومرة أخرى، فيما يتعلق بالمسيحيين، فقد تبين أنه توفى أحد عشر شخصا من عائلة واحدة في العقبة (إحدى الضواحي الكثيرة التلال)، وفي ذلك الوقت، أصيب كذلك أرمني من خدم سليمان آغا (في تلك المنطقة). وأصيب بالدبل (ورم في غدة ليمفاوية) وتماثل للشفاء، غير أن ابنه مات بعد ذلك بقليل، ومات من نفس البيت الذي كان يقطنه خمسة عشر شخصاً في سحابة الشهرين التاليين'. (مخطوطة المفكرة).

(٢) يمكن الملاحظة هنا أن بعض الأشخاص الذين أصيبوا بالمرض في آذار ماتوا على نحو مفاجئ. إذ تذكر المفكرة أنه: 'كانت ابنة أحد اليهود العاملين في الجمرك، وهي فتاة مكتنزة في الخامسة عشرة من عمرها، فبدأ ينتابها القيئ، وراحت تشتكي من البرودة، ومن ألم في قلبها، ثم ماتت في أقل من خمس ساعات. وغطت بقع سود كامل جسدها، وأصبح ذراعاها سوداوين. ومات صبي يهودي ومسلمان اثنان بهذه الطريقة. وفي حوالي ذلك الوقت أصيب أحد أقرباء طباخ القنصل الإنكليزي (وهو أرمني) بالمرض في الجديدة. (مخطوطة المفكرة).

(٣) تحتوي المفكرة على المقطع التالي: 'إن أعمال الدفن (٢٥ أيار ١٧٤٢) آخذة بالازدياد قليلاً بصورة عامة، ونجد من الصعوبة بمكان الحصول على أية معلومات حول المصابين. فالكل ينكر حقيقة إصابات معينة، رغم أن الجميع يقر بأن الطاعون موجود بالفعل. وقد أصيب خادم رجل إنكليزي بالمرض في ٦ نيسان (١٧٤٣) في الخان وتوفي في التاسع منه. ويذل الناس في الريف جهدًا كبيراً لإخفاء المرض بقدر الإمكان.

(٤) قلما تجاوزت الوفيات بين المسلمين الخمسين في اليوم الواحد عندما اعتكف الأوروبيون في بيوتهم، إلا أن الأمر الذي جعلهم يسارعون إلى الاعتكاف ازدياد عدد الأرمن العرب الذين أصيبوا في الحي الأوروبي، بل وحتى في الخانات تحت نوافذهم. ويسبب زيارات خدم البيوت (جميعهم من البدو) لأقاربهم الموزعين في أجزاء مختلفة من المدينة، فلم يكن بالإمكان اتخاذ إجراءات مناسبة واحتياطات ضرورية إذ بقيت أبوابهم مفتوحة، لذلك انحصر الاحتياط الوحيد لمنع هذه الاتصالات الخطيرة في إغلاق الأبواب.

وتقول المفكرة "إن العديد من الحمالين وغيرهم ممن يعملون في الخان استمروا في المعاناة حتى نيسان، وإنه بحلول ٢٠ من هذا الشهر، هرب العديد من البدو من المدينة".
(٥) تضم المفكرة أمثلة عديدة على صعوبة التحقق من هذا الأمر، إذ تقول: "يتفق الجميع (متحدثاً عن الانكشارية المستخدمين للحصول على المعلومات) بأنهم لم يجلبوا تقارير عن نصف عدد الوفيات. ويبدو أن الفزع أخذ يصيب سكان الريف أكثر فأكثر (٨ حزيران ١٧٤٢)، وبدأنا نسمع عن إصابة أعداد أكبر من قبل، ومع ذلك فإننا لم نجد عدد الوفيات في ازدياد: مما يمنحنا سبباً معقولاً للشك في صحة التقارير التي يقدمها الإنكشارية، وبالفعل فقد صرحوا بأنهم لا يجرؤون على جلب تقارير حقيقية لنا.
لقد ذكرت تقارير الإنكشارية لإظهار أنه لا يمكن الاعتماد عليهم كثيراً. وكانت معلوماتنا المتعلقة بالمسيحيين واليهود أكثر دقة نسبياً، وإن عدم التناسب في الوفيات لا يترك مجالاً للشك بشكل عام بأنه لم يكد يذكر الرقم الحقيقي من وفيات المسلمين. (مخطوطة المفكرة).
وكما يبدو من الفقرات الواردة أعلاه، ومن الشكوك التي ساورت أخي عن التقارير التي حصل عليها عن وفيات المسلمين، أرى أنه سيكون من المفيد محاولة وضع تقرير عن الوفيات من مفكرته: إلا أنه وقع بين يدي في حلب تقرير آخر عن الوفيات يتفق على مايبدو بصورة عامة أكثر مع تقديرات أخي، ويتفق في الوقت نفسه في نقاط كثيرة مع انتشار المرض كما هو مبين في النص، ومتباين كثيراً فيما يتعلق بوفيات المسيحيين. وسأرفق جدولاً استخلصته من المفكرة بالوفيات في الأشهر المحددة فيه. وكما قيل لي فإن مؤلفه قس ماروني، وكان يدون العدد بشكل منتظم يومياً في الجدول، ومن خبرتي الشخصية فإني أدرك تماماً العوائق التي يمكن مواجهتها للحصول على معلومات دقيقة. وقد أرسلت نسخة عن هذه الورقة بالعربية إلى أخي، ولكني لا أعرف ما إذا كانت قد وصلته قبل نشر كتابه. وتضم المفكرة وفيات المسلمين والمسيحيين واليهود من أول شباط وحتى الأول من آب ١٧٤٣.

١٧٤٣	المسلمون	المسيحيون	اليهود
شباط	٨٠٠	٨٤	٢٣
آذار	١١٤٠	١٢٤	٤٣
نيسان	١٥٢٠	٢٦٠	٤٠
أيار	٣٦٤٠	٣٨٠	٤٣
حزيران	٦٠٠٠	٦٣٠	١٧٤
تموز	٣٠٠٠	٢٠٩	٦٠
	١٦١٠٠	١٦٨٧	٣٨٣

يلاحظ من الفقرة أعلاه، ومن عدم التناسب في وفيات المسلمين والمسيحيين في مفكرة أخي أن الإنكشارية لم يكونوا يذكرون أكثر من نصف عدد الوفيات.
ولوضع ذلك في منظور أكثر وضوحاً، بينت الوفيات اليومية كما وردت في

المفكرتين لبضعة أيام من حزيران في الجدول الملحق، إذ تبين الخانة الأولى أرقام الوفيات كما وردت في مفكرة أخي، ويبين الثاني الوفيات كما وردت في المفكرة العربية؛ إلا أنه يجدر بنا اللانتباه إلى أن التباين لم يكن كبيراً دائماً كما يبدو، خلال الأيام القليلة المبينة في الجدول، كما أن مفكرة أخي تؤكد بصراحة أن الرقم المذكور هو أبعد ما يكون عن رقم الوفيات الحقيقي. ففي التاسع عشر من حزيران مثلاً، كان الرقم عند أخي ١٥٠ وعند الكاتب العربي ٢١٠، أما في اليوم التالي فكان عند الأول ٦٠ وعند الثاني ٢١٠.

١٧٤٣	وفيات المسلمين		وفيات المسيحيين		وفيات اليهود	
٢٠ حزيران	٦٠	٢١٠	٢١	٢٨	٣	٨
٢١	٥٠	٢١٠	١٥	٢٢	٦	٨
٢٢	٤٥	٢٢٠	١١	٢٥	٦	
٢٣	٥٤	٢٥٠	٢٠	١٥	٣	٦
٢٤	٣٠	٢٤٠	١٢	٢٠	٢	٦
٢٥	٢٥	٢٠٠	١١	٢٢		٤
	٢٦٤	١٣٣٠	٩٠	١٣٢	٢٠	٣٢

الفصل الثالث

وصف طبي للطاعون كما ظهر في حلب في الأعوام ١٧٤٢ و ١٧٤٣ و ١٧٤٤

ليس من المستغرب أن يثير مجرد ذكر اسم الطاعون الذعر في نفوس أولئك الذين قرؤوا عنه، أو الذين كان من سوء طالعهم أن يشاهدوا البؤس والأسى الذي يصيب الناس من جميع الطبقات خلال انتشار هذا الوباء. إذ أن مشاهد الموت في أكثر أشكالها إثارة للحزن والأسى والآلام البشرية، والتي ليس في متناول أحد، مهما كان محباً للخير أن يخفف من حدتها، لتفرض نفسها بدون هوادة. إذ يعتبر الوباء نفسه أكثر الأمراض التي يمكن أن يتعرض لها الجنس البشري إثارة للفجيعة والألم. إن العذاب والتبريح الذي تسببه الحرارة والعطش والألم، من الأمور التي توحد غالباً بين بعض المرضى، وكذلك الإصابة بالوهن والفتور في الجسم والقنوط الذي لا يمكن وصفه عند البعض الآخر، بل حتى أولئك الذين ينجون منه ويفوزون بحياتهم، ويتوقفون عن معاناة آلام وقروح الآثار والبقايا البغيضة التي يخلفها المرض. إن هجر الأقارب والأصدقاء والخدم، وشح ضرورات الحياة العامة غالباً، وصعوبة الحصول على المساعدة الطبية، ما هي إلا أمور تزيد من بؤس وشقاء المرضى أيضاً، وتسهم في زيادة الرعب إلى حد كبير.

وكما أنه لا يوجد مرض يلحق بالبشرية في طبيعته دماراً وبؤساً أكثر، فإنه لايوجد كذلك مرض يصعب وصفه كهذا المرض. إذ لا تتشابه أعراضه تماماً عند شخصين اثنين، بل إنها تتباين كثيراً لدى المريض نفسه في سحابة ساعة. فالمرض الذي يبدأ بظهور أعراض لا تثير الذعر كثيراً، غالباً ما ينتهي بالموت في غضون بضع ساعات، على حين تنتهي في بعض الأحيان الآلام الفظيعة نهاية سعيدة بتحول مسار المرض على نحو مفاجئ وغير متوقع.

كان من بين أولى أعراض هذا المرض بصورة عامة: برودة أو رعشة، وغثيان، وقيئ لكميات كبيرة من مادة صفراء تنبعث منها غالباً رائحة كريهة، مع ارتباك أو عدم شعور بالارتياح في قرارة المعدة، وألم في الظهر أو أسفل البطن، وألم شديد في الرأس، ودوخة غير عادية، وفقدان مفاجئ للقوة (الحيل)، وكان ينتاب البعض ألم حاد مفاجئ، ينطلق من حين لآخر في الغدد النكفية والإبطية والإربية.

وتعقب تلك الأعراض حمى شديدة، فيشتكي المريض من ارتفاع الحرارة داخلية، ورغم أن حرارة الجلد الخارجية لاتبدو أعلى من المعتاد، فإنها تصبح في بعض الأحيان عامة وشديدة الارتفاع، وفي أوقات أخرى، تصاب أجزاء معينة من الجسم، إلا أنه نادراً ما تستمر لفترة طويلة بنفس الدرجة، وتنتاب المريض فترات غير منتظمة من

اختفاء هذه الأعراض وتفاقمها في اليوم الواحد. وعندما تزداد حالة المصاب سوءاً يصبح لون وجهه وردياً، ويتحول غالباً من قرمزي داكن إلى مزرّق أشبه بشخص مختنق، وفجأة يتغير لونه ليصبح شاحباً كالأموات.

وسرعان ما تفقد العينان بريقهما الطبيعي، وتصبح العينان غائرتين. وكانت ملامح معظم المرضى ساهمة وشاحبة كالموتى ومضطربة يعجز اللسان عن وصفها.

يكون النبض في البداية أسرع وأكثر انخفاضاً نوعاً ما، وفي حالات أخرى يتغير عن حالته الطبيعية. وفي غضون بضع ساعات، تزداد سرعته وقوته. إلا أنه نادراً ما يبقى على حاله لمدة ساعة واحدة، بل قلما يبقى لمدة دقائق، ويتغير باستمرار من حيث القوة والسرعة.

بالإضافة إلى هذه الآلام التي تنبعث من الغدة النكفية (تحت الأذن) والإبطين أو عند ملتقى الفخذين مع البطن، وعند لمس ذلك الجزء يتبين ظهور ورم مؤلم قليلاً، صلب راسخ دون أن يتغير لونه من الداخل، ولكنه يصبح أسود خارج الجلد. تلك هي علائم الإصابة بالطاعون.

إن الأمارات المذكورة أعلاه هي أعراض المرض التي تظهر في اليوم الأول وحتى المساء، عندما تبدأ حالة المريض بالتفاقم بشدة، فترتفع درجة الحرارة الداخلية والخارجية بشدة، ويدخل في حالة الهذيان في ذلك الوقت تقريباً، ويصعب غالباً إبقاء المريض داخل الغرفة، ويشعر برغبة شديدة في التحدث، إلا أنه يتعثر في كلامه وقلما يصبح مفهوماً، إذ يشارك اللسان أعضاء الجسم الأخرى في الوهن والضعف العام.

تستمر الحالة في التفاقم معظم الليل، وتخف الحرارة والقلق والهذيان عند حوالي الصباح، ويحدث توقف ظاهر. ويستعيد بعض المرضى أحاسيسهم تماماً، ويستعيد بعضهم جزءاً منها، ثم يأخذ المريض في الشكوى من ألم شديد في الرأس: وفي هذه الفترة الفاصلة، فإن أولئك الذين ظهرت لديهم دمامل يشتكون من ألم حارق من هذا الطفح الناري.

يتم الانقطاع الصباحي عادة لفترة قصيرة جداً: إذ سرعان ما يعود الألم والهذيان والقلق بعنف أقوى من قبل، يرافقه تشنج وتري قوي ومتكرر. ولا تزدد هذه الأعراض الحموّية بانتظام مع تقدم النهار، إلا أنها تختفي وتعود بين فترة وأخرى. وفي المساء، لايمكن عد النبض بسبب انخفاضه وسرعته، ويدخل المريض في غيبوبة، ويصبح تنفسه سريعاً متقطعاً وصعباً. وفي الغالب يخف الدُبّال الذي بدا أنه يتقدم قبل بضع ساعات، وفي أحيان أخرى يختفي تقريباً. وتكون الدمامل المؤلمة في الأعلى شبيهة بندبة كبيرة (ناجمة عن حرق) بسبب مادة كاوية؛ وفي أثناء هذه الفترة، تظهر كذلك بقع زرق أو سود بأحجام مختلفة متناثرة على الجسم بشكل عام.

ضمن هذه الظروف الرهيبة كما رأينا، فإن الأمل بالشفاء لايزال موجوداً. لأنه رغم أن معظم المرضى كانوا يموتون في اليوم الثالث، فإن العديد منهم يتعرضون لأزمة مواتية في ذلك اليوم مع تعرق شديد؛ ويقارع بعضهم ذلك حتى اليوم الخامس، وعدد قليل منهم حتى اليوم السابع، وفي أحيان نادرة حتى اليوم الحادي عشر قبل أن يطرأ تغير هام.

وفي اليوم الثالث يحدث تعرق شديد، وإذا لم يتبين أنه خطر جداً، فإنه يؤدي إلى انخفاض الحمى إلى درجة كبيرة، وفي تلك الحالة، تختفي تماماً بحدوث تعرق ثانٍ ولو أقل غزارة في اليوم الخامس؛ لذا فبالإضافة إلى الوهن، فإن بقايا المرض تسبب ألماً نتيجة الطفح.

كنت قد ذكرت للتو أنه لا يمكن التنبؤ بدقة بحدوث المرض من طريقة الإصابة به؛ فأولئك الذين نجوا منه قد يصابون في البداية غالباً بأعراض مثيرة للفزع، في حين يموت آخرون بعد بضع ساعات. وفي بعض الأحيان، سرعان ما تتلاشى نوبة الحمى التي تنتاب الشخص بهذا العنف الشديد سريعاً وذلك بعد بضع ساعات، وتترك المريض واهناً ضعيفاً إلى درجة كبيرة، ولكن بدون الشكوى من الأعراض الأخرى، باستثناء الألم الناجم عن الدُبَّال، الذي يزداد حجمه منذ ذلك الحين، ويتقدم حتى مرحلة النضج، وفي حالات كثيرة، كان الدُبَّال ينفتح بعد اثني عشر أو خمسة عشر يوماً، ويتمكن المريض طوال تلك الفترة، ما عدا اليوم الأول، من المشي كالمعتاد.

ومن حسن الحظ فقد نجا عدد كبير من المصابين، ليس فقط بالطريقة التي وصفتها للتو، بل عندما لا يتقدم الدُبَّال، وذلك لأن هذه الأورام لا تؤدي غالباً إلى عواقب وخيمة. أما الدمامل فتبدأ بالإنحلال قبل زوال الحمى وبعد تعرق شديد.

ظهر الدُبَّال على جميع المصابين، باستثناء الذين ماتوا بسرعة أو الذين نجوا من أول إصابة بعد بضع ساعات فقط. وقد لوحظ هذا النوع الرهيب بشكل خاص في آذار ١٧٤٣. فقد أصيب المرضى بنفس الطريقة، إلا أن ألم الرأس والقيء والألم كانت تزداد في كل لحظة وثبت أنها مميتة: أو كانت تتلاشى خلال بضع ساعات أثناء التشنجات المميتة(١) ومن بين أولئك الذين هلكوا بهذه الطريقة، ظهر الدُبَّال في عدد قليل منهم، إلا أنه بشكل عام، يصبح الإبطان، وعند ملتقى الفخذين بالبطن، أو باطن الذراعين والفخذين زرقاً أو سوداً، ويكتسي باقي الجسم بالدمامل، تتخللها بثور زرق؛ إلا أن هذه المظاهر لوحظت بعد الوفاة(٢) خاصة.

يصبح لسان بعض المصابين ندياً رطباً ويستمر كذلك طوال الوقت، كما هي حال الشخص السليم، وكان لونه عند مصابين آخرين أبيض في البداية، سرعان ما أصبح أصفر ثم تحول إلى أسود، وكان يكتسي بقشرة جافة قاسية أو زغب.

لم يكن بعض المرضى يشعر بالعطش، وقلما كانوا يشعرون بالرغبة في شرب ماء كثير، إلا أنهم كانوا بشكل عام يعانون من عطش شديد، وكانوا يشربون ما يقدم إليهم بنهم شديد. غير أن هذا العطش لم يكن دائماً، بل كان يعاودهم في فترات غير منتظمة، وقلما بدا مطابقاً لدرجة الحمى.

يكون لون البول بصورة عامة أصفر غامقاً أكثر من اللون الطبيعي عند الإنسان السليم، وبدون رواسب، إلا أنه عند التشخيص لم يكن يمكن الركون إليه كثيراً كأي عرض آخر من أعراض الطاعون؛ وقلما كان متشابهاً في نفس المرحلة من المرض في شخصين اثنين، كما كان يتباين كثيراً في المريض نفسه كل يوم.

أما القيء فيتوقف عادة بعد الساعات القليلة الأولى، إلا إذا كان العطش الشديد يقود المريض إلى ملء معدته فيعاوده القيء باستمرار.

يرافق الإسهال الحمى عند بعض المرضى، ويصاب البعض الآخر بالإمساك الدائم، وفي معظم الأحيان يكون التغوط طبيعياً. ويبدو أن الغائط والبول لايتأثران بمحلول قوي على الإطلاق.

يرافق بعض الحالات نزيف من الأنف وكذلك من الرحم، وإذا حدث ذلك بعد اليوم الثاني، أعقبه تعرق غزير يتبين أنه خطير؛ وهو أمر مختلف عما لوحظ عادة في الطاعون في مناطق أخرى.

من العرض السابق للطاعون، يمكن الإدراك بسهولة أنه لا يوجد شيء أصعب من تشخيص المرض جيداً، كما يقول MoreIlus حقاً: إن أحاسيسنا وعقلنا يخدعاننا. إن أقوال أبقراط خاطئة، كما قد يكون أبقراط (كما أنحو للظن) نفسه مخطئاً.

الملاحظات

(١) كانت حالات الوفاة المفاجئ في الطاعون، كما شرحنا أعلاه، نادرة جداً في سنوات الطاعون الأخيرة في حلب، ومن ثم في الشتاء، فقط أو في أوائل الربيع (بحث عن الطاعون..الخ ،ص٩٧).

(٢) كانت تنتشر بقع زرق أو سود على جسم المصاب، ولكن ليس دائماً. وكانوا دائماً يشكون بأنها ترتبط بحالات أخرى، إلا أن عدم وجودها ليس دليلاً، رغم أنه ذلك غالباً ما يدعو للقول بأن مرض المتوفى لم يكن الطاعون.

الفصل الرابع
عن الطفح الوبائي

تميز الطفح الناجم عن الطاعون بظهور دبيلات ودمامل. ولم تظهر الدبيلات إلا على عدد قليل جداً من المصابين، لأنه خلال طوال فترة انتشار المرض في حلب، ظهرت دبيلات على جميع المرضى، ما عدا أولئك الذين ماتوا على الفور: إلا أن حوالي النصف فقط منهم ظهرت عليهم دمامل* .

وفي العامين ١٧٤٢ و ١٧٤٣، كانت تظهر الدبيلات حال إصابة المريض بالوباء، وفي بعض الأحيان بعد اثنتي عشر ساعة، وفي حالات قليلة بعد يومين أو ثلاثة أيام، أما في عام ١٧٤٤، فقد لاحظ بعضهم ظهور الدبيلات قبل يوم أو يومين من ظهور أية أعراض أخرى من المرض.

بشكل عام كانت تظهر على المريض دبيلة واحدة، وفي الأغلب كانت الغدد الإربية والإبطية تصاب قبل الغدة النكفية. وفي معظم الأحيان، كانت الدبيلة الإربية مزدوجة، أي كانت تظهر غدتان متميزتان متورمتان عند ملتقى الفخذين. وتكون العليا منها، وهي التي تكون على شكل خيارة صغيرة، مائلة بالقرب من الأوعية الكبيرة للفخذ، وتوجد عادة أسفل الدبيلات الزهرية. وكانت السفلى مستديرة وحجمها أصغر بكثير. وحدث ذات مرة أن كانت الدبيلة الإبطية فيها منقسمة بنفس الطريقة إلى جزأين، كانت إحداها تحت العضلة الصدرية، والأخرى غائصة في الإبط؛ وأصبحت كلتاهما شديدة الألم ومتورمة، وأفرزت الموجودة تحت الإبط قيحاً.

كنا قد ذكرنا سابقاً أن الدبيلة ظهرت في البداية على شكل ورم صغير صلب مؤلم، لكنها ليست ملتهبة من الخارج. وكانت هذه الغدد المتصلبة مترسخة، وفي بعض الأحيان، كانت تتحرك تحت الجلد، وفي أحيان أخرى كانت أقل صلابة أو ثابتة، إلا أنها كانت مؤلمة دائماً عند لمسها، إلا في الحالات التي يفقد فيها المريض إحساسه.

وكان حجمها يزداد كثيراً بعد بضع ساعات مع ألم شديد ثم تخف. وتطرأ هذه التغييرات عدة مرات في سحابة أربع وعشرين ساعة. وتسوء حالة المريض فور تقلص حجم الدبيلة، وهذا ماجعلني أتصور في بعض الأحيان أن ذلك يعود إلى تراجع الورم، إلا أن ذلك لم يكن يحدث دائماً مما جعلني أرتاب في الأمر.

وحسب معرفتي فإن الدبيلات لم تكن تتقدم حتى مرحلة النضج أبداً، إلا بعد حدوث تعرق شديد يزيل الحمى. وبعد عشرة أو اثنتي عشر أو خمسة عشر يوماً من الإصابة

---

* خلال السنوات الأخيرة من تفشي الطاعون في حلب منذ ١٧٦٠ الخ. نادراً ما لوحظت الدمامل قبل شهري نيسان وأيار، إلا أنه بعد تلك الفترة، كانت تنتشر بصورة عامة، ولكن بنسبة أقل بكثير مما ورد في النص. (بحث عن الطاعون وما إلى هنالك .. ص١٢٠).

الأولى كانت تتقيح، وكانت تصاحبها جميع أعراض الأورام الالتهابية.

لكني اطلعت على حالات محدودة، كانت تختفي فيها بعد التعرق الشديد، وتختفي تماماً دون إحداث أي ضرر للمريض. وفي أوقات أخرى، ورغم أن حجمها كان يزداد كثيراً، فإن الورم كان يتلاشى دون عواقب مميتة عند ذروة المرض تقريباً. لأنه ما إن تنتهي النوبة، ويتوقف الموات (الغنغرينا)، وتنفصل الأجزاء المصابة بالغنغرينا تدريجياً، وتترك قرحة عميقة حتى تلتئم بدون صعوبة. ولم أصادف حالة أعقب فيها الطفح الدبيلة أو لم يسبقها.

وكانت الدمامل تصبح ناتئة في اليوم الثاني من المرض، ورغم إن الأجزاء العضلية والوترية تكون أكثر إصابة، فإنه لا يمكن خلو أي جزء من الجسم منها.

وكانت الدمامل تشبه في البداية بثرة ملتهبة، يرافقها ألم حارق شديد، وتحيط بها هالة قرمزية عميقة، تزرّق بسرعة، وتنتشر بشكل دائري بسرعة كبيرة، ويصبح قطرها بحجم بني فضي* إلى إنش ونصف الإنش أو إنشين ولا تبلغ أبداً ثلاثة إنشات، والموات الذي يتبعها يتغلغل عميقاً إلى الأجزاء المصابة. وإذا تماثل المريض للشفاء فإن الموات يتوقف عادة عن الانتشار في اليوم الثالث، وبعد يوم أو يومين، نلاحظ علائم التقيح على حافة القشرة السوداء، وتنفصل بالتدريج ويكتمل ذلك في وقت أبكر من وقت الندبة. وفي الحالات التي يتوفى فيها المريض، قيل لي (لأني لم أشاهد أية من تلك الحالات بنفسي) بأن كمية السائل الرقيق (المَهل) الذي ينز من تحت الندبة التي كانت تبقى صلبة ومنكمشة دون ظهور أي علامات تدل على انفصالها أو زوالها.

لوحظت بثرة من نوع آخر في عدد غير قليل من المرضى، وبدا أنها تشفى عند جميع الذين ظهرت لديهم، ولم يعتبر ذلك من الأعراض السيئة. ولم تحط بهذا الطفح أية دائرة مزرقة، لكنها كانت تمتلئ بمادة وتجف بعد فترة معينة، وكانت القشرة تتساقط كما هي الحال في الجدري.

إن تغير لون الجلد الذي يصبح مزرقاً أو أسود في أنحاء الجسم وظهور البثور كما ذكرنا قبلاً في الوصف العام، تعتبر أعراضاً عامة في أمراض خبيثة أخرى ولا تخص الطاعون فقط؛ ولكن في جميع الحالات التي يكتنفها الشك خلال موسم انتشار الطاعون، فإن وجودها دائماً يفسح مجالاً للشك بها.

وسأتحدث في الفصل التالي عن المعالجة الجراحية للدبيلات والدمامل.

---

* Penny: (البني) عملة نقدية إنكليزية (المترجم)

الفصل الخامس
عن علاج الطاعون

إن الدخول في تفاصيل دقيقة عن جميع المظاهر الملحوظة في الطاعون، والتغيرات المتذبذبة والمفاجئة التي تطرأ عادة في أثناء الإصابة به، سيكون أمراً شاقاً وعسيراً وربما غير مفيد جداً. لذلك فقد حاولت إعطاء لمحة عامة عن المرض بحيث يشمل معظم الأعراض العادية والدائمة. ورغم أن هذا الوصف لا يكفي للمساعدة في إجراء تشخيص يمكن الركون إليه، فإنه يقدم بعض الآراء التي قد تكون مفيدة أثناء العلاج.

عند دراسة مختلف الأنماط التي يتخذها هذا المرض القاتل دراسة جيدة، وانتقاله المفاجئ من حالة تبدو خطيرة جداً إلى حالة مأمونة تماماً، وتقدمه السريع نحو الذروة، والخطورة التي قد يتعرض لها الطبيب عند زيارة المريض، فلن تنتابنا الغرابة عندما نقرأ تقارير متباينة بل ومتناقضة حول المرض نفسه، وخصائص ونجاح العلاج الطبي. ومن بين هذه الاختلافات بين المؤلفين عن الطاعون، يمكن مطابقة العديد منها وتتمثل في تأثير المناخ، وقوام الهواء في بعض الأحيان، بل ربما في التباين الحقيقي للمرض نفسه؛ إلا أن المهمة تغدو أكثر صعوبة عند دراسة التناقضات التي يصادفها المرء كثيراً في صفوف الأطباء الممارسين ممن يعالجون في الوقت نفسه، المرض نفسه، وفي المدينة نفسها.

إن اختلاف آراء المؤلفين الطبيين حول أسلوب معالجة الطاعون كثيرة جداً. فهم يقدمون آراء متناقضة تماماً فيما يتعلق بفصد الدم، والتفريغات الأخرى، ويوصي بعضهم بها على أنها أمور لابد من إجرائها، في حين يستنكر البعض الآخر ذلك، ويعتبرونها أمراً مضراً جداً. ويؤكد الطرفان على رأيهما وبثقة متوازية من التجربة. إلا أنه في مرض يحير العقل غالباً، وتكون التجربة معه خادعة، فمن المحزن أنه لم لا تتم استشارة الطبيعة بشكل أكثر، وتتم استشارة العقل على نحو أقل.

وفي بلد يتكرر فيه انتشار الطاعون، قد يتوقع المرء، وهو محق في ذلك، ظهور رأي غير متحين، أو على الأقل تبذل بعض المحاولات الرامية لإيجاد طريقة ملائمة للعلاج، إلا أني حتى الآن، لم أعثر على أثر مرض لدى السكان المحليين. إذ يعتبر المسلمون أن الطاعون لعنة أنزلها الله لمعاقبة الآثمين، ولايؤمنون كثيراً بفعالية الدواء للشفاء من هذا المرض أكثر من أي مرض آخر؛ وبما أن ممارسي الطب هم من المسيحيين واليهود بشكل رئيسي، ولا يؤمنون كثيراً بالقضاء والقدر، فهم يخشون من انتقال العدوى إليهم، فيسعون جاهدين لتأكيد الرأي الشعبي بعدم جدوى طبهم في معالجة الطاعون، بهدف عدم إرغامهم على زيارة المرضى. ولذا يترك الجزء الأعظم من المصابين وهم يصارعون المرض دون أي مساعدة طبية، بل ويتعرضون لسماع توجيهات من أكثر الناس جهلاً.

تتمثل الطريقة الأكثر انتشاراً بين الأطباء المحليين في فصد دم جميع من يعالجونهم في جميع مراحل المرض، وبهدف زيادة التعرق يصفون بضع حبات من الترياق ممزوجة مع ماء مقطر من (Scorzonera). ومازال الاعتقاد شائعاً في الشرق بأن الترياق علاج ممتاز لطرد السم، ورغم أنه لا يعطى في جرعة تتجاوز ثلاث أو أربع حبات، فإن فضائل رائعة تعزى إليه أثناء الطاعون؛ إذ أن اعتمادهم على هذا الدواء إن دل على شيء فلا يدل إلا على أن وضع الطب لم يتقدم.

أما بالنسبة للتفريغ (فصد الدم أو التغوط) أثناء الطاعون، فقد بدا لي من الملاحظة الدقيقة التي تمكنت من إجرائها، بأن فصد الدم بكمية كبيرة في بداية المرض يكون مفيداً جداً، في حين يكون ضاراً دائماً بعد اليوم الأول.

كما كانت استثارة التقيؤ مفيدة في البداية، ولهذا الغرض، ونظراً لأن المريض تنتابه الرغبة في التقيؤ كان الماء الدافئ يكفي عادة، إلا أنه في الحالات التي تدعو إلى التحريض أكثر، فإن جرعة صغيرة من نبات عِرق الذهب أو ملح الزاجّ كانت مفيدة.

إن استعمال الملينات الشديدة التي توصف في الطاعون غير مقبول، إلا أنه في حالات الإمساك والألم الشديد في الرأس، لم تكن الحقنة الشرجية الملينة أو ملين لطيف مؤلف من Manna وكريم الطرطير مأمونة فحسب، بل كانت مفيدة جداً في غالب الأحيان. وفي اليوم الثاني من المرض، حيث تنقطع الأعراض بشكل واضح، فقد كنت أصف غالباً وينجاح منقوع Manna، وكريم الطرطير، وهو أمر ثابت أكدته لي التجربة مرات عديدة، وكان مطهر من هذا النوع الملين الذي يعطى بعد التعرق الشديد، أكثر الوسائل فعالية لزيادة إفراز الدبيلات بالتقيح.

كانت الأزمة الطبيعية للمرض تصيب الجلد دائماً. وعندما تُحرّض شدة التعرق طبياً يكون ذلك أمراً مفيدا كذلك، وإذا بذلت المحاولة في اليوم الأول رافقها أمران غير ملائمين. الأول، هو أنه إذا اخفق مفعول الأدوية المعرّقة الشائعة، والتي تعطى بالجرعات الاعتيادية،، فإنها تجعل المريض يعاني من الالتهاب، وتتفاقم الأعراض كلها بصورة كبيرة؛ وبالتالي، ورغم أنها تكون قد أحدثت التأثير المطلوب، يتعين إبقاء التعرق أطول مدة ممكنة أكثر مما يمكن إقناع سكان هذا البلد على تحمله، وإذا ما توقف التعرق قبل الأوان بالتعرض إلى الهواء، فإن الأعراض جميعها تسوء عندئذ (وهذا ما حدث غالباً)، ويؤدي إلى حدوث إسهال ينتهي بالموت أحياناً رغم أنه قد يخفف في البداية من حدة الأعراض.

ثبت أن جذور Contrayerva ونبات الهر (Valerian) والعصفر، أو مركب مسحوق كونترايرفا من مستوصف إدنبرة أدوية منعشة ومعرّقة فعالة جداً، لا تتحقق الفائدة من هذه الأدوية إلا بإعطاء جرعات صغيرة كل أربع ساعات، مع مشروبات أضيف إليها قليل من الحامض، لا تساعد على التعرق فحسب، بل تؤدي إلى تخفيف حدة الحمى، في حين أن الأدوية الدافئة تزيدها. ويضاف إليها أحياناً الأنودين الذي يساعد كثيراً في فعالية الأدوية الأخرى، أما النوع الألطف من قبيل شراب الخشخاش، فيبدو أنه يوافق المرضى بشكل أفضل من الأفيون الخالص.

حاولت تجريب تأثير القلف. ولكن بسبب الضجة التي أثيرت ضد هذا الدواء، وجدت أنه من الأفضل الكف عنه؛ لأني اقتنعت أنه بسبب صغر سني، والفترة القصيرة من إقامتي في هذا البلد، قد واجهت عوائق لا يمكن تذليلها، عندما بذلت كل مابوسعي لمواجهة الفكرة الشعبية. وللسبب نفسه، لم يكن بالإمكان تجريب جذر أفعى فرجينيا الذي كان طعمه المر سبب اعتراض السكان المحليين عليه، ويمكن الملاحظة بشكل عام، أن الطبيب الذي يرغب في أن يمتثل المرضى لتعليماته في هذا البلد ينبغي عليه أن لا يؤذي مذاق مرضاه بأدوية مثيرة للغثيان، لأنه مهما كانت النتائج، فإنهم سيفضلون التخلي عنها.

وبعد تجارب عديدة، وجدت أن أكثر طرق العلاج فعالية ونجاحاً هي طريقة التالية:

عندما يصاب المريض بالمرض، ينبغي سحب من عشر إلى عشرين أونصة من الدم، حسب الحالة، من الذراع في أقرب وقت ممكن؛ ولكن نادراً ما يؤخذ أكثر من ست عشرة أونصة. وهذه الكمية تتجاوز كثيراً ما يسحب عادة دفعة واحدة في أي مرض في ذلك البلد.

بعد فصد الدم، إذا أصبح الغثيان شديداً، يُشجع المريض على شرب ماء دافئ بقدر الإمكان، لكي يختلط بالمادة الصفراوية، وتكرر العملية حتى تصبح المعدة نظيفة. وعندما لا يكون الغثيان شديداً، فإن الماء وحده لا يكفي للتحريض على القيء. فيعطى جرعة صغيرة من نبات عِرق الذهب أو ملح الزاجّ لتحريضه. ويبدا من التجربة أنه من الضروري إعطاء هذين الدواءين في بداية المرض.

وبعد القيء، يعطي أنودين خفيف. وعندما لا ينجح في تهدئة المعدة، تضاف أونصة من داياكوديوم أو خمس عشرة نقطة من لودانوم إلى جرعة ريفيريوس المالحة.

وفي الشتاء يجب نقل المرضى إلى غرفة أرحب مهواة أكثر من تلك التي ينامون فيها في ذلك الفصل، وتدفئة هواء الغرفة بوساطة نار متوسطة. وفي الصيف، يسمح بإبقاء الأبواب والنوافذ مفتوحة، إلا إذا كانت مقابل سرير المريض مباشرة. إلا أنه رغم معارضة البعض لهذا الأمر، فقد كانوا يصرون على إبقائها مفتوحة أثناء النهار، ويستلقون في الليل غالباً على سطوح المنازل، ويستخدمون نفس الأغطية التي يلتحفون بها وهم أصحاء.

عند أول ظهور للغيبوبة، أو وهن في اللسان، توضع نفطة على الرأس، وحسب الظروف، على الأجزاء الأخرى التي توضع عليها النفطة عادة.

أما بالنسبة للمعالجة الخارجية للطفح، فتوضع في بعض الأحيان كمادات لإفراز القيح على الدبيلات، إلا أنه نظراً لأنه تم الاحتفاظ بها بصعوبة على ذلك الجزء، في الحالات التي يتمكن فيها المريض من السير، كانت توضع لصاقة صمغية من الدياكيلون عوضاً عن الكمادة؛ وإذا احتاج الأمر إلى محرض أقوى، أضيف قليل من الكانثاريد أو اليوفوربيوم.

وفي معظم الحالات، كانت تترك الدبيلات تنفتح من تلقاء نفسها، بسبب خوف الحلبيين من استعمال المبضع والمواد الكاوية، ربما بسبب عدم وجود أشخاص يمكنهم

استعمالها جيداً. وحسب ما أتيحت لي فرصة ملاحظته حتى الآن، رغم أن ذلك أمر شاق، لم يسفر تأخر انفتاحها عن نتائج أسوأ من تلك الشائعة في جميع الأورام الالتهابية التي تترك من تلقاء نفسها.

وعندما كانت الدبيلات تصاب بالموات (الغنغرينا)، كانت تعالج بنفس طريقة معالجة الدمامل، ورغم أنه عند انفصال الأجزاء المصابة بالموات، كانت القرحة تبقى غالباً عريضة وعميقة، ومع ذلك فقد كانت تلتئم بلطف في فترة قصيرة.

وكانت الدمامل تشرط أحياناً، إلا أنها لم تشرط في أغلب الأحيان. وبعد أن تتساقط القشرة الميتة، سرعان ما تلتئم القرحة بسرعة وبصورة اعتيادية.

الفصل السادس

عن أسلوب الأوروبيين في اعتكافهم في بيوتهم للوقاية عند انتشار الطاعون في سورية

بالإضافة إلى العناية الإلهية، فإن الوسيلة التي اعتمدها الأوربيون في وقاية أنفسهم من الإصابة بالعدوى خلال فترة الطاعون، كانت مقصورة على الخروج من المدينة أو الاعتكاف داخل بيوتهم في المدينة، وذلك للحيلولة دون حدوث اتصالات أو علاقات يمكن أن تنتقل الإصابة عن طريقها.

عندما كانت التجارة في الماضي تجري بانتظام على السفن السنوية المستأجرة من قبل شركة المشرق التي كانت تصل الاسكندرونة وتغادر الميناء في فصول معينة، كان التجار ينسحبون من المدينة في أشهر الصيف، دون الإضرار بتجارتهم، وكان عدد الجالية الإنكليزية في ذلك الوقت كبيراً جداً، بحيث يصعب إقامة مخيم في الجبال يكون في مأمن من الأذى الذي يحدثه الأكراد*، وكان الأسلوب الشائع للإنكليز يتمثل في الخروج من المدينة في بداية انتشار الوباء.

وكان المكان الذي يختارونه كملاذ لهم عبارة عن سهل غير واسع يقع في الجبال، على مسافة ليست بعيدة عن بيلان.. حيث تكون المشاهد الطبيعية المحيطة في غاية الجمال، وكانت فتحة الجبال الوعرة تطل على البحر فتفسح المجال لكي تهب الرياح الغربية، ويمر جدول صغير بارد للغاية، وبالإضافة إلى مساهمته في زيادة انتشار الخضرة، فهو يوفر ماء الشرب للمخيم. وكانت بيلان توفر المؤن للمخيم، بعد اتخاذ الاحتياطات الوقائية الضرورية عند استلامها، وكان ذلك ينطوي على مخاطرة قليلة، بل دون أية مخاطر على الإطلاق، رغم انتشار المرض في تلك القرية.

وكانوا يعيشون تحت الخيام، ويخرجون على خيولهم للصيد. أما حسب الوضع الحالي للتجارة الشرقية (١٧٥٢) التي تجري بواسطة عدد من السفن الخاصة الصغيرة التي تصل إلى الميناء دون مواعيد منتظمة، وفي جميع الفصول، لم يكن من الملائم تماماً للتجار مغادرة المدينة، بالإضافة إلى ذلك، فقد تدنى عدد أفراد الجالية الإنكليزية كثيراً، وأصبح الأكراد أكثر عداءً للإفرنج. لذلك يتعذر اللجوء إلى الجبال في وقت مبكر، أما الانسحاب إلى أي من القرى المجاورة في أواخر الفصل، بعد أن يكون الطاعون قد انتشر قليلاً، فلا يعد أمراً مأموناً كثيراً، بل ينطوي على مخاطرة كبيرة. ومهما كانت

---

* الأكراد عرق صلب وشديد البأس، يقطن قسماً كبيراً من جبال الأمانوس والجبال المجاورة، وهم يعيشون بشكل رئيسي على النهب، ويغيرون على السهول، وينسحبون إلى الجبال عندما ترسل أي قوة لمطاردتهم.

درجة حرص الأوروبيين في سلوكهم وسلوك خدمهم المباشرين، فهم لا يستطيعون مراقبة ما تبقى من حاشيتهم الكبيرة، التي تستخدم في نقل الخيام والأمتعة، الذين إما أن يكونوا قد انتقل إليهم المرض دون أن يعرفوا، أو يكونوا قد أخفوا عنهم إصابة أحد من أفراد عائلتهم؛ بالإضافة إلى خطر الانطلاق مع القافلة التي ربما يكون قد انتشر فيها الطاعون. علاوة على ذلك، فإنني أعتقد أنه نادراً ما ينتشر المرض في حلب دون أن تتأثر به كذلك القرى المجاورة. ورغم أن خطر الإصابة أثناء الرحلة قد يكون أقل إلى حد ما عند النوم تحت الخيام وعدم دخول البيوت فإن القرى المختارة كملجأ قد تكون قد تعرضت لهذه الكارثة، رغم التأكيدات المتكررة بخلاف ذلك، لأن السكان المحليين عادة مايخفون انتشار المرض.

ينطوي الاعتكاف في البيوت على عدد قليل من المخاطر التي أوردناها للتو. وعندما يطبق بشكل صحيح، فهو يوفر وقاية محدودة من التعرض للإصابة، إذ يبقى الأشخاص آمنين في وسط المدينة حيث ينتشر الطاعون بأقصى عنف له.

تؤكد التجربة أن فوائد الاعتكاف في البيت مؤكدة تماماً في هذا البلد، ولذا فقد اتبع المسيحيون واليهود الذين بوسعهم عمل ذلك جرياً على أسلوب الإفرنج، وحتى المسلمون (الذين لايمكنهم اعتماد هذا الاسلوب علناً بسبب اعتقادهم الديني). وفي بعض الأحيان كانوا يلوذون بأحد بيوتهم في البساتين، كما لو أنهم خارجون للنزهة. وفي أوقات أخرى، عندما تسمح ظروفهم بذلك، كانوا يقومون برحلة تجارية إلى مدينة بعيدة، إذ إن القيام برحلة إلى مكة أمر ليس مستغرباً تجنباً للخطر الداهم.

رغم أن الأوروبيين يتعرضون كثيراً للأمراض الوبائية التي تصيب تلك البلاد كما هي حال السكان المحليين، فإن التجربة تؤكد أنهم معرضون للطاعون، لأن بعضهم كان يصاب عند انتشار المرض في المدينة، سواء قبل الاعتكاف في البيت أو بعد الخروج منه*. كما يمكن الإضافة إلى ذلك، أن خدم البيوت (الذين ليسوا من السكان المحليين ويتجاوز عددهم عدد الأوروبيين) ليسوا أقل عرضة للمرض رغم أنهم يتمتعون بأمان بشكل متوازٍ مع أسيادهم عندما يعتكفون.

عندما يزداد عدد المصابين (وهو أمر شائع في الشتاء وبداية الصيف) يتبع الأوروبيون الإجراءات الاحتياطية التالية: عدم الاتصال بالسكان المحليين إلا إذا اضطر عملهم إلى ذلك، إبقاء خدمهم داخل البيوت قدر الإمكان، عدم السماح للحلاق العام بالدخول إلى البيت، والحصول على امرأة تقوم بأعمال الغسيل، يعتمدون عليها لكيلا يخرجوا إلى الأسواق، لايوظفها السكان المحليون. وبهذه الاحتياطات يبقى الإفرنج أحراراً في زيارة بعضهم بعضاً أو متابعة نزهاتهم في الريف.

بما أن الاعتكاف أمر غير مريح، فقد جرت العادة على تقسيم الجالية إلى فرق

---

* حذر السيد جيمس بورتر في ملاحظاته حول تركيا (ص٤٤٣ و ٤٥٠) في جملة واحدة (إنه لا يوجد في السجلات، ولايوجد شاهد على قيد الحياة أفاد عن وجود وكيل إنكليزي أو خادم توفي بالطاعون في أي من الموانئ الساحلية، أو في أي جزء آخر من سورية أو آسيا الوسطى، سوى واحد فقط في الأستانة خلال قرن تقريباً).

صغيرة، ووضعها في بيوت فسيحة، يفضل أن لا يكون لها أسطح للاتصال ببيوت أخرى، لأنه رغم أن المرض لا يكون منتشراً جداً، فإن الاتصال بين البيوت التي يتم إغلاقها بانتظام مسموح أحياناً. أما إذا انتشر المرض بشدة، فإنه من الأسلم عدم المخاطرة بالاتصال مع الآخرين، ووضع حد لجميع الاتصالات من هذا النوع؛ ومن العبث الحيلولة دون قيام الاتصالات بين الخدم، نظراً لأن أبواب الأسطح تبقى مفتوحة، وتغري بعدم الالتزام بالأنظمة.

عند اقتراب لحظة الاعتكاف، يغلق الباب المطل على الشارع بالقفل، ومن دواعي الأمان أكثر، يجب أن يضع صاحب البيت ختمه ويؤمن المفتاح. ومنذ ذلك الحين لا يسمح بتلقي أي شيء من خارج البيت، سوى بعض المؤن من الطعام والرسائل. وفي الوقت نفسه، تغلق جميع النوافذ أو الممرات أسفل الدرج التي يمكن أن يجري الخدم من خلالها اتصالات غير مسموح بها. ويفتح ثقب مربع صغير في باب الشارع، ويثبت عليه أنبوب خشبي للحصول على الماء الذي يجلبه السقاءون يومياً في قرب، وتزود هذه الفتحة بباب انزلاقي مع قفل، لا يفتح أبداً إلا في حضور أحد الأوروبيين الذي يقوم بالإشراف على ذلك؛ وهو احتياط ضروري جداً، وذلك لأن السقائين من أبناء قوم الخدم، ومن المحتمل أن يهربوا أشياء إلى أصدقائهم في داخل البيت.

وتخصص نافذة فوق الدرج لاستلام المؤن والرسائل والتحدث مع أشخاص يقفون في أسفلها. وكلما كانت هذه النافذة مكشوفة من مكانها على أعين الأسرة في الأسفل، كانت أفضل لمنع مخالفات الخدم. ومن الأفضل أن تطل النافذة على الجزء الأقل ارتياداً من الخان أو الشارع، لتجنب المارين المتسكعين الذي تجتذبهم غرابة المشهد عند استلام المؤن.

يتألف الجهاز الذي يوضع على هذه النافذة من حبل، ويضع ياردات من سلسلة حديدية، وصنارة مثبتة في طرفها تصل إلى مسافة قدمين أو ثلاث أقدام عن الأرض، ويعلق دلو نحاسي على الصنارة لوضع المؤن فيه، وملقط لشدها من الدلو، وزجاجة خل، ودلو ماء، فضلاً عن قصبة طويلة مقسومة عند طرفها، لاستلام الرسائل مع صندوق من الكبريت المطحون للتطهير.

ويوظف شخص يبقى خارج البيت دائماً لنقل الرسائل وجمع الأخبار اليومية. توضع اللحوم والمؤن الأخرى في ماء ممزوج بقليل من الخل، وتعلق فترة من الزمن قبل أن يسمح للطاهي بطهيها. وتعالج الدواجن بالطريقة نفسها. أما الخبز والأشياء الأخرى التي قد تتضرر نتيجة غمسها في الخل، فتعرض لفترة من الوقت في الهواء الطلق قبل لمسها.

أما فيما يتعلق بالرسائل والأوراق، فيرش عليها الخل أولاً وهي معلقة على القصبة، ثم يتم تدخينها بالكبريت. ويستخدم البعض مركباً يستخدم عادة في لازاريتو في مالطا بدلاً من الكبريت.

أما آخر إجراء احتياطي فيتعلق بالقطط، التي تعتبر من أخطر الزوار بسبب تقافزها من بيت لآخر، ويتفق الجميع على حظرها، وعندما يعثر عليها وهي تتجول، تطلق عليها النار على الفور وترمى إلى الشارع بالملقاط لتفادي لمسها. وعادة ما يقوم

الأوربيون بحبس قططهم المفضلة في إحدى الغرف، أو ترسل إلى أحد أتباعهم في الجديدة للاعتناء بها إلى حين انتهاء هذا الإجراء الاحتياطي.

يعقب اعتكاف الأوروبيين وعدد من المسيحيين واليهود حدوث ركود تقريباً في التجارة. ويبقى الكثير من التجار المسلمين في بيوتهم، وإذا انتشر المرض بشدة، فلا يصل سوى عدد قليل جداً من القوافل من المدن الأخرى. إلا أن الأسواق العامة تبقى مفتوحة، ولا يحدث نقص في المؤن أبداً لأنها تزود بغزارة. ورغم أن الشوارع لا تكون محتشدة كثيراً كالعادة، فإن الناس لايتوقفون عن ارتيادها. ويزور المسلمون عادة المرضى، ويحضرون جنازات موتاهم كما هي الحال في الأوقات العادية. أما المسيحيون واليهود الذين لا يعتكفون فنادراً ما يزورون أصدقاؤهم المرضى، إلا في حالات استثنائية، ويرافق عدد قليل جداً منهم الجثمان إلى المقبرة، فبالإضافة إلى حاملي النعش يعيّن واحد من القساوسة لحضور الجنازات؛ ولا يقل عدد الخدم أو الأقارب الذين يقومون بالأعمال الضرورية الأخرى المتعلقة بالمريض، كما لو كان مرضاً عادياً.

بعد الخروج من الاعتكاف، فإن أول خطوة يتخذونها هي الخروج لتنشق الهواء بحضور خادم أو خادمين فقط، ويبقى الآخرون في البيت، وتبذل عناية للحيلولة دون اتصالهم بآخرين عند غياب سيدهم. إذ أن منظر الريف بعد فترة الاعتكاف تلك، تجعل من تلك الرحلات ممتعة جداً، رغم أن الحقول في ذلك الموسم تكون جافة جداً، ولا تشاهد الخضرة إلا في البساتين.

تتخذ نفس الإجراءات الاحتياطية التي كانت متخذة قبل اعتكافهم لمدة أسبوع أو أسبوعين بعد نزهاتهم الأولى، وينبغي الانتباه إلى إمكانية مصادفة أشخاص من عائلات أصيب أحد أفرادها أو أشخاص ناقهين من الطاعون، في الأسواق.

إن الإجراءات الاحتياطية الموصى بها هي:

١- في النظام الحياتي اليومي، ينبغي عدم الإفراط في كل شيء: الانفعالات العنيفة والتغوط بدون اعتدال.

٢- فيما يتعلق بالغذاء، الاستمرار في تناول الطعام كما في السابق، وعدم الإقلال من كمية النبيذ: فلعل كأساً أو كأسين يكون مفيداً، ولايعتبر استخدام السوائل الحامضة بكثرة في الصيف أمراً لذيذاً فحسب، بل كذلك أمراً مستحباً.

٣- عدم المغامرة والخروج في الصباح والصوم.

٤- عندما تكون في غرفة المريض، أو عند المرور بالقرب من الجثة، أو أي شيء يشتبه بالإصابة، احرص على عدم ازدراد اللعاب: وفي الوقت نفسه، التنفس من خلال طيات مزدوجة من منديل مندى بخل خالص.

٥- ضبط النفس بقدر الإمكان عند فحص النبض، أو في حالات أخرى تتطلب الاقتراب من سرير المريض، وعند الخروج من الغرفة غسل الفم والوجه واليدين بالخل.

٦- بعد العودة إلى المنزل، عقب زيارة المصاب أو بعد المرور في السوق، ينبغي خلع الثياب وتعريضها إلى الهواء، وقبل ارتداء ثياب جديدة، غسلها مرة أخرى بالخل.

٧- إن المادة الحافظة الوحيدة المستخدمة داخلياً عبارة عن جرعة كبيرة من مستخلص القلف مرتين في اليوم، واحتساء جرعة من النبيذ والماء وراءها، محمضة بإكسير الزاج.

أما بالنسبة للذين يفضلون القلف بشكل سائل، فيمكن أن تؤدي مادة قوية مستخلصة بالقلي هذا الغرض.

رغم أن الإجراءات الاحتياطية أعلاه لا تشمل أكثر مما ذكره المؤلفون الطبيون، فقد رأيت أنه من المفيد إيرادها هنا مرة واحدة. وقد يفيد بعضها بعض أفراد الجالية، عندما تضطرهم ضرورة العمل إلى تعريض أنفسهم لذلك سواء قبل أو بعد اعتكافهم. وحتى الآن فقد حالفت ملاحظاتي النجاح؛ إلا أنه تجدر الملاحظة في أثناء ذلك، أن خبرتي لم تكن واسعة، وأن بعض من تعرضوا لمخاطرة مماثلة معي ومع آخرين نجوا دون تطبيق أي من الإجراءات الاحتياطية المذكورة.

ملحق عن أهم الأطباء المؤلفين العرب

القسم الأول
الأطباء المؤلفين في ظل الخلافة العربية الإسلامية في بلاد المشرق

قبل الشروع في تقديم عرض موجز عن أهم الذين ألّفوا في الطب من العرب، يجدر أن نحيط علماً بالمخطوطة التي سأستشهد بها مراراً، والتي يبدو أن أبا الفرج قد أخذ منها جزءاً كبيراً من مخطوطته حول موضوع الأدب في كتابه *تاريخ الدول* (History of Dynasties). وعنوان هذه المخطوطة *تاريخ الفلاسفة*. ورغم أنها تورد قائمة بأعمال المؤلفين، فهي تركز غالباً على أعمال الترجمة التي جرت في بغداد عن الكتّاب الإغريق الذين ألفوا في الطب والفلسفة.

وعندما سمعت مصادفة عن وجود مخطوطة عن هذا العمل في حلب، حصلت، وبشيء من الصعوبة، على أذن للحصول على نسخة منها، إلا أني لم أدرك قيمتها إلا بعد سنتين، عندما طلب مني القنصل الفرنسي، بعد تلقيه رسائل من باريس، أن أسمح له بنسخ نسخة من مخطوطتي لصالح مكتبة الملك (King's Library).

إن كتاب *طبقات الأطباء* لابن أبي أصيبعة معروف جيداً في أوروبا. وكان **أبو** أصيبعة قد عاش في حوالي سنة ١٢٧٣م (بعد قرن واحد من مؤرخ الفلاسفة). ولم **يذكره** كثيراً الدكتور فريند (Dr. Friend)، الذي أضاف إلى المجلد الثاني من *تاريخ الطب* **حياة** 'جبرائيل بختيشيوع' الذي قام Salomon Negri بترجمته عن أبي أصيبعة.

وقد انتاب فريند الاستياء من الاستفادة التي كان يتوخاها من أبي عصيبة. 'فقد وجد أنها محشوة بقصص غريبة تافهة'، وأنه لايساعدنا في فهم التاريخ الحقيقي للطب إلا بقدر ضئيل، ويجعلنا نرى التكريم المسرف والعطايا التي كان يتلقاها الأطباء آنئذ من الخلفاء (تاريخ الطب، المجلد٢، ص٣٥) إلا أنه بالحكم على النماذج التي أوردها المؤلف عن حياة جبرائيل، فإن الكثير من الحكايات التي رواها المؤلف ليست تافهة وفق عادات وتاريخ تلك الأزمنة. وقد تبدو بالفعل غير ذات صلة لشخص يبحث عن موضوع آخر، غير أنه من المؤكد أن موت الوزير المشهور جعفر، والعلماء والمثقفين في منزل أم جعفر، والأفكار التي كانت تعرض في بعض الأحيان مثيرة حقاً للاهتمام.

إلا أنه يمكن العثور على عرض أشمل ومرضٍ أكثر عن تاريخ أبي أصيبعة في رسالة ريسك (Reiske). ونظراً لأنها (كما أعتقد) مبحث نادر، فقد قمت بنسخ موجز عن العمل عن مخطوطة ليدن، التي بعد تدقيق عابر لمخطوطة بودليان Bodleian (Hunt، رقم ١٧١) بدت لي أنها في غاية الدقة.

اسم المؤلف: ابن أبي أصيبعة.

عنوان الكتاب: عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

ثمة ثلاث مخطوطات عن هذا العمل لدى بودليان ومارش وبوكوك. ويقسم تاريخه إلى خمسة عشر فصلاً.

وثمة عمل آخر للمؤلف نفسه لم يطلع عليه ريسك، غير انه يبدو أنه كان مفيداً للدكتور فريند أكثر من كتاب *طبقات الأطباء* وهو بعنوان *نوادر التجربات*.

اسم المؤلف: أهرون القس الاسكندراني

عنوان كتابه *الكنائس**.

يقال إن أهرون القس كان قد كتب بحثه الشامل الجامع باللغة السريانية. إلا أن أبا الفرج يقول صراحة في كتابه 'التأريخ السرياني' بأنه كتبه باليونانية. ويقول المؤلف إن بحوزته عمل أهرون بالسريانية، الذي يضم (٣٠) مبحثاً، وقد أضاف إليها سرجس مبحثين آخرين. ويذكر في موقع آخر: 'بأن سرجس كان قد ترجم بحث أهرون إلى اللغة العربية في عهد الخليفة مروان (حوالي سنة ٦٨٣)'.

يستدل من كلمات أبي الفرج في المقطع الذي أشار إليه الدكتور فريند (المجلد١ ص٨) 'موجود عندنا بالسريانية' أن المؤلف كتب بالسريانية، ولكن جمع بشكل رئيسي من اليونانية.

تعزو مخطوطة 'تاريخ الفلاسفة' (ص١١٧) الترجمة العربية بالإضافة إلى مبحثين آخرين إلى المؤلف نفسه، الذي يدعي 'ماسرجس' ولعل ذلك خطأ الناسخ لأنه مما لاشك فيه أن الكتابين الآخريين كانا من تأليف سرجيس إلا أنه ليس من المحتمل، أن يكون من ترجم دائماً إلى السريانية عن الإغريقية أن يترجم كتاباً سريانياً إلى العربية.

وعاش أهرون في الاسكندرية في حوالي سنة ٦٢٢م وهو معاصر لبولوص أجيتنا (Poulus Aegineta). ويبدو أن كتاب أهرون 'الكنائس' قد ضاع، وعلى الأقل لا يوجد مخطوط عن ذلك المؤلف في المكتبات الأوروبية، غير أن مقتطفات كبيرة من الكنائس محفوظة في كتاب'الحاوي' للرازي.

جرجس بن بختيشوع

كان أول شخص معروف في بغداد ينتمي إللا عائلة قدمت للخلفاء سلسلة من الأطباء لمدة تزيد على قرنين. وقد أحضر جرجس من جنديسابور إلى بلاط المنصور لكي يشرف على صحة الخليفة الذي كان متوعكاً. وبعد أن حصل على مكافئة جليلة لقاء خدماته، سمح له بالعودة إلى أسرته بسبب مرضه. وكان قد رد على المنصور، الذي طلب منه أن يعتنق الإسلام وذكر له أنه سيكون له مكان في الجنة، بقوله: 'لا، فأنا راض للذهاب إلى أي مكان ذهب إليه آبائي وأجدادي، سواء إلى الجنة أو إلى النار'.

---

* كناش أو كنّاشة (جمع كنانيش وكناشات): مجموعة أوراق تجعل كالدفتر تقيد فيها الفوائد وغيرها (المترجم).

وبقي ابن جورج (يطلق عليه المؤرخون اسم بختيشوع أو أبو جبريل) يعتني بالمشفى في جنديسابو عندما استدعي أبوه إلى بغداد، إلا أنه اضطر للمجيء إلى بغداد بنفسه، بعد أن طلبه كل من الخليفة المهدي، ثم هارون الرشيد في حوالي ٧٨٧م (مخطوطة التاريخ، ص١٤٩).

كان جبريل ابن بختيشوع، الذي أصبح شخصية بارزة فيما بعد، قد أوصى به والده إلى جعفر، ثم قدم إلى الخليفة الذي انضم إلى ماسوية وأطباء آخرين لخدمة الخلفاء. وبقي في ذلك المنصب حتى الفترة الأخيرة من حكم المأمون، إذ لم يعد يقوى على العناية بالخليفة خلال حملته ضد الروم بسبب مرضه، وأرسل ابنه عوضاً عنه، وتوفي بعد ذلك بفترة وجيزة في حوالي سنة ٨٢٩ (مخطوطة التاريخ، ص٢٠٤).

لذا كان جبرائيل هذا ثالث طبيب في أسرة بختيشوع، وليس الثاني كما ذكر هيربيلوت، الذي كان مخطئاً في ذلك.

أما ابن جبريل، المعروف باسم بختيشوع ابن جبرائيل، فقد كان الرابع في سلسلة العائلة، والشخص الذي ألمح إليه أبو الفرج في الدعابة بين ماسوية وبختيشوع في معسكر المستعصم، الذي يرويها (ص. ١٥٤، تاريخ الدول) هذا إذا صحت التواريخ، وذلك لأن جبريل كان متوفىً في ذلك الوقت، ولذلك فإن المؤرخ الذي يروي القصص في ترتيب تأريخي، يتحدث هناك عن الابن. فقد كان ابن جبرائيل طبيب الخليفة المتوكل الذي تبوأ الخلافة في ٨٤٧، إلا أنه عمل قبل ذلك في خدمة المأمون. وقد توفى في ٨٦٩ (مخطوطة التاريخ ص١٥٥) وأنجب ابناً اسمه عبد الله، إلا أنه ليس المؤلف الذي سيذكر لاحقاً.

أما بختيشوع بن يحيى، الطبيب التالي المشهور من الأسرة، وأحد كبار أطباء الخليفة المقتدر الذي قتل في سنة ٩٣٢م. كما تشير المخطوطة (ص ١٥٦) إلى وجود شخص آخر من عائلة بختيشوع على أنه طبيب الخليفة المتقي الذي تسلّم الخلافة في سنة ٩٤١.

ولم تصل أي من أعمال هؤلاء الأطباء المسيحيين إلينا، باستثناء بعض الفقرات المتناثرة التي وردت في مجموعة المؤلفين اللاحقين ولاسيما الرازي.

إن الرسالة التي مازالت موجودة حول فصائل الحيوانات، أو استخدامها في الطب، كانت من تأليف واحد من أسرة بختيشوع يدعى عبد الله بن جبريل. ويرتاب هيربيلوت بأنه كان مسلماً من اسمه، وذلك لأن المسيحيين كما يقول لا يُطلقون اسم عبد الله على أولادهم، إلا أنه مخطئ تماماً في هذا الأمر، وذلك لأن الاسم ليس أقل شيوعاً عند المسيحيين مما هو عند المسلمين.

(كما ذكرنا أعلاه) فقد كان اسم حفيد جبريل المشهور، عبد الله الذي توفى في عهد المقتدر. ولا يبدو أنه كان طبيباً، بل إنه أنجب طبيباً صغيراً اسمه جبريل الذي تسلم مركزاً مرموقاً في الطب، وألف عدة كتب وتوفى في عام ١٠٠٥ عن عمر يناهز ٨٥ سنة. ولعله ابن جبريل هذا هو الذي ألف كتاباً عن الحيوانات.

يوحنا بن ماسويه

تقدم مخطوطة تاريخ الفلاسفة (ص٥٨١) عرضاً طويلاً عن ماسويه، ومنه استمد أبو الفرج معظم ما يورده في تاريخه حول هذا الإنسان الفذ.

كان ماسويه أحد أطباء هارون الرشيد، واستمر في خدمة الخلفاء الذين أعقبوه حتى زمن المتوكل الذي بدأ حكمه في سنة ٨٤٦. ويوجد فراغ في مخطوطتي في المكان الذي ينبغي ذكر تاريخ وفاته، ويترك أبو الفرج هذا الأمر غير مؤكد. ويحدد أبو أصيبعة (فريند، التاريخ، ص٢٤٩) في سنة ٨٦٥. وكان جبرائيل بن بختيشوع معاصره في بلاط الرشيد، إلا أنه لا يبدو من المحتمل أن ماسويه كان تلميذه، كما لا يوجد أي سبب، من المخطوطة التي تورد قائمة بأعماله، يدعو للظن بأنه لم يكتب بالعربية.

يقدم Casiri قائمة بأعمال ماسويه. ومن بين الأعمال التي تعزى إلى هذا المؤلف في الترجمات اللاتينية، يرد بعضها في القائمة أعلاه، إلا أنه من المحتمل أن تكون قد أقحمت فقرات أخرى بينها، وقد أحدثت اضطراباً وتشويشاً، بحيث جعل البعض يظن بوجود مؤلفين مختلفين يحملان الاسم نفسه. ويبدو أن M. le clerc يذهب إلى هذا الرأي، ويعرضه كما نقله عن Alpagus، المترجم المشهور، بأنه لم يعثر على أصل الأعمال المنسوبة لماسويه في المشرق، وأن الكتابات الحقيقية لذلك المؤلف لم تترجم على الإطلاق (تاريخ الطب). إلا أن Alpagus كان مخطئاً في هذا الأمر، وذلك لأن الأبحاث حول الأدوية المسهلة وحول تصحيح المسهلات ومياه الشعير وربما حول الترياق (ولكن بعنوان مختلف) توجد في المخطوطة قائمة بأعمال ماسويه.

وترجم ماسويه كتابه غرابادين Compendium Secraforum والكلمة من أصل فارسي قرابازين. وأول كتاب منه عبارة عن كتاب توصيف الأدوية، ويحتوي على تعليمات لتحضير العلاجات الداخلية والخارجية. ويتطرق الكتاب الثاني إلى تطبيق هذه العلاجات وعلاجات أخرى وخاصة الأمراض، تبدأ بالترتيب بدءاً من أمراض الرأس. وهذا الكتاب الأخير منقوص، ويتوقف عند أمراض القلب. ويقدم بطرس أبونوس ما تبقى.

لا يمكن العثور على عنوان قرابازين في مخطوطة الفهرس عن أعمال ماسويه، إلا أنه يوجد تحت عنوان 'التام والكامل'. ولا يوجد في الكتاب الأول مراجع عن المؤلفين، أما في الكتاب الثاني فيرد اسم الرازي بين أسماء أخرى، الذي لا يمكن أن يتجاوز عمره أكثر من عشر سنوات عندما توفى ماسويه.

تجدر الملاحظة أنه في كتاب الأدوية المسهلة (الذي مما لا شك فيه أصلي) لا يرد اسم الرازي، وإذا عاش ماسويه حتى عام ٨٦٥، رغم أنه يقال إن سرافيون عاش حتى أواخر القرن التاسع، فقد يكون معروفاً لديه. وقد طبعت أعمال ماسويه التي أشرت إليها في البندقية (١٦٠٢).

حنين ابن اسحاق أبو زيد العبادي

توفى هذا المترجم المشهور الذي ترجم لأبقراط وجالينوس وعدد آخر من الكتاب الإغريق في سنة ٨٨١. وكانت بعض ترجماته بالسريانية وأخرى بالعربية. وخلف ابناً وعدداً من التلاميذ الذين أصبحوا مترجمين. وتوجد نبذة عن حياته وأعماله في مخطوطة تاريخ

الفلاسفة (ص٢٦٩) الذي قدم Casri ملخصاً عنه.

ولم أعثر على أي عمل من بين أعمال حنين الطبية مترجماً إلى اللاتينية، إلا أن أسئلته الطبية، ومباحث عديدة أخرى مازالت تقرأ في المشرق؛ وتتوفر مخطوطات عن أسئلته وخاصة في المكتبات الأوربية. كما أن ترجماته عن اليونانية أو على الأقل تلك التي اسمه عليها منتشرة في حلب.

إسحاق بن حنين

كان أحد أبناء حنينن، وعمل بالترجمة بشكل رئيسي. وتوجد مخطوطة من عمله في مكتبة بودليان، إلا أنني لم أعثر على أي من أعماله في الفهارس الأجنبية.

يعقوب بن اسحاق الكندي

كان الكندي واحداً من أشهر المسلمين الذين ألفوا في الطب، وقد استمد شهرته من الأعمال العديدة حول فروع الفلسفة والرياضيات وعلم الفلك وما إلى هنالك، بالإضافة إلى الطب. وبرز في عهد المأمون، وكان معاصراً لأبي معشر، إلا أنه لم يعش عمراً مديداً. وتقدم مخطوطة تاريخ الفلاسفة (ص٥٦٢) فهرساً عن أعماله، يمكن الإطلاع على ترجمة منها في فهرس الأسكوريال (Escirial Catalogue).

ولم أعثر على المبحث المنسوب إليه في مخطوطة الفهرس، لأن آخر مقالة فيه، وهي الواردة في القسم الطبي قد لاتكون هي نفسها؛ على الأقل يُفهم بأن العنوان حح‌قرابازين‌حح بأنه يعني عملاً مختلفاً تماماً عن عمل الكندي وهو ليس كتاباً عن توصيف الأدوية، بل عمل منقح عن نظرية فلسفية، يرى ابن رشد أن الكندي أخطأ في فهم ماقصده غالينوس. انظر فريند (التاريخ، المجلد الثاني، ص١٢٢) والعمل نفسه مؤلف من عشر أو اثنتي عشرة صفحة.

ويزعم هيربيلوت أن الكندي يهودي وأنه اضطهد بسبب ذلك، وهو أمر مناقض تماماً لما ورد عن نسبه في مخطوطة ´تاريخ الفلاسفة´ (ص. ٥٦٢) إذ جاء فيها أن جده الأكبر كان _فيما يقال– واحداً من الصحابة.

يوحنا بن سرافيون

عنوان كتابه: الكناش الكبير والصغير

لم يأت أبو الفرج على ذكر سرافيون، ولم أجد اسمه عند هيربيلوت. والعصور التي افترضها المؤرخون خاطئة. فالسنة ٧٤٢ هي أبكر من قرن، و١٠٦٦ أكثر بقرنين تقريباً. ويفترض الدكتور فريند بأنه عاش نحو أواخر القرن التاسع، ويذكر (التاريخ، المجلد٢، ص٤٢) بأنه كان ينسخ غالباً عن الكسندر تراليان، وهو مؤلف يبدو أنه لم يطلع على الكثير من أعمال العرب. وتحتوي مخطوطة تاريخ الفلاسفة (ص٥٨١) على عرض مقتضب جداً عن سرافيون لكنها لم تذكر أين عاش، أو متى توفي،بل تورد أنه ألف مجموعته الضخمة التي تضم اثني عشر كتاباً، والمجموعة الأصغر تضم سبعة كتب باللغة السريانية، وهي التي ترجمت فيما بعد إلى العربية. ويذكر Casri أسماء المترجمين

العرب (المجلد١، ص٢٦١) غير المذكورين في مخطوطتي.

ومن ذلك يبدو أن الدكتور فريند كان مخطئاً في رأيه بأن سرافيون كان كاتباً عربياً. وبالفعل فإن الكتاب الأول الذي ألفه كان بالعربية، كما يلاحظ بأن أبي الفرج لا بد أن تجاوز سرافيون.

إن المخطوطة الوحيدة التي عثرت عليها في الفهارس الأوروبية هي في فهرس الإسكوريال الذي يضم جزءاً صغيراً من الكناش. ولم أصادف أياً من أعمال هذا المؤلف في المشرق.

محمد بن زكريا أبو بكر الرازي

يرد في مخطوطة التاريخ (ص٤٠٨) أن الرازي توفي في سنة ٩٣٢ (٣٢٠ هجرية) كما تذكر المخطوطة مؤلفاً آخر ذكر تاريخاً آخر عن وفاة الرازي، واستناداً إلى هيربيلوت فقد توفي قبل عشر سنوات. ويؤكد ليو الإفريقي بأنه مات في قرطبة في سنة ١٠١٠ (٣٨٨هـ)، وهو أمر (وهو شائع معه) يثبت أنه مخطئ فيه. إذ أن الأخطاء في الأسماء العربية غالباً ما تؤدي إلى أخطاء في التأريخ، ولاحظ Casri بحق أن الأميرالمنصور الذي أهداه الكتاب، لم يكن المنصور في الأندلس (الذي عاش بعد زمن الرازي بفترة طويلة) والمنصور المشهور (الذي عاش قبل قرنين) بل المنصور بن اسحق، والي الري، في عهد عمه الخليفة المتوكل.

تورد مخطوطة تاريخ الفلاسفة رواية عن الرازي، مع فهرس عن أعماله. وذكرت أنها استمدت من فهرسه الخاص، وقام Casri بترجمة كلتيهما. ويجدر بنا الملاحظة أنه يوجد في دليل طبعة الرازي الصادرة في باسيل في ١٥٤٤، عدة عناوين غير واردة في مخطوطة التاريخ.

إن مبحثه حول الجدري الذي أصدره بالعربية واللاتينية المرحوم Mr. Channing معروف جيداً في إنكلترا، ويضم عدداً من الملاحظات الهامة. ولدي الكتاب المجموع مع المخطوطات الأخرى في المشرق، وبشكل عام تبين أن القراءات كلها كانت في غاية الدقة.

علي بن العباس الهجوسي

عنوان كتابه: الملكي أو كامل الصنعة الطبية

اشتهر علي بن العباس بعد الرازي بحوالي أربعين أو خمسين عاماً، وألف 'الملكي'، كما يذكر في حوالي عام ٩٨٠، أي قبل حوالي سنتين من وفاة الأمير الذي أهداه كتابه. وقد ذكر الدكتور فريند سهواً الأمير الخليفة. إلا أنه كان 'عداد الدولة' الشهير، أمير فارس، وفيما بعد أمير الأمراء للخليفة 'التاجي'. ولا تذكر مخطوطة التاريخ زمن وفاة علي. وتذكر المخطوطة أن الأطباء في ذلك الوقت كانوا يقبلون على قراءة كتاب علي بن عباس بشكل كبير، وحافظ على مكانته حتى ظهور كتاب القانون لابن سينا فأصبح عندها مهملاً.

وكان ستيفن الانطاكي قد ترجم كتاب 'الملكي' في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية، وطبع في البندقية في ١٤٩٢ وفي ليدن عام ١٥٢٣. إن المخطوطات العربية عن علي بن العباس معروفة وشائعة، ويبدو أنه بذل جهداً غير عادي للحفاظ على أسلوب أدبي متميز في عمله.

وبعد أقل من قرن واحد من وفاة علي بن العباس، قام أحد الرهبان في أوروبا بترجمة كتابه إلى اللاتينية باسم آخر، وعزاه إلى نفسه، وعندما اكتشف أمر هذا التزوير، لم يمنع ذلك من انتقال العمل إلى مؤلف آخر.

كان قسطنطين أفريكانوس (الإفريقي) من مواطني قرطاج، قد أمضى سنوات كثيرة من حياته في بغداد، حيث أتقن اللغات والعلوم المشرقية. وبعد عودته من المشرق، أصبح سكرتيراً لروبرت غوسكارد (أصبح دوق أبوليا في ١٠٦٠) لفترة من الزمن، ثم أصبح راهباً في دير م. كاسينو حيث قام بجمع وترجمة عدة أعمال طبية.

ويعتقد الدكتور فريند، إنه أول من أدخل الطب الإغريقي أو العربي إلى إيطاليا. إلا أنه إذا كان لتخمين الدكتور (فريند) أساس من الصحة فإن الطب العربي لا بد وأن يكون قد وجد طريقه إلى تلك البلاد قبل ذلك بفترة طويلة، لأنه يعتقد أنه كان يوجد أساتذة عرب وعبرانيون ولاتين في الطب في ساليرنو التي اشتهرت في منتصف القرن السابع (أو الثامن) وأسس فيها تشارلز الكبير معهداً في سنة ٨٠٢.

أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا

توفي ابن سينا في همذان في سنة ١٠٣٦، عن عمر يناهز الثامنة والخمسين. وخلافاً لجميع التواريخ، يضعه بعض المؤرخين الطبيين في القرن الثاني عشر، ويقول ليو الإفريقي إنه عاش حتى بلغ الثمانين من العمر. وتحتوي مخطوطة تاريخ الفلاسفة (ص٦٢٣) رواية كاملة جداً عن ابن سينا كما قدمها تلميذه جورجياني، الذي عاش معه سنوات عديدة، ويعتقد أن جزءاً من روايته مستمد من ابن سينا نفسه.

عندما هرب ابن سينا من همذان متنكراً في شكل أحد الدراويش، كان يرافقه تلميذه الوفي الذي لا يعرض أعماله الأدبية بالتفصيل فحسب بل يتحدث كذلك عن ساعات فراغه وتساليه. كما يقدم رواية عن المرض الذي أصيب به في أواخر حياته ويبدو أنه الدوسنطاريا، وقد تعرض إلى عدة انتكاسات بسبب انهماكه في العمل إلى حد مفرط. وقد أصيب بآخر إصابة بالمرض وهو في طريقه من أصفهان إلى همذان ليلتحق بعلاء الدولة، وبعد وصوله إلى تلك المدينة بفترة وجيزة، وجد أن الدواء لم يعد يجدي نفعاً معه، فتوقف عنه واستسلم لمصيره وقدره.

توجد في مقدمة الطبعة اللاتينية عن ابن سينا التي طبعت في البندقية في عام ١٦٠٦ نبذة عن حياة المؤلف، وهي ترجمة لاتينية من الإيطالية عن مخطوطة عربية كانت قد جلبها من سورية أندرياس ألباغوس. وكان المترجم الأول مرقص فاضل، وهو مسيحي من دمشق وكان مترجماً للتجار البنادقة، وهو أقل نجاحاً من بني قومه في أثناء حياة جبرائيل بختيشوع. فالترجمة كلها مشوشة ومضطربة، وأسماء الأشخاص والأماكن فيها محرفة ومشوهة بحيث يصعب التعرف إليها. إذ إن اسم التلميذ الذي يعتقد

أنه كتب سيرة حياته تحول من الجوزجاني إلى سروفانوس، بينما اسمه الحقيقي أبو عبيد الجوزجاني. إلا أن أموراً كثيرة عن حياته كان قد حذفها أبو الفرج موجودة في مخطوطة التاريخ.

وبسبب التضليل الذي سببه هذا المترجم، وقع الدكتور فريند في خطأ (تاريخ الطب ص٧١) بأن ابن سينا توفى في المدينة. وبالإضافة إلى أن هذا الأمر يخالف رواية المؤرخين العرب، بل وحتى (في المخطوطة) عن سرفانوس نفسه، فليس من المحتمل أن يكون قد توفى في المدينة، بأن جثمانه كان قد نقل إلى همذان، لأنه رغم وجود أمثلة عن بعض الخلفاء وكبار الناس الذين كانوا يدفنون على مسافات بعيدة من المكان الذي توفوا فيه، لم تكن هذه العادة شائعة بين المسلمين.

تتوافر المخطوطات عن ابن سينا بالعربية في حلب، وهو موجودة كذلك في العديد من المكتبات الأوربية.

علي بن رضوان بن علي بن جعفر

يطلق المؤلفون اللاتينيون على ابن رضوان اسم Haly Redohan أو Eben Rodon ، وقد توفي في حوالي عام ١٠٦٣ (٤٦٠هـ). وتروي مخطوطة تاريخ الفلاسفة شيئاً عن هذا المؤلف (ص٦٧١)، ويعثر على العديد من القصص المتعلقة به في كتاب أبي الفرج (تاريخ الدول، ص٢٣٤). وقد ألف العديد من الكتب في الفلسفة وعلم الفلك، وكتب تفاسير وتعليقات عن كتب غالينوس، الذي ترجم إحداها إلى اللاتينية.

وتوجد مخطوطات أعماله في مكتبات عديدة.

غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المتطبب*

ألف أبو الفرج خلاصته الجامعة عن التاريخ العام، التي قام بوكوك (Pocock) بترجمتها، بالإضافة إلى العديد من الأعمال الطبية، بيد أنه لم يحفظ منها سوى القليل، بل لم يبق منها شيء. وكان قد ولد في سنة ١٢٢٦ وتوفى في سنة ١٢٨٦.

توجد رواية خاصة عن هذا المؤلف في المكتبة المشرقية في الفاتيكان (المجلد٢، ص٢٤٥). وعند غزو التتار في عام ١٢٤٣، حال حادث دون هربه هو ووالده (الذي كان طبيباً) من حلب إلى Malatia، مسقط رأسه، إلا أنه غادر إلى طرابلس في العام التالي، حيث رُسِم مطران عويا (Guba) ثم Lucaba ثم على حلب، وأخيراً أصبح جاثليق (كبير الأساقفة) في المشرق، ومات وهو في هذا المنصب.

توجد قائمة كاملة بأعماله في مكتبة الفاتيكان، ومن بين أعماله الطبية:ترجمة سريانية عن كتابين لابن سينا، وترجمة لديسكوريدس، وكتاب عن موضوع الدواء، وتعليق على حكم أبقراط بالعربية، ومختصر عن كتاب أسئلة حنين والرقم ٢٦ الذي هو عبارة عن عمل ضخم يضم مجموعة من آراء الأطباء. وبالإضافة إلى كتابه في التاريخ المذكور، كتب تأريخاً سريانياً يضم معلومات تاريخية كثيرة.

* يبدو أنه هو أبو الفرج الذي يشير إليه في معظم كتابه (المترجم).

يذكر بوكوك أنه لاحظ في إحدى مخطوطات 'تاريخ الدول' أن اسم المؤلف مذكور في الهامش بأنه ابن القف المسيحي، ويذكر Casiri وجود مؤلف يستشهد كثيراً بأبي الفرج اسمه ابن القف؛ إلا أنه من المحتمل أن ابن القف شخص آخر (مكتبة باريس، مخطوطة ١٠٩٧، تعليق على غالينوس).

أبو الفرج بن يعقوب بن اسحاق المعروف بابن القف المسيحي

لا شك أن هذا المؤلف ليس نفس المؤرخ 'أبو الفرج' الذي كان اسم أبيه أهرون، إلا أنه من المحتمل أن يكونا معاصرين لبعضهما. وقد جلبت معي من المشرق أحد أعماله الضخمة حول الجراحة يقع في ثلاث مجلدات بعنوان 'العمدة في الجراحة'. ويوجد في المكتبة المشرقية في الفاتيكان، (المجلد الأول ص٦٢٧)، من بين المخطوطات التي جلبها Assemani إلى روما، كتاب طبي لنفس المؤلف. ولا يوجد تاريخ عنه في مخطوطتي، كما أنه ليس من الواضح ما إذا كان الكتاب هو نفسه أو كتاباً آخر، إلا أن اسم المؤلف هو نفسه بالضبط، ورغم أن مخطوطة Assemani كانت قد كتبت قبل عدة سنوات من وفاة أبي الفرج المؤرخ، فيمكن الاستنتاج أنه من سكوت Assemani أن ابن القف ليس غريغوري أبو الفرج. وكان كتاب الجراحة لابن القف هذا يحظى بتقدير كبير في حلب.

علاء الدين علي بن النفيس

اشتهر ابن النفيس، الذي ألف كتاباً يحظى بتقدير عظيم في المشرق بعنوان 'الموجز في الطب'، في القرن الثالث عشر، في حوالي سنة ١٢٨٣. وكتابه عبارة عن موجز شامل عن الطب مستخلص بصورة رئيسية عن ابن سينا وعلي بن عباس، وقد شرحه وعلق عليه الكثير من المؤلفين.

إن أعمال هذا المؤلف معروفة في المشرق وفي المكتبات الأوروبية، ويوجد ما لا يقل عن ست مخطوطات في مكتبة بودليان. وقد أحدث تعدد تسمية هذا المؤلف، اضطراباً لدى مفسريه في بعض الأحيان.

القسم الثاني
عن الأطباء المؤلفين في ظل الخلافة العربية الإسلامية في الأندلس

إن كتابات الأطباء في المشرق (آسيا) الذين لم يذكرهم ابن زهر، حدت بالدكتور فريند إلى الاعتقاد بأن ثمة ارتباطا ضعيفاً كان يوجد بين الخلافتين الإسلاميتين في المشرق والمغرب؛ كما يذكر أن أعمال ابن زهر التي أحدثت ضجة كبيرة في أوروبا 'لم تكن معروفة، بل حتى لا يعرفها العرب في المشرق حتى اليوم'. ويعتقد بأن العداوة اللدودة بين الأمويين والعباسيين لا بد أن تكون قد أعاقت قيام تجارة بين الخلافتين، وبأن المؤلفين في المشرق بدؤوا يعرفون في الأندلس في الشطر الأخير من القرن الثاني عشر (تاريخ الطب المجلد٢ ص١١٢).

إن عدم ذكر ابن زهر أسماء المؤلفين في المشرق بوضوح، لا يعني أنه لم يكن يعرف أعمالهم. فهو لايذكر أعمال علي بن العباس والعديد من أبحاث الرازي الكثيرة وأسماء الذين أخذوا عنهما. وقد يعزى عدم ذكر ابن زهر لهما إلى خطة عمله التي لم تتطلب ذكر استشهادات صريحة وليس إلى عدم معرفته بالكتابات التي يبدو واضحاً أنه أخذ عنها بعد إجراء مقارنة بين بعض الفقرات، والتي يشير إليها غالباً بذكر الحكماء (الأطباء). كما يلاحظ بأن أبا زهر استشهد في بعض الأحيان بأبقراط وأرسطو وغالينوس، الذين يعتقد أن عرب الأندلس لم يطلعوا عليهم إلا عن طريق الترجمات المشرقية. وإذا كانت هذه الترجمات قد وجدت طريقها إلى الأندلس، فيمكن الاعتقاد بأن كتابات الأطباء المشرقيين قد وجدت طريقها كذلك بنفس الأسلوب. أما القول بأن أعمال ابن زهر لم تكن معروفة بالنسبة للعرب في المشرق، فلا يعرف على أي أساس استند الدكتور فريند في تأكيد ذلك، وأعتقد أنه أخطأ في الواقع، وذلك لأنه يقال إن الكثير من مخطوطات أعمال هذا المؤلف الموجودة في المكتبات الأوروبية، قد جلبت من المشرق.
إلى أي مدى يمكن أن تكون العداوة بين الأمويين والعباسيين التي يتحدث عنها الدكتور فريند قد أثرت على التجارة بين الخلافتين في المشرق والمغرب، وأعاقت في الواقع جميع الاتصالات والعلاقات الأدبية بينهما، أمر لا يمكن معرفته إلا من تاريخ ذلك الزمن.
ولكي نلقي الضوء بوضوح أكثر على حـحمدخل الأدبـحـح بين العرب في الأندلس، فقد تكون بعض الملاحظات حول حوليات ذلك البلد المتعلقة بوجهة النظر هذه، مقبولة بالنسبة لأولئك غير الضالعين في ذلك الجزء من التاريخ الذي لم تتم دراسته جيداً.

منذ فتح العرب أسبانيا في سنة ٧١٢ وحتى انفصال ذلك البلد تماماً عن الخلافة في المشرق في سنة ٧٥٩، كان يحكم هذا الإقليم قواد يقوم الخليفة بتعيينهم أو تثبيتهم، وخلال هذه الفترة الممتدة على مدى ٤٧ سنة، كان العرب في الأندلس مشغولين دائماً تقريباً إما في حروب مع جيرانهم الإسبان أو في حروب أهلية بين بعضهم بعضا.

وكان موسى بن نصير عامل بني أمية على أفريقيا، هو الذي تم إعداد وإكمال الحملة لفتح الأندلس برعايته، قد استدعاه الخليفة فعاد إلى سورية محملاً بالغنائم، وأثنى على تلك البلاد، فحدا ذلك بعدد من العرب في المشرق للتوجه إلى تلك البلاد سعياً وراء الثروة (كاردون، تاريخ أفريقيا وأسبانيا، المجلد الأول، ص١٠٤، باريس ١٧٦٥).

إلا أنه رغم أن الكثير من العرب في آسيا وأفريقيا تشجعوا في ذلك الوقت على مغادرة مسقط رأسهم، وأخذت أعداد المهاجرين تزداد، لم تكن حالة الاضطرابات في ذلك الوقت ملائمة لازدهار الآداب، كما لم يحرز الأدب في المشرق تقدماً كبيراً.

كان من النتائج المباشرة للقضاء على الأسرة الأموية صعود العباسيين إلى العرش الإسلامي في عام ٧٤٩. واستمر يوسف الفهري، الذي نصّبه مروان آخر الخلفاء في المشرق من السلالة التي أسقطت، والياً على الأندلس، بعد أن حول ولاءه، وأبقاه الأمير الجديد في منصبه.

اعتبر العرب في الأندلس اغتصاب العباسيين للخلافة في المشرق على أنه شيء فظيع، وبعد خمس أو ست سنوات من الثورة، وصلتهم أنباء بأن عبد الرحمن، أحد الأمراء الذين بقوا على قيد الحياة من السلالة الأموية قد لجأ إلى أفريقيا، فأرسلت بعض القبائل الهامة ممثلين عنها لدعوته لتسلم الولاية. وقبل عبد الرحمن هذا الطلب برحابة صدر، وقاوم الفهري بكل ما يملك من قوة، إلا أنه وقع أخيراً ضحية الفاتح الذي بعد أن تسلم الحكم اتخذ لقب الخليفة في عام ٧٥٩ م، وثبت المقر الخلافي له في قرطبة (Cardonne، المجلد١، ص١٩٠).

وهكذا انقسمت الأندلس، التي أخذ منها الخلفاء الأمويون أموالاً عظيمة وإلى الأبد عن الخلافة في المشرق، أما العباسيون لم يبذلوا جهوداً كبيرة لاستعادة ولاية هامة جداً، رغم الخسارات التي منوا بها. وفي سنة ٧٦٤م، حدث غزو من أفريقيا بقيادة الخليفة المنصور، وحدثت محاولة ثانية بعد ثلاثة عشر عاماً في ظل المهدي، إلا أن كلتا الحملتين باءتا بالفشل؛ وقد أرسل رأس قائد الحملة الأولى إلى المنصور، ثم إلى مكة؛ وقد استشاط عبد الرحمن غضباً من الحملة الثانية، إلى حد أنه فكر في شن حملة انتقامية إلى الشام (" Cardonne التاريخ"، المجلد١، ص١٩٤ و ٢٠٤).

إن تاريخ حكم أول ثلاثة خلفاء في الأندلس الذين توفى آخرهم في ٨٢٢م، لا يقدم أكثر من سلسلة من الثورات الأهلية المتعاقبة، واستمرت الحروب بقسوة متبادلة بينهم وبين الأمراء الإسبان. وقد عرف عن "الحكم"، ثالث أولئك الخلفاء برعايته للمعرفة. وكان عهد عبد الرحمن الثاني لا يقل في فتنة عن عهود الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه. غير أنه وجد الوقت الكافي لتوطيد السلام. فقد كان يمضي وقت فراغه في محادثة العلماء، وكان مغرماً على نحو خاص بالفلسفة والشعر. وتجدر الملاحظة أنه في عهد هذا الأمير (حوالي سنة ٨٣٨م)، وصل سفير من القسطنطينية بهدف عقد تحالف ضد الخليفة في المشرق، وحث عبد الرحمن لشن حملة على الشام. بيد أن الخليفة رفض بشدة هذا العرض، وعقد معاهدة مع امبراطور الروم، وأرسل الغزالي، وهو فيلسوف وشاعر مشهور كسفير له إلى القسطنطينية (كاردون، ص ٢٧٢). إن هذا الأمر لهو دليل قوي على أن الفلسفة كانت قد لقيت بعض النجاح في الأندلس قبل إقامة علاقات سياسية بين القسطنطينية

وقرطبة. كما يتبين أنه لم تكن تعترض العلاقات مع المشرق عوائق كثيرة، وبأن الفنانين كانوا يقدمون من هناك إلى الأندلس، إذ نجد أن زرياب الموسيقي الشهير الذي دعي من فارس، كان قد جاء في حوالي ذلك الوقت واستقر في قرطبة.

وتوفى عبد الرحمن في عام ٨٥٢م، ونقل حبه للأدب إلى ذريته، فقد كان ابنه وحفيده مغرمين ومقدرين للمعرفة والأدب. وقد دام حكم الأول واحداً وثلاثين عاماً، وكان يعرف بأنه خليفة ممتاز. إلا أن من سوء طالعه أنه عاش ليرى معظم مدنه في اضطرابات وفتن، وانتهز الإسبان كل فرصة من اضطراباته الداخلية، وكان الخليفة العباسي يدعو علناً في الجوامع لإثارة الاضطرابات في المدن، وقبل وفاته بقليل، اقتصرت سلطته على نطاق ضيق من عاصمته.

وخلافاً لمسيرة الخلافة المعهودة، تبوأ ابن أخيه عبد الرحمن الثالث الخلافة في ٩١٢م (٣٠٠هـ) وأعاد الخلافة التي كادت تنقرض إلى ازدهارها السابق، ووسع رقعة أراضيه، وقضى على روح الثورة التي سادت لفترة طويلة بين أتباعه بحزم، وتمكن من التوفيق بينهم بفضل إدارته الحكيمة، وعمل على إشاعة الطمأنينة التي استعادها لبلده عن طريق رعايته للعلم بحرية.

كنا قد تحدثنا في مكان سابق عن دخول المعرفة اليونانية إلى العرب في المشرق. ويجدر التذكير هنا أن بعض فروع المعرفة التي كانت قد ترعرت باجتهاد كبير قبل تبوؤ المأمون الخلافة في سنة ٨١٣م. ومنذ ذلك الحين، وحتى عهد عبد الرحمن الثالث في الأندلس، مضى قرن استمرت فيه العلوم في المشرق بالتقدم بسرعة برعاية الخلفاء في المشرق، وإذا تبين أن الحروب الدموية التي كانوا يدخلون فيها باستمرار مع الأباطرة الرومان لم توقف جميع العلاقات الودية بين الشعوب المتصارعة، فإنها كذلك لم تمنع العرب المسلمين من اكتساب العلم من أعداء دينهم لذا يصعب الافتراض بأن العداوة السياسية بين بني العباس وبني أمية قد أعاقتالتواصل بين أناس توحدهم عقيدة وعادات ولغة واحدة، كما تعوق روح العلم الحرة التي سادت آنئذ الأقاليم المشرقية، من إيجاد طريقها إلى الأندلس، سواء مباشرة من بغداد أو من البحر من مصر أو أفريقيا.

كما يمكن الملاحظة أنه تمت معظم الترجمات عن المؤلفين الأطباء اليونانيين في بغداد في الفترة التي نتحدث عنها، وأن ماسويه وحنين وسرافيون والرازي بالإضافة إلى عدد آخر من الأطباء الآخرين الذين ضاعت أعمالهم، كانوا من الشخصيات البارزة جداً في المشرق. لذلك فإن احتمال ألا يكون المؤلفون في المشرق معروفين في الأندلس، يدعو للإفتراض وهو أمر مناقض لروح التاريخ، بأنه لم يكن هناك اتصال أو تبادل للخبرات بين العرب المسلمين في الأندلس وأفريقيا ومصر أو أي جزء آخر من مناطق الخلافة العباسية، وأن مختلف رعايا الخلافتين لم يجتمعوا قط في مكة، أو في الموانى التابعة للامبرطورية الرومانية التي كانت منفتحة على الأندلس، والتي لا يبدو أنها أغلقت في جميع العهود أمام تجار الخلافة في المشرق. إلا أنه ثمة شيئاً من الشك بأن الأندلس كانت تصدر منتجاتها الغنية في أوائل القرن التاسع، وكانت تحصل على سلع كمالية من المشرق. ولذلك فإنه يصعب القول إن رجال العلم والمعرفة في الأندلس لم يكونوا على اطلاع تام بما كان يجري في بغداد. وإذا أحرزت العلوم والتجارة تقدماً

بطيئاً في الأندلس، بشكل يتناسب مع ماحدث خلال الفترة نفسها في المشرق، وأنه ينبغي أن تعزى إلى أسباب لاتمت إلى العداوة مع لعباسيين بصلة.

يمكن الحصول على فكرة عن حالة الثراء والازدهار في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث من الرواية التي قدمها المؤلفون العرب، عن الهدايا التي قدمها له أحد الوزراء في حوالي سنة ٩٣٨م، وعن الاستقبال العظيم للسفير البيزنطي الذي أرسل لحث الخليفة على شن حرب ضد الشام (كاردون، ص٣٢٠). إذ يوجد في قائمة الهدايا، بالإضافة إلى خشب الصندل والعنبر والكافور السجاد العجمي وبعض مصنوعات بغداد التي تبين بوضوح أن التجارة بين الأندلس والامبراطورية المشرقية كانت في أوج ذروتها. ورغم أن الكثير من ذلك قد يعزى إلى الفترات الطويلة من حالات الهدوء والسكينة خلال فترة نصف قرن، فليس ثمة سبب يدعو للظن بأن التجارة قد ازدادت بهذه السرعة، ووصلت إلى ذلك المستوى على مدى ثلاثين عاماً، أو أنها لم تبدأ قبل تسلم عبد الرحمن العرش.

لعل قصر ومدينة الزهراء الجديدة التي شيدها الخليفة تعتبر مثالاً على عظمة العرب المسلمين في الأندلس في حوالي منتصف القرن العاشر (كاردون، ص٣٣). ويبدو ان القصر قد بناه مهندس بيزنطي، إذ أرسل امبراطور بيزنطة مئة وأربعين عموداً من المرمر كهدية، كما كانت تزيينات أخرى من المرمر قد شُغلت في القسطنطينية (كاردون، ص٣٣٣).

إن العلاقات التي تكاد تكون دائمة بين الأندلس وتلك العاصمة، جعلتني أظن في البداية أن العرب المسلمون في الأندلس قد اكتسبوا الطب مباشرة من بيزنطة؛ إلا أن الأمر الأكثر احتمالاً، هو أنهم اطلعوا على المؤلفين اليونانيين أولاً عن طريق الترجمات المشرقية.

كما ذكرنا فقد كان عبد الرحمن الثالث قد تبوأ الخلافة في سنة ٩١٢م، وحصل على لقب أمير المؤمنين، وكان مقتصراً على الخلفاء العباسيين. وبعد حكم مزدهر دام خمسين عاماً، سلم مملكته وهي تتمتع بالسكينة والسلام والازدهار إلى ابنه الحكم. ويبدو أنه نقل حب الأدب إلى جميع أولاده.

وتولى بعده الحكم رجل حكم خمسة عشر عاماً من الإزدهار السلام، ويمكن القول بأن المأمون أحد خلفاء الأندلس، قد رفع الأدب في الأندلس إلى درجة رفيعة أكثر من قبل.

وخلف الخليفة الحكم في عام ٩٧٦م، ابنه الذي يحمل نفس الاسم، الذي ترك إدارة الشؤون العامة إلى وزرائه، وقضى حياة ماجنة في وسط الملذات. إلا أن الوزير المنصور الذي حكم بشكل مطلق لمدة ستة وعشرين عاماً تقريباً، شن حروباً ناجحة ضد الأسبان، إلا أن الفوائد التي كان قد جناها ضاعت بسبب سوء إدارة ابنه عبد الملك، الذي خلفه، والذي توفى في سنة ١٠٠٦م، ومنذ تلك الفترة امتلأ تاريخ الأندلس بالانشقاقات والاضطرابات الأهلية. وفي سنة ١٠٣٨م انتهى حكم بني معاوية في الأندلس عند شخص المعتمد، آخر خليفة من تلك السلالة (كوردون، المجلد١، ص٣٧٥).

وعند إلغاء الخلافة، أنشأ الولاة المتعددون في المدن الرئيسية دويلات مستقلة، وأطلقوا على أنفسهم لقب الملك، وضعفت الأندلس في خضم هذه الفوضى نتيجة انقسام المصالح، وظلم الطغاة الصغار، والانغماس في حروب أهلية، والدسائس، وغزوات القوات الأسبانية المجاورة، وراحت تستجدي أخيراً مساعدة البربر في أفريقيا. ودعي يوسف ابن تاشفين، ثاني أمراء أسرة المرابطين، الذي نجح في ١٠٦٩ وشيد مدينة مراكش، لتقديم يد المساعدة إلى الأندلس، وحقق انتصاراً كبيراً على ألفونسو أوف ليون (Alfonso of Leon) في سنة ١٠٨٧. إلا أن ذاك الأمير الطموح، الذي استغل الفرصة، استولى في عام ١٠٩١ على الأراضي التي جاء لحمايتها كصديق، وضم الأندلس إلى الأراضي التي استولى عليها؛ وفي الوقت نفسه، لطخ شرفه بخرق المعاهدة ومعاملته البربرية لابن عباد وأسرته، ذلك الأمير السيء الطالع الذي وثق بشرفه (كوردون، المجلد٢، ص١٥٥ و ١٥٣ و٢٠٣).

من النبذة أعلاه عن تاريخ العرب المسلمين، خلال الفترة الفاصلة بين موت الحكم وابن عباد في ١٠٩٦، التي بلغت ١٢٠ عاماً، يمكن الاعتقاد بأن العلوم لا بد وأن تكون قد ذوت وتلاشت؛ غير أن تأريخ الأخبار للأندلس تظهر العكس. إذ أن الروح التي بثها عبد الرحمن والحكم ارتقت إلى أعلى من مستوى اضطرابات ذلك الزمن. واشتهر بنو عباد (حسب Casiri) بشكل خاص بحب الأدب، ووجد آخر أمراء تلك السلالة، خلال سجنه المؤلم لمدة ست سنوات قبل موته، عزاء في الشعر بوصف أهوال سجنه تحت الأرض، وسجل في شعر رائع بؤس عقل مرهف، انحدر من العظمة والأبهة إلى أحط درجات البؤس الإنساني. ويمكن أن نذكر في نهاية بحثنا حول الطب، أن الزهراوي اشتهر خلال تلك الفترة لأنه توفى في سنة ١١٠٦، ولابد أن يكون ابن زهر، الذي ولد في حوالي ١٠٢٧، قد أصبح شخصية مرموقة في ذلك الوقت، وبما أن ابن زهر عاش حياة مديدة، فقد قال: إنه ينتمي كذلك إلى القرن الثاني عشر.

يعتبر الزهراوي واحداً من أقدم الأطباء المؤلفين العرب المسلمين في الأندلس الذي وصلتنا أعماله فيوقتنا هذا.

خلف بن عباس أبو القاسم الزهراوي

إن الزهراوي الذي يطلق عليه باللاتينية أسماء مختلفة منها Buchasis و Absarabius و Azaragi وما إلى هنالك، كان من مواطني قرطبة حيث مارس الطب والجراحة بنجاح كبيرين وتوفى في سنة ١١٠٦ (٥٠٠هـ) كما يبدو من المخطوطة المحفوظة في مكتبة اسكوريال.

وقد حظيت أعماله الطبية والجراحية بمكانة مرموقة، إلا أنها لم تترجم إلى اللاتينية إلا في القرن السادس عشر.

وقد يعثر على رواية (كاملة تقريباً) عن الزهراوي في تاريخ الدكتور فريند (ص١٢٣)، حيث يبدي ملاحظة على أسلوب محرري المؤلفين العرب. وتقدم الطبعة الأخيرة عن الزهراوي باللغتين العربية واللاتينية من مطبعة Clarendon بواسطة السيد تشانينغ نموذجاً جيداً عن الجراحة العربية.

أبو مروان بن عبد الملك بن زهر

عنوان كتابه: التيسير

كما يبدو من إحدى الخطوطات في الاسكوريال فقد توفى ابن زهر في حوالي سنة ١١٦٢، وإذا صح القول بأنه عاش حتى عمر يناهز ١٣٥، (فريند، مجلد٢، ص ٧٢)، وأنه بدأ مزاولة الطب وهو في حداثة سنه، فلا بد أن يكون قد برز في القرن الحادي عشر، وأن يكون قد ولد قبل موت ابن سينا بثماني أو تسع سنوات. ويحدد ليو وفاته في سنة ١١٩٧ (هوتينغ، Bib، ص٢٧١) أي قبل عشر سنوات من وفاة ابن رشد، إلا أن ذلك خطأ واضح، وذلك لأن ابن رشد يتحدث عن أبناء ابن زهر على أنهم من معارفه، إلا أنه لم يذكر أن الأب كان من معاصريه، وهو يتكلم عنه دائماً باحترام كبير.

ويقدم الدكتور فريند رواية كاملة عن ابن زهر أكثر من أي كاتب عربي آخر، ويظن بأنه كاتب أصلي (التاريخ، ص٧٤، ص١١٤). ويذكر كذلك أن ترجمة أعماله، وجميع المؤلفين العرب، سيئة جداً وبالفعل فإن الكثير من الفقرات في أعماله وفي أعمال ابن رشد لاتكاد تفهم. إذ أن الفقرة التي يذكر فيها ابن رشد عن عصر ابن زهر العظيم (في طبعة ١٤٩٠، ص٣١) يمكن فهمهما بصعوبة إلا إذا قورنت مع الفقرة المماثلة في الطبعة الأخرى (١٥٤٢). وقد توفى ابن زهر في إشبيلية حسب ماورد في فهرس الإسكوريال، الذي ينبغي الاعتماد عليه أكثر من سندليو، الذي يقول إنه توفى في مراكش.

أبو علي زهر ابن عبد الملك بن زهر

يبدو أن أبا علي بن زهر هو أحد أبناء ابن زهر، وشهرة ابن زهر التي نسبها Vander Linden و Mangetus إلى مبحث De Curatione Lapidis ، لأنه في الترجمة التي يشير إليها الاثنان، يدعى . Abuale zor Filius وكان أبو علي هذا ثاني ملوك مراكش، وخلف أباه يوسف (مؤسس المدينة) في سنة ١١٠٦، وتوفى في حوالي سنة ١١٣٤.

يذكر ليو الإفريقي اثنين باسم زهر، غير أن التأريخ مشوش كما أن ما يقوله لا يوضح الأمور كثيراً. فالأول وهو ابن زهر، كان حسب ما يقول، طبيب يوسف بن تاشفين، ومات عن عمر يناهز الثانية والتسعين سنة ٥٦٤ هـ – ١١٦٨ م. ومات يوسف بن تاشفين في سنة ١١٠٦م، عندما كان ابن زهر هذا لايتجاوز الثلاثين من العمر، وهو عمرمبكر ليكون في مثل هذه المكانة. إلا أنه إذا كان ابن زهر الذي لا تزال توجد أعماله هو المعني هنا، وهو الأمر الأكثر احتمالاً، فإن خطأ ليو يكمن في إعطائه اثنتين وتسعين سنة، بدلاً من مئة وأربعين سنة من العمر التي أعطاه إياها ابن زهر؛ وعلى أية حال، فإن ابن زهر لا بد أن يكون في التاسعة والسبعي عندما مات يوسف بن تاشفين، ويمكن أن يكون طبيباً له.

أما ابن زهر الآخر الذي ذكره ليو، على أنه ابن السابق، فإذا كان ابن زهر، فيجب أن يكون قد ولد عندما كان أبوه يبلغ مائة وست عشرة سنة من العمر أي في عام ١١٤٣م، وكخلف ليوسف بن تاشفين توفي علي في تلك الفترة، ولا بد أن يكون ابن زهر هذا هو الأخ الأصغر لأبي علي، الذي أهدى أحد مباحثه، كما ذكرنا للأمير.

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد

توفى ابن رشد في حوالي سنة ١١٩٨ م في مراكش؛ أو حسب ما ذكر ليو، بعد ثماني سنوات. وقد تميز بشكل رئيسي بترجمته وتفسيره لأرسطو. وإن أهم أعماله الطبية المترجمة مصنف كبير شامل عنوانه 'الكليات في الطب' بالإضافة إلى مباحث أخرى عديدة مترجمة. ويرد في فهرس الاسكوريال (المجلد١، ص٢٩٩) دليل عن كتبه التي يبلغ مجمل عددها ثمانية وسبعين. ولم يترجم العديد من أعماله.

يقدم ليو الأفريقي عرضاً طويلاً عن هذا المؤلف (هوتينغر، ص٢٧)، الذي يحدد وفاته في سنة ١٢٠٦ (٦٠٣ هجرية)، إلا أنه يمكن ملاحظة منافاة زمانية في المؤلفين اللذين يذكرهم فاندر ليندن، بل إنه يذكر أنه كان معاصراً لابن سينا، الذي توفى قبله بمئة وستين سنة على الأقل.

يمكن الإطلاع على الطبعات اللاتينية لأعماله الطبية في فاندر ليندن ..الخ، وثمة مخطوطات عديدة من تأليفه محفوظة في مختلف المكتبات، ولاسيما في فيينا، والعديد منها إما ترجمات عبرية عن العربية أو عربية مدونة بأحرف عبرية.

موسى بن ميمون الإسرائيلي

من مواطني قرطبة وتوفى في القاهرة في سنة ١٢٠٨ (٦٠٥ هجرية). وتورد مخطوطة تاريخ الفلاسفة (ص٤٩٠) رواية عن حياته التي ترجمها Casiri (مكتبة الإسكوريال، المجلد الأول، ص٢٩٣). انظر أيضاً ليو وهوتنغير (ص٢٨٨). وف فاندر ليندن، يذكر المؤرخون هو وابن رشد في وقت مبكر جداً.

عبد الله بن أحمد ضياء الدين ابن البيطار الأندلسي

ولد ابن البيطار في مالقة بالأندلس، وتوفى في دمشق في سنة ١٢٤٨م. ويصحح كاسيري خطأ ليو الأفريقي الذي يحدد وفاة البيطار في سنة ١١٩٧.

ويحوي فهرس الاسكوريال (المجلد١، ص٢٧٧) رواية عن حياته مستمدة من تاريخ أبي الفداء، وقدم كاسيري ترجمة عن مقدمة ابن البيطار، تظهر فيها الجهود الكبيرة التي بذلها المؤلف في عمله.

إن مخطوطات أعمال هذا الكاتب معروفة في كل من أوروبا والمشرق، وهي لم تترجم أبداً. ويذكر كاسيري أن تورنسورت يأتي على ذكر ترجمة للبيطار على يد غالاند، إلا أنه يلاحظ أنه لا يوجد مثل هذا العمل في فهرس باريس، وأنه حسب معرفته، لم تطبع أبداً. ويبدي أسفه في الوقت نفسه لأنه لا يعرف سوى القليل عن عمل قيم كهذا في أوروبا بسبب عدم ترجمته، ويحظى عمله بأهمية كبيرة في المشرق.

بعد أن تعرفنا (كما أعتقد) على أهم الأطباء العرب الذين ألفوا قبل القرن الخامس عشر، والذين توجد أعمالهم في سورية وموجودة في المكتبات الأوربية، حان الوقت لكي نختتم عرضاً أسهبنا فيه طويلاً. وهو بالتأكيد أمر لم يكن في نيتي أن أحاول التصدي له لأن هذا العمل فوق طاقتي بكثير، ولكني كنت أهدف لإعطاء فهرس كامل عن المؤلفين العرب في الطب.

مسرد

نورد فيما يلي شرحاً لبعض التعابير والمصطلحات التي وردت في النص:

القاقوم أو القاقم: حيوان ببلاد الترك على شكل فأرة، إلا أنه يأكل الفأرة، والكلمة غير عربية.

القرق أو القرقذان والقرقذون: السنجاب (وهي كلمة عامية). وكان أهل حلب يستخدمون فرو القرق في لباسهم.

قرية الحبل: ضاحية تقع جنوب حلب في منطقة خارج باب النيرب والمقامات، احترف أهلها صناعة الحبال.

المست: الخف (فارسية):لباس جلدي يمسك بالقدم وجزء من الساق كالجورب الطويل (فوق الركبة) يستخدم عند ركوب الخيل.

الشخشور أو الجخجور: تحريف خاشغور من 'خاش'بمعنى جنس بالفارسية و'غور' أي جميل بالهندية، وهو قماش أحمر غالي كانوا يصنعون منه السراويل "فخمة، ويطلق عليه أهل حلب أحياناً اسم'الجنتان'.

القرطاق أو القُرطَق: ثوب يلبس فوق الثياب معروف عند المولدين 'بالقمباز' ذو طاق واحد (قماش غير مبطن) وأصل الكلمة كرتة (فارسية) يصنع من نسيج قماشي أو من قماش خاص يسمى الشالون.

القاووق (ج. قواويق): في التركية قاوق وقاغوق وقاووق، ويظن أنها من الكلمة التركية قوف أو قاو بمعنى أجوف، قلنسوة عالية يلف حولها شاش كان الترك يغطون بها رؤوسهم قبل قبولهم الطربوش غطاء للرأس، وكان لكل طائفة من رجال الدولة طراز خاص من القواويق: فقواويق للوزراء وقواويق لمشايخ الاسلام.

الفراجي (أو الفرجية): رداء للمولدين يلبس فوق الثياب، وهو نوع من الغطاء للنساء، والروج هو قميص أو قباء شقّ من خلفه يلبس للصغار.

البليسية: قماش مكسر بالكي (كلمة فرنسية).

الموسلين أو الموصلينا (الفوال): قماش رقيق جداً من القطن أو الحرير ينسب إلى مدينة الموصل بالعراق.

الدولمان (أو الضولماية أو الضلمة): في التركية طولامة وهي لباس قديم مفتوح من أمام يشبه الجبة كان يصنع من الجوخ ويلبسه الرجال والنساء وتضم حاشيتا الفتحة فوق الصدر، والكمان واسعان متموجان

ونصف الضلمة الأعلى ضيق ونصفها الأسفل واسع، والضلمة النسائية تتجاوز الركبة قليلاً إلى أسفل، أما الضلمة التي كان يلبسها الانكشارية فهي طويلة ويشد وسطها حزام مخطط. وكان الانكشارية يلبسون فوقها القبوط أو معطف المطر.

الدوكات أو الدوقات: عملة ذهبية أوروبية.

إثمد وإثميد: حجر أسود سريع التفتيت يكتحل به، ولفتاته بريق ولمعان ويكون على شكل صفائح باطنها أملس ويدخل في تركيبه الرصاص.

أنتيمون: ركاز الرصاص (فلز) يتحول بالتسخين (بدرجة حرارة عالية) إلى الرصاص الخالص.

جبل الشيخ بركات: جبل غربي حلب قرب قرية دارة عزة (جنوب قلعة سمعان).

قنسرين: قرية العيس حالياً (جنوب غربي حلب)، كانت حاضرة هامة زمن الرشيد الذي جمعها مع ثغور الجزيرة، وسمى ما جمع اختزالاً (بالعواصم) يمر بها نهر قويق أيضاً لمسافة ٢٠ ميلاً.

الهندباء أو الهندبا: بقل، وهو صنف بري ومزروع، والمزروع صنفان، أحدهما قريب الشبه من الخس عريض الأوراق (وهو ماكان يستخدم في لف الأرز واللحم ليصبح 'محشي' كما ورق العنب) والصنف المزروع الآخر أرق ورقاً وفي طعمه مرارة، وهو الشائع في وقتنا الراهن.

المدر: ملاط طيني خال من الرمل، تربط به الحجارة في عملية البناء، أو أنه قطع من طين يابس يستخدم للبناء. وهي كلمة يوصف بها الحضر (المدن والقرى).

الشيدود (الجدود): مركب مزيج على هيئة مرهم مؤلف من خل وفلفل وجوز الطيب بالإضافة إلى مكونات حارة وعسل يدهن به بطن المرأة التي ولدت حديثاً (في الحمام) إلى أن يعود جلدها مشدوداً كما كان قبل الحمل.

بلاو أو بلَو: حلة أو طنجرة بلغة البدو، يطبخ فيها الأرز مع الزبدة أو السمنة، وتطلق الكلمة ذاتها أحياناً على الأرز المطبوخ (بالبلَو).

التخت: المقعد من الخشب أو غيره، يرفع عليه السرير عن الأرض (كلمة معربة عن الفارسية أصلها تختة ومعناها الخشب).

التختروان: من الفارسية (تخت) بمعنى سرير و (روان): السائر والمتحرك وهو عبارة عن هودج أو محفة يحملها جملان أو حصانان من أمام وجملان أو حصانان من خلف، يركبه العلية من الرجال والنساء.

المنقلة: خشبة مستطيلة يحفر فيها أربعة عشر بيتاً في كل جانب سبعة. ويجعل في كل بيت سبع حصاً، وهي لعبة للتسلية (جمع مناقل).

الناردين (أو النردين): السنبل الرومي (معربة) أصلها نَردُس (باليونانية) وهو عشب عطري يصار منه مسحوق يرش على جسد الميت.

الطلسم: العلامات أو الرموز التي تنقش على المباني أو التحف كتعويذات ترد الشر وعين الحسود.

طب ودك أو طاب ودكّ: لعبة للتسلية على النحو التالي: لوحة مقسمة إلى ٢١ بيتاً على أربعة أسطر، ولها أحجار سود وأبيض، يصف كل من اللاعبين أحجاره في أول صف ثم ينقلها حسب مايأتي به الرشق، الذي يكون بأربع فلقات من القصب ظهرها ملون بخلاف بطنها، تدل برشقها على قنينة على عدد الظهور والبواطن، وعلى أساسها يسيّرون أحجارهم.

السكوين: قطع نقدية تركية (أو إيطالية)قديمة، أو هو كذلك الترتر (أو البرق)= صفائح مستديرة معدنية لماعة (ولها عدة ألوان) يزين بها الملابس النسوية.

الخازوق: من التركية (قازيق) أي الوتد وهوعمود مدبب يستعمل حسب القانون العثماني لتنفيذ عقوبة الإعدام بالمجرم بان يدخل في مؤخرته ويضغط عليه حتى يخرج من فمه أو من كتفه أو من رأسه.

الصالصة: من التركية عن الفارسية : مرق الطعام.

الكتخدا والكيخيا: من الفارسية كدخدا، والكلمة الفارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت و (خدا) بمعنى الرب والصاحب فالكتخدا في الأصل هو رب البيت، ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك، ويطلقها الترك على الموظف المسؤول والوكيل المعتمد والأمين. أما الكيخيا فنحتها الترك نحتاً مرتجلاً من كتخدا .

اللاوند: أطلقت هذه التسمية في الأصل على البحارة تحريفاً لكلمة (ليفانتينو– Levantino) التي أطلقها البنادقة على سكان الشرق من كلمة Levant أي الشرق، الذين استخدموا في أسطولهم. وأطلق العثمانيون على بحارتهم الأوائل تسمية لاوند التي أخذوها عن البنادقة. وعندما تمرد هؤلاء البحارة من اللاوند وسرحوا واستبدلوا بآخرين، أطلقت الكلمة على المتمردين ثم عرف بها المرتزقة الذين باعوا خدماتهم.

الدالاتية: في التركية دليلر (Deliler) جمع دلي أي المجنون، وكلمة دليلر التركية التي معناها المجانين تحريف لكلمة دليلر،

وهذه الكلمة الأخيرة هي الجمع التركي للكلمة العربية دليل بإضافة علامة الجمع التركية لر: وهم طائفة من الخيالة الخفيفة أقيمت في الروملي (الجزء الأوروبي من الدولة العثمانية) في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، لتعمل في مقدمة الجيوش العثمانية. ولما كان جنود الطلائع هؤلاء من الجسارة بحيث يحملون أنفسهم على الأعداء لايبالون الموت ليمهدوا الطريق للجيش فقد حرف اسمهم دليللر أي الأدلاء ليصبح دليلر أي المجانين، ولم يكن هؤلاء الفرسان من الترك فقط، ولكن كان منهم البشناق (نسبة إلى البوسنة) والكروات والصرب. وكان سلاحهم الرئيسي هو السيوف الصغيرة. وعُرف قائدهم بـ 'دالي باشي'.

التفنكجية أطلقت هذه التسمية على صنف من الجنود المرتزقة أغلبهم من مشاة مسلحون بالبنادق. ولقد اشتقت التسمية من كلمة'التفنك' أو 'توفنك' أي البندقية التي تطلق الرصاص، والتفنكجي في التركية هو صانع البندقية ومصلحها إذا عطبت، وكان يقودهم 'التفنكجي باشي'.

الدرام أو الدرهم جزء من وزن كان يستعمل قديماً يساوي ١٧٧ر١ غراماً أو ٢٧ر٣٤٣ حبة .

الكيرمازوت قماش مصنوع من الحرير والقطن، بعضه ساده وبعضه الآخر مزهر، وهو باهظ الثمن.

اليخني من التركية عن الفارسية: يخَني: الطبيخ، الخضار اليابسة تطهى مع اللحم، ويغلب أن يطبخوه من البصل والحمص ولحم الدجاج والبندورة .

الأرجيلة أو النرجيلة هي في الفارسية (ناركيل) أي (جوزة الهند) دخلت التركية بصيغة (ناركل) و (ناركله) وتطلق في الفارسية والتركية والعربية على الوعاء الشبيه بجوزة الهند الذي تثبت به أنبوبة معدنية وأخرى من الغاب، والمستعمل في تدخين التبغ وغيره.

الأغا تركية من المصدر أغمق، ومعناه الكبر وتقدم السن، وقيل: إنها من الكلمة الفارسية 'أقا' وهي تطلق في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف الحرملك.

أفندي من الكلمة اليونانية العامية أفنديس واستعملها العثمانيون لقباً للرجل الذي يقرأ ويكتب ولقباً لبعض كبار الموظفين:

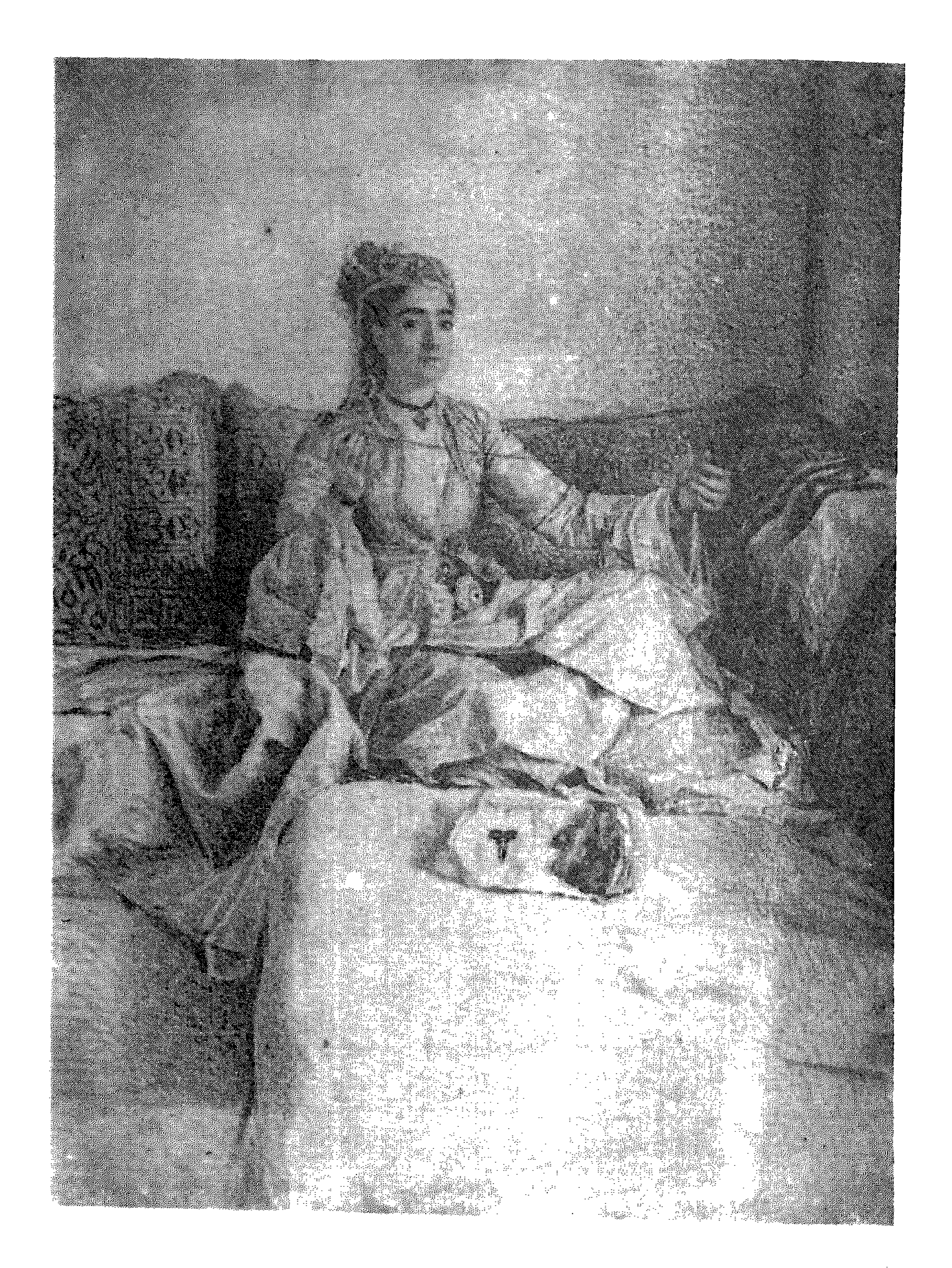
	فقد كان يقال لرئيس الكتاب (رئيس أفندي) وكان لقباً للأمراء أولاد السلاطين كما أطلقت على مشايخ الإسلام.
الإنكشارية	كلمة تركية من الكلمتين:(١) يكي بمعنى جديد (٢) جري بمعنى العسكر، يكيجري = العسكر الجديد، وهم جيش من المشاة، أنشيء في عهد السلطان العثماني أورخان (١٣٢٦) كانت نواته من أهل الفتوة في الأناضول، ثم اعتمد على أبناء نصارى البلقان بعد تتريكهم وتنشئتهم على الإسلام. وكان جنوده عزاباً، ثم سمح لهم في عهد السلطان سليم الأول بالزواج بشرط كبر السن، ثم أطلق حق الزواج. جرى هذا الجيش على سنة أرباب الحرف في اختيار شيخ لكل طائفة، وكان شيخه هو الصوفي التركي الحاج بكتاش ولي.
البابوج	من الفارسية بابوش، (با) وتعني الرجل و (بوش) وتعني لباس أو غطاء: ج: بوابيج، وهو نوع من النعال.
الباشا	كلمة تركية مازال أصلها الإشتقاقي خلافياً فقيل إنها من (باش أغا) أي رئيس الأغوات، أو كبير الخصيان، وقيل إنها من الكلمة الفارسية (بادشاه)، وقيل إنها من (باش) بمعنى الرأس أو الرئيس.
السردار	من الفارسية سر بمعنى الرأس ودار بمعنى صاحب والسردار القائد. وكان في الدولة العثمانية سردارية صغار: فقد كان أغا الإنكشارية يعين سردارات يقومون بأمور الضبط والربط في المراكز الصغيرة، وكان يقال للواحد منهم: (سردار الإنكشارية).

وردت المقاييس والأوزان التالية في أماكن مختلفة من النص:

المكوك	مكيال للحبوب (على شكل طاس) يسع صاعاً ونصف، أو نصف رطل إلى ثمان أوقيات (جمعها مكاكيك) ويساوي المكوك ٢,٥ كنتال.
الكنتال	١٠٠٠ روتالو، والروتالو= ٥ باوند (مقياس إنكليزي للوزن ويقال الرطل الإنكليزي = ٤٥٣ غ.
الإنش	٥٤ر٢ سم
القدم	٤٨ر٣٠ سم
الياردة	٤٤ر٩١ سم
الميل	٦٠٩٣٤ر١كم
الدرام أو الدرهم	٧٧٢ر١ غرام
الباوند	٤٥٣٦ر٠ كغ



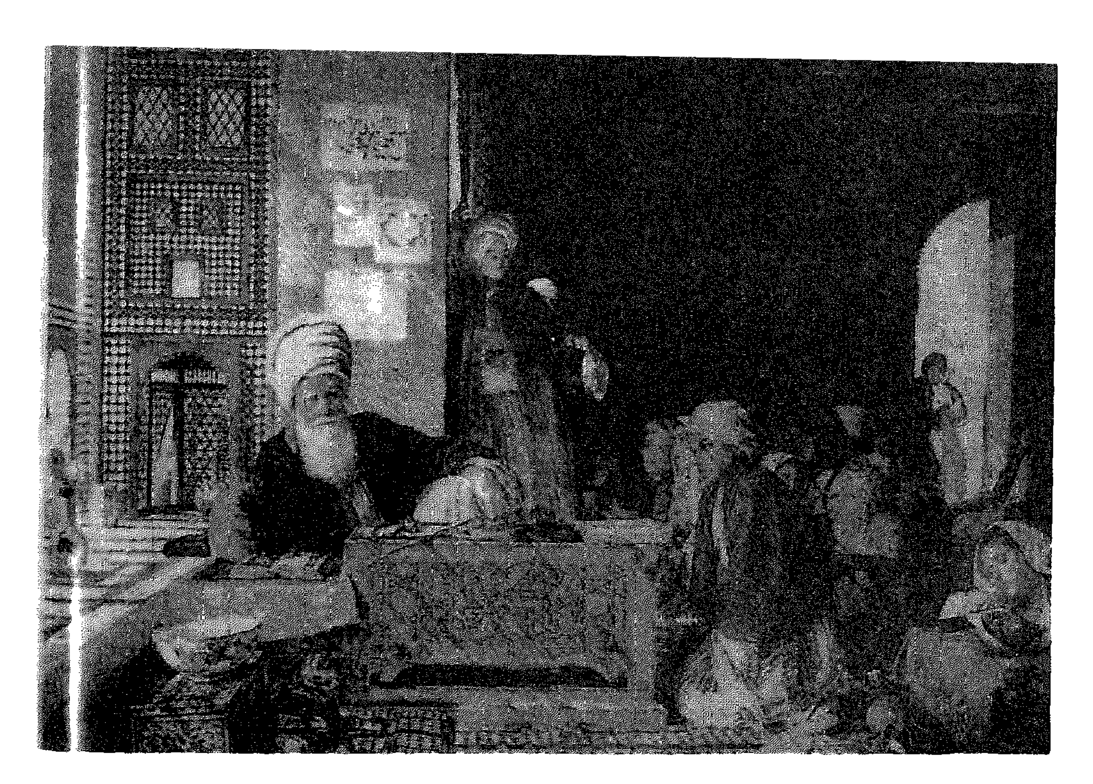
بائع الفوانيس



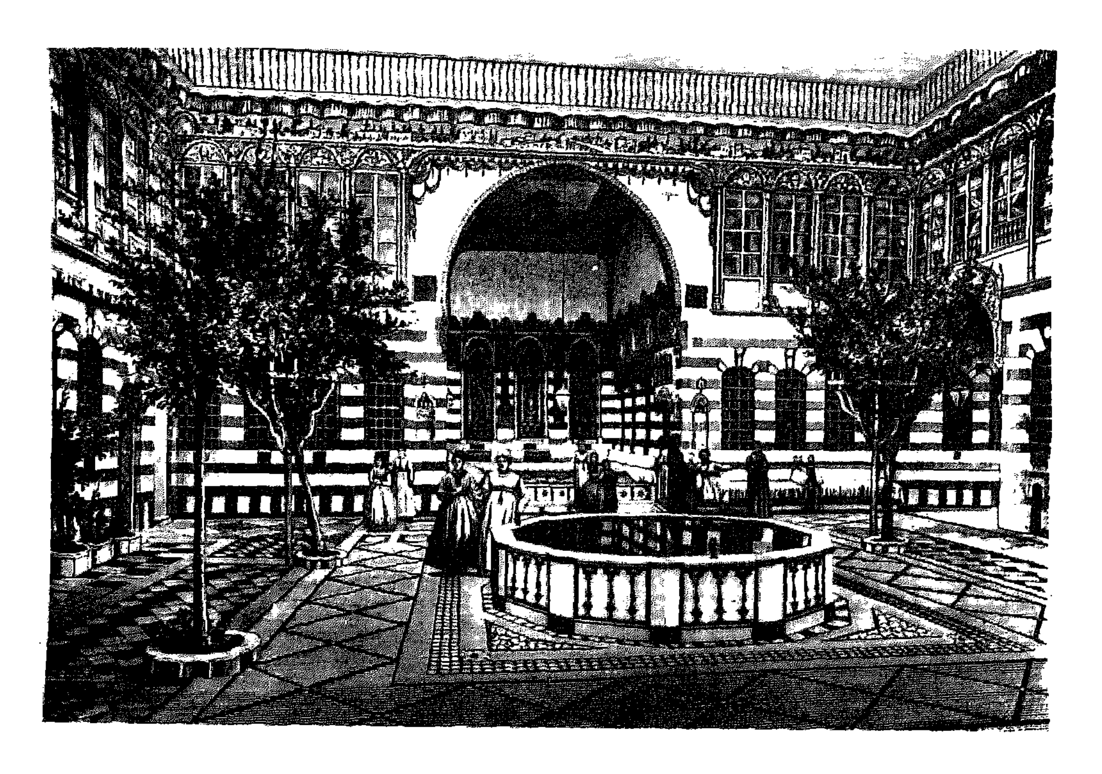
'صبية تجلس على الأريكة' لوحة للفنان J.E. Liotard من القرن الثامن عشر.



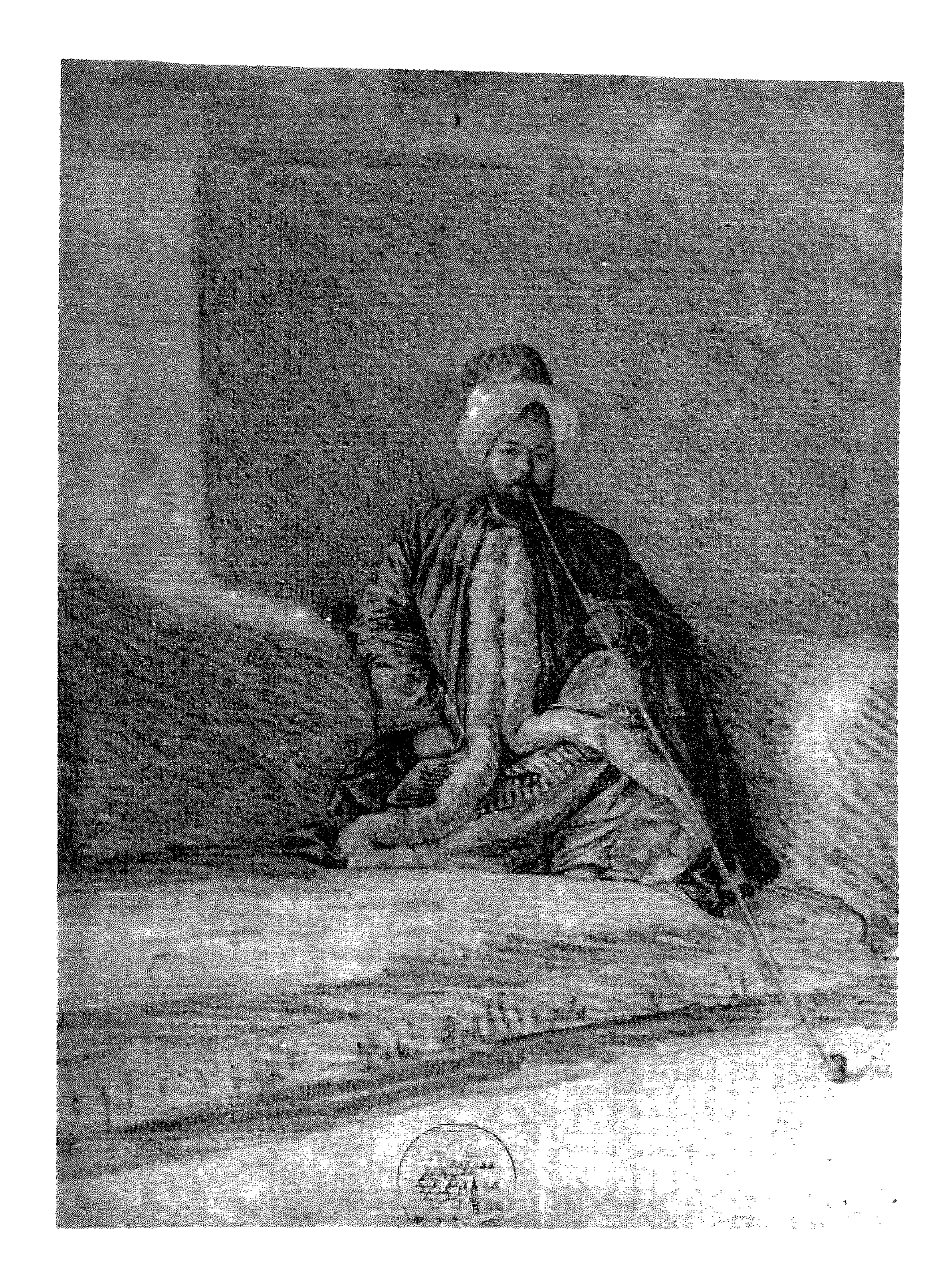
'سيدة وخادمتها في الحمام' للفنان السويسري J.E. Liotard حيث يظهر في خلف الصورة جرن الحمام وصنبور المياه. والخادمة الصغيرة تحمل في يدها وعاءً من الحنة لطلاء أصابع سيدتها التي تمسك القليان أو القصبة بإحدى يديها. وهما ترتديان **القبقاب العالي**.



الكتّاب حيث يتم تعليم الأطفال الصغار القراءة والكتابة وحفظ القرآن.



بيت حلبي تقليدي يظهر فيه الايوان والباحة وبركة المياه



أحد الأفندية يدخن القليان







هذا الكتاب

يعد كتاب *تاريخ حلب الطبيعي* للأخوين ألكسندر وباتريك راسل وثيقة هامة عن مدينة حلب في القرن الثامن عشر، التي يعتبرها دارسو المدن نموذجاً لمدن الشرق الأوسط في ذلك الوقت وتنبع أهمية هذا الكتاب من أن مؤلفيه كانا قد أقاما في مدينة حلب زهاء ثلاثين عاماً بصفتهما طبيبين، وسجلا مشاهداتهما وانطباعاتهما عن سكان المدينة بمختلف فئاتهم ومشاربهم، بالإضافة إلى رصدهما للحياة الطبيعية في المدينة والمناطق المجاورة لها، فتحدثا بتفصيل ودقة علمية متناهية عن عادات وطبائع أهلها بمختلف أديانهم وطوائفهم، فضلاً عن الأوربيين الذين كانوا يقيمون فيها، وعن المدينة وأزقتها وبيوتها وخاناتها وقلعتها وأبوابها وبساتينها والمحاصيل المزروعة فيها، بالإضافةإلى رصد دقيق عن الطيور والنباتات والأسماك التي كانت سائدة فيها آنذاك كما يقدم لنا الكتاب رصداً علمياً وهاماً عن الأحوال الجوية التي سادت المدينة طوال عشر سنوات وتسجيلاً دقيقاً عن الأمراض المتفشية فيها، ويصف أهم أعراض هذه الأمراض وطرق الإصابة بها وأساليب العلاج المتبعة آنذاك. ويفرد المؤلفان فصولاً كاملة عن الطاعون الذي كان يعصف بسكان المدينة.

إن كتاب *تاريخ حلب الطبيعي* وثيقة هامة عن هذه المدينة العريقة التي احتلت مكانة تجارية متميزة بحكم موقعها على مدى عصور طويلة، ويكفي القول إن جميع المستشرقين والدارسين الذين كتبوا عن هذه المدينة بل وحتى عن المدن السورية الأخرى عن هذه الفترة استندوا إلى هذا الكتاب وجعلوه مرجعهم الرئيسي لما يزخر به من معلومات لم يوردها أحد من قبل، لأنه أول عمل موسوعي هام يكتب عن هذه المدينة بهذه الدقة والموضوعية وبأسلوب علمي ومنهجي من قبل طبيبين، عاشا وتعايشا مع أهلها واختلطا بهم، فكتبا عنهم بشكل مباشر وليس كما فعل ويفعل بقية المستشرقين الذين يكتبون عن هذه المنطقة بوساطة السماع والنقل.